

نَفْسِ النَّوَى

مِنْ سُورَةِ هُودٍ إِلَى سُورَةِ النَّجْلِ

تَأْلِيفَ
الْشَّيْخِ مُحَسَّنِ قِرَاءَتٍ

الْجُلْدُ الرَّابِعُ

دَارُ الْمَوْخِ الْعَرَبِي
بَكْرِيَّة



مكتبة مؤمن قريش

لنر وضع إيمان أيّ طائفة في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لندرجح إيمانهم .
(الإمام الصادق (ع))

moamenquraish.blogspot.com

نَفْسِ النَّوَى

نَفْسِ النَّوَى

مِنْ سُورَةِ هُودٍ إِلَى سُورَةِ النَّجْلِ

تَأْلِيْفُ
السَّيِّخِ مُحَمَّدِ بْنِ قِرَاءَتٍ

مُطْبَعَةُ الدَّرَجَةِ
مُحَمَّدُ حَسَنُ زُرَّاقِطٌ

مُطْبَعَةُ
عَبَّاسِ بْنِ صَافِي

المجلد الرابع

دار المطبوعات العربية
ببغداد - لبنان

حُقوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

الطبعة الأولى

١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م



طبع هذا الكتاب بالتعاون مع
المركز الثقافي للدروس القرآنية

دار المورخ العربي



بيروت - حارة حريك - قرب جامع الحسين - فوق صيدلية دياب - ط ٢

تلفاكس: ٥٤١٤٣١ - ٠١ - هاتف: ٥٤٤٨٠٥ - ٠١ - ص ب: ١٢٤ / ٢٤

البريد الإلكتروني: al_mouarekh@hotmail.com

www.al-mouarekh.com



سُورَةُ هُودٍ

السورة: ١١ الجزء: ١١ - ١٢

عدد الآيات: ١٢٢



ملامح سورة هود

نزلت هذه السورة المباركة في الفترة الأخيرة من وجود النبي ﷺ في مكة، وهي الفترة التي عاش المسلمون فيها أوقاتاً عصيبة للغاية بسبب وفاة أبي طالب والسيدة خديجة الكبرى ﷺ.

روي عن النبي ﷺ قوله: «شِيبَتْنِي سُورَةُ هُود»^(١) وذلك لنزول آية الاستقامة فيها في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَغْنِمْ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾^(٢). وكانت قلّة صبر أصحاب النبي ﷺ تؤذيه وترعجه.

وتتناول سورة هود ﷻ التي تشتمل على (١٢٣) آية، سيرة الأنبياء لا سيّما النبي نوحاً ﷺ والمسائل العقائدية. ويُستفاد من دقّة تناول موضوع تأريخ الأنبياء أنّ حركتهم جميعاً تُمثّل حركة تاريخية مستمرة وليست حادثة عابرة؛ إذ إنّ تأريخ الأنبياء وأممهم وأقوامهم هو في الواقع تأريخ منظّم ودقيق يمكن من خلال دراسته استشفاف عوامل انحطاط الشعوب وازدهارها، إضافة إلى بيانه أنّ الدين ليس مُنفصلاً عن المجتمع بل إنّ مصير هذا الأخير ومآله مرتبط بالدين بشكل كامل وأساس.

وقد ذُكر اسم النبي هود ﷻ خمس مرّات في هذه السورة، وهو ما يُعادل تكرار هذا الاسم في سُور القرآن الكريم كلّها.

(١) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل؛ بحار الأنوار، ج ٩٢، ص ١٩٨.

(٢) سورة هود: الآية ١١٢.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كُنْتُ أُنَكِّتُ ءَابَائَكُمْ ثُمَّ فَضَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ ۝١﴾
 ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢﴾

إشارات:

□ يتألف القرآن الكريم من هذه الحروف الهجائية التي يعرفها الجميع، وقد أنزل الله سبحانه كتاباً مؤلفاً من هذه الحروف نفسها ومع ذلك عجز الإنسان عن الإتيان بمثله. وكما أنّ الإنسان قادر على صنْع الطوب والفتحار من التراب، فإنّ الله تعالى خلق من هذا التراب كذلك آلاف الأنواع من الزهور والنباتات والفاكهة والحيوانات، بل والإنسان نفسه. ونرى قدرة الله سبحانه في نظام التكوين، ويمكننا كذلك مشاهدة قدرته في كتاب التشريع.

□ القرآن الكريم كتاب مُحكم ومُفَصَّل في الوقت نفسه، فلا تناقض ولا تهافت فيه، وهو فصيح وبليغ، وعلى الرغم من أنّ آياته وسُورَه منفصلة بعضها عن بعض فإنّها مرتّبة ومتواصلة.

□ القرآن الكريم كتاب مُحكم يمتلك روحاً واحدة متميِّزة تتمثّل في التوحيد، وقصصه ومواعظه وأحكامه وآياته كلّها مُعدّة لبيان تلك الروح وتفسيرها وتوضيحها.

□ القرآن الكريم كتاب مُحكم، لم تطلّه يد التغيير أو التحريف إطلاقاً، وليس موضع شكٍّ أو ريب البتة. وهو لا يتخذ من الحدس أو الظنّ أو الافتراض مبدأً له، بل على العكس من ذلك؛ إذ إنّ جميع مواضيعه مُحكمة ومتينة.

التعاليم:

١ - القرآن الكريم كتاب مهمّ للغاية، ﴿رُكِّنْتُ﴾ التنكير والتنوين إشارة إلى عظّمته).

- ٢ - تشير ألفاظ القرآن الكريم وتعاييره إلى عظمته، ﴿إِنَّهُمْ﴾.
- ٣ - العناصر المؤلفة للقرآن الكريم محكمة ومتينة، ولا يمكن لأي شيء ضعفة أي جزء من أجزائه، بل إن التقدم العلمي يكشف في كل يوم عن أسرار هذا الكتاب وخفاياه، ﴿أُخِيتَ إِنَّهُمْ﴾.
- ٤ - لا بد من أن يكون القانون والكتاب مُحَكَّمَيْنِ وواضحَيْنِ، ﴿أُخِيتَ إِنَّهُمْ﴾. (القوانين الوضعية غير الإلهية إما أن تكون غير مُحَكَّمة أو غير واضحة، وإما أن المشرع لم يعمد إلى وضع القانون وفقاً لما تقتضيه الحكمة والمصلحة والوعي).
- ٥ - القرآن الكريم كتاب استدلالٍ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، مضافاً إلى أنه كتاب يجمع أبعاد الحياة الدنيوية والأخروية قاطبة، ﴿أُخِيتَ... ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾.
- ٦ - نزل القرآن الكريم بمجموعه على قلب النبي ﷺ ثم تم تفصيله في خلال ثلاث وعشرين سنة، ﴿أُخِيتَ... ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾.
- ٧ - كتاب الله محكم لأنه تعالى حكيم، وهو الخبير بكل شيء فجاء الكتاب مفضلاً لكل شيء، ﴿أُخِيتَ... ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.
- ٨ - تُعتبر الدعوة إلى التوحيد عنوان رسالات الأنبياء جميعاً، ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾.
- ٩ - تكمن فلسفة نزول الكتب السماوية في تثبيت أركان التوحيد وتطهير المجتمعات من أدران الشرك، ﴿كَتَبَ أُخِيتَ إِنَّهُمْ... أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾.
- ١٠ - تُمثل الدعوة إلى التوحيد والنذر والبشارات، أنموذجاً لكلام الله المتين والحكيم، ﴿أُخِيتَ إِنَّهُمْ... أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾.
- ١١ - النبي ﷺ مُرْسَلٌ من قبل الله سبحانه ليهدي الناس السعادة، ﴿إِنِّي لَكُرْيًا﴾.
- ١٢ - يتضمّن أسلوب الأنبياء في تبليغ رسالاتهم الوعيد والبشارة، ﴿نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾.

﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْ لَكُمْ مَتَّعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ ﴿٣﴾

إشارات:

□ ورد موضوع التوحيد في الآية السابقة، لكن هذه الآية تشير إلى مسألة الرجوع إلى الله والبقاء حول محور التوحيد.

□ عبارة ﴿مَتَّعًا حَسَنًا﴾ معناها حياة سعيدة ومنعمة تغمرها الطمأنينة الروحية، وهذا في مقابل المعيشة الضنكى والحياة المُرّة والمريرة التي يحصل عليها الذين نسوا الله وأعرضوا عن ذكره، وإن كانوا يتمتعون بالرفاهية والراحة في هذه الحياة الدنيا من الناحية المادية في الظاهر.

التعاليم:

- ١ - من واجبات الأنبياء، إصلاح المنحرفين والضالين وإعادة المارقين إلى جادة الصواب، ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا﴾.
- ٢ - وما لم يطهروا أنفسهم من الخطايا ويخففوا عن كاهلهم أعباء الذنوب والآثام، لن يكون بإمكانهم التحليق في ملكوت الحق تعالى، ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا﴾.
- ٣ - لا يكفي محو الذنوب، بل لا بدّ من التحرك نحو الله سبحانه، ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا﴾.
- ٤ - التوبة واجبة، ﴿تُوبُوا إِلَيْهِ﴾.
- ٥ - التوبة عن الذنوب هي السبب في عودة الطاف الله المادية كذلك، ﴿تُوبُوا...يَغْفِرْ لَكُمْ﴾.
- ٦ - إن القدرات والإمكانات التي يمتلكها الكفار ليست مباركة ولا حسنة لأنها تُستخدم في طريق الفساد والفتنة، ﴿مَتَّعًا حَسَنًا﴾.
- ٧ - الحياة الطيبة هي المسألة الأكثر أهمية بنظر الإسلام، ﴿مَتَّعًا حَسَنًا﴾.

٨ - الإيمان والتوبة هما اللتان تضمنان حياة الإنسان إلى آخر لحظة من عُمره، ﴿يَتَنَعَّمُ...إِلَّا أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾.

٩ - التوبة هي رمز السعادة النوعية والكمية، ﴿مَتَّعْنَا حَسَنًا إِلَّا أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾.

١٠ - تُمثل التوبة عاملاً من عوامل الحيلولة دون التعرّض إلى الموت الفجائي، ﴿إِلَّا أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾.

١١ - يجهل الإنسان تاريخ الوفاة أو الموت وزمانهما، ﴿إِلَّا أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾.

١٢ - تتفاوت الدرجات وتختلف المنازل يوم القيامة، فمن اكتسب فضيلة أكبر في هذه الدنيا سيحصل في الآخرة على لطف أكبر وأعظم، ﴿وَيُؤْتِي كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾.

١٣ - لا شك في أنّ الأنبياء هم الأكثر حرصاً على الناس. وقد وردت عبارة: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ كثيراً في القرآن الكريم.

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١)
 أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ
 يَعْلَمُونَ مَا يُبْسِرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَذَاتِ الصُّدُورِ^(٢) ﴿

إشارات:

□ ﴿يَنْتُونُ﴾؛ يُقال ثَنَيْتُ الشَّيْءَ، إِذَا عَظَفْتَهُ وَطَوَيْتَهُ، وَتَطَلَّقَ كناية كذلك على الحقد والنفاق. فجملة ﴿يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ﴾ إمّا أن تعني أنّ الكفار والمشركين يجتمعون ليتحدّثوا سرّاً ضدّ الأنبياء ويتآمروا عليهم، أو أنّهم يغلقون أبوابهم ويرسلون ستورهم ويستغشون ثيابهم وينتون صدورهم على الحقد على الأنبياء ومعاداتهم.

□ قال تعالى في الآية (٧) من سورة نوح: ﴿جَمَلُوا أَلْسِنَهُمْ فِي أَهَانِهِمْ وَاسْتَفْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾.

□ تكمن مشكلة المنكرين للمعاد في نقطتين اثنتين، هما:

- (أ) أيّ قدرة يمكنها إحياء الموتى؟ فيجيبهم القرآن الكريم في الآية (٤) من هذه السورة بقوله: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.
- (ب) كيف يمكن جمع الذرات المتناثرة هنا وهناك وتأليفها؟ فتجيبهم الآية (٥) بقولها: ﴿إِنَّهُ عَلَيْهِ يَدَاتِ الصُّدُورِ﴾.

التعاليم:

- ١ - إنّ رجوعنا وعودتنا في النهاية إلى الله تعالى وحده وليس إلى الآخرين، ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾.
- ٢ - تناولت الآيات السابقة موضوع (التوحيد) و(النبوة)، بينما تشير هذه الآية إلى (مبدأ المعاد)، ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾.
- ٣ - أيها المشركون، حتى وإن كنتم تُخفون أهدافكم المشؤومة عن النبي ﷺ فإنّ الله سبحانه يعلم بما تُخفيه صدوركم، ﴿يَلْتَوَنَ صُدُورُهُمْ لِيَسْتَخَفُوا مِنْهُ... إِنَّهُ عَلَيْهِ يَدَاتِ الصُّدُورِ﴾.

الجزء (١٢)

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا
وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾

إشارات:

- كلمة «دَابَّة» مشتقة من «دَبِيب» بمعنى السير بتأنٍّ وتؤدة والمشي بخطوات قصيرة؛ لكنها تُطلق على كلّ ما يدبُّ على الأرض.
- «الرِّزْق» الإنعام المستمرّ غير المنقطع، سواء أكان مادّيّاً أو معنويّاً، ولذلك نقرأ في بعض الأدعية: «اللّهُمَّ ارزقني... قلباً خاشعاً... ولساناً ذاكراً... وعِلماً

نافعاً»^(١). ولا ريب في أن ما يُنعم به الله تعالى على مخلوقاته من الرزق يكون مناسباً لها، فمثلاً يكون غذاء الطفل في بطن أمه متناسباً مع حالة الطفل نفسها ويتغير بتغير أوضاعه وحالاته، حتى يتحول ذلك الطعام إلى لبن (حليب) عند ولادته؛ إذ أي قدرة للإنسان كانت تستطيع إيصال الطعام والغذاء إلى الجنين وهو في رَحِم أمه؟ أو كيف يمكن للطفل أن يوقر غذاءه ويهيئه بنفسه وهو في بطن أمه؟ ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا﴾^(٢).

□ كلمة «مُسْتَقَرٌّ» تعني (المكان الثابت)، والـ«مُسْتَوْدَعٌ» هو مكان الإيداع والأخذ، ويُكتنى به عن المكان أو الموضع الموقت.

□ يقول الإمام علي عليه السلام في وصيته لابنه الإمام الحسن عليه السلام: «وَأَعْلَمُ يَا بُنَيَّ، أَنَّ الرِّزْقَ رِزْقَانِ: رِزْقٌ تَطْلُبُهُ، وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ، فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَأْتِهِ أَنْتَ»^(٣)؛ (مثل النور والمطر والهواء في الطبيعة وكذلك الذكاء والقدرات العقلية في الإنسان).

إذاً، فليس مقصود الآية الشريفة هو أن ننزوي جانباً وننتظر نزول الطعام علينا من السماء، بل تريد حثنا على العمل وتشجيعنا على السعي والمثابرة، واعتبار كل ما نحصل عليه رزقاً من الله تعالى؛ لذلك يُخبرنا التاريخ بأن جميع أئمتنا عليهم السلام كانوا يشتغلون ويعملون ولم يكونوا عاطلين عن العمل.

□ إيصال الرزق والطعام إلى المخلوقات جميعاً يتطلب علم الموصِل بمكان تلك الموجودات ونسبة ما تحتاج إليه؛ وهنا لا بد من وجود نظام دقيق للغاية يقوم بذلك الجهد كله؛ نظام يشتمل على أدق المعلومات والإحصائيات التي تشير إلى مقدار حاجة تلك المخلوقات إلى الرزق وأماكن تواجدها، وأن يعلم كذلك عدد أفراد البشر والحيوانات في البحر والجو والقفار والصحاري، والمخلوقات جميعاً، صغيرها وكبيرها، بكل أنواعها واحتياجاتها المختلفة بشدة، ﴿...وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾.

(٣) بحار الأنوار، ج ٥، ص ١٤٧.

(١) بحار الأنوار، ج ٩٥، ص ٢٥٨.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٦٠.

□ إذا كانت الأمور كلها موجودة ومكتوبة في كتاب مبين ﴿كُلُّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ إذاً، فالذي عنده علم الكتاب لا شك في أنه عالم بكل شيء. قال تعالى في الآية الأخيرة من سورة الرعد: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾، واعترفت الروايات سواء لدى السنة أو الشيعة بأن الشخص الذي ﴿عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ هو الإمام علي عليه السلام.

□ إن الله سبحانه سُنَّتَيْن: سُنَّةُ الرِّزْقِ وسُنَّةُ إِجْرَاءِ الْأُمُورِ والشؤون وتطبيقها عن طريق الأسباب والوسائل؛ لذلك فإنَّ السَّعي للوصول إلى الرِّزْقِ وطلبه لا يتنافى مع القانون الإلهي القائل: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾^(١).

التعاليم:

- ١ - من حقَّ الكائن الحي أن يحصل على طعامه وغذائه، وقد أوجب الله تعالى على نفسه هذا الحقَّ، ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾.
- ٢ - لا شك في أن أرزاقنا كلها بيد الله سبحانه، وعلى هذا، يجب علينا عدم الخضوع أو الخنوع لغير الله، ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ... إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾.
- ٣ - ليس علينا أن نخشى على رزقنا أو أن نتبع الجشع والطمع في الحصول عليه، ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ... إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾.
- ٤ - لقد هيا الله سبحانه لنا مصادر الرِّزْقِ ووهب لنا العقل والوسائل لاستخراج ذلك الرِّزْقِ واكتشافه والحصول عليه، ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾.
- ٥ - أينما نذهب أو نُؤلِّي وجوهنا فلن نغيب عن عين الله تعالى، لا في السَّفر ولا في الحضر، ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّمَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾.
- ٦ - جميع المعلومات والإحصائيات المتعلقة بهذا العالم وكل ما فيه، موجودة ومُثَبَّتة بعناية ودقة في مكان آمن ومحفوظ، ﴿كُلُّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ
عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ إِنَّكُمْ أَخْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ
مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٧﴾

إشارات:

□ المقصود بالأيام الستة المذكورة في هذه الآية هو المراحل أو الأشواط الستة لأن الشمس لم تكن موجودة في بداية الخلقة ليتم حساب ذلك بواسطة الليل والنهار^(١).

□ تُطلق كلمة «عرش» على كل مكان مسقف أو مغلق، وتُطلق أيضاً على السرير المرتفع الكبير للملوك والسلاطين، ويكنى بها أحياناً للإشارة إلى القدرة والعظمة، كأن يقال مثلاً: جلس زيد على العرش، أو أزيح عمرو عن العرش، بمعنى أنه نُحِّي عن الحكم أو السلطان.

□ سؤال: تشير هذه الآية إلى أنّ الهدف من خلق الإنسان هو اختباره وامتحانه وابتلاؤه، لقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوكُمْ﴾، لكن أشارت آيات أخرى إلى أمور أخرى كأهداف الخلق، فما معنى ذلك؟

الجواب: تصبّ الأهداف كلّها في بوتقة واحدة وهي على مراحل متعدّدة، مثلما يكون الهدف من الحرث هو الزراعة، والهدف من الزراعة هو [زراعة] الحنطة، والهدف من زراعة الحنطة هو صنع الخبز والرّغيف، والهدف من صنع الخبز هو إطعام الإنسان. وهكذا، فقد بيّنت الآيات القرآنية الهدف من خلقة الإنسان ولكن على شكل مراحل وكالاتي:

(أ) الهدف من الخلقة هو الامتحان والابتلاء، ﴿لِيَبْلُوكُمْ﴾.

(١) «أي، ما مقداره ستة أيام لأنه لم يكن هناك أيام بعد، فإنّ اليوم عبارة عمّا بين طلوع الشمس وغروبها». (مجمع البيان، ج ٥، ص ٢٤٥). [المترجم]

(ب) الهدف من الاختبار والامتحان هو تمييز الصالح من الطالح، ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾^(١).

(ج) الهدف من تمييز الصالح من الطالح هو إعطاء كل منهما حقه وجزاءه الذي يستحقه، ﴿وَلِيُجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾^(٢).

(د) ليس الثواب والعقاب المناسب إلا وفقاً لما وعد به الله تعالى، ﴿وَعَدًا عَلَيْنَا﴾^(٣).

□ عن الإمام علي عليه السلام: «أَلَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ كَشَفَ الْخَلْقَ كَشْفَةً، لَا أَنَّهُ جَهَلَ مَا أَخْفَوُهُ مِنْ مَصُونٍ أَسْرَارِهِمْ وَمَكْنُونٍ ضَمَائِرِهِمْ، وَلَكِنْ لِيَبْلُوَهُمْ (أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)، فَيَكُونَ الثَّوَابُ جَزَاءً، وَالْعِقَابُ بَوَاءً»^(٤).

□ فُسِّرَت عبارة ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ في بعض الروايات كما يلي: «عن النبي ﷺ أَنَّهُ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي يَدْرِؤُ الْغُيُوبَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، ثُمَّ قَالَ: «أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَآوَرَعَ عَنِ مَحَارِمِ اللَّهِ وَأَسْرَعَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ»^(٥). وورد في روايات أخرى أنها تعني (مَنْ أَزْهَدَ فِي الدُّنْيَا)^(٦)، وعن الإمام الصادق عليه السلام: «هُوَ حُسْنُ الْعَمَلِ»؛ أي العمل مع العلم والإخلاص والتقوى وليس العمل الكثير الخالي من كل ذلك^(٧).

التعاليم:

- ١ - خُلِقَ هذا العالم لأجل الإنسان، ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ... لِيَبْلُوَكُمْ﴾.
- ٢ - على الرغم من أن الله تعالى قادر على أن يخلق أي شيء وكل شيء في لحظة واحدة إلا أن حكمته سبحانه اقتضت أن تكون عملية الخلق تدريجية، ﴿خَلَقَ... فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

(٥) الطبرسي، مجمع البيان، ج ١٠، ص ٦٩.

(٦) بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٩٣.

(٧) تفسير كثر الدقائق.

(١) سورة الأنفال: الآية ٣٧.

(٢) سورة الجاثية: الآية ٢٢.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ١٠٤.

(٤) نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٤٤.

- ٣ - الماء والمواد المنصهرة هي المصدر الماديّ للسماوات والأرض، ﴿وَكَاثَ عَرِشُهُ، عَلَى الْمَاءِ﴾.
- ٤ - من الواضح أنّ الماء كان موجوداً قبل خلق السماوات والأرض، ﴿وَكَاثَ عَرِشُهُ، عَلَى الْمَاءِ﴾.
- ٥ - الهدف من خلق جميع الموجودات هو تطوّر الإنسان المعنويّ والاختياريّ، ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ... لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.
- ٦ - لا شك في أنّ الجودة والنوعية لا الكمية هما عاملان مهمّان في أيّ عمل، ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.
- ٧ - خُلِقَت السماوات والأرض للقيام بالأعمال الحسنة وليس للهو ولذة وللعفلة، ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.
- ٨ - تخلو جعبة المُنكرين للمعاد من أيّ دليل على ما يدعون، وما يدعون إلّا باطلاً وبُهتاناً، ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّيْتٌ﴾.

﴿وَلَكِنْ أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لِّيَقُولُوا مَا يَجْحِثُهُ إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَافٍ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٨)

إشارات:

□ تُطْلَق كلمة «أُمَّة» على الجماعة أو الفئة التي يجمعها هدف مشترك واحد، وعلى الزّمان أو العصر كذلك. وفي هذه الآية فإنّ المقصود بعبارة: ﴿إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ هو الزّمان المُعيّن والأجل المحدود، وهو أيضاً ما سنطالعه في الآية (٤٥) من سورة يوسف ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾، في إشارة إلى السّجين الذي كان مع يوسف ﷺ والذي لم يتذكّر ما أوصاه به يوسف عند خروجه من السّجن إلّا بعد مرور فترة طويلة.

□ وفقاً لبعض الروايات فإنّ من بين ما تعنيه عبارة ﴿أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ هو زمان ظهور

الإمام المهدي عليه السلام، أي أن الله سبحانه وعد أن لا يُنزل عذابه على هذه الأمة حتى ذلك الوقت^(١).

□ تأخير العذاب الإلهي له مصالح عدة كتوفير فرصة التوبة للعاصيين والمُذنبين أو ظهور أجيال جديدة أكثر إيماناً من الوالدين العاصيين، إضافة إلى أن دُعاء الأفراد الصالحين هو السبب في تأخير العذاب الإلهي ونزوله على الآخرين.

التعاليم:

- ١ - ترتبط بعض أفعال الله تعالى بالزمن والتوقيت، ﴿أَخْرَأْنَا... إِلَآ أَنتُمْ مَعْدُودُونَ﴾.
- ٢ - قد يؤخر الله سبحانه غضبه وسخطه إلى حين، ﴿...أَخْرَأْنَا﴾.
- ٣ - إن فترة تأخير عذاب الله تعالى وغضبه هي فترة قصيرة، ﴿إِلَآ أَنتُمْ مَعْدُودُونَ﴾.
- ٤ - تأخير الله تعالى عذابه علامة من علامات لطفه وكرمه وليس ضعفاً منه - حاشا له - إذاً، علينا أن لا نتخذ ذلك سخرية أو عبثاً، ﴿وَلَكِنْ أَخْرَأْنَا... لِيَقُولُوا مَا يَحْسِبُونَ﴾.
- ٥ - لن يُرفع العذاب الإلهي عن الكافرين المُستهزئين إطلاقاً، ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾.
- ٦ - يجب علينا عدم الاغترار بالمهلة التي يمنحها الله لنا؛ لأنّ العذاب الإلهي يُمكن أن يؤخّر ويُمكن أن يُقدّم من دون أن يعلم أحد بذلك، ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾.
- ٧ - الاستهزاء بالعقائد الدينية هو الأسلوب الذي يعتمد الكفار دائماً، ﴿كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ كَفُورٌ﴾

إشارات:

□ ليست كلّ نعمة يهبها الله سبحانه إلى أيّ من عباده تعني محبته ذلك العبد، بل

العكس صحيح أيضاً، وسلب نعمة ما من المخلوق لا تعني غضب الله أو سخطه عليه، بل إن ذلك كله امتحان وابتلاء.

□ الإنسان يجهل الحكمة الإلهية أو المصلحة في أمر ما، فنجده يُسارع إلى الحكم المسبق ما يدفعه إلى اليأس والقنوط ومن ثم الكفر.

التعاليم:

- ١ - إن سعادة الإنسان مجرد عملية تذوق بسيطة، ﴿أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾.
- ٢ - تُمثل نِعَم الله تعالى وأفضاله رَحْمته هو، لا استحقاقنا أو جدارتنا نحن، ﴿أَذَقْنَا... رَحْمَةً﴾.
- ٣ - إذا طالت فترة سعادة الإنسان فلا ينبغي له الاغترار، ﴿أَذَقْنَا... ثُمَّ نَزَعْنَاهَا﴾، إذ يشير حرف العطف (ثم) إلى المدة الطويلة.
- ٤ - من الواضح أن الأخذ والعطاء بيد الله وحده، ﴿أَذَقْنَا... نَزَعْنَاهَا﴾.
- ٥ - لا رِب في أن سلب الرحمة (النعم) من الإنسان سيكون أمراً صعباً بالنسبة له، ﴿نَزَعْنَاهَا﴾ - و«التزع» هو الاقتلاع بقوة وشدة.
- ٦ - إنَّ تحمّل الإنسان ضعيف للغاية، فبمجرد فقدانه نعمة من النعم يُصبح آيساً من رحمة الله الواسعة بأكملها، ﴿نَزَعْنَاهَا... إِنَّهُ لَيَتُوسُّ﴾.
- ٧ - لا يجب أن نربط إيماننا بالله سبحانه بمقدار ما نحصل عليه من السعادة والملاذات في حياتنا، ﴿نَزَعْنَاهَا... إِنَّهُ لَيَتُوسُّ﴾.
- ٨ - اليأس من رحمة الله مقدّمة للكفر والجحود^(١). ﴿إِنَّهُ لَيَتُوسُّ كَفُورٌ﴾.

﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لِيَقُولَنَّ

ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾

إشارات:

□ ليس حال الدهر متشابهاً في الأوقات والأزمان كلّها بل هو كما قيل في

(١) قال تعالى في الآية ٨٧ من سورة يوسف: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِيَنَّكَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا الْفَتْمُ الْكَوْرُونَ﴾.

الروايات: «الذَّهْرُ يَوْمَانِ: يَوْمٌ لَكَ وَيَوْمٌ عَلَيْكَ، فَإِنْ كَانَ لَكَ فَلَا تَبْطُرَ، وَإِنْ كَانَ عَلَيْكَ فَاصْبِرْ، فَيَكْلِيَهُمَا سَتُخْتَبِرُ»^(١).

□ إِنَّ النُّعْمَ وَالْآلَاءَ الَّتِي يَحْصِلُ عَلَيْهَا الْإِنْسَانُ بَعْدَ كَدِّ وَعَنَاءٍ وَمُثَابَرَةٍ وَشَقَاءٍ، تَسْتَحِقُّ أَنْ يُشْكَرَ مُنْعِمُهَا وَيُذَكَّرَ الْمُتَفَضِّلُ بِهَا عَلَى الدَّوَامِ، وَيَنْبَغِي أَنْ لَا تَكُونَ سَبَبًا لِلْفَخْرِ وَالزَّهْوِ وَالغَطْرَسَةِ.

□ شَيْثَانٌ يُعَرِّضُ السَّعَادَةَ وَالنَّعْمَةَ إِلَى الْخَطَرِ: أَوَّلًا، التَّحْلِيلُ الْخَاطِئِ وَسُوءُ الْفَهْمِ «ذَهَبَ أَلْسِنَاتُ عَنِّي»، وَثَانِيًا، أَنْ يُصْبِحَ هَذَا الْفَرْحُ وَالزَّهْوُ سَبَبًا لِلِاسْتِخْفَافِ بِالْآخَرِينَ وَالتَّفَاخُرِ عَلَيْهِمْ، «لَفَّحَ فُخُورٌ».

التعاليم:

١ - طاقة الإنسان بسيطة وتحمله ضعيف، فتراه يفخر ويزهو لأصغر النعم، «أَذَقْنَاهُ... لَفَّحَ فُخُورٌ».

٢ - يَتَمَيَّزُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِأَسْلُوبٍ أَدَبِيٍّ مُتَوَازِنٍ وَنَعْمَةٍ بَلَاغِيَّةٍ عَذْبَةٍ. (لاحظ التناغم الكبير بين كلمتي «نِعْمَاءٌ» و«ضَرَاءٌ»، وبين العبارتين «لَيْثُوسٌ كَفُورٌ» و«لَفَّحَ فُخُورٌ»).

٣ - النِّعْمَاءُ وَالضَّرَاءُ كِلَاهُمَا زَائِلَتَانِ لَا مُحَالَةَ، «أَذَقْنَاهُ... مَسَّتُهُ».

٤ - أَنْ يَعْتَقِدَ الْإِنْسَانُ بِأَنَّهُ لَنْ يَمْرَ بِأَيِّ ضَرَاءٍ أَوْ مَصِيبَةٍ بَعْدَ الْآنِ إِنَّمَا هُوَ اعْتِقَادٌ وَتَصَوُّرٌ بِاطْلَانٍ مِنْ دُونِ شَكٍّ، «ذَهَبَ أَلْسِنَاتُ عَنِّي».

٥ - لَا يَنْبَغِي اعْتِبَارُ السَّعَادَةِ وَالتَّجَاحِ دَلِيلًا عَلَى حُبِّ اللَّهِ تَعَالَى لَنَا، وَهَكَذَا فَلَا يَحِقُّ لَنَا أَنْ نَقُولَ لَنْ يُصِيبَنَا أَيُّ مَكْرُوهِ بَعْدَ الْآنِ أَبَدًا، «ذَهَبَ أَلْسِنَاتُ عَنِّي».

٦ - التَّصَوُّرَاتُ الْخَاطِئَةُ وَالتَّحْلِيلَاتُ الْمَغْلُوطَةُ هِيَ سَبَبُ صُدُورِ التَّصَرُّفَاتِ غَيْرِ الْمُنَظَّمَةِ؛ إِذْ قَدْ يُخَيَّلُ لِلْبَعْضِ أَنَّهُ نَقِيٌّ وَطَاهِرٌ مِنْ كُلِّ شَائِبَةٍ، «ذَهَبَ أَلْسِنَاتُ

عَفَى، ولهذا نرى مثل هؤلاء يفخرون ويتفاخرون من دون وجه حق، ﴿لَفَجَّ فَخُورٌ﴾.

٧ - يتصف بعض الأفراد المذبذبين بالتأثر المباشر بالأحداث الخارجية بدلاً من الكمالات الداخلية (الذاتية)، فتجدهم أحياناً ﴿لَيْتُوشْ كَفُورٌ﴾، وأحياناً أخرى ﴿لَفَجَّ فَخُورٌ﴾.

﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

إشارات:

□ وردت عبارة «العمل الصالح» في القرآن الكريم إلى جانب كلمة «الإيمان» دائماً، كقوله تعالى: ﴿ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إلا في هذه الآية الشريفة التي قال تعالى فيها: ﴿صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، والمُرَاد من ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ هنا بالطبع هم المؤمنون الحقيقيون. لكن، بما أن ذلك مذكور في مُقابل الأشخاص المتهورين غير المؤهلين، فقد استخدم الله كلمة ﴿صَبَرُوا﴾ بدلاً من «آمَنُوا».

□ لا يكون الصَّبر في مُقابل المشاكل والمُعضلات وحسب؛ بل لا بد من الاستعانة بالصَّبر حتى في السَّراء وحالات الفرح والسرور وإلا أدى فقدان الصَّبر واليأس إلى الطغيان والتمرد، وهو ما حدث لبني إسرائيل عندما كانوا يرزحون تحت نِير فرعون واستبداده وطغيانه، فلما نَجَّاهم الله وأذاقهم طعم الحرية والرفاهية: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾^(١) طَغَوْا واستكبروا، وراحوا يعبدون العجل، ولما نهاهم هارون (أخو موسى ﷺ) عن المُنكر كادوا يقتلونه: ﴿وَكَاذُوا يَقُولُونَ﴾^(٢).

التعاليم:

١ - التمسك بالصَّبر والاستعانة بالتحمل في الشدائد والملِّمات كما في السَّراء والحياة السعيدة، مصداق العمل الصالح، ﴿صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

- ٢ - لا سبيل لنفوذ اليأس والكفران والتفاخر إلى روح المؤمن (الحقيقي)، فهو قوي وصامد على الدوام، ﴿صَبْرُوا﴾.
- ٣ - الصبر والثبات وسيلتان لغفران الذنوب، ﴿صَبْرُوا... لَمْ تَغْفِرْ﴾.
- ٤ - لو عَلِمَ الإنسان ما ينتظره من أجر كبير ومغفرة حسنة لصبره وتحمله، لما كان شيء أحلى لديه منهما، ﴿الَّذِينَ صَبْرُوا... لَمْ تَغْفِرْ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.
- ٥ - من الواضح أن درء الخطر أهم من اكتساب المنفعة؛ ولذلك أولاً: ﴿مَغْفِرَةٌ﴾، ثم بعد ذلك: ﴿أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَصَابَقُ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾

إشارات:

□ كان الكفار يطالبون النبي ﷺ أحياناً بتحويل جبال مكة إلى ذهب كمُعجزة لإثبات نبوته أو إنزال ملائكة من السماء تؤيد رسالته، بينما لم يكن بعضهم الآخر مستعداً لسماع ما يريد النبي ﷺ قوله حول الإمام علي عليه السلام حقداً وكراهية. وحتى إذا قال شيئاً عن ذلك لم يكونوا ليقبلوه أو يوافقوا عليه. ولهذا كان صدر النبي ﷺ يضيق ويتألم بسبب تصرفات المشركين تلك، ما يدفعه إلى تأخير إيصال آيات القرآن الكريم ومضمونها إلى الملأ من قومه. وليس لذلك تأثير على عصمته ﷺ أو نبوته، إذ إن بعض آي القرآن الكريم لا تتطلب السرعة في التبليغ، فكان النبي ﷺ يؤخر إبلاغ قومه بتلك الآيات لمصلحة يقتضيها الدين وليس شخصه الكريم. لكن، وبعد نزول هذه الآية، لم يجد النبي ﷺ بداً من وضع المُرَاعاة والمسامحة جانباً، لينفذ ما أُمِرَ به بحزم وقوة^(١).

□ قد يكون النبي ﷺ حاول تأخير إبلاغ أوامر الله في بعض الأحيان بسبب عناد بعض أفراد قومه وقنوط النبي ﷺ من إيمانهم وإسلامهم، لكن الله سبحانه يُعلم

نبيّه أَنْ عليه أداء واجبه والقيام بما يأمره به ربّه وإن أصابه اليأس من إيمان مثل هؤلاء الأشخاص ولم يعد يأمل منهم خيراً.

□ وقد يكون معنى هذه الآية الشريفة هو: «إِنَّ الْكَفَّارَ يزدادون عناداً ومشاكسة وكأنّك لم تقرأ عليهم آياتنا ولم تُبلّغهم أوامرنا»، وقد يكون معناها كذلك هو: «يبدو أَنَّ تأخرك عن إبلاغ بعض آياتنا وعدم مُفاتيحة قومك بموضوعها يُسبّب لك الألم والمُعاناة».

التعاليم:

١ - لا بدّ لِمَنْ يُكَلِّف بإبلاغ كلام الله تعالى وأوامره من أن يكون حازماً وباتاً ولا يابه بمسألة مراعاة الناس ولا كلامهم وأعدائهم، ﴿فَلَمَّا نَكَرَ... أَنْ يَقُولُوا﴾.

٢ - لاحظ أَنَّ الله سبحانه يُعلّمنا أن نتبع الحذر والدقة في تعاملنا مع الآخرين وإرشادهم، فلا نقول لهم: إنكم كذا وكذا، بل نقول: يبدو أنكم كذا، أو قد تكونوا كذا، أو نتمنى أنكم لستم كذا وكذا، كما استخدم الله تعالى كلمة ﴿فَلَمَّا نَكَرَ﴾ لمخاطبة نبيّه ﷺ بدلاً من «إنك».

٣ - بالإضافة إلى الأذى الجسديّ الذي كان الكفّار يسبّبونه للنبيّ ﷺ فقد كانوا يأتون النبيّ بمعاذير وحجج مختلفة وغير مقبولة ليضعفوا عليه من الناحية النفسية كذلك، ﴿وَصَاحِبُ يَوْمٍ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا...﴾.

٤ - إنَّ عُقول بعض الأشخاص في عيونهم وأبصارهم، ومثل هؤلاء يطمعون في الرسالة والثروة والجاه معاً، ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ﴾.

٥ - الإنسان مسؤول عمّا كُلِّف به وليس عن نتيجته؛ فافعل - أيها النبيّ - ما كُلِّفَتْ به، ودع الأمور الأخرى إلى الله سبحانه، ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

٦ - تتلخّص مسؤولية الداعية في إنذار الناس لا في إجبارهم على الإيمان، ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ
وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ اِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِيْنَ﴾ (١٣)

إشارات:

□ لا تقتصر معجزة القرآن الكريم على فصاحته وبلاغته فحسب، بل على ما يتضمنه من المعارف والمواعظ والبراهين والأخبار الغيبية والقوانين الإعجازية كذلك، فجملة ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾ هي دعوة الناس جميعاً - وليس العرب فقط وهم الذين يعون ويفقهون فصاحة القرآن وبلاغته - لقوله تعالى في آية أخرى: ﴿قُلْ لِّىْنَ اٰجْتَمَعَتِ الْاِنْسُ وَالْجِنُّ عَلٰٓى اَنْ يَّاتُوْا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْاٰنِ لَا يٰتُوْنَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظٰهِرًا﴾^(١).

□ وجوه إعجاز القرآن الكريم كثيرة، منها حلاوة الألفاظ وجمال التعبيرات عند تلاوتها، وانسجام مضامينه على الرغم من نزول آياته على مدى ثلاث وعشرين سنة، ثم إشارته إلى علوم لم تكن معروفة حتى ذلك الوقت، والإخبار بالأحداث والأمور الغيبية التي وقعت بالفعل فيما بعد، وسرده قصص الأقوام التي سبقت قوم النبي ﷺ وسيرتهم التي لم يبق لها أي أثر، ثم بيانه القوانين الشاملة والكاملة في أبعاد حياة الإنسان الشخصية والاجتماعية قاطبة، وبعد هذا وذاك، بقاء القرآن الكريم محفوظاً ومُصاناً من أي تحريف أو تغيير أو تبديل أو قِدم أو نسيان طيلة القرون الماضية.

□ على الرغم من كل هذه التسهيلات وتلك المشجعات، عجز البشر جميعاً عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وهو ما تحدّاهم القرآن بقوله: ﴿اَنْ يَّاتُوْا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْاٰنِ﴾^(٢)، ثم يتساهل معهم فيقول: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ﴾. وفي موضع آخر يُخَفِّف الله تعالى عن البشر وطأة الإتيان بعشر سور فيقول: ﴿فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ﴾^(٣). ثم يُنهي القرآن الكريم المسألة ويقول للناس: ﴿قُلْ لِّىْنَ اٰجْتَمَعَتِ

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٣.

(١) سورة الإسراء: الآية ٨٨.

(٢) السورة نفسها: الآية ٨٨.

الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا، متحدثاً إليهم بفعل ذلك حتى وإن استعانوا بعقول البشر أجمع على وجه البسيطة. وقد أثبت التاريخ كذلك هذه الحقيقة وبيّن عجز أولئك الذين حاربوا الإسلام وأرادوا النيل من إعجازه وعظمته ودبروا المؤامرات وحاكوا الدسائس؛ لكنهم لم يتمكنوا من الإتيان ولو بسورة واحدة مثل القرآن الكريم، فهل هناك معجزة أعظم من هذه؟

التعاليم:

١ - بدلاً من أن يأتي الكفار بأي أدلة أو براهين تؤيد ادعاءاتهم وأقوالهم، راحوا يتهمون النبي ﷺ بأنه هو الذي ألّف القرآن وكتبه وأنه ليس كلام الله، ﴿يَقُولُونَ أَفَرَأَيْنَا﴾

٢ - سيقى القرآن الكريم معجزة على مرّ التاريخ، ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾

﴿فَإِلَّا تَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

إشارات:

□ كان المشركون يتهمون النبي ﷺ بأنّ أحداً ما علّمه هذا القرآن ﴿فَإِن تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾^(١)، فردّ عليهم القرآن الكريم قائلاً: إنّ مصدر إلهام هذا الكتاب [أي، القرآن الكريم] هو العلم الإلهي وليس إملاء الآخرين. وفي أحيان أخرى كانوا يدعون أنّ النبي ﷺ هو كاتب القرآن ومؤلفه، وأنه ربّما ساعده آخرون في إنجاز ذلك ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾^(٢)، فجاءت هذه الآية لتردّ على اتهاماتهم وتخرّصاتهم جميعاً.

التعاليم:

- ١ - إِنَّ مَعِينَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ ومصدر إلهامه هو عِلْمُ اللَّهِ الَّذِي لَا يَنْتَهِي، ﴿أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾.
- ٢ - لَيْسَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ حَدْسًا أَوْ افْتِرَاضًا وَلَا خِيَالًا أَوْ فِكْرَةً أَوْ عَمَلًا مِنْ أَعْمَالِ الْبَشَرِ، إِنَّمَا هُوَ [كِتَابٌ] مُسْتَنْدٌ إِلَى عِلْمِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، ﴿أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾.
- ٣ - الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ لَيْسَ [كِتَابًا] مَحْدُودًا بِزَمْنٍ أَوْ مَكَانٍ مُعَيَّنِينَ وَلَا بِقَوْمٍ أَوْ مِلَّةٍ مُعَيَّنَةٍ لِأَنَّهُ مُسْتَنْدٌ إِلَى عِلْمِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، ﴿أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾.
- ٤ - أَسْرَارُ الْقُرْآنِ لَا تَنْتَهِي، تَمَامًا كَمَا أَنَّ عِلْمَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ هُوَ عِلْمٌ غَيْرُ مَتَنَاوٍ، ﴿أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾.
- ٥ - لَا يَدْفَعَنَّكُمْ [أَيُّهَا الْمُسْلِمِينَ] كُفْرُ الْمُشْرِكِينَ وَدَعَاوَى أَعْدَاءِ اللَّهِ إِلَى التَّشْكِيكِ فِي حَقَّانِيَةِ الْقُرْآنِ وَوَحْدَانِيَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا... أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا
نُوفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (١٥)

إشارات:

- سؤال: تؤكد هذه الآية الشريفة أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ سَيُري الَّذِينَ يَحْرِصُونَ عَلَى هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَاعِهَا جَزَاءَ أَعْمَالِهِمُ الَّذِي يَسْتَحَقُّونَ غَيْرَ مَنْقُوصٍ مِنْهُ، لَكِنَّا نَطَالِعُ آيَةً قُرْآنِيَةً أُخْرَى تَقُولُ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾^(١)، فكيف يمكننا التوفيق والجمع بين مضمون هاتين الآيتين؟
- الجواب: يقول الله سبحانه في الآية (١٥) من سورة هود ﴿إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ سَيُري الْكُفَّارَ نَتَائِجَ أَعْمَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ﴾، في حين أَنَّ الآية المذكورة في سورة

الإسراء لا تشير إطلاقاً إلى موضوع الأعمال، بل تشير إلى مسألة التمني والأمل إذ يُبين الله تعالى أنّ من الناس من يصل إلى جزء من أحلامه وأمنيّاته في هذه الدنيا.

□ الذين لا يؤمنون بالمعاد والبعث ولا يفعلون ما يُرضي الله لا يستحقّون من الله شيئاً حيث يُؤتيهم في هذه الدنيا بعض ما يرغبون مقابل خدماتهم واختراعاتهم واكتشافاتهم من دون أن يكون لهم خلاق في الحياة الآخرة. ومن يؤمن بالحياة الأخرى هو الذي يمكنه أن يتوقع أجراً أخروياً كذلك، وليس من لا يؤمن بالله أصلاً ولا يعترف بالمعاد، فمثل هذا لا يمكنه أن ينتظر خيراً هناك.

□ من يطلب الدنيا بدلاً من الآخرة ويرغب في الفاني بدلاً من الدائم الباقي ويتعلّق بالمحدود دون اللامحدود، فإنّه سيحصل على نتيجة عمله هذا وثمرته في هذه الدنيا المحدودة والفانية كذلك.

التعاليم:

- ١ - لا ريب في أنّ العمل وحده لا يكفي بل لا بدّ من وجود الدافع والهدف كعاملين أساسيين، ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.
- ٢ - الإنسان مُخَيَّر ويمكنه أن يتصرّف كيفما يشاء، ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ﴾.
- ٣ - إنّ الله عادل فهو يُعطي الأجر في هذه الدنيا حتى للذين لا يؤمنون به ولا يأترون بأوامره، من دون أن يُنقص من أجرهم شيء، ﴿تَوْفٍ... لَا يُعْخَسُونَ﴾.
- ٤ - السبب في عدم قبول البعض للحقّ هو تمسّكهم بهذه الدنيا وزينتها، ﴿قَالَتْمْ يَسْتَحْيِبْنَ... مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ

مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَطِلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

إشارات:

□ لما كان من واجب الإنسان العبادة إضافة إلى الحاجة بهدف التقرب فإنّ العمل

من دون أي هدف هو عمل باطل، وعندما لا يكون الهدف هو التقرب ويكون كل ما يقوم به ويفعله لأجل هذه الدنيا، فإن ثمرة ذلك العمل ونتيجته ستحصر ضمن إطار هذه الدنيا فقط، بينما سيُعتبر في الآخرة كل ما قام به في هذه الدنيا مجرد عمل باطل.

□ يُقال: إن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ خرج من عند أهله فإذا جارية عليها ثياب وهيئة، فجلس عندها. فقامت فأهوى بيده إلى عارضها فمضت فأتبعها بصره ومضى خلفها، فلقيه حائط فخمش وجهه، فعلم أنه أصيب بذنبه. فأتى رسول الله ﷺ فذكر له ذلك. فقال ﷺ: «أنت رجلٌ عجلٌ الله عقوبة ذنبك في الدنيا؛ إن الله تعالى إذا أراد بعبدٍ شراً أمسك عنه عقوبة ذنبه حتى يوافي به يوم القيامة، وإذا أراد به خيراً، عجل له عقوبة ذنبه في الدنيا»^(١).

□ كان الإمام علي عليه السلام كلما قرأ هذه الآية يقول: «فكيف أستطيع الصبر على نار لو قذفت بشررة إلى الأرض لأحرقت نباتها؟»^(٢).

التعاليم:

١ - ستكون صحيفة المتعلقين بهذه الدنيا وزينتها خالية من أي عمل صالح في الآخرة، ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾.

٢ - العمل من أجل الدنيا أو رياء الناس هو عمل باطل لا قيمة له في الآخرة، ﴿وَحِيطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَطِلَ﴾.

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَنْبَعٍ مِنْ زَيْدٍ وَتَلَّوْهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ
إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ
فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾

□ تؤكد بعض الروايات التي وصلتنا عن الأئمة المعصومين عليه السلام أن المقصود بالـ

(شاهد) في هذه الآية هو الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وقد أشار أمير المؤمنين عليه السلام نفسه كذلك في إحدى خطبه قائلاً: «وَأَنَا الشَّاهِدُ»^(١).

□ استناداً إلى هذه الآية الشريفة فإنَّ الشاهد على النبي ﷺ هو واحد من أهل بيته وليس شخصاً آخر غريباً عنه، ووفقاً للروايات الواردة عن طريق أهل السنة والشيعه فقد قال النبي ﷺ: «أَنْتَ مِنِّي وَأَنَا مِنْكَ»^(٢).

وجاء في الآية الأخيرة من سورة الرعد أنَّ الكفار لما قالوا للنبي ﷺ: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ ردَّ عليهم النبي ﷺ قائلاً بأمر من الله تعالى: ﴿كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾. وفي الروايات السنية والشيعية أنَّ المُراد من جملة ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ هو علي بن أبي طالب عليه السلام فهو الشاهد على صدق الرسول ﷺ وعلى نبوته. ففي الآية (١٧) من سورة هود عليه السلام قيل عنه: (شاهد)، وفي الآية (٤٣) من سورة الرعد سُمي بال (شَهِيد).

التعاليم:

١ - حاولوا أن تحاجوا الضمائر الحيّة والفطرة السليمة في التبليغ بأسلوب استفهامي، ﴿أَفَمَنْ كَانَ﴾.

٢ - القرآن الكريم حجة الله على الناس، ﴿يَنْتَهِ مِنْ رَيْبِهِ﴾.

٣ - من رافق النبي ﷺ طيلة حياته الشريفة ولم يتخلَّ عنه لحظة واحدة لا بدَّ من أن يكون خليفته على الحقِّ كذلك، ﴿وَيَتْلُوهُ﴾.

٤ - يُمثّل الأصحاب المُخلصون والثابتون على إيمانهم والمُضحّون بأنفسهم وسيلة من الوسائل التي تعرّفنا بالأنبياء وتُثبت حقانيتهم وصدقهم، ﴿يَنْتَهِ... شَاهِدٌ وَنَّةٌ﴾.

(١) الشيخ الطوسي، الأمالي، المجلس الثالث عشر؛ وقارن بأصول الكافي، ج ١، ص ١٩٠.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب الصلح، باب كيف نكتب؛ مسند أحمد بن حنبل، ج ٥، ص ٣٥٦.

- ٥ - أتم الله سبحانه حجته على الناس من خلال القرآن الذي يُعتبر مُعجزة إلهية وكذلك الشاهد المُتمثل بعليّ بن أبي طالب عليه السلام إضافة إلى التوراة التي بشرت به قبل ظهوره، ﴿يَنْتَهِ مِنْ رَبِّهِ... شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كُتِبَ مُوسَى﴾.
- ٦ - الكُتُب السماوية تُؤيد بعضها بعضاً، ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كُتِبَ مُوسَى﴾.
- ٧ - تُعتبر معرفة المُخاطب في التبليغ أمراً أساساً، فاليهود كانوا موجودين في الحجاز قبل مجيء المسيحين إليها، والخطاب في القرآن الكريم موجه إلى هذه الفئة [أي اليهود] على الرغم من أن الإنجيل كذلك بشر بظهور النبي عليه السلام في كثير من آياته، ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كُتِبَ مُوسَى﴾.
- ٨ - من المؤكد أن الكُتُب والقوانين السماوية هي طُرُق لهداية الناس ووسيلة لنزول رحمة الله سبحانه، ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾.
- ٩ - لا بدّ للناس من اتّخاذ الكُتُب السماوية المُنزلة هادياً وقائداً لهم، ﴿كُتِبَ مُوسَى إِمَامًا﴾.
- ١٠ - الإمامة والرحمة أمران ضروريان ومتلازمان، ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾.
- ١١ - يجب أن يكون الحقّ هو المعيار وليس التحزّب، وبدلاً من الانتماء للحزب والعنصر والإقليم لا بدّ من اتّباع الحقّ، ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَحْزَابِ﴾.
- ١٢ - على الناس جميعاً التمسك بالقرآن وهُدًى مهما كانت اثنياتهم وطوائفهم وأحزابهم، وإلا فلن ينجوا من غضب الله وسخطه، ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَحْزَابِ قَالَتَارُ مَوْعِدُهُ﴾.
- ١٣ - لا ينبغي للمؤمنين أن يأسوا أو يرتابوا في دينهم وإيمانهم بسبب كفر بعض الناس، ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ... فَلَا تَكُ فِي رَيْبٍ مِنْهُ﴾.
- ١٤ - الأغلبية ليست دائماً معياراً للحقّ، ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ... أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٨﴾

إشارات:

□ يوجد شهود عدّة في محكمة يوم القيامة، منهم:

(أ) الله سبحانه وتعالى وهو الشاهد على الأعمال والأفعال كلّها، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ^(١).

(ب) الرسول الأعظم ﷺ، ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ ^(٢).

(ج) الأئمة المعصومون ﷺ، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ ^(٣). واستناداً إلى الروايات فإنّ المقصود بال (أمة) هو الأئمة الأطهار لأنّ باقي أفراد الأمة لا يمتلكون العلم والعصمة اللازمتين للإدلاء بالشهادة في ذلك اليوم.

(د) الملائكة، ﴿وَحَلَّلَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ ^(٤).

(هـ) الأرض، ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ ^(٥).

(و) الوجدان والضمير، ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ ^(٦).

(ز) أعضاء الجسم، ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ﴾ ^(٧).

(ح) الزّمان؛ فالإمام السّجّاد عليه السلام يقول في الدّعاء السادس من أدعية الصحيفة السّجّادية: «وَهَٰذَا يَوْمٌ حَادِثٌ جَدِيدٌ، وَهُوَ عَلَيْنَا شَاهِدٌ عَتِيدٌ».

(ط) العمل، ﴿وَوَجِدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ ^(٨).

(٥) سورة الزلزال: الآية ٤.

(٦) سورة الإسراء: الآية ١٤.

(٧) سورة النور: الآية ٢٤.

(٨) سورة الكهف: الآية ٤٩.

(١) سورة الحج: الآية ١٧.

(٢) سورة النساء: الآية ٤١.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٤٣.

(٤) سورة ق: الآية ٢١.

□ سؤال: أطلق القرآن الكريم كلمة ﴿أَظْلَمُ﴾ على أنواع كثيرة من الذنوب، في حين لا بد من أن يكون أعظم الظلم واحداً لا غير، فما معنى ذلك؟

الجواب: على الرغم من ورود هذه الكلمة (١٥) مرة في كل القرآن الكريم لكنها جميعاً تشير إلى الانحرافات والضلالات الفكرية بما في ذلك الشُّرك والافتراء وكتمان الحق والصدّ عن سبيل الله وذكره. وعلى هذا، فإنّ أكبر الظلم - كما هو واضح - هو الظلم الفكري والثقافي والعقائدي.

□ يُبَيِّن القرآن الكريم في هذه الآية وبعض الآيات القادمة، صفات المُفترين على الله سبحانه، منها: أنهم أكثر الأشخاص ظُلماً؛ وأكثرهم حرماناً من ألطاف الله؛ والذين لا يؤمنون بيوم القيامة؛ ويحرفون الحقائق ويزيقونها؛ ويصدّون عن سبيل الله؛ وهؤلاء ليسوا بمُعجزين في هذه الدنيا وما لهم في الآخرة من أولياء؛ ولا شك في أنهم يستحقّون عذاباً إضافياً؛ وهؤلاء قضوا سنّي حياتهم في العبث واللّهو؛ وباءت جهودهم كلّها بالفشل؛ وخسروا أنفسهم أخيراً ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

التعاليم:

١ - الافتراء على الله تعالى هو أكبر أنواع الظلم؛ لذا يجب على المؤلفين في العلوم الدينية والمتحدّثين باسم الدين أن يكونوا حذرين في ما يقولونه أو يكتبونه، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ﴾.

٢ - هناك علاقة وثيقة بين حجم الظلم وقُبْحه من جهة وبين المعنّي بذلك الظلم من جهة أخرى، ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ﴾.

٣ - في يوم القيامة ستزول الحُجُب وتُرفع الأستار ولن يبقى هناك أي شيء يُمكن إخفاؤه أو كتمانه، ﴿يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.

٤ - ستمتلي محكمة يوم القيامة بالكثير من الشُّهود [العدول] وسيشهد كلّ منهم بما يعلم؛ إذًا، على كلّ واحد منّا أن يرقب عمله ويلاحظ فعله، ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ﴾.

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا
وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾

إشارات:

□ يعتمد أعداء الدين إلى الصدّ عن سبيل الله تعالى بأساليب مختلفة ووسائل متنوّعة، منها: البدعة والتهمة والتفسير بالرأي ووضع الأحاديث وابتداع الشبهات وتعطيل المساجد وإبعاد آل بيت الرسول ﷺ وتنحيّتهم عن حقّهم وعدم الاستناد إلى تعاليمهم والنهي عن المعروف (بدل المنكر) واختلاق المعاذير ووضع العراقيل والترويج للملاهي المُفْهِدَة والتعلُّل بالمسائل الثانوية وتمجيد بعض الشخصيات من دون وجه حقّ وإشاعة الباطل وإهانة المؤمنين واحتقارهم وتحريم المباحات وتكريم الباطل والتبليغ المغلوط وتعظيم الطاغوت وغير ذلك.

□ من النماذج الحيّة للصدّ عن سبيل الله غلق أبواب بيوت أولياء الله وآل بيت الرسول ﷺ والأئمة المعصومين العادلين ﷺ.

التعاليم:

- ١ - الصدّ عن سبيل الله أو بيانه بشكل مُغاير لحقيقته هو الظلم بعينه، ﴿الظَّالِمِينَ...﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ.
- ٢ - يقوم عدوّ الله في البداية بغلق الطُّرُق والصدّ عن سبيل الله، فإذا لم يُفلح عمد إلى تشويه معالم ذلك السبيل، ﴿يَصُدُّونَ... وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾.
- ٣ - يُمثّل تحريف العلوم والمعارف الدينيّة وتشويه صورة الدّين، نوعاً من أنواع الصدّ عن سبيل الله تعالى، ﴿يَصُدُّونَ... وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾.
- ٤ - لا اعوجاج ولا انحراف في دين الله إطلاقاً، بَيِّنْ أَنْ أَعْدَاءَ الدِّينِ هُمُ الَّذِينَ يَخْتَلِقُونَ الشُّبُهَاتِ حَوْلَهُ وَهُمْ الَّذِينَ يُصَوِّرُونَهُ بِشَكْلِ مُنْحَرَفٍ، ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾.
- ٥ - يُعتبر إنكار الآخرة والمعاد مقدّمة لكلّ أنواع الظلم، ﴿بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.

﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمْ
الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ (٢١)

إشارات:

□ سؤال: ألا يتعارض العذاب المُضاعف مع العدل الإلهي؟
الجواب: لا شك في أن الذي يدفع الآخرين إلى الانحراف ويُجبرهم على الكُفر بسبب مقامه الرفيع وسلطانه الواسعة وقدراته العظيمة، لا شك في أنه يتحمل وزر كل المنحرفين. وهكذا فإن ذنوب العلماء والعارفين تتضاعف مقارنة بذنوب الأشخاص العاديين وذلك لأنهم أسوة سائر الناس وقدوتهم، وهذا هو عين العدل.

التعاليم:

- ١ - الظالمون ليسوا بخارجين عن قدرة الله تعالى وسيطرته وغضبه، وسوف يرون عاقبة ما فعلوا لا محالة، ﴿لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾.
- ٢ - لا يظنّ المفترون أنّ دفاعهم المستमित عن الطواغيت وحمائيتهم لهم ستنجيهم من غضب الله أو عذابه، ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾.
- ٣ - لا جرم أنّ قادة الضلال في المجتمع الذين يتسبّبون في انحراف الآخرين ودفعهم إلى الهاوية، سيتحملون وزر كل فرد من أفراد مجتمعاتهم، ﴿يَصُدُّونَ... رِيْبُوْهَا عِوَجًا... يُضْعِفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾.
- ٤ - لقد أعمى وأصمّ الكُفر واللجاجة والعناد والتعصّب أبصار الضالّين وأسماعهم حتى أصبحوا عاجزين عن رؤية الحقّ أو سماعه، ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ...﴾.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٢٢)
لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِرُونَ ﴿٢٢﴾

إشارات:

□ تُعتبر هذه الدنيا في الثقافة الإسلامية سوقاً والناس فيها باعة، وبضاعتهم التي يعرضونها للبيع هي الأنفس والأموال والأعمال، وأمّا الشُرّة والمتسوّقون فهم

قسمين: القسم الأول وهو الله ﷻ الذي يشتري تلك البضائع [وإن كان بعضها لا يساوي شيئاً] بأعلى الأثمان، أما القسم الثاني من المُشتريين فهم كل ما سوى الله، وعلى رأسهم الشيطان الرجيم الذي لا يدفع إلا أبخس الأثمان مُقابل تلك البضائع [وإن كان بعضها لا يُقدَّر بثمن]، وليس الثمن الذي يدفعه سوى أهواء نفسية. ولذلك نرى أن القرآن الكريم يستخدم الكلمات (أجر) و(ثواب) و(ضعف) و(أضعاف) كإشارة للربح في حين عبّر عن الأضرار والخسائر بكلمات مثل (خسر) و(خسران مُبين) و(الأخسرين).

أما الشيء الذي ينبغي أن لا يغيب عن بالنا فهو أن أيّ ضرر أو خسارة يمكن تعويضهما إلا انقضاء سني العمر.

□ في بعض الأحيان تزول الأموال والمساكن والبيوت والسلطة والنفوذ والشهادات التي يحصل عليها الإنسان وحتى المناصب التي تُوكّل إليه، وفي أحيان أخرى نراه يفقد ذاته وإنسانيته وشخصيته وهذا هو الخسران المُبين.

التعاليم:

- ١ - قد تكون الأقوال الباطلة والادّعاءات الفاسدة جميلة المظهر، لكنها جميعاً تزول وتدمح، ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَقْتَرُونَ﴾.
- ٢ - لا شك في أن خسارة النفس وضياح العمر هباء هو الحد الأقصى للخسارة، أما الخسائر المادية فلا تساوي شيئاً في مُقابل ذلك كله، ﴿خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ... هُمْ الْأَخْسَرُونَ﴾.
- ٣ - يُمكن تعويض الخسائر أو الأضرار الدنيوية، لكن المهم هو أن لا نخسر شيئاً يوم القيامة حيث لات ساعة مندم، ﴿فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَاجْتَنَبُوا إِلَكَ رَيْبَهِمْ
أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

إشارات:

□ «الْحَبْت» الخضوع والتسليم، وكذلك الهدوء والطمأنينة.

□ ورد التشجيع إلى جانب التحذير والتهديد، وتُشير هذه الآية إلى صفات أهل الحق والإيمان بعد أن مرَّ ذكر المُفترين ومصيرهم في الآية السابقة.

التعاليم:

- ١ - يجب علينا أن لا نغترَّ أو نتفاخر بأعمالنا الصالحة لأنَّ شرط العبودية لله سبحانه هو التسليم المطلق له، ﴿ءَامِنُوا وَكَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَاجْتَنُوا إِلَيَّ رَيْبَهُمْ﴾.
- ٢ - لا شك في التأثير الكبير الذي تولده الحالات الباطنية والمعنوية على الثواب الذي يحصل عليه الإنسان، ﴿وَاجْتَنُوا إِلَيَّ رَيْبَهُمْ﴾.

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ

هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا نَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

إشارات:

□ كما أنَّ الجسد يمتلك العين والأذن فإنَّ القلب والروح كذلك يمتلكان السَّمع والبصر، وكما أنَّ الأعمى أو الأصمَّ لا يستطيع إدراك المحسوسات الموجودة في هذا العالم وهو بذلك محروم من الاستمتاع بكلِّ تلك الأمور، فإنَّ المُعاندين أيضاً لا يستطيعون فهم المعارف الإلهية وإدراكها، وهم في الحقيقة محرومون من أيِّ مُتعة أو لذة معنوية.

التعاليم:

- ١ - إنَّ مَنْ اقتصر بَصَره وتحدّدت بصيرته بالمحسوسات المادّية وعميتا عن المعنويات وعن الآخرة ككلّ، هو الأعمى بكلِّ ما لهذه الكلمة من معنى، ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى... وَالْبَصِيرِ﴾.
- ٢ - حاولوا أن تحاجّوا الضمائر الحيّة والفترة السليمة في التبليغ بأسلوب استفهامي، ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِتِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٢٥﴾
 ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۚ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْإِسْمِ ٢٦﴾

إشارات:

□ يُعتبر سيدنا نوح عليه السلام أول الأنبياء من أولي العزم، وهو كذلك أول من حارب الشرك وقاوم عبادة الأصنام. فلما أغرق الكفار جميعاً بالطوفان كان من بقي مع نوح عليه السلام ونجا معه أتباعه والمؤمنون به، ولذلك سُمي النبي نوح عليه السلام بأبي البشر الثاني، ودُعي أيضاً بشيخ الأنبياء لطول عُمره أكثر من بقية الأنبياء والمرسلين.

□ قد يكون العذاب الذي خشي النبي نوح عليه السلام نزوله على قومه هو غضب الله سبحانه في هذه الدنيا، حيث يُخبرنا القرآن الكريم في الآيات التالية ما قاله قومه له وهو: ﴿فَأَنَّا يَمَّا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾.

التعاليم:

- ١ - اقتصرَت دعوة الأنبياء في المرحلة الأولى على قومهم فقط، ﴿أَرْسَلْنَا... إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾.
- ٢ - لا شك في أن تحذير الأنبياء لقومهم يصب في خاتمة منافع الناس وخيرهم، ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾.
- ٣ - الشخص الغافل هو أحوج ما يكون إلى التحذير والنذير، ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾.
- ٤ - يجب أن تكون الدعوة واضحة بيّنة، ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.
- ٥ - الأنبياء عليهم السلام مكلفون بتحذير الناس وبيان موارد مصلحتهم في الوقت نفسه، ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.
- ٦ - يتمثل هدف الأنبياء وواجبهم في توضيح مسألة التوحيد وبيانها، ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾.
- ٧ - لاحظ أن تاريخ الشرك والمُشركين يعود إلى زمن النبي نوح عليه السلام، ﴿لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾.

٨ - من المعروف أن مبدأ العبودية وأصل الطاعة والخضوع متأصلان في فطرة كل إنسان، وأما ما يقوم به الأنبياء فهو توجيه ذلك ووضعه على الطريق الصحيح، ﴿لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾.

٩ - كل الأنبياء كانوا حريصين على الناس ولا يريدون لهم إلا الخير والسعادة، ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾.

١٠ - يتلخص واجب المبلغ والمُعلّم ومسؤوليتهما في بيان الأخطار والتحذير من العواقب السيئة الناجمة عن الشرك بالله تعالى، ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَنَّاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا
وَمَا تَرَنَّاكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ
وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ (٢٧)

إشارات:

□ يعتمد المُخالفون للحق في بعض الأحيان إلى إهانة الأنبياء والمرسلين والتقليل من شأنهم بقولهم: ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ و﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾، وفي أحيان أخرى كانوا يستهزئون بأصحابهم وبالذين اتبعوهم ويحقرونهم قائلين: ﴿هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ﴾، ويسخرون من الدعوة والدين ويقولون: ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾، أو ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾، أو ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، أو أن ما جاء به النبي هو كلام عادي يمكنهم أن يأتوا بمثله إن شاؤوا، إلى غير ذلك.

التعاليم:

١ - يمثل الملأ أو الأشراف من قوم الرسول أو النبي في العادة خط المواجهة الأول ضده، ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

- يبدو أن المسكتبرين مُستأوون بالدرجة الأولى من مساواة النبي إياهم مع

الطبقة العادية من الناس وخاصة طبقة المحرومين والمساكين، ﴿هُمَّ أَرَادُونَا﴾.

٣ - الذين لا تربطهم مع هذه الدنيا علاقة وطيدة هم أسرع الأفراد إيماناً، ﴿مَا نَزَّلَكَ... أَتَبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا﴾.

٤ - من وجهة نظر المُنهمكين في ملذات الحياة الدنيا والمنتشغلين بالشؤون المادية فإن الأموال والثروات لها قيمتها الخاصة التي لا يمتلكها الحق أو الحقيقة، ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾.

٥ - ليس لدى مخالفني الأنبياء والمُعترضين عليهم أيّ برهان بَيّن، بل إنّ كلّ ما يدعونه إنّما هو مستند إلى الظنّ والريبة والوهم، ﴿بَلْ نَقْضُكُمُ﴾.

٦ - عُقول الكفار في عيونهم وأبصارهم، وقد وردت كلمة ﴿وَمَا نَرَى﴾ ثلاث مرّات في هذه الآية وحدها.

﴿قَالَ يَقُولُونَ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَمِينٍ مِنْ رَبِّي وَءَالَيْتِي رَحْمَةً مِنْ عِندِهِ
فَعَمِيَّتَ عَلَيْكُمْ أَنْزِلُكُمْ مَوَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ﴾

إشارات:

□ تُجيب هذه الآية الشريفة عن الشبهتين اللتين أوردتهما الكفار في الآية السابقة على نبيهم:

(أ) قال الكفار: ﴿مَا نَزَّلَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾، فتجيب الآية عن ذلك بالقول: نعم، على الرغم من أنني أشبهكم في الظاهر، ولكن ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَمِينٍ مِنْ رَبِّي وَءَالَيْتِي رَحْمَةً مِنْ عِندِهِ فَعَمِيَّتَ عَلَيْكُمْ﴾.

(ب) قال المُعترضون على نبيهم: ﴿مَا نَزَّلَكَ أَتَبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بَادِي الرّأي﴾، فتردّ عليهم الآية: كلاً، ليس الأمر كما تظنون، بل إنّ هؤلاء آمنوا بربهم وهم ﴿عَلَى يَمِينٍ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ منه وبرهان قاطع، وليس ما يفعلونه خالياً من الأدلة والبراهين.

□ لا يخفى ما اتبعه الأنبياء من حُسن السلوك والمُداراة وضبط النفس وسعة الصدر مع المُعاندين لهم على الرغم من كلِّ ما قالوه عنهم واتَّهموهم به ونسبوه إليهم من شرِّ الكلام، ومع هذا لم يُثنهم ذلك عن مواصلة الحديث معهم بالمنطق والبرهان نفسه إلى جانب الحرص عليهم والخوف على مصيرهم.

التعاليم:

- ١ - الأنبياء هم من البشر ومع البشر وهم حريصون عليهم كحرصهم على أنفسهم، ﴿قَالَ يَاقُورَ﴾.
- ٢ - حاولوا أن تستخدموا الأسلوب العاطفي في أثناء التبليغ، ﴿قَالَ يَاقُورَ﴾.
- ٣ - كانت دعوة الأنبياء قائمة على أساس اليَنة والبراهين، ﴿كُنْتُ عَلَى يَنَّةٍ﴾.
- ٤ - مقام النبوة هو رحمة إلهية، ﴿رَحْمَةً مِنِّي عِنْدِي﴾.
- ٥ - يؤمن الأنبياء جميعاً بأن كلَّ ما يمتلكونه من الكمالات إنما هي من عند الله سبحانه، ﴿مِنْ رَّبِّي... مِنْ عِنْدِي﴾.
- ٦ - إنَّ مَنْ يعجز عن إدراك البرهان والمعنويات والنبوة وفهمها، هو الأعمى، ﴿فُعْيِيَتْ عَلَيْهِ﴾.
- ٧ - كلُّنا نعلم بأنَّ الإنسان مُخيَّر في اعتناق أيِّ دين أو مذهب يريده، وليس مُجبراً على ذلك، ﴿أَنْزِلْكُمْ مَكُومًا﴾.
- ٨ - ليس باستطاعة الإنسان التَّعَمُّ بنور الوحي والاهتداء به ما لم يمتلك الاستعداد لقبول الحق، ﴿وَأَنْتَ لَهَا كَرِهُونَ﴾.

﴿وَيَقُولُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ
الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنْ أَنْتُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ (٢٩)

التعاليم:

- ١ - عدم توقُّع الأنبياء الأجر من وراء دعوتهم أو انتظار الشكر مُقابل ذلك هو دليل حقانيَّتهم وصدقهم، ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا﴾.

- ٢ - يكمن رمز نجاح المُبلِّغ في مهمته في عدم انتظاره لأي أجر أو مُقابل من الناس وتجاهله الأثرياء ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾؛ ولا شك في أن أجر المُبلِّغين كبير وعظيم عند الله سبحانه، ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾.
- ٣ - لو كان الأنبياء يبحثون عن الربح لانضموا إلى صفوف الأغنياء والملا من قومهم وتركوا الفقراء على حالهم، ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾.
- ٤ - كان الملا وسادة القوم يطلبون من الأنبياء أن يطردوا الفقراء والمساكين من حولهم كشرط لقبولهم دعوتهم والإيمان بهم، لكن الأنبياء جميعاً ردوا على ذلك بحزم ولم يقبلوا به، فجملة ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ﴾ اسمية والباء فيها للتأكيد.
- ٥ - إذا لم يكن هدف المُبلِّغ [الحقيقي] هو المال والسلطة، فسي تساوى لديه الفقير والغني، ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.
- ٦ - يجب أن لا نُعير توقّعات المستكبرين وأحلامهم أي اهتمام، ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.
- ٧ - يعتبر الكُفَّارُ المؤمنين أراذل لكن النبي ﷺ يقول: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.
- ٨ - لا ينبغي لأي حكومة حقّة تجاهل الطبقة المحرومة وإهمالها من أجل إرضاء الأغنياء والتودّد إليهم، ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.
- ٩ - لا يحقّ طرد مَنْ هم مُكرّمون عند الله، ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.
- ١٠ - من شأن ذكر يوم القيامة وأحوالها تصحيح مواقفنا في هذه الدنيا، ﴿مُتْلَقُوا رَبِّكُمْ﴾.
- ١١ - من المؤكّد أنّ احتقار المؤمنين والاستهزاء بهم سببه الجهل، ﴿قَوْمًا بَجْهَلُوتٍ﴾.
- ١٢ - يُسمّى القرآن الكريم أولئك الذين يعتبرون المؤمنين أراذل لهم، يُسمّوهم بالجهلة ﴿قَوْمًا بَجْهَلُوتٍ﴾ - فلا الثبل أو المقام السامي هما علامة على العلم ولا الفقر أو الحرمان دليل على الجهل.
- ١٣ - تُمثّل درجة اللّقاء والشهود إحدى درجات العرفان، وهو ما لا يمكن

للمرفهين أن يدركوه أو يشعروا به أو يتوصلوا إليه، ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾.

﴿وَيَقْوَمَنَّ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٣٠)

التعاليم:

- ١ - إن طرد المؤمنين أو احتقارهم يُغضب الله سبحانه ولو كان الفاعلون هم الأنبياء أنفسهم، ﴿مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ﴾.
- ٢ - ليس بإمكان أحد الوقوف في مواجهة الغضب الإلهي أو منعه، ﴿مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ﴾.
- ٣ - إذا طرد المؤمنون فمن ذا الذي سينصر دين الله؟ ﴿مَنْ يَنْصُرُنِي﴾.
- ٤ - حذار من إرضاء المخلوق على حساب الخالق، ﴿مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ﴾.
- ٥ - مُداراة الأنبياء الناس نابع من صميم مسؤوليتهم الإلهية وليس لها علاقة أبداً بالمكانة الشخصية أو الاجتماعية لهم، ﴿مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ﴾.
- ٦ - حاولوا أن تحاجوا الضمائر الحية والفترة السليمة في التبليغ بأسلوب استفهامي، ﴿مَنْ يَنْصُرُنِي... أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.
- ٧ - كل المخلوقات عاجزة ولا طاقة لها بغضب الله - سبحانه - وهذا ما نُقره جميع العقول، على الرغم من تجاهلهم هذا الأمر في بعض الأحيان، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٣١)

إشارات:

□ عِلْمُ الْغَيْبِ مُطْلَقٌ يَحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ مُخْتَصٌّ بِاللَّهِ وَحْدَهُ: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ

الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ^(١)؛ لكن، قد تُفْتَح بعض نوافذ الغيب لأولياء الله بإذنه طبعاً كما يقول تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ^(٢)﴾. ولهذا فإن أنبياء الله ورُسُلَه يعلمون الغيب بإذن الله تعالى وهو مصداق قوله تعالى في الآيتين (٢٦) و(٢٧) من سورة الجن: ﴿عَلِمُوا الْغَيْبَ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ^(٣)﴾.

□ لا يقتصر علم الغيب وحده على الله سبحانه بل وكذلك القدرة على الإتيان بجميع الأفعال الخارقة للعادة (ونعني بذلك المعجزات) فهي الأخرى شأن من شؤونه تعالى وحده دون غيره، لكنه ﷺ قد يمنح شيئاً من تلك القدرة وبالمقدار والمصلحة اللازمتين إلى أيّ كان من مخلوقاته. وعلى الرغم من أن الموت والحياة هما بيد الله تعالى كما هو معروف ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا^(٤)﴾، إلا أنه سبحانه منح سيدنا عيسى ﷺ القدرة كذلك على إحياء الموتى بإذنه ﴿وَأَنِّي أَمُوتُ وَإِنِّي آئِدُنِي^(٥)﴾، وعلى الرغم من أن الله سبحانه هو قابض الأرواح ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا^(٦)﴾ لكنه قد يوكل فعل ذلك إلى بعض ملائكته أيضاً فتقبض أرواح المخلوقات بإذنه ﴿قُلْ يَتَوَفَّنَا مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ^(٧)﴾، وعلى الرغم من أنه تعالى هو خالق كل شيء ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ^(٨)﴾، لكن سيدنا عيسى ﷺ كان يخلق بعض الأشياء بإذن الله كذلك، ﴿وَإِذْ خَلَقْنَا مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَفَنَفَخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي^(٩)﴾.

التعاليم:

١ - ليس من طبع الأنبياء ولا سلوكهم الادعاء الفارغ، فواجبهم هو الدعوة وهدفهم يكمن في الإرشاد في ظلّ عبوديتهم لله سبحانه، ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ...﴾.

- | | |
|------------------------------|------------------------------|
| (١) سورة الأنعام: الآية ٥٩. | (٥) سورة الزمر: الآية ٤٢. |
| (٢) سورة هود: الآية ٤٩. | (٦) سورة السجدة: الآية ١١. |
| (٣) سورة النجم: الآية ٤٤. | (٧) سورة الرعد: الآية ١٦. |
| (٤) سورة آل عمران: الآية ٤٩. | (٨) سورة المائدة: الآية ١١٠. |

- ٢ - لا يُعتبر علم الغيب ولا امتلاك الخزائن والكنوز شرطاً من شروط النبوة، ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ...﴾.
- ٣ - يكمن هدف الأنبياء ﷺ في إرشاد الناس معنوياً وليس في تقسيم الخزائن والكنوز المادية، ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ...﴾.
- ٤ - أيّ نعمة تُوهب لنا لا بدّ من أن تكون صادرة من معين ما أو من خزانة مُعيّنة، (و«الخزائن» جمع يشير إلى مصادر جميع النعم).
- ٥ - ينبغي أن لا نُغالي في شخصيات أولياء الله سبحانه، ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا...﴾.
- ٦ - من الواضح أنّ نظرة الملائكة من قوم نوح ﷺ كانت نظرة سطحية جوفاء، ﴿تَزِدِّي أَعْيُنُكُمْ...﴾.
- ٧ - لا يحقّ لنا الحكم على الآخرين من خلال النّظر إلى أشكالهم وهيئتهم الظاهرة، ﴿تَزِدِّي أَعْيُنُكُمْ...﴾.
- ٨ - لا تشمل الطاف الله سبحانه إلّا المؤمنين الضعفاء والمساكين، ولا شأن لذلك بما نتخيّله أو نتوهمه، ﴿تَزِدِّي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾.
- ٩ - الاستحقاق والجدارة الباطنية والمعنوية للإنسان هي معايير اللّطف الإلهي، ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾.
- ١٠ - طرد المحرومين واحتقارهم لمجرّد فقرهم وعوزهم هو ظلم كبير، ﴿إِنِّي إِذَا لَيِّنَ الظَّالِمِينَ﴾.
- ١١ - الادّعاءات الكاذبة والأقاويل الفارغة وإساءة استخدام المناصب والوظائف الخادعة، ظلم كبير كذلك، ﴿إِنِّي إِذَا لَيِّنَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿قَالُوا يَنْتُحِ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا
فَأَيْنَا يَمَّا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾

إشارات:

□ عندما يكون الجدل قائماً على دعائم الحق فهو عندئذ ذو قيمة ﴿وَجَدِلْهُمْ بِلَاغٍ هِيَ أَحْسَنُ﴾^(١)، ولكن إذا كان أساس المجادلة باطلاً وإفكاً، فلا قيمة لها إطلاقاً، ﴿وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾^(٢).

التعاليم:

- ١ - تشير الآية بوضوح إلى أنّ الأنبياء ﷺ كانوا صامدين في دعوتهم ومستمرين فيها حتى النهاية، ﴿جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا﴾.
- ٢ - لاحظ أنّ الأعداء يُسمّون المنطق الصحيح والبرهان الحقّ جدالاً وعناداً، ﴿قَدْ جَدَلْتَنَا﴾.
- ٣ - ليس صحيحاً أن نعتبر إمهال الله ووعده مؤشراً على صحّة ما نقوم به، ﴿فَأَيْنَا يَمَّا تَعِدُنَا﴾.
- ٤ - الإنسان عجول في كلّ شيء، حتى في نزول العذاب، ﴿فَأَيْنَا يَمَّا تَعِدُنَا﴾.
- ٥ - لم يأت دعاء سيّدنا نوح ﷺ على قومه إلّا بعد أن أعلن كفّارهم كامل استعدادهم للهلاك، ﴿فَأَيْنَا يَمَّا تَعِدُنَا﴾.
- ٦ - يلجأ الكفّار إلى إنهاء المناقشة وسدّ باب البحث؛ لأنهم لا يمتلكون أيّ منطق وليس لديهم ما يقولونه، ﴿فَأَيْنَا يَمَّا تَعِدُنَا﴾.
- ٧ - كان سيّدنا نوح ﷺ يُحذّر الكفّار من عذاب الله تعالى باستمرار ومن دون انقطاع (إذ استُخدمت كلمة ﴿تَعِدُنَا﴾ بدلاً من «وَعَدْتَنَا»).
- ٨ - يبدو أنّ الكفّار كانوا يرتابون من صدق أنبيائهم أو ربّما شكّوا في ما كانوا يقولونه لهم، ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾.

(١) سورة النحل: الآية ١٢٦.

(٢) سورة المؤمن (غافر): الآية ٥.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾^(٣٣)
 وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ
 أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(٣٤)

إشارات:

□ تطلق كلمة الـ«نُصْح» على الكلام أو الفعل الخالصين اللذين يُراد بهما الإصلاح، والـ«غِي» هو الجهل الناجم عن الفساد. والفرق بين (الإضلال) و(الإغواء) هو أَنَّ الضالَّ يعرف الهدف لكنّه ضلَّ طريقه، أمّا الغَيَّان فهو مَنْ أضاع الهدف والطريق معاً.

□ لا شك في أَنَّ نسبة الإضلال والإغواء إلى الله تعالى هو من باب مُعاقبة العناد والفساد الأخلاقي لدى الضالّين، لا أن يقوم الله سبحانه بإضلال الآخرين منذ البداية ومن دون أيّ مقدمات، ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾^(١).

التعاليم:

- ١ - الأنبياء مأمورون بإبلاغ الناس فقط، أمّا مُعاقبة الضالّين فبيد الله وحده، ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾.
- ٢ - ليس لأيّ شيء أن يُجبر الله سبحانه على القيام بأمر ما إطلاقاً (حتى بعد أن يُهدّد سبحانه بفعل شيء ما)، ﴿إِنْ شَاءَ﴾.
- ٣ - من المعلوم أنّه ليس باستطاعة الكفّار منع نزول العذاب الإلهي أو حماية أنفسهم ووقايتها منه، ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾.
- ٤ - الأنبياء حريصون على البشر ورؤوفون بهم، ﴿نُصْحِي﴾.
- ٥ - إرادة الله سبحانه فوق كلّ إرادة، ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي... إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ (وحتى التأثير الذي يولّده كلام النبي ونُصحه قومه لا يكون إلّا بالقدر الذي يريده الله سبحانه).

- ٦ - هُدى الناس أو ضلّالهم خاضع لإرادة الله وحده، ﴿يُرِيدُ أَنْ يُنَوِّيكُمْ﴾.
- ٧ - إغواء الضالين بعد عنادهم ومطالبتهم بنزول العذاب في قولهم: ﴿فَأَيْنَا بِمَا نَعْبُدُ﴾ هو جزء من الشؤون الربانية، ﴿أَنْ يُنَوِّيكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ﴾.
- ٨ - رَفَضَ الكُفَّار نصائح الأنبياء يُنزل الغضب الإلهي، ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي... وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.
- ٩ - حتى وإن تجاوز الله سبحانه عن مُعاقبتنا في هذه الدنيا، فَإِنَّ مصيرنا يوم القيامة سيكون بيده سبحانه، ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.
- ١٠ - إِنَّ رجوع جميع المخلوقات إلى الله هو أمر خارج عن إرادتها واختيارها، فقد قال سبحانه: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ولم يقل ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.
- ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْخَرْتُ فَلَّ إِنْ أَفْخَرْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا يُجْحَرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

إشارات:

□ أصل «الإجرام» و«الجُرم» في اللغة هو قطف الفاكهة الفجة غير الناضجة، ثم أطلق في ما بعد على كل عمل قبيح واطالع.

التعاليم:

- ١ - عَلَّمَ الله سبحانه أنبياءه أسلوب الحوار والتعامل مع المشركين، ﴿يَقُولُونَ... فَلَّ...﴾.
- ٢ - نسبة الأفعال التي يقوم بها الناس إلى الله سبحانه هي جُرم ومعصية، ﴿إِنْ أَفْخَرْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي﴾.
- ٣ - كل امرئ مسؤول عن عمله وفعله، ﴿إِنْ أَفْخَرْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي﴾.
- ٤ - البراءة من الشرك أمر واجب، ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ﴾.
- ٥ - الشرك جريمة كبرى، ﴿مِمَّا يُجْحَرُونَ﴾.

﴿وَأَوْحِ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ
إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٣٦﴾

إشارات:

□ تشير هذه الآية الشريفة إلى أنّ دعاء النبي نوح عليه السلام على قومه في سورة (نوح) الآية (٢٦) بقوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذَيَّارًا﴾ كان وفقاً للإخبار الذي تلقاه من الله تعالى في هذه الآية.

التعاليم:

- ١ - يصل الإنسان أحياناً إلى درجة من السقوط حيث لا رجعة ولا أمل في خلاصه أبداً، ﴿لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ﴾.
- ٢ - يُنبئ الله تعالى - متى شاء - رُسله ببعض الأخبار المستقبلية، ﴿وَأَوْحِ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ﴾.
- ٣ - لا ينبغي للقادة والدعاة الدينيين أن يتوقعوا إيمان جميع الناس بهم، ﴿لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ﴾.
- ٤ - على الرغم من حرص الأنبياء على أقوامهم، فإنه لا يجب عليهم التأسف على المعاندين منهم إطلاقاً، ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾.

﴿وَأَصْنَعِ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخْرَقُونَ﴾ ﴿٣٧﴾

التعاليم:

- ١ - يحقق الله سبحانه إرادته ومشيئته بواسطة الأسباب والعلل الطبيعية ولا ينبغي لنا انتظار الأمور الغيبية على الدوام، ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلَ﴾.
- ٢ - لا يُعتبر العمل عاراً على أولياء الله، ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلَ﴾.
- ٣ - الحديث والكلام والتبليغ وحده لا يكفي لتخليص الناس وإنقاذهم، بل لا بد من وجود وسيلة للنجاة كذلك، ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلَ﴾.

- ٤ - من الواضح أنّ صناعة السفن لها جذور تاريخية عريقة، حيث خاطب الله نبيه نوحاً ﷺ قائلاً: ﴿وَأَصْنِعْ الْفُلْكَ﴾.
- ٥ - الشعور والإحساس بوجود الله سبحانه وحضوره في كلّ آن ووقت من شأنه أن يمنح الإنسان القوة والطمأنينة والحصانة ضدّ الكوارث والمصائب، ﴿وَأَصْنِعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾.
- ٦ - ما من شكّ في أنّ الاختراعات والإبداعات البشرية مُستلهمة من الله تعالى، ﴿وَأَصْنِعْ... بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾.
- ٧ - يبدو أنّ شفاعة الأنبياء كذلك لا تُجدي في القوم الظالمين، ﴿وَلَا تُخَلِّطُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.
- ٨ - العناد والإلحاح العقيم مع الأنبياء هو نوع من أنواع الظلم، ﴿فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.
- ٩ - لاحظ أنّ دعاء الأنبياء أيضاً وشفاعتهم لا يُغيّران شيئاً في التقديرات الإلهية المحتومة، ﴿وَلَا تُخَلِّطُنِي... إِنَّهُمْ مُفْرَقُونَ﴾.
- ١٠ -

يُعاقب الظالمون لا محالة بالعذاب الدنيوي، ﴿إِنَّهُمْ مُفْرَقُونَ﴾.

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾

قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٢٨﴾

إشارات:

□ لا ينبغي أن تضعف عزيمتنا بسبب استهزاء الأعداء وسخريتهم منّا فقد كان أعداء الله يسخرون كذلك من أنبيائه ﷺ. فعندما كان النبي نوح ﷺ مشغولاً بصنع السفينة بأمر الله تعالى كان البعض يمرّون بالقرب منه ويقولون مستهزئين به وبأصحابه: «ترك النبوة واشتغل بالنجارة»، ويقول آخرون ساخرين منه: «يتخذ سفينة في البرّ!». وجاء في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: إنّ

نوحاً ﷺ صنع السفينة في ثمانين عاماً^(١) وأتته صنعها في مسجد الكوفة^(٢) المعروف وأن طول السفينة بلغ حوالي (٤٠٠) متر وعرضها (٤٠) متراً^(٣).

التعاليم:

- ١ - أنبياء الله جميعاً يمثلون أوامره سبحانه، ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ... وَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾.
- ٢ - يبدو أن المكان الذي اختاره النبي نوح ﷺ لصنع الفلك كان مكاناً عاماً حيث يمر الناس، ﴿مَرَّ عَلَيْهِ﴾.
- ٣ - تتصف وسائل الإعلام لدى العدو والأساليب التي يستخدمها للإيذاء بالشمولية والاستمرارية، ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ﴾.
- ٤ - إذا عجزنا عن فهم الحكمة وإدراكها في عمل ما (لا سيما أعمال الأنبياء) فلا يجوز لنا الاستهزاء، ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ... سَخِرُوا مِنْهُ﴾.
- ٥ - عندما يفقد العدو كل منطق وبرهان يحاول اللجوء إلى الاستهزاء والسخرية، ﴿سَخِرُوا مِنْهُ﴾.
- ٦ - لا ينبغي أن نكف عن مواصلة الإصلاحات والعمل للأجيال القادمة بسبب ما يردده بعض الناس، ﴿وَصْنَعُ الْفُلْكَ... سَخِرُوا مِنْهُ﴾.
- ٧ - كان أصحاب النبي نوح ﷺ يُساعدونه في بناء السفينة، ﴿إِنْ تَسَخَّرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسَخَّرُ مِنْكُمْ﴾.
- ٨ - على الرغم من أن الكفار كانوا يوجهون كلامهم إلى النبي نوح ﷺ، إلا أنهم كانوا يعنون بكلامهم ذلك الاستهزاء بدعوته والسخرية من أصحابه، ﴿سَخِرُوا مِنْهُ... تَسَخَّرُوا مِنَّا﴾.
- ٩ - لا شك في أن أسلوب الاستهزاء بادئ ذي بدء هو أسلوب قبيح؛ لكن إذا

(٣) المصدر نفسه.

(١) تفسير البرهان.

(٢) تفسير نور الثقلين.

كان المراد بالاستهزاء هو مُقابلة المُستهزئ بالمِثل فذلك هو عين العدل^(١)،
﴿إِنْ تَسَخَّرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسَخَّرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسَخَّرُونَ﴾.

١٠ - حذار من فقدان الثقة بأنفسنا أمام استهزاء العدو وسخريته، بل ينبغي المواجهة بالرد بالأسلوب نفسه، ﴿إِنْ تَسَخَّرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسَخَّرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسَخَّرُونَ﴾.

﴿فَسَوْفَ نَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ

يُخْزِيهِ وَيَحُلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (٣٩)

إشارات:

□ قال صاحب تفسير الميزان: «قوله: ﴿عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ المراد به عذاب الاستئصال في الدنيا وهو الغرق الذي أخزاهم وأذلهم، والمراد بقوله: ﴿وَيَحُلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي ينزل عليه عذاب ثابت لازم لا يُفَارَقُ، وهو عذاب النار في الآخرة»^(٢).

التعاليم:

- ١ - حاولوا حرمان الكفار من لذة استهزائهم بكم وذلك من خلال توجيه الإنذار إليهم وتهديدهم وإخافتهم، ﴿فَسَوْفَ نَعْلَمُونَ﴾.
- ٢ - إذا قُمنَا بمقارنة مرارة استهزاء الكفار أو الأعداء بنا في سبيل الله مع العذاب المُقيم الذي سيصيبهم، سيهون علينا كل شيء، ﴿وَيَحُلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.
- ٣ - إن ألوان العذاب التي سيلقاها الكفار في الآخرة هي أكبر استهزاء أبدي بهم، ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

(١) وهو ما أكدته القرآن الكريم كذلك في قوله تعالى: ﴿وَعَزَّزْنَا بِتِنْتِ سِنْتَةٍ نَبْلَهُمْ﴾، سورة الشورى: الآية ٤٠.

(٢) الميزان في تفسير القرآن؛ ج ١٠، ص ١١٧.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾

إشارات:

□ ﴿التَّنُّورُ﴾ هو القُرن الذي يُخبَز فيه، أما الفوران فهو خروج الماء منه أو كناية عن شدة الغضب الإلهي بحيث فاض التنور بالماء وهو مكان استعار النار، وربما كان المراد بذلك هو تنور خاص كان خروج الماء منه وفيضانه علامة على شروع العذاب الإلهي^(١).

□ ذكرت بعض الروايات أنَّ نوحاً ﷺ حمل معه إلى داخل السفينة كذلك بعض الأشجار والنباتات بالإضافة إلى الحيوانات^(٢)، وهذا تأكيد على أنَّ عبارة ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ الواردة في الآية الشريفة لا تقتصر على الذكر والأنثى من الحيوانات بل يُراد بها المؤنث والمذكر من كلٍّ موجود. وورد في تفسير (نور الثقلين) أنَّ المراد بالزوجين هو الذكر والأنثى من كلِّ حيوان (يعني الذكر والأنثى من الحيوانات الأليفة ومثلهما من الحيوانات الوحشية)^(٣).

□ جاء في تفسير (روح المعاني) للآلوسي أنَّه كان لسيدنا نوح ﷺ أربعة أولاد هم كنعان الذي هلك بالطوفان، وسام (وهو أبو العرب وفارس والروم)، وحام (أبو السودان)، ويافث (أبو الأتراك)^(٤). وورد في رواية أخرى أنَّه كانت لنوح ﷺ ابنة مؤمنة ركبت معه السفينة^(٥).

(١) تفسير نور الثقلين.

(٢) وأيد بما أخرجه إسحاق بن بشر وغيره عن علي كرم الله تعالى وجهه مرفوعاً أنَّ نوحاً ﷺ حمل معه في السفينة من جميع الشجر، وبما أخرجه أبو الشيخ عن جعفر بن محمد رضي الله تعالى عنهما قال: «أمر نوح ﷺ أن يحمل معه (مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ) فحمل من التمر العجوة واللون...» انظر: تفسير روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، الآلوسي.

(٣) الجزء الثالث، ص ٦٣.

(٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، الآلوسي، ج ١٧، ص ١٤٣.

(٥) انظر: تفسير نور الثقلين.

□ وفي حديث وهب بن منبه أن الله تعالى أعقَمَ أصلاب الرجال وأرحام النساء من قوم نوح عليه السلام فلبثوا أربعين سنة لا يُولد لهم ولد^(١).

التعاليم:

- ١ - استمر استهزاء الكفار بالمؤمنين وسخريتهم منهم حتى لحظة نزول العذاب والغضب الإلهيين، ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَثَرُنَا﴾.
- ٢ - تتضمن قصة نوح عليه السلام مع قومه أهمية كبيرة ومعاني كثيرة، ﴿أَمْرُنَا﴾.
- ٣ - فوران الماء لا يكون إلا بأمر من الله تعالى، ﴿جَاءَ أَثَرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ﴾.
- ٤ - إن الله سبحانه هو مُسَبِّب الأسباب ومُبْطِلها في الوقت نفسه، فمرة يجعل التنور الذي هو موقد للنار يفور بالماء، ومرة يُحِيل سبحانه النار التي أراد التمرود بها إحراق سيدنا إبراهيم عليه السلام برداً وسلاماً وروضة جميلة. ثم ها نحن نراه تعالى يجعل الماء وهو العنصر الحياتي الأهم، سبباً لهلاك الكفار وانقراضهم بالغرق، ﴿وَفَارَ التَّنُورُ﴾.
- ٥ - لاحظ أن الله سبحانه وتعالى أراد الحفاظ على سلالة الحيوانات والموجودات الأخرى ومنعها من الانقراض، ﴿أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾.
- ٦ - العلاقات الدينية تسمو على العلاقات الشخصية والأسرية، فهوذا ابن نوح النبي عليه السلام وأمه (زوجة نوح) مُنعا من ركوب سفينة النجاة، ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾.
- ٧ - التاريخ يُخبرنا بأن عدد المؤمنين والسائرين على الحق كان ضئيلاً دائماً، ﴿وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾. وجاء في بعض الروايات أن المقصود بـ ﴿قَلِيلٌ﴾ في هذه الآية هو أن عدد الذين آمنوا وصدقوا دعوة النبي نوح عليه السلام لم يتجاوز الثمانين نفراً^(٢).

(١) بحار الأنوار، ج ١١، ص ٣١٢.

(٢) انظر: تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٣٥٦ و ٣٥٧.

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرِّبَهَا ومُرْسَهَا
إِنَّ رَجِي لَفُورٌ رَّجِيمٌ﴾

إشارات:

□ قيل إنَّ أبا ذر الصحابي الكبير كان يوماً ممسكاً بحلقة باب الكعبة المشرفة ويصيح بأعلى صوته قائلاً: «أيها الناس! لقد سمعتُ رسول الله ﷺ بأذني هاتين وهو يقول: «إِنَّمَا مَثَلُ أَهْلِ بَيْتِي فِيكُمْ كَمَثَلِ سَفِينَةِ نُوحٍ مَنْ رَكِبَهَا نَجَا وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا هَلَكَ». وقد روى هذا الحديث كذلك كبار العلماء في صدر الإسلام؛ منهم أبو سعيد الخدري وابن عباس وعبد الله بن الزبير وأنس بن مالك، ونقلتها أمهات كتب أهل السنة^{(١)(٢)}.

ولو وضعنا هذا الحديث المتواتر إلى جانب حديث آخر حيث قال رسول الله ﷺ: «سَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً فِرْقَةٌ مِنْهَا نَاجِيَةٌ»^(٣) سيتبين لنا أنَّ النبي ﷺ اعتبر أهل بيته ﷺ ومصدق الفرقة الناجية لذلك قال: «مَنْ رَكِبَهَا نَجَا»؛

(١) انظر: المُعْجَم الكبير، الطبراني؛ المُسْتَدْرَك، الحاكم النيسابوري؛ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير الدمشقي؛ تاريخ الخلفاء، السيوطي؛ عيون الأخبار، ابن قتيبة؛ ذخائر العقبى، الطبري؛ تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي؛ حلية الأولياء، أبو نعيم الأصبهاني؛ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المعتزلي؛ تفسير روح المعاني، الألوسي... بالإضافة إلى الكتب الأخرى، كما جاء تفصيل ذلك في كتاب إحقاق الحق، المجلد التاسع، ص ٢٧٠ وما بعدها.

(٢) ورد الحديث المذكور في كُتُب أهل السنة مع اختلاف طفيف في بعض ألفاظه، مثل: «عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَثَلُ أَهْلِ بَيْتِي مَثَلُ سَفِينَةِ نُوحٍ، مَنْ رَكِبَ فِيهَا نَجَا، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا هَرَقَ». المُعْجَم الكبير، الطبراني، مُسْنَدُ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، الحديث رقم (١٢٢١٨)؛ وجاء تفصيل الحديث في تفسير القرآن العظيم لابن كثير كما أوردناه في أعلاه قائلاً: «قال الحافظ أبو يعلى: حَدَّثَنَا سويد بن سعيد، حَدَّثَنَا مفضل بن عبد الله عن أبي إسحاق عن حنش، قال: سمعتُ أبا ذر ﷺ وهو أخذ بحلقة الباب يقول: يا أيها الناس! من عرفني فقد عرفني، ومن أنكرني فانا أبو ذر، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّمَا مَثَلُ أَهْلِ بَيْتِي فِيكُمْ كَمَثَلِ سَفِينَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، مَنْ دَخَلَهَا نَجَا وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا هَلَكَ». الجزء الخامس، ذيل تفسير آية التطهير. [المترجم]

(٣) وسائل الشيعة، ج ٢٧، ص ٤٩.

إذ يشير الفعل (نَجَا) إلى كلمة (الناجية) الواردة في الحديث المذكور.
 □ جاء في الروايات أَنَّ نوحاً عليه السلام ركب السفينة أول يوم من رجب^(١) وأنَّ حركتها كانت من الكوفة^(٢).

التعاليم:

- ١ - الشروع بأيّ عمل باسم الله هو رمز التوكّل والاستعانة بالله تعالى، ﴿أَرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ﴾.
- ٢ - لا حركة ولا توقّف إلّا بمعونة الله سبحانه، ﴿بِسْمِ اللَّهِ يَجْرِبُهَا وَتُمْسِكُهَا﴾.
- ٣ - السفينة هي مجرّد وسيلة، وعلى الإنسان أن يذكر الله لأنَّ كلّ شيء حادث بإرادته ومشيته، ﴿أَرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ﴾.
- ٤ - إنّ نجاة أصحاب نوح عليه السلام من الطوفان من تجليات العظمة والمغفرة والرحمة الإلهية، ﴿أَرْكَبُوا... إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿وَمَنْ يَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ
 وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَى أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾

إشارات:

□ يبدو أَنَّ نوحاً عليه السلام تحدّث إلى ابنه (كنعان) قبل أن تتحرّك السفينة لاستحالة صعوده على متن السفينة بعد تحرّكها وتلاطم الأمواج كالجبال^(٣).

□ سؤال: لماذا طلب نوح عليه السلام من ابنه فقط الصعود إلى السفينة؟

الجواب: أولاً، لا شكّ في أنّ مسؤولية الأب تجاه أبنائه هي مسؤولية جسيمة وكبيرة؛ ثانياً، لما رأى نوح عليه السلام ابنه واقفاً حسبه نادماً ينوي قبول الحقّ

(٣) انظر: تفسير روح المعاني، ج ٨، ص ٢٤٧.

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٣٦٠.

(٢) أصول الكافي، ج ٣، ص ٤٩٢.

والرَّجُوعُ عَنْ غِيَّهِ؛ وَرَبِّمَا كَانَ ذَلِكَ بِمِثَابَةِ تَحْذِيرِ لِلْآخِرِينَ مِنْ خِلَالِ دَعْوَتِهِ ابْنَهُ
لِلنَّجَاةِ.

□ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: «رَكِبَ نُوحٌ عليه السلام السَّفِينَةَ فِي أَوَّلِ يَوْمٍ مِنْ رَجَبِ
فَصَامَ وَأَمَرَ مَنْ مَعَهُ أَنْ يَصُومُوا ذَلِكَ الْيَوْمَ». ثُمَّ قَالَ الْإِمَامُ عليه السلام: «مَنْ صَامَ ذَلِكَ
الْيَوْمَ تَبَاعَدَتْ عَنْهُ النَّارُ مَسِيرَةَ سَنَةٍ»^(١).

□ يَدُلُّ مُخَوَّرُ الْفُلِّكَ وَشَقَّهَا تِلْكَ الْأَمْوَاجُ الْهَائِجَةُ عَلَى عِظَمَةِ السَّفِينَةِ وَمَهَارَةِ نَبِيِّ
اللَّهِ نُوحٍ عليه السلام.

التعاليم:

١ - لَمْ تَنْتَه مُعَانَاةُ النَّاجِينَ فِي الْفُلِّكَ فَأَمَامَهُمْ طَرِيقٌ وَعَرَةٌ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ
وُجُودِهِمْ فِي تِلْكَ السَّفِينَةِ وَامْتِلَاكِهِمْ رَبَّاناً كَالنَّبِيِّ نُوحٍ عليه السلام فَمَا زَالِ يَنْتَظِرُهُمْ
الْكَثِيرُ حَتَّى يَصِلُوا إِلَى شَاطِئِ الْأَمَانِ، ﴿فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾.

٢ - عَلَيْنَا أَنْ نَتَفَكَّرَ فِي خِلَاصِ الْآخِرِينَ وَنَجَاتِهِمْ حَتَّى اللَّحْظَةِ الْآخِرَةِ، وَإِنْ كَانُوا
كُفَّاراً، ﴿وَنَادَى نُوحٌ أُمَّتَهُ﴾

٣ - الْوَالِدَانِ مَسْئُولَانِ عَنْ مَصِيرِ أَوْلَادِهِمْ وَمُسْتَقْبَلِهِمْ، ﴿يَبْتَغِي أَرْكَبَ مَعَنَّا﴾.

٤ - مَنْ عَاشَرَ الْكُفَّارَ لَنْ يَسْلَمَ مِنَ الْإِنْحِرَافِ عَنْ جَادَةِ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ وَلَوْ كَانَ
ابْناً لِنَبِيِّ، ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ وَمَا أَرُوعَ مَا قَالَهُ الشَّاعِرُ الْفَارِسِيُّ (سَعْدِي)
بِهَذَا الشَّأْنِ:

أَضَاعَ ابْنُ نُوحٍ هَيْبَةَ أُسْرَتِهِ بِجُلُوسِهِ مَعَ الْكُفَّارِ مِنْ أَبْنَاءِ جِلْدَتِهِ

٥ - عِرَاقَةُ الْأُسْرَةِ وَأَصَالَتُهَا لَيْسَتْ كَافِيَتَيْنِ، فَبِئْسَةُ الْكُفْرِ وَالشُّرْكِ هِيَ سَبَبُ
الْإِنْحِرَافَاتِ وَالْفَسَادِ، ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿قَالَ سَتَأْتِي إِلَى جَبَلٍ يَخِيصُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ
مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾

إشارات:

□ عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «لَمَّا غَرِقَتِ الدُّنْيَا رَفَعَ اللَّهُ تِلْكَ الْقُبَّةَ»^(١)
وَعَرِقَتِ الدُّنْيَا إِلَّا مَوْضِعَ الْبَيْتِ»^(٢).

التعاليم:

- ١ - في البلايا والمشكلات يلجأ الموحّد إلى الله والمُشرك إلى الجبل. الاتكال على الشرق والغرب والثروة والأموال والمناصب، كلّ ذلك يُعدّ شركاً بالله، ﴿سَتَأْتِي إِلَى جَبَلٍ﴾.
- ٢ - إذا جاء أمر الله فلن تمنح الجبال الشاهقة النجاة من الطوفان لأحد، ولن تصمد هي كذلك أمام هذا السيل، ﴿جَبَلٍ يَخِيصُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾.
- ٣ - أصبح الماء بأمر الله تعالى سبباً لهلاك الكفار وتعذيبهم وهو مصدر الحياة لجميع الموجودات، ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾.
- ٤ - الحوادث الطبيعية ليست وليدة الصدفة إنّما هي أمر من أوامر الله الحكيم، ﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾.
- ٥ - مَنْ ذا الذي يُنقذ المخلوق من غضب الله إلا الله^(٣)، ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ... إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾.
- ٦ - لا شك في أنّ نتيجة مَنْ يكون ﴿مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ هي أن يكون ﴿مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾.
- ٧ - لا تؤثر العلاقات الأسرية والقربانية على الحكم الإلهي، فهوذا الابن العاق للنبيّ الصالح يغرق أمام ناظري والدّه فلا يجد هذا الأخير بداً من الامتثال لحكم ربّه، ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾.

(١) القبة التي أنزلها الله سبحانه على أبينا آدم عليه السلام. [المترجم].

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ١٢٨ - ١٢٩.

(٣) وهذا المعنى نجدّه في الدعاء المعروف بدعاء (أبي حمزة الثمالي): «هَارِبٌ مِنْكَ إِلَيْكَ».

٨ - إِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ رَحِيمٌ، لَكِنَّهُ حَكِيمٌ كَذَلِكَ؛ فَمَنْ رَحِمْتَهُ أَنْ يَمْتَلِئَ صَدْرُ الْأُمِّ لِبَنًا اسْتِقْبَالًا لَوْلَادَةِ الْجَنِينِ، وَمَنْ عَدَلَهُ أَنْ يَغْرُقَ الْوَلَدَ أَمَامَ عَيْنَيْهِ وَالِدِهِ وَيَهْلِكَ، ﴿مِنَ الْمُفَرِّقِينَ﴾.

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَنَسَمَاءَ أَقْلِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ
وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

إشارات:

□ تُعَدُّ هذه الآية من أبلغ آيات القرآن الكريم [وكل آيات الله بليغة] وأكثرها احتواءً للمعاني؛ إذ استحوذت على إعجاب الأدباء واهتمام أهل اللغة والكلام من العلماء منذ عصر النبي ﷺ وإلى يومنا هذا. فكان كل من يحاول محاربة القرآن ووضع كلام مشابه له، يرعوي وينتهي بمجرد بلوغه هذه الآية الشريفة.

□ يُقَالُ: بَلَغَ الْمَاءُ، يَبْلُغُهُ بَلْعًا، إِذَا شَرِبَهُ؛ وَ«الْإِقْلَاعُ» الْكَفُّ وَالْإِمْسَاكُ، ﴿وَغِيضَ﴾ بِمَعْنَى ابْتُلِغَ وَنَقِصَ.

□ الْمُرَادُ بِـ ﴿الْجُودِيِّ﴾ هُوَ الْجَبَلُ مُطْلَقًا أَوْ هُوَ اسْمُ جَبَلٍ مُعَيَّنٍ اخْتُلِفَ فِي مَوْضِعِهِ، فَقِيلَ: إِنَّهُ يَقَعُ:

(أ) فِي مَدِينَةِ الْمَوْصِلِ (الْعِرَاق).

(ب) عَلَى حُدُودِ الشَّامِ.

(ج) بَيْنَ الْمَوْصِلِ وَالْجَزِيرَةِ.

(د) فِي الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ.

(هـ) ضَمَّنَ سُلْسَلَةَ جِبَالِ أَرَارَاطٍ فِي تَرْكِيَا.

□ وَرَدَ فِي الرِّوَايَاتِ أَنَّ سَفِينَةَ نُوحٍ ﷺ بَقِيَتْ سِتَّةَ أَشْهُرٍ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ وَأَنَّهَا طَافَتْ بِمَكَّةَ وَالْحِجَازِ حَتَّى اسْتَوَتْ عَلَى الْجَبَلِ الْمَذْكُورِ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى^(١). وَعَنْ

(١) وَوَقْفًا لِحَدِيثِ ذَكَرَهُ الشَّيْخُ الطُّوسِيّ صَاحِبُ تَهْذِيبِ الْأَحْكَامِ قَالَ: بَلَعَتِ الْأَرْضُ مَاءَهَا مِنْ مَسْجِدِ

الْكُوفَةِ كَمَا بَدَأَ الْمَاءُ مِنْهُ. الْجُزْءُ السَّادِسُ، ص ٢٣.

الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «يوم النبروز هو اليوم الذي استوت فيه سفينة نوح عليه السلام على الجودي»^(١).

التعاليم:

١ - يستحق الظالم اللعن حتى بعد هلاكه، ﴿بَعْدًا لِلْقَوْرِ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي
وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾

إشارات:

□ لما كان الله سبحانه قد وعد في الآية «٤٠» من هذه السورة بنجاة آل بيت النبي نوح عليه السلام فقد ظن هذا الأخير أن امرأته هي الشخص الوحيد المحكوم بالهلاك من بين أفراد أسرته، فكان من الطبيعي أن يدفعه ذلك إلى دعوة ابنه (الذي تخلف عنه) إلى الركوب في السفينة، ومن ثم التوسل بالله سبحانه لإنقاذه.

التعاليم:

١ - من الضروري مراعاة الأدب والحدود عند الدعاء ومناجاة الله سبحانه وتعالى، فسيّدنا نوح عليه السلام لم يقل: إلهي! لقد وعدتني بنجاة أهلي، فلم لم تُنجِ ابني؟ بل ترك الأمر لصاحب الأمر وقال: ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾.

﴿قَالَ يَنْتُحِ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَّبِعْ
مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّيْ أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾

إشارات:

□ ليس المقصود بـ ﴿تَتَّبِعْ﴾ في مخاطبة نبي معصوم هو وجود سؤال مطروح؛

لأن سيدنا نوحاً عليه السلام يُصرّح في الآية التالية قائلاً: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْثَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾، بل المقصود هو: حذار أن تسأل! فنوح عليه السلام كان يظن أن ابنه يستحقّ عناء التشفع له فأخبره الله سبحانه بأنه ليس من أهله^(١).

□ تتضمن الكثير من الروايات الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام عبارة (ليس مِنّا...)، منها الروايات التالية^(٢):

(أ) قال الرسول صلى الله عليه وآله: «مَنْ عَشَى مُسْلِمًا فَلَيْسَ مِنَّا».

(ب) وقال صلى الله عليه وآله: «مَنْ أَكْرَمَهُ النَّاسُ اتَّقَاءَ شَرِّهِ فَلَيْسَ مِنِّي».

(ج) وقال صلى الله عليه وآله: «مَنْ أَصْبَحَ وَلَمْ يَهْتَمَّ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ بِمُسْلِمٍ».

□ سؤال: ورد في الآية (١٠) من سورة التحريم: إِنَّ امْرَأَتِي النَّبِيَّةَ نُوْحَ وَلَوْ طُوعَ قَدْ خَانَتَاهُمَا^(٣)، وفي هذه الآية يُخبر سبحانه نبيّه بشأن ابنه قائلاً: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾، فهل يفيد معنى الآيتين أن ابن نوح كان من السفاح؟

الجواب: أولاً، إن المقصود بخيانة امرأة نوح عليه السلام هو إفشاؤها أسرار زوجها إلى الكفار وإعانتهم عليه، وليست خيانة الزنا؛ لأن أزواج الأنبياء منزّهات عن ذلك. ثانياً: تشير الآية (٤٦) من سورة هود إلى أن السبب في اعتبار ابن نوح ليس من أهله هو عمله غير الصالح وليس شيئاً آخر.

التعاليم:

١ - العلاقات الدينية تسمو على العلاقات الشخصية والروابط الأسرية^(٤)، ﴿إِنَّهُ

(١) أي ليس مؤمناً ليستحقّ الشفاعة. [المترجم]

(٢) أغلب هذه الروايات موجود في كتاب سفينة البحار، الجزء الثاني، ص ٣١٨ و ٦٩١.

(٣) ﴿عَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتُ نُوحٍ وَامْرَأَتُ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْهِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَتَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدّٰخِلِيْنَ﴾.

(٤) ووفقاً لهذه القاعدة أيضاً أصبح سلمان الفارسي من آل بيت الرسول صلى الله عليه وآله بينما لحقت اللعنة أبا لهب إلى الأبد وهو عم النبي صلى الله عليه وآله.

لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴿١﴾، وأما العلة في نجاة مجموعة معينة من الغرق فهي إيمانهم بدعوة نوح عليه السلام وليس شيئاً آخر.

٢ - يُبالغ الإنسان أحياناً في عمل الخير أو الشر حتى يُصبح جزءاً لا يتجزأ من ذلك العمل، ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ مَبْلُوحٍ﴾.

٣ - الأنبياء كذلك بحاجة إلى مواعظ الله سبحانه، ﴿إِنِّي أَعْطُكَ﴾. يحذر الله سبحانه أنبياءه عند اللزوم ويحفظهم من الزلات في اللحظات الحرجة.

٤ - اجتنبوا كثيراً من الجهل، ﴿مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، فلا شك في أن طلب شيء من الله على غير هدى وحكمة هو طلب يدل على الجهل.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ
وَلَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمَنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ (١٧)

التعاليم:

١ - الأنبياء جميعهم خاضعون لله سبحانه وخاشعون له، ﴿فَلَا تَسْتَكْبِرُ... قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ﴾.

٢ - أكثروا من استخدام كلمة (رَبِّ) في أدعيتكم، ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ...﴾.

٣ - الاستعاذة بالله والاستجارة به أفضل أنواع التأمين للإنسان ضد الحوادث، ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ﴾.

٤ - علينا اتباع الأدب والخضوع أمام المواعظ الإلهية، ﴿إِنِّي أَعْطُكَ... رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ﴾.

٥ - متى جهلنا المصلحة والحكمة في أمر ما، علينا الكف عن الإلحاح، ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾.

٦ - كل طلب أو كلام في غير محله يلزمه التوبة والاعتذار، ﴿وَلَا تَغْفِرْ لِي﴾. إذا كان هذا هو حال الأنبياء في لجوئهم إلى الله والاستعاذة به من أي طلب غير

منطقيّ، فكيف بنا - نحن البشر العاديين - ونحن نطالب الله سبحانه بشتى أنواع المطالب غير المنطقية ولا المشروعة؟

٧ - اطلبوا المغفرة أولاً ثم الرحمة، ﴿وَلَا تَقْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي﴾.

٨ - عدم حصول الإنسان على المغفرة يساوي خسارته لكل شيء، ﴿وَلَا تَقْفِرْ لِي... أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾.

٩ - ليس باستطاعة البشر جميعاً، بمن فيهم الأنبياء، الوصول إلى أهدافهم من دون لطف الله سبحانه، فمن حُرِمَ المغفرة فهو كمن افترسه قسورة، ﴿أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾.

﴿قِيلَ يَنْتُحِ أَمِيطُ إِسْلَمٍ مِنَّا وَبَرَكَتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمِّرٍ وَمَنْ مَعَكَ
وَأُمٌّ سَمِعَتْهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ٤٨﴾

إشارات:

□ ذُكِرَ الأمر بالهبوط إلى كل من آدم ﷺ^(١) وسيدنا نوح ﷺ، ثم افترق الناس إلى فرقتين: فرقة مؤمنة وأخرى كافرة.

□ إِمَّا أَنْ يَكُونَ المقصود بـ ﴿أُمِّرٍ وَمَنْ مَعَكَ﴾ هو إشارة إلى أنّ كل فرد ممّن آمن بنوح ﷺ وكان معه في السفينة سيُصبح أباً لجيل أو أجيال قادمة، أو يكون المراد من ذلك هو أنّ كل مؤمن ممّن كانوا معه كان ينتمي إلى قبيلة من القبائل التي كانت موجودة قبل الطوفان.

التعاليم:

١ - كانت الحياة بعد ذلك الطوفان الذي غمر العالم تواجه خطرين كبيرين:

(١) مثلاً: ﴿وَقُلْنَا أَمِيطُوا بَشَرًا لِيَتِمَّ عَذَابُكُمْ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَرْوِجٌ إِلَى جَهَنَّمَ﴾، (سورة البقرة: الآية ٣٦).

أُولَٰهَـمَـا التِّلْوَثُ الَّذِي أُزِيلَ بِأَمْرِ اللَّهِ بِقَوْلِهِ: ﴿يَسْأَلُكِ مَتَّأً﴾، وثانيهما هو فناء جميع أنواع النباتات وهلاكها، وهو كذلك خطر رفعه الله سبحانه بالوعد الذي قطعه بقوله: ﴿يَسْأَلُكِ مَتَّأً وَبَرَكَتٍ عَلَيْكَ﴾.

٢ - على الرغم من المواعظ التي يقدمها الله تعالى والتحذيرات بل وحتى إغراق الأبناء الكافرين أمام أعين آبائهم، إلا أنه سبحانه وفي مواضع أخرى لا يخل بمنح السلام والبركات على خلقه، ﴿يَسْأَلُكِ مَتَّأً وَبَرَكَتٍ عَلَيْكَ﴾.

٣ - أهمّ نعمة إلهية يتلقاها العبد المؤمن من ربه هي السلامة والبركة، في حين لا يحصل الكافر إلا على المتاع الموقّت، فليس كلّ متاع أو متعة هي نعمة وبركة، بل إنّ كلّ نعمة هي نتيجة العاقبة الحسنة، ﴿يَسْأَلُكِ مَتَّأً وَبَرَكَتٍ عَلَيْكَ﴾.

٤ - لا يمنع الله سبحانه متاع الدنيا حتى عن الكفار، ﴿سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ﴾.

٥ - اقتضت سنة الله تعالى إعطاء النعم للناس وإمهالهم، ثمّ إثابتهم أو معاقبتهم، ﴿سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ﴾.

٦ - الرحمة والغضب كلاهما من الله سبحانه، ﴿يَسْأَلُكِ مَتَّأً... يَمَسُّهُمْ مَتَّأً﴾.

٧ - لاحظ أنّ الله تعالى يُخبر نبيه نوحاً ﷺ بظهور أمم ومُجتمعات كافرة من المؤمنين الذين كانوا معه في الفلك، ﴿وَأُمَمٌ سَتُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مَتَّأً عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ

مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾

إشارات:

□ وردت قصة نوح ﷺ في ست سور من سور القرآن الكريم هي: الأعراف، وهود ﷺ، والمؤمنون، والشعراء، والقمر، وسورة نوح ﷺ، لكن أكثر تلك القصص تفصيلاً وردت في سورة (هود) هذه.

ملاحح النبي نوح ﷺ في القرآن^(١):

□ على الرغم من أن القرآن الكريم ذكر اسم النبي نوح ﷺ أربعين مرة إلا أنه لم يُشير لا من بعيد ولا من قريب إلى مسقط رأسه أو مهنته أو عمله أو وفاته أو حتى قبره؛ لأن ما يُهمّنا من قصّته ﷺ هو أخذ الدروس والافتداء بسلوكه ومنطقه.

• كان نوح ﷺ أول الأنبياء من أولي العزم إذ كانت رسالته عالميّة وله كتاب وشريعة.

• بُعث النبي نوح ﷺ بعد آدم ﷺ وذلك عندما شاع الشّرك وانتشرت عبادة الأصنام وسيطر الظلم.

• تضمّنت دعوته التوحيد والصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعدل والصدق والوفاء بالعهود.

• كانت مدّة رسالته ﷺ «٩٥٠» سنة، وعندما أخبره الله سبحانه في النهاية قائلاً: ﴿لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾ بيّس نوح ﷺ من إيمان قومه ما دفعه إلى الدعاء عليهم، فكانت امرأته وولده من الكافرين وغرقا مع الغارقين.

• اختار الله تعالى نوحاً ﷺ رسولاً له إلى قومه، ويُسمّى بأبي البشر الثاني بعد آدم ﷺ ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا... عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٢) وهو الذي سلّم عليه الله من بين خلقه قائلاً: ﴿سَلِّمْ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾^(٣).

هذا وقد وردت قصّة نوح ﷺ في التوراة مع كثير من الاختلاف. والجدير بالذكر أن كُتب الكلدان والهندوس والصين واليونان والفُرس أشارت إلى قصّة الطوفان واعتبرته نتيجة الغضب الإلهي بسبب ظلم البشر وفسادهم في الأرض. وتنبأ كتاب (الأفستا) وهو الكتاب المقدّس لدى الزرادشتية، بوقوع طوفان عالمي عظيم يُغرق البشر جميعاً، وأنه أوحى إلى (جَمشيد) أن يبني سوراً كبيراً وعالياً

(١) انظر: تفسير الميزان.

(٢) سورة الصافات: الآية ٧٩.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٣٣.

ويضع داخله كلّ الرجال الصالحين والنساء الصالحات جميعاً وكذلك الحيوانات من كلّ زوجين اثنين. لقد كانت رسالة نوح ﷺ عالمية لاستحالة غياب الحجة عن الأرض، ويشهد على ذلك غرق الكفار بسبب دعاء نوح ﷺ حيث قال تعالى على لسان نبيه: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِيَارًا﴾^(١)، ولو كانت رسالة نوح ﷺ إقليمية أو خاصة بمنطقة معينة وكان الطوفان مقتصرًا على تلك المنطقة دون غيرها، لما أمر بحمل زوجين اثنين من كلّ الحيوانات، إذ من الواضح أنّ ذلك كان للحفاظ على سلالة الحيوانات ومنع انقراضها من على وجه البسيطة^(٢).

وتزخر سيرة حياة النبي نوح ﷺ بالأحداث التاريخية، تروي قصّة طوفان إغراق العالم كلّهُ وانقراض أجيال من البشر وبداية ظهور أجيال جديدة أخرى مكانها ونشوء مجتمعات حديثة بعدها كلوحة فنية تُصوّر انتصار الحقّ على الباطل وجانباً من استجابة لدعاء الأنبياء وشكلاً من أشكال انقطاع الصلة بين الأب وابنه بسبب الدين الحقّ وآية من خضوع الوجود وركوعه أمام أمر الله النافذ وسبيلاً لحفظ السلالة الحيوانية، بالإضافة إلى مشهد رائع لصناعة سفينة في قلب الصحراء حيث لا بحر ولا ماء.

وتشير هذه القصّة إلى إمكانية وصول الإنسان إلى حافة السقوط حيث لا ينفع معه نصيح الأنبياء ﷺ ولا تُؤثّر فيه مواعظ الأولياء، وبدلاً من ذلك نراه ينعت أتباع الأنبياء والمؤمنين بهم ويسمّيهم بالأراذل ويتحدّى الغضب الإلهيّ بما يظنّه وسيلة ناجعة للتخلّص والنجاة من الغرق وهي لجوؤه إلى جبل يعصمه من الماء.

التعاليم:

١ - القرآن الكريم هو أفضل مصدر للتاريخ البشريّ، ﴿تِلْكَ﴾.

(١) سورة نوح: الآية ٢٦.

(٢) العجيب أنّه على الرّغم من كلّ تلك الأدلّة ادّعى صاحب تفسير (المنار) بأنّ رسالة نوح ﷺ كانت محليةً وخاصة بمنطقة معينة، لكنّ العلامة الطباطبائي ردّ على ذلك بقوة في تفسيره الموسوم بالميزان.

- ٢ - ظلّ قسم كبير من التاريخ البشريّ مجهولاً لنا ومن ذلك تاريخ النبيّ نوح عليه السلام، ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾.
- ٣ - لم يكن أمام نبينا عليه السلام وقومه أيّ وسيلة لمعرفة شيء من تاريخ نوح عليه السلام سوى الوحي (القرآن الكريم)، ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ تُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾.
- ٤ - الوحي هو أفضل مرجع للأخبار التاريخية وأصدقها، فهو العلم الذي لا نهاية له، وناقله لا يخضع للضغوط أو الغفلة أو النسيان، ﴿أَنْبَاءُ الْغَيْبِ تُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾.
- ٥ - لا يتعدّى مقدار علم الأنبياء والرسل عليهم السلام من الغيب ما يُوحى إليهم ربهم، ﴿أَنْبَاءُ الْغَيْبِ تُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾.
- ٦ - لا شك في أنّ تاريخ الأنبياء عليهم السلام السابقين وسيرتهم هي أفضل وسيلة لتطبيب خواطر الأنبياء اللاحقين وتهذبة نفوسهم، ﴿فَأَصْبِرْ﴾.
- ٧ - الصبر والتقوى شرطان لازمان للنصر والتوفيق، فقد قال الله سبحانه: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ولم يقل: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلصَّابِرِينَ﴾.
- ٨ - وأخيراً، نجح الحق وانتصر وزهق الباطل واندرح، ﴿إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ عَادُوا أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْفَوْرُ عَبْدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ

مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾

إشارات:

- بُعِثَ سَيِّدُنَا هُودٌ عليه السلام بعد نوح عليه السلام، وقد وردت قصّة هذا النبيّ وسيرته مع قومه كذلك في سورة الأعراف (من الآية «٦٥» إلى «٧٢»). ولَمَّا كَانَ هُودٌ عليه السلام يَتَمَيُّ إلى قَبِيلَةِ (عاد) فقد سَمَّته الآية بـ ﴿أَخَاهُمْ﴾.
- لَمَّا حَضَرَتْ نُوحًا عليه السلام الوفاة جمع شيعته فقال لهم: «اعلموا أنّه سيكون من بعدي غيبة يظهر فيها الطواغيت، وأنّ الله ﷻ سيُفَرِّجُ عَنْكُمْ بِالْقَائِمِ مِنْ وَلَدِي اسْمُهُ (هود)»^(١).

(١) انظر: تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٤٢ - ٤٣، الحديث رقم ١٧٠، نقلاً عن: الشيخ الصدوق،

كمال الدين وتمام النعمة، ج ١، ص ١٣٥.

□ إِنْ جَعَلَ الْكُفَّارَ الْأَصْنَامَ شُفَعَاءَ لَهُمْ هُوَ افْتِرَاءٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَعَلَى الْأَصْنَامِ لَا عِبَادَتَ لَهَا ذَاتَ نَفْعٍ أَوْ ضَرَرٍ.

التعاليم:

- ١ - رسالة سيدنا هود عليه السلام خصوصاً إلى قوم عاد، ﴿وَالَيْكَ عَادٌ﴾.
 - ٢ - التبليغ في جوٍّ أخويٍّ له تأثيره الخاص، ﴿أَخَاهُمْ﴾.
 - ٣ - كان الأنبياء إخوة لأقوامهم ولم يكونوا تجاراً أو مُحْتَالِينَ أو حُكَّاماً، ﴿أَخَاهُمْ﴾.
 - ٤ - الدعوة إلى التوحيد هي مسؤولية الأنبياء الأولى، ﴿يَقُولُ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾.
 - ٥ - يقوم التوحيد العملي على أساس التوحيد العقائدي، ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾.
 - ٦ - ليس الشرك بالله سبحانه سوى وهم كبير وفرية أكبر، ﴿إِنْ أَشْتَرِ إِلَّا مُفْتَرًى﴾.
- ﴿يَقُولُ لَا اسْتَكْبَرُ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾

إشارات:

□ أشار القرآن الكريم في الكثير من آياته إلى أنَّ الأنبياء عليهم السلام لم يطلبوا أجراً أو ثمناً على دعوة قومهم؛ إذ يبدو أنَّ المسائل المادية كانت أهمَّ العوائق التي يمكن أن تحول بين الأفراد وبين قبولهم أيَّ دعوة إلهية.

التعاليم:

- ١ - أهداف الأنبياء عليهم السلام ليست مادية، بل الهدف من دعوتهم هو الحصول على مرضاة الله سبحانه، ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي...﴾ فالله هو الذي يجزي أنبياءه على أعمالهم.
- ٢ - الإخلاص [في العمل] هو شرط رئيس للنجاح في التبليغ، ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾.

- ٣ - رأس الإخلاص معرفة قدرة الله سبحانه، ﴿عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾.
- ٤ - التعقل والتدبر هما اللذان يقودان الإنسان إلى طاعة الأنبياء واتباع الوحي. فالعقل لا يتعارض مع الوحي بل هو الذي يهيئ الأرضية لقبوله والاعتراف به، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.
- ٥ - صحيح... فما الذي يدفع البعض إلى ركوب أمواج الصعاب وتحمل الإهانة والعقاب وهو لا يرجو ربحاً ولا متاعاً في هذه الدنيا؟! ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.
- ﴿وَيَنْقُورِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ (٥٢)

التعاليم:

- ١ - الاستغفار والتوبة من الذنوب أمران واجبان، ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا﴾.
- ٢ - الاستغفار من الذنوب هو مقدمة للإنابة إلى الله سبحانه، ﴿اسْتَغْفِرُوا... ثُمَّ تُوبُوا﴾.
- ٣ - الاستغفار والتوبة الفرديتان لا تُغيّران من وضع مجتمع بأكمله، بل لا بد من تغيير شامل ليعم الفيض الإلهي كل نقطة من نقاط المجتمع، ﴿وَيَنْقُورِ اسْتَغْفِرُوا... ثُمَّ تُوبُوا... يُرْسِلِ﴾.
- ٤ - تؤثر الأفعال والمعتقدات على الأحداث الطبيعية، ﴿تُوبُوا... يُرْسِلِ﴾. (ويذكر أن قوم عاد أصيبوا بالمجاعة والجفاف آنذاك).
- ٥ - لا تسمحوا للعوامل الطبيعية بالهائكم عن حكمة الله والغفلة عن إرادته، ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ﴾.
- ٦ - إذا أراد النظام الإسلامي تطوير الاقتصاد فلا بد من تطوير البرامج المعنوية في المجتمع قبل كل شيء، ﴿تُوبُوا... يُرْسِلِ السَّمَاءَ﴾.
- ٧ - الثروات والإمكانات الأخرى هي ثواب دنيويّ مقابل التوبة والإنابة إلى الله، ﴿تُوبُوا... يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً﴾.

٨ - الإيمان بالله وطاعته سبحانه لا يعنيان الابتعاد عن الأموال والثروات إطلاقاً، ﴿ثَوْبُوا... يُرْسِلِ السَّمَاءَ... وَزَيِّدْكُمْ قُوَّةً﴾. (فالإيمان لا يؤدي إلى نقصان أموالنا بل على العكس من ذلك إذ يزيده وينميهِ ﴿وَزَيِّدْكُمْ﴾).

٩ - إِنَّ تعظيمنا لله سبحانه وطلب التوبة والاستغفار منه يزيده من قوتنا ويُعزِّز من مكانتنا، ولا يصغُر من شأننا أبداً، ﴿وَزَيِّدْكُمْ قُوَّةً إِنْ قُوَّتْكُمْ﴾.

١٠ - كان قوم عاد أقوياء وأشداء، ﴿قُوَّةً إِنْ قُوَّتْكُمْ﴾.

١١ - يكتمل الإنسان باجتماع قدرة الإيمان لديه إلى قدرته الجسمية، ﴿قُوَّةً إِنْ قُوَّتْكُمْ﴾.

١٢ - إيجاد المجتمع القويم المُتمتع بالنعم والمُتَّصف بالقوة والقدرة، من الأهداف التي تصبو إليها الأديان السماوية، ﴿وَيَنْقُورُ... ثَوْبُوا... وَزَيِّدْكُمْ قُوَّةً إِنْ قُوَّتْكُمْ﴾.

١٣ - يُمثّل وجود نظام اقتصادي متين أرضية صلبة لإيجاد أنظمة قوية أخرى، فأولاً ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ﴾، ثم بعد ذلك ﴿وَزَيِّدْكُمْ قُوَّةً إِنْ قُوَّتْكُمْ﴾.

١٤ - لا بدّ من استخدام أسلوب التشجيع كذلك في التبليغ، ﴿ثَوْبُوا... يُرْسِلِ السَّمَاءَ... وَزَيِّدْكُمْ قُوَّةً﴾. (لا مانع من الإشارة إلى النتائج المادية للوصول إلى الأهداف المنشودة).

١٥ - تجاهل دعوة الأنبياء وعدم طاعتهم ظلم عظيم، ﴿بِجَهْلٍ﴾.

﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي

الْهِنَاءِ عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾

التعاليم:

١ - لا غَرَو أَنَّ الذين يسجدون للحجر والخشب ولا يملكون دليلاً منطقياً لما يقومون به، يشكّون في نبِيّ شيمته المُعجزة وأسلوبه الدليل الواضح البين، ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾.

٢ - يتلخص مُجَمَّل كَلام الكفار في رفضهم ترك عبادتهم لمُجَرَّد ما يقوله النبي هود عليه السلام وليس بسبب افتقارهم لما يُبَرَّر أفعالهم، فقولهم ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾ يشير بوضوح إلى أنهم لم يكونوا بحاجة إلى أي منطق، والدليل على ذلك تكرارهم لعبارة: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا... وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

٣ - في بداية دعوتهم واجه الأنبياء عليهم السلام مقاومة شديدة من قِبل المُشركين، لكن ذلك لم يمنعهم من الاستمرار والإصرار، ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوِّ قَالِ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَآشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ﴿٥٤﴾ فَاكِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴿٥٥﴾

إشارات:

□ (اعتري) بمعنى اعترض وأصاب.

□ تحدى النبي هود عليه السلام المُشركين لإثبات بطلان وجود القدرة الخيالية لدى الأصنام، كما كان النبي نوح عليه السلام يقول لقومه من قبل: ﴿فَأْتِمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾^(١)، وهذا ما قاله نبينا ﷺ كذلك: ﴿قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ﴾^(٢).

التعاليم:

١ - كان قوم عاد يظنون أن كل صنم من أصنامهم معنيّ بشأن من شؤون هذا العالم، ﴿بَعْضُ آلِهَتِنَا﴾.

٢ - ليس جديداً أن يُتَّهَمَ الأنبياء عليهم السلام والمصلحون [الدينون] بالجنون، في أي مجتمع؛ لأنهم يحاربون الخرافة والسفه، ﴿اعْتَرَاكَ... بِسُوِّ﴾.

٣ - إعلان البراءة من الشرك والتبري من المشركين هما سُنَّة الأنبياء جميعاً، ﴿بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

٤ - لا بدّ من الوقوف بحزم وإصرار أمام الخرافة، ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

٥ - تحدّي النبي هود عليه السلام دليل على صدقه وأحقّية دعوته، ﴿فَكِيدُونِي﴾.

٦ - الأنبياء لا يهابون أيّ قدرة أو سلطة، ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعاً﴾.

٧ - الأصنام أضعف من أن تُنسب إليها قدرة أو سلطة، ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعاً﴾.

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَحِمِي وَرَحِمَةُ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌ

بِنَاصِيئِهَا إِنَّ رَحِمِي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾

التعاليم:

١ - الاعتراف ببروبية الله تعالى القاهرة أساس التوكل عليه، ﴿تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَحِمِي وَرَحِمَةُ﴾.

٢ - قوام الشجاعة التوكل [على الله]، ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعاً... إِنِّي تَوَكَّلْتُ﴾. (إذا توكلنا على الله سبحانه سنواجه العالم بأسره من دون وجل)

٣ - ما مِن مخلوق يقدر على الإضرار بمخلوق آخر من دون إرادة الله سبحانه، ﴿فَكِيدُونِي... مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌ بِنَاصِيئِهَا﴾.

٤ - الله هو القاهر فوق كل شيء وهو العدل، ﴿ءَاخِذٌ بِنَاصِيئِهَا... عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

٥ - اتركوا على من هو قادر وعادل، ﴿تَوَكَّلْتُ... ءَاخِذٌ... عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

٦ - إذا بدأ عناد الكفار انتهى بغضب الله وعدله، ﴿ءَاخِذٌ بِنَاصِيئِهَا... عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

﴿إِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُمْ شَيْئًا إِن رِئِيَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ﴿٥٧﴾﴾

التعاليم:

- ١ - إذا أنجز الأنبياء دعوتهم وإبلاغهم أمر الله تعالى، فقد تمت الحجة، ﴿إِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ﴾.
- ٢ - تقتصر مسؤولية المُبلِّغ على بيان المعارف الدينية وتفسيرها للناس وليس إجبارهم على قبولها، ﴿إِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ﴾.
- ٣ - لا ينبغي للمُبلِّغ الديني وقائد الأمة أن يشعر بالضعف أو الهزيمة بمجرد اعتراض الناس على دعوته أو رفضهم إياها، ﴿إِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ﴾.
- ٤ - ليس بقاء الأمم ولا انقراضها أمراً اعتباطياً أو مجرد صدفة، بل هو خاضع لقوانين ولسنن إلهية مفروضة، ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾. (الشرك والذنوب ومعصية الأنبياء هي عوامل كفيلة بإبادة المجتمعات وحدوث التغييرات التاريخية).
- ٥ - إن كُفِرنا أو معصيتنا أو هلاكنا أو انقراضنا لا يضير الله سبحانه، ﴿إِن تَوَلَّوْا... وَيَسْتَخْلِفُ... غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُمْ شَيْئًا﴾.
- ٦ - الله حفيظ على كل شيء، ولا يضره كُفْرنا ولا تؤثر فيه حيلنا، ﴿إِن رِئِيَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ﴾.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ

بِرَحْمَتِنَا مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾

التعاليم:

- ١ - نزول العذاب أو ارتفاعه لا يكون إلا بأمر من الله وإرادته، ﴿نَجَّيْنَا﴾.
- ٢ - الأنبياء وأصحابهم وكل من آمن بهم محفوظون من العذاب وتبعاته، ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾.

- ٣ - لا يكفي الإيمان بالأنبياء وتصديق دعوتهم، بل لا بد من حمايتهم والدفاع عنهم، ﴿مَعَهُ﴾.
- ٤ - الله أصل كل رحمة ومصدر كل رافة ﴿يَرْحَمُوْنَ﴾ وأما غضبه وانتقامه فنحن سببه، فقد قال تعالى: ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ ولم يقل: (عَذَابٌ مِنْهُ).
- ٥ - ربما دلّ تكرار كلمة النجاة على رمز خلاص أصحاب النبي هود عليه السلام من الغضب الإلهي في الدنيا والآخرة معاً، من الآية: ﴿نَجِّنَا... وَنَجِّنْهُمْ﴾.
- ٦ - الريح واحدة من جنود الله المؤتمرة بأمره، ﴿أَمْرُنَا﴾^(١).

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَعَلُوا بَنَاتِنَ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ. وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾

التعاليم:

- ١ - هوذا تاريخ الأمم السابقة ماثلاً أمامكم، فلم لا تعتبرون يا أصحاب البصائر والعقول؟ ﴿تِلْكَ﴾.
- ٢ - تكذيب دعوة نبي من الأنبياء هو تكذيب لجميع الأنبياء من دون استثناء^(٢)، ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾.
- ٣ - من بين الأخطار التي تُهدّد المجتمع ما يلي:
- (أ) الكفر بآيات الله والجحد بها، ﴿جَعَلُوا بَنَاتِنَ رَبِّهِمْ﴾.
- (ب) عدم طاعة الأنبياء وأئمة الحق، ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾.
- (ج) اتباع الطغاة وموازرتهم، ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ﴾.

(١) والأمر الإلهي في قصة هلاك قوم (عاد) هي الريح الصّرصر كما ورد في سورة فصلت: الآية ١٦، ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ مَّحْسُوتٍ﴾.

(٢) قال صاحب تفسير الميزان: «وعصوا رسل ربهم وهم هود ومن قبله من الرسل فإن عصيان الواحد منهم عصيان للجميع فكأنهم يدعون إلى دين واحد فهم إنما عصوا شخص هود وعصوا بعصيان سائر رسل الله وهو ظاهر قوله في موضع آخر: ﴿كَلَّبَتْ عَادَ الرُّسُلَيْنِ﴾ لَدَ قَالَ لَمْ أَخْرُفْهُ هُوَ إِلَّا تَنَفُّونَ». سورة الشعراء: الآيتان ١٢٣ و ١٢٤. الميزان في تفسير القرآن، ج ١٠.

٤ - لا شك في أن من يعصي الأنبياء المعصومين ﷺ لن يجد مكاناً إلا في مُعسكر الظالمين والطغاة المُعاندين، ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ... وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

٥ - تَجَبُّرُ الطغاة على شعوبهم يهدف إلى إخضاعها وإذلالها، ﴿وَاتَّبَعُوا... جَبَّارٍ﴾.

﴿وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا

كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾

إشارات:

□ تتعلّق الآيات من «٥٠» إلى «٦٠» من سورة هود بقوم عاد؛ وهؤلاء قوم من العرب عاشوا في ما قبل التاريخ المدوّن وكانوا يسكنون الجزيرة [العربية] فانقطعت أخبارهم وانمحت آثارهم ولا يحفظ التاريخ من حياتهم إلا أقاصيص لا يُطمأنُ إليها، وليس في التوراة الموجودة كذلك ذكر عنهم. واستناداً إلى بعض الآيات القرآنية في سورة القمر والحاقة والأعراف والسجدة والشعراء، فقد كانت لهم قامات طويلة^(١) وكانوا ذوي بسطة في الخلق^(٢) وأولي قوة وبطش شديد^(٣) وكانوا متقدّمين في مجال المدنيّة والعُمران، ولهم بلاد عامرة وأراض خصبة ذات جنّات ونخيل وزروع ومقام كريم، ناهيك عن رقيّهم وعظيم مدنيّتهم، فقد قال تعالى في وصفهم: ﴿إِذْ ذَاكَ أَلْعَمَدُ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾^{(٤)(٥)}.

على كل حال كان هؤلاء القوم يعيشون في نعمة وترف، ولكن كما هي طريقة أغلب المتنعمين الغافلين والسكرارى من أثر النعمة، استغلّوا قدرتهم لظلم

(١) ﴿كَانَتْهُمْ أَعْجَازٌ تَخِلُّ تَخْفِيرٌ﴾، سورة القمر: الآية ٢٠؛ ﴿كَانَتْهُمْ أَعْجَازٌ تَخِلُّ تَخْلِيٌّ﴾، سورة الحاقة: الآية ٧.

(٢) ﴿وَرَزَّادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بِمُسْطَلَّةٍ﴾، سورة الأعراف: الآية ٦٩.

(٣) ﴿وَلَوْ أَنَّ بَلْعَشْرَ بَلْعَشْرَ جَبَّارِينَ﴾، سورة الشعراء: الآية ١٣٠.

(٤) سورة الفجر: الآيتان ٧ و٨.

(٥) الميزان في تفسير القرآن، الجزء العاشر.

الآخرين واستثمارهم واستعمارهم واتبعوا أمر كل جبار عنيد، وأقروا بعبادة الأوثان. وحين دعاهم نبيهم هود عليه السلام بكل ما أوتي من جهد لينير أفكارهم بنصحه ووعظه ويتم الحجة عليهم، [عصوه وكذبوه] فأخذهم إعصار شديد استمر سبع ليال وستة أيام حسوماً.

ويعتقد بعض المؤرخين أن كلمة (عاد) تُطلق على قبيلتين، إحداهما كانت تقطن الحجاز قبل التاريخ ثم زالت مع آثارها، والتعبير الوارد في القرآن ﴿عَادًا الْأُولَى﴾^(١) إشارة إلى هذه القبيلة. ولكن في حدود ٧٠٠ سنة قبل ميلاد المسيح عليه السلام كُشف عن قوم آخرين باسم عاد أيضاً كانوا يقطنون الأحقاف أو اليمن كذلك^(٢).

التعاليم:

١ - مَنْ يُنْكِرِ الْآيَاتِ الْإِلَهِيَّةَ وَيَعْصِي رُسُلَ رَبِّهِ وَيَتَّبِعِ الطَّاغُوتَ، بعيد كل البعد عن رحمة الله، ﴿وَأَتَّبِعُوا... لَعْنَةً﴾.

٢ - اللعنة في هذه الدنيا هي نوع من العقوبة الإلهية، ﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾.

٣ - «الموت للظالمين»! شعار من شعارات القرآن الكريم، ﴿أَلَا بَعْدُ لِعَادٍ﴾^(٣).

﴿وَإِنْ تَتُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوَّرُ أَبْعَدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾^(٤)

إشارات:

□ سيدنا صالح عليه السلام هو ثالث نبي مرسل بعد نوح وهود عليه السلام.

(١) سورة النجم: الآية ٥٠.

(٢) انظر: تفسير الميزان؛ الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٣) وهناك الكثير من هذه الشعارات ذكرها القرآن الكريم مثل: ﴿أَلَا بَعْدُ لِنُوحٍ﴾ سورة هود: الآية ٦٨ و﴿أَلَا بَعْدُ لِمَنْ﴾ سورة هود: الآية ٩٥ و﴿بَعْدُ لِلْقَوْرِ الظَّالِمِينَ﴾ سورة المؤمنون: الآية ٤١ و﴿بَعْدُ لِلْقَوْرِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ سورة المؤمنون: الآية ٤٤.

التعاليم:

- ١ - كانت علاقة الأنبياء ﷺ بأقوامهم علاقة ودية وأخوية، ﴿أَخَاهُمْ﴾.
- ٢ - من الأفضل أن يكون المبلّغ والداعية من أبناء المنطقة التي يريد التبليغ فيها، ﴿أَخَاهُمْ﴾.
- ٣ - عبادة الله سبحانه هي هدف الأنبياء جميعاً، ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾.
- ٤ - تكمن فلسفة عبادة الله سبحانه في لطفه اللامحدود على الإنسان، ﴿اعْبُدُوا... أَنْشَأَكُمْ﴾.
- ٥ - الإنسان مخلوق من الطين، ﴿أَنْشَأَكُمْ مِنْ الطِّينِ﴾.
- ٦ - الإسلام دينٌ يجمع بين عالم الدنيا وعالم الآخرة؛ فهو يدعو إلى عمارة الأرض وإصلاحها كما يدعو إلى الاستغفار والتوبة، ﴿وَأَسْتَغْفِرْكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾.
- ٧ - عمارة الأرض وإصلاحها هي إرادة الله سبحانه، ﴿وَأَسْتَغْفِرْكُمْ فِيهَا﴾.
- ٨ - ينبغي أن يكون إله الموحدين ومعبودهم إلهاً عارفاً ومُدركاً، وعالماً وقديراً وسميعاً بصيراً، وقريباً مُجيباً، وهذه صفات تفتقدها الأصنام والأوثان، ﴿قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾.
- ٩ - الرجوع إلى الله والإنابة إليه سهلة ويسيرة، والتوبة هي وسيلة التقرب إليه تعالى، ﴿تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾.
- ١٠ - لو أنّ الأمم السابقة استغفرت ربّها وتابت إليه لوجدته قريباً منها قابلاً لتوبتها، ﴿تَوْبُوا... قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾.
- ١١ - الله تعالى قريب من كلّ شيء، لكن أفكارنا المريضة وتصرفاتنا الخاطئة هي ما يُبعدنا عنه، ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾.

﴿قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَنَّا أَنْ نَعْبُدَ
مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ (٦٢)

إشارات:

□ في البداية قال الكفار لصالح عليه السلام: «لقد كنت يا صالح مُحترماً بيننا وكنا نحَبُّكَ ونعزُّكَ»، أملاً منهم على ما يبدو في أن يكف عن دعوتهم إلى التوحيد من أجل الحفاظ على علاقاته الطيبة بهم والإبقاء على ما كان بينهم من الوشائج والمودة.

التعاليم:

- ١ - على المُبلِّغ أن يكون حسن السيرة والسلوك بين قومه، ﴿مَرْجُوًّا﴾.
- ٢ - حذار من أن يكون مديح الضالِّين وإطراؤهم مدعاة لضعفكم وتساهلكم في الدَّعوة إلى الحق، ﴿قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾. (انتبهوا، فإن مديح الأعداء وإطراءهم لا يخلو من أغراض دنيئة وأهداف مشؤومة).
- ٣ - الأنبياء رَوَّاد محاربة المُعتقدات الخرافية والقضاء عليها، ﴿أَتَنْهَنَّا﴾.
- ٤ - لا يجب أن يتَّخذ الإنسان سيرة آبائه وأجداده مصدراً وحيداً لعقائده، ﴿أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾.
- ٥ - من الواضح أنَّ الثقافة الإنسانيَّة مرتبطة بعضها ببعض على مرَّ العصور، ﴿أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾.
- ٦ - ليس من السَّهل على بعض الناس ترك مُعتقداتهم والكف عن سلوكهم الذي ورثوه عن آبائهم (أي، أننا لا يجب أن نتوقَّع إصلاحاً جذرياً وسريعاً)، ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ﴾.
- ٧ - من الطبيعي أن يرتاب الناس في أيِّ حديث أو برنامج جديد لم يعهدوه من قبل، ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ﴾.

٨ - لا بأس من أن يكون الشك مقدمة أساساً للبحث والإرشاد، وإلا فإنه سيصبح بالتأكيد أكبر عامل للسقوط، ﴿شَكَّ... مُرِيبٌ﴾.

﴿قَالَ يَنْفَرُ أَرَأَيْتَ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَنْفَرٍ مِنْ رَبِّي وَءَاتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً
فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ۖ مَا تَرِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ (٦٣)

التعاليم:

- ١ - ليس من شيمة الأديان السماوية والقادة الدينيين دعوة الناس إلى عبادة الله وتوحيده بالقوة والتهديد والجهل، بل بالبينّة والمعجزة والأدلة الواضحة الدامغة، ﴿بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّي﴾.
- ٢ - النبوة هي رحمة استثنائية يُفيضها الله سبحانه على عباده المُخلصين، ﴿وَءَاتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾.
- ٣ - حتى الأنبياء ﷺ يمكن أن يبوؤوا بغضب من الله إذا ما تساهلوا في رسالتهم أو تهاونوا في دعوتهم، ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾.
- ٤ - لا يُنسيكم الشيطان ذكر الله والابتعاد عن طريقه لما يقدمه لكم الناس من إغراءات أو ادّعاءاتهم حمايتكم، فالأفراد المنحرفون لا يقدمون لنا سوى الخسران المُبين، ﴿مَا تَرِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾.
- ٥ - مخالفة الحق هي الخسران المُبين، ﴿تَخْسِيرٍ﴾.

﴿وَيَنْفَرُ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ
وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ (٦٤)

إشارات:

□ كانت ناقة صالح ﷺ متميزة واستثنائية من نواح عدة^(١)، منها: (١) أنها أُخرجت

(١) أشار القرآن الكريم إلى قصة ناقة صالح في آيات أخرى وفي سور شتى كذلك، كآيات ١٥٥

و ١٥٨ من سورة الشعراء؛ و ٢٧ و ٣١ من سورة القمر.

أمام أعين قوم صالح من قلب الصخرة؛ (٢) كانت تحمل في بطنها جنيناً دون أن يلمسها فحل من جنسها؛ (٣) كانت قادرة على شرب ماء القرية كله وحدها في يوم واحد؛ (٤) كانت تُنتج لبناً يكفي أهل القرية جميعاً؛ (٥) لم تكن بحاجة إلى أي رعاية أو حماية أو تغذية من أي فرد من أفراد تلك القرية.

□ قال النبي ﷺ للمشركين من قومه: «سأطلب من أصنامكم شيئاً واطلبوا أنتم كذلك من ربّي شيئاً، فأَيّ منهما يستجيب لنا سنتبعه جميعاً». فوافق المشركون على عرضه. فأما ما طلبه المشركون من الله سبحانه فهو خروج ناقة حاملة من قلب صخرة في جبل كان قريباً من القرية في الحال. فاستجاب الله لهم وخرجت الناقة الحاملة بكلّ تفاصيلها التي طلبوها من بطن الصخرة^(١).

التعاليم:

- ١ - لا بدّ من أن تكون مُعجزة مَنْ يدّعي أنّه نبيّ الله ملموسة للناس ومفهومة ومرئية، ﴿هَذِهِ﴾.
- ٢ - قدرة الله سبحانه غير محدودة وهو مُسبّب الأسباب، وقد أخرج الناقة من الجبل كمعجزة على صدق نيّة صالح ﷺ، ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾.
- ٣ - لا جرم أنّ ناقة صالح كانت مُعجزة عظيمة، ﴿نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾.
- ٤ - ينبغي احترام المُقدّسات أيّاً كانت، ﴿فَذَرُوهَا... تَمْسُوهَا﴾.
- ٥ - إهانة المُقدّسات تستوجب عذاب الله السريع، ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾.

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ
آيَاتٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ ﴿٦٥﴾

إشارات:

□ تُحدّثنا الروايات عن أنّ الذي قتل ناقة صالح ﷺ لم يكن سوى رجل واحد

ومع ذلك فإنَّ القرآن الكريم يقول: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ ومعناه أنَّ جميع القوم اشتركوا في الواقع في قتل الناقة؛ لأنَّ الجميع كانوا راضين عن هذه الفعلة الشنيعة ومؤيدين لها، وهذا هو قانون الشريعة الإسلامية حيث يُحْمَل جميع المؤيدين لفكرة أو عقيدة ما إثم ما يرتكبه أحد أفرادهم^(١).

□ سؤال: ما هي العلة في منح قوم صالح عليه السلام مهلة ثلاثة أيام؟

الجواب:

(أ) ربّما كانت تلك فرصة للقوم لعلهم يرجعون ويتوبون!
 (ب) أو وسيلة للضغط النفسي على الكافرين إمعاناً في تعذيبهم. فلو قيل لشخص: إنَّك ستهلك بعد ثلاثة أيام! لا شك في أنَّ ذلك سيكون له وقع كبير وأثر سيئ على نفسيته.
 (ج) قد يكون دليلاً آخر على صدق نبوءة صالح عليه السلام لأنَّ تعيين وقت مُحدّد يعني بحدّ ذاته إخباراً عن الغيب.

التعاليم:

- ١ - الساكت عن الجريمة شريك فيها^(٢)، ﴿فَعَقَرُوهَا﴾.
- ٢ - لا تستهينوا بالتحذيرات الإلهية، ﴿عَبْرٌ مَّكْذُوبٌ﴾.
- ٣ - إهانة المُقدّسات تستوجب العذاب الحتمي، ﴿وَعَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَنَيْنَا صَلْبًا وَأَلْذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾

إشارات:

□ «الخزي» هو العيب الذي إذا ظهر فضح صاحبه.

(١) انظر: وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٤٠٩ - ٤١١.

(٢) أشار أمير المؤمنين علي عليه السلام كذلك إلى هذا المعنى في نهج البلاغة. انظر: من كلامه عليه السلام ١٢

□ قد تشمل البلايا الطبيعية في الحالات الاعتيادية - كالزلازل والفيضانات والأمراض الخطيرة - كلاً من المؤمنين والكافرين معاً لعدم اتخاذ البعض الحيطة والحذر اللازمين فتسري آثارها إلى الجميع من دون استثناء. لكن عندما يتعلق الأمر بغضب الله سبحانه، فإن المؤمنين سيكونون في مأمن من ذلك بكل تأكيد باستثناء مَنْ استحقَّ العذاب لسكوته على الظلم أو تركه التهي عن المنكر، ﴿بَجَيْنًا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾.

التعاليم:

- ١ - يُنجي الله تعالى الأنبياء ومن آمن معهم من غضبه وعذابه، ﴿بَجَيْنًا﴾.
- ٢ - يُعتبر الإيمان بالنبي وطاعته واتباعه من بين الشروط الكفيلة بالنجاة من غضب الله وعذابه، ﴿بَجَيْنًا... الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾.
- ٣ - اتباع الرسول يُوجب العزة والرفعة، ﴿بَجَيْنًا... الَّذِينَ ءَامَنُوا... وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾.
- ٤ - ما أسهل أن يُنجي الله سبحانه ثلثة قليلة من المؤمنين من بين كل أولئك الكافرين، ﴿هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾.
- ٥ - يُطمئن الله ﷻ في هذه الآية نبيه ﷺ بأنه قادر على أن يفعل الشيء نفسه بالمُشركين من قومه لأنه هو القوي العزيز، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾.

﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِئَرِهِمْ جَثِيمِينَ ﴿٦٧﴾
كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾

إشارات:

- ﴿جَثِيمِينَ﴾: (جَثِمَ) بمعنى جَلَسَ على رُكْبَتَيْهِ أو سقط على وجهه، أو حالة تعثر الإنسان إذا صعقه البرق (الكهرباء) فَيَتَبَيَسُ مكانه ويعجز عن الحركة، ﴿يَغْنَوُا﴾ من (غَنَى) بمعنى أقام ومكث في المكان.
- أغلقَ ملف قوم (ثمود) المُعاندين في هذه الآية الشريفة.
- كان النبي ﷺ عربياً من بيت شريف في (ثمود) وكان معروفاً بالعقل

والكفاية^(١)، أما (ثمود) فهم قوم من العرب العاربة كانوا يسكنون وادي القرى بين المدينة والشام؛ نشأوا بعد قوم (عاد) وكانت لهم حضارة ومدنية، يعمرون الأرض ويتخذون من سهولها قصوراً وينحتون من الجبال بيوتاً آمناً^(٢). ومن شغلهم الفلاحة وحفر العيون وإنشاء الجنان والنخيل والحرث^(٣). هذا، ولم يرد للنبي الصالح ﷺ أي ذكر في التوراة الحاضرة^(٤).

□ من المعروف في الوقت الحاضر أنه عندما تمرّ طائرة تفوق سرعتها سرعة الصوت بالقرب من المناطق السكنية، فإنّ الصوت الهائل الناجم عن تلك السرعة يتسبب في تحطيم زجاج الأبنية وربما أجهضت الحوامل من النساء وتسارعت ضربات القلب لدى الكثير من الأشخاص القريبين. وقد قيل: إنّ نهاية العالم ستكون بواسطة صوت مدوّ يتداعى له كلّ شيء ويتراكم على بعضه البعض ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّصُونَ﴾^(٥)، وكذلك القيامة وأحداثها فإنّها ستقوم بصيحة تُبعث على أثرها الأجساد ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾^(٦).

التعاليم:

١ - نزول العذاب والغضب الإلهي على قوم صالح ﷺ كان نتيجة طبيعية لظلمهم وطغيانهم، ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.

٢ - لا يقتصر العقاب الإلهي على الآخرة فقط، بل يُحاسب الظالمون والمجرمون في هذه الدنيا كذلك، ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.

(١) الميزان في تفسير القرآن، الجزء ١٠.

(٢) ﴿...تَنْخُدُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا وَتَجْعَلُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا...﴾، سورة الأعراف: الآية ٧٤.

(٣) سورة الشعراء: الآيات: ١٤٦ - ١٤٩.

(٤) الميزان في تفسير القرآن، الجزء ١٠.

(٥) سورة يس: الآية ٤٩.

(٦) السورة نفسها: الآية ٥٣.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ
فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ خَنِيذٍ﴾

التعاليم:

- ١ - باستطاعة ملائكة الله سبحانه أن يظهرها بأشكال وهيئات آدمية، ﴿جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ﴾.
- ٢ - استهلوا حديثكم بالسلام أولاً، ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾.
- ٣ - السلام شعار سماوي وتهذيب ملكوتي، ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾.
- ٤ - ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِحَبْنَةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾^(١)، (وكلمة «سلام» هي في الواقع جملة اسمية أقوى صدق من الجملة الفعلية ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾).
- ٥ - عجلوا في إكرام الضيف ورفادته، ﴿فَمَا لَبِثَ﴾.
- ٦ - إكرام الضيف - وإن كان غريباً - من شيم الكرماء، ﴿جَاءَ بِعِجْلٍ خَنِيذٍ﴾.
- ٧ - كان خليل الله إبراهيم ﷺ يُكرم ضيوفه حق الضيافة والإكرام، ﴿جَاءَ بِعِجْلٍ خَنِيذٍ﴾.
- ٨ - تجتنبوا سؤال الضيف حول الطعام أو الأكل، فلا تقولوا له مثلاً: هل تناولت طعامك؟ أو هل ترغب في أن أحضر لك شيئاً من الطعام أو غير ذلك، ﴿جَاءَ بِعِجْلٍ﴾.
- ٩ - ليكن صاحب المنزل هو المضيف شخصياً، ﴿جَاءَ بِعِجْلٍ﴾.
- ١٠ - حاولوا أن تأتوا بالطعام إلى حيث يجلس الضيف وليس العكس، ﴿جَاءَ بِعِجْلٍ﴾.
- ١١ - لتكون ضيافتكم للضيف متميزة وخاصة^(٢)، ﴿بِعِجْلٍ خَنِيذٍ﴾.

(١) سورة النساء: الآية ٨٦.

(٢) وفي الآية ٢٦ من سورة الذاريات، يُخبرنا القرآن الكريم بأن إبراهيم ﷺ حمل إلى ضيفه عجلاً مشوياً شهياً ﴿وَلَقَدْ آتَاهُ فَبَهِجَ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾.

﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً
قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾

إشارات:

□ لم يكن إحساس النبي إبراهيم ﷺ بالخطر نتيجة للخوف أو الضعف الذي نشعر به نحن البشر العاديون عندما تحقق بنا بعض المخاطر، فهذا هو إبراهيم ﷺ بطل التاريخ في تحطيم أصنام أعتى الملوك وهو التمرود؛ بل كان توجسه خيفةً نابعاً من الاحتراز من هؤلاء الغرباء لئلا يعتدوا على حياته، وهو شعور طبيعي لدى كل إنسان.

□ ينبغي مراعاة سلسلة المراتب، فيما أن إبراهيم ﷺ هو المسؤول عن شأن لوط ﷺ وقومه باعتباره (أي إبراهيم) من أولي العزم وصاحب الشريعة الأكبر، كان من المفروض إبلاغه بالقرار الذي اتخذته الله سبحانه بشأن قوم لوط ﷺ احتراماً له وليكون على علم بما سيحدث.

التعاليم:

- ١ - ليست الملائكة ﷺ مخلوقات تتناول الطعام كما نفعل نحن البشر، ﴿أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾.
- ٢ - من الواضح أن علم الأنبياء له حدود، ﴿نَكِرَهُمْ﴾.
- ٣ - كان عدم تناول الضيف طعام مُضيفه يُفهم كشكل من أشكال العداوة أو الخصومة في زمن النبي إبراهيم ﷺ، ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾.
- ٤ - يكون سبب خوف الإنسان في بعض الأحيان جهله لحقيقة أو ماهية ما يخافه، ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً... لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا﴾.
- ٥ - يُعتبر إنزال العذاب الإلهي أحد المهام التي تُكلف بها الملائكة، ﴿أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾.

﴿وَأَمْرَآئُهُ، فَأَيَّمَهُ فَضَحِكْتَ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ﴾ (٧١)

إشارات:

□ كلمة ﴿فَضَحِكْتَ﴾ المذكورة في هذه الآية لا تعني الضحك المعروف بل تعني (حاضت) من (الحيض) وهي العادة الشهرية التي تعترى المرأة قبل سن اليأس.

□ يُقال: إن زوجة إبراهيم ؑ ضحكت (سروراً) بعد أن علمت أن امتناع الضيفين عن تناول الطعام ليس سببه خصومة أو شيء من هذا القبيل. وقيل: بل لما كانت سارة (زوجة إبراهيم ؑ) عجوزاً وانقطعت عنها عادة النساء من الحيض، وبشرتها الملائكة بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب، ضحكت، يعني تعجبت من قولهم، وقالت: ﴿قَالَتْ يَتُولاَنِي ۖ أَلَيْدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَفْجِئِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْهِ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَيِّدٌ مُجِيدٌ﴾. فعلمت سارة أن إرادة الله تعالى شاءت أن تلد وهي كما هي عجوز وزوجها شيخ مسن. وعن أبي عبد الله ؑ في معنى قول الله ﷻ ﴿فَضَحِكْتَ﴾، قال: «حاضت»^(١).

التعاليم:

- ١ - يكون حضور المرأة ضرورياً في بعض الأحيان، ﴿وَأَمْرَآئُهُ، فَأَيَّمَهُ﴾.
- ٢ - لا شك في أن مشاعر المرأة أرق من مشاعر الرجل (فقد سمع كل من إبراهيم ؑ وامراته حديث المَلَكَيْنِ، لكن سارة هي التي ضحكت)، ﴿فَضَحِكْتَ﴾.
- ٣ - لا تخلو حالات القلق أحياناً من الأخبار السارة، ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً... فَبَشَّرْنَاهَا﴾.
- ٤ - النعمة الدائمة هي أفضل النعم والبشارات، ﴿وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ﴾^(٢).

(١) تفسير نور الثقلين.

(٢) في هذا التعبير: ﴿وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ﴾ إشارة إلى وجه تسمية يعقوب ؑ بهذا الاسم، وهو أنه =

- ٥ - لاحظ أن أسماء الأنبياء ﷺ تُوضَع حتى قبل ولادتهم، ﴿إِسْحَاقُ... يَعْقُوبُ﴾.
- ٦ - على الرغم من أن كل مجموعة من ملائكة الله سبحانه تُكَلَّفُ بأمر مُعَيَّن، إلَّا أن المسؤولية التي أُوكِلَتْ إلى هذين الملكين - كما يبدو - هي مسؤولية مُتعددة الجوانب والغايات. فقد أُرسلَا لإنزال العذاب على قوم لوط ﷺ وذلك باقتلاع مدينتهم من جذورها وقُلُوبها رأساً على عَقَب، ولتبشير إبراهيم ﷺ بالمولودين (إسحاق ويعقوب ﷺ)، ﴿أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ... فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَدَّوْا إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ﴾.

﴿قَالَتْ يَوْنَتَنِي ٱلْأَلْدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾

إشارات:

- في الواقع، كانت زوجة إبراهيم ﷺ على حق في تعجبها من أمر البشارة بالمولود؛ لأنها كما قالت: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾^(١) أي أنه بالإضافة إلى كونها عجوزاً إذ يُقال إنها كانت قد جاوزت التسعين آنذاك وزوجها ﷺ بلغ من العمر مئة عام تقريباً، فقد كانت (سارة) عقيماً وعاقراً في شبابها كذلك.
- قال العلامة الطباطبائي في (الميزان): «البغلُ زوج المرأة والأصل في معناه القائم بالأمر، المُستغني عن الغير. يُقال للتلخ الذي يَسْتَغْنِي بماء السماء عن سقي الأنهار والعيون (بغل)، ويُقال للصَّاحِب وللرَّبِّ: بَغْلٌ»^(٢).

التعاليم:

- ١ - المرأة قادرة على إيصال نفسها إلى مرتبة يمكنها فيها التحدُّث حتى مع الملائكة، ﴿قَالَتْ﴾.

= كان يعقوب بحسب هذه البشارة أباه إسحاق وقد ذكر فيها أنه راءه. الميزان في تفسير القرآن،

ج ١٠.

(١) سورة الذاريات: الآية ٢٩.

(٢) الميزان في تفسير القرآن، ج ١٠.

٢ - لا تتعارض حالة التعجب إزاء الأمور الإعجازية إطلاقاً مع الإيمان بالله سبحانه، ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾.

٣ - ليس من المنطقي حصر قدرة الله سبحانه ضمن إطار تصوراتنا وإمكاناتنا المحدودة، ﴿وَأَنَا عَجُوزٌ... بَقِي شَيْخًا﴾، فليست كل الأسباب والعِلل الظاهرية فعالة ومصيرية.

﴿قَالُوا أَنْعَجِينَ مِنَ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكَ
أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ (٧٣)

إشارات:

□ رُوي أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام مرَّ بقوم فسَلَّم عليهم، فقالوا: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت، ومغفرته ورضوانه. فقال عليه السلام لهم: «لا تجاوزوا بنا ما قالت الملائكة لأبينا إبراهيم عليه السلام رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت، بل قولوا: وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ»^(١).

□ سؤال: بالنظر إلى أنَّ الملائكة في الآية المذكورة تُخاطب زوجة النبي إبراهيم عليه السلام باسم ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾، ومن الطبيعي أن تكون زوجة الرجل أحد أفراد بيته، لماذا لا تُعتبر زوجات الرسول عليه السلام أفراداً من آل بيته عليه السلام في آية التطهير: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^(٢)؟

الجواب: إذا استندنا إلى المعنى اللغوي البحت لعبارة ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ فمِمَّا لا شك فيه أنَّ هذه العبارة تُطلَق على زوجات الرجل كذلك. لكنَّ الحالة تختلف مع آية التطهير هذه، وذلك لوجود أدلة تُخرج الشخص أحياناً من شمول تلك العبارة مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾^(٣) إذ استُثني ابن نوح عليه السلام من

(١) الطبرسي، تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ٣٠٩.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

(٣) سورة هود: الآية ٤٦.

أهل النبي. أو أَنَّ أدلة أخرى قد تشمل الفرد وتدرجه ضمن معنى تلك العبارة فيُصبح من أهل بيت الرجل كما حدث مع سلمان الفارسي عندما احتج المهاجرون والأنصار في أمره. فقال المهاجرون: سلمان متا، وقالت الأنصار: بل سلمان متا، فقال النبي ﷺ: «سلمانُ مِنّا أهل البيت»^(١).

وأما ما يخصّ آية التطهير فلدينا الكثير من الأدلة التي تشير بوضوح إلى أَنَّ النبي ﷺ سَمِيَ الذين دخلوا معه تحت الكساء (في حديث الكساء المشهور) فقط بأهل بيته وأنه ﷺ لم يسمح حتى لزوجته السيّدة (أُمّ سَلَمَة) بالانضمام إلى تلك العصابة التي اختارها النبي ﷺ وسمّاها: «أهل بيتي».

التعاليم:

- ١ - يُسَمَح للملائكة أحياناً بالتحدّث كذلك إلى بني البشر من غير الأنبياء، ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ﴾.
- ٢ - يمكن للمرأة أيضاً التحدّث إلى الملائكة الأعلى، ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ﴾. (نهى الملائكة زوجة إبراهيم عليه السلام عن التعجّب وعدم التصديق لما قالوه).
- ٣ - ليس لنا أن نياس أو نقنط من العون الإلهي الغيبي، ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾.
- ٤ - تذكّروا نِعَمَ الله سبحانه التي لا تُحصى وآلاءه التي لا تُعدّ لتطردوا من أذهانكم كلّ عَجَبٍ وغرابة في أيّ أمر، ﴿أَتَعْجَبِينَ... رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْهِ﴾. (أليس الإله الذي جعل النار مِن قَبْلُ برداً وسلاماً على عبده إبراهيم عليه السلام ونصره على عبدة الطاغوت بقادرٍ على أن يهب الأولاد لعجوز عقيم وبعل شيخ)؟
- ٥ - الولد الصالح رَحمة من عند الله وبركات، ﴿رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْهِ﴾.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِرْزَاهِمَ الرُّوحُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَىٰ مُجْدِلًا فِي قَوْرِ لُوطٍ ۖ﴾

إشارات:

□ قد يكون جدال إبراهيم عليه السلام ومناقشته الملائكة هو ما ورد في الآية (٣٢) من سورة (العنكبوت) إذ استفسر منهم كيفية قلب قرية قوم لوط عليه السلام رأساً على عقب وفيها نبي الله لوط عليه السلام^(١). فأجابته الملائكة: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾.

التعاليم:

- ١ - العلم يمهد للطمأنينة؛ فلما اطمأن إبراهيم عليه السلام لأمر الملائكة وعلم ما جاءوا من أجله، ذهب عنه الخوف وزال القلق والروع، ﴿ذَهَبَ عَنْ إِرْزَاهِمَ الرُّوحُ﴾.
- ٢ - الخوف والقلق الذي يعتري الأنبياء عليهم السلام في بعض الأحيان إنما هو عارض زائل وليس صفة أو خصلة ذاتية، ﴿ذَهَبَ﴾.
- ٣ - دَفَعِ الضَّرَّ أَوَّلًا ثُمَّ الاستعداد لاستقبال البشارة، ﴿ذَهَبَ عَنْ إِرْزَاهِمَ الرُّوحُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَىٰ﴾.
- ٤ - الراحة النفسية تؤدي إلى الاهتمام بالآخرين والتفكير بهم، ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِرْزَاهِمَ الرُّوحُ﴾.
- ٥ - تجنبوا اتخاذ المواقف أثناء الخوف أو الغضب، ﴿ذَهَبَ عَنْ إِرْزَاهِمَ الرُّوحُ... يُجْدِلُنَا﴾.
- ٦ - إذا بُشِّرَ أحدكم بالنعمة فليتذكر الآخرين، ﴿وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَىٰ مُجْدِلًا فِي قَوْرِ لُوطٍ﴾.
- ٧ - الأنبياء عليهم السلام لا يُسَوِّنَ مَنْ هُمْ أَدْنَىٰ مِنْهُمْ أَبَدًا، ﴿يُجْدِلُنَا فِي قَوْرِ لُوطٍ﴾.
- ٨ - لا يقتصرن اهتمامنا وتفكيرنا على قومنا وعشيرتنا فقط، ﴿يُجْدِلُنَا فِي قَوْرِ لُوطٍ﴾.

(١) ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾.

٩ - يتجلى تأثير الإلحاح والشفاعة والدعاء والتوسل بوضوح عندما لا تكون المُقدَّرات الإلهية حتمية ومقضية، ﴿يُجِدُّنَا﴾.

١٠ - لا ريب في أن مُجادلة ملائكة الله هي مُجادلة الله تعالى نفسه، ﴿يُجِدُّنَا﴾.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَكْأْبِرُهُمْ أَعْرَضَ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ

وَأَنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرَ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾

إشارات:

□ دخل خليل الله إبراهيم عليه السلام في جدال مع الملائكة بشأن العذاب المُقرَّر نزوله على قوم لوط عليه السلام في الآية (٧٤) من هذه السورة، وفي الآية (٧٦) من السورة نفسها يأمر الله تعالى نبيه عليه السلام بالكف عن المجادلة والإلحاح. وحفاظاً على هيبة رسوله وإبقاء على منزلته الكريمة ومقامه الشامخ عنده، بين الله عليه السلام في الآية (٧٥) - التي اعترضت الآيتين (٧٤) حيث جادل إبراهيم عليه السلام في أمر العذاب الإلهي والآية (٧٦) عندما نبهه الله سبحانه على ضرورة سد باب الجدل والمناقشة في هذا الأمر - أن خليله عليه السلام إنما جادل وتوسل لرأفته بالأمّة وحرصه عليها، وليس استنكاراً لأمر التعذيب أو اعتراضاً عليه، فقال عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾.

التعاليم:

١ - الأنبياء عليهم السلام أكثر الناس حرصاً على أفراد البشر، وأكثرهم سعياً لتخليصهم من عذاب الله ولو بالحلم والدعاء والتضرع والتوسل، ﴿لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾.

٢ - يكون التذكير والتنبيه مع حفظ كرامة الأشخاص ومنزلتهم، ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾.

٣ - كانت شفاعته إبراهيم لقوم لوط عليه السلام والتوسط بينهم وبين الله سبحانه قبل معرفته بحتمية العذاب، ﴿قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾.

٤ - حتى العذاب الإلهي يندرج ضمن برنامج تربية الإنسان وتقويمه، ﴿أَمْرُ رَبِّكَ﴾.

٥ - لاحظ كيف تُرْفَضُ شفاعَةُ الأنبياء ﷺ في بعض الحالات، فعندما يصدر الأمر الإلهي الحاسم لن يستطيع أي مخلوق الاعتراض عليه أو منعه من الوقوع والتنفيذ مهما ارتفعت منزلته وسمت مكانته، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَغْرَضَ عَنْ هَٰذَا﴾.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ (٧٧)

إشارات:

□ ورد رُسُلُ الله تعالى على لوط عليه السلام وهو في قريته بهيئة شباب كأجمل ما يكون ونزلوا عنده ضيوفاً في ذلك اليوم. وعلى الرغم من ترحيبه الحار بهم كعادته إلا أن الدنيا ضاقت في عين لوط عليه السلام بسبب خوفه من تعرض ضيوفه إلى اعتداء أبناء قريته الفاسدين.

□ جملة ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ بمعنى ضاق صدره وتألّم أو شقّ عليه الأمر لثلاث يُخجله قومه أمام هؤلاء الضيوف.

التعاليم:

- ١ - علم الأنبياء له حدود، ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾؛ فسيّدنا لوط عليه السلام لم يكن يعلم أن هؤلاء الضيوف هم في الحقيقة ملائكة متشكّلون بهيئة بشرية.
- ٢ - المرحلة القلبية هي أولى مراحل محاربة المنكر، ﴿سِئَاءَ بِهِمْ﴾.
- ٣ - من مسؤولية المضيف حماية ضيفه والدفاع عنه، ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾.

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾
 قَالَ يَتَّقُوا هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ
 فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ (٧٨)

إشارات:

□ ﴿يَهْرَعُونَ﴾: أهرع الرجل إهرعاً، أسرع في رعدة؛ إذ كانت شدة شهوتهم

الدنيئة تجرّهم جرّاً نحو بيت لوط عليه السلام وضيوفه.

□ ليس المراد بصيغة التفضيل ﴿أَطْهَرُ﴾ أَنَّ اللّٰوِاط طاهر أيضاً؛ لكنّ الزّواج أظْهَر^(١)، بل هو مماشاة للفساد لإقناعه بالزّواج الحلال والطاهر إذا كان يقصد الشّهوة من تصرّفاته تلك^(٢).

□ تتعاضد القدرات وتتعالى المعنويّات خصوصاً في خِصَم المشاكل والمُعانة وحالات القلق والخوف والاضطرابات. فلو عرّف الملائكة أنفسهم للوط عليه السلام وكشفوا له عن شخصيّتهم الحقيقيّة منذ البداية، ما كان لوط ليستنجد أو يقلق أو يخاف أو يستجدي المعروف من بني قومه الفاسدين، بل ما كان ليعرض عليهم الزّواج بيناته دفعاً للإساءة عن ضيوفه.

□ سؤال: ما هو المبرّر الذي استند إليه النبيّ لوط عليه السلام في عرضه تزويج ابنته المؤمنة من رجل كافر؟

الجواب: ربّما كان في نيّة النبيّ لوط عليه السلام اشتراط إيمان ذلك الكافر عند عقد النكاح ليُصبح ذلك وسيلة لإيمانه، أو ربّما كان المراد من قوله عليه السلام بـ ﴿بَنَاتِي﴾ هو بنات قومه اللّاتي يُعتبرنّ بنات للوط عليه السلام باعتباره نبيّ هذه الملّة، أو ربّما كان مثل هذا النوع من الزّواج (بين المؤمنة والكافر وبالعكس) مسموحاً به في ذلك الزّمان.

التعاليم:

- ١ - تتسارع حركة بعض المجتمعات الإنسانيّة أحياناً إلى السقوط في الهاوية والفساد فيهرع أبناؤها إلى الانحراف كما فعل قوم لوط، ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾.
- ٢ - النّفس العاصية الفاسدة تُصبح فرساً دون عنان للإنسان تقوده مسرعة نحو الذنوب، ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾.

(١) بل مثل كلمة ﴿خَيْرٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ الْهَوَى﴾، سورة الجمعة: الآية ١١.

(٢) الميزان في تفسير القرآن، ج ١٠.

- ٣ - المعاصي كالسلسلة، تقود إحداها الأخرى، ﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْصُونَ السَّيِّئَاتِ﴾.
- ٤ - من أجل منع ارتكاب المُنكرات لا بدّ أولاً من فتح أبواب المعروف على مصراعها لتكون واضحة للناس، ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتٍ... وَلَا تُخْزُونَ﴾.
- ٥ - ليس معنى العقّة والطهارة الانزواء، بل مُراعاة الأدب والعفاف بشكل طبيعي وعادي، ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتٍ﴾، (أشار النبي لوط عليه السلام إلى بناته بحضور الرجال).
- ٦ - لا تكفي الموعظة والإرشاد لهداية المجتمع، بل لا بدّ من التضحية بالغالي والنفيس أحياناً، ﴿بَنَاتٍ﴾.
- ٧ - لا مانع أبداً من عرض الوالد بناته للزواج، ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتٍ﴾.
- ٨ - الزواج هو الطريق الوحيدة لإشباع الغريزة الجنسية، وأما ما سواها فهي سُبُل فاسدة ومنحرفة، ﴿هَؤُلَاءِ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾.
- ٩ - عندما يُصبح ارتكاب المعاصي أمراً عادياً فإنّ ذلك لا يعني ترك النهي عن المُنكر، ﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْصُونَ السَّيِّئَاتِ... فَأَنْتُمْ آلَ اللَّهِ﴾.
- ١٠ - من الواضح أنّ اشتهااء المماثل كان عادة ممقوتة ومحرمّة في الأديان السابقة، ﴿فَأَنْتُمْ آلَ اللَّهِ﴾.
- ١١ - لا ضير من النهي عن المُنكر وإن بدا تأثيره ضعيفاً، ﴿فَأَنْتُمْ آلَ اللَّهِ﴾.
- ١٢ - إهانة الضيف أو إيذاؤه تُمثل إهانة للمُضيف وإيذاء له كذلك، ﴿وَلَا تُخْزُونَ فِي ضَيْفِي﴾.
- ١٣ - تكمن قيمة الضيافة في حجم المُعانة العظيمة التي يواجهها الإنسان الشريف أكثر من غيره، ﴿وَلَا تُخْزُونَ فِي ضَيْفِي﴾.
- ١٤ - حماية الضيف والدفاع عنه هو حقّ إنساني، والتخلي عنه يُعدّ عملاً لا يمتّ إلى الشهامه والغيرة بأيّ صِلَة، ﴿وَلَا تُخْزُونَ فِي ضَيْفِي﴾.
- ١٥ - استنجدوا بالعواطف والمشاعر والإحساسات عند إرشادكم الجاهل، ﴿أَلَيْسَ بِكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾.

١٦ - لا مكان للرشد والغيرة والرجولة مع اشتها الممائل، ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾.

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ﴾ (٧٩)
 ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَيَّ رُكْنٌ شَدِيدٌ﴾ (٨٠)

إشارات:

□ يُعبر النبي لوط عليه السلام عن مُعاناته وألمه وهو يخاطب قومه الذين تجمّعوا عند باب داره قائلاً: «لو كان لي أتباع وأصحاب مؤمنون لاستطعت مواجعتكم أيها الحُقراء ولتمكّنت من الدفاع عن ضيوفي، أو على الأقلّ لاستطعت أخذهم إلى منطقة آمنة لحمايتهم من شرّكم وأذاكم».

□ يُقال: إنّ رسول الله ﷺ عندما تلا هذه الآية ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَيَّ رُكْنٌ شَدِيدٌ﴾ قال: «رحمة الله على لوط، لقد كان يأوي إلى ركنٍ شديد»^(١). يبدو أنّ الرسول الأعظم ﷺ كان يعني أنّ لوطاً عليه السلام بوفاته ومُغادرته هذه الدنيا أوى إلى الركن الشديد وهو الله تعالى شأنه وتخلّص بذلك من شرّ قومه الفاسدين.

□ تُعتبر عمليّة اشتها الممائل من الكبائر وجزاء مُرتكبها هو الإعدام والجُلْد إذ يُقام عليه الحدّ بشهادة العدول أو اعترافه.

قُبِحَ جريمة اللواط في القرآن والحديث

عبر القرآن الكريم عن العمل القبيح والفعل الشنيع الذي كان قوم لوط عليه السلام يرتكبونه بعبارات عدّة في مُختلف آياته التي تحدّث فيها عن قصّة لوط عليه السلام مع قومه، وكلّها تشير إلى عِظَم تلك المعصية وشدّة حُرمتها، مثل وصفه تعالى إياها بأنّها:
 ١ - فحشاء ﴿أَتَأْتُونَكَ الْفَاحِشَةَ﴾^(٢).

(١) انظر: تفسير في ظلال القرآن.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٨٠.

- ٢ - إسراف ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾^(١).
 ٣ - جريمة ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾^(٢).
 ٤ - ظلم ﴿وَمَا مِنْ أَلْفَلِيلٍ يَبْعِدُ﴾^(٣).
 ٥ - خباثت ﴿الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَبْثِثَ﴾^(٤).
 ٦ - جهل ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾^(٥).
 ٧ - فسق ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَسَقِينَ﴾^(٦).

وقد حذرت الروايات كذلك بشدة من ارتكاب هذا الفعل القبيح، كالقول إنه ما جامع رجل رجلاً إلا اهتز له عرش الله ﷻ من شدة ذلك ولم يكلمهما الله يوم القيامة^(٧). وقال الإمام الصادق عليه السلام: «لَوْ كَانَ يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يُرْجَمَ مَرَّتَيْنِ لُرْجِمَ اللَّوْطِيُّ مَرَّتَيْنِ»^(٨). وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَلَحَّ فِي وَطِي الرِّجَالِ لَمْ يَمُتْ حَتَّى يَدْعُو الرِّجَالُ إِلَى نَفْسِهِ»^(٩). وتجدر الإشارة إلى أن الفاعل والمفعول به في اللواط يُعدمان، حيث أشارت الروايات إلى أن السبب في حرمة هو الفساد وانقطاع النسل^(١٠)، فيما أشارت روايات أخرى إلى قُبْح تشبه النساء بالرجال والرجال بالنساء؛ لأن من شأن ذلك أن يشجع على شيوع فاحشة اللواط والسحاق^(١١).

(١) السورة نفسها: الآية ٨١.

(٢) السورة نفسها: الآية ٨٤.

(٣) سورة هود: الآية ٨٣.

(٤) سورة الأنبياء: الآية ٧٤.

(٥) سورة التمل: الآية ٥٥.

(٦) سورة الأنبياء: الآية ٧٤.

(٧) انظر: بحار الأنوار، ج ٧٦، ص ٦٣.

(٨) المصدر نفسه، ص ٦٧.

(٩) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(١٠) نهج البلاغة، الحكمة ٢٥٢.

(١١) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: لَعَنَ اللَّهُ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ وَالتَّشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ». وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ٢٥٥، نقلاً عن تفسير الأئمة في تفسير كتاب الله المُتَزَل، ج ٧، ص ٢٨. [المترجم]

التعاليم:

- ١ - يعتاد بعض الأشخاص على ارتكاب الذنوب والمعاصي بحيث يرى الشيء الطبيعي قبيحاً والشيء القبيح جميلاً وطبيعياً، بل وحقاً كذلك، ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَيٍّ...﴾.
- ٢ - إِنَّ أَيَّ نَبِيٍّ أَوْ مُصْلِحٍ هُوَ أَحْوَجُ مَا يَكُونُ إِلَى الْقُدْرَاتِ وَالْإِمْكَانَاتِ وَحِمَايَةِ النَّاسِ أَثْنَاءَ قِيَامِهِ بِإِرْشَادِ الْجُهْلَاءِ، ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً...﴾.
- ٣ - إذا لم تكن آنذاك قدرة أو حكومة أو أجهزة حماية أو قوى مسلحة، فلن يكون بمقدرة الأنبياء أنفسهم الوقوف بوجه الكثير من المُنْكَرَاتِ^(١)، ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً...﴾.
- ٤ - علينا الابتعاد عن البيئة الفاسدة قدر المُسْتَطَاعِ إذا لم نستطع الوقوف في وجه الفساد وقطع دابره، ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٍّ...﴾.
- ٥ - عاش الكثير من الأنبياء كالغرباء بين قومهم، ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٍّ...﴾.
- ٦ - لا بدّ من اتّخاذ جميع الإجراءات الممكنة للدّفاع عن الضيف وحمايته وعدم إهانته، ﴿ءَاوِيٍّ إِلَيَّ زَكِيٍّ شَدِيدٍ...﴾.

﴿قَالُوا يَلْبُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ
وَلَا يَلْفِثْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًاكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ
إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾

إشارات:

- ﴿أَسْرِ﴾ مُشتق من «الإسراء» وهو المسير ليلاً.
- وعبرة ﴿إِلَّا أَمْرًاكَ﴾ إمّا أن تكون مُستثناة من كلمة ﴿أَهْلِكَ﴾ فيكون معناها:

(١) لا شك في أنّنا اليوم نمتلك بحمد الله كلّ ما كان يتمناه النبي لوط أو بقية الأنبياء ﷺ من الإمكانات والقدرات، فهلاًّ انتبهنا عن ارتكاب المعاصي والمُنْكَرَاتِ؟

أسرٍ بأهلك جميعاً في خلال الليل ما عدا امرأتك؛ أو أن تكون العبارة المذكورة مُستثناة من ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ﴾، وعندئذٍ سيكون المقصود من كلام الملائكة هو: حذار أن يلتفت أحد منكم خلفه عند السير، لكن زوجته هي الوحيدة التي نظرت إلى الخلف لخشيته على قومها الفاسدين، وهكذا تخلّفت عن ركب السائرين في تلك الليلة وأصابها ما أصاب قومها.

التعاليم:

- ١ - جرت العادة أن يُعلم الله سبحانه أنبياءه بهلاك قومهم قبل وقوعه، ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ...﴾.
- ٢ - على المؤمن أن يكون حاضراً ومستعداً حتى من الناحية النفسية للتفاعل مع الحدث بسرعة لكي يتمكن من الانتقال والتنقل في أقصر مدة ممكنة (ليلة واحدة أو جزء منها)، ﴿فَأَسْرِ... يَقْطِعَ مِنَ اللَّيْلِ﴾.
- ٣ - لا بدّ من تجاهل الجزئيات كالمال والأثاث عند القيام بثورة وتغيير شامل في منطقة فاسدة، ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾.
- ٤ - حتى قرابة النبي ليست وسيلة من وسائل النجاة، ﴿إِلَّا أَمْرًا نَكَ﴾.
- ٥ - لا بدّ من أن يستند أيّ نظام للقيم على القواعد والقوانين وليس على أساس العلاقات والروابط، ﴿إِلَّا أَمْرًا نَكَ﴾.
- ٦ - الإنسان حرّ في اختيار الطريق التي يريد، وها هي امرأة أحد الأنبياء تختار طريق الانحراف والفساد، ﴿إِلَّا أَمْرًا نَكَ﴾ (ما يدلّ على أنّ المرأة حرة كالرجل في تقرير مصيرها).
- ٧ - علينا أن نفرّق بين المؤمنين الحقيقيين وبين أفراد الأسرة والأقارب، ﴿إِلَّا أَمْرًا نَكَ﴾.
- ٨ - لكلّ فعل من أفعال الله تعالى أجل مُسمّى ووقت مُعيّن، ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾.

وانفجار أرضي بصيحة توجب قَلْبَ مُدْنِهِمْ، وإمطار المواد المذابة والمنصهرة عليهم من قطع الحجارة التي يقذفها البركان^(١).

التعاليم:

- ١ - جزاء مَنْ يقلب الفطرة الإنسانية ويحوّرها أن تُقَلَّب عليه داره رأساً على عَقِب، ﴿جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَائِلَهَا﴾.
- ٢ - إِنَّ الله قادر على إمطار الحجر والسجيل بدلاً من المطر، ﴿وَأَمْطَرْنَا... حِجَارَةً﴾.
- ٣ - الانحراف الأخلاقيّ والشذوذ الجنسيّ نوعان من أنواع الظلم، ﴿وَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.
- ٤ - مَنْ يرضى عن ممارسة اللواط والسحاق كما هو شائع في العالم الغربيّ فلا بدّ إذاً من أن يتوقّع نزول عذاب الله تعالى وغضبه عليه وانقلاب داره رأساً على عقب، ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا شُعَبًا قَالَ يَنْفَرُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْفُسُوا الْكِبَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرْسِلُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُونَ﴾

إشارات:

□ تقع مدينة «مدين» - التي تسمّى اليوم «معان» والتي سمّتها التوراة باسم «مديان» - إلى الشرق من خليج العقبة في الأردن، وأهلها من بني إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، وكانت لهذه المدينة علاقات تجارية مع كلّ من مصر ولبنان وفلسطين. وذكر بعضهم أنّ مدين هي اسم قبيلة وليست اسم مدينة وأنهم كانوا يسكنون بالقرب من طور سيناء في شبه جزيرة سيناء.

(١) الميزان في تفسير القرآن، الجزء ١٠.

□ كان فساد بعض الأمم وانحطاطها متفاوتاً وفي فترات وعصور مختلفة تجب دراستها بدقّة، ففساد قوم لوط عليه السلام كما رأينا تمثل في انحرافهم جنسياً وممارسة اللواط، أمّا قوم شعيب عليه السلام فكان التطفیف في الكيل والوزن عندهم، أو ما يُسمّى في الوقت الحاضر بـ (الفساد الاقتصادي).

التعاليم:

- ١ - إرسال الرّسل والأنبياء ﷺ هو سُنّة إلهيّة وتيّار تاريخيّ مُستمرّ، ﴿وَإِلَى مَدِينٍ﴾.
- ٢ - كانت رسالة النّبّيّ شعيب عليه السلام - كما هو معلوم - مُقتصرة على مدينته (مَدِينٍ)، ﴿وَإِلَى مَدِينٍ﴾.
- ٣ - التوحيد قائم على أساس الإيمان بالإله الواحد، ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾.
- ٤ - لا تكفي عبادة الله تعالى وحدها بل لا بدّ من البراءة من المشركين كذلك، ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾.
- ٥ - لم تقتصر مسؤولية الأنبياء ﷺ على المسائل العقائدية والأخلاقيّة فحسب، بل شملت أيضاً الشؤون الاقتصاديّة وعوامل الفساد المرتبطة بها، ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ﴾.
- ٦ - قد لا تكون الرفاهية ومستوى الدّخل العامل الوحيد الذي يمكنه أن يمنع الفساد والغشّ، ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ... إِنَّيْ أَرَأَيْكُمْ بِخَيْرٍ﴾. وفي ما يتعلّق بتفسير جملة ﴿إِنَّيْ أَرَأَيْكُمْ بِخَيْرٍ﴾ قال الإمام الصادق عليه السلام: «كَانَ سِعْرُهُمْ رَخِيصًا»^(١).
- ٧ - عند النّهي عن المنكر لا بدّ من احترام شخصيّة الآخرين وطمأننتهم، ﴿إِنَّيْ أَرَأَيْكُمْ بِخَيْرٍ﴾.

- ٨ - كانت الإشارة إلى مسألتني المبدأ والمعاد على رأس لائحة دعوة الأنبياء ﷺ، ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ... أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ﴾.
- ٩ - الإيمان بيوم الحساب هو أساس التقوى في كل الأمور الحياتية، ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ... عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُ﴾.
- ١٠ - لا يمكن الفرار من عذاب الله وغضبه، ﴿عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُ﴾.

﴿وَيَقَوْمٍ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٨٥)

إشارات:

□ كلمة ﴿تَبْخَسُوا﴾ من مادة (بخس) بمعنى قلل، أما عبارة ﴿وَلَا تَعْتُوا﴾ فمعناها (لا تُفْسِدوا).

التعاليم:

- ١ - إقامة العدل والقسط هو إنجاز خلفه لنا الأنبياء ﷺ، ﴿أَوْفُوا... بِالْقِسْطِ﴾.
- ٢ - عندما تُصبح المعصية أمراً عادياً في المجتمع يتوجب علينا التذكير باستمرار وبشكل متواصل حتى يتم استئصال تلك المعصية. لاحظوا أن هذه الآية كررت موضوع مراعاة الوزن وعدم البخس بالميزان، ﴿أَوْفُوا... وَلَا تَبْخَسُوا﴾.
- ٣ - لا بدّ من مراقبة النشاطات التجارية والشؤون الاقتصادية، ﴿أَوْفُوا... وَلَا تَبْخَسُوا﴾.
- ٤ - ينبغي التعامل مع جميع الأفراد بالقسط والعدل وليس مع المؤمنين فقط، ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ﴾.
- ٥ - لا تقتصر عملية البخس في حقّ الناس على المواد الوزنية أو المكيالية، بل تشمل جميع ما يتعامل به الناس، حتى الأمانات، ﴿أَشْيَاءَهُمْ﴾.
- ٦ - تضييع حقوق الناس في المسائل الاقتصادية يُعدّ نموذجاً بارزاً للفساد؛ لأنّ

الاقتصاد الفاسد والمريض يقود المجتمع إلى الدمار، ﴿وَلَا يَبْخُسُوا... مُفْسِدِينَ﴾.

٧ - تقليد المُفسدين ومحاكاة تصرفاتهم أكبر من الفساد نفسه، ﴿وَلَا يَبْخُسُوا... مُفْسِدِينَ﴾.

﴿يَقِيْتُ اللَّهَ خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ (٨٦)

إشارات:

□ جملة ﴿يَقِيْتُ اللَّهَ﴾ في هذه الآية تعني الدّخل والمنفعة (أو الرّبح) الذي يتبقى للشخص من رأسماله الحلال الذي يُرضي الله سبحانه، وهي (أي بَقِيَّةُ الله) مورد ومكسب حلال مئة في المئة؛ لكننا نطالع في الروايات أنّ عبارة (بَقِيَّةُ الله) تُطلق على كلّ وجود مُبارك يظلّ للبشرية جمعاء بإذن الله تعالى، ومن ذلك الجنود الأشاوس المؤمنون العائدون من الجبهة لبقائهم أحياء بإذن الله. ويُطلق هذا الاسم (بَقِيَّةُ الله) كذلك على إمام الزّمان (عَجَّلَ الله تعالى فرجه الشريف)؛ وذلك لأنّ إرادة الله شاءت أن تبقي وجوده الشريف ذخراً لهداية البشرية [في آخر الزّمان]. وتُخبرنا الروايات بأنّ (بَقِيَّةُ الله) هو أحد أسماء إمام العصر والزّمان (صلوات الله وسلامه عليه)^(١)، وقد علّمنا السلام عليه هكذا: «السّلامُ عَلَيْكَ يَا بَقِيَّةُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ». ويُقال إنّه عندما يُؤذّن للإمام بالظهور في مكّة فإنّه سيتلو هذه الآية ثمّ يقول: «أَنَا بَقِيَّةُ اللَّهِ». ولكن بالطبع فإنّ (بَقِيَّةُ الله) تُطلق كذلك على الأئمة المعصومين عليهم السلام^(٢).

التعاليم:

١ - رزق حلال طاهر وإن قلّ أفضل من دّخل حرام وإن كثر، ﴿يَقِيْتُ اللَّهَ خَيْرَ﴾.

- ٢ - الدنيا فانية والآخرة باقية، فطلب الآخرة إذا خير من طلب الدنيا، ﴿يَقِيْتُ اللَّهَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.
- ٣ - تجنبوا البخس والتطيف بكثر عُملائكم ويزداد ربحكم الحلال في المستقبل، ﴿يَقِيْتُ اللَّهَ خَيْرٌ﴾.
- ٤ - إذا استساغ أحدكم الحرام فإيمانه مشكوك فيه، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.
- ٥ - الإنسان حُرّ في ما يعتقد، وليس للأنبياء إرغامه على شيء، ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾.
- ٦ - إذا ضاعت أموالكم ودُمّرت حياتكم بسبب الحرام فلست عليكم بحفيظ، ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾.

﴿قَالُوا يَشْعِيبُ أَمَلْنَاكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا
أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (٨٧)

التعاليم:

- ١ - جميع الأنبياء ﷺ كان لديهم مُعارضون ومناوئون، ﴿قَالُوا يَشْعِيبُ...﴾.
- ٢ - من الواضح أنّ الصلاة كانت موجودة في الأديان السابقة، ﴿أَمَلْنَاكَ﴾.
- ٣ - ومن الواضح كذلك أنّ الصلاة كانت الشعيرة البارزة في دين شعيب ﷺ، ﴿أَمَلْنَاكَ﴾.
- ٤ - الصلاة الحقيقية تأمر الإنسان بالقيام بالمعروف ونهي الآخرين عن المنكر، ﴿أَمَلْنَاكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ...﴾.
- ٥ - يُعتبر تقليد الأبناء آباءهم في مُقابل الدليل والنص سبب كثير من الانحرافات، ﴿يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾.
- ٦ - ليس الدين مُنفصلاً عن السياسة أو الاقتصاد (كما يدّعي البعض)، ﴿أَمَلْنَاكَ... نَتْرَكَ... فِي أَمْوَالِنَا﴾.
- ٧ - دعوة الأنبياء تتنافى مع الحرية غير المُقيّدة، ﴿نَفْعَلْ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾.

٨ - امتلاك الإنسان الشيء لا يعني تصرفه به كيفما شاء، ﴿أَنْ تَتْرَكَ... أَنْ نَفْعَلَ فِيْ أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾. (يبدو أن قانون ترشيد الاستهلاك كان موجوداً كذلك في شريعة النبي شعيب عليه السلام).

٩ - يكون مديح معارضينا لنا أحياناً ثمناً يُراد به شراء سكوتنا وتغاضينا عن الحق، ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾.

١٠ - قد يقصد المادح الاستهزاء أحياناً، ﴿لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾.

﴿قَالَ يَنْفَوِرُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَنْبَغٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُكُمْ إِلَّا مَا أَنْتُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

إشارات:

□ كان اعتراض الكفار في الآية السابقة يدور حول السبب وراء كونهم غير أحرار في التصرف بأموالهم، وفي هذه الآية يُجيبهم النبي شعيب عليه السلام أنه إنما يحذّرهم من التصرف بتلك الأموال بغير قيود ولا حدود من أجل إصلاح الحياة والمُجتمع وليس لعداوة بينه وبينهم أو حسد لأموالهم أو قصر نظر منه أو أي شيء آخر؛ لأن مصلحة الفرد لا يجب أن تكون على حساب المصالح العامة.

التعاليم:

١ - المعجزة والبيّنة هما أساس النبوة، ﴿كُنْتُ عَلَى يَنْبَغٍ﴾؛ أي أن القوانين قائمة على أساس الدليل.

٢ - يعتبر الأنبياء عليهم السلام أن كل شيء إنما هو موهوب من عند الله تعالى، ﴿رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ﴾.

٣ - خاب من ظن أن الرفاهية تأتي من الترفيه والحرام، فالأنبياء عليهم السلام والأولياء كانوا في عيشة راضية من دون أن يلوثوا أنفسهم بتلك الأفعال، ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ﴾.

رِزْقًا حَسَنًا؛ بل العيش الهانئ والرزق الحسن لا يجتمع التطفيف والظلم.

٤ - لا شك في أنّ رزق الإنسان هو من عند الله ويلطفه وليس بالمهارة أو الشطارة، ﴿وَرَزَقْنِي مِنْهُ﴾.

٥ - لاحظ أنّ الكفار كانوا يقولون: ﴿أَمْوَلَنَا﴾، بينما كان النبي ﷺ يردّد قائلاً: ﴿رَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾؛ أي لا تظنّوا أنني أعاني ضائقة مالية أبداً.

٦ - لا بدّ من أن يكون الأمير بالمعروف والنّاهي عن المُنكر هو العايل بهما قبل الآخرين، فلم يكن الأنبياء مُصمّمين أو قادة فحسب، بل كانوا أسوة للعاملين ومثالاً صادقاً لهم، ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمْ إِلَّا مَا أَنهَنَكُم عَنْهُ﴾.

٧ - لم يسمح أيّ نبيّ لنفسه حتى بالتفكير خلاف ما يأمر به، فما بالك بمُخالفته لأوامر الله وتعاليمه؟ ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ...﴾.

٨ - إصلاح الفرد والمُجتمع هو الهدف الأساس لدعوة الأنبياء ﷺ، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ﴾.

٩ - كان الأنبياء يعملون ضمن إطار طاقاتهم وقدرتهم وليس على أساس الساعات والأيام أو الأشهر والسنين، ﴿مَا اسْتَطَعْتُ﴾.

١٠ - الإرادة في العمل تكون متنا، أمّا التوفيق ومقداره فمن الله تعالى، ﴿إِنْ أُرِيدُ... وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾.

١١ - ابذلوا كلّ ما في وسعكم في العمل، لكن اعلموا أنّ التوفيق لا يكون إلّا من عند الله، ﴿مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾.

١٢ - لا يُجدي التوكّل إلّا مع السعي والمثابرة، ﴿مَا اسْتَطَعْتُ... تَوَكَّلْتُ﴾.

١٣ - من صفات المُصلِح أن يكون هو نفسه صالحاً، ومؤمناً، ومُتوكّلاً، ومُنبياً وحرصاً، ﴿مَا اسْتَطَعْتُ... عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

١٤ - تضمّن هذه الآية الشريفة كذلك بعض الوصايا لمن يُريد الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر، منها:

(أ) أن يكون عاملاً بما يدعو إليه، ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمْ إِلَّا مَا أَنهَنَكُم عَنْهُ﴾.

- (ب) أن يهدف إلى إصلاح المجتمع، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ﴾.
 (ج) أن يكون مؤمناً بأن توفيقه لا يكون إلا بالله، ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾.
 (د)

أن يتوكل دائماً على الله، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾.
 (هـ) أن يُنِيب إلى الله في المعصيات، ﴿وَرَأَيْتُ أَنْيَبَ﴾.

﴿وَنَقُورَ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ
 أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ (٨٩)

التعاليم:

- ١ - ليكن كلامنا ليناً حتى مع أعدائنا أو المعارضين لنا، ﴿يَقُورَ﴾.
- ٢ - ليس من المنطقيّ تعريض سعادة مجتمع بأكمله للخطر لمجرد العداوة مع شخص واحد، ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾.
- ٣ - إنَّ أوجه الشبه كثيرة بين تواريخ الأقسام البشرية، لذلك يجب على الأجيال التالية أخذ العبر والدروس منها، ﴿مِثْلُ مَا أَصَابَ﴾.
- ٤ - لا ينبغي التقليل من شأن العواقب السيئة التي وصلت إليها الأقسام السابقة أو اعتبارها موسمية أو شخصية أو صدفة محضة، ﴿مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ...﴾؛ عاش كل من نوح وهود وصالح ولوط عليهم السلام قبل سيدنا شعيب عليه السلام.
- ٥ - إنَّ الله سبحانه قادر على إنزال العذاب بأي قوم وبأي صورة يشاء وفي أي منطقة كانت وفي أي وقت يريد؛ فقد غضب على قوم نوح عليهم السلام فأغرقهم بالطوفان وأرسل الريح الصرصر على قوم هود عليهم السلام، وأصاب قوم صالح بالصححة، ودمر مدن قوم لوط عليهم السلام رأساً على عقب، ﴿مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾.
- ٦ - لا شك في أنَّ أفضل حدث يمكن أخذ الدروس والعبر منه هو ما كان أقرب من حيث الفترة الزمنية، فقوم شعيب عليه السلام جاءوا بعد قوم لوط عليهم السلام بوقت

قريب وفي منطقة قريبة كذلك من مناطق مُدن قوم لوط، ﴿وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ
مِّنْكُمْ يَعْصِرُ﴾.

﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ (٩٠)

□ ال «ود» صيغة مبالغة معناها المحبة المستمرة الباقية التأثير.

التعاليم:

- ١ - لا بدّ من بيان طريق للعودة والإنابة كذلك للمُعاضين إلى جانب تحذيرهم وتخويفهم، ﴿أَسْتَغْفِرُوا...﴾.
- ٢ - طلب الرّحمة والمغفرة وترك المَعْصية يُمثّل مقدّمة للعودة إلى طريق الحقّ، ﴿أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾.
- ٣ - إذا استغفر العبد وتاب إلى ربّه [بإخلاص] فإنّ الله سيقبل توبته لا محالة، ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا... إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾.
- ٤ - عندما نعرف الله سبحانه حقّ معرفته ستسهل إنابتنا إليه، ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾.
- ٥ - رَحمة الله تعالى ليست مرحلية أو موقّته، بل هي مستمرة ودائمة، لها تأثيرات وبركات متتالية، ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ﴾؛ فهذه الجملة هي جملة اسمية إضافة إلى أنّ كلمة «رحيم» هي صيغة مبالغة أيضاً.
- ٦ - ليس الله سبحانه تواباً فحسب، بل ويحبّ التّوابين كذلك، ﴿وَدُودٌ﴾.

﴿قَالُوا يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا

وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ (٩١)

إشارات:

□ قال الكفار لشعيب عليه السلام: «إِنَّا لَا نَفْهَمُ مَا تَقُولُهُ لَنَا حَقَّ الْفَهْمِ»؛ فما الذي قاله لهم ولم يستطيعوا فهمه؟ لم يقل لهم سوى:

- ١ - إِنَّ لَدَيْهِ مُعْجَزَةٌ وَبَيِّنَةٌ عَلَىٰ مَا يَدَّعِي، ﴿كُنْتُ عَلَىٰ يَمِينٍ﴾.
- ٢ - إِنَّهُ لَا يُعَانِي أَيُّ ضَائِقَةٍ مَالِيَةٍ وَأَنَّهُ لَيْسَ بِحَاجَةٍ إِلَيْهِمْ وَلَا إِلَىٰ أَمْوَالِهِمْ، ﴿وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾.
- ٣ - إِنَّهُ هُوَ نَفْسُهُ مُلْتَزِمٌ وَعَامِلٌ بِمَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ، ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ﴾.
- ٤ - إِنَّ هَدَفَهُ هُوَ إِصْلَاحُ مَجْتَمِعِهِمْ، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ﴾.
- ٥ - إِنَّهُ سَيَحَاوِلُ مَعَهُمْ وَيُعَاوِدُ الْكُرَّةَ فِي نُصْحِهِمْ مَا اسْتَطَاعَ إِلَىٰ ذَلِكَ سَبِيلًا، ﴿وَمَا اسْتَطَعْتُ﴾.
- ٦ - إِنَّهُ لَا يَتَوَكَّلُ سِوَىٰ عَلَى اللَّهِ وَإِلَيْهِ يُنِيبُ، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.
- ٧ - وَإِنَّهُ يُحَذِّرُهُمْ مِنْ أَنْ تَكُونَ عَاقِبَتُهُمْ كَعَاقِبَةِ مَنْ سَبَقَهُمْ، ﴿مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ وَ...﴾.

وما كان جواب الكفار على ما قاله شعيب سوى تجاهلهم له ﴿مَا نَفَقَهُ﴾، وتصغيره ﴿فِينَا ضَعِيفًا﴾، وإهانة أسرته وعشيرته ﴿رَهْطَكَ﴾، وتهديده بالتعذيب والتنكيل إن لم يكف عن دعوته ﴿لَرَجَمَنَّكَ﴾، والاستهانة بمكانته ومنزلته، ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾.

التعاليم:

- ١ - تحمّل الأنبياء ﷺ ومُبلغي الأديان أكبر الإهانات في خلال دعوتهم الناس إلى الصراط المستقيم، ﴿مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ...﴾.
- ٢ - من الواضح أنَّ مُخَالِفِي الأنبياء لا يمتلكون أيَّ دليل بين أو منطقاً جلياً، فمنطقهم الإهانة ودليلهم التعذيب والتنكيل، ﴿لَرَجَمَنَّكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾.

﴿قَالَ يَنْفَعُكُمْ أَرْهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا﴾

إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾

التعاليم:

- ١ - لا ينبغي مُراعاة حقوق الناس أو الجماعات أو الأحزاب ولا حتى الحقوق

الدولية على حساب الحق الإلهي. حذار من تهميش صراط الله سبحانه والتقليل من تأثيراته في المحافل السياسية والاجتماعية، ﴿أَرْفُطِ أَعْزُ﴾.

٢ - المُعاندون هم أحوج ما يكونون إلى التحذير والتنبيه، ﴿إِنَّكَ رَقِيَّ يَمَّا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

﴿وَيَقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾

التعاليم:

١ - كان اليأس يُصيب الأنبياء ﷺ في بعض الأحيان لعدم تأثير كلامهم على قومهم، ﴿أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾.

٢ - إذا يشتد من هداية الآخرين فلا أقل من تصمدوا أنتم على مواقفكم، ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾.

٣ - عندما لا يكون للموعظة أي أثر يُذكر، فلا مناص حينئذٍ من استخدام لغة التهديد والوعيد، ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾.

٤ - لا بدّ من مقابلة التهديد بالتهديد أيضاً، ﴿لَرَجَمَنَّكَ... عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾.

٥ - يبدو أنّ قوم شعيب ﷺ كانوا يظنونهم كاذباً، ﴿وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ﴾.

٦ - علينا أن نقوم بواجبنا، ثم ننتظر معونة الله، ﴿إِنِّي عَمِلْتُ... وَأَرْتَقِبُوا﴾.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْعَةَ فَاصْبِرُوا فِي دِرْهِمِ جَيْشِيك ﴿٩٤﴾﴾

التعاليم:

١ - قد يتأخر عذاب الله وغضبه عن الظالمين أو يتقدّم؛ ولكنه نازل بهم إن عاجلاً أم آجلاً، ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾.

- ٢ - ليست الصواعق أحداثاً اعتبارية، بل هي أمور تحدث بإذن الله وأمره، ﴿أَمْرُنَا﴾.
- ٣ - إِنَّ الله كَفِيلٌ بتخليص المؤمنين، ﴿يَجِيَّتَنَا﴾.
- ٤ - لا بدّ من أن يقترن الإيمان بالأنبياء بحمايتهم والدِّفاع عنهم، فقد قال الله سبحانه: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ ولم يقل: (الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ).
- ٥ - الإيمان سرّ النجاة، ﴿يَجِيَّتَنَا شُعْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾.
- ٦ - تجاهل دعوة الأنبياء ﷺ يُعدّ ظلماً كبيراً، ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.
- ٧ - الهلاك عاقبة الظلم والظالم، ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.
- ٨ - لقد كان نزول العذاب بقوم شعيب سريعاً ومُفاجئاً بحيث لم يتمكن أحد منهم من الخروج حتى من منزله، ﴿فِي دَرَكِهِمْ﴾، ويبدو أنّ نزول العذاب كان في الليل.
- ٩ - ينزل غضب الله على الظالمين بشكل يسلبهم معه أيّ فرصة للفرار أو الهروب، ﴿جَنَّتِيكَ﴾.

﴿كَانَ لَرْيَقَتَا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ﴾

إشارات:

□ غضب الله سبحانه يفوق كلّ قبلة قوّة وبطشاً؛ إذ قد تتوفر لبعض الأفراد مثلاً فرصة للهروب من خطر القنابل أو الموت تحت الأنقاض، أو التعافي والنجاة بعد توقّف القصف المُعادي، لكن عندما يحلّ غضب الله وعذابه على قوم ما فإنّه يقتلع جذورهم وكأنّهم لم يكونوا موجودين أصلاً في تلك المنطقة.

التعاليم:

- ١ - لا مفرّ لأحد ولا خلاص له من غضب الله، ﴿كَانَ لَرْيَقَتَا فِيهَا﴾.
- ٢ - جرت السُّنة الإلهية والقرآنية على البراءة من الظالمين ولعنهم والدّعاء عليهم، ﴿بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾
إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾

إشارات:

□ إنَّ ما ورد في القرآن الكريم من آيات تتحدّث عن النبيِّ موسى ﷺ وقومه بني إسرائيل، لم يرد مثله حول أيِّ نبيٍّ أو أمةٍ أخرى، إذ ذُكر اسم موسى ﷺ في القرآن أكثر من (١٣٠) مرّة في أكثر من ثلاثين سورة، وقد ورد مُلخّص ذلك كلّ في هذه السورة بالذات.

□ كلمة ﴿سُلْطَانٍ﴾ تعني هنا السُلطة والقدرة، فقد تُطلَق أحياناً على السُلطة الظاهرية وأحياناً أخرى يُراد بها السُلطة أو القدرة المنطقية والاستدلالية.

التعاليم:

١ - من الطبيعي أن يمتلك مَنْ يدّعي أنّه سفير الله أدلّة وعلامات على مُدّعاه، ﴿أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾.

٢ - يجب أن يكون منطق الأنبياء ﷺ ومُعجزاتهم من النوع الذي يفهمه الناس، ﴿مُبِينٍ﴾.

٣ - تركز فلسفة إرسال الرّسل ﷺ على أُسس، أهمّها: (أ) القضاء على الطاغوت، (ب) تحرير الناس من العبودية، ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾.

٤ - ممّا يُؤسّف له أنّ مُعظم الناس كانوا من الموالين للطواغيت، ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾.

٥ - من الضروريّ إجهاض الشعارات الإعلامية للطواغيت، فهوذا فرعون كان يدّعي زوراً أنّه يهدي قومه إلى الرّشاد ويقول لهم: ﴿مَّا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾^(١)، وتجب هذه الآية عن ادّعائه، ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾.

٦ - لا يكفي العلم والمعرفة في بعض الأحيان لتجنّب الانحراف، فقد بيّن موسى ﷺ للناس الحقّ بالأدلة والبراهين بشكل واضح ومفهوم، بينما كان فرعون يدعو قومه إلى الانحراف، وكان قومه يتبعونه عن غير هدى أو بصيرة.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ (٩٨)

إشارات:

□ ﴿الْوَرْدُ﴾ هو الماء الذي يَرِدُه العطشان من الحيوان والإنسان للشرب، والورود أصله قصد الماء ثم استعمل في غيره.

التعاليم:

- ١ - إنّ علامة الرُّشد هي أن تكون قوانينه وبرامجه سبباً للورود إلى الجنة لا إلى النار، ﴿وَمَا أَمَرَ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ... يَقْدُمُ قَوْمَهُ﴾.
- ٢ - أئمة الناس ومقتداهم في هذه الدنيا سيكونون قاداتهم كذلك إمّا إلى الجنة أو إلى النار، فإمام النور (العادل) سيقود قومه إلى الجنة وإمام النار (الظالم) سيقود قومه إلى النار لا محالة، ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾.

﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةُ يَوْمِ الْقِيَمَةِ بئسَ الْوَرْدُ الْمَرْفُودُ﴾ (٩٩)

التعاليم:

- ١ - مَنْ اتَّبَعَ ويتبع فرعون والطواغيت الآخرين سَيُتَّبَعُ في هذه الدنيا لعنة وفي الآخرة كذلك، ﴿فَاتَّبِعُوا أَمَرَ فِرْعَوْنَ... وَاتَّبِعُوا... لَعْنَةُ﴾.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفَرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ (١٠٠)

إشارات:

□ قد يكون مقصود الآية هو أنّ الله سبحانه أهلك بعض الأقوام لكنّه أبقى على

آثارهم وأطلالهم، فيما أهلك البعض الآخر ولم يُبق شيئاً من آثارهم أبداً.
 □ إنَّ لاستخدام القرآن الكريم الأسلوب القصصي في آياته مزايا وتأثيرات
 إيجابية، منها:

- ١ - الأسلوب القصصي ممتع وجذاب؛
- ٢ - ويُمهّد لوقوع وتأثير الدلائل العقلية والبرهان بشكل واسع؛
- ٣ - ويُمثّل دليلاً آخر على إعجاز النبي ﷺ كونه أتى بكلّ تلك الأخبار الغيبية وهو إنسان لا يعرف القراءة والكتابة؛
- ٤ - ويدخل ضمن العِبَر التي يكتسبها السامع (أو القارئ).

التعاليم:

- ١ - يكفي بيان جانب مُعيّن من التاريخ ليكون مدعاة للرّشد وسبباً للاعتبار
 والحذر؛ أي جزء من تاريخ الأمم السابقة وليس كلّهُ، ﴿مِنْ أَنْبَاءٍ﴾.
- ٢ - سيرة النبيّ نوح وهود وصالح ولوط وشُعيب وموسى صلوات الله عليهم
 أجمعين تُعدّ جزءاً مُهمّاً من التاريخ البشريّ ﴿أَنْبَاءٍ﴾، وبما أنّ الشيء بالشيء
 يذكر، فإنّ كلمة «النّبا» تعني الخبر الهامّ.
- ٣ - القرآن الكريم أفضل مَصدر وأصدق مَرَجع للتعرف على التاريخ القديم
 ومصائر الأمم السالفة.
- ٤ - لن تتّصف أيّ قصّة بالحقيقة والميزة الوثائقية والتعليمية إلّا إذا كان القاصّ
 هو الله سبحانه، إذّا، لا يجب أن نغفل عن ذلك، ﴿نَقْصُهُ﴾.
- ٥ - القصص القرآنية هي أصدق القصص؛ لأنّ القاصّ هو الله تعالى، ﴿نَقْصُهُ﴾.
- ٦ - يجب أن نُفرّق بين تاريخ الأمم وبين آثارها وبقاياها؛ لأنّ التاريخ هو
 موضوع باقٍ وثابت وإن كنّا لا نمتلك أحياناً أيّ أخبار عنها، ﴿وَحَصِيدٌ﴾.

﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ
الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا تَلَيْبٍ﴾ (١٠١)

إشارات:

□ «التلبيب» كلمة مشتقة من (تَبَّ) ومعناها الاستمرار في الضرر والإمعان فيه، وقد تأتي بمعنى الهلاك أيضاً.

التعاليم:

- ١ - تنبيه الظالم أو مُعاقبته ليس ظلماً بل هو عين العدل، ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ﴾.
- ٢ - مصير كلِّ إنسان رهن بأعماله وسلوكه، ﴿ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾.
- ٣ - ما من مُقذِّد للإنسان سوى الله سبحانه، ﴿فَمَا أَغْنَتْ﴾.
- ٤ - ليس باستطاعة أيِّ مخلوق الوقوف بوجه الإرادة الإلهية، ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾.

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (١٠٢)

التعاليم:

- ١ - يستند غضب الله سبحانه ولطفه إلى سُنَّة إلهية ثابتة وقوانين لا تتغير، لا إلى أمور دفعية أو عرضية، ﴿كَذَلِكَ﴾.
- ٢ - لتعلم الأمم الظالمة أنها مُعرَّضة في أي لحظة إلى غضب الله، ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾.
- ٣ - يُمثِّل التهديد في الوقت المناسب عاملاً من العوامل التربوية المؤثرة والرادعة، ﴿أَخْذُ رَبِّكَ﴾.
- ٤ - غضب الله سبحانه شأن من شؤون ربوبيته، ﴿أَخْذُ رَبِّكَ﴾.
- ٥ - الإنسان هو السبب في شقائه ونزول العذاب الإلهي عليه، ﴿أَخْذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾.

٦ - لا ينزل عذاب الله على قوم حتى تغطي سحب الظلم سماءها، ﴿أَخَذَ الْفَرَى وَهِيَ ظُلُمَةٌ﴾.

٧ - حذار من الاستهانة بغضب الله سبحانه، ﴿إِنْ أَخَذَهُ إِلَهٌ شَدِيدٌ﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ

يَوْمَ يَجْمُوعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾

التعاليم:

١ - لا بد من أن تكون القصة هادفة وذات مغزى، ﴿لَآيَةً﴾.

٢ - المؤمنون بالآخرة هم وحدهم الذين يتخذون من قصص القرآن دروساً لهم، ﴿لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾.

٣ - قد يكون الخوف من يوم القيامة وأحواله سبباً للاعتبار والذكرى (وإن لم يكن ذلك الخوف عن يقين بل على أساس احتمال وارد لوقوع تلك الأخطار)، ﴿لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾.

٤ - من المعروف أن إحصار الناس وجمعهم يوم القيامة هو أمر إجباري لا اختياري، فالله سبحانه يقول: ﴿يَجْمُوعُ لَهُ النَّاسُ﴾، ولم يقل: (يوم يجمع الناس).

﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾

يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُقَىٰ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾

إشارات:

□ «السعادة» هي توفر جميع أسباب النعم، أما الشقاء فهو توفر أسباب البلاء.

التعاليم:

١ - لقد حدّد الله سبحانه من قبل بداية ليوم القيامة ونهاية لهذا العالم، ﴿لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾.

- ٢ - لا شك في وجود هدف ما من وراء الأجل الموضوع حتى قيام الساعة، فالله سبحانه يقول: ﴿لَأَجَلٍ﴾ ولم يقل: (إلى أجل).
- ٣ - كل مخلوق يوم القيامة ممنوع من الكلام [حتى الملائكة إلا من أذن له الله سبحانه]، ﴿لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾^(١)
 خَلِيدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾^(٢)

إشارات:

- الـ ﴿زَفِيرٌ﴾ هو إخراج الهواء من الصدر يرفقه صوت والـ ﴿وَشَهِيقٌ﴾ إدخال النفس إلى الرتتين يصحبه أنين طويل. وقال بعضهم: إن الزفير أول نفاق الحمار والشهيق آخر نفاقه^(١).
- تختلف مُدَد الداخلين إلى جهنم، فمنهم من سيُخرج منها بعد قضائه فترة مُعيَّنة فيها، ومنهم [والعياذ بالله] خالدون فيها ولا يُخرجون منها أبداً.
- تُشير كلمة «الخلود» إلى الدوام والبقاء إلى الأبد وليس إلى مدة طويلة، لا سيما عندما تأتي مع كلمة ﴿أَبَدًا﴾ مثل قوله تعالى: ﴿خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾^(٢). وفي هذه الآية تعني كلمة ﴿خَلِيدِينَ﴾ الأبدية والاستمرار كذلك على الرغم من أنها مقرونة ببقاء السموات والأرض وعلى الرغم من أن القرآن الكريم عيّن لها في الظاهر مُدة محدودة^(٣)، لأن عبارة ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ﴾ تُستعمل في اللغة العربية والأدب العربي كناية عن الأبدية والخلود وإن كانت السموات غير خالدة.

التعاليم:

- ١ - الإنسان هو الذي يختار طريق الشقاء أو السعادة ولا يُجبر عليه، فالله سبحانه يقول: ﴿شَقُّوا﴾ ولم يقل: (شُقُّوا).

(١) الميزان في تفسير القرآن، ج ١١.

(٢) سورة النساء: الآية ١٦٩؛ سورة الجن: الآية ٢٣.

(٣) انظر: سورة إبراهيم: الآية ٤٨؛ والأنبياء: الآية ١٠٤.

٢ - الله سبحانه أن يُخرج بعض أهل جهنم (لقلة معاصيهم أو استحقاتهم للعفو أو أي سبب آخر)، ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَنِيَ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ
السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوزٍ ﴿١٠٨﴾﴾

التعاليم:

- ١ - الإنسان هو الذي يختار سبيل السعادة أو الشقاء من دون أن يُفرض عليه أي منهما، لكن تبقى سعادته مرهونة بتوفيق من الله. ولذلك استخدم القرآن الكريم كلمة ﴿شَقَوَا﴾ للشقاء وكلمة ﴿سُعِدُوا﴾ للسعادة.
- ٢ - على الرغم من أن الله سبحانه فعال لما يُريد، بما في ذلك إخراج أهل الجنة بعد حين ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾، لكن، بعد أخذ الجزء الأخير من هذه الآية بالاعتبار ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوزٍ﴾ والوعود التي قطعها سبحانه في آيات أخر، فإنه تعالى لا يفعل ذلك، فمن أدخله الجنة فإنه لن يُخرجه منها أبداً.

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ
ءَابَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّهُمْ نَصِيْبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾

التعاليم:

- ١ - على القائد أن يكون حاسماً وثابتاً على الماضي صوب أهدافه حتى لو كانت الأمة كلها منحرفة، ﴿فَلَا تَكُ﴾.
- ٢ - لمُعاتبة بعض الشخصيات ومُخاطبتها تأثيره الكبير على بقية الأفراد العاديين، ﴿فَلَا تَكُ﴾.
- ٣ - خلُق عقول المشركين من أي منطق أو استدلال، ﴿يَعْبُدُ ءَابَاؤُهُمْ﴾.
- ٤ - لاحظ التأثير الذي يخلفه الآباء والأجداد في الأجيال التي تليهم، ﴿يَعْبُدُ ءَابَاؤُهُمْ﴾.

- ٥ - لا يجوز اتباع سُنن الأولين من الأجداد أو مُعتقداتهم في كل شيء، ﴿يَسْبُدُّ
ءَابَاؤُهُمْ﴾.
- ٦ - إِنَّ الله لا يظلم أحداً من عباده مثقال ذرة، حتى الكفار والمشركين منهم،
﴿لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَآخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ
مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾

التعاليم:

- ١ - لم يكن جميع أفراد ملّة ما يوماً منذ فُجر التاريخ يحملون الفكر أو المُعتقد
نفسه، ﴿فَآخْتَلَفَ فِيهِ﴾.
- ٢ - لا تنزعجوا من اختلاف الناس في الدّين، أو إيمان بعضهم وكُفر بعضهم
الآخر، فذلك ليس بالأمر الجديد، ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَآخْتَلَفَ فِيهِ﴾.
- ٣ - على الرّغم من تسمية القرآن الكريم للتوراة في بعض آياته بـ (الهُدَى)
و(التّور)^(١)، فإنّ ذلك لم يحلّ دون اختلاف الناس فيها، ﴿فَآخْتَلَفَ فِيهِ﴾.
- ٤ - الله سبحانه خَيْر مَنْ يَتَّبِع سُنَّته ويؤفي بعهوده، لأنّ المُقنّن هو أوّل مَنْ يجب
عليه الالتزام بالقانون واحترامه، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾، فالله سبحانه لم
يجعل الدّنيا مكاناً للحكم أو القضاء.
- ٥ - السّنن الإلهيّة موضوعة وفقاً لمقام ربوبية الله سبحانه، ﴿سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾.
- ٦ - إمهال المُختلفين في الكتاب السماويّ هو واحد من السّنن الإلهيّة كذلك،
﴿كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾.

﴿وَإِنْ كُنَّا لَيُؤْفِقْنَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلُهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ﴿١١١﴾

التعاليم:

- ١ - في الإيديولوجيا الإلهية، ما من عمل إلا وله أجره وثمنه، ﴿لَيُؤْفِقْنَهُمْ﴾.
- ٢ - لا نقصان ولا تطفيف في الثواب أو العقاب الإلهيين، ﴿لَيُؤْفِقْنَهُمْ﴾.
- ٣ - يكون جزاء الله الكامل على أساس علمه الكامل بأعمال الخلق، ﴿خَبِيرٌ﴾.

﴿فَأَسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿١١٢﴾

إشارات:

□ جاء في الروايات أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «شَيْبَتْنِي سُورَةُ هُودٍ»^(١). ويقصد هذه الآية بالذات من سورة هود. وعلى الرغم من مجيء العبارة نفسها ﴿فَأَسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ في آية أخرى من القرآن الكريم^(٢)، فَإِنَّ الآية الواردة في سورة (هود) اشتهرت بآية الاستقامة أكثر من تلك. وربما كان العبء الذي أثقل كاهل النبي ﷺ في تلك الآية يتمثل في أحداث تاريخية أخرى لم تُبَيِّنْها هذه الآية، منها استقامة أصحاب النبي ﷺ الذين لم يكونوا جميعاً أوفياء ومخلصين له، وهذا ما كان يُقلق النبي ﷺ ويؤلمه.

التعاليم:

- ١ - لما كان الله سبحانه سيّوفي كلّ مخلوق حقّه، فما عليك [أيها النبي] سوى الاستقامة، ﴿كُلًّا لَّمَّا لَيُؤْفِقْنَهُمْ... فَأَسْتَقِمْ﴾.
- ٢ - الاستقامة هي الوجه الناصع لتاريخ الأنبياء، ﴿فَأَسْتَقِمْ﴾.
- ٣ - ينبغي أن يكون القائد أسوة في الاستقامة والثبات، ﴿فَأَسْتَقِمْ﴾؛ فالظروف التي كانت تحيط بالمسلمين في مكة في صدر الإسلام كانت صعبة للغاية،

(٢) سورة الشورى: الآية ١٥.

(١) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل.

- وكان ذلك يقتضي منهم الاستقامة والثبات.
- ٤ - لا قيمة للاستقامة إلا إذا كانت في الأمور جميعاً؛ في العبادة والإرشاد وتحمل الصعاب وما شابه ذلك، ﴿فَأَسْتَقِمَّ﴾.
- ٥ - يجب أن يكون العمل قائماً على أساس النص والأمر الإلهي، لا القياس والاستحسان والخيال وغير ذلك، ﴿كَمَا أُمِرْتُ﴾.
- ٦ - لا تكفي استقامة القائد بل لا بد من استقامة أمته وثباتها، ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾.
- ٧ - إن ثمن الإنابة إلى الله سبحانه غالي جداً، وهذا الثمن هو الاستقامة والثبات على الصراط المستقيم، ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾.
- ٨ - لا بد من أن يكون كل شيء وفقاً للتعليمات، فلا إفراط ولا تفريط، ﴿كَمَا أُمِرْتُ... وَلَا تَطْغَوْا﴾.
- ٩ - على القائد والأمة أن يتحرّكا معاً على الصراط المستقيم، من دون إفراط أو تفريط، ﴿فَأَسْتَقِمَّ... وَلَا تَطْغَوْا﴾.
- ١٠ -
- الاستقامة في الدين تُوجِب ثواب الله للمؤمنين، ﴿فَأَسْتَقِمَّ... إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَنَمَسْكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمُ

مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾

إشارات:

□ تشير معظم الروايات إلى أن التودّد إلى الظالم أو محبّته وطاعته، هو شكل من أشكال الركون إليه. وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تُرْكُنْ إِلَى ظَالِمٍ وَإِنْ كَانَ حَمِيماً قَرِيباً»^(١). وورد في أصول الكافي كذلك أن أبا عبد الله عليه السلام قال في

تفسير قول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَرْكُوتُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾، قال: «هو الرجل يأتي السلطان فيُحِبُّ بقاءه إلى أن يُدْخَلَ يَدَهُ إلى كِبْسِهِ فيُغْطِيهِ»^(١).

□ لما كانت طاعة أولي الأمر واجبة والركون إلى الظالم مُحَرَّمًا، إذاً لا يمكن أن يكون أولو الأمر ظالمين بل هم معصومون؛ لأن المعصية من الظلم.

□ إذا كان الركون إلى الظالم والاعتماد عليه يُوجِبُ النار وغضب الله، فما بالك بالظالم نفسه.

التعاليم:

- ١ - يَحْرُمُ الرُّكُونُ إِلَى الظَّالِمِ أَوْ الِاعْتِمَادُ عَلَيْهِ، سواء أكان قريباً أم بعيداً، ﴿وَلَا تَرْكُوتُوا﴾، فالظالمون والطغاة ليسوا أهلاً للركون والثقة.
- ٢ - يُعَدُّ الرُّكُونُ إِلَى الظَّالِمِ مِنَ الْكِبَائِرِ (وكلّ معصية ذكرها القرآن الكريم وكان جزاؤها النار فهي من الكبائر)، ﴿وَلَا تَرْكُوتُوا... فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾.
- ٣ - لِمَ لَا نَتَّكِلُ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ بَدَلًا مِنَ الرُّكُونِ إِلَى الظَّالِمِ؟ ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾.
- ٤ - لَا شَكَّ فِي أَنَّ نَهَايَةَ الرُّكُونِ إِلَى الظَّالِمِينَ هِيَ الْغُرْبَةُ وَالْعُزْلَةُ، ﴿ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ أَلَيْلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِفَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّكْرَيْنِ ﴿١١٥﴾ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٦﴾﴾

إشارات:

□ ورد في الروايات أنَّ المقصود من ﴿طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾ هو الصُّبْحُ والغروب، والمُرَادُ من ﴿وَزُلْفًا مِنْ أَلَيْلٍ﴾ هي صلاة العِشَاءِ^(٢). لكن هذه الآية الشريفة لا يُرَادُ بها بالطبع بيان الصلوات اليومية جميعاً.

□ عن أبي إمامة قال: بينما رسول الله ﷺ في المسجد ونحن نُعود معه، إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله! إني أصبتُ حَدًّا فَأَقِمْهُ عَلَيَّ. فقال ﷺ: «هَلْ شَهِدْتَ الصَّلَاةَ مَعَنَا؟» قال: نعم يا رسول الله. قال ﷺ: «فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ حَدَّكَ؛ أَوْ قَالَ: «ذَنْبَكَ»^(١).

عن سماعة قال: سألتُ أبا عبد الله عليه السلام عن رجل أصابَ ما لا من عمل بني أمية وهو يتصدق منه ويصل منه قرابته ويحج ليغفر له ما اكتسب وهو يقول: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِنَاتٍ﴾. فقال أبو عبد الله عليه السلام: «إِنَّ الْخَطِيئَةَ لَا تُكَفِّرُ الْخَطِيئَةَ، وَلَكِنَّ الْحَسَنَةَ تَحْطُ الْخَطِيئَةَ». ثم قال: «إِنْ كَانَ خَلَطَ الْحَلَالَ بِالْحَرَامِ فَاخْتَلَطَا جَمِيعًا فَلَا يُعْرَفُ الْحَلَالُ مِنَ الْحَرَامِ فَلَا بَأْسَ»^(٢).

الآية القرآنية المرجوة:

□ روي عن أبي حمزة الثمالي أنه قال: أقبل عليّ عليه السلام على الناس فقال: «آيَةُ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَرْجَى عِنْدَكُمْ».

• فقال بعضهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾^(٣). فقال عليه السلام: «حَسَنَةً، وَلَيْسَتْ لِأَيَّاهَا».

• وقال بعضهم: ﴿وَمَنْ يَمَلْ سُوْءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(٤). قال عليه السلام: «حَسَنَةً، وَلَيْسَتْ لِأَيَّاهَا».

• وقال بعضهم: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(٥). قال: «حَسَنَةً، وَلَيْسَتْ لِأَيَّاهَا».

• وقال بعضهم: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾^(٦). قال: «حَسَنَةً، وَلَيْسَتْ لِأَيَّاهَا».

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ٣٤٥.

(٤) سورة النساء: الآية ١١٠.

(٥) سورة الزمر: الآية ٥٣.

(٦) سورة آل عمران: الآية ١٣٥.

(٢) تفسير كنز الدقائق.

(٣) سورة النساء: الآية ٤٨.

قال: ثم أحجم الناس، فقال ﷺ: «ما لَكُمْ يا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ». فقالوا: لا والله ما عندنا شيء. فقال ﷺ: «سَمِعْتُ حَبِيبِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: أَرْجَى آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ: ﴿وَأَقِرْ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾، وقرأ الآية كلها. ثم قال ﷺ: يا علي! والذي بعثني بالحق بشيراً ونذيراً، إنَّ أحدكم ليقوم من وضوئه، فتساقط عن جوارحه الذنوب، فإذا استقبل الله بوجهه وقلبه، لم ينفلت وعليه من ذنوبه شيء، كما ولدته أمه. فإن أصاب شيئاً بين الصلاتين، كان له مثلُ ذلك، حتى عَدَّ الصلوات الخمس، ثم قال ﷺ: يا علي! إنَّما منزلة الصلوات الخمس لأمتي كنهرٍ جارٍ على باب أحدكم فما يظنَّ أحدكم لو كان في جسده درن ثم اغتسل في ذلك النهر خمس مرات، أكان يبقى في جسده درن؟ فكذلك والله الصلوات الخمس لأمتي»^(١).

التعاليم:

- ١ - على القائد أن يكون قدوة للآخرين، ﴿فَأَسْتَقِمَّ... أَقِرْ﴾.
- ٢ - ينبغي إقامة الصلوات وفقاً لشروطها وآدابها؛ وتتضمن كلمة ﴿أَقِرْ﴾ معنى الكمال والتمام كذلك، ﴿أَقِرْ الصَّلَاةَ﴾.
- ٣ - الصلاة قوة تفيض على قلوب المؤمنين؛ وقد ذكرت الآيات السابقة أمر الله سبحانه للنبي ﷺ والمؤمنين بالاستقامة وعدم الركون إلى الظالمين، وهذه هي أمور تتطلب معنويات عالية لذلك بين الله تعالى في هذه الآية الوسيلة التي تكفل تقوية المعنويات وهي الصلاة، ﴿فَأَسْتَقِمَّ... وَأَقِرْ الصَّلَاةَ﴾.
- ٤ - أساس الصلاة إقامتها في أوقاتها، ﴿طَرَفِي النَّهَارِ﴾.
- ٥ - الصلاة أسمى نموذج للحسنات، ﴿أَقِرْ... إِنَّ الْحَسَنَاتِ﴾.
- ٦ - أفعال الإنسان يؤثر بعضها في بعض، ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾.
- ٧ - الأمر بالصلاة أبلغ تعاليم الله سبحانه، ﴿ذَلِكَ ذِكْرِي﴾؛ فالصلاة ذكرى إلهية.

(١) انظر تفسير مجمع البيان؛ وتفسير كنز الدقائق.

٨ - ما ينتفع من الذكرى الإلهية إلا الذاكرون، ﴿ذَكَرُوا لِلذِّكْرِ﴾.

٩ - إقامة الصلاة تتطلب المثابرة والصبر^(١)، ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ... وَأَصْبِرْ﴾.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَتَهُونَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ
أَجْبَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾

إشارات:

□ ذكرت كلمة «بقية» ثلاث مرّات في القرآن الكريم وتعني ما بقي من الشيء، وتُستخدم في اللغة العربية كذلك بمعنى الفضل والقدرة، ربّما لقيام البعض بخزن أشياء ثمينة عنده فسميت بالبقية وهي الفضل والنفائس، أو ربّما كان ذلك إشارة إلى فئة مُعيّنة من الناس ممّن يمتلكون قوّة وقدرة وسلطاناً أكبر.

□ ينتقد الله سبحانه في هذه الآية الشريفة بعض الناس ويوبّخهم لعدم تسلّحهم بالعلم والمعرفة من أجل بذل النصائح لقومهم ومجتمعهم. وقد تكرر هذا النقد في القرآن الكريم بلفظة ﴿لَوْلَا﴾ منها قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾^(٢)، و﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾^(٣).

□ بما أنّ الآية (١١٤) من سورة هود أشارت إلى الصلاة وتطرّقت هذه الآية (أي الآية ١١٦) إلى موضوع النّهي عن المنكر، فلا بأس هنا من أن نشير إلى الآيات القرآنية التي تناولت كلّاً من مسألتَي (الصلاة) و(الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر) والتي جاءت معاً في موضع واحد في كلّ مرّة وتأثير كلّ منهما على الأخرى. ومن هذه الآيات ما يلي:

(أ) ﴿إِنِ الصَّلَاةُ تَنَهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^(٤).

(١) وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾، سورة طه: الآية ١٣٢.

(٢) سورة التوبة: الآية ١٢٢.

(٣) سورة المائدة: الآية ٦٣.

(٤) سورة العنكبوت: الآية ٤٥.

- ب ﴿إِنَّ الْحَسَنَتِ^(١) يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ^(٢)﴾.
 ج ﴿أَقْرِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ^(٣)﴾.
 د ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ^(٤)﴾.

التعاليم:

- ١ - إنَّ الذين يتغاضون عن الفساد الاجتماعي كانوا وما زالوا موضع انتقاد وإدانة، ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ...﴾.
- ٢ - تقع المسؤولية الأكبر في النهي عن المنكر على العلماء وأصحاب السلطة، ﴿أُولَئِكَ يَقْتَرِ﴾.
- ٣ - غالباً ما يكون المصلحون والحريصون في أي مجتمع أقلية ضئيلة، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾.
- ٤ - العبث والإهمال وترك فريضة النهي عن المنكر هي أسباب رئيسة أدت إلى اندحار الحضارات القديمة وسقوطها، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ آمَنَّا﴾.
- ٥ - النجاة من غضب الله والخلاص منه هما ثمرة جهود المصلحين في المجتمع، ﴿أَنجَيْنَا﴾.
- ٦ - الظلم والترف والجريمة، أضلاع المثلث المشؤوم للسقوط والهلاك، ﴿ظَلَمُوا... أَتْرَفُوا... تُجْرِمُونَ﴾.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾

إشارات:

□ وحول المُراد من «الإصلاح»، قال رسول الله ﷺ: «هُوَ الْإِنصَافُ بَيْنَ الْخَلْقِ»^(٥).

(١) سورة الحج: الآية ٤١.

(٢) تفسير مجمع البيان.

(٣) كالصلاة مثلاً.

(٤) سورة هود: الآية ١١٤.

(٥) سورة لقمان: الآية ١٧.

وعن رسول الله ﷺ كذلك: «يَا ابْنَ مَسْعُودٍ أَنْصِبِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ وَأَنْصَحِ الْأُمَّةَ وَارْحَمْهُمْ فَإِذَا كُنْتَ كَذَلِكَ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَى أَهْلِ بَلَدَةٍ وَأَنْتَ فِيهَا وَأَرَادَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ نَظَرَ إِلَيْكَ فَرَحِمَهُمْ بِكَ»^(١).

التعاليم:

- ١ - إِنَّ لَغَضَبِ اللَّهِ أَسْبَابَ وَمُسَبِّبَاتٍ، ﴿لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾.
- ٢ - لَا يَكْفِي الْمَرْءَ صَلَاحُهُ، بَلْ لَا بَدَّ مِنْ أَنْ يَقُومَ بِالْإِصْلَاحِ كَذَلِكَ، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ... وَأَهْلُهَا مُصَلِّحُونَ﴾.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾

إشارات:

□ أشار القرآن الكريم مراراً إلى حرية الإنسان في اختيار دينه ومعتقدده، فعلى الرغم من أن الله سبحانه يهدي الناس إليه لكنه لم يكن يُجبر أحداً على ذلك، بل ولم يسمح حتى لنبيه ﷺ بإجبار أحد أو إرغامه على قبول دين الله، إنما دعاه إلى تذكير الناس وهدايتهم إلى الصراط المستقيم وحسب ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾^(٢). ولذلك فإنَّ الله سبحانه يُلهم الإنسان طريق التقوى والفجور بحيث تتمكن فطرته من أعماقها إدراك الصالح عن الطالح وتمييزه، ثم أرسل الأنبياء ﷺ لإرشاده من الخارج، وما على الإنسان إلا أن يختار بينهما بكامل إرادته واختياره.

التعاليم:

- ١ - اقْتَضَتْ سُنَّةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عِنْدَ خَلْقِ الْإِنْسَانِ مَنْحَهُ حُرِيَّةَ اخْتِيَارِ الْعَقِيدَةِ وَالرَّأْيِ الَّذِي يَرِيدُ، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾.
- ٢ - لَا رَادَّ لِإِرَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ﴾.

- ٣ - لم يكن الناس في يوم من الأيام على رأي واحد، ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾.
- ٤ - الحرية وحق الاختيار أساس اختلاف الناس، ﴿وَلَوْ شَاءَ... وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾.

﴿إِلَّا مَنْ رَزَحَ رَبُّكَ وَلِلَّذَلِكَ خَلْقُهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (١١٩)

□ قال بعضهم: إن معنى هذه الآية هو أن الناس كانوا وما زالوا مختلفين إلا الذين شملتهم رحمة الله وعنايته، وأن الله سبحانه إنما خلقهم من أجل وحدة كلمتهم هذه^(١).

□ ذكرت فلسفة خلق الإنسان في العديد من الآيات القرآنية من خلال عناوين مختلفة:

- فمرة يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٢) وهو ما يشير إلى أن علة خلق الجن والإنس هي عبادة الله سبحانه.
- ومرة أخرى يقول: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾^(٣)؛ أي أن الله سبحانه خلق الحياة والموت لكي يختبرنا جميعاً.
- وفي هذه الآية من سورة هود عبارة: ﴿وَلِلَّذَلِكَ خَلْقُهُمْ﴾، وهذا يعني أن الله ﷻ خلقنا نحن البشر ليشملنا برحمته وعطفه.

□ ويبدو أن الفلسفة من وراء خلق الإنسان تتراوح بين ثلاثة محاور هي: العبادة والاختبار (أو الابتلاء) والرحمة. لكن، مع قليل من الدقة نذكر أن المحاور كلها تلتقي عند نقطة واحدة تتمثل في تكامل الإنسان الروحي والمعنوي.

□ جاء في الآية السابقة أن الإنسان حرّ، وفي نهاية هذه الآية يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾. ويُستفاد من الجمع بين

(١) تفسير أطيب البيان.

(٣) سورة المُلْك: الآية ٢.

(٢) سورة الذاريات: الآية ٥٦.

الآيتين المذكورتين أَنَّ الإنسان حُرَّ في اختياره أحد السبيلين، إِلَّا أَنَّهُ سُعَاقِب بالدخول إلى النار في حال اختار طريق الباطل.

□ وورد في كثير من الروايات أَنَّ أوضح مثال على اختلاف الناس في ما بينهم هي مسألة ولاية المعصوم؛ إذ انحرف مُعْظَم الناس عن سبيل الحقِّ إِلَّا فئة قليلة شملتْها رحمة الله وَمَنْ ساروا على خُطَى أهل البيت ﷺ والأئمة المعصومين^(١).

□ وعن الإمام الصادق ﷺ أَنَّهُ قال: «خلق الله تعالى ابن آدم ليتدبَّر ويستحقَّ رَحْمَتَهُ»^(٢).

التعاليم:

- ١ - السبيل الوحيد لإنهاء الاختلاف بين الناس هو لطف الله تعالى ورحمته، ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾.
- ٢ - عامل الوحدة الرئيس هو العون الإلهي، أما المحاور الدنيوية والمادية والأمور الفانية والمرحلية، فهي قاصرة وخيالية، ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾.
- ٣ - تكمن فلسفة خلق الإنسان في شموله بالرحمة الإلهية، ﴿وَلِلَّهِ خَلْقُهُمْ﴾.
- ٤ - حتى الله سبحانه مُلتزم بالسُنن والقوانين، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾.
- ٥ - يأتي غضب الله تعالى في المرحلة التالية بعد لطفه وإرساله الرّسل وإنزال الوحي وتقديم الموعدة والوعيد والأجل المعلوم، ﴿رَحِمَ رَبُّكَ... لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾.
- ٦ - أتمَّ الله سبحانه حُجَّتَهُ على خلقه بعد وضعه الفطرة والعقل في داخلهم، وإرسال أنبيائه ووحيه في الخارج، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾.
- ٧ - لجهنم طاقة وسعة محدودتان، ﴿لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾.

(١) تفسير كنز الدقائق.

(٢) تفسير نور الثقلين؛ التوحيد، الشيخ الصدوق، ص ٤٠٣.

٨ - الجنّ كالإنس، فهم مُكَلَّفون كذلك ومُعَرَّضون للثواب أو العقاب، ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾.

﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢٠)

التعاليم:

- ١ - سرد بعض الوقائع التاريخية المهمة والإشارة إليها هو أحد الأساليب التربوية، ﴿نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ﴾.
- ٢ - إن بيان سير الأنبياء ﷺ مُفعم بالمادة التربوية، وكل نقطة فيها تحمل مغزى ودليلاً، ﴿وَكَلَّا﴾.
- ٣ - قصص القرآن الكريم هي مُلخص لسيرة حياة الأنبياء ﷺ، ﴿نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ﴾.
- ٤ - كل قصص القرآن الكريم هادفة، وهي ليست وسيلة للتسلية أو الخداع، ﴿نَقْصُ عَلَيْكَ... مَا نُثَبِّتُ بِهِ﴾.
- ٥ - عند سرد قصة ما لا بد من التركيز على النقاط القِيَمِيَّة فيها، ﴿مَا نُثَبِّتُ﴾.
- ٦ - أحسن القصص وأجودها ما بعث منها على الطمأنينة والثبوت، ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾.
- ٧ - الله هو مُثَبِّت القلوب، ﴿نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾.
- ٨ - حتى الأنبياء ﷺ بحاجة إلى دعم وتعزيز معنوي، ﴿نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾.
- ٩ - الباطل لا يقود إلى الطمأنينة الحقيقية والثابتة إطلاقاً، ﴿نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾.
- ١٠ - لا يفلح المُبلِّغ في دعوته وموعظته حتى يكون هو على بينة وثقة من أمره، ﴿نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾.

- ١١ - كلّ قصص القرآن الكريم حقيقة وذات براهين وأدلة مقبولة، ﴿الْحَقُّ﴾.
- ١٢ - مراحل التبليغ هي: (١) البال المطمئن؛ (٢) الكلام المستدل؛ ثم (٣) الموعظة، ﴿فَوَادَكَ... الْحَقُّ... مَوْعِظَةٌ﴾.
- ١٣ - لا تأثير لأفضل السبل التربوية إلّا في الأفراد المستعدين لتقبل الإيمان، ﴿وَذَكَرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٢١﴾﴾
 وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

التعاليم:

- ١ - مسؤولية الأنبياء ﷺ هي الإبلاغ والتهديد والبشارة، ﴿قُلْ﴾.
- ٢ - الإنسان مخلوق حرّ، وليس على الأنبياء ﷺ إرغامه على شيء، ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ... أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ﴾.
- ٣ - يجب تهديد من لا تنفع معه الموعظة ولا يجدي معه التذكير، ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ﴾.
- ٤ - على المبلّغ أن يؤمن هو أولاً بسبيله وهدفه، ﴿إِنَّا عَمِلُونَ... إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾.
- ٥ - يكون التبليغ على قدر عقول المبلّغين وإدراكهم، أما المعاندون فليس لهم إلّا التهديد والوعيد، ﴿أَنْظِرُوا﴾.
- ٦ - يُثاب الأنبياء والمؤمنون بحسن العاقبة والنجاح، ﴿إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ
 وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

إشارات:

□ ال ﴿غَيْبُ﴾ هو شأن من شؤون الله سبحانه مطلقاً، وقد يمنح سبحانه شيئاً من

ذلك العلم لأنبيائه كذلك، ولكن بعد إذنه طبعاً: ﴿عَلَيْمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ﴾^(١).

التعاليم:

- ١ - تقتصر معرفة أسرار العالم على الله سبحانه وحده، ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.
- ٢ - السموات والأرض مليئة بالغيب والأسرار إلى جانب ظاهرها، ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.
- ٣ - الله ملاذ كل شيء ومرجعه، ﴿وَالِيهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾.
- ٤ - الإيمان بالغيب أساس العبادة وعين التوكل على الله سبحانه، ﴿وَلِلَّهِ غَيْبٌ... فَأَعْبُدْهُ﴾.
- ٥ - من توكل على الله فاز بلطفه، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ...﴾.
- ٦ - العلم بأفعال الإنسان من شؤون الربوبية، ﴿وَمَا رَبُّكَ...﴾.

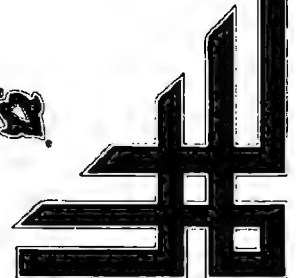
«والحمد لله رب العالمين»



سُورَةُ يُوسُفَ

السورة: ١٢ الجزء: ١٢ - ١٣

عدد الآيات: ١١١



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين
وصلّى الله على سيّدنا ونبيّنا محمّد وآله الطاهرين

مقدمة سورة يوسف ﷺ

على الرّغم من طبع سورة (يوسف ﷺ) في المُجلّد السادس من تفسير (النور)، لكنّ حلاوة قصّة سيّدنا يوسف ﷺ وجاذبيّتها، وقناعتنا بأنّ أفضل سبيل لتعريف الجيل الجديد بتفسير النواحي الهامّة فيه وبيانها والإشارة إلى اللطائف المكنونة في هذا الكتاب السماويّ، هي القصص القرآنيّة؛ من أجل ذلك كلّ عقدنا العزم على طبع تفسير هذه السورة ونشرها بشكل مستقل لكي لا يُحرّم الذين لا يملكون الوقت الكافي لمطالعة التفسير الكبير بأكمله، من متعة قراءة جزء يسير على الأقلّ من القرآن ويتعرّفون بقراءته على تفسيره ويأنسون بشروحه وتوضيحاته.

لا شكّ في أنّ شبابنا - وبعد مطالعتهم الكُتَيْب - سيطلعون على قدرة الله سبحانه في سرد قصّة تشتمل على آلاف النقاط المهمّة وكذلك توفيق الله لي ومنّه عليّ في توضيح ما يربو على تسعمئة مسألة من تلك المسائل، باليسير ممّا أملك من خزائن المعلومات، وإخراجها في كُتَيْب صغير مُبسّط كهذا.

إنني واثق من أنّ مُطالعة هذه السورة المباركة، هي أفضل وسيلة لولوج عالم التفسير، وهو ما حدا بقسم تفسير القرآن الكريم عام (٢٠٠١م) إلى تقديم هذا الكتاب في مسابقة قرآنيّة فريدة، داعياً المُهتمين بتدبر آي القرآن الكريم إلى

إرسال ما يخطر ببالهم من نكاتٍ مهمّة ونقاطٍ شتيّة في هذا المجال إلى القسم المذكور والحصول على جوائزٍ مُغرية. وقد تسلّم القسم المذكور والله الحمد ما يُقارب (٧٠) رسالة تتضمّن آلاف النقاط والملاحظات الجديدة المهمّة، فقام المُختصّون بهذا العمل باختيار ما كان منها منسجماً مع المعايير المطلوبة ومُقارناً للإبداع المنشود، غير مُكرّر ولا مُيلّ.

وتشتمل الطبعة الحاليّة لكتاب (يوسف في القرآن) على (٣٧٠) إشارة وتعليم مُستخرّجة مما بعث به الإخوة إلى قسم تفسير القرآن الكريم، أُضيفت جميعها إلى الإشارات والتعاليم السابقة البالغة (٩٠٠)، لكي يتمكّن القراء أولاً من مُطالعة ما استجدّ، وثانياً لتتضح مسألة مهمّة في هذا المجال وهي أنّ التدبّر في القرآن الكريم يتيح للإنسان الوصول إلى نقاط جديدة لم تكن لتُخطر على باله قبل هذا. ولحفظ الحقوق المعنوية فقد ختمنا التعاليم المُقتبسة مما وصل إلينا بالنجمة(*) في آخرها.

وأخيراً، أعبر عن سُكري وتقديري لجميع الأعزاء الذين أرسلوا مقترحاتهم الذين نعتذر عن ذكر أسمائهم جميعاً، كما أتقدّم بخالص سُكري وامتناني للخدمات التي قدّمها حجة الإسلام والمسلمين الشيخ مُجتبى كلباسي وزملاؤه المحترمون في قسم التفسير، الذين بذلوا أقصى جهودهم سواء في إقامة المسابقة أو مُراجعة الكراريس واستخراج النقاط والمسائل المهمّة والحديثة منها، مُتمنياً من الله العليّ القدير أن يوفقهم لما فيه خيرهم وسعادتهم.

ولا ننسى هنا الإشارة إلى أنّ كلّاً من حجة الإسلام كلباسي وسليماناني قد قاما مُجدّداً بمراجعة موضوعات هذا الكتاب وتنقيح ما تطلّب ذلك في المسابقة القرآنية التي أُقيمت سنة ٢٠٠٤م وقد تمّ إدراج آرائهم ومقترحاتهم في هذا الكتاب كذلك.

وكذلك أشكر كلّ الذين تبرز لديهم مسائل جديدة أو نقاط حديثة ومهمّة ونرجو منهم إرسالها إلينا، مع تقديري واحترامي.

محسن قراءتي

٢٠٠٢/٧/٦م

ملامح سورة يوسف ﷺ

سورة يوسف من السور المكية وعدد آياتها (١١١) آية. تكرر اسم النبي يوسف ﷺ في القرآن الكريم (٢٧) مرة، منها (٢٥) مرة وردت في هذه السورة. تعرض هذه السورة الشريفة من خلال آياتها المترابطة قصة حياة النبي يوسف ﷺ بشكل مُثير وجذاب وإيجاز مُعجز، وذلك بدءاً من طفولته حتى تصديده منصب الحفيظ على خزائن مصر، مع الإشارة إلى طهره ونزاهته، وفشل الكثير من الدسائس التي حيكّت ضده، مُبيّنة قدرة الله سبحانه في ذلك كله.

والجدير بالذكر أنّ قصة النبي يوسف ﷺ لم ترد في القرآن الكريم إلا في هذه السورة المباركة منه، في حين تناول القرآن الكريم قصص أنبياء آخرين في كثير من سور. فقصة أبينا آدم ونبي الله نوح ﷺ وردت في ١٢ سورة من سور القرآن الكريم، وقصة خليل الله إبراهيم ﷺ في ١٨ سورة، وقصة النبي صالح ﷺ وردت في ١١ سورة، وقصة النبي داود ﷺ في ٥ سور، وقصة هود وسليمان ﷺ في ٤ سور، وقصة عيسى وزكريّا ﷺ في ثلاث سور^(١).

وقد أشارت التوراة إلى قصة النبي يوسف ﷺ في سفر التكوين الإصحاح (٣٧ - ٥٠) ؛ ولكن عند المقارنة بين ما ورد في التوراة وما رواه القرآن الكريم تتجلى أصالة القرآن مقارنة بهزلة ما ذكرته التوراة من تحريف وزيف. ومن ناحية أخرى تحتل قصة النبي يوسف ﷺ مع (زليخا) مكانة متميزة في الأدب الشعري

والقصصي، مثل قصيدة «يوسف وزليخا» التي ألفها الشاعر الإيراني نظامي كنجوي وقصة «يوسف وزليخا» لشاعر الفرس الكبير فردوسي.

ويتناول القرآن الكريم شخصية النبي يوسف ﷺ أكثر من غيرها في سورة يوسف، حيث يسرد لنا الكثير من الأحداث التي مرت في حياته ﷺ بينما ركزت الآيات التي تحدّثت عن الأنبياء الآخرين على مصير أقوامهم وعنادهم وهلاكهم أكثر من تطرّفها إلى شخصية ذلك النبي.

وقد ورد في بعض الروايات النهي عن تدريس سورة يوسف ﷺ للنساء والبنات، إلّا أنّ بعض أصحاب الرّأي السديد لا يرون لتلك الروايات سنداً موثقاً^(١). ولعلّ معيار النهي هنا هو تسليط الضوء على عناصر الهيام والحبّ الذي مارسه (زليخا) زوجة العزيز ولكن لا نظنّ أنّ ذلك يتضمّن أيّ نقاط سلبية إذا ما تمّ طرحه بالكيفيّة والبيان اللذين استخدمهما القرآن الكريم.

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ①﴾
 ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ②﴾

إشارات:

□ اختلفت الآراء حول الحروف المقطعة، ومن تلك الآراء ما يأتي:

- ١ - أنّ القرآن الكريم - وهو المعجزة الإلهية - مُكوّن من هذه الحروف المتاحة للجميع.
- ٢ - أنها تُشير إلى اسم سورة تبدأ بتلك الحروف.
- ٣ - أنها شكل من أشكال القَسَم.
- ٤ - أنّ تلك الحروف تُشير إلى أسرار ورموز لا يَعلمها إلا الله سبحانه ورسوله ﷺ.

لكن، وبالنظر إلى أنّه من بين (٢٩) سورة في القرآن الكريم تبدأ جميعها بحروف مُقطّعة هناك (٢٤) سورة يبدأ الحديث بعد تلك الحروف عن معجزة القرآن، فإنّ الرّأي الأوّل هو الأقرب إلى الصواب كما يبدو.

□ لا شكّ في أنّ القرآن الكريم لو كان قد نزل بأيّ لغة، كان لا بدّ للآخرين من أن يكونوا مُلمّين بتلك اللغة ومُطلعين على أسرارها؛ أمّا نزوله باللغة العربية فإنّ لذلك ميزات كثيرة، من جملتها:

(أ) تتّصف اللغة العربية بثناء مُفرداتها ورصانة قواعدها وهو أمر قلّما نجده في اللّغات الأخرى.

(ب) إنّها لغة أهل الجنّة طبقاً لما نصّت عليه روايات عدّة.

(ج) لغة الأقوام التي نزل بين ظهرانيها القرآن الكريم هي العربية، لذلك لم يكن بالإمكان نزوله بلغة أخرى.

□ عبّر الله سبحانه وتعالى عن القرآن الكريم والمطر بكلمة (نزل)، ولعلّ كثيراً من أوجه الشبه تجمع بين الاثنين، في ما يأتي بعض من تلك الأوجه:

(أ) كلاهما ينزل من السماء، ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾^(١).

(ب) كلاهما طاهر ومطهر؛ فالقرآن الكريم يُطَهِّرُ الرُّوحَ من الشُّرك والجهالة والانحراف، ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾^(٢)؛ والمطر يطهر الجسم ﴿لِيُطَهِّرَكُمْ﴾^(٣).

(ج) القرآن الكريم والمطر كلاهما عاملان حياتيان؛ فالمطر عامل مادي للحياة وإحياء الأرض الميتة واخضرارها، ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا﴾^(٤)، والقرآن الكريم وسيلة لإحياء القلوب الميتة الغافلة: ﴿دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾^(٥).

(د) كلاهما رمزٌ للبركة، ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكًا﴾^(٦)، ﴿مَاءٌ مُبَارَكًا﴾^(٧).

(هـ) القرآن الكريم يشبه في نزوله المطر، إذ ينزل شيئاً فشيئاً وآية بعد آية [وهو النزول التدريجي].

□ ربما كان التأكيد على عربية القرآن رداً على اتهام النبي ﷺ بتعلّمه من أعجمي: ﴿أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾^(٨).

التعاليم:

١ - يتألف القرآن الكريم من حروف الألفباء المُشار إليها (ألف، لام، راء...)،

فإذا استطعتم أن تؤلفوا كتاباً مثل القرآن من تلك الحروف فافعلوا، ﴿الرَّءِ﴾.

٢ - للقرآن مقام سام وعظيم، ﴿وَتِلْكَ﴾.

٣ - ينبّه القرآن قارئه أولاً، إلى إحكام آياته وبعد ذلك يشرع في بيان مطالبه،

﴿مَّا يَنْتَ أَلْكِتَابِ الْمُنِينِ﴾.

(٥) سورة الأنفال: الآية ٢٤.

(٦) سورة الأنعام: الآية ٩٢.

(٧) سورة ق: الآية ٩.

(٨) سورة النحل: الآية ١٠٣.

(١) سورة المؤمنون: الآية ١٨.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٢٩.

(٣) سورة الأنفال: الآية ١١.

(٤) سورة الفرقان: الآية ٤٩.

- ٤ - إنَّ نزول القرآن الكريم باللغة العربية من جهة، وأمر الله سبحانه بتدبره والتفكر في معانيه من جهة أخرى إنما هما إشارتان إلى ضرورة تعلّم المسلمين اللغة العربية، ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.
- ٥ - ليس الهدف من نزول القرآن الكريم هو تلاوته والتبرّك به فحسب، بل هو وسيلة لتعقل البشرية وتطورها، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.
- ٦ - لا بدّ من أن يكون الكتاب، أيّ كتاب، واضحاً وبيّناً، ويهدف إلى غاية شريفة وهداية قويمه، ﴿الِكِتَابِ الْبَيِّنِ... لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (*).
- ٧ - لا يكفي نزول القرآن للوصول إلى السعادة؛ بل لا بدّ من التدبر والتفكر فيه، ﴿أَنْزَلْنَاهُ... لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (*).

﴿وَمَنْ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾

إشارات:

- «الْقَصَص» جَمْعُ (الْقِصَّة)، وتأتي بمعنى (سرد القصة) أيضاً.
- للقصة دور كبير في تربية الإنسان؛ لأنها تُجسّد حياة أمة بأكملها وتجربتها العملية في الحياة. فالتاريخ مرآة الأمم، وكلّما اقتربنا منه وتعرّفنا على الأمم والأقوام والحضارات السالفة، أحسّنا وكأننا نعيش أعمارهم التي عاشوها ونمرّ بأحداثهم التي مرّوا بها. يقول الإمام علي عليه السلام في وصيته لابنه الإمام الحسن عليه السلام: «أَيُّ بُنَيٍّ، إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمَرْتُ عُمَرُ مَنْ كَانَ قَبْلِي، فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ، وَسِرْتُ فِي آثَارِهِمْ، حَتَّى عَذْتُ كَأَحَدِهِمْ، بَلْ كَأَنِّي بِمَا انْتَهَى إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عُمَرْتُ مَعَ أَوْلِيهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ»^(١).
- ولعلّ أحد الأسباب التي تجعل للقصة أو للحكاية أثراً بالغاً في نفس

(١) نهج البلاغة، الرسالة ٣١ - من وصيته عليه السلام للحسن بن علي عليه السلام كتبها إليه بـ «حاضرين» عند انصرافه من صفين.

الإنسان هو مِيلَه إِلَيْهَا وانجذابه نحوها. ولا نَنسَى ما لِلْكِتَابِ والمصادر التاريخية من بهاء ورونق مُتَمَيِّزِينَ عَلَى مَرَّ تَارِيخِ الحضارة البشرية، وذلك لسهولة فَهْمِهَا واستيعابها من قِبَلِ أَغْلَبِ سامعيها، في حين نرى مثلاً أَنَّ البحوث الاستدلالية والعقلانية لا تَجْذِبُ إِلَيْهَا سوى فئة قليلة مُخْتَصَّة بهذا المجال.

□ يُطَلَّقُ عَلَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كُلُّهُ فِي الروايات اسم (أَحْسَنَ الْقَصَصِ)؛ وهذا لا يتنافى مع كَوْنِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ هُوَ (أَحْسَنَ الْقَصَصِ) مُقَارَنَةً بِالْكِتَابِ الْإِلَهِيِّ الأخرى، أو أَنَّ تَكُونُ هذه السورة هي (أَحْسَنَ الْقَصَصِ) من بين سَوَرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ^(١).

□ توجد فروق عدّة بين القصص التي يرويها الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ وبين القصص الأخرى التي يرويها البشر، منها:

١ - إِنَّ الْقَاصِّ وَالرَّائِي (فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ) هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿نَحْنُ نَقُصُّ﴾.

٢ - إِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ هَادِفٌ فِي كُلِّ مَا وَرَدَ فِيهِ، وَهَدَفُهُ سَامٌ وَعَظِيمٌ وَهُوَ هِدَايَةُ الْبَشَرِ وَإِرْشَادُهُمْ بِوَاسِطَةِ تَجَارِبِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ، وَكَيْفَ أَنَّ بَعْضَ تِلْكَ الْأُمَمِ رَفَعَهَا إِيْمَانُهَا وَصَبْرُهَا وَتَقْوَاهَا إِلَى مَرَاقِي الْعِزِّ وَالشُّمُوحِ، بَيْنَمَا هَوَى الْعِنَادَ وَالْغُرُورَ وَالْحَسَدَ بِبَعْضِ الْأُمَمِ إِلَى حَضِيضِ الذِّلِّ وَالْمَهَانَةِ. وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ تِلْكَ الْقَصَصَ وَالْحِكَايَاتِ تَبْعَثُ الطَّمَأْنِينَةَ فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ لَكِي يَصْمَدَ بِوَجْهِ الصَّعُوبَاتِ وَالْمُعْضَلَاتِ. وَفِي هَذَا الصَّدَدِ وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَتَّبِعُ بِهِ. فُؤَادَكَ﴾^(٢).

٣ - الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ كُلُّهُ حَقٌّ وَلَيْسَ فِيهِ خِيَالٌ وَلَا أَوْهَامٌ، ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾^(٣).

٤ - قَوَامُهُ الْعِلْمُ لَا الظَّنُّ، ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَنْهُمْ بَعْدَ﴾^(٤).

(٣) سورة الكهف: الآية ١٣.

(٤) سورة الأعراف: الآية ٧.

(١) تفسير كنز الدقائق.

(٢) سورة هود: الآية ١٢٠.

٥ - كونه مدعاة للتفكر والتدبر لا التخدير، ﴿فَأَقْصَى الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(١).

٦ - يُمثل حافزاً للاعتبار لا للهو أو للعب، ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾^(٢).

□ تُعدّ قصة النبي يوسف ﷺ من أحسن القصص وذلك:

١ - لأنها من كلام الوحي، ومن أكثر القصص وثوقاً واعتباراً، ﴿يَمَّا أَزْجَيْنَا﴾.

٢ - تطرح القصة أفضل وأعظم أنواع الجهاد ألا وهو جهاد النفس.

٣ - بطل القصة شاب اتصف بجميع الكمالات الإنسانية، كالصبر والإيمان والتقوى والعفة والأمانة والحكمة والعفو والإحسان، وهو ما سنشهدده عند مطالعتنا لتاريخ النبي يوسف ﷺ.

٤ - تُختتم حكاية جميع شخصيات القصة بالسعادة والفرح؛ فيوسف ﷺ يتوباً منصباً حكومياً رفيعاً، وإخوته يتوبون إلى الله مما بدر منهم في الماضي تجاه يوسف، وأبوه يعقوب ﷺ يعود إليه بصره، وتنجو البلاد من القحط والجفاف، ويتحوّل الهَم والحسد إلى وصال ومحبة.

٥ - طُرحت في هذه القصة الكثير من الأضداد جَنباً إلى جنب، كالفراق والوصال، والحُزن والفرح، والجفاف والخصب، والجفاء والإخلاص، والمالك والمملوك، وغيابة الجُبّ وفخامة البلاط، والغنى والفقر، والعبودية والسيادة، والعمى والإبصار، والعفة والتهمة.

□ ليست القصص والحكايات التي يقصّها الله سبحانه هي الأحسن وحسب، بل إنّ جميع أفعاله وإراداته هي الأحسن دوماً، لأنّه:

١ - ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾^(٣).

٢ - يمتلك أحسن الكتب، ﴿نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾^(٤).

(١) السورة نفسها: الآية ١٧٦.

(٣) سورة المؤمنون: الآية ١٤.

(٢) سورة يوسف: الآية ١١١.

(٤) سورة الزمر: الآية ٢٣.

٣ - أَحْسَنُ الْمُصَوِّرِينَ، ﴿فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾^(١).

٤ - يَعْرِضُ أَحْسَنَ الْأَدْيَانِ، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾^(٢).

٥ - يَمْنَحُ أَحْسَنَ الثَّوَابِ وَأَجْزَلَهُ، ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾^(٣).

وفي مُقابل تلك المحاسن كلها فَإِنَّ الله سبحانه يُطالب الإنسان بالقيام بأحسن الأعمال وأفضلها، ﴿يَلْبِسُكُمْ أَكْثَرَ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾^(٤).

التعاليم:

١ - ذكرنا أَنَّ الراوي لقصص القرآن الكريم هو الله سبحانه وتعالى، ولا شك في أَنَّهُ كَلَّمَا كَانَ الرَّاوي ثقة ومعتبراً، كان لقوله بالغ الأثر في النَّفس والروح، ﴿نَحْنُ نَقُصُّ﴾.

٢ - التقديم للقصة له تأثير عظيم من الناحية النفسية والتربوية (لذلك نرى القرآن الكريم وقبل البدء بالقصة، يَضَعُ مُقَدِّمَةً يُبَيِّنُ فِيهَا أَنَّهُ يُريدُ سَرْدَ حكاية أو قصة، وَأَنَّهَا ليست قصة عادية بل هي أَحْسَنُ الْقَصَصِ، كُلِّ هذا من أجل إثارة حب الاستطلاع لدى الإنسان لسماع هذه القصة)، ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾^(٥).

٣ - لا رَيْبَ فِي أَنَّ أَحْسَنَ الْقَصَصِ هي تلك التي تستند إلى الوحي ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا﴾.

٤ - كما هو واضح فَإِنَّ النَّبِيَّ الْأَكْرَمَ ﷺ كان قبل نزول الوحي يجهل قصة النبي يوسف عليه السلام، ﴿...لَيْنَ الْغَفِيلِينَ﴾.

٥ - يقوم القرآن الكريم بالإخبار وإزالة الغفلة والجهل بالشيء، ﴿مِنْ قَبْلِهِ لَيْنَ الْغَفِيلِينَ﴾.

(٣) سورة النور: الآية ٣٨.

(٤) سورة هود: الآية ٧.

(١) سورة غافر: الآية ٦٤.

(٢) سورة النساء: الآية ١٢٥.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ
كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿١﴾﴾

إشارات:

□ تبدأ قصة سيدنا يوسف عليه السلام بالحلم الذي يُبشّره ويُؤمله بالمُستقبل الزاهر، ويدعوه لإعداد نفسه وتقويتها بالصبر والجَلَد عبر المسيرة التربويّة الإلهيّة المفروضة عليه.

□ النبي يعقوب عليه السلام هو ابن النبي إسحق عليه السلام وإسحق ابن خليل الله إبراهيم عليه السلام؛ ويوسف وبنيامين عليهما السلام من أمّ واحدة، وأخوتهما من أمّ ثانية^(١).

□ تتفاوت أحلام أولياء الله، فبعضها يستلزم التأويل والتعبير كما هي الحال مع الرؤيا التي رآها النبي يوسف عليه السلام، بينما لا يحتاج بعضها الآخر إلى أيّ تأويل بل تُمثّل عين الحقيقة والواقع، كالرؤيا التي رآها خليل الله إبراهيم عليه السلام عندما أُمرَ بذبح ولده إسماعيل عليه السلام.

حديث عن الرؤيا

قال الرسول ﷺ: «الرؤيا ثلاث؛ بُشرى من الله، تحزين من الشيطان، والذي يُحدّث به الإنسان نفسه فيراه في منامه»^(٢). ويعزو بعض المختصين وعلماء النفس رؤية الأحلام إلى الإخفاقات والإحباطات المتراكمة في أعماق اللاوعي، وقد قيل في الأمثال قديماً: «إنّ البعير الجائع يرى حقل القطن في حلمه مرتعاً ومرجاً أخضر» في حين فسّر البعض رؤية الأحلام بأنّه ناجم عن مشاعر الخوف والقلق المختزنة في الإنسان، بينما وصف البعض الآخر الحلم بأنّه نتيجة للغرائز المكبوتة والمقموعة.

ومن الطبيعي أنّه في ضوء هذه الآراء يصعب تقديم تفسير واحد لجميع الأحلام.

(١) تفسير مجمع البيان.

(٢) بحار الأنوار، ج ١٤، ص ٤٤١.

□ يَنقسم الحالمون إلى فئات عدّة هي:

الفئة الأولى، الذين يمتلكون روحاً شفافة وصافية بصفاء المرآة وبعد أن ترقّد حواسهم يحلّقون في عالم آخر يستقبلون منه الحقائق الصافية والواضحة، (مثل المحطات التلفزيونية الهادفة التي تمتلك هوائيات خاصّة مُحدّدة تستقبل ترددات الأمواج الفضائية من الأماكن البعيدة والنائية). وهذا النوع من الأحلام الصافية والمباشرة لا يحتاج إلى أيّ تأويل أو تعبير.

الفئة الثانية، وهم الأشخاص الذين تتوافر أرواحهم على نقاء متوسط، وهؤلاء يرون الحقائق في عالم الرّؤيا مشوّهة نسبياً، يتخلّلها التشبيه والخيال، (وهنا لا بدّ من وجود مفسّر إلى جانب جهاز الاستقبال ليشرح الفيلم ويوضح النقاط الغامضة فيه، أو بمعنى آخر، لا بدّ من وجود شخص عالم يُفسّر لنا تلك الأحلام ويُعبّرّها).

القسم الثالث، وهم أفراد تتلاطم داخلهم الأمواج وتتقاطع الصّور، والأحلام التي يراها هؤلاء هي مجرد أضغاث لا معنى لها ولا تفسير، (كما هي الحال عندما تكون الصورة في جهاز التلفزيون مشوّشة يملؤها النّمش ولا يستطيع المُشاهد مشاهدة أي شيء فيها). وهذا النوع من الأحلام التي لا يُمكن تفسيرها يُسمّيها القرآن الكريم بـ ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾.

□ أشار القرآن الكريم في بعض سوره إلى بعض الرّؤى التي تحقّقت بالفعل، ومنها:

(أ) رؤيا النبي يوسف ﷺ حول سجود الكواكب الأحد عشر والشمس والقمر له والتي تمّ تعبيرها بوصوله إلى سُدّة الحُكم وخضوع إخوته وتواضع والديه له.

(ب) رؤيا صاحبي السّجن اللذين كانا مسجونين مع يوسف ﷺ وتمّ الإفراج عن أحدهما بينما أُعِدِمَ الآخر، وقد وردت قصّتهما في سورة (يوسف) أيضاً في الآية (٤١) منها.

(ج) الرّؤيا التي رآها ملك مصر بشأن البقرات السّبع السّمان والسّبع العجاف والتي تمّ تأويلها بحلول سنوات الجّدب والقحط.

(د) الرؤيا التي رآها الرسول الأعظم ﷺ حول قلّة عدد المُشركين في معركة (بدر) وكان تعبيرها هو اندحار المُشركين^(١).

(هـ) رؤيا النبي ﷺ أيضاً حول دخول المؤمنين المسجد الحرام مُحلّقين رؤوسهم والتي تمّ تعبيرها بفتح مكّة المُكرّمة وزيارة المُسلمين بيت الله الحرام^(٢).

(و) رؤيا أم موسى ؑ التي أُمِرَت فيها بوضع مولودها (وهو النبي موسى ؑ) في التابوت وقذفه في اليمّ، ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحَىٰ إِنْ أَقْرِضْهُ فِي التَّابُوتِ﴾^(٣)، وقد دلّت الروايات على أنّ المُراد بالوحي هنا هو الرؤيا أو الحلم.

(ز) رؤيا نبيّ الله إبراهيم ؑ حول ذبح ابنه إسماعيل ؑ^(٤).

وبالإضافة إلى القرآن الكريم فإنّه في حياتنا اليومية كثير من الأفراد الذين اطلّعوا في أحلامهم على بعض الحقائق يصعب على الأشخاص العاديين الاطلاع عليها.

ومن المناسب أن نذكر في هذا المقام أنّ الحاج الشيخ عباس القميّ، صاحب كتاب (مفاتيح الجنان)، تراءى لابنه في المنام وقال له: إنّ لديّ كتاباً أُودِعَ عندي من قَبْل وأرجو منك أن تُعيده إلى صاحبه لكي ترتاح نفسي وتطيب في عالم البرزخ. فلمّا استيقظ ابنه قصّد المكان الذي أشار إليه والده فوجدَ الكتاب الذي وصفه له والده، وهمّ بالذهاب إلى صاحب الكتاب ليسلمه إياه. وعند باب الدار سقط منه الكتاب فتضرّرت بعض صفحاته، فحمّله واستأنف مسيره إلى صاحب الكتاب وسلمه إياه. فعاد أبوه وجاء إليه في منامه وقال له: يا بُنَيَّ! لِمَ لَمْ تُخبر صاحب الكتاب بالضرر الذي لحق بكتابه ولو شاء أخذ عن ذلك تعويضاً أو ما يرضى به عن طيب نفس.

التعاليم:

١ - لا بدّ للأبناء من الوثوق بعلم والدهم ودرايته ومحبّته لهم، واستشارته في أمور حياتهم، ﴿قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾^(*).

(١) سورة الأنفال: الآية ٤٣.

(٢) سورة طه: الآيتان ٣٨ و٣٩.

(٢) سورة الفتح: الآية ٢٧.

(٤) سورة الصافات: الآية ١٠٢.

- ٢ - لا تحسن مناداة الأب باسمه، ﴿يَتَأَبَّى﴾.
- ٣ - لا شك في أنّ الوالدين هما أفضل مرجع وأوثق مصدر لحلّ مشاكل الأبناء، ﴿يَتَأَبَّى﴾.
- ٤ - لا بدّ للأباء والأبناء من استخدام لغة مُهذّبة وأسلوب مؤدّب للتحوّل في ما بينهما، لغة تدلّ على المحبة والرحمة والشفقة، ﴿يَتَأَبَّى﴾.
- ٥ - يجب على الوالدين الإصغاء إلى الأحلام التي يقصّها عليهم أبنائهم وأخذها بعين الجدّ، ﴿يَتَأَبَّى﴾.
- ٦ - لم يكن يعرف النبي يوسف ﷺ تأويل الأحلام؛ ولذا استعان بأبيه، ﴿يَتَأَبَّى﴾.
- ٧ - أحياناً تكون الرؤيا إحدى الطُّرُق التي يُمكن من خلالها درك الحقائق وفهم الأسرار، ﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾.
- ٨ - تتحوّل الأشياء في الأحلام والرؤى إلى رموز تُشير إلى بعض الحقائق (فمثلاً تُشير رؤية الشمس في المنام إلى الأب والقمر إلى الأم والكواكب والنجوم إلى الإخوة)، ﴿رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا...﴾.
- ٩ - رؤية الشمس والقمر والنجوم مجتمعة تثير العجب، ﴿كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ (*).
- ١٠ - لا شك في أنّ الأحلام التي تُعرض لأولياء الله هي حقيقة واقعة، ﴿رَأَيْتُ﴾، حيث تكرّرت كلمة (رأيت) في هذه الآية للتأكيد على أنّه ﷺ قد رأى ذلك بالفعل، فلا يُظنّ أنّ ذلك إنّما هو خيال أو سراب.
- ١١ - لقد رأى النبي يوسف ﷺ في منامه وكأنّ الشمس والقمر والكواكب موجودات عاقلة، رآهم ساجدين له، (حيث يُستخدم الضمير «هم» في الفعل «رَأَيْتُهُمْ» للعاقل كذلك) (*).
- ١٢ - يبلغ المُصطفون منازل سامية فيُصبحون معها كعبة الآخرين ومثالاً يُحتذى به، ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (*).

١٣ - أحياناً يتمتع الشاب بقدرات يعجز عنها من هم أكبر منه سناً وخبرة، ﴿سَجِدِينَ﴾.

١٤ - لا ريب في أن أسلوب استهلال القصة بالرؤيا وإنهائها بتعبيرها هو من أفضل الأساليب لكتابة القصص والسيناريو، ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ... رَأَيْتُهُمْ لِي سَجِدِينَ﴾ (*).

﴿قَالَ يَبْنَئُ لَا نَقْصُصُ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ
إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾

إشارات:

□ حفظ السرّ وكتمانه هو مبدأ أساس في الحياة؛ ولو عمل المسلم بمقتضى هذه الآية الشريفة لما استقرت كلّ مخطوطاتنا ومؤلفاتنا العلمية والفنية والتحف الثمينة في متاحف الأجنبية، ولما اكتشف الأجانب ذخائرنا وثرواتنا وقدراتنا تحت غطاء الخبير والدبلوماسي والسائح، لكنّما هي الخيانة أو السذاجة اللتان أفشتا كلّ أسرارنا في طبق من ذهب إلى أناس لطالما كادوا لنا وتحاولوا علينا.

□ لقد قصّ النبي يوسف ﷺ رؤياه على أبيه بعيداً عن أسمعاء إخوته، وإن دلّ هذا على شيء فإنّما يدلّ على ذكائه وفطنته.

التعاليم:

- ١ - تحدّثوا إلى أبنائكم بحبّ ورأفة، ﴿يَبْنَئُ﴾ (*).
- ٢ - لا بدّ للوالدين من بناء علاقة وطيدة مع أبنائهم لكي يتشجّع الأبناء على التحدّث إليهم ومناقشة ما لديهم، ﴿يَبْنَئُ﴾ (*).
- ٣ - يجب تحذير أبنائنا من خطر الحسد ومساوئه ضمن الأسرة الواحدة والمجتمع الواحد، ﴿يَبْنَئُ لَا نَقْصُصُ...﴾ (*).
- ٤ - من الضروريّ تربية الأبناء منذ الصّغر على كتمان الأسرار، ﴿يَبْنَئُ لَا نَقْصُصُ﴾ (*).

- ٥ - لا بدّ من تصنيف المعارف والمعلومات، والفصل بين ما هو سرّي وغير سرّي والتمييز بينهما، ﴿لَا تَقْصُصْ﴾.
- ٦ - لا ينبغي البوح بكلّ ما نعرف لأيّ كان، ﴿لَا تَقْصُصْ﴾.
- ٧ - لا شك في أنّ كتمان الفضائل مخافة الحسد هو من الأمور الجائزة بل والضروريّة، ﴿لَا تَقْصُصْ﴾ (*).
- ٨ - إذا لمسنا وجود قدرات مُعيّنة لدى أحد الأبناء، يجب عدم إطلاع البقية على الأمر، ﴿لَا تَقْصُصْ﴾ (*).
- ٩ - لا بدّ من اتّخاذ الحيطة والحذر عند التعريف بالأشخاص الأذكياء والماهرين، ﴿لَا تَقْصُصْ﴾ (*).
- ١٠ - إذا كان قصّ الرّؤيا محظوراً في بعض الأحيان، فالأولى ألاّ تُذكر الكثير من مُشاهدات اليقظة، ﴿لَا تَقْصُصْ﴾.
- ١١ - لقد كان النبي يعقوب عليه السلام أيضاً عالماً بتعبير الأحلام، ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ﴾ (*).
- ١٢ - لا شك في أنّ الوقاية خيرٌ من العلاج، وعدم قصّ الرّؤيا على الإخوة هو إجراء وقائيّ لمنع تحريك بواعث الحسد، ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا﴾ (*).
- ١٣ - حتى في بيوت الأنبياء نجد بعض الرذائل الأخلاقيّة بين أبنائهم كالحسد والحيلة، ﴿يَبْنِي لَا تَقْصُصْ... فَيَكِيدُوا...﴾.
- ١٤ - حذار من إشعال نار الحسد، ﴿لَا تَقْصُصْ... فَيَكِيدُوا﴾.
- ١٥ - الحسد يودي بصاحبه إلى تجاهل حقوق الآخرين ولو كانوا ذوي قرّبي، ﴿لَا تَقْصُصْ... فَيَكِيدُوا﴾ (*).
- ١٦ - لقد فعل إخوة يوسف عليه السلام به ما فعلوا وهم لم يعلموا بعد شيئاً عن رؤياه ولا عمّا سيكون مصيره في المستقبل، فكيف بهم إذا لو كانوا يعلمون ذلك، ﴿لَا تَقْصُصْ... فَيَكِيدُوا﴾ (*).

١٧ - لا شك في أنّ استشراف المستقبل والتفكير فيه صفة محمودة، ﴿لَا تَقْصُصْ... فَيَكِيدُوا﴾ (*).

١٨ - في إنشاء بعض الأسرار والأخبار عواقب سيئة، ﴿لَا تَقْصُصْ... فَيَكِيدُوا﴾؛ فبعض الأسرار غاية في الأهمية؛ إذ إنّ إنشاءها يعرض حياة الفرد أو الأفراد لخطر كبير (*).

١٩ - لا بدّ في بعض الحالات من التذكير بالخطر قبل وقوعه، ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ (*).

٢٠ - لقد كان النبي يعقوب عليه السلام واثقاً من كيد إخوة يوسف له إذا ما علموا شيئاً عن الرؤيا، ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ (*).

٢١ - أحياناً لا مفرّ من إساءة الظنّ في المسائل المهمة، ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾.

٢٢ - لا بدّ من أن يكون الوالدان مُطلعين وعارفين بمشاعر أبنائهم تجاه بعضهم البعض لكي يتمكنوا من إدارة البيت بالشكل الصحيح والمطلوب، ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾.

٢٣ - الكيد والتحايل من عمل الشيطان، ﴿فَيَكِيدُوا... إِنَّ الشَّيْطَانَ﴾.

٢٤ - يتسلّط الشيطان علينا من خلال استغلال بعض الأسباب الذاتية والداخلية، (فحسد الإخوة كان عاملاً مهماً للشيطان ليظهر عداوته ليوسف)، ﴿فَيَكِيدُوا... إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

٢٥ - معروف أنّ الشيطان الرجيم هو عدوّ الإنسان اللدود وإن كان هذا الإنسان هو أحد أبناء الأنبياء، ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (*).

٢٦ - حاولوا إطلاع أبنائكم منذ نعومة أظفارهم على طبيعة الشيطان وأدواره وأساليبه، ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (*).

﴿وَكَذَلِكَ يَجْئِيكَ رُبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ
وَيُؤَيِّدُ بِنُصْرَتِهِ عَلَيْنَا وَلِئَلَّآ إِلَآ إِبْرَاهِيمَ ۖ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦﴾

إشارات:

□ تأويل الأحلام معناه العبور من ظاهر الحلم إلى باطنه؛ وكلمة (الأحاديث) هي جمع (حديث) وتعني كل كلام يبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحي في يقظته أو منامه. و(الحديث) ما يحدث به الإنسان في نومه ولذلك سمي الحلم أو الرؤيا حديثاً.

□ يقوم النبي يعقوب عليه السلام بتفسير رؤيا ابنه يوسف عليه السلام له ويُعلمه بما سيؤول إليه أمره في المستقبل.

التعاليم:

- ١ - الأنبياء هم أشخاص يَجْتَبِيهِمُ اللهُ سبحانه من بين خلقه، ﴿يَجْئِيكَ﴾.
- ٢ - لما كان يوسف عليه السلام مجتبي و... فقد ابتلاه الله بأنواع من البلاء ليصقل جوهره، ﴿يَجْئِيكَ﴾ (البلاء للولاء) (*).
- ٣ - لا يُقَيِّمُ الإنسان على أساس عُمره أو سني حياته، فقد يكون أحدهم صغير السن لكنه كبير بخصاله وقيمه وصفاته، (كما هي الحال مع النبي يوسف عليه السلام الذي كان أصغر إخوته)، ﴿يَجْئِيكَ رُبُّكَ﴾ (*).
- ٤ - بإمكان أولياء الله معرفة مستقبل الآخرين من خلال الحلم أو الرؤيا، (كما تنبأ النبي يعقوب عليه السلام بمُستقبل ولده يوسف عليه السلام وعلم بذلك من خلال رؤيا ابنه)، ﴿يَجْئِيكَ رُبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ﴾.
- ٥ - لا يحسن تعليم أو تلقين العلوم المهمة والمعارف الدقيقة والأساسية لأي كان؛ إذ لا بدّ من تحديد الأشخاص المؤهلين والقادرين على تحمّل مسؤولية تلك العلوم والمعارف ومن تمّ تقديم تلك العلوم لهم. (نلاحظ أنّ الله سبحانه

وتعالى ذكر في هذه الآية أولاً كلمة «يَجْتَبِيكَ» ثُمَّ قَالَ تعالى «يُعَلِّمُكَ»،
﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ﴾ (*) .

٦ - لا شك في أَنَّ العلم هو أعظم الآلاء التي يَمْنَحُها الله تعالى لِمَنْ يَجْتَبِيهِمْ،
﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ﴾ .

٧ - إِنَّ الأنبياء هم تلاميذ الله سبحانه، ﴿وَيُعَلِّمُكَ﴾ .

٨ - تفسير الأحلام وتعبيرها من جملة الآلاء التي يَهَبُها الله سبحانه إلى الإنسان،
﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ .

٩ - الرؤى والأحلام الصادقة من بين الطرق التي يُمكن اعتمادها للاتصال
بالغيب، ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ (*) .

١٠ - لا شك في أَنَّ العلم الذي أُوحيَ إلى يوسف ﷺ كان علماً مَحْدُوداً
(فحرف الجر «مِنْ» في جُمْلَةِ «مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ» يُشير إلى بعض العلم
الخاص بتأويل الأحاديث لا كُلُّه كما هو واضح) (*) .

١١ - يُعتبر مقام النبوة والرئاسة (أو الحكومة) غاية النعم، والمراد بإتمام النعمة،
﴿وَرَبُّهُ نِعْمَتُهُ﴾ ، هو وصول يوسف ﷺ إلى مقام النبوة.

١٢ - يُعتبر الأجداد في لغة القرآن الكريم بمثابة الآباء، ﴿أَبُوكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْحَاقَ﴾ - مع أَنَّ إبراهيم وإسحاق ﷺ هُما من أجداد يوسف ﷺ ، لكنَّ الله
سبحانه يُخاطب يوسف في هذه الآية قائلاً له: ﴿أَبُوكَ... إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ .

١٣ - لا شك في أَنَّ كلاً من العلم والهداية والجدارة وكلَّ النعم الإلهية الممنوحة
لفرد ما لا تقتصر نعمتها عليه وَحْدَهُ بل تشمل كذلك أقاربه وأسرته، ﴿وَرَبُّهُ
نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾ (*) .

١٤ - ولا شك كذلك في أَنَّ إتمام النعمة على آل يعقوب تعني أَنَّ إخوة
يوسف ﷺ سيتوبون إلى الله وستكون بذلك عاقبتهم خيراً من دون ريب،
﴿وَرَبُّهُ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾ (*) .

١٥ - إِنَّ اختيار الأنبياء واصطفاءهم إِنَّمَا يكون على أساس العلم والحكمة
الإلهيتين؛ لأنَّ الله سبحانه يقول في بداية الآية ﴿يَجْتَبِيكَ﴾ ، ثُمَّ يقول في
آخرها ﴿عَلِّمُكَ حِكْمًا﴾ .

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٍ لِّلْسَائِلِينَ﴾ (٧)

إشارات:

□ تلوح في قصّة حياة النبي يوسف ﷺ الكثير من الآيات الدّالة على قُدرة الله سبحانه وتعالى، وكلّ منها تُمثّل عبرة لأولي الألباب. ومن جُملة تلك الآيات:

- ١ - الرّؤيا المليئة بالأسرار والرموز التي رآها النبي يوسف ﷺ.
- ٢ - عِلْم تأويل الأحاديث.
- ٣ - علم يعقوب ﷺ بمستقبل ولده.
- ٤ - سقوط يوسف ﷺ في الحبّ وعدم إصابته بأيّ أذى.
- ٥ - فُقدان يعقوب ﷺ بصره ورجوعه إليه ثانية.
- ٦ - من أعماق البئر إلى ذرى القدرة والسلطة.
- ٧ - الدُّخول إلى السّجن والخروج منه إلى سدة الحكم.
- ٨ - عَفَتَه وطهارته واتّهامه بالرزيلة.
- ٩ - الفراق والوصال.
- ١٠ - العبودية والسلطة.
- ١١ - ترجيحه السّجن للفرار من الإثم.
- ١٢ - شهامته وعفوه عن الإخوة الظالمين، إضافة إلى العشرات من النقاط المهمّة التي سنلحظها في الآيات الآتية.

وإلى جانب تلك الآيات توجد الكثير من الأسئلة التي تطرح نفسها والجواب عن كلّ واحدة من تلك الأسئلة يُنير لنا مشعلاً في طريق الحياة:

- ١ - أتى للحسد أن يؤدّي بالإنسان إلى قتل أخيه والفتك به؟
- ٢ - كيف جَمَعَ القدر عشرة أشخاص على ارتكاب الخيانة؟
- ٣ - كيف عفا يوسف ﷺ بشهامته ونبل عن إخوته الذين آذوه؟

٤ - كيف يُمكن لأحد ترجيح السّجن على لذة المعصية من خلال ذكر الله سبحانه؟

□ لقد نزلت هذه السورة المباركة في وقت كان فيه الرّسول الأعظم ﷺ وأصحابه مُحاصرون اقتصادياً واجتماعياً، فكانت تلك القصة كالبلسم على جروح النبيّ والمسلمين. وكأنّ الله سبحانه أراد أن يقول لنبيّه الكريم: إذا لم يؤمن بعض أقاربك بهذا الدّين، فلا تبتس؛ ألَمْ تَرَ كيف قام إخوة يوسف برميّه في غيابة الجبّ؛ لكننا أبينا إلّا أن نجعل العزّة والسلطان من نصيب يوسف؟ إنّ المُستقبل الزاهر أمامك يا محمّد لا محالة.

التعاليم:

١ - لا شكّ في أنّ الحسد ينتهك حدود الأسرة وعواطف القرابة. فهؤلاء إخوة يوسف ﷺ، داسوا على كلّ القيم وتأمروا على أخيهم الصغير، وكلّ ذلك بسبب الحسد ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ﴾.

٢ - لا بدّ أولاً من تهيئة السّامع نفسياً قبل توضيح القصة وبيان مقاصدها ليتمكّن من أخذ العبرة منها، إذ تُشير الآية الشريفة إلى احتواء قصة يوسف ﷺ على الكثير من الآيات المهمّة والنقاط البارزة التي قد تكون جواباً على ما يستفسر عنه السائلون ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ﴾. ﴿أَيُّتُ لِلسَّائِلِينَ﴾.

٣ - يُعتبر أسلوب السؤال والجواب واحداً من السّبل المهمّة للوصول إلى الحقيقة، ﴿أَيُّتُ لِلسَّائِلِينَ﴾ (*).

٤ - إذا لم نكن متعطشين للتعليم فلن نصل إلى الغاية المرجوة من دروس القرآن، ﴿لِلسَّائِلِينَ﴾.

٥ - لا شكّ في أنّ قصص القرآن الكريم تتضمّن أجوبة للكثير من الأسئلة المطروحة في حياة الناس، ﴿لِلسَّائِلِينَ﴾.

﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْنَا مِنَّا
وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾

إشارات:

□ تَطَلَّقَ كلمة (العُصْبَة) على الجماعة المتعصبة المتعاضدة حيث شُبِّهَتْ بالأعصاب داخل الجسد الواحد والتي يَحْمِي بعضها بعضها الآخر.

□ اثنان من أبناء يعقوب عليه السلام - وهما يوسف وبنيامين - كانا من أم واحدة وبقية أبنائه من أم أخرى. أشعلَ حُبَّ يعقوب لولده (يوسف)، بسبب صِغَر سنِّه أو بسبب ما كان يتَّصف به من الخصال الحميدة، نار الحسد في إخوته. ويُضاف إلى حَسَدِهِمْ إِيَّاهُ، قَوْلُهُمْ: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ وهي إشارة إلى أَنَّهُمْ وقعوا في الغرور والتكبر، الأمر الذي حدا بهم إلى نعت أبيهم بالضلّال والجَنَف في ما يخصّ تقسيم مودّته وحبه على أولاده بالتساوي.

□ يُحَاوِل البعض التقليل من شأن العِظام، فبدلاً من السعي للارتقاء بأنفسهم إلى مرتبتهم، يحاولون بشتى السبل الحِطّ من قدر هؤلاء، وذلك لأنَّهم مكروهون والمُكروه يحاول النيل من المُحِبوب.

□ ثَمَّةُ فَرْق بين (التمييز) و(التفريق)؛ فالأوّل معناه التفضيل من دون وَجْه حَقٍّ أو سَبَب، بينما يَعْنِي الثاني التفضيل على أساس الجدارة. فمثلاً يَمْنَح المُعَلِّم علامات مختلفة لتلاميذه، وهذا الاختلاف في العلامات له تبريره المنطقي ولم يصدر عن ظلم. وهكذا هي الرابطة التي تربط بين الأب يعقوب والابن يوسف فهي رابطة حكيمة لا ظالمة، لكنَّ إِخْوَةَ يوسف عليه السلام لم يَجِدُوا مُبَرِّراً لتلك العلاقة، فقالوا: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

□ تَتَسَبَّب المحبّة المُفَرطَة أحياناً بحدوث المشاكل؛ فهذا النبي يعقوب عليه السلام كان يُحِبُّ ابنه يوسف عليه السلام حبّاً شديداً أدّى إلى إثارة الحسد في نفوس إخوته، فتأمروا على إلقائه في الجب. والشئ نفسه يُقال عن حبّ (زليخا) ليوسف، والذي أودى به إلى السّجن. والطريف هنا أَنَّهُ قيل: إِنَّ السّجَانَ الذي كان

مسؤولاً عن يوسف عليه السلام - وبسبب ما رآه من حُسن أخلاقه وخلقه - قال له مرة: إِنِّي أَحَبُّكَ يَا يَوْسُفُ! فأجابه يوسف عليه السلام: أَخْشَى أَنْ يُنْزَلَ هَذَا الْحَبُّ بِي بَلَاءٍ آخِرٍ^(١). فما أصابني إلَّا من الحبِّ؛ إِنْ كَانَتْ خَالَتِي أَحَبَّتْنِي سَرَقْتَنِي، وَإِنْ كَانِ أَبِي أَحَبَّنِي حَسَدْنِي إِخْوَتِي، وَإِنْ كَانَتْ أُمُّهُ الْعَزِيزُ أَحَبَّتْنِي حَبَسْتَنِي.

التعاليم:

- ١ - يُوْذِي الْحَسَدَ لَدَى كِبَارِ السَّنِّ إِلَى تَجَاهُلِهِمْ أَعْمَارَهُمْ وَنِسْيَانِهِمْ شَخْصِيَّاتِهِمْ، فَيُنْحَدِرُونَ إِلَى الْحُضِيضِ وَيُزَاحِمُونَ مَنْ هُمْ أَصْغَرُ مِنْهُمْ سِنًا. (فيوسف كان أصغر أبناء يعقوب سنًا لكن إخوته وهم أكبر منه سنًا حسدوه على ما هو عليه على الرغم من كِبَرِ سَنَتِهِمْ)، ﴿لِيُؤْسَفُ... إِلَآ أَيْنَا﴾^(*).
- ٢ - إِذَا شَعَرَ الْأَبْنَاءُ بِوُجُودِ تَمَيِّيزٍ فِي مَا بَيْنَهُمْ، اتَّقَدَّتْ فِيهِمْ نَارُ الْحَسَدِ وَالتَّهَبَّتْ لَهَا فِي قُلُوبِهِمْ، ﴿أَحَبُّ إِلَآ أَيْنَا مَنَا﴾.
- ٣ - إِنْ رَغِبَ كُلٌّ مِّنَّا فِي أَنْ يَكُونَ مَحْبُوبًا لَدَى الْآخَرِينَ هِيَ رَغْبَةُ فِطْرِيَّةٍ مَوْجُودَةٍ دَاخِلَ كُلِّ إِنْسَانٍ؛ وَلِهَذَا يُعَانِي الَّذِي يُعَامَلُونَ بِشَيْءٍ مِنَ الْجَفَاءِ وَعَدَمِ الْإِهْتِمَامِ، الْأَمْرَيْنِ مِنْ هَذَا الْوَضْعِ، ﴿أَحَبُّ إِلَآ أَيْنَا مَنَا﴾، (وهنا، تصوّر إخوة أَنَّ حُبَّ أَبِيهِمْ لِيُوسُفَ يُقَابِلُهُ تَجَاهُلُهُ لَهُمْ).
- ٤ - لَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُحِبُّ جَمِيعَ أَبْنَائِهِ مِنْ دُونِ اسْتِثْنَاءٍ، ﴿أَحَبُّ إِلَآ أَيْنَا مَنَا﴾، (كَانَ إِخْوَةُ يُوسُفَ يَقُولُونَ إِنَّ يُوسُفَ أَحَبُّ إِلَى أَبِيهِمْ مِنْهُمْ، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّهُمْ هُمْ أَيْضًا كَانُوا مَحْبُوبِينَ لَدَى أَبِيهِمْ)^(*).
- ٥ - لَا شَكَّ فِي أَنَّ الْمَحَبَّةَ لَا تَتَأْتَى بِالْإِكْرَاهِ وَالْجَبْرِ، (لَقَدْ كَانَ إِخْوَةُ يُوسُفَ أَقْوَى مِنْهُمْ لَكِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مَحْبُوبِينَ أَكْثَرَ مِنْهُ)، ﴿لِيُؤْسَفُ... أَحَبُّ... وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾.
- ٦ - الْإِتِّحَادُ وَالْوَحْدَةُ مِنْ عَوَامِلِ الْإِحْسَاسِ بِالْقُوَّةِ وَالْقُدْرَةِ، ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾^(*).
- ٧ - إِنْ مِنْ شَأْنِ التَّرْعَةِ وَالْمِيلِ نَحْوِ التَّعَصُّبِ وَالْإِتِّحَادِ أَنْ تُوْدِيَ إِلَى تَسْرِيعِ عَامِلٍ

الانحطاط إذا افتقدت إلى القيادة الصحيحة المؤمنة، (تدلّ عبارة ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ على الانسجام؛ لكنّه انسجام تعوزه القيادة الصحيحة المؤمنة) (*).

٨ - عندما يُريد شخص ما ارتكاب خطأ أو معصية، تراه يُحاول تبرير فعلته ثمّ يقوم بالتنظير والتفلسف لها. (فمن جهة كان إخوة يوسف يعتقدون بأنهم أقوىاء ومُتحدون، ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾، ومن جهة أخرى كانوا يظنون أنّ أباهم مُنحرف وضالّ - والعياذ بالله - ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ﴾، وبهذه الذريعة برّروا حسدهم أخاهم) (*).

٩ - وكذلك الحال مع الكثير من الشّباب؛ إذ يظنون أنّهم هم وحدهم الحُكماء لذلك نراهم لا يُعيرون آباهم أيّ أهميّة تُذكر، ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (*).

١٠ - إنّ الإحساس بالقوّة والقُدرة يُشلّلان العقلَ ويمنعانه من العمل، ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (*).

١١ - لا شكّ في أنّ المعايير الخاطئة تؤدي إلى استنتاجات خاطئة، (فعندما يكون المعيار الوحيد هو القوّة والعُدّة والعدد، فإنّ نتيجة ذلك ستكون وصم الأقلية بالانحراف والضلّال)، ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (*).

١٢ - الفرد الأنانيّ يبحث عن أسباب إخفاقه عند الآخرين بدلاً من البحث عنها في داخله، ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، (فبدلاً من أن يقول إخوة يوسف: نحن حسّده؛ اتّهموا أباهم بالضلّال) (*).

١٣ - كما قلنا: ليس للحسد حدود، فهو يكسر كلّ الحدود، بما فيها حدود النبوة والأبوة، وبعد هذا كلّه فليس غريباً أن ينعن الأبناء أباهم - وهو نبيّ مُرسَل - بالانحراف والظلم، ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

١٤ - قد تؤدي الغفلة بصاحبها إلى وصف الآخرين بالضلّال واتّهامهم بالخطأ، بينما هو من يَرزح تحت الإنحراف والضلّال معاً. (فبدلاً من أن يعترف إخوة يوسف بحسدهم ومؤامرتهم، فقد اتّهموا أباهم بالانحراف والضلّال)، ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (*).

﴿أَقْنُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَيِّكُمْ
وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ ﴿٩﴾

إشارات:

□ عندما يصيب الإنسان نعمة تعتريه إحدى الحالات الأربع الآتية: الحسد أو البخل أو الإيثار (الكرم) أو الحسرة. فإذا قال في نفسه: الآن وقد حُرِمنا من النعمة الفلانية، ليت الجميع يُحَرَم منها أيضاً؛ فهذا هو الحسد. وإذا قال: عسى أن تكون هذه النعمة من نصيبنا نحن فقط؛ فهذا هو البخل. وإذا قال: عسى أن ينعم الآخرون بالنعمة وإن كان ذلك على حساب حرماننا منها؛ فهذا هو الإيثار والكرم. أما إذا قال: عسى أن يُنعم علينا كما أنعمَ على غيرنا؛ فهذا هو التحسّر أو الحسرة.

□ وعن الإمام الباقر عليه السلام أنه كان أحياناً يظهر حبّه لبعض أولاده فيضعهم على منكبيه وما كانوا يستحقّون تلك المحبة؛ لكنّه كان اتقاء منهم لكي لا يحسدوا إخوتهم فتكرّر قصّة يوسف^(١).

التعاليم:

١ - لا شك في أنّ الأفكار الخطيرة تدفع بالإنسان إلى الأعمال الخطيرة،
﴿يُوسُفُ... أَحَبُّ... أَقْنُلُوا﴾.

٢ - إنّ شعور الأبناء بوجود التمييز في محبة أبيهم لهم قد يُغريهم بالاعتقال بينهم. (فعلى الرغم من أنّ محبة يعقوب ابنه يوسف وتعلّقه به إلى درجة كبيرة، كان لها ما يُبرّرها - كالكمالات التي كان يوسف يتّصف بها دون إخوته - إلّا أنّ ذلك لم يمنع إخوته من الشعور بالتمييز ظانّين أنّ تلك المحبة الزائدة تجاه يوسف ليس لها أيّ تبرير منطقي؛ وهذا الشعور بالذات هو الذي قادهم إلى الكيد والمؤامرة)، ﴿أَحَبُّ إِلَيَّ أَيُّنَا... أَقْنُلُوا﴾ (*).

- ٣ - يَعْتَقِدُ البعض مَن ابْتُلِيَ بِقَلَّةِ البَصِيرَةِ أو التَّمْيِيزِ أَنَّ تَصْفِيَةَ مُنَافَسِهِ جَسَدِيًّا أو قَتْلَهُ هِيَ أَفْضَلُ طَرِيقَةٍ لِلتَّخَلُّصِ مِنْهُ، ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ (*) .
- ٤ - قَدْ يُوْدِي الحَسَدُ بِالْإِنْسَانِ إِلَى قَتْلِ أَخِيهِ، ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ .
- ٥ - يَقُومُ الْمَذْنُبُونَ وَالْمَجْرُمُونَ بِوَسُوسَةِ بَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ، فَتَقْوَى شَوْكَتِهِمْ مِنْ خِلَالِ تَعَاظُدِهِمْ. (كَانَ إِخْوَةُ يُوسُفَ يَصْرَخُونَ قَائِلِينَ: اقْتُلُوهُ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا)، ﴿أَقْتُلُوا... أَوْ اطْرَحُوهُ﴾ (*) .
- ٦ - كُلُّ إِنْسَانٍ يَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ مُحِبًّا، وَإِذَا شَعَرَ بِنَقْصٍ فِي مُحَبَّةِ الْآخَرِينَ لَهُ فَإِنَّ ذَلِكَ سَيَفْتَحُ الْبَابَ أَمَامَ الْأَخْطَارِ وَالْإِنْحِرَافَاتِ، (قَالَ إِخْوَةُ يُوسُفَ: إِذَا تَخَلَّصْنَا مِنْ يُوسُفَ سَيَخْلُو لَنَا وَجْهَ أَبِيْنَا)، ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ﴾ .
- ٧ - يَظُنُّ الحَسُودُ أَنَّ الْبَعِيدَ عَنِ الْعَيْنِ بَعِيدٌ عَنِ الْقَلْبِ أَيْضًا، ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ... يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ﴾ . (كَانَ إِخْوَةُ يُوسُفَ يَعْتَقِدُونَ خَطَأً أَنَّهُ إِذَا لَمْ يَرِ أَبُوهُمْ يُوسُفَ فَإِنَّهُ سَيَنْسَاهُ وَتَسْتَحْوِلُ مَشَاعِرُهُ نَحْوَهُمْ) (*) .
- ٨ - يَقْرُرُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ أَنَّ السَّبِيلَ الْوَحِيدَ الَّذِي يَجْعَلُ الْإِنْسَانَ مُحِبًّا هُوَ الْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ، ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ ^(١)، لَكِنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَرْزِلُ الْبَعْضَ وَيُصَوِّرُ لَهُمْ أَنَّ الطَّرِيقَ الْوَحِيدَ لِذَلِكَ هُوَ قَتْلُ الْإِخْوَةِ، ﴿أَقْتُلُوا... يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ﴾ .
- ٩ - يَعْتَقِدُ الحَسُودُ أَنَّهُ بِقَتْلِ الْآخَرِينَ تَزْدَادُ نِعْمَتُهُ وَيَكْثُرُ خَيْرُهُ، ﴿أَقْتُلُوا... يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ﴾ .
- ١٠ - يَعْمَدُ الشَّيْطَانُ إِلَى إِقْنَاعِ الْبَعْضِ وَخِدَاعِهِمْ مَسْوَغًا لَهُمْ عَمَلَ الشَّرِّ وَارْتِكَابَ الْخَطِيئَةِ وَالرَّهَانَ عَلَى التَّوْبَةِ لَاحِقًا، ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِيهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ .
- ١١ - لَا يُمَكِّنُ دَوْمًا اعْتِبَارَ الْعِلْمِ أَوِ الْمَعْرِفَةِ عَامِلَيْنِ لَصَدِّ الْإِنْحِرَافِ، بَلِ الْأَهَمُّ مِنْهُمَا هُوَ الْإِيمَانُ وَالتَّقْوَى؛ فَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ عِلْمِ إِخْوَةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِسُوءِ

فعلتهم وقبحها بقتل يوسف أو إبعاده ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾، فإنهم مع ذلك نفذوا خطتهم.

١٢ - أن يضر الإنسان التوبة قبل الذنب لتبرير ارتكابه ما هو إلا خديعة للضمير وفتح لباب المعصية على مصراعيه. (كان إخوة يوسف يقولون: اقتلوا يوسف ثم بعد ذلك توبوا وكونوا عباداً صالحين)، ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ (*).

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (١٠)

إشارات:

□ «الجُبُّ» بئر لم تطو، و«الغيابة» الرَّفوف الموجودة في جدار البئر بالقرب من القعر لا ترى من فوق.

□ لا شك في أن النهي عن المنكر له تأثيرات إيجابية وبركات كثيرة تتضح معالمها في المستقبل. وفي قصة النبي يوسف عليه السلام قام أحد إخوته بالنهي عن المنكر قائلاً: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾؛ وتمكن بذلك من إقناع الإخوة بتغيير رأيهم في هذا الموضوع وإنقاذ حياة أخيه من الموت. وعندما أصبح يوسف عليه السلام بعد سنوات حاكماً أنقذ بلاد مصر من القحط والمجاعة. وهذا يُذكرنا أيضاً بإنقاذ (آسية) امرأة فرعون لحياة موسى عليه السلام بنهيها عن المنكر إذ قالت: «لَا تَقْتُلُوهُ»؛ وأدى ذلك إلى عدول فرعون عن قتل موسى عليه السلام. ثم قام موسى عليه السلام بعد سنوات من ذلك بتخليص بني إسرائيل من شر فرعون وظلمه.

وهذا نموذج حي لقلوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (١).

التعاليم:

- ١ - قد يؤدي التهي عن المنكر الذي يقوم به شخص ما أحياناً إلى تخلي جماعة عن إصرارها وعدولها عن رأيها، بل قد يؤثر فيهم أيضاً، (قال أحدهم: لا تقتلوا؛ وهي كلمة واحدة فقط لكنها استطاعت التأثير على جمع من الأشخاص وتغيير رأيهم)، ﴿قَالَ قَائِلٌ﴾ (*).
- ٢ - ليس اسم القاتل مهماً بل فحوى كلامه وقوله، (فالآية الشريفة تجاوزت ذكر اسم الشخص القاتل إلى قوله)، ﴿قَالَ قَائِلٌ...﴾ (*).
- ٣ - عند قول الحق يجب أن لا نخشى الجماعة ونسلم لرأيها، (فالأخ الذي نهى البقية عن ارتكاب المنكر كان واحداً، لكن ذلك لم يمنعه من عدم التسليم للجماعة، فاستطاع بمفرده تغيير رأيها)، ﴿قَالَ قَائِلٌ... لَا تَقْتُلُوا﴾ (*).
- ٤ - إذا لم نتمكن من الوقوف بوجه المنكر بشكل كامل، فلا أقل من أن نمنع بعضاً منه. فالأخ القاتل «لَا تَقْتُلُوا» تمكن من تغيير عزم الأكثرية في قتل يوسف وإقناعهم بالاستعاضة عن القتل بالرمي في الجُب، ﴿لَا تَقْتُلُوا... وَالْقَوَّةُ﴾. نعم، لا بد أحياناً من دفع الأفسد بالفساد عند محاربة الفساد، ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوَّةُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ﴾ (*).
- ٥ - المشورة حتى في الأمور السيئة قد تقلل من سوءها، فكيف بها إذا كانت في الخير؟ ﴿لَا تَقْتُلُوا﴾ (*).
- ٦ - عندما نهى عن المنكر من المناسب تقديم البدائل، ﴿لَا تَقْتُلُوا﴾؛ بعدها يأتي السؤال ولكن ماذا نفعل؟ فالجواب ﴿وَالْقَوَّةُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ﴾ (*).

﴿قَالُوا يَتَابَعَنَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونُ﴾ (١١)

إشارات:

□ بعد تصميم إخوة يوسف ﷺ على التخلص منه، جاءوا إلى أبيهم وطلبوا منه أن يسمح ليوسف بالخروج معهم؛ لكن الأب رفض ذلك وتحجج بشتى الحجج. فقالوا له: ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا﴾.

التعاليم:

- ١ - الإناء الفارغ يحدث ضجيجاً أكثر، ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونُ﴾.
- ٢ - ليس كل أخ موضع ثقة، (إذ كان يعقوب عليه السلام قبل هذا يُمانع في خروج يوسف مع إخوته بدليل أنّ الإخوة بدأوا يتذمرون من ذلك وينتقدون أباهم على تصرفه هذا بقولهم: ﴿مَا لَكَ لَا تَأْتِنَا﴾).
- ٣ - يجب الحذر من الجري وراء أيّ شعار والاحتراس من الأسماء التي لا تدلّ على أيّ مُسمّى، (فقد يُسمّى الخائن نفسه أحياناً بالناصح)، ﴿لَنَصْحُونُ﴾.
- ٤ - يُحاول العدو دائماً تقديم ضمانات من شأنها أن تُبعد أيّ شبهة عنه، ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونُ﴾.
- ٥ - يعتمد الخائن غالباً إلى اتّهام الآخرين بالتقصير، مُدّعياً أنّ سبب هذا التقصير هو عدم ثقة الآخرين به، ﴿مَا لَكَ لَا تَأْتِنَا﴾.
- ٦ - لقد خُديع الإنسان باسم النصيحة وطلب الخير منذ اليوم الأوّل لخلقه، فلا ننسى أنّ الشيطان - عندما أراد أن يستزلّ آدم وحواء عليه السلام - قال لهما: ﴿إِنِّي لَكُمَا لِمِنَ النَّاصِحِينَ﴾^(١)؛ ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونُ﴾.
- ٧ - لا شكّ في أنّ الحسد يُرغم صاحبه على ارتكاب بعض المعاصي كالكذب والحيلة حتى مع أعزّ الناس لديه، ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونُ﴾.

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَزَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾

إشارات:

□ إنّ الأطفال والأحداث، بل الإنسان بشكل عام، بحاجة إلى الاستراحة والرياضة والتسلية؛ فهذه الآية الشريفة تُبيّن أنّ السبب المنطقي الذي حدا

بِيعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الْقَبُولِ بِخُرُوجِ ابْنِهِ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ إِخْوَتِهِ، هُوَ حَاجَةٌ يَوْسُفَ إِلَى اللَّعْبِ وَاللَّهْوِ وَالتَّسْلِيَةِ.

وقد ذكرت الروايات أنه لا بدّ للمؤمن من أن يَخْصُصَ جزءاً من وقته للراحة والترفيه والتمتع بما أحلّ الله له من الملذات لكي يقوى على أداء سائر أعماله الأخرى^(١).

□ ما زال الشباب يُصَرِّفُونَ عَنْ أَهْدَافِهِمُ الْحَقِيقِيَّةِ وَيُحَرِّصُونَ عَلَى إِبْقَائِهِمْ غَافِلِينَ عَنْ وَاجِبَاتِهِمْ، بِاسْمِ الرِّيَاضَةِ وَاللَّعْبِ وَاللَّهْوِ، سِوَاءٍ فِي الْمَاضِي أَوْ الْحَاضِرِ أَوْ الْمُسْتَقْبَلِ. لَا بَدَّ لَنَا مِنَ التَّعَامُلِ مَعَ اللَّعْبِ وَالرِّيَاضَةِ بِجَدِّ لَكِي نَحْصِلَ عَلَى كُلِّ مَا هُوَ جَدِّي مِنْهَا كَذَلِكَ.

يَحَاوِلُ الْمُسْتَكْبِرُونَ وَالْمَتَّامِرُونَ تَنْفِيذَ أَغْرَاضِهِمُ الدُّنْيِيَّةَ بِاسْتِغْلَالِ اسْمِ الرِّيَاضَةِ أَوْ مَسَمًّى جَمِيلٍ آخَرَ، وَبِاسْمِ الدِّبْلُومَاسِيَةِ يُرْسَلُونَ إِلَيْنَا الْجَوَاسِيسَ الْخَطَرِينَ، وَيَحِيكُونَ الدَّسَائِسَ لِمَعْرِفَةِ أَسْرَارِنَا الْعَسْكَرِيَّةِ تَحْتَ مَسَمًّى الْمُسْتَشَارِ الْعَسْكَرِيِّ، وَبِاسْمِ حَقُوقِ الْإِنْسَانِ يُدَافِعُونَ عَنْ عَمَلَاتِهِمْ وَأَزْلَامِهِمْ؛ وَبِاسْمِ الطَّبِّ وَالِدَوَاءِ يَشْحَنُونَ الْأَسْلِحَةَ الْفَتَّاكَةَ إِلَى صَنَائِعِهِمْ وَعُمَلَاتِهِمْ؛ وَبِاسْمِ الْمُخْتَصِمِينَ الْاِقْتِسَادِيِّينَ يَعْمَلُونَ عَلَى إِبْقَاءِ الدُّوَلِ الضَّعِيفَةِ عَلَى ضَعْفِهَا وَيَعْمَلُونَ عَلَى إِنْهَاكِهَا؛ وَبِاسْمِ رَشِّ الْمَبِيدَاتِ يَفْتَكُونَ بِالْمَزَارِعِ وَيَسْتَأْصِلُونَ الْغَابَاتِ وَالْأَحْرَاشِ؛ وَبِاسْمِ الدِّرَاسَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ يُحَاوِلُونَ تَشْوِيهِ الْإِسْلَامِ وَتَقْدِيمَهُ بِشَكْلِ مُغَايِرٍ.

التعاليم:

- ١ - لَا بَدَّ لِلابْنِ، إِذَا أَرَادَ السَّفَرَ، مِنْ أَنْ يَسْتَأْذِنَ وَالِدَهُ، ﴿أَرْسِلْهُ﴾.
- ٢ - لَقَدْ اسْتَعْدَمَ إِخْوَةَ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ غُدْرًا مُشْرُوعًا وَمَنْطَقِيًّا لَخِدَاعِ أَبِيهِمْ، ﴿أَرْسِلْهُ... يَرْتَقِ وَيَلْعَبُ﴾.

- ٣ - إِذَا كَانَ لَدَى الْآبَاءِ وَالْمُعَلِّمِينَ الْحَرِيسِينَ وَالْمُخْلِصِينَ بِرَنَاجٍ مُنَاسِبٍ لَأَوْقَاتِ الْفَرَاغِ وَاللَّعْبِ وَالتَّسْلِيَةِ خَاصًّا بِالْأَطْفَالِ وَالشَّبَابِ، فَلَنْ يَكُونَ بِاسْتِطَاعَةٍ

الآخرين الاصطياد في الماء العكر. (فإخوة يوسف استغلوا حاجة أخيه إلى اللعب والرياضة)، ﴿يَرْتَع وَيَلْعَب﴾ (*).

٤ - علينا مراقبة أطفالنا في أثناء لعبهم ومرحهم، ﴿لَحَفِظُون﴾ (*).

٥ - يشعر المرء أحياناً بوجود خطة أو مؤامرة عند الإلحاح على موضوع ما، من خلال طرح الشعارات الرنانة وادعاء الحماية والمراقبة. (لاحظ الآية السابقة ﴿وَأَنَّا لَهُ لَنَنْصَحُونَ﴾، وفي هذه الآية ﴿وَأَنَّا لَهُ لَنَنْصَحُونَ﴾ (*).

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنَّ تَذْهَبُوا بِهِ، وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّنْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ (١٣)

التعاليم:

١ - الالتزام بشؤون الولد ورعايته من خصال الأنبياء، ﴿لَيَحْزُنُنِي... أَخَافُ﴾.

٢ - الأنبياء أيضاً يحزنون بسبب الفراق والافتراق، ﴿لَيَحْزُنُنِي﴾ (*).

٣ - لاحظ أن الابتلاء الإلهي يكون في الأمور التي تهّم الإنسان، (فيعقوب عليه السلام) كان مهتماً جداً بابنه يوسف ولا يقوى على فراقه، فكانت هذه وسيلة لابتلائه وامتحانه من قبل الله سبحانه وتعالى؛ ﴿لَيَحْزُنُنِي... أَخَافُ﴾ (*).

٤ - حذار أن تكشفوا ما في داخلكم وما يجول في خاطركم، ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّنْبُ﴾. (كان يعقوب الأب عالماً بحسد أبنائه، لذلك قال له: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾؛ لكنه لا يبين لأبنائه في هذه الآية الغرض - وهو الحسد - من وراء استدراجهم يوسف إلى اللعب، بل يستخدم معاذير أخرى كمخافة أن يأكل الذنب يوسف وهم في غفلة عنه).

٥ - لا بد لنا من منح أبنائنا الحرية والاستقلالية. (إن حبّ الوالد لولده وحمايته من الأخطار هما مبدآن ثابتان، لكن لا ينبغي أن ننسى أن استقلالية الولد هي أيضاً مبدأ مهم. وهكذا فعل يعقوب عليه السلام عندما أرسل ابنه يوسف مع إخوته؛ لأنه كان يعرف بأنه لا بد للشاب يوماً من أن يمارس استقلاليته وأنه في النهاية سينفصل عن أبيه، ليختار أصدقاءه وتتاح له فرصة التفكير والتدبير في

أموره، والوقوف على قدميه بثبات ووثوق، وإن كان ذلك سيورث أباه الهم والحزن وتحمل ألم فراقه والمشاكل الأخرى).

٦ - لا ينبغي ذكر هواجسنا لأيّ كان، إذ ربّما يؤدي ذلك إلى استغلالنا من حيث لا نعلم. وهنا قال الأب يعقوب عليه السلام: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ (*) .

٧ - الغفلة تؤدي إلى الضرر؛ فقد قال النبي يعقوب عليه السلام: ﴿يَأْكُلُهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ (*) .

﴿قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَيْرُونَ﴾

التعاليم:

١ - قد يرى الكبار بعض الأخطار التي لا يراها الصغار وذلك لخبرتهم وتجاربهم المكتسبة في الحياة؛ لكننا نرى بعض الشباب يغترّ بقدرته ولا ينظر إلى الخطر بعين الجدّ، ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾؛ (فالأب قلق بينما أولاده مغرورون بقوتهم وبعصبتهم).

٢ - ليست القوة - كما نعلم - دليلاً على الأمانة، (فإخوة يوسف كانوا أقوىاء فعلاً ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ لكنهم لم يكونوا أمناء) (*).

٣ - لم يكن الإخوة قَلَقِينَ أو خائفين من احتمال هجوم الذئب على يوسف عليه السلام وافتراسه، فما كان قولهم: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَيْرُونَ﴾ إلا من باب استرداد كرامتهم وعدم السماح لأحد بالشك في قوتهم أو قدرتهم (*).

٤ - إذا قبل أحدنا مسؤولية أو أودع أمانة ولم يكن أهلاً لتحملها، فهو بذلك يُخاطر برأسماله وشخصيته وسمعته وكرامته، وبالتالي يصبح من الخاسرين لا محالة، ﴿لَخَيْرُونَ﴾.

من صفات المنافق الظاهر بالأحاسيس والمشاعر الكاذبة والخادعة؛ (قال الإخوة لأبيهم: ﴿إِنَّا إِذَا لَخَيْرُونَ﴾).

يسعى البعض إلى تحقيق أهدافه الدنيئة حتى وإن كان ذلك على حساب

سمعته وكرامته. قال الإخوة: إذا هجمَ الذئب على أخينا أمام أعيننا ونحن عُصبة قوية وجماعة جلدة، فلن تبقى لدينا كرامة ولا اعتبار بين أهلنا، ﴿إِنَّا إِذَا لَخَشِيرُونَ﴾ (*) .

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَّبَتِ الْجُبِّ
وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٥)

إشارات:

□ لما كانت إرادة الله سبحانه قد قضت بجعل يوسف عليه السلام حاكماً وسيّداً، كان لا بدّ له من دخول دورة استثنائية تؤهله لذلك؛ فيُصبح بادئ ذي بدء عبداً لكي يرأف على العبيد في ما بعد؛ ويرمى في الجبّ ويلقى في السجن لكي يرحم السجناء المظلومين؛ وهذا يُذكرنا بما قاله الله جلّ وعلا لرسوله الأكرم: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً... فَأَلَمَّا أَلَيْنِمَ فَلَا نَفَهَرٌ﴾ (١).

التعاليم:

- ١ - إنّ اتفاق جماعة ما على أمر معين لا يعني بالضرورة أنهم على حقّ. (فإخوة يوسف هنا أجمعوا كلّهم على أمرهم، بيد أنّ نيتهم تلك كانت سيئة تماماً)؛ ﴿وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَّبَتِ الْجُبِّ﴾.
- ٢ - قد يكون بين الخطة والتطبيق تفاوتاً كبيراً، كانت الخطة ﴿وَالْقُوَّةُ﴾، وفي مقام العمل أجمعوا على ﴿أَنْ يَجْعَلُوهُ﴾.
- ٣ - تجدر الإشارة هنا إلى أنّ يوسف عليه السلام لم يتلقَ الرّوحى إلّا بعد أن فارق والديه وأصابه من إخوته الذي أصابه؛ ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ... وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ (*).
- ٤ - لاحظ أنّ المدد الإلهي يصيب أولياء الله في الأوقات الحرجة واللحظات الحساسة، ﴿فِي غَيَّبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾.

- ٥ - لا رَبِّ فِي أَنْ أَفْضَلَ وَأَكْرَمَ أَنْيَسَ لِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ قَابِعٌ فِي غِيَابَةِ الْجَبِّ هُوَ وَحْيُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ إِلَيْهِ وَإِعْلَامُهُ بِمُسْتَقْبَلِهِ الْمُشْرِقِ، ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾.
- ٦ - لَقَدْ كَانَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَلَا شَكٍّ جَدِيداً بِالْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ حَتَّى عِنْدَمَا كَانَ غُلَاماً يَافِعاً، ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾.
- ٧ - إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَبَى إِلَّا أَنْ يَبْتَلِيَ عِبَادَهُ الصَّالِحِينَ بِأَشَدِّ الْبَلَاءِ لِيَهْدِيَهُمْ وَيزَكِّيَهُمْ، ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ (*).
- ٨ - لَا شَكَّ فِي أَنَّ إِطْلَاعَ الْإِنْسَانِ عَلَى مُسْتَقْبَلِهِ وَمَا سَيَكُونُ عَلَيْهِ مَدْعَاةٌ لِلطَّمَأْنِينَةِ وَالْأَمَانِ. (إِنَّ الَّذِي هَذَا مِنْ رُوحِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْجَبِّ وَأَشْعَرَهُ بِالسَّكِينَةِ وَالْأَمَانِ هُوَ الْوَحْيُ وَالْبَشَارَةُ بِمَا سَيُؤَوَّلُ إِلَيْهِ أَمْرُهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ)، ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنْتَظَرَنَّ بِأَمْرِهِمْ هَذَا﴾ (*).
- ٩ - الْأَمَلُ هُوَ أَعْظَمُ رَأْسَمَالٍ لِمُوَاصَلَةِ الْحَيَاةِ. فَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى يُوسُفَ بِأَنَّهُ سَيَنْجُو مِنَ الْبُتْرِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا سَالِماً، وَسَوْفَ يُخْبِرُ إِخْوَتَهُ عَنْ عَمَلِهِمُ الشَّنِيعِ هَذَا، ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنْتَظَرَنَّ بِأَمْرِهِمْ هَذَا﴾ (*).
- ١٠ - لَمَّا كَانَتِ الْفَضِيحَةُ هِيَ النِّهَايَةُ الْحَتْمِيَّةُ لِلْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ فَلَا بَدَّ لِلْإِنْسَانِ الْعَاقِلِ، إِذَا، مِنْ أَنْ يَتَحَلَّى بِالصَّبْرِ وَيُسَيِّطِرَ عَلَى نَفْسِهِ، ﴿لَتُنْتَظَرَنَّ بِأَمْرِهِمْ...﴾ (*).
- ١١ - تَعَوَّدُوا عَلَى التَّحَدُّثِ عَنِ الْأَفْعَالِ السَّيِّئَةِ وَالْأَعْمَالِ الشَّنِيعَةِ بِالْكُنَايَةِ مِنْ دُونِ التَّصْرِيحِ. (لَا حِظُوا كَيْفَ تَمَّتِ الْإِشَارَةُ إِلَى مُؤَامَرَةِ قَتْلِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْكُنَايَةِ، ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنْتَظَرَنَّ بِأَمْرِهِمْ...﴾ (*).

﴿وَجَاءَ وَآبَاهُمَا عَشَاءً يَتَكَوَّمُ﴾

إشارات:

□ يُشِيرُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ إِلَى وَجُودِ أَرْبَعَةِ أَنْوَاعٍ مِنَ الْبُكَاءِ (أَوِ الدَّمُوعِ)، وَهِيَ:

١ - دُمُوعُ الشُّوقِ: كَمَا حَدَثَ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنَ النَّصَارَى حِينَ فَاضَتْ أَعْيُنُهُمْ مِنْ

الذم عند سماعهم بعض آي القرآن الكريم، ﴿وَرَأَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الذَّمِّ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾^(١).

٢ - دُموع الحُزن والحسرة: كان بعض المسلمين الصادقين يذرفون الدموع ساخنة لمجرد معرفتهم بأن الرسول ﷺ لا يستطيع إرسالهم إلى جبهات القتال بسبب قلة السلاح والعتاد، ﴿وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الذَّمِّ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾^(٢).

٣ - دُموع الخوف والخشوع: كان أولياء الله يَخْرُونَ سَجْدًا ويكون بمُجرد أن تُتلى عليهم آيات الله سبحانه، ﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾^(٣)، و﴿يَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَتَكَوَّنُ وَزَيْدُهُمْ خُشُوعًا﴾^(٤).

٤ - الدموع الزائفة (دموع التماسيح): وهي الدموع التي كان إخوة يوسف عليه السلام يذرفونها عندما جاءوا إلى أبيهم وأخبروه بأن الذئب قد افترس أخاهم يوسف، ﴿يَتَكَوَّنُ﴾.

التعاليم:

- ١ - يأخذ المتأمر بعين الاعتبار عاملَي التوقيت والمشاعر معاً لتنفيذ دسائسهم، فإخوة يوسف عليه السلام جاءوا إلى أبيهم ليلاً مُستغلين غَمَمَتَهُ، يَبْكُونَ وَيَصْرَخُونَ، آمِلِينَ فِي أَنْ تَنْطَلِي حِيلَتُهُمْ وَمَكْرَهُمْ عَلَىٰ أَبِيهِمْ بِتِلْكَ الْأَحَاسِيسِ، ﴿عِشَاءً﴾.
- ٢ - لا يُمكن الوثوق دائماً بالبكاء كعلامة على صدق الباكي؛ ولا ينبغي الوثوق بأيِّ بُكاء، ﴿يَتَكَوَّنُ﴾.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِيقُ وَنَرْجِعُكَ يَوْسُفَ عِنْدَ مَتَّعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾^(١٧)

التعاليم:

- ١ - الكذب يَجَرُّ وراءه أكاذيب؛ فإخوة يوسف عليه السلام كَذَبُوا ثلاث مرّات متتالية

(٣) سورة مريم: الآية ٥٨.

(٤) سورة الإسراء: الآية ١٠٩.

(١) سورة المائدة: الآية ٨٣.

(٢) سورة التوبة: الآية ٩٢.

لتبرير خطئهم: أولها قولهم ﴿ذَهَبْنَا نَسْتَقِ﴾، والثانية ﴿وَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعَيْنَا﴾، والكذبة الثالثة ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾، ﴿نَسْتَقِ... رَكْنَا... فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾.

٢ - الكذاب نساء؛ فعلى الرغم من قول إخوة يوسف (في بداية الأمر): إنهم يريدون اصطحاب يوسف ليلعب معهم، لكنهم ذكروا في تقريرهم أنهم تركوه عند متاعهم، ﴿وَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعَيْنَا﴾ (*).

٣ - إجراء السباقات لها تاريخ طويل بين الشعوب، ﴿نَسْتَقِ﴾.

٤ - الخائن جبان، والكاذب يخشى افتضاح كذبه، ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾.

٥ - يصّر الكذاب على تصديق الناس إياه، ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ (*).

﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

إشارات:

□ سؤال: لا ريب في أن الصبر والجلد على الأقدار الإلهية أمر مستحب وجميل، لكن ما وجه الاستحباب أو الجمال في الصبر على ظلم بحق طفل بريء، ليقول يعقوب عليه السلام بعد هذا كله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾.

الجواب: أولاً، كان يعقوب عليه السلام يعلم بطريق الوحي أن ابنه يوسف عليه السلام لا يزال حياً يرزق؛ وثانياً، لو أن يعقوب عليه السلام حاول التصرف بغير ما تصرف به لأدى ذلك بالتأكيد إلى تجرؤ أبنائه ولبينوا ردود أفعال أكثر جرأة ووقاحة، ولدعاهم ذلك إلى الذهاب إلى البئر والتخلص من يوسف عليه السلام إلى الأبد. أما الأمر الثالث فهو أن يعقوب لم يشأ التصرف بشكل تُسدّ معه أبواب التوبة على أبنائه تماماً، ولو كانوا ظالمين.

التعاليم:

- ١ - لا بدّ لنا من اليقظة والاحتراس من المناورة والتضليل؛ (مجيء إخوة يوسف إلى أبيهم بقميص ملطخ بدم كذب هو نوع من التضليل)، ﴿يَذَرُ كَذِبًا﴾.
- ٢ - حذار من الانخداع بأساليب دعوى البراءة والتظلم الخداعة. (إنّ يعقوب عليه السلام لم يُخدع بالقميص المضمخ بالدم ولا بدموع أبنائه، بل قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾).
- ٣ - يُحاول الشيطان والنفس تزوين المعصية في عين الإنسان وتبريرها، ﴿سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾.
- ٤ - كان يعقوب عليه السلام على علم بأنّ ابنه يوسف لم يأكله الذئب، والدليل على ذلك أنّه لم يُطالب أبنائه بتقديم الأدلة على ادّعائهم كعظام يوسف أو بقايا من جسده، ﴿سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ (*).
- ٥ - للحوادث التي تعرض للإنسان وجهان: البلاء والشقاء ﴿يَذَرُ كَذِبًا﴾، والصبر والجمال، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ (*).
- ٦ - ما أجمل ردّ الفعل الذي يُبديه أنبياء الله ﷺ في مواجهة الأحداث الصعبة، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ (*).
- ٧ - لا بدّ لنا من استمداد العون من الله سبحانه عند وقوع الحوادث، إلى جانب تحلّينا بالصبر والثبات والقدرة الذاتية، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾.
- ٨ - لا بدّ من طلب الصبر والتحمّل من الله تعالى، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾ (*).
- ٩ - أفضل الصبر هو أن لا ينسى العبد ربّه على الرغم من حرقة قلبه وذرفه الدموع، ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾.
- ١٠ - لا شك في أنّ تحمّل مؤامرة الأبناء ضدّ أخيهم أمرٌ شاقّ ومؤلم؛ لذلك يتوجّب في هذه المواقف الاستعانة بالله وطلب الصبر، ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾ (*).
- ١١ - قول النبي يعقوب عليه السلام لأبنائه: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ بدلاً من أن يقول لهم (على ما فعلتم)، إنّما أراد به إخبارهم بأنّ ادّعاءهم لا يُصدّق (*).

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ، قَالَ يَبْشَرِي هَذَا غُلْمٌ
وَأَسْرُوهُ يَضَعُوا إِلَيْهِ عِيسَىٰ يَمَّا يُعْمَلُونَ﴾ (١٩)

إشارات:

□ لا جَرَمَ أَنَّ اللهَ جَلَّ شَأْنُهُ لَا يَتْرَكَ عِبَادَهُ الْمُخْلِصِينَ وشأنهم، بل يمدِّهم بمدد من عنده في الشَّدائد لينجيهم من البلايا؛ فمن نَجَّى نوحاً عليه السلام وهو على أمواج الماء المُتلاطم، ويونس عليه السلام وهو في بطن الحوت، ويوسف عليه السلام من أعماق البئر المظلمة؟ أم مَنْ خَلَّصَ إبراهيم عليه السلام من النَّارِ المُلتَهبة، وموسى عليه السلام وهو في وسط البحر، ومحمداً صلى الله عليه وسلم عندما كان في بطن الغار، وعليّاً عليه السلام وهو على فراش النبي يفتديه بنفسه؟

□ شَاءَتْ قُدْرَةُ الله سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ الْحَبْلُ الَّذِي أَدْلَى فِي الْبُئْرِ سَبَباً لِنَجَاةِ يوسف عليه السلام من قَعْرِ تِلْكَ الْبُئْرِ الْمُظْلِمَةِ، لِيَصِلَ بَعْدَهَا إِلَى الْقَصْرِ وَيَجْلِسَ عَلَى عَرْشِ الْمُلْكِ. إِذَنْ، تَأَمَّلُوا فِعْلَ حَبْلِ الله تَعَالَى، ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ...﴾ (١).

التعاليم:

١ - أحياناً يَتَسَبَّبُ الْأَقْرَبُونَ بِوُقُوعِ الشَّخْصِ فِي الْبُئْرِ؛ لَكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَيَقْدِرْتَهُ يَقِضُّ الْأَبْعَدِينَ لِإِنْقَاذِهِ، ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ (٢).

٢ - يُعْتَبَرُ تَقْسِيمُ الْعَمَلِ وَاحِداً مِنْ أَصُولِ الْإِدَارَةِ فِي الْحَيَاةِ الْجَمَاعِيَّةِ. ﴿وَأَرْسَلَهُمْ﴾ بِمَعْنَى الشَّخْصِ الْمَسْؤُولِ عَنِ الْمَاءِ، مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَصْحَابَ الْقَوَافِلِ يُقَسِّمُونَ الْأَعْمَالَ بَيْنَهُمْ، وَالْوَارِدُ هُوَ وَاحِدٌ مِنَ الْمَسْؤُولِينَ فِي تِلْكَ الْقَافِلَةِ.

٣ - يَنْظُرُ الْبَعْضُ إِلَى الْآخَرِينَ وَكَأَنَّهُمْ سَلْعَةٌ أَوْ بَضَاعَةٌ، ﴿يَضَعُهُ﴾.

(١) سورة آل عمران: الآية ١٠٣.

(٢) قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «مَنْ صَبَّحَ الْأَقْرَبُ أُنِيجَ لَهُ الْأَبْعَدُ. نَهَجُ الْبَلَاغَةِ، الْحِكْمَةُ ١٤. [المترجم]

٤ - قد يكون بإمكاننا كتمان الحقيقة عن الآخرين؛ ولكن، ماذا عن الله سبحانه وهو العالم بكل شيء؟ ﴿وَأَسْرُوهُ... وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَأَسْرُوهُ بِشَرِّ بَحْرٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾

إشارات:

□ إنَّ مَنْ يَبِيعُ يُوسُفَ وجوده وكيانه بهذا الرخص، لا جرم أنه سيندم. فالعمر والشباب والعزة والاستقلال والطهارة، كل واحد من تلك الأمور هي بمثابة (يوسف) فلا بد من الاحتراس من بيعها رخيصةً.

التعاليم:

١ - لا شك في أنَّ ما يحصل عليه الإنسان بسهولة يكون تركه والاستغناء عنه أسهل. ولأنَّ السيَّارة حصلت على يوسف ﷺ من دون عناء أو مشقة فقد هانَّ عليهم بيعه بثمان زهيد، ﴿وَأَسْرُوهُ بِشَرِّ بَحْرٍ﴾.

٢ - لاحظ أنَّ سوق النخاسة كان رائجاً منذ أقدم العصور، فقد باعت السيَّارة يوسف ﷺ كعبد، ﴿وَأَسْرُوهُ﴾.

٣ - سبحانه الله، اللحظة التي استغنت فيها السيَّارة عن يوسف ﷺ وزهدت فيه، كانت لحظة مصيرية غيرت حياته كلياً، ﴿وَأَسْرُوهُ بِشَرِّ بَحْرٍ...﴾ (*)، (نعم، يجب ألاَّ يأس أمثال يوسف في أيِّ زمان ومكان بسبب تجاهل الناس لهم).

٤ - مَنْ لا يَقْدِرُ الشيء حقَّ قدره سيهون عليه الاستغناء عنه، ﴿وَأَسْرُوهُ بِشَرِّ بَحْرٍ﴾، (لما كانت السيَّارة تجهل قيمة يوسف ولا تعرف قدره هانَّ عليها بيعه بثمان بخس).

٥ - سيعرف الناس قيمة النوابيع ولو بعد حين، وإن جار عليهم الزمان. (فإن كانت السيارة زهدت في يوسف وبيع كعبد، فقد فتح له الزمان باباً واسعاً إلى سدة الحكم)، ﴿وَأَسْرُوهُ بِشَرِّ بَحْرٍ﴾ (*).

٦ - لاحظ أنَّ تداول العملة له خلفيّة تاريخية تعود إلى آلاف السنين، ﴿دَرَاهِمَ﴾.

٧ - لقد باعَ الجُهلاء الغافلون يوسف عليه السلام بثمنِ بَخْسٍ، لكن ثَمَّةَ نساء عالِمات ومحَبَّات رأين فيه ملكاً كريماً، ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ... إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾. قال الإمام الصادق عليه السلام: «رُبَّ امْرَأَةٍ أَفْقَهُ مِنْ رَجُلٍ»^(١).

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

إشارات:

□ وردت عبارة ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ مرتين في القرآن الكريم؛ مرة في حق النبي موسى عليه السلام عندما التقط آل فرعون وجنوده الصندوق الذي كان يحمل موسى من الماء، فقالت امرأة فرعون له: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾^(٢). ومرة ههنا، عندما خاطب عزيز مصر زوجته قائلاً لها: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾. نعم، لقد شاءت قدرة الله سبحانه أن يغمر حبّ الطفل الرضيع والعبد المسكين الغريب قلوب حكام مصر لتتهيأ بذلك الأرضية المناسبة ليصبحا (الطفل والعبد) حاكمي المستقبل.

التعاليم:

- ١ - لقد تجلّت العظمة والهيبة على مُحيّا النبي يوسف عليه السلام، ما حدا بعزيز مصر أن يوصي زوجته بالاعتناء به، ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾.
- ٢ - تملك المرأة دوراً محورياً وأساساً في المنزل، ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾^(*).
- ٣ - افعلوا ما بوسعكم لدعوة الأقارب والأصدقاء للتعامل مع الآخرين بالحُسن، ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾.
- ٤ - انظروا إلى المستقبل في مُعاملاتكم، ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾^(*).

- ٥ - إذا تعاملنا مع الآخرين على أساس الاحترام، فلن يَخَيَّبُوا أَمَلَنَا فِي طَلَبِ المساعدة والعون، ﴿أَكْرِمْ... يَنْفَعْنَا﴾.
- ٦ - لا شك في أَنَّ الله سبحانه هو الممسيك بأزمة القلوب، فهو الذي أدخل حُبَّ يوسف في قلب من اشتراه، ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَنْخِذَهُ وَلَدًا﴾.
- ٧ - يجب علينا اتِّخَاذُ القرار المناسب بعد التَّقيُّمِ المطلوب. (في البداية كان الهدف من يوسف هو إعانتهم في أمور المنزل ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾، ثم بعد ذلك تمناً اتِّخَاذَهُ وَلَدًا ﴿أَوْ نَنْخِذَهُ وَلَدًا﴾ (*).
- ٨ - يبدو أَنَّ تَبَنِي الأطفال كان معروفاً منذ الْقِدَمِ، ﴿تَنْخِذُهُ وَلَدًا﴾.
- ٩ - من الواضح أَنَّ عزيز مصر لم يكن لديه أولاد، ﴿تَنْخِذُهُ وَلَدًا﴾ (*).
- ١٠ - رَبُّ ضَارَّةٍ نافعة؛ (فقد ألقى أبناء يعقوب أخاهم يوسف في الجب، ليخرج منه إلى قِصر الملوك)، ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ (*).
- ١١ - لا تَسْتَخَفُوا بِمُسْتَحْدَمِكُمْ فقد يُصْبِحُونَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ حُكَّامًا أَوْ مِنْ ذَوِي الشَّانِ، ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ (*).
- ١٢ - الْعِلْمُ شرط من شروط إناطة المسؤولية، ﴿مَكَّنَّا... وَلِنُعَلِّمَهُ﴾.
- ١٣ - إِنَّ بَعْدَ الْعُسْرِ يُسْرًا؛ فالذي يَبِيعُ بِالْأَمْسِ كَعَبْدٍ بِأَبْخَسِ الْأَثْمَانِ، أَصْبَحَ الْيَوْمَ يَسْكُنُ قَصْرًا سَتَحْكِي قِصَّتَهُ الْأَزْمَانِ، ﴿وَشَرَّوهُ بِشَمْنٍ بَخْسٍ... مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾.
- ١٤ - قَضَتْ إِرَادَةُ الله القاهرة إخراج يوسف من غِيَابَةِ الْجَبِّ وإجلالته على كُرْسِيِّ الْحُكْمِ، ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾.
- ١٥ - سُنَّةُ الله تعالى هي في غلبة الخير على الشرِّ، ﴿غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ (*).
- ١٦ - ما نَعْتَبِرُهُ حَادِثَةً إِنَّمَا هُوَ فِي الْوَاقِعِ خُطَّةٌ إِلَهِيَّةٌ مُحْكَمَةٌ لَتَنْفِذِ إِرَادَةِ الله سبحانه وتعالى، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾.
- ١٧ - وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ. (فظاهر الأمر هو رمي يوسف ﷺ في الجب المُظْلِمِ؛ لكنَّ الْحَقِيقَةَ أَنَّ إِرَادَةَ الله كانت تَخْطِطُ لشيء آخر)، ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ... أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (*).

١٨ - لا يَرى الناس إلَّا ظاهراً من الأمر والأحداث وهم يَجهلون مَقاصد الله سبحانه وأهدافه الحقيقيَّة، ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢٢)

إشارات:

□ «الأشدّ، من شدّ، بمعنى العقدة القويّة أو المُحكّمة»، في إشارة إلى اشتداد الجسم والروح.

التعاليم:

١ - العلم والحكمة متوقفان على الأهلية والاستعداد، ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

٢ - ليست الحكمة كالعلم، ﴿ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (*)، (العلم هو اليقين والمعرفة، بينما الحكمة هي البصيرة التي تسوق الإنسان إلى الحقّ. فقد يكون الفرد مُتعلِّماً ومُتَقَفّاً؛ لكنّه مع ذلك قد يزلّ في بعض قراراته ويُخطئ حسابها، وهذا يدلّ على فُقدان البصيرة اللازمة لإنقاذه من الجَنَف والانحراف. وهكذا، فقد مَنَحَ الله سبحانه يوسف ﷺ العلم والحكمة معاً).

٣ - علوم الأنبياء ليست مُكتسبة بل هي لدنية؛ فالله سبحانه يقول: ﴿ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

٤ - لا ريب في أنّ وجود العلم والحكمة جنباً إلى جنب أمرٌ ضروريّ ولازم، وفاعل أيضاً، ﴿حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (*).

٥ - يجب تبين أسباب تنصيب المسؤولين وعزلهم. (ولأنّ يوسف ﷺ كان من المُحسنين فقد أوتي العلم والحكمة). ﴿ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا... كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (*). نعم، إن أحسنّا كُنّا جديرين بالثواب الإلهي الخالص، ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

٦ - لا شك في أَنَّ الْمُحْسِنِينَ هُمُ الْمَفْلُحُونَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

٧ - لَيْسَ كُلُّ مَنْ يَمْتَلِكُ الْقُدْرَةَ الْعِلْمِيَّةَ أَوْ الْبَدَنِيَّةَ مَشْمُولاً بِلُطْفِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، بَلْ لَا بَدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ مُحْسِناً كَذَلِكَ، ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿رَزَوَدَتْهُ إِلَىٰ هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَعَلَقَتْ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ
قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رِجْ أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٣)

إشارات:

□ فُسِّرَتِ عِبَارَةُ ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رِجْ أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ عَلَى وَجْهَيْنِ اثْنَيْنِ:

(أ) أَعُوذُ بِاللَّهِ الرَّبِّيِّ الَّذِي أَحْسَنَ مَنَزَلَتِي.

(ب) إِنَّ عَزِيزَ مِصْرَ هُوَ مَالِكِي وَسَيِّدِي، وَلَا زِلْتُ أَعِيشُ فِي مَنَزَلِهِ وَأَلْتَمِسُ فَضْلَهُ، وَهُوَ الَّذِي أَوْصَاكَ بِي قَائِلاً: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾؛ فَكَيْفَ أَخُونَهُ إِذَا؟

وَلِكُلِّ الْإِحْتِمَالَيْنِ أَنْصَارٌ يُقَدِّمُونَ الشَّوَاهِدَ وَالذَّلَائِلَ عَلَى مُدَّعَاهُمْ؛ أَمَّا نَحْنُ فَنَمِيلُ إِلَى الْإِحْتِمَالِ الْأَوَّلِ، فَيُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَرْتَكِبِ الْإِثْمَ فَقَطْ بِسَبَبِ تَقْوَاهُ وَخَوْفِهِ مِنَ اللَّهِ ﷻ؛ وَلَمْ يَمْتَنِعْ عَنِ الْخِيَانَةِ احْتِرَاماً مِنْهُ لِلْعَزِيزِ، فَمِثْلُ يُوسُفَ يَتَصَرَّفُ بِدَافِعِ التَّقْوَى قَبْلَ أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ.

وَتَجْدُرُ الْإِشَارَةُ هُنَا إِلَى أَنَّ كَلِمَةَ «رَبِّكَ» اسْتَعْمَلَتْ فِي مَوَارِدٍ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ الْمُبَارَكَةِ فِي إِشَارَةٍ إِلَى عَزِيزِ مِصْرَ، وَأَمَّا كَلِمَةُ «رَبِّي» فَالْمُرَادُ مِنْهَا هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ دُونَ غَيْرِهِ كَمَا هُوَ وَاضِحٌ.

لَأنَّهُ مِنَ الْبَعِيدِ عَلَى يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَهْبِطَ إِلَى هَذَا الْمُسْتَوَى وَيَصْغُرَ مِنْ شَأْنِهِ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - فَيُسَمَّى (عَزِيزَ مِصْرَ) «رَبّاً».

التعاليم:

١ - تَبْدَأُ الْمَعَاصِي وَالْآثَامَ الْكَبِيرَةَ دَوَماً بِالرَّفَقِ وَالْمُرَاوَدَةِ، ﴿رَزَوَدَتْهُ﴾.

- ٢ - لا يكفي أن يكون المرء طاهراً وعفيفاً، فقد تكون النساء أحياناً هُنَّ اللاتي يتوددن ويُرَاوِدْنَ الرجال، ﴿وَرَوَدَتْهُ﴾.
- ٣ - لقد بلغت الشهوة أقصى حدودها لدى زوجة الملك حتى أحالتها إلى أسيرة لغلام من غلمانها، ﴿وَرَوَدَتْهُ أَلَيْ﴾.
- ٤ - حاولوا أن لا تُصَرِّحُوا باسم المُسيء، بل اذكروه تلميحاً. لاحظوا أن القرآن الكريم لم يُسمَّ أو يُصرَّح باسم زوجة العزيز التي عَشَقَتْ يوسف عليه السلام، بل كَتَبَ عنها بقوله: ﴿أَلَيْ﴾.
- ٥ - لا تتركوا الشباب في البيوت مع النساء من غير المحارم، لاحتمال انفتاح باب المُراودة، ﴿وَرَوَدَتْهُ أَلَيْ هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾.
- ٦ - عادة ما ينمو الحُبُّ أو العِشْقُ تدريجياً في أحضان المُراودة، فوجود يوسف عليه السلام بشكل دائم ومُستمر في البيت هو الذي أثار الحُبَّ والغرام، ﴿فِي بَيْتِهَا﴾.
- ٧ - حاولوا طَرح المواضيع المُتعلِّقة بالمفاسد الأخلاقية بشكل مؤدَّب وتلميحي، ﴿وَرَوَدَتْهُ﴾ (*).
- ٨ - لا شك في أن وجود رجل وامرأة من غير المحارم في مكان مستقل يُهيئ الأجواء لارتكاب المعصية، ﴿وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾.
- ٩ - من الواضح أن «الزنا» كان عملاً ممقوتاً منذ القدم، لذلك قامت (زليخا) بإحكام علق الأبواب كلها، ﴿وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾.
- ١٠ - صحيح أن (زليخا) سدَّت جميع الأبواب وغلقتها، لكن باب اللجوء إلى الله سبحانه مفتوح على مصراعيه على الدوام، ﴿وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ... مَعَاذَ اللَّهِ﴾.
- ١١ - تختلف ظروف الابتلاء الإلهي وأوقاته، فأحياناً يقع البلاء في غيابة الحُبِّ وأحياناً أخرى في القصور، ﴿وَرَوَدَتْهُ... مَعَاذَ اللَّهِ﴾ (*).
- ١٢ - بإمكان التقوى أن تتغلب على عوامل الانحراف وبُذور الخطيئة، ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾.

- ١٣ - الاعتصام بالله سبحانه يحول بين المرء والإثم أو الزلل، ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾.
- ١٤ - إذا أمركم رئيسكم أو كبيركم بارتكاب الإثم، لا تجب عليكم الطاعة، ﴿هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾. (لا تجوز معصية الله لأجل طاعة غيره، «لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ»^(١)).
- ١٥ - استعينوا بالله قبل الوقوع في جبال المعصية، ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾^(*).
- ١٦ - بإمكان الفرد أن يبقى طاهراً وعفيفاً وصادقاً حتى في قصر الملك، ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾^(*).
- ١٧ - إنَّ خطر الغريزة الجنسية كبير، فلا مناص إذاً من الاستعانة بالله للنجاة منها، ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾^(*).
- ١٨ - عادة ما يخشى الفرد المنعمس في الملذات والعابد للشهوات، الفضيحة الظاهرية، (لذلك قامت زليخا بعلق الأبواب بإحكام) أما الإنسان المتقي الذي لا يخشى إلا ربه فتراه لا يخاف الفضيحة بقدر ما يخاف من الله سبحانه، ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾^(*).
- ١٩ - إنَّ أفضل أشكال التقوى هو أن لا ترتكب الإثم من أجل الحق ومن أجل محبتنا لله تعالى وإحساسنا بلطفه، وليست التقوى أن نخاف الفضيحة في هذه الدنيا أو النار في الآخرة، ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رِئَیْ أَحْسَنَ مَثَوَايَ﴾.
- ٢٠ - لا ريب في أنَّ تذكر الألفاظ الإلهية يدعو إلى ترك المعصية، ﴿إِنَّهُ رِئَیْ أَحْسَنَ مَثَوَايَ﴾^(*).
- ٢١ - ذكر عاقبة المعصية يحول دون ارتكابها، ﴿لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.
- ٢٢ - لا جرم أن التشجيع على الزنا أو تهيئة ظروفه للشباب الطاهر - وهو ما فعلته (زليخا) هنا - إنما هو ظلم بحق النفس والزوج والمجتمع ككل، ﴿لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

- ٢٣ - قد يكون ارتكاب المعصية في لحظة ما سبباً في حرمان مُرتكبها من الفلاح إلى الأبد، ﴿لَا يُفْلِحُ﴾.
- ٢٤ - لا شك في أن ارتكاب المعاصي هو نوع من أنواع الكفر بنعم الله وآلائه، ﴿لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.
- ٢٥ - لا بد من التفكير في عاقبة العمل قبل الشروع به، ﴿لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (*).
- ٢٦ - لم ينسَ يوسف ﷺ الفلاح حتى وهو في خِصَمَ مواجهته مخلوقاً مثل (زليخا)، ﴿لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (*).
- ٢٧ - إن الشخص الذي يعرف منزلته ويُقدّر مكانته لا يمكن أن يبيع نفسه بثمن رخيص من أجل لذة زائلة، ﴿لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (*).
- ٢٨ - إذا دخل الظلم من باب خرج الفلاح من الباب الآخر، ﴿لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (*).

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَدُهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (٢٤)

إشارات:

□ عن الإمام الصادق عليه السلام: «بُرْهَانُ الرَّبِّ، هو نور العلم واليقين والحكمة التي ذكرها الله سبحانه في الآيات السابقة ﴿ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾»^(١). وأما ما أشارت إليه بعض الروايات من أن المراد بالبرهان هو رؤية يوسف عليه السلام صورة أبيه وجبريل عليه السلام، فلا يمكن الوثوق بسندها.

□ أشار القرآن الكريم مراراً إلى عزم أعداء الله على التآمر ضد أوليائه، وكيف أن الله سبحانه جعل ما كادوا هباءً منثوراً. فمثلاً، وبُعِيدَ رُجُوعِ النَّبِيِّ ﷺ من معركة تبوك، حاول المنافقون تغيير مسير الجمل الذي كان الرسول الأعظم ﷺ راكباً

عليه إلى جهة ليستسنى لهم الغدر به وقتله، لكن ذلك لم يحدث ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَزَّ بَنَالُوا﴾^(١)، أو قيل: إنهم أرادوا مرة تضليله ﴿وَلَمَّتْ طَلَافِكُهُ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ﴾^(٢)، أو عندما استعدوا لإيذائه ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾^(٣)، لكن الله خيب آمالهم وأفشل مساعيهم.

□ لقد كان يوسف عليه السلام عفيفاً طاهراً، والدليل على ذلك ما قاله هو نفسه، وما قاله كل من عاشره. وفي ما يأتي بعض الشواهد على ذلك:

- ١ - قال تعالى: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾.
- ٢ - كان يوسف عليه السلام يُكرّر قول: ﴿رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾، وفي مكان آخر قال: ﴿أَنِّي لَمَ أَخْشُهُ بِالْغَيْبِ﴾.
- ٣ - قول (زُليخا): ﴿وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾.
- ٤ - قول عزيز مصر: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾.
- ٥ - شهادة الشاهد من أهل (زُليخا) الذي قال: ﴿إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ قُبْلِي فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.
- ٦ - كلام النسوة في مصر ﴿حَسْبُ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾.
- ٧ - الوعد الذي قطعه إبليس اللعين على نفسه بإغواء الناس أجمعين واستدراكه قائلاً: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ﴾^(٤).

التعاليم:

- ١ - ليس باستطاعة أحد النجاة من الزلزل إلا بلطف الله سبحانه وتعالى ورحمته، ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾.

(٣) سورة المائدة: الآية ١١.

(١) سورة التوبة: الآية ٧٤.

(٤) سورة الحجر: الآية ٤٠.

(٢) سورة النساء: الآية ١١٣.

- ٢ - يُمكن للإنسان أن يرى بُرهاناً ما في أي لحظة أو ظرف يكون سبباً لنجاته، ﴿وَهُمْ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ (*) .
- ٣ - يمتلك الأنبياء غرائز إنسانية مثلهم مثل بقية البشر العاديين، لكن إيمانهم بحضور الله ووجوده في كل مكان وزمان، يمنعهم عن ارتكاب الإثم، ﴿وَهُمْ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ (*) .
- ٤ - الغفلة عن ذكر الله تعالى تمهد لارتكاب المعصية، بينما ذكره يصون الإنسان من المعاصي، ﴿وَهُمْ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ (*) .
- ٥ - الإخلاص درع يحمي الفرد من الوقوع في المعصية، ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ... إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (*) .
- ٦ - إن الله سبحانه كفيل بالمحافظة على عباده المخلصين، ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ... إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ .
- ٧ - يتولى الله حفظ عباده المخلصين، ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ... مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ .
- ٨ - لا يجتمع الإثم والفحشاء مع الإخلاص، ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ... الْمُخْلَصِينَ﴾ (*) .
- ٩ - لا يقتصر الإخلاص على النبي يوسف ﷺ فقط، فكل من يمكنه الوصول إلى مقام المخلصين إذا سلك المنهج نفسه الذي سلكه هو ﷺ، ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (*) ؛ وعبارة ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ لا تختص بيوسف ﷺ دون غيره، بل يمكن لكل واحد من أن يكون مثله.

﴿وَأَسْبَقَ أَبَاكَ وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا أَبَاكَ
فَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٥)

إشارات:

□ «الاستباق»، هو التسابق بين شخصين أو أكثر. لقد قرَّ يوسف ﷺ نحو الباب هرباً من الإثم والمعصية، وكانت (زليخا) تجري وراءه، وكأنهما كانا يتسابقان للوصول إلى الباب. وقد الشيء، قطعه أو شقه طويلاً، وألفى إلفاء، وجد على حين غرة.

التعاليم:

- ١ - لا يَكْفِي اللّجُوءُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَالِاسْتِعَاذَةُ بِهِ، بَلْ لَا بَدْءَ مِنَ الْهُرُوبِ مِنَ الْإِثْمِ، ﴿وَأَسْتَبْقَا﴾.
- ٢ - قَدْ تَتَشَابَهَ أحياناً ظواهر الأعمال، لَكِنَّ الْبُوطَانَ وَالْأَهْدَافَ تَخْتَلِفُ. (سُبْحَانَ اللَّهِ، فَأَحَدُهُمَا يَسْتَبِقُ الْبَابَ لِكَيْ لَا يُلَوِّثَ نَفْسَهُ بِالْإِثْمِ، بَيْنَمَا يَسْتَبِقُ الْثَانِي لِلتَّلَوِثِ)، ﴿وَأَسْتَبْقَا﴾.
- ٣ - التَّعَلُّلُ بِالْأَبْوَابِ الْمُغْلَقَةِ لِلِاسْتِسْلَامِ لِلْإِثْمِ وَالْمَعْصِيَةِ هُوَ حِجَّةٌ ضَعِيفَةٌ، فَلَا بَدْءَ مِنَ التَّحَرُّكِ نَحْوَ تِلْكَ الْأَبْوَابِ؛ مِنْ يَدْرِى قَدْ يُسَعِفُنَا الْحِظُّ هَذِهِ الْمَرَّةَ وَتَنْفَتِحَ، ﴿وَأَسْتَبْقَا الْبَابَ﴾.
- ٤ - لَا يَنْبَغِي تَجَاهُلُ سَاحَةِ الْجَرِيمَةِ فَقَدْ يَتْرَكَ الْمُجْرِمُ وَرَاءَهُ آثَاراً، ﴿وَقَدَّتْ قَيْصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ (*).
- ٥ - يَتَوَجَّبُ عَلَى الْمَرْءِ أحياناً تَفْقِدُ مَنْزِلَهُ أَوْ مَحَلَّ عَمَلِهِ عَلَى نَحْوِ مُفَاجِئٍ، ﴿وَأَلْفَيْكَ﴾ (*).
- ٦ - قَدْ يَكُونُ الشَّاكِي أحياناً هُوَ الْمُجْرِمُ؛ وَ(زَلِيخَا) هُنَا هِيَ الْمُجْرِمَةُ كَمَا هُوَ وَاضِحٌ؛ لَكِنَّهَا بَادَرَتْ وَشَكَتَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَظَلَّمَتْ مِنْهُ لَدَى زَوْجِهَا، ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ...﴾.
- ٧ - يَسْتَغْلِ الْمُخْطِئُ عَوَاطِفَ أَقَارِبِهِ وَأَحَاسِيسَهُمْ لِثَبْرَتِهِ نَفْسِهِ؛ وَقَدْ أَسْرَعَتْ (زَلِيخَا) فِي ذَلِكَ الْمَشْهَدِ وَخَاطَبَتْ زَوْجَهَا قَائِلَةً: لَقَدْ أَرَادَ هَذَا الْعَبْدُ الْمَسَاسَ بِشَرْفِكَ وَعِزِّضْكَ، ﴿يَاهْلِكَ﴾.
- ٨ - دَيَّدَنَ أَصْحَابُ الْجِأَاءِ وَالتَّفَوُّذِ اتِّهَامَ الْآخَرِينَ وَإِنْ كَانُوا هُمُ الْمُقْصِرِينَ، ﴿أَرَادَ يَاهْلِكَ سُوءًا﴾ (*).
- ٩ - صَدَّقَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَمَا قَالَ: «كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ»، ﴿أَرَادَ يَاهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ﴾ (*).
- ١٠ - لَا حِظَّ أَنْ سَجَنَ الْمُجْرِمِينَ وَحَبَسَهُمْ كَانَ مُتَدَاوِلًا فِي التَّارِيخِ، ﴿أَنْ يُسَجَّنَ﴾.

١١ - التلويح بالعقاب تعبير عن سلطة زوجة العزيز وجبروتها، ﴿إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾.

١٢ - لم يكن حباً ذلك الذي حرّك (زليخا) بل نزوة عابرة؛ لأن من طباع العاشق الحقيقي أن يفدي نفسه من أجل معشوقه ومحبوه وليس اتهامه وزميه في السجن ظلماً، ﴿أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ﴾ (*).

١٣ - تودي النزوة أحياناً بصاحبها إلى أن يكون قاتلاً، ﴿أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾.

١٤ - يبدو أن (زليخا) كانت تتمتع بنفوذ كبير في داخل السلطة الحاكمة، لذلك نراها تقترح هنا أن يسجن يوسف عليه السلام أو يعذب عذاباً أليماً، ﴿إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ (*).

﴿قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا
إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾
وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾

إشارات:

□ ذكرت بعض الروايات أن الشاهد الذي أشار إليه القرآن الكريم في هذه الآيات إنما هو طفل رضيع راقد في مهده وقد تكلم بقدرة الله تعالى كما حدث للنبي عيسى عليه السلام؛ لكنه لا يمكننا الوثوق بتلك الروايات لعدم وجود سند يدعمها. والأفضل أن نقدر أن الشاهد كان واحداً من مُستشاري العزيز ومن أقارب زوجته ولا شك في أنه كان ذكياً وقطناً، وكان هذا الشاهد (المُستشار) مُرافقاً للعزيز في تلك الأثناء.

□ لاحظ أن يوسف عليه السلام لم يكن أول المُتكلمين، ولو لم تكن امرأة العزيز تكلمت واتهمته زوراً لما اضطّر يوسف عليه السلام إلى قول ما قال وما كان ليُشهرها أو يفضحها؛ لكنها هي التي ابتدأت الشر فأجاب: ﴿هِيَ رَوَدَّتْنِي﴾.

□ ما يُؤسف له أن الإنسان الطاهر العفيف غالباً ما يُتهم ظلماً؛ فلم يكن مثلاً

أطهر من السيِّدة مريم عليها السلام في عصرها؛ لكنَّها لم تَسلم من اتِّهام الجُهلاء لها بالزَّنا. والشَّيء نفسه حَصَلَ مع النبي يوسف عليه السلام وهو الطاهر العَفيف، اتَّهمته امرأة العزيز بأنَّه أراد فِعْل المُنكر معها؛ إلَّا أنَّ مشيئة الله سبحانه وتعالى أثبتت براءة الاثنين وطهارتهما بأحسن الحُجج والبراهين.

□ يؤدِّي «القَميص» دوراً مُهمّاً في قصَّة النبي يوسف عليه السلام:

فهنا كان القَميص الذي قُدَّ من دُبُر دليلاً على براءة يوسف وإثبات التَّهمة على امرأة العزيز. وفي مكان آخر كان بقاء القَميص على حاله دون تمزُّق دليلاً على ثبات التَّهمة على إخوته، فبعدَ إلقائهم يوسف في الجبِّ وأخذ قَميصه وتلطُّيخه بالدم وتقدِّيمه إلى أبيهم قائلين: لقد أكل الذَّئب يوسف؛ سألهم أبوهم: فلماذا لم يتمزَّق قَميصه إذاً. وفي نهاية قصَّة يوسف عليه السلام سيكون القَميص سبباً لرجوع البصر إلى عيني أبيه يعقوب عليه السلام.

التعاليم:

١ - لا بدَّ للمُتهم من الدِّفاع عن نفسه والتَّعريف بالمُجرم الحقيقي؛ وهو ما فعله النبي يوسف عليه السلام عندما واجه كلام (زليخا) ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ بقوله: ﴿هِيَ رَوَدَّتْنِي﴾، وكان ذلك جواباً مُناسباً مُشيراً إلى أنَّها هي التي همَّت بارتكاب المعصية لا هو (*).

٢ - لا بدَّ للقاضي من سماع شُكوى المُشتكي ودِّفاع المُتهم، ثمَّ يَبحث في الأدلة والمُسندات ويَدرس الوثائق، لكي يتمكَّن بعد ذلك من إبداء وجهة نظره ورأيه. (ففي هذه القِصَّة ادَّعت زوجة العزيز أنَّ يوسف هو الذي أراد بها سوءاً ﴿أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾، فردَّ يوسف عليه السلام عن نفسه التَّهمة وقال: ﴿هِيَ رَوَدَّتْنِي﴾؛ أمَّا الشَّاهد فقد أعطى علائم للكذب والصدِّق وذلك عبر الطريقة التي شقَّ بها القَميص، من الأمام أو من الخلف) (*).

٣ - لا شكَّ في أنَّ الدِّفاع عن الشَّخص البريء هو واجب إنسانيّ، فليس دائماً السُّكوت من ذهب، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾.

- ٤ - تقديم العَوْن والمساعدة من أجل الوصول إلى الحقيقة هو عَمَل حَسَن، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ (*) .
- ٥ - في القضاء، الشَّاهد هو الشخص الذي يتكَلَّم وفقاً للمستندات ويدعم كلامه بالقرائن، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ (*) .
- ٦ - الله سبحانه يَحْمِي الفَرْد من حيث لا يَدْرِي، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ .
- ٧ - عندما تتدخل مشيئة الله سبحانه، ترى أقارب المجرم يَشْهَدُونَ ضَدَّه، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ .
- ٨ - لا يَجُوز في الشهادة أو الحكم مراعاة حسب المتهم ونسبه أو مَنْصبه أو قرابته، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ .
- ٩ - لا رَيْب في أَنَّ شهادة الأقارب على بعضهم البعض تَبْعَث الطمأنينة والثقة، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ (*) .
- ١٠ - لا بدَّ من أن يهْتَم القاضي بالوثائق والمُستندات والتركيز عليها أكثر من أقوال المُشتكي أو المُتهم، ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ... قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي... وَشَهِدَ شَاهِدٌ... إِنْ كَانَتْ قَيْصُصُهُ...﴾ (*) .
- ١١ - يَسْتَلْزِم القضاء والحكم شخصاً خبيراً ومُتمرساً، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ... إِنْ كَانَتْ قَيْصُصُهُ...﴾ (*) .
- ١٢ - يُمكن معرفة المجرم والكشف عن الكثير من الأمور في علم الجرائم من خلال القرائن والآثار المتروكة في مسرح الجريمة، ﴿إِنْ كَانَتْ قَيْصُصُهُ...﴾ .
- ١٣ - من الضروري الاستعانة بالأساليب الخاصة بعلم الجرائم لتحديد الجريمة والمجرم، ﴿وَإِنْ كَانَ قَيْصُصُهُ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ﴾ .

﴿فَلَمَّا رَأَى قَيْصُصَهُ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ

مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ (٢٨)

إشارات:

□ على الرّغم من أنّ القرآن الكريم يَصِف كَيْد الشيطان بالضعف ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ

كَانَ ضَعِيفًا^(١)، إِلَّا أَنَّهُ وَصَفَ كَيْدَ النِّسَاءِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ بِالْعَظِيمِ. وَيَذَكِّرُ تَفْسِيرُ (الصَّافِي) أَنَّ سَبَبَ ذَلِكَ يَعُودُ إِلَى أَنَّ وَسُوسَةَ الشَّيْطَانِ إِنَّمَا هِيَ فِي لَحْظَةٍ مَا وَبَشَكْلٍ خَفِيٍّ وَخَلْسَةٍ، لَكِنَّ وَسُوسَةَ الْمَرْأَةِ تَتَسَمُّ بِاللَّطْفِ وَالْمَحَبَّةِ، وَهِيَ وَسُوسَةُ حَضُورِيَّةٍ وَدَائِمَةٍ.

□ أحياناً نَرَى أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ يَقُومُ بِأَفْعَالٍ جَبَّارَةٍ بِاسْتِخْدَامِ وَسَائِلٍ بَسِيطَةٍ؛ فَمَثَلًا كَانَ هَلَاكُ أَبْرَهَةَ عَلَى يَدِ الطَّيُورِ الْأَبَابِيلِ، وَكَانَتْ نَسِيجُ الْعَنْكَبُوتِ السَّبَبُ فِي إِنْقَازِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ مِنْ أَيْدِي الْمُشْرِكِينَ؛ وَعَلَّمَ سَبَّحَانَهُ الْإِنْسَانَ طَرِيقَةَ دَفْنِ الْمَوْتَى عَلَى يَدِ الْغُرَابِ^(*)، وَبَيَّنَّ طَهَارَةَ مَرْيَمَ ﷺ وَعَقَّتَهَا بِكَلِمَاتِ الطِّفْلِ الرِّضِيعِ؛ وَأَثَبَتْ طَهَارَةَ يُوسُفَ ﷺ وَنَزَاهَتَهُ بِقَمِيصٍ مُمَمَّرَقٍ، وَكَانَ طَيْرُ الْهُدْهُدِ سَبَبًا فِي إِيمَانِ شُعْبَ بِأَكْمَلِهِ؛ وَكُشِفَ أَمْرُ أَصْحَابِ الْكَهْفِ بِعُمْلَةٍ نَقْدِيَّةٍ مُتَقَادِمَةٍ.

التعاليم:

١ - تَقْتَضِي الْعَدَالَةُ فِي الْقَضَاءِ أَنْ يَكُونَ مَبْنِيًّا عَلَى أَسَاسِ الْأَدَلَّةِ وَبَعِيدًا عَنْ غُنْصَرِ الْحَبِّ وَالْكَرَاهِيَةِ، ﴿فَلَمَّا رَأَى قَيْصَهُ... قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾^(*).

٢ - الِاسْتِدْلَالُ الْمُنْطَقِي يُجْبِرُ كُلَّ شَخْصٍ مُنْصَفٍ عَلَى الْإِسْتِسْلَامِ وَالْإِقْرَارِ. (فَعَزِيزُ مِصْرَ مَثَلًا لَمْ يَكُنْ أَمَامَهُ إِلَّا الْقَبُولُ بِكَلَامِ الشَّاهِدِ)، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ... قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾^(*).

٣ - تَجِبُ مُرَاجَعَةُ الْآثَارِ وَالْمُسْتَنْدَاتِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِمَوْقِعِ الْجَرِيْمَةِ وَالتَّدْقِيقُ فِيهَا جَيِّدًا، ﴿قَدْ مِنْ دُبُرٍ﴾^(*).

٤ - عِنْدَمَا نَصِلُ إِلَى نَتِيجَةِ حَتْمِيَّةٍ وَقَاطِعَةٍ لَا بَدَّ لَنَا مِنْ إِعْلَانِ الْحُكْمِ مِنْ دُونِ أَيِّ تَرَدُّدٍ، ﴿فَلَمَّا رَأَى... قَالَ﴾^(*).

٥ - لَاشْكُ فِي أَنَّ عَزِيزَ مِصْرَ كَانَ يَتَعَاطَى مَعَ الْمَوْضُوعِ بِالْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ وَلَوْ بِشَكْلِ نَسَبِيٍّ (لَأَنَّهُ - كَمَا هُوَ وَاضِحٌ - لَمْ يَشَأْ اتِّهَامَ أَيِّ شَخْصٍ مِنْ دُونِ أَنْ

يَتَحَقَّقُ مِنَ الْأَمْرِ أَوَّلًا، وَهِيَ هِيَ يُعْطَى الْحَقَّ لِمُصَاحِبِهِ هُنَا وَهُوَ يُوسُفُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)، ﴿فَلَمَّا رَآهُ... إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾ (*).

٦ - كَمَا لَا يُمْكِنُ إِخْفَاءُ نَوْرِ الشَّمْسِ، فَإِنَّ نَوْرَ الْحَقِّ لَا يَنْطَفِئُ؛ وَلَا بَدَّ مِنْ أَنْ يَنْكَشِفَ أَمْرُ الْمُجْرِمِ يَوْمًا مَا، ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾.

٧ - يَجِبُ عَلَيْنَا قَبُولُ الْحَقِّ وَلَوْ كَانَ مُرًّا وَتَسَبَّبَ فِي إِضْرَارِنَا. (فَعَزِيزُ مِصْرَ هُنَا اعْتَرَفَ بِأَنْ زَوْجَتَهُ هِيَ الْمَذْنُوبَةُ وَلَيْسَ يُوسُفُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)، ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾ (*).

٨ - كُونُوا عَلَى حَذَرٍ مِنْ مَكْرِ خِيَاثِ النِّسَاءِ فَإِنَّ الْخَطَرَ، كُلَّ الْخَطَرِ، فِي حِيلِهِنَّ، ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

٩ - مَهْمَا كَانَ نَوْعُ الْمَكْرِ وَشَكْلُ الْحِيلَةِ فَإِنَّهُمَا سَرْعَانِ مَا سَيَفْتَضِحَانِ، ﴿فَلَمَّا رَآهُ... قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ

إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ (٢٩)

التعاليم:

١ - كَانَ عَزِيزُ مِصْرَ يَرْغِبُ فِي إِبْقَاءِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ (الْفُضِيحَةِ) مَخْفِيَةً، لَكِنْ لَمْ يَخْطُرْ بِيَالِهِ أَنَّ هَذَا الْمَوْضُوعَ سَيُفْشَى يَوْمًا لِجَمِيعِ مَنْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَى الْأَبَدِ؛ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِإثبات براءة يوسف (عليه السلام)، ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾.

٢ - الْأَعْمَالُ الْقَبِيحَةُ يَنْبَغِي أَنْ تُسْتَرَّ، ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ (*).

٣ - طَلَبَ عَزِيزُ مِصْرَ مِنْ يُوسُفَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) إِخْفَاءَ هَذَا الْمَوْضُوعِ لِكَيْ لَا تُخْدَشَ سُمْعَتُهُ أَوْ تُوجَّهَ ضَرْبَةٌ إِلَى مَكَانَتِهِ وَمَنْصَبِهِ، ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ (*).

٤ - مِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ عَزِيزَ مِصْرَ - مِثْلَهُ فِي ذَلِكَ مِثْلَ الْكَثِيرِ مِنْ سَكَانِ الْقُصُورِ - قَدْ تَغَاضَى عَنْ مَسْأَلَةِ الشَّرَفِ وَالْعِرْضِ وَالْغِيْرَةِ، وَامْتَنَعَ حَتَّى عَنْ تَوْبِيخِ زَوْجَتِهِ أَوْ تَأْنِيهِهَا مُكْتَفِيًا بِدَعْوَتِهَا إِلَى الْإِسْتِغْفَارِ، ﴿وَاسْتَغْفِرِي﴾.

- ٥ - واضح كذلك أنّ القادة غير المؤمنين لا يَمْتَلِكُون الجِزَّةَ على الحِصْمِ والحِزْمِ ضدّ أقاربهم المُخْطِئِينَ، ﴿وَأَسْتَغْفِرِي﴾.
- ٦ - لا شك في أنّ شروع أيّ امرأة في إقامة علاقة مع غير زوجها هو أمر غير جائز ولا مشروع، ﴿وَأَسْتَغْفِرِي لِذُنُوبِي﴾.
- ٧ - إقامة العلاقات الجنسيّة غير المشروعة المبنية على الهوى والنزوات عمل غير مقبول حتى من قبل الذين لا يؤمنون بأي من الأديان الإلهيّة، ﴿وَأَسْتَغْفِرِي لِذُنُوبِي﴾ (*).

﴿وَقَالَ يَسُوۡةٌ فِى الْمَدِيۡنَةِ اَمْرَاۗتُ الْعَزِيۡزِ تُرَاۡدُ فَتْنَهَا عَنْ نَفْسِهٖۚ
فَدَّ شَغَفَهَا حُبًّاۚ اِنَّا لَنَرٰهَا فِى ضَلٰلٍ مُّبِيۡنٍ﴾

إشارات:

- «الشَّغَفَ أو الشَّغَاف، هو غلاف القلب المُحِيط به». وجُملة «شَغَفَهَا حُبًّا» معناها أنّ حُبَّ يوسف ﷺ عُلِقَ بِشَغَافِ قَلْبِ زُلَيْخَا فَأُولِعَتْ بِهِ^(١).
- تذكروا أنّ فريقين من الناس وصفوا العلاقة الشديدة بيوسف بأنّها ضلال؛ الفريق الأوّل إخوته الذين قالوا عن حُبّ أبيهم وولعه بابنه يوسف: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلٰلٍ مُّبِيۡنٍ﴾، أمّا الفريق الثّاني فالنسوة في مصر اللائي وَصَفْنَ علاقة (زليخا) بيوسف بقولهنّ: ﴿إِنَّا لَنَرٰهَا فِى ضَلٰلٍ مُّبِيۡنٍ﴾.
- كان الجميع يُريد يوسف لنفسه وَحده؛ فأبوه كان يَعْتَبِرُهُ ابنه الوحيد ﴿يَبْنِيۡ﴾، والسيّارة التي التَقَطَتْهُ من البئر كانت تُريدُه بضاعة لها ورأسمال تَسْتَفِيدُ مِنْهُ ﴿وَشَرُوۡهُ بِشَعِيۡرٍ بَحْسٍ﴾، وعزيز مصر كان يَرُغِبُ فِي تَبْنِيَةِ كَوَلِيْدٍ لَهُ ﴿تَتَّخِذْهُ وَلَدًا﴾، وكانت (زليخا) تَعْتَبِرُهُ مَعشوقها وَمَعْبُودها فِي الْحُبِّ ﴿شَغَفَهَا حُبًّا﴾، واعتبره أصحابه فِي السَّجْنِ مُعْتَبَرًا لِأَحْلَامِهِمْ وَمُؤَوَّلًا لَهَا ﴿نَبْتَنَا بِتَأْوِيلِهٖ﴾؛ وأمّا الله سبحانه وتعالى فقد اختاره له رَسُولًا ﴿يَجْعَلِيكَ رَئِيۡسًا﴾، والحقيقة أنّه لَمْ يَبْقَ

(١) تفسير نمونه (التفسير الأمثل).

ليوسف عليه السلام من حطام هذه الدنيا إلا هذا المَقَام الرَّفِيع وهو مَقَام النبوة والرسالة ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾.

التعاليم:

- ١ - عادة ما تُذاع الأخبار الخاصة بأسر المسؤولين أسرع من غيرها؛ لذلك لا بدّ لهؤلاء من توخي الحيطة والحذر في تصرفاتهم، ﴿وَقَالَ يَسُوهُ... أَمْرًاُ الْعَزِيزِ﴾.
- ٢ - يُلاحظ أنّ غلق الأبواب لا يحول دون الفضيحة، ﴿وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ... وَقَالَ يَسُوهُ... أَمْرًاُ الْعَزِيزِ تَرُودُ﴾.
- ٣ - غالباً ما تُنسب الأخطاء التي يرتكبها أفراد الأسرة إلى رب الأسرة، ﴿أَمْرًاُ الْعَزِيزِ تَرُودُ فَتَنْهَا﴾ (*).

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا
وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ
وَقَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (٣١)

إشارات:

- يُمكننا إعطاء تفسيرين لجملة ﴿قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾؛ التفسير الأول هو أنّ النسوة قطعن أيديهنّ بدلاً من تقطيع الفاكهة المقدّمة لهنّ، أمّا التفسير الثاني فيمكن أن يكون معناها أنّ النسوة توقّفن عن تناول الفاكهة.
- و«حاشا» كلمة للاستثناء تُفيد التنزّه والابتعاد؛ وقد جرت العادة في ذلك الزّمان إذا ما أُريدَ تنزيه شخص ما عن العيب أن يُنزهوا الله تعالى أولاً ثمّ الشخص المُراد تنزيهه^(١).
- يبدو أنّ زوجة العزيز كان لها حظ من الدهاء والسياسة، فقد استطاعت من

خلال دَعْوَة بَعْض النِّسوة وضعهنَّ أمام الأمر الواقع وأن تفاجئهنَّ بما لَمْ يتوقَّعنَّ.

التعاليم:

- ١ - ليس بالضرورة أن يكون الھَدَف من تناول موضوعات الآخرين والتحدّث في شؤونهم الخاصّة، هو التعاطف مع أصحاب تلك الموضوعات، فقد يكون الھَدَف أحياناً هو الحسد أو المؤامرة أو التّخطيط ضدهم، ﴿يَمْكُرِينَ﴾.
- ٢ - ربّما كان الغرض من إفشاء تلك النِّسوة وإذاعتهنَّ خَبَر عِشْق (زليخا) ليوسف ﷺ هو إيجاد وسيلة يتمكّن من خلالها من رؤية هذا الذي أشعل نار الحب في قلب زوجة العزيز، ﴿يَمْكُرِينَ﴾ (*).
- ٣ - تَسْتوجب الظروف أحياناً الرّد على المَكْر بالمَكْر كذلك. (فالنِّسوة في مصر، ومن خلال إذاعتهنَّ لقضيّة زوجة العزيز، كُنَّ يُحْطِطن لأمر ما، فأرادت امرأة العزيز دَعْوَتَهُنَّ في بَيْتِها اعتقاداً منها بأنّ ذلك سيكون الرّد المناسب لِمَا يُحْطِطن له)، ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾.
- ٤ - وأملاً منها في السيطرة على الدعاية والشائعات التي بُثَّت من قبل بعض النِّسوة، عَمَدَت (زليخا) إلى توضيح الأمر إلى النِّساء اللَّاتي اعتبرتهنَّ الأَبواق الدّعائية لتلك الشائعات. (من الواضح أنّ المَدْعَوَات لَمْ يَكُنَّ كُلّ نساء المنطقة)، ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ (*).
- ٥ - يُحاول المُجْرِم في بعض الأحيان إعطاء الآخرين دوراً في الجريمة ليبين أنّ المسألة عادية وكذلك لتبرئة نفسه، ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ (*).
- ٦ - لا شكّ في أنّ تقديم خدمة خاصّة ومُنْفَصلة لكلّ واحد من الضيوف هو أمر محبوب وله قيمة معنويّة كبيرة، ﴿وَوَآتَتْ كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ (*).
- ٧ - لا بدّ من طاعة المولى وصاحب الأمر إلّا إذا اقترنت هذه الطاعة بالمعصية، ﴿وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيْنَ فُلَانًا رَأَيْتَهُ﴾.
- ٨ - أين السمع من النظر عياناً، ﴿فَلَمَّا رَأَيْتَهُ أَكْثَرْتَهُ﴾ (*).

٩ - يَسْتَسْلِم المَرء ويتواضع لا إرادياً أمام عظمة شخصيّة الآخرين وجلالهم، ﴿أَكْبَرْتَهُ﴾.

١٠ - أرادت (زليخا) من وراء كلّ ذلك إفهام النسوة بأنّهنّ إنّما رأين يوسف لحظة واحدة فقط فلم يُطَقَّن الكَفّ عن تَفَرّسه، فكيف بها التي تعيش معه تحت سَقَف واحد وتراه ليل نهار، ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْتَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ (*).

١١ - لا تَتَعَوَّد النقد المتعجّل، ربّما لو كنت مكان الآخر لتصرّفت مثله، ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾؛ (عندما رأت النسوة يوسف، أُصِيبَ بالذهول مثلما أُصِيبَت زليخا).

١٢ - الإنسان يتبجّح ويصوّر نفسه أكبر من حجمه الحقيقي، ولكن عند الامتحان يكرم المرء أو يهان، ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْتَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ (*).

١٣ - حُبّ الشيء يُعِمِّي ويُصِمّ، ﴿قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾. (لا بدّ من أنكم قرأتم في الروايات أنّ الإمام عليّاً عليه السلام في إحدى المرات التي كان يصلّي فيها أخرجوا من رجله سهماً ولم يشعر به! نعم، لا تتعجّبوا؛ فإذا كان الحُبّ الدنيوي - وهو كما تعلمون حُبّ سَطَحيّ - قد أفقَدَ النسوة وعيَهنّ فقطعنَ أيديهنّ بدل الفاكهة، تُرى ما الذي يُمكن أن يَفعله الحُبّ المَعنويّ والعميق للجمال الحقيقي).

١٤ - لقد كان النبي يوسف عليه السلام خارق الجمال؛ لكنّه كان أيضاً قدوة في العِفّة والطهارة، ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْتَهُ... قُلْتُ حَسَّ لِلَّهِ﴾ (*).

١٥ - كان جمال يوسف عليه السلام سبباً في نزول المصائب عليه تترى، لكنّ علمه وتقواه ضمنا له النجاة من تلك المصائب. (نعم، فالجمال المعنويّ أهمّ بكثير من الجمال الظاهريّ) (*).

١٦ - واضح أنّ المصريّين في ذلك الوقت كانوا يُؤمنون بالله عزّ وجلّ وبوجود الملائكة، ﴿حَسَّ لِلَّهِ... مَلِكٌ كَرِيمٌ﴾.

﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ
فَاسْتَعَصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامَرُهُ لَيُجَنَّنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ ﴿٣٢﴾

إشارات:

□ لا شك في أنّ الظروف الاجتماعية والحالات النفسية للأفراد تؤثر في طبيعة ردود أفعالهم؛ فامرأة العزيز التي كانت تخشى ذبوع خبر العمل القبيح الذي اقترفته ﴿وَعَلَّقَتِ الْأَثْوَابَ﴾، أصبحت جريئة الآن وهي ترى مُناصرة نساء مصر لها على ما اقترفته من إثم، أصبحت تعلن بوقاحة: «نعم، أنا راودته»، فقد يصبح ارتكاب القبائح والآثام أمراً عادياً حينما لا يُبدي المجتمع أيّ اهتمام أو حساسية تجاهها. ولعلّ دعاء «كُميل» الشهير يُشير إلى التصدي لهذه الظاهرة عندما يقول: «اللّهُمَّ اغْفِرْ لِي الذَّنُوبَ الَّتِي تَهْتِكُ الْعِصَمَ»؛ وذلك لأنّ ارتكاب أيّ إثم أو معصية يكون صعباً في البداية، ولكن ما أن يسقط بُرقع الحياء عن مُرتكبه حتى يُصبح عادة مُزمّنة لديه.

التعاليم:

- ١ - الأيام دوائر، فلا تُلومن الآخرين فقد تدور الدائرة عليك وتقع في ما وقعوا فيه، ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ﴾.
- ٢ - الحُبّ الخطيئة عاقبه الفضيحة، ﴿وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ﴾.
- ٣ - سرعان ما يُفتضح أمر الكذاب؛ فالشخص الذي كان يدعي بالأمس أنّ يوسف هو الذي كان يُريد به سوءاً ﴿أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾، يعترف اليوم ويقول: ﴿وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ﴾.
- ٤ - العقّة والطهارة كفيلتان بفضح الفاسدين، ﴿وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ (*).
- ٥ - حتى الخصم قد يعترف أحياناً بطهارة خصمه وعفته ﴿فَاسْتَعَصَمَ﴾، (وهذا يدلّ على أنّ ضمير المُجرم أيضاً قد يصحو يوماً ما).

- ٦ - لا رَيْبَ في أَنَّ العَقَّةَ والطَّهارةَ من ضروريات النبوة، ﴿وَكَذَلِكَ يَجْنِبُكَ... فَاسْتَعِمْ﴾.
- ٧ - من الطاهرين من يدفعون ثمن أنانيّة غيرهم ويدخلون السّجن، ﴿فَاسْتَعِمْ... لَيْسَجَنَّ﴾.
- ٨ - العاشق الآثم لا يهتم سوى تحقيق هدفه ولا يتورّع عن استخدام كلّ الوسائل للوصول إلى ذلك الهدف، ﴿وَلَكِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيْسَجَنَّ﴾ (*).
- ٩ - إذا لم تُكُن السلطة مقترنة بالإيمان والتّقوى فقد تُسْتَخْدَم لتحقيق الأهواء النّفسية، ﴿مَا أَمَرُهُ لَيْسَجَنَّ﴾ (*).
- ١٠ - كما ذكرنا سابقاً كان لزليخا نفوذاً ومنزلة في حكومة مصر آنذاك، ﴿لَيْسَجَنَّ﴾ (*).
- ١١ - استغلال السلطة والنّفوذ هو الحربة التي يَستخدمها الطّغاة، ﴿لَيْسَجَنَّ﴾.
- ١٢ - التّهديد والوعيد بالسّجن والإذلال هي الوسيلة التي دأب الطّغاة على استخدامها دائماً، ﴿لَيْسَجَنَّ... الصّغِيرَيْنِ﴾.
- ١٣ - لاحظ سلطة هوى النّفس بحيث إنّ زليخا تستمرّ في غيّها حتى بعد افتضاح أمرها، ﴿رَوَدْنَاهُ... وَلَكِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ...﴾ (*).
- ١٤ - يتحوّل العاشق الفاشل إلى الدّ الخِصام، ﴿قَالَتِ... لَيْسَجَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصّغِيرَيْنِ... لَيْسَجَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصّغِيرَيْنِ﴾.
- ١٥ - لاحظ أنّ العيش داخل القصور يقتل النخوة والغيرة؛ (فعلى الرّغم من أنّ العزيز اكتشف خيانة زوجته وطلب منها أن تتوب عن عملها، فإنّ ذلك لم يمنع زليخا من مُعاودة فعلها السابق).
- ١٦ - يعتبر أصحاب الهوى والنزوات والطّغاة أنّ تقوى النّفس وصدّها عن الهوى أسلوب مهين ومذلّ، ﴿مِنَ الصّغِيرَيْنِ﴾ (*).

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ
وَأِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

إشارات:

□ لقد كان يوسف عليه السلام رجلاً بكلّ ما للكلمة من معنى؛ فقد كان ذات مرة ضحية حسد إخوته له؛ لكنّه مع ذلك لم يُبدِ أيّ كراهية أو عداوة ضدهم. ثمّ في المرّة الثانية هدفاً لعشق (زليخا) لكنّه لم يسمح لنفسه بارتكاب المعصية. وفي الثالثة لما وصل إلى ما وصل إليه من الجاه والتفوذ لم يفكر أبداً في الانتقام من إخوته مقابل ما جنّوه بحقه. وفي المرّة الرابعة ما أن رأى خطر المجاعة والقحط يتهدّد مصر أثر البقاء على العودة إلى وطنه وعرض المساعدة لتدبير شؤون البلد وتخليصه من محنته.

□ لكلّ فرد محبوب ومُعشوق؛ ومحبوب يوسف عليه السلام هو السّجن حيث فضّله على ما يُدعى إليه من الإثم والمعصية. ومن الناس من يُفضل الدنيا ولهوها ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا...﴾^(١)؛ لكنّ المؤمن ليس لديه ما هو أحبّ إليه من الله سبحانه ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾^(٢).

التعاليم:

- ١ - من آداب الدّعاء التوجّه إلى ربوبيّة الله سبحانه، ﴿رَبِّ﴾.
- ٢ - يُفضّل أولياء الله شظف العيش الشريف على رفاهية الحياة في ظلّ المعصية، ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾.
- ٣ - ليس كلّ حرّ شريفاً ولا كلّ سجين فاسداً، ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ﴾.
- ٤ - إذا استمدّ الشّخص العون من الله سبحانه، فسيكون قادراً على تجنّب المعصية مهما كانت الظروف، ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ﴾. (المهمّ هو الابتعاد عن مناخ الإثم والمعصية).

(١) سورة إبراهيم: الآية ٣.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٦٥.

٥ - لا يُمكن للمُعانة والشفاء أن يكونا مُبررين لارتكاب المعصية، ﴿رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ...﴾.

٦ - لا شك في أن الدعاء والابتهاال واستمداد العون من الله سبحانه هي من الأساليب التي تصون الفرد من المعاصي والانحرافات الجنسية، ﴿رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ...﴾.

٧ - ترتبط شخصية الإنسان إلى حد كبير بروحه ونفسيته وليس جسمه أو صورته. فإذا كانت روحه حرة عفيفة، فإنها تُحيل سجنه إلى جنة خضراء نضرة، أما إذا كانت روحه تُعاني ضغوطاً مختلفة فإن القصر بالنسبة إليه سجن كبير، ﴿السِّجْنِ أَحَبُّ﴾.

٨ - ما أروع أن يتعد الإنسان عن الأوساط الموبوءة من أجل أن يبقى بعيداً عن المعصية. (كان يوسف عليه السلام يُطالب بالانفصال عن بيته حتى وإن كلفه ذلك السجن) (*).

٩ - لا بد من تقديم رضا الله على رضا من سواه، ﴿رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ وَمَا يَدْعُونِي إِلَيْهِ﴾ (*).

١٠ - لا سلامة مع غياب لطف الله سبحانه ورحمته، ﴿وَلَا تَعْرِفُ عَنِّي...﴾. لا شك في أن السبيل الوحيد للخلاص في الظروف الحرجة هو الاتكال على الله تعالى.

١١ - تشتدّ البلايا الإلهية أحياناً لحظة بعد أخرى. (فيوسف عليه السلام كان قبل هذا تحت وطأة امرأة واحدة، أما الآن فهو مُحاط بالعديد من أشباه تلك المرأة)، ﴿كَيْدُهُنَّ... إِلَيْهِنَّ﴾.

١٢ - لاحظ أن يوسف عليه السلام وصف المعصية بكلمة ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ لكنه وصف السجن قائلاً «أَحَبُّ إِلَيَّ»، وهو ما يدل على أن الطهارة والعصمة متأصلتان في أعماقه، ﴿رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ... أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ (*).

١٣ - لا شك في أن الميل نحو المعصية والجري وراء الغرائز الفاسدة هو نوع من الجهل، ﴿وَأَكُنْ مِنَ الْبَهِيلِينَ﴾.

١٤ - يَتَسَبَّب ارتكاب الإثم والمَعْصية في سَلْب العلوم والمواهب التي مَنَحها الله سبحانه. (تذكَّر أنه ورد في الآيات السابقة ﴿ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ وهنا يقول يوسف ﷺ: ﴿وَأَكُنْ مِنَ الْبَهِيلِينَ﴾.

١٥ - لا يَقْتَصِر الْجَهْل على الأمية فَحَسَب، بل يَشْمَل كذلك تقديم المَلَذات الموقَّنة وتأخير رضا الله سبحانه، وهذا هو عين الجَهْل، ﴿وَأَكُنْ مِنَ الْبَهِيلِينَ﴾.

١٦ - عدم عمل الإنسان بما يَعْلَم هو جهل، ﴿وَأَكُنْ مِنَ الْبَهِيلِينَ﴾ (*).

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

التعاليم:

١ - دُعاء أولياء الله مستجاب، ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ﴾.

٢ - أحياناً تكون الشَّدائد والمَصاعِب سَبباً لنزول رَحمة الله والنَّجاة، ﴿رَبِّ السَّيِّئِينَ... فَاسْتَجَابَ﴾ (*).

٣ - الطهارة والعَفاف من أهمِّ العوامل المؤثرة في استجابة الدُّعاء، ﴿رَبِّ السَّيِّئِينَ أَحَبُّ... فَاسْتَجَابَ﴾ (*).

٤ - خلوص الدُّعاء لله، أحد العوامل التي تُعَجِّل في استجابته ونزول رَحمة الله، ﴿رَبِّ... فَاسْتَجَابَ﴾ (*).

٥ - لقد استجاب الله بسرعة لدُّعاء يوسف ﷺ عندما سأله أن يَصْرِفَ عنه كَيْد نساء مِصر، (يُشير حرف الفاء في كلمة «فاستجاب» إلى سرعة الاستجابة) (*).

٦ - يَتَصَرَّف العدو أحياناً بشكل يكون في صالح المؤمن. (على الرِّغم من وصول عدو يوسف ﷺ إلى هَدَفه في إلقائه في السجن فإنَّ ذلك كان موجِباً لخلاص يوسف من زليخا وصويحاتها)، ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ (*).

٧ - ليس بالضرورة أن يكون الشخص نبيّاً ليُصبح مَعْصوماً. (فيوسف ﷺ كان مَعْصوماً من المَعاصي قبل أن يُصبح نبيّاً)، ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ (*).

٨ - لا رَبِّبَ فِي أَنْ اسْتَجَابَ الدَّعَاءَ دَلِيلَ عَلَى أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ وَعَلِيمٌ، ﴿فَاسْتَجَابَ... هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

٩ - الشخص الذي يَعُودُ إِلَيْهِ الْآخَرُونَ فِي مَسَائِلِهِمْ، لَا بَدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ سَمِعَهُ جَيِّدًا لَكِي يَسْتَطِيعَ حَلَّ مَشَاكِلِ النَّاسِ وَالْفَصْلُ فِي أُمُورِهِمْ يَعْلَمُهُ، وَهَكَذَا هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عِنْدَمَا يَسْتَجِيبُ لِلدَّعَاءِ، ﴿فَاسْتَجَابَ... هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (*).

﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لِيَسْجُتْنَ، حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (٣٥)

التعاليم:

١ - قِيلَ فِي الْأَمْثَالِ: أَلْقَىٰ مَجْنُونٌ حَجْرًا فِي الْبِثْرِ فَتَعَذَّرَ عَلَىٰ مِئَةِ رَجُلٍ إِخْرَاجَهُ. وَوَقَّعَتْ امْرَأَةٌ فِي حُبِّ رَجُلٍ فَلَمْ يَتِمَّكَنْ رِجَالُ الدَّوْلَةِ بِرَمْتِهِمْ مِنْ دَرِّهِ الْفُضِيحَةِ، ﴿بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا﴾.

٢ - غَالِبًا مَا يَتَمَيَّزُ فُضَاءُ الْقُصُورِ بِالْجُرْأَةِ وَالْوَقَاحَةِ، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لِيَسْجُتْنَ﴾، فَعَلَى الرَّغْمِ مِنَ الْأَدَلَّةِ الدَّامِغَةِ عَلَىٰ عِفَّةِ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَطَهَارَتِهِ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَرَوْا بَدَأَ مِنْ سَجْنِهِ.

٣ - «وَمَنْ الْحُسْنُ مَا قُتِلَ». لَا يَكُونُ الْجَمَالُ سَبَبًا لِلسَّعَادَةِ دَائِمًا فَكَثِيرًا مَا يَجْلِبُ الْمَصَائِبُ وَالْمَشَاكِلُ لِصَاحِبِهِ، ﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ... لِيَسْجُتْنَ﴾.

٤ - غَالِبًا مَا تَكُونُ الْمُحَاكِمَاتُ فِي قُصُورِ الطُّغَاةِ غِيَابِيَّةً وَصُورِيَّةً، وَالْهَدَفُ مِنْهَا إِدَانَةُ الْأَبْرِيَاءِ، ﴿لِيَسْجُتْنَ﴾.

٥ - فِي الْمُجْتَمَعَاتِ الْفَاسِدَةِ، نَرَى الْفَاسِدِينَ أَحْرَارًا بَيْنَمَا يَقِيعُ الْمُتَّقُونَ فِي غِيَابِ السَّجُونِ، ﴿لِيَسْجُتْنَ﴾ (*).

٦ - عَادَةُ مَا لَا يَتَقَبَّلُ الْخَاطِطُونَ - وَلَا سَيِّمًا أَصْحَابُ النُّفُوزِ وَالسُّلْطَانِ - تَحْمِلُ سَوْوَلِيَّةَ أَخْطَائِهِمْ بَلْ يَسْعَوْنَ إِلَى تَقْدِيمِ الْآخَرِينَ كَقَرَابِينَ عَمَّا اقْتَرَفُوهُ، ﴿لِيَسْجُتْنَ﴾ (*).

.. فِي الْأَنْظِمَةِ الدِّيْكَتَاتُورِيَّةِ الْأَبْرِيَاءِ مَظْلُومُونَ أَكْثَرُ مِنْ غَيْرِهِمْ، ﴿لِيَسْجُتْنَ﴾ (*).

- ٨ - ضريبة العقّة والطهارة باهظة جداً، ﴿لَيْسَ جُنَّتُهُ﴾ (*) .
- ٩ - كان هدف أصحاب النفوذ والسلطة في مصر من سجن يوسف ﷺ إبعاد الفضيحة عن بيت العزيز والحدّ من الشائعات، ﴿لَيْسَ جُنَّتُهُ حَتَّى جِئَ﴾ (*) .
- ١٠ - إذا كانت قرارات الهيئة القضائية تنسجم مع أهواء السياسيين وأصحاب النفوذ، فلا نسال عن مُدّة السجن، ﴿حَتَّى جِئَ﴾ (*) .

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَدْتُ أُعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَدْتُ أُحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا نَأْكُلُ الطَّيْرَ مِنْهُ نَبْتُنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣٦)

إشارات:

□ ورد في الأحاديث: أَنَّ السَّبَبَ فِي وَصْفِ الْمَسْجُونِينَ يُوسُفَ ﷺ بِالْمُحْسِنِ يَعُودُ إِلَى أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَهْتَمُّ بِالْمَرْضَى هُنَاكَ وَيُسَاعِدُ الْمُحْتَاجِينَ وَيَفْسَحُ الْمَكَانَ لِلْآخَرِينَ^(١).

التعاليم:

- ١ - واضح أَنَّ السِّجْنَ الذي كان فيه يوسف ﷺ هو سِجْن عام، ﴿مَعَهُ السِّجْنَ﴾ .
- ٢ - ينبغي عدم الاستهانة بالأحلام؛ فقد يشتمل الكثير منها على بعض الأسرار، ﴿أَرْنِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ . (حتى الأفراد العاديون قد يرون أحلاماً مهمّة).
- ٣ - لا شك في أَنَّ الشخص الجدير والمؤهل يُمكنه أن يكون مُفيداً أينما كان، حتى في داخل السِّجْن. فقد كانت ليوسف ﷺ خدمات جلييلة حتى في السِّجْن، ﴿نَبْتُنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ (*) .
- ٤ - بإمكان المُحْسِنين معرفة أمور لا يُدرِكها الآخرون لصفاء قلوبهم وطهارة أفئدتهم، ﴿نَبْتُنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (*) .

(١) تفسير نور الثقلين؛ ميزان الحكمة، باب (سجن).

- ٥ - إذا وثق المرء بأحد أطلعه على أسراره، ﴿إِنَّا نَزَّلَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.
- ٦ - الأفراد المتميزين يُمكنهم التأثير على الآخرين حتى وهم مُحاطون بجدران السجن، ﴿إِنَّا نَزَّلَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.
- ٧ - حتى المُجرمين والمُذنبين يَعترفون بمكانة المُحسنين الراقية، ﴿إِنَّا نَزَّلَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.
- ٨ - لقد كان إحسان يوسف ﷺ إلى مَنْ حوله الخطوة الأولى لجذبهم نحوه والتبليغ عن دينه. (فقد استطاع يوسف ﷺ وبسبب إحسانه مع السَّجناء وخدمته لهم، كسب ودهم ومحبتهم فاستحقَّ بذلك لقب المُحسن عن جدارة) (*).
- ٩ - يُمكن للفرد أن يكون مُحسناً حتى وإن لم يملك المال أو الحرية. (فلم يكن يوسف ﷺ يملك مالاً أو ثروة أو حرية وهو في السجن)، ﴿إِنَّا نَزَّلَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (*).
- ١٠ - لا بدَّ لنا أولاً من إثبات إحساننا، ليتسنى لنا بعد ذلك التبليغ عن ديننا. (فيوسف الذي عُرف بين الناس بالمُحسن قام بالتبليغ وبارشاد أصحابه السجناء ودعوتهم إلى التوحيد قبل أن يقوم بتأويل أحلامهم) (*).
- ١١ - تقديم المعرفة الصحيحة هي من أمثلة الإحسان. (قال السَّجناء: نَبَّأْنَا بِتَأْوِيلِ أَحْلَامِنَا وما تشتمل عليه من أسرار ﴿إِنَّا نَزَّلَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾) (*).
- ﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (٢٧)

إشارات:

□ في ما يَخَصُّ تفسير الجزء الأول من الآية الشريفة، يُحتمَل أن يكون المعنى كالاتي: إني أعلم، بقُدرة الله سبحانه، ما سيأتيكم من طعام؛ إذاً فأنا قادر بإذنه كذلك على أن أفسر أحلامكم. وهذا يعني أنَّ يوسف ﷺ كان يُخبر عن أشياء أخرى إضافة إلى مقدّره في تفسير الأحلام، مثل النبي عيسى ﷺ عندما

كان يُخبر الناس عما يَدَّخرونه من طعام وشراب في منازلهم أو ما يأكلونه أيضاً.

□ سؤال: لماذا لم يَقُمْ يوسف ﷺ بتفسير أحلام مَنْ سألوه على الفور، وأجلَّ ذلك إلى وقت آخر؟

الجواب: ذكر الفخر الرازي أسباباً عدّة لذلك في تفسيره الكبير، منها:

- ١ - أراد يوسف ﷺ بذلك جعلهم ينتظرون لكي يتمكن من التبليغ والإرشاد، ففعل الشخص المحكوم بالإعدام يؤمن قبل إعدامه.
- ٢ - أراد أن تزداد ثقتهم فيه في ما يتعلق بذكر الطعام الذي سيأتيهما.
- ٣ - أراد بذلك ترغيبهم أكثر لكي يُنصتوا إلى حديثه وستمعوا إليه بجدّ.
- ٤ - بما أنّ «الإعدام» كان تأويل حلم أحد المسجونين فإنّه ﷺ أراد أن يهبه بعض الوقت لكي لا يُفاجأ بالخبر المشؤوم.

التعاليم:

- ١ - يتطلّب التأثير بشكل أكبر على الآخرين بيان الشخص بعض قدراته العلمية وكمالاته لهم، ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا بِنَائِكُمَا يَتَأَوِيلُهُ﴾.
- ٢ - يجب علينا مساعدة الآخرين بالاعتماد على ما نعلم، ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ (*).
- ٣ - كل ما نعلم هو من الله سبحانه وفضله، ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾.
- ٤ - لا شك في أنّ أحد أهداف التعليم هو التربية كذلك، ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾.
- ٥ - إنّ الله سبحانه عليم حكيم فهو لا يفتح أيّ باب أمام الإنسان من دون غرض أو سبب مُعيّن. نعم، إنّ مَنْ يهرب من ظُلُمات الكُفر لا بدّ من أن يصل إلى نور العلم، ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾. (السبب في اكتسابي هذا العلم هو تركي الكُفر).
- ٦ - علينا الاستفادة من الفُرص بأفضل السُّبل، ﴿بِنَائِكُمَا يَتَأَوِيلُهُ...﴾. (لقد بدأ يوسف بالاشتغال في الثقافة والعقيدة قبل تأويله الأحلام).

٧ - إِنَّ أَسَاسَ الْإِيمَانِ هُوَ الْبَرَاءَةُ وَالتَّوَلَّى. لَاحِظْ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تُشِيرُ إِلَى الْبَرَاءَةِ مِنَ الْكُفَّارِ ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ﴾، بَيْنَمَا أَشَارَتْ الْآيَةُ التَّالِيَةُ إِلَى الْوَلَايَةِ الْإِلَهِيَّةِ ﴿وَاتَّبَعْتُ﴾.

٨ - يَجِبُ أَنْ لَا نَنْسَبَ الْأَفْرَادَ إِلَى الْإِنْحِرَافِ بِشَكْلِ مُبَاشَرٍ بَلْ أَنْ نَتَّبِعَ أُسْلُوباً غَيْرَ مُبَاشَرٍ فِي التَّبْلِيغِ. (فيوسف لم يَقُلْ: اتْرَكُوا الْكُفْرَ؛ بَلْ قَالَ: أَنَا تَرَكْتُ سَبِيلَ الْكُفْرِ)، ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ﴾ (*).

٩ - فِي الْأَدْيَانِ جَمِيعاً كَانَتِ الْعَقِيدَةُ بِالتَّوْحِيدِ مَوْجُودَةً إِلَى جَانِبِ الْإِيمَانِ بِالْمَعَادِ، ﴿قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا
وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٣٨)

إشارات:

□ لَا شَكَّ فِي أَنَّ أَصَالََةَ الْأُسْرَةِ تُؤَثِّرُ فِي بِنَاءِ شَخْصِيَّةِ الْأَفْرَادِ، وَفِي تَقَبُّلِ النَّاسِ أَيْضاً. وَلِهَذَا، وَلِتَعْرِيفِ نَفْسِهِ، أَشَارَ يَوْسُفُ إِلَى آبَائِهِ بِاعْتِبَارِهِمْ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، قَاصِداً بِذَلِكَ بَيَانَ أَصَالََةِ أُسْرَتِهِ وَطَهَارَةِ مَوْلَدِهِ مِنْ جِهَةٍ، وَقَدَاسَةِ دَعْوَتِهِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، وَهُوَ الْأُسْلُوبُ نَفْسَهُ الَّذِي اتَّبَعَهُ الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ ﷺ؛ إِذْ كَانَ يَقُولُ: أَنَا ذَلِكَ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ الْمَذْكُورُ اسْمُهُ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ. وَهَكَذَا عَرَفَ الْإِمَامَ الْحُسَيْنَ ﷺ فِي كَرْبَلَاءَ أَيْضاً، وَالْإِمَامَ السَّجَّادَ ﷺ أَمَامَ أَهْلِ الشَّامِ عِنْدَمَا قَالَ: «أَنَا ابْنُ قَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ ﷺ» (١).

□ وَرَدَتِ كَلِمَةُ «مِلَّةٌ» فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَهِيَ الدِّينُ، وَهُوَ اسْمٌ لَمَّا شَرَعَ اللَّهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ عَلَى لِسَانِ الْأَنْبِيَاءِ لِيَتَوَصَّلُوا بِهِ إِلَى جِوَارِ اللَّهِ، وَقَدْ وُصِفَ دِينُ إِبْرَاهِيمَ ﷺ - مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ - عَلَى النَّحْوِ التَّالِي:

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾^(١).

التعاليم:

- ١ - الوصول إلى الحق مرهون بمعرفة الباطل وتركه، ﴿تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ...﴾.
- ٢ - يُعتبر (جَدّ) الشخص أحد آبائه، وتُطلق عليه كلمة «أب» أيضاً، ﴿مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾.
- ٣ - لا بدّ من أن يكون الأنبياء من أسر كريمة طاهرة، ﴿آبَائِي إِبْرَاهِيمَ﴾.
- ٤ - لا شك في أنّ هدف الأنبياء جميعاً واحداً، ﴿مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾.
- ٥ - يبدو أنّ يوسف قام بتعريف نسبه لأول مرة في السجن، ﴿آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾^(*).
- ٦ - يجب علينا بيان الطرق الإيجابية إلى جانب إشارتنا إلى الطرق السلبية، ﴿تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ...﴾.
- ٧ - عندما يكون الآباء ممّن ساروا على نهج التوحيد والحق فلا أفضل من الافتخار بهم واتباعهم، ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي﴾^(*).
- ٨ - لم يكن آباء أو أجداد الأنبياء مُشركين، ﴿مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ تُشْرِكَ﴾^(*).
- ٩ - الابتعاد عن الشرك ومحاربهته هو الأساس الذي تركز عليه الأديان الإلهية، ﴿مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ تُشْرِكَ﴾^(*).

١٠ - لا ريب في أنّ الشرك مرفوض بكلّ أشكاله؛ إذ لا بدّ من الإيمان بوحدة الذات الإلهية المقدسة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، وتوجيه العبادة إليه وحده ﴿وَلَا تُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(٢)، إضافة إلى عدم الاعتقاد بمشاركة أحد له سبحانه

(١) سورة الحج: الآية ٧٨.

(٢) سورة الكهف: الآية ١١٠.

في الصفات أو الكمالات ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(١)، والخلاصة، أن يكون التوحيد في الذات والصفات والعبادة معاً، ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾.

١١ - الابتعاد عن الشرك والتمسك بالتوحيد وتعاليم الأنبياء واتباع أوامرهم، إنما هو توفيق إلهي، ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾.

١٢ - لا تُمثل الأثرية معياراً للحق، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

١٣ - مَنْ يُؤَلِّدْ دُبره لسبيل الأنبياء يكفر بنعمة الله سبحانه، ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾.

﴿يَصْصِحِي السَّجْنَ أَرْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾

إشارات:

□ البشر ثلاث فئات: فئة تتقبل التشكل والصياغة كالماء والهواء اللذين ليس لهما شكل محدد؛ بل يأخذان شكل الإناء أو الحيز الذي يشغلانه. وفئة تكون صلبة ومقاومة مثلها مثل الحديد والفولاذ اللذين يصمدان أمام أي ضغط خارجي. أما الفئة الثالثة فهي الأئمة والقادة الذين ليس فقط لا يتغيرون بل يقومون بتغيير الآخرين ومنحهم لوناً خاصاً هو لون الحق. ويُعتبر يوسف من الفئة الثالثة حيث استطاع تحويل شرك السجن إلى توحيد.

□ دأب القرآن الكريم وعبر آيات كثيرة على استخدام أسلوب المُقارنة والسؤال، وفي ما يلي نُشير إلى بعض تلك النماذج المُتعلقة بالله سبحانه:

١ - ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا لِلْخَلْقِ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ﴾^(٢).

٢ - ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾^(٣).

٣ - ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ آبَنِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾^(٤).

٤ - ﴿أَلَمْ اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يَشْكُرُونَ﴾^(٥).

(٤) سورة الأنعام: الآية ١٦٤.

(٥) سورة التمل: الآية ٥٩.

(١) سورة الشورى: الآية ١١.

(٢) سورة يونس: الآية ٣٤.

(٣) السورة نفسها: الآية ٣٥.

التعاليم:

- ١ - يجب مُناداة الأشخاص بأسلوب مفعم بالحب والعاطفة، ﴿يَصْدِحِي﴾.
- ٢ - لكي نتمكن من استنهاض الفطرة وإيقاظها لا بد لنا من المحاولة بمحبة وإحسان، ﴿يَصْدِحِي...﴾ (*) .
- ٣ - الإنسان مسؤول عن أصحابه ورفاقه، ﴿يَصْدِحِي السِّجْن﴾ (*) .
- ٤ - علينا استغلال الأماكن والأوقات الحساسة للتبليغ، ﴿يَصْدِحِي السِّجْنِ أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ...﴾. (لما أحسن يوسف بحاجة المسجونين إلى تأويله أحلامهم، استغل الفرصة وبدأ بالتبليغ والدعوة).
- ٥ - يُعتبر أسلوب السؤال والمقارنة واحداً من أساليب الإرشاد والهداية، ﴿يَصْدِحِي السِّجْنِ أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ...﴾.
- ٦ - عقيدة التوحيد هي أساس الإيمان. (ابتدأ يوسف دعوته بالتوحيد أولاً)، ﴿أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ...﴾ (*) .
- ٧ - لا ريب في أن تعدد الآلهة هو عامل من عوامل الفرقة والتشتت، أما الإله الواحد فهو سبب الوحدة، ﴿أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ...﴾ (*) .
- ٨ - الإنسان بفطرته ينفر من الفرقة والتشتت، وقد استغل يوسف الفطرة الإنسانية لإثبات التوحيد، ﴿أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ﴾.
- ٩ - الوحدة والتوحيد هما أساس القدرة والغلبة، ﴿الْوَحْدُ الْقَهْرُ﴾ (*) .

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ
مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ
ذَلِكَ الَّذِي أَلْقَيْتُمْ وَلَكِنَّ النَّاسَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

التعاليم:

- ١ - كل إله غير الله سبحانه إنما هو زيف وباطل بل هو من نسج خيال المشركين

وَأَبَائِهِمْ، ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَبَّحْتُمُوهَا أُنْثَىٰ وَهَبْنَا لَكُمْ﴾.

٢ - إِنَّ كثيراً من السُّلطات والمؤسسات والدوائر والمؤتمرات والمُعاهدات واللقاءات وأشكال الحماية والإدانة، وكثيراً من العناوين والألقاب ما هي إِلَّا أسماء من دون مُسمّيات، وما هي إِلَّا أوثان وأصنام عصرية نراها في الوقت الحاضر، وقد اتبعتها الناس من دون الله سبحانه، ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَبَّحْتُمُوهَا﴾.

٣ - ليست الأسبقية ولا الأقدمية دليلاً على الحقيقة، فالشرك قديم إِلَّا أَنْ ذَلِكَ ليس دليلاً على حقيقته، ﴿سَبَّحْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَهَبْنَا لَكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ (*).

٤ - لا بدّ من استناد العقائد إلى الدليل والبرهان العقليّ أو النقليّ، ﴿وَمِنْ سُلْطَانٍ﴾.

٥ - يجب ألا نطأطئ رؤوسنا إِلَّا لأوامر الله، فهو وحده له حق إصدار الأوامر، ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾.

٦ - العبادة الخالصة (التوحيدية) هي الصراط المستقيم والثابت، ﴿إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَتِمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (*).

٧ - أيّ قانون أو شريعة غير شريعة الله هي واهية، ﴿ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَتِمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٨ - لا ينبغي الركون إِلَّا إلى العقيدة الحقّة والثابتة؛ لأنّ الاستناد إلى أيّ عقيدة تفتقد البرهان رهان خاسر، ﴿ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَتِمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (*).

٩ - يجهل معظم الناس ثبات دين الله سبحانه ﴿ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَتِمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (إمّا أن يكونوا جهلاء من النوع البسيط الذي يعلم بجهالته أو أن يكون جهلهم مُركّباً إذ ظنّوا أنّهم يعلمون مع أنّهم في الحقيقة لا يعلمون شيئاً).

١٠ - الجهل أرض خصبة لنمو الشرك، ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿يَصْنَجِي السِّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ
فَتَأْكُلُ الطَّلِيذُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ ﴿٤١﴾

إشارات:

□ تطلق كلمة «رَبِّ» على الحاكم والمالك والسيد وصاحب الأمر، كقولك «رَبِّ الدَّارِ»، فجملة ﴿يَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾ معناها أَنَّهُ سَيَسْقِي سَيِّدَهُ خَمْرًا.

التعاليم:

- ١ - علينا مُراعاة كرامة الآخرين ومُناداتهم بأدب وإن لم يكونوا يُؤمنون بما نُؤمن، ﴿يَصْنَجِي﴾.
- ٢ - لا بدّ من مُراعاة الترتيب عند تلبية حاجات المُراجعين، ﴿أَمَّا أَحَدُكُمَا﴾. (فالتأويل الأوّل يتعلّق بالشخص الذي ذكر حُلمه أولاً).
- ٣ - لبعض الأحلام تأويلات مهمة وإن جاءت في منام شخص مشرك، ﴿يَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾.
- ٤ - حاولوا ذكر الأخبار السارة أولاً، ﴿أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي... وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ﴾ (*).
- ٥ - بإمكان مُفسّر الأحلام تأويل الرؤيا وإن كانت رؤيا شؤم، ﴿يُصَلِّبُ﴾ معناها يُقتل صلباً).
- ٦ - التأويل الذي ذكره يوسف لم يكن نبوءة أو حَدساً بل هو خَبر حتمي، ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ﴾.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ
فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجَنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ ﴿٤٢﴾

إشارات:

□ «الظَّنَّ» اسم لما يحصل عن أَمارة، ومتى قويت أدت إلى العلم، ففي الآية

الشريفة السابقة يُخبر يوسف بصراحة ويقين عن تحرير أحد السّجينين وإعدام الآخر، فالظنّ هنا لا يفيد الاعتقاد بالحرية المقترن بالشك أو التردد.

□ «البضع» ما بين الثلاث إلى التسع، وأشار أغلب المُفسّرين إلى بقاء يوسف في السّجن مدّة سبع سنوات، (والله أعلم).

□ ورد في بعض التفاسير معنى ﴿فَأَنسَنُ السَّيْطَانَ﴾ أنّ الشيطان أنسى يوسف ذكر ربّه طالباً العون من ساقى الملك بدلاً من الله، وما ذلك بالنسبة إلى يوسف إلّا بمعنى ترك الأولى لذلك مكث في السجن كلّ تلك السنوات. وأمّا صاحب الميزان فقال: لا شكّ في أنّ مثل تلك الروايات تُخالف القرآن الكريم؛ لأنّ القرآن نفسه ذكر في الآية الشريفة (٢٤) من هذه السورة أنّ يوسف هو أحد المُخلّصين ونحن نعلم أنّ الشيطان لا سلطان له على المُخلّصين وفقاً لآيات أخرى في القرآن.

إضافة إلى ذلك فقد ورد في الآية ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾، ما يدلّ على أنّ بقاء يوسف في السجن كان بسبب نسيان الساقى وليس يوسف.

التعاليم:

١ - الأنبياء أيضاً يحلّون مشاكلهم بالطرق المعتادة، وذلك لا يتنافى مع التوحيد والتوكّل على الله سبحانه، ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾، (يذكر يوسف عزيز مصر بالظلم والحيف اللذين لحقا به).

٢ - ليس كلّ طلب يعني الرّشوة، ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾، فلم يطلب يوسف أجراً أو رشوة على تأويله للحلم، بل قال: أرجو أن توصّل شكايّتي إلى الملك.

٣ - لإثبات البراءة والنّزاهة، يُمكن الاستعانة بأيّ وسيلة مشروعة لإيصال الشكوى إلى أسماع المسؤولين، ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ (*).

٤ - لا شكّ في أنّ عيشة القصور والرّفاهية تُنسي كلّ شيء، بما في ذلك الألم والمُعاناة التي يعيشها البؤساء والمظلومون، ﴿نَاجٍ... فَأَنسَنُ السَّيْطَانَ ذِكْرَ

رَبِّهِ، فعادة ما ينسى بعض الأشخاص أصدقاءهم وأصحابهم القدامى بل والكثير من تفاصيل الماضي بمُجرّد خلاصهم من المشاكل والصعوبات ووصولهم إلى شاطئ الراحة والأمان والمناصب العالية والرّفاهية التي كانوا يحلمون بها.

٥ - لقد كان خروج يوسف من السجن وإزالة التّهم عنه يتعارض مع أهداف الشيطان، لذلك قام اللعين بجعل السّاقى ينسى ما أوصى به، ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ﴾.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ
وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضِرٍ وَأُخْرَى يَأْسَنُ يَأْتِيهَا أَلَمْلَأُ أَفْتُونٍ
فِي رُءُوسِهِ إِنْ كُنْتُ لِالرَّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾

إشارات:

□ لقد ذُكرت في هذه السورة المباركة حتى الآن بعض الأحلام، منها حلم يوسف نفسه ثم حلم صاحبه في السجن، وأخيراً حلم الملك. لقد تسبّب الحلم الأوّل (الذي رآه يوسف) بمتاعب له كما رأينا، أمّا أحلام الآخرين فكانت سبباً لعزّته.

ورود في التوراة ما يلي: «وَبَعْدَ انْقِضَاءِ سِتِّينَ رَأَى فِرْعَوْنُ حُلُمًا، وَإِذَا بِهِ وَاِقْفَ بِجُورٍ نَهْرٍ النَّيْلِ، وَإِذَا بِسَبْعِ بَقَرَاتٍ حَسَنَاتٍ الْمُنْظَرِ وَسَمِينَاتٍ الْأَبْدَانِ، صَاعِدَاتٍ مِنَ النَّهْرِ أَخَذَتْ تَرْعَى فِي الْمَرْجِ. ثُمَّ إِذَا بِسَبْعِ بَقَرَاتٍ أُخْرَى قَبِيحَاتِ الْمُنْظَرِ وَهَزِيلَاتٍ تَضَعُ وَرَاءَهَا مِنَ النَّهْرِ وَتَقِفُ إِلَى جُورِ الْبَقَرَاتِ الْأُولَى عَلَى ضَفَةِ النَّهْرِ. وَالتَّهَمَتِ الْبَقَرَاتُ الْقَبِيحَاتُ الْبَقَرَاتِ السَّبْعِ الْحَسَنَاتِ الْمُنْظَرِ وَالسَّمِينَاتِ. وَأَفَاقَ فِرْعَوْنُ. ثُمَّ نَامَ، فَحَلَمَ ثَانِيَةً، وَإِذَا بِسَبْعِ سَنَابِلِ نَابِتَةٍ مِنْ سَاقِ وَاحِدَةٍ زَاهِيَةٍ وَمُمْتَلِئَةٍ. ثُمَّ رَأَى سَبْعَ سَنَابِلٍ عَجَفَاءَ قَدْ لَفَحَتْهَا الرِّيحُ الشَّرْقِيَّةُ نَابِتَةً وَرَاءَهَا. فَأَبْتَلَعَتِ السَّنَابِلُ الْعَجَفَاءُ السَّبْعِ السَّنَابِلَ الزَّاهِيَةَ الْمُمْتَلِئَةَ»^(١).

□ وجاء في الروايات أنَّ الأحلام ثلاثة أنواع: النوع الأول قد يكون بشارة إلهية، والنوع الثاني سببه الشيطان والهدف منه إلقاء الرعب والخوف، أما النوع الثالث فقد تكون أضغاث أحلام كما يقولون^(١).

التعاليم:

- ١ - لقد خلّص الله سبحانه شعباً بأكمله من الجوع والقحط عن طريق الحلم الذي رآه الملك الظالم (لكن شرط أن يكون المؤول لذلك الحلم هو يوسف لا غيره)، ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ﴾.
- ٢ - كان ملك مصر قد رأى الحلم المخيف المذكور مرّات عدّة، ﴿أَرَىٰ﴾؛ (الفعل المضارع يُفيد التكرار).
- ٣ - يبدو أنَّ رؤية الحيوانات والأشياء في الأحلام ترمز إلى أحداث شخصيّة، (كأن تدلّ رؤية بقرة هزيلة مثلاً على القحط والجفاف بينما تدلّ البقرة السمينّة على الوفرة والخير)، ﴿سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾^(*).
- ٤ - لاحظ أنَّ المسؤولين وأصحاب النفوذ يشعرون بالخوف والخطر عند رؤية شيء غير اعتيادي، ويرجع خوفهم إلى خشيتهم احتمال سلب الجاه والسلطة منهم، ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ... أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُ لِلرُّؤْيَا نَبِيرٌ﴾.
- ٥ - لا شك في أنَّ الحكام أيضاً بحاجة إلى مشورة الخبراء في مختلف أمور البلاد وشؤونها، ﴿يَتَأْتِيَهَا الْمَلَأُ أَفْتُونًا فِي رُؤْيَايَ﴾^(*).
- ٦ - لا بدّ من الرجوع إلى أهل الخبرة لتأويل الحلم وليس أيّاً كان ﴿أَفْتُونِي...﴾.

﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾

إشارات:

□ «أضغاث» جمع «ضِغْث» بمعنى المُختَلَط وقبضة حشيش يختلط فيها الرطب باليابس.

و«الأحلام» جمع «حُلْم» ما يراه النائم في منامه من رؤيا مُشْتَتَةٍ. و«أضغاث أحلام» هي الأحلام المُختلطة المُلتبسة لا يُمكن للمُعَبِّر أن يؤولها لاختلاطها.

التعاليم:

١ - لا ينبغي خلق الأعذار لتبرير جهلنا وعدم معرفتنا. (بما أن الملام من حول الملك كانوا عاجزين عن تعبير رؤيا الملك، فإنهم قالوا مُبررين جهلهم بذلك: إنما هي أضغاث أحلام؛ بدلاً من أن يعترفوا بجهلهم عن التعبير)، ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾.

٢ - ما أكثر الأحلام التي تبدو أضغاثاً لكن يُمكن تفسيرها، ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ...﴾ (*) .

٣ - يا باري القوس برياً ليس يصلحه، لا تظلم القوس أعط القوس باريها. (فالخبير بالأحلام يُمكنه تعبيرها لكنّ الجاهل يتعلّل بقوله أضغاث أحلام لا يُمكن تفسيرها)، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِمَالِينَ﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنْتَشِكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ (١٥)

إشارات:

□ «الأمة» كل جماعة يجمعهم أمر ما؛ لكنها هنا تُشير إلى اجتماع الأيام والسنين^(١).

التعاليم:

١ - لا شك في أن تأثير الإحسان وعمل الخير سيظهر حتماً ولو بعد حين. تذكر ساقى البلاط الذي كان مسجوناً مع يوسف، أن الأخير يستطيع تعبير الأحلام، ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنْتَشِكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾.

- ٢ - قبيح أن نتذكر الأصدقاء عند الحاجة فقط. (فلم يتذكر الملاً يوسف إلا بعد أن احتاجوا إلى مَنْ يُفسّر لهم الحُلُم)، ﴿وَأَذْكُرْ بَعْدَ أُمَّتِي﴾ (*).
- ٣ - ينسى الإنسان عادة ماضيه بعد تبوئه منصباً رفيعاً أو منزلة مرموقة، ﴿وَأَذْكُرْ بَعْدَ أُمَّتِي﴾ (*).
- ٤ - مَنْ يَهْدِي الْآخِرِينَ إِلَى فِعْلٍ مَا، كان شريكاً في ذلك الفعل، ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَّا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّتِي أَنَا أُنَيْتُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾.
- ٥ - لقد كان صاحب يوسف عليه السلام في السّجن واثقاً من خبرة يوسف ومقدرته بحيث قطع للملك وعداً بتأويل حُلُمه حتماً، ﴿أَنَا أُنَيْتُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ (*).
- ٦ - لا بدّ لنا من تعريف الناس بالعلماء والخبراء لكي يستفيدوا من خبرتهم، ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾.
- ٧ - ثمة الكثير من العلماء والخبراء المرموقين، فلا يحقّ أن نتجاهلهم، ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾.
- ٨ - يجب علينا الاهتمام بالأساتذة وأن نذهب إليهم لا أن يأتونا، ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ (*).

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ

سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُبُلُكٍ خُضِرٍ وَأَخْرَ يَابَسَتِ

لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾

إشارات:

□ «الصِّدِّيقُ» من كثر منه الصدق، وقيل: بل يقال لمن لا يكذب قط، وقيل: بل لمن لا يتأتى منه الكذب لاعتياده الصدق، فصاحب يوسف الذي عرف وخبر سلوك يوسف وقوله طيلة حبسه، لا سيّما بعد أن رأى بعينه صدق تعبيره لحُلُمه وحُلُم زميله الآخر، كلّ ذلك دَعَاهُ إلى مُناداة يوسف بالصِّدِّيق .

□ لقد دعا الله سبحانه إبراهيم عليه السلام بالصديق ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا﴾^(١)، وسمّاه بالخليل أيضاً ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾^(٢)، ودعا مريم كذلك بالصديقة ﴿وَأُتِمَّتْ صِدِّيقَتُهَا﴾^(٣) والصفية ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾^(٤)، وسمّى يوسف كذلك بالصديق ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾^(٥) ومنحه المكنة والقدرة ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾^(٦)، ودعا إدريس صديقاً أيضاً ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا﴾^(٧) ووهبه مقاماً عالياً ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾^(٨) وكذلك الذين ليسوا في تلك المنزلة لكنهم مع الصديقين ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ﴾^(٩).

□ و«الصديق» لقب أطلقه الرسول ﷺ على الإمام علي عليه السلام^(١٠).

□ يُحْتَمَلُ أن يكون معنى الآية ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ هو أن يدرك الناس قدر يوسف وقيمة وجوده بينهم؛ أي، لعلّي أرجع إلى الناس فيعلموا أيّ جوهرة ثمينة أنت.

التعاليم:

- ١ - لا بدّ من التذكير بمحامد خصال الشخص قبل تقديم الطلب، ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾.
- ٢ - يجب طرح أسئلتنا ومشاكلنا على ذوي الخبرة والصديقين والأبرار، ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا﴾.
- ٣ - لا شك في أنّ الدول والحكومات بحاجة إلى آراء العلماء والتخبة، ﴿أَفْتِنَا﴾^(*).

(١) سورة مريم: الآية ٤١.

(٢) سورة النساء: الآية ١٢٥.

(٣) سورة المائدة: الآية ٧٥.

(٤) سورة آل عمران: الآية ٤٢.

(٥) سورة يوسف: الآية ٤٦.

(٦) السورة نفسها: الآية ٥٦.

(٧) سورة مريم: الآية ٥٦.

(٨) السورة نفسها: الآية ٥٧.

(٩) سورة النساء: الآية ٦٩.

(١٠) تفسير أطيب البيان، والتفسير الكبير، ذيل الآية: ٢٨ من سورة غافر.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ
فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ (٤٧)

إشارات:

□ دون أن يعتب يوسف ﷺ على صاحبه بسبب نسيانه كل تلك الفترة، قام بتأويل حلم الملك من دون قيد أو شرط، أجاب يوسف وأخبر بتأويل الحلم لأن كتمان العلم والبخل به لا سيما عندما يكون المجتمع بأكمله بحاجة إليه لا يتفق ومنزلة الإنسان الطاهر والمُحْسِن.

□ وبدلاً من أن يقوم بتأويل الحلم، عرض يوسف سبيل مواجهة القحط والجفاف من خلال برنامج واضح ليُبَيِّن للملأ أنه بالإضافة إلى قدرته على تأويل الأحلام، فإنه بإمكانه تقديم البرامج والخطط المتكاملة.

التعاليم:

- ١ - يجب علينا عرض برامجنا البتاء دون مئة أو مقابل، ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ﴾ (*).
- ٢ - لا بدّ من التغاضي عن المشاكل الشخصية عندما يتعلق الأمر بنجاة مُجْتَمَع كامل. (فيوسف لم يتحدّث عن موضوع سجنه باعتبارها مُشكلة شخصية، وفضّل أن يُفكّر لإيجاد حل لمشكلة الناس جميعاً)، ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ﴾ (*).
- ٣ - تُعتبر إدارة الأزمات والمُجْتَمَع في الظروف العصيبة والصعبة من أهمّ واجبات الحكومة، ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ﴾ (*).
- ٤ - لا بدّ للحكومات من التنبؤ بحالات القحط وظروف الجفاف، وتقليص ضغوط المشكلات باستغلال أيام الرخاء، ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ﴾ (*).
- ٥ - لا بدّ من الاستفادة القصوى من الطاقات كلّها في الظروف الملائمة، ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ﴾ (*).
- ٦ - لا بدّ من زيادة الطاقة الإنتاجية والعمل في أوقات الأزمات، ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ﴾ (*).

- ٧ - يَجِب على أولياء الله تركيز اهتمامهم على رفاهية الناس وسعادتهم، ووضع برامج طويلة وقصيرة الأمد، ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ﴾.
- ٨ - لا شك في أن الوقت يُمثل عاملاً مُهمّاً للغاية في البرمجة والإدارة، ﴿سَبْعَ سِنِينَ﴾.
- ٩ - لا يكفي وصف الوضع القائم، بل لا بدّ من تقديم برامج مؤثرة، ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا...﴾ (*).
- ١٠ - تُعتبر عملية البرمجة ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ﴾ والاقتصاد والتخزين ﴿فَذَرُوهُ...﴾ إلّا قليلاً ضرورة مُهمّة، (هذا في حين أنّ معظم المجتمعات لا يهتمها إلّا الاستهلاك) (*).
- ١١ - تُعتبر سيطرة الحكومة ورقابتها للعملية الانتاجية والتوزيع في الظروف الاستثنائية أمراً ضرورياً، ﴿تَزْرَعُونَ... فَذَرُوهُ﴾.
- ١٢ - لا شك في أنّ إبقاء الحنطة في سنابلها أدوم وأفضل، ﴿فَذَرُوهُ فِي سُبُلِهِ﴾.
- ١٣ - بإمكان الناس بوسيلة البرمجة والتخطيط الاستعداد لمواجهة الكوارث الطبيعية كالجفاف والقحط والزلازل، ﴿فَذَرُوهُ فِي سُبُلِهِ﴾.
- ١٤ - لا تتنافى البرمجة والنظر في العواقب مع التوكّل على الله سبحانه أو التسليم لأمره ﴿فَذَرُوهُ فِي سُبُلِهِ﴾، (لا بدّ لنا من مواجهة القدر بالتدبير).
- ١٥ - لا بدّ من أن تكون الخطط والبرامج قابلة للتنفيذ ﴿فَذَرُوهُ فِي سُبُلِهِ﴾، (لا شك في أنّ أفضل تقنية كانت موجودة في ذلك الزمان حيث لا تكنولوجيا متقدمة، تتمثل في ترك الحنطة في سنابلها).
- ١٦ - ربّ ضارة نافعة؛ فالجفاف الذي أصاب مصر لم يكن إلّا تمهيداً ومقدمة لارتقاء يوسف سلّم المجد والحكم، إضافة إلى تعرّف المصريين على أسلوب التقشف والعمل الدؤوب، ﴿تَزْرَعُونَ... فَذَرُوهُ... إلّا قليلاً﴾.
- ١٧ - من الضروريّ أن تُعتمد قيادة البلد إلى وضع البرامج الطويلة الأمد لمواجهة المشاكل الاقتصادية التي قد تُصيب المجتمع، ﴿تَزْرَعُونَ... فَذَرُوهُ... إلّا قليلاً﴾.

١٨ - ما نوفره اليوم سيكون ذخراً لنا غداً، وما نبذره اليوم سيؤدي إلى مَدِّ يدنا إلى الآخرين في المستقبل، ﴿فَلْيَلَا مِمَّا نَأْكُلُونَ﴾.

١٩ - قد تحمل أحلام الكافرين كذلك بيانات ومؤشرات مُعَيَّنَة للوقائع والحقائق وتشتمل على تعليمات للحفاظ على المجتمع، ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سَبُلِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ﴾ (٤٧).

٢٠ - لا بد لنا من بذل الجهود اليوم لضمان غد أفضل، ﴿تَزْرَعُونَ... ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ (*).

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ﴾ (٤٨)
 ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ﴾ (٤٩)

إشارات:

□ جملة «يُغَاثُ النَّاسُ» إما أن تكون من «الْعَوْث» ومعناها أن الله سبحانه سيغيث الناس، أو هي من «الغَيْث» بمعنى أنه سيكون هناك أمطار وفيرة لتكون خاتمة الأحداث المُرَّة^(١).

□ أول يوسف عليه السلام البقرات السَّبع العجاف والسَّمان والسنابل الخُضر واليابسات بالسنين الأربع عشرة من القحط والتَّعَمَّة، وأمَّا السنة الخامسة عشرة - وهي سنة هطول الأمطار ووفور الخير والتَّعَمَّة والتي لم تأت في حُلُم المَلِك - فهي إخبار من يوسف عليه السلام بالغيب أعلمه به الله سبحانه لكي تهياً الأرضية المناسبة للدعوة إلى نبوته، ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ...﴾.

□ من شروط الإدارة المُتميِّزة والفعالة في المجتمع:

- ١ - ثقة الناس: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.
- ٢ - الصُّدُق في القول والعمل: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾.

- ٣ - العلم والدراية: ﴿عَلَّمَنِي رَبِّي﴾.
 ٤ - التقدير الصحيح: ﴿فَدَّرُوهُ فِي سُبُلِهِ﴾.
 ٥ - قبول الناس وطاعتهم، وذلك لأنَّ الناس وافقوا على برنامج يوسف عليه السلام.

التعاليم:

- ١ - لا بدَّ لنا من تنبيه الناس وتحذيرهم من المشاكل والمخاطر المستقبلية لكي يستعدوا لمواجهةها، ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ (*).
 ٢ - الادِّخار والبرمجة لمواجهة الأيام الصعبة هي وسائل ناجعة ومهمّة، ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ﴾.
 ٣ - النَّظَرُ في العواقب واستشراف المستقبل والبرمجة الصحيحة سبيل مضمون لإنقاذ الشعب من المهالك والأزمات، ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ﴾ (*).
 ٤ - حاول ادِّخار مقدار مُعَيَّن من البذور والذخيرة عند الاستهلاك، (وجُمْلَةٌ مِمَّا تُحْصِنُونَ) تعني الادِّخار في الحصون والأماكن الآمنة).
 ٥ - لا بدَّ من المحافظة على الأسس والذخائر الأصلية في الظروف الصعبة، ﴿مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ (*).
 ٦ - يجب علينا تعلُّم أساليب المحافظة والصيانة وتحويل المواد الغذائية للحفاظ عليها من التلف، ﴿مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ (*).
 ٧ - إنَّ بَعْدَ الْعُسْرِ يُسْرًا، ﴿ثُمَّ يَأْتِي... عَامٌ فِيهِ يَغَاثُ النَّاسُ﴾ (*).
 ٨ - يتوجَّب علينا بَعَثُ روح الأمل بالمستقبل في الناس حتى يتمكنوا من تحمُّل الشدائد والمصاعب، ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يَغَاثُ النَّاسُ﴾ (*).
 ٩ - النشرات الجوية الخاصة بدرجة الحرارة وكمية الأمطار من الأساليب المفيدة أيضاً في البرامج الزراعية، ﴿يَأْتِي... عَامٌ فِيهِ يَغَاثُ﴾ (*).
 ١٠ - يُمكن أن تُنبئنا الأحلام باحتمال وقوع أحداث مُعَيَّنة وقد تكون رموزاً لحلِّ مشاكل الإنسان، ﴿يَغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾.

١١ - لنحاول دائماً إزالة مشاكل الناس من دون النظر إلى البلد أو المنطقة،
(فالبرنامج الذي وضعه يوسف ﷺ لم يكن خاصاً بوطنه الأم).

١٢ - لا شك في أن العلم والمعرفة هما رمز التقدم وبقاء الدول والعامل الأساس
في منح الأمن والرفاهية للمجتمع. (وما البرنامج الذي وضعه يوسف ﷺ
لمحاربة القحط ومواجهة الجفاف إلا دليلاً على علمه وذكائه) (*).

﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاسِئٌ مِنْ رَبِّهِ فَلَِمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسَلِّهُ
مَا بَالُ الْيَسَوَىٰ الَّتِي طَعَنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾

إشارات:

□ لقد أثبت يوسف ﷺ من خلال تأويله حلم الملك ووضع برنامج دقيق ومنظم
من دون أن يشترط شرطاً أو يطلب عوضاً، أثبت أنه ليس مجرماً أو سجيناً
عادياً، بل هو شخص متميز وعالم.

□ عندما جاء مبعوث الملك إلى يوسف ﷺ فإنه لم يهتم بأمر تحريره من السجن
بل طالب بالتحقيق بملف القضية السابقة؛ لأنه لم يرغب في أن يشمل العفو
الملكي بقدر ما كان مهتماً بإثبات براءته وطهارته، وإفهام الملك عما كان
يحدث في النظام السابق من فساد وظلم.

□ ولعل يوسف ﷺ لم يصرح باسم زوجة عزيز مصر احتراماً له، واكتفى
بالإشارة إلى الجلسة النسائية التي أقيمت آنذاك، ﴿الْيَسَوَىٰ الَّتِي طَعَنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾.

□ وعن رسول الله ﷺ في رواية لعجب فيها لصبر يوسف عندما احتاج إليه عزيز
مصر إذ لم يشترط إخراجه من السجن مقابل التأويل، ولما أوردوا إخراجه من
السجن لم يخرج منه حتى رفعت عنه التهمة^(١).

(١) أطيب البيان في تفسير القرآن، ج٧، ص ٢١٠.

التعاليم:

- ١ - يجب على الدولة أن تقوم بتحرير العقول الخلاقة من السّجن ما لم يرتكب أصحابها جنائية، ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْنِي يَدٌ﴾.
- ٢ - لا يجوز تأخير الانتفاع من العقول النيرة (لا سيما في الظروف الاستثنائية)، ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْنِي يَدٌ﴾ (*).
- ٣ - لا شك في أنّ الحُكّام بحاجة إلى العلماء والمُفكرين الكبار، ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْنِي يَدٌ﴾ (*).
- ٤ - أراد الله تعالى جعل حاجة المَلِك عند عبد سجين، ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْنِي يَدٌ﴾ (*).
- ٥ - واضح أنّ يوسف ﷺ لم يعترف بسلطان المَلِك عليه، ﴿أَرْجِعْ إِلَيَّ رَبِّكَ﴾ (*).
- ٦ - لا بدّ للغلمان والعاملين لدى القادة والحُكّام من احترام قاداتهم وحُكّامهم وإن كانوا كافرين، ﴿أَرْجِعْ إِلَيَّ رَبِّكَ﴾ (*).
- ٧ - الحرية بأيّ ثمن لا تُساوي شيئاً، فإثبات البراءة أهمّ منها بكثير، ﴿أَرْجِعْ إِلَيَّ رَبِّكَ فَسْأَلُهُ﴾.
- ٨ - السّجين الذي يُطالب بالتحقيق في قضيتته قبل تحريره من السّجن، لا ريب أبداً في أنّه بريء، ﴿فَسْأَلُهُ﴾.
- ٩ - بدأ يوسف ﷺ أولاً بتطهير أذهان الناس، وبعد ذلك قبل بالمسؤوليّة التي أنيطت به، ﴿مَا بَالُ الْيَسْوَ﴾.
- ١٠ - واجب على كلّ شخص الدفاع عن سُمعته وكرامته، ﴿مَا بَالُ الْيَسْوَ﴾.
- ١١ - أحياناً يكون الاحتكام إلى الحُكّام الكفرة أمراً جائزاً، ﴿فَسْأَلُهُ مَا بَالُ الْيَسْوَ...﴾ (*).
- ١٢ - في الظروف الحسّاسة (كالتي مرّ بها يوسف ﷺ مع المَلِك)، لا ينبغي إخفاء الحقائق التي تمسّ سُمعة الآخرين، ﴿مَا بَالُ الْيَسْوَ...﴾ (*).

١٣ - لعل قول يوسف عليه السلام: ﴿فَطَعَنَ أَيْدِيَهُ﴾ يرجع إلى كون تلك الحادثة كان لها بُعد عام غير قابل للإنكار، ﴿مَا بَالُ الْيَسَوَى الَّذِي فَطَعَنَ أَيْدِيَهُ﴾ (*).

١٤ - لقد كان لجميع النسوة آنذاك دور في مؤامرة سجن يوسف عليه السلام، ﴿كَيْدَهُنَّ﴾.

١٥ - لا بأس من ذكر الذنوب والمسائل الأخلاقية بالرمز من دون التصريح، ﴿إِنَّ رَبِّي يَكِيدُهَا عَلَيْهِمْ﴾ (*).

١٦ - على الرغم من أن كيد العدو كان لا يُستهان به فإن الله سبحانه عليه بالكيد كله وكفيل بتخليص أوليائه منه، ﴿إِنَّ رَبِّي يَكِيدُهَا عَلَيْهِمْ﴾ (*).

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْقَنْ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُذِلِّينَ ﴿٥١﴾﴾

إشارات:

□ «الخطب» الدعوة لأمر عظيم وخطير، و«الخطيب» هو من يدعو الناس لهدف عظيم. و«حَصْحَصَ الْحَقُّ» بَانَ عن الباطل بعد كتمانها^(١).

□ لقد تحققت في هذه الواقعة سنة من سنن الله سبحانه والتي أدت إلى حل المشاكل كلها بسبب التقوى الحققة، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾^(٢).

التعاليم:

١ - عندما تعمى مجموعة وتغض النظر عن أمر ما، يُصبح لازماً على الشخصية الأولى في البلاد بحث ذلك الأمر بنفسه وتشكيل محكمة تحت إشرافه، ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمْ﴾.

- ٢ - لا بدّ من استدعاء المُتّهمين للدّفاع عن أنفسهم ﴿مَا خَطْبُكَ﴾، وواضح أنّ (زليخا) كانت حاضرة شخصياً في ذلك المجلس، ﴿قَالَتْ أَمَرْتُ الْعَزِيزَ﴾.
- ٣ - لا شكّ في أنّ الأوقات العصيبة لا تدوم ولا بدّ من أن تعقبها لحظات سعيدة، فبعد كلّ تلك التّهم بأنّ يوسف أراد السوء بامرأة العزيز ﴿أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾، أقرّ الجميع واعترف أنّه لم يصدر عنه أيّ سوء تجاه أحد ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾.
- ٤ - لم تعترف النسوة في مصر على أنّ يوسف لم يكن مُخطئاً ولا مُذنّباً فحسب، بل أزالوا عنه أيّ نوع من أنواع الانحراف أو السوء بالكامل، ﴿مِنْ سُوءٍ﴾ (*).
- ٥ - الحقّ أبلجّ والباطل لجلجّ وما ضاع حقّ وراءه مُطالب، ﴿الَّذِينَ خَصَّصَ الْحَقَّ﴾.
- ٦ - لاحظ أنّ بيان الحقائق في بعض القضايا يحتاج إلى شيء من الوقت، ﴿الَّذِينَ خَصَّصَ الْحَقَّ﴾ (*).
- ٧ - لا بدّ للضّمان من أن تصحو ذات يوم وتعرّف بالحقّ، ﴿أَنَا رَوَدْتُهُ﴾ كما هي الحال عندما يزداد ضغط الشعب ويُجبر الطغاة على الاعتراف بالحقّ. (فعندما رأت امرأة العزيز بأنّ عينها اعتراف جميع النسوة بطهارة يوسف ﷺ وعفته، لم تجد بداً من الاستسلام والهزيمة).
- ٨ - أراد العزيز إخفاء قضية مراودة زوجته (زليخا) يوسف ﷺ لكنّ الله سبحانه كشف ذلك الأمر للعالمين وإلى الأبد لتثبت براءة يوسف ﷺ وطهارته، ﴿قَالَتْ... أَنَا رَوَدْتُهُ﴾ (*).
- ٩ - عندما يشاء الله جلّ وعلا فإنّه يجعل من العدو نفسه سبباً للنّجاة ورفعاً للتّهم، ﴿إِنَّهُمْ لِمِنَ الصّٰدِقِیۡنَ﴾ (*).

﴿ذٰلِكَ لِيَعْلَمَ اَنۡیۡ لَمۡ اُخۡنَہٗ بِالۡغَیۡبِ وَاَنَّ اللّٰهَ لَا یَهۡدِیۡ الْخٰلِیۡطِیۡنَ ﴿٥٢﴾﴾

التعاليم:

- ١ - لا يفكر الكريم بالانتقام بل باستعادة كرامته والكشف عن الحقيقة ﴿ذٰلِكَ لِيَعْلَمَ﴾.

- ٢ - لنبعد الظن السيء عن أذهاننا، ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ﴾.
- ٣ - الكيد بالزوجة، خيانة لزوجها، ﴿لَمْ أَخُنْهُ﴾.
- ٤ - الخيانة في السرّ والخفاء، علامة على الإيمان الحقيقي، ﴿لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾.
- ٥ - عدم الخيانة في السرّ والخفاء، علامة على الإيمان الحقيقي، ﴿لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾.
- ٦ - يكيد الخائن ليرّر خيافته، ﴿كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾.
- ٧ - أراد يوسف أن يفهم الملك أن للإرادة الإلهية دوراً حاسماً في رسم مسار الأحداث، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾.
- ٨ - كيد الخائن هواء في شبك، وعاقبته سيئة. نعم، إذا كنّا متطهرين ﴿لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾، فلن يدع الله الأشرار بلطخون سمعتنا، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾.
- ٩ - عدم نجاح الخائن وخبيثته وافتضاح أمره، سنة إلهية، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾.

﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾
﴿إِلَّا مَا رَجِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

إشارات:

- يذكر القرآن الكريم أنواعاً عدّة للنفس، منها:
- ١ - النفس الأمّارة التي تسوق الإنسان نحو الرذائل، وإذا لم تكبح بالعقل، فستودي به إلى الهاوية.
- ٢ - النفس اللوامة، وتتجلى في لوم المذنب نفسه على ما ارتكب، فتدفعه باتجاه التوبة والاعتذار (ورد ذكرها في سورة القيامة).
- ٣ - النفس المطمئنة، ولا يدرك هذه المرتبة إلا الأنبياء والأولياء ومن تربى على

الفضيلة، وعند كل امتحان يخرجون مرفوعي الرأس وهم أكثر توجهاً إلى الله وتمسكاً به، (ذكرت في سورة الفجر).

□ يرى يوسف ﷺ عدم خيائته وخروجه من الامتحان مرفوع الرأس، لطفاً من الله ورحمة، وهو لا يبريء نفسه لأن الطبيعة الإنسانية مجبولة على الخطأ. ورد في روايات عدة أحاديث عن أخطار النفس، وأن اغترار النفس علامة على فساد العقل وأكبر مصيدة للشيطان. يذكر الإمام زين العابدين ﷺ في مناجاة الشاكين خطراً للنفس، نعتقد أن في تأملها فائدة كبيرة.

التعاليم:

- ١ - لا ينبغي أبداً أن نغتر بأنفسنا ونبرئ ساحتها، ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾.
- ٢ - الكمال هو أن لا يغتر الإنسان بنفسه وإن مدحه جميع الناس، كما حدث مع النبي يوسف ﷺ حيث مدحه إخوته، وزوجة عزيز مصر، والشاهد، والملك، والسجناء ومع ذلك قال: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾.
- ٣ - هوى النفس خطر عظيم لا ينبغي الاستهانة به ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ في هذه الآية تم استخدام أربع صيغ توكيدية (إن، لام التأكيد، صيغة المبالغة والجملة الاسمية).
- ٤ - الأنبياء معصومون لكنهم يمتلكون غرائز بشرية يكبحونها بقوة الإيمان، ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾.
- ٥ - يجب الدفاع عن طهارة النفس وعفتها برّد التهم عنها ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾، وفي الوقت ذاته علينا الاعتراف بشرور أنفسنا وأن نستعيذ بالله منها، ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾.
- ٦ - لا تزال النفس تمنّي الإنسان حتى توقعه في شر أعماله، ﴿لَأَمَّارَةٌ﴾.
- ٧ - طبيعة الإنسان وغرائزه تدفعانه نحو المعصية إلا ما رحم الله، ﴿لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾.
- ٨ - رحمة الله هي حبل النجاة الوحيد، فلو أوكل الله الإنسان إلى نفسه لأصيبت مقاتله، ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ﴾.

- ٩ - تربية يوسف هي تربية إلهية خاصة (لقد تكرر ذكر كلمة ربّي).
- ١٠ - يجب أن يتحلّى المرّبي بالرحمة والصفح، ﴿إِنَّ رَبِّيَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.
- ١١ - لا يأس من رحمة الله على الرغم من المخاطر جميعاً، ﴿إِنَّ رَبِّيَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.
- ١٢ - العفو، مقدمة لنزول شآبيب الرحمة الإلهية، إذ يقول أولاً: ﴿غَفُورٌ﴾ ثم ﴿رَحِيمٌ﴾.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْمِنُ بِدِيٍّ اسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِي﴾
 فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾

إشارات:

- جاء في لسان العرب: إذا أسرَ الإنسان أحداً وأشركه في أموره قيل: استخلصه.
- عندما أطلق سراح يوسف عليه السلام من السجن أراد أن يصفه ببعض العبارات فكتب على جدرانته: (هذا قبر الأحياء، بيت الأحزان، تجربة الأصدقاء وشماتة الأعداء).
- حين يلمس الملك صدق يوسف وأمانته ويتأكد من عدم خيانتة يستخلصه لنفسه، فكيف يشيب الله العبد الأمين؟ لا شك في أنه يستخلصه ويصطفيه، وفي هذا السياق ورد في القرآن الكريم عن الأنبياء: ﴿وَأَنَا أَخْبَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾، ﴿وَأَصْطَفَيْتُكَ لِنَفْسِي﴾.
- يعلن الملك بكلمة (لدينا) أن ليوسف مكانة وحظوة في قلبه وليس ذلك فحسب، وإنما في حكومته أيضاً، ولذا، فإنّ على جميع المسؤولين السمع له والطاعة.
- توافر القوة والأمانة معاً، أمر ضروري؛ إذ إن الأمين الذي تنقصه الإمكانيات عاجز، والقوي الذي تنقصه الأمانة سيهدر المال العام.

التعاليم:

- ١ - الله قادر (إن شاء) أن يجعل أسير الأمس أمير اليوم، ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَنْتَنِي بِهَذَا أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي﴾.
- ٢ - خدمات الأفراد تستحق المكافأة والثناء ﴿أَتَنْتَنِي بِهَذَا أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي﴾، (مكافأة له على تفسير الحلم أمر الملك بإطلاق سراح يوسف عليه السلام وتكريمه ومنحه منصباً ومنزلة).
- ٣ - حتى المشرك والكافر بأنسان إلى الكمال المعنوي؛ لأن فطرة الإنسان - أي إنسان - مجبولة على ذلك، ﴿أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي﴾.
- ٤ - إناطة المناصب المهمة والحساسة علاوة على التدبير والخبرة تحتاج إلى القبول والاحترام أيضاً. (بسبب عفته وتديبره وتفسيره الأحلام وهيبته، اكتسب يوسف قبولاً واحتراماً خاصين، ولهذا أثر عزيز مصر أن يستخلصه لنفسه)، ﴿أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي﴾.
- ٥ - النزاهة والأمانة والصدق والعفاف كلها صفات تحمل حتى الملوك على التواضع لها، ﴿أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي﴾.
- ٦ - عند اختيار الأفراد، فإن المقابلة الحضورية مؤثرة، ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ﴾.
- ٧ - المرء مخبوء تحت لسانه لا تعرف عيوب الفرد أو محاسنه حتى يتكلم، ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ﴾.
- ٨ - أحياناً يلزم عند إناطة المسؤوليات الحساسة جداً، أن يقوم الرجل الأول في الدولة بإجراء المقابلة الحضورية، ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾.
- ٩ - المسؤوليات المهمة والحساسة هي لمن يتوافر على الجدارة والتجربة، ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا﴾.
- ١٠ - الصادق الأمين يحظى بالقبول والاحترام من لدن الكافرين أيضاً، ﴿لَدَيْنَا﴾ تشير إلى جميع المسؤولين، ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾.
- ١١ - نسوة مصر رأين يوسف فدهشن وقطعن أيديهن، والملك وضع مصر تحت

تصرّفه عندما رأى فيه الأمانة والنزاهة، فما هو صنيعهم لو كانت انكشفت
للملأ محاسن يوسف كلها.

١٢ - إذا ما سلّمنا بأمانة شخص وقدرته وصدقه، فلا ينبغي أن نتردّد في إناطة
المسؤولية به ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾، (لقد كان عزيز مصر حازماً في
قراره).

١٣ - يجب أن يكون المستشارون المقربون من المسؤولين من أهل التقوى
والتدبير، ومشهوداً لهم بالأمانة وبراعة التخطيط، ﴿أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي... لَدَيْنَا
مَكِينٌ أَمِينٌ﴾، (اجتمعت هذه المحامد كلها في يوسف).

١٤ - سلّم المسؤولية لمن وثقت بدينه وإيمانه، ﴿لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾.

١٥ - أعطي يوسف سلطة غير مشروطة، ﴿مَكِينٌ﴾، من دون قيد أو شرط).

﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا﴾

إشارات:

□ سؤال: لماذا عرض يوسف أن تناط به المسؤولية؟ بعبارة أوضح: لماذا طلب
الرئاسة؟

الجواب: لقد توجّس يوسف خيفة من منام الملك لئلا يصيب الناس
الضرر، ورأى في نفسه الكفاءة في احتواء العواقب الاقتصادية السيئة، من هنا
جاء عرضه بالتصدّي للمسؤولية درءاً للخطر وللضرر عن الناس.

□ سؤال: لماذا أطرى يوسف على نفسه وأثنى على قدراته، ألم يأت في القرآن
الكريم ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾^(١)؟

الجواب: كان إطرأ يوسف لنفسه وقدراته من أجل الاضطلاع بأعباء
المسؤولية، إذ وجد في نفسه القدرة على أن يمنع الآثار السيئة للمجاعة والقحط،
ولم يكن الإطرأ بدافع الفخر والاستغلال غير المشروع.

□ سؤال: لماذا تعاون يوسف مع الحكومة الكافرة؟ ألم ينه القرآن الكريم عن ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَزْكُرُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾^(١).

الجواب: لم يكن قبول يوسف بالمسؤولية نصرة للظالم، بل ليجتاز الناس مرحلة المجاعة وشدائدها؛ لذا لم يصدر عن يوسف تصرف ينم عن ملق أو محاباة. عادة ما يقلب رجال السياسة ظهر المعجن للشعب عندما يشتد الخطر ويتعاضم، لكن يوسف لم يترك موقعه وآثر خدمة الشعب. إذا لم تكن ثمة إمكانية لإسقاط النظام الفاسد، فينبغي على الأقل أن نعمل على دفع ظلمه وانحرافه من داخل النظام وذلك بالاضطلاع ببعض المسؤوليات وخدمة الناس.

إن مسألة مراعاة قاعدة الأهم فالمهم مبدأ أساس من منظار العقل والشرع على سبيل المثال، من المهم ألا تساعد الحكومة الظالمة بالامتناع عن تَسَنُّم المناصب والمسؤوليات فيها، لكن الأهم من ذلك إنقاذ شعب كامل من مخاطر المجاعة لذلك نرى أن يوسف لم يتبوأ أي منصب سياسي في الدولة، لئلا يكون ذلك إغانة للظالم وحكومته، ولم يتبوأ منصباً عسكرياً، حتى لا يسفك دمًا بغير حق، كل ما فعله أنه تطوع للاضطلاع بمسؤولية اقتصادية وذلك لينقذ الناس من التهلكة والمجاعة. يقول الإمام الرضا عليه السلام: «ويحهم! أما علموا أن يوسف عليه السلام كان نبياً ورسولاً، فلما دفعته الضرورة إلى تولي خزائن العزيز قال: اجعلني على خزائن الأرض»^(٢). ومثل ذلك علي بن يقطين الذي كان وزيراً في جهاز الخلافة العباسية بتوجيه من الإمام موسى الكاظم عليه السلام، لأن وجود مثل هؤلاء الأخيار في الحكومة الجائرة يعتبر ملجأ للمظلومين والمستضعفين. يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «كفارة عمل السلطان قضاء حوائج الإخوان»^(٣).

سئل الإمام الرضا عليه السلام: لماذا قبلت بولاية عهد المأمون؟ فقال يا هذا أيهما أفضل النبي أو الوحي؟ فقال: بل النبي، فقال أيهما أفضل مسلم أو

(١) سورة هود: الآية ١١٣.

(٢) تفسير نور الثقلين.

(٣) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ١٣٩.

مشارك؟ قال: بل مسلم؛ فقال الرضا عليه السلام فإن عزيز مصر كان مشركا وكان يوسف نبياً، وإن المأمون معلم وأنا وحي، ويوسف سأل العزيز أن يوليه... وأنا أجبرت^(١).

□ حينما تقلد يوسف عليه السلام منصباً ومقاماً، لم يطلب اللقاء بوالديه، بل طلب إسناد مسؤولية الخزانة إليه، وذلك لأنّ اللقاء يحمل لمسات عاطفية بينما إنقاذ الناس من المجاعة ينطوي على رسالة اجتماعية.

□ يخاطب الإمام الصادق عليه السلام أولئك الذين يشقون على أنفسهم ويدعون الناس للتأسي بهم، فيقارن بين حالة النبي يوسف عليه السلام وملكه وسلطته التي وصلت إلى حدود اليمن وبين حالة الذين يدعون الناس إلى الزهد وترك الدنيا^(٢).

□ في رواية عن الإمام الرضا عليه السلام أنه في السنوات السبع الأولى، كان يوسف عليه السلام يخزن القمح، ومع بدء القحط والمجاعة في السنوات السبع الثانية، كان يوزع ما اختزنه في السنوات السابقة على الناس قوتهم اليومي بدقة وأمانة فحفظ مصر من البؤس والشقاء. في سنوات القحط العصبية لم يبت يوسف عليه السلام ليلته شعباً، تأسيّاً منه بحال الجوعى^(٣).

□ جاء في تفسيري مجمع البيان والميزان، أنّه لما بدأ القحط باع يوسف عليه السلام الناس القمح في السنة الأولى بالذهب والفضة، وفي السنة الثانية بالجواهر والأحجار الكريمة، وفي السنة الثالثة بالدواب والأنعام، وفي السنة الرابعة بالإماء والغلمان، وفي السنة الخامسة بالبيوت، وفي السنة السادسة بالحقول، وفي السنة السابعة باعهم بأنفسهم وأولادهم ولما انتهت السابعة من القحط وتملك على الناس جميع ما يملكون جاء إلى عزيز مصر وقال له: «الناس وأموالهم ملك يميني، بيد أيّ أشهد الله وأشهدك أيها الملك أنّي أعتقهم وأردّ إليهم أموالهم كما أردّ إليك القصر والعرش والخاتم، فلم تكن الوزارة إلا وسيلة لإنقاذ الناس، ولم تكن لي مآرب أخرى، فعاملهم بالعدل والإحسان».

(٢) نور الثقلين.

(١) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ١٤٦.

(٣) مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ٥، ص ٣٧٢.

لما سمع الملك هذا الكلام تصاغر أمام عظمة يوسف وجلال قدره، فلم يملك لسانه عن ذكر الشهادتين قائلاً: أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسوله، لقد أصبحت من المؤمنين، وأصبحت أنت الملك.

□ يجب اختيار الأفراد للمسؤولية طبقاً للمعايير القرآنية، إذا إنه مضافاً إلى ﴿حَفِظْتُ عَلِيمٌ﴾، ثمة معايير قرآنية أخرى نذكر منها:

١ - الإيمان، ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾^(١).

٢ - السبق، ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾^(٢).

٣ - الهجرة، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلِيَّتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾^(٣).

٤ - القدرة البدنية والعلمية، ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾^(٤).

٥ - الأصالة وكرم المحتد، ﴿مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ﴾^(٥).

٦ - الجهاد والكفاح، ﴿وَقَدَّرَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَتْلِ عَمَلًا عَظِيمًا﴾^(٦).

التعاليم:

١ - يجب التطوع للتصدي للمسؤوليات الخطيرة متى اقتضى الأمر، ﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾.

٢ - النبوة تنسجم مع الحكومة والسياسة، كما أن الدين لا ينفصم عن السياسة، ﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾.

٣ - عند استخدام الكفاء يجب أخذ رغبته الشخصية بعين الاعتبار، ﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾.

٤ - الكفاءة أولاً ثم التصدي للمسؤولية، ﴿أَسْتَخْلَصُهُ لِنَفْسِي﴾، ﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٤٧.

(٥) سورة مريم: الآية ٢٨.

(٦) سورة النساء: الآية ٩٥.

(١) سورة السجدة: الآية ١٨.

(٢) سورة الواقعة: الآيتان ١٠ - ١١.

(٣) سورة الأنفال: الآية ٧٢.

- ٥ - إذا توفرت الخبرة والمهارة، فلنمتلك الجرأة والثقة للتطوع للمسؤولية، ﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنَ﴾.
- ٦ - لا يستغني المسؤول مهما كان موقعه عن استشارة الأدنى المخلص الأمين. (لقد سمع عزيز مصر لاقتراح يوسف، ﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ واستجاب له).
- ٧ - لا يشترط في تولي المسؤولية «القومية»، فيوسف لم يكن مصرياً، لكنه تقلد أرفع المناصب في حكومة مصر (فالتعصب للقوم أمر مرفوض)، ﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾.
- ٨ - الكشف عن المواهب والجدارة الذاتية عند الضرورة لا يتنافى مع التوكل والزهد والإخلاص، ﴿إِنِّي خَفِيفٌ عَلَيْهِ﴾.
- ٩ - يمكن استنباط بعض محامد الصفات للمسؤول الكفاء، وذلك من خلال الصفتين اللتين ذكرهما العزيز ليوسف ﴿مَكِينٌ أَمِينٌ﴾، بمعنى القدرة والأمانة، والصفتان اللتان خصّ يوسف نفسه بهما وهما (حفيظ وعليم) أي خازن حافظ وذو علم واختصاص.

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ
نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾
وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

إشارات:

□ تشني الآيتان على النبي يوسف ﷺ وتخلع عليه صفات «الإحسان» و«الإيمان» و«التقوى».

ج لنا هذه السورة المقارنة بين إرادة الله وإرادات الناس ورغباتهم، فإخوة يوسف ﷺ أرادوا إذلاله من خلال إلقائه في البئر ومن ثم استرقاقه، بينما شاء الله أن يكرمه إذ يوصي عزيز مصر امرأته ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾، وأرادت امرأة

العزیز أن تلتطخ سمعته وتلوث شرفه، فأبى الله إلا أن يطهره من الدنس، أراد بعضهم بسجن يوسف تحطيم معنوياته وإذلاله ﴿لَيْسَجَنَّ وَلَيْكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾، في مقابل إرادة الله التي شاءت صون كرامته وعزة نفسه وأن يهبه حكم مصر، ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾.

□ عن الإمام الصادق عليه السلام أن يوسف عليه السلام كان إنساناً حراً أبيضاً، لم يتأثر بحسد أخوته وإساره في البئر وتألب شهوة النساء عليه وما تبع ذلك من سجن وافتراء وورئاسة وسلطة^(١).

□ ثواب الآخرة خير وأبقى من ثواب الدنيا، وذلك لأنه:

- (أ) مطلق لا حدود له، ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ﴾^(٢).
- (ب) خالد لا يزول، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾^(٣).
- (ج) غير محدود بحدود وضوابط معينة، ﴿نَتَّبِعُكَ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾^(٤).
- (د) ثواب بلا حساب، ﴿أَجْرُهُمْ يَفْعَرُ حِسَابٍ﴾^(٥).
- (هـ) لا تعثره عوارض أو آفات أو أمراض، ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾^(٦).

التعاليم:

- ١ - سنة الله تمنح العزة والكرامة للشرفاء والملتقين، ﴿كَذَلِكَ﴾.
- ٢ - صحيح أن ملك مصر قال ليوسف: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾، لكنها في الحقيقة مكنة الله منحها يوسف، ﴿مَكَّنَّا﴾.
- ٣ - حق الاستيلاء شأن للحكومة تستخدمه متى شاءت، ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾.
- ٤ - تمتع يوسف عليه السلام بصلاحيات واسعة، ﴿حَيْثُ يَشَاءُ﴾.

(١) سورة الزمر: الآية ٧٤.

(١) نور الثقلين.

(٢) سورة الزمر: الآية ١٠.

(٢) سورة الزمر: الآية ٣٤.

(٣) سورة الواقعة: الآية ١٩.

(٣) سورة الفرقان: الآية ٧٦.

- ٥ - السلطة في يد أهلها رحمة وفي يد غيرهم نقمة وعذاب، ﴿تُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا﴾.
- ٦ - لا يضيع أجر أي عمل عند الله، ﴿وَلَا تُضِيعُ﴾.
- ٧ - تضييع حقوق الناس يكون إما عن جهل أو بخل أو ضعف أو غير ذلك، وأي منها لا يصدق على الله تعالى، ﴿وَلَا تُضِيعُ﴾.
- ٨ - استلام السلطة والحكم في الدنيا، لا يتعارض مع مفاهيم الإحسان والإيمان والتقوى، ﴿مَكَّنَّا يَؤُسُف... أَجَرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.
- ٩ - مشيئة الله هي في إطار النظام والمنطق، فحين يقول تعالى شأنه: ﴿مَنْ نَشَاءُ﴾ ليس معناه أيًا كان، بل يضيف أن مشيئته ليست عبثاً بل ترتبط بالإحسان، ﴿وَلَا تُضِيعُ أَجَرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.
- ١٠ - يثاب المحسن على إحسانه في الدنيا وله ثواب أجزل في الآخرة، ﴿وَلَا تُضِيعُ أَجَرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ﴾.
- ١١ - إن لم يحصل المحسن على ثواب الدنيا فلا يياس لأن الله لن يضيع أجره في الآخرة ﴿وَلَا تُضِيعُ أَجَرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾.
- ١٢ - لا يقاس الملك والحكم بثواب الآخرة، ﴿وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾.
- ١٣ - الثواب المادي والسلطة لا يرضيان طموح الربانيين من الرجال؛ لأن الآخرة هي مرادهم وغاية أمانهم، ﴿وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾.
- ١٤ - إن تتقوا فسننزل عليكم رحمة من لدنا، ﴿تُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا... لِلَّذِينَ... وَكَانُوا يَنْقُوتُ﴾.
- ١٥ - إن الإيمان ينفع المؤمن إذا اقترن إيمانه بالتقوى وإلا فستكون عاقبته مجهولة، ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُ﴾.
- ١٦ - للتقوى أجر أكبر وأبقى إذا كانت صفة ثابتة لصاحبها، ﴿وَكَانُوا يَنْقُوتُ﴾.
- ١٧ - الحصول على الثواب الأخروي رهن بالإيمان والثبات على التقوى، ﴿وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُ﴾.

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ
فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ (٥٨)

إشارات:

□ عاش الناس سبع سنوات مخصبة في نعمة وافرة وأمطار غزيرة، طبقاً لنبوءة يوسف عليه السلام، ثم تلتها السبع الثانية، وكانت عجافاً ابتلوا خلالها بالقحط الذي عمّ مصر كلّها ووصل إلى أجزاء من أرض فلسطين وكنعان. قال يعقوب لبنيه: اذهبوا إلى مصر وابتغوا فيها الميرة، فدخلوها وكانوا من جملة وفود كثيرة حضرت إلى يوسف يمتارون لأنفسهم وعيالهم، فلما رآهم عرفهم لكنّهم لم يعرفوه، وحقّ لهم ذلك لأنّهم حين فارقه كان صغيراً حدثاً وألقوا به في غيابة الحبّ ولم يلتقوه ولم يستشعروا في أنفسهم أبداً أن يصل إلى ما وصل إليه من الجاه والرئاسة والسيادة في حكومة مصر، واستغرقت هذه الفترة حوالي ٢٠ إلى ٣٠ سنة. وعندما أنقذ يوسف من الحبّ كان غلاماً يافعاً اشتراه عزيز مصر ليخدم في بيته، بعد ذلك قضى سنوات في السجن، ومن ثمّ أطلق منه ومضت السبع السنوات الأولى التي توافرت فيها النعم والأمطار، ومع دخول السنوات السبع الثانية وهي سنوات القحط والمجاعة، عند ذاك أتيج ليوسف اللقاء بإخوته.

التعاليم:

- ١ - في فترات القحط لا مناص من نظام التقنين، وعلى كل فرد مراجعة الجهات المختصة بنفسه لاستلام حصته منعاً لاستغلال الآخرين. كان باستطاعة إخوة يوسف إرسال واحد منهم نيابة عن الجميع إلّا أنّهم ارتأوا الحضور مجتمعين.
- ٢ - إذا استغاثت المناطق الأخرى بنا لتقديم المساعدة في فترة اشتداد القحط، علينا الاستجابة لطلبها، ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ (*).
- ٣ - لا ينبغي الاستكانة والكسل في أوقات الشدة والعوز، حتى وإن دعت الحاجة إلى طلب العون من البلدان الأخرى، ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾.
- ٤ - ربّما احتاج الظالم يوماً إلى عون المظلوم، ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ (*).

٥ - مقابلة الوفود ليوسف كانت سهلة وميسرة حتى لغير المصريين، ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا﴾؛ (ينبغي للحاكم أن يتخذ التدابير التي تسهل لقاءاته بالناس للاطلاع على أحوالهم).

٦ - ذكريات الطفولة لا تمحى من ذاكرة الإنسان، ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾؛ (التقى إخوة يوسف بأخيه في كبره، أما هو فله ذكريات طفولة معهم، ولهذا السبب عرفهم ولم يعرفوه) (*).

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِمَهَازِهِمْ قَالَ أَتَأْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ
أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾

إشارات:

□ قال يوسف ﴿أَتَأْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ﴾ أي أخيك من أبيكم ولم يقل: شقيقي، وفي ذلك إشارة إلى أن يوسف خاطبهم كالمنكر عليهم، وهم بدورهم كشفوا له عن نسبهم بأنهم أبناء يعقوب حفيد إبراهيم عليه السلام (كما ذكرت التفاسير)، وأن أباهم شيخ كبير أقعده الحزن وفتك به الجزع بسبب افتراس الذئب ولده، وهو يكيه سنوات طويلة، وإننا قد تركنا أحد إخواننا عنده ليقوم برعايته وخدمته، فإذا رأيت أن تعطينا حصتهما (يعقوب وابنه) لنرجع إليهم مستبشرين، وأوفى لهم يوسف كيلهم وحمل إليهم أحمالهم بمقدار عشرة إبل بالإضافة إلى حملين آخرين هما حصة أبيه يعقوب وأخيه.

□ ومن أجل ترغيب إخوته المذنبين بالرجوع إليه قال يوسف: ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾، أي خير من يقري الضيف، فقالوا: سنحرص على مجيئه إليك، وكان هذا ترغيباً من يوسف إليهم، أما الله تعالى فله تعابير أخرى في الترغيب حيث يقول جل وعلا:

- ﴿...خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾^(١)،

- ﴿...خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾^(١)،
- ﴿...خَيْرُ الْفَائِزِينَ﴾^(٢)،
- ﴿...خَيْرُ الْمَكْرِبِينَ﴾^(٣)،
- ﴿...خَيْرُ الْوَرِثِينَ﴾^(٤)،
- ﴿...خَيْرُ الْحَكِيمِينَ﴾^(٥)،

ومع ذلك يغفل معظم الناس عن ذكره.

التعاليم:

- ١ - توزيع الميرة المختزنة في مصر كان بإشراف مباشر من النبي يوسف عليه السلام، ﴿جَهَّزَهُمْ﴾.
- ٢ - بفضل تدبير يوسف وحكمته تجاوز شعب مصر سنوات القحط، بل قدم المساعدات لباقي الأقاليم المجاورة، ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ﴾^(*).
- ٣ - حفظ الأسرار والصدق كلاهما صفتان لازمتان للإنسان، قال يوسف: ﴿يَاخُ لَكُمْ﴾، ولم يقل: أخي، فقد قال الصدق وحافظ على السر في آن معاً.
- ٤ - باستطاعة الذين يقدمون العون الاقتصادي سواء أكانوا أشخاصاً أو مؤسسات أو بلداناً أن يوظفوا هذا العون لتحقيق النمو أو مصالح أخرى، ﴿أَتَتُونِي يَاخُ...﴾.
- ٥ - التطفيف والإجحاف ممنوعان حتى في أوقات الأزمات والقحط، ﴿أُوفِي الْكَيلَ﴾.
- ٦ - عند الكيل يجب أن يكون المكيل محدداً، ﴿الْكَيلُ﴾.
- ٧ - لنقابل الإساءة بالإحسان (لقد أوفى يوسف الكيل لإخوته ولم يمنعه عن ذلك الظلم الذي مارسوه ضده)، ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ... أُوفِي الْكَيلَ﴾^(*).

(٤) سورة الأنبياء: الآية ٨٩.

(٥) سورة يونس: الآية ١٠٩.

(١) سورة الأعراف: الآية ١٥٥.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٨٩.

(٣) سورة الأنفال: الآية ٣٠.

- ٨ - ينظر إلى أي تطفيف أو عدالة تصدر عن المسؤول (العامل والمعاون) على أنها صادرة من المسؤول الأعلى، ﴿أَنِّي أُوفِي الْكَيلَ﴾.
- ٩ - كان التعامل بالغللات في مصر في أيام يوسف ﷺ بالكيل، ﴿أُوفِي الْكَيلَ﴾ (*).
- ١٠ - يجب أن يتّصف المسؤول عن توزيع الأرزاق العامة بالعدل، ﴿أُوفِي الْكَيلَ﴾ (*).
- ١١ - لا ينبغي أن نجعل من السلطة وسيلة لتصفية الحساب، ﴿أَنِّي أُوفِي الْكَيلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُتَزِيلِينَ﴾ (*).
- ١٢ - قري الضيف من صفات الأنبياء، ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُتَزِيلِينَ﴾.
- ١٣ - لنحترم المسافرين والقوافل التي تدخل مناطقنا، حتى في فترات القحط والعوز، ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُتَزِيلِينَ﴾.

﴿فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ (٦٠)

التعاليم:

- ١ - أسلوب الإدارة الناجح يقتضي استخدام اللين والشدة معاً، يبدأ أولاً بإبداء اللين واللين، ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُتَزِيلِينَ﴾، وإن لم ينفع، يلجأ إلى الشدة وتوجيه الإنذار، ﴿فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي﴾.
- ٢ - لرفع عوامل الاستغلال ونقض على مسيئاته (إذا تعود الحاضر أن يستأثر بحصة الغائب فسنفتح الباب أمام الاستغلال)، ﴿فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ﴾ (*).
- ٣ - يجب تطبيق القانون على الجميع من دون تمييز بين قريب أو غريب، ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ﴾؛ (لكل حصة يجب أن يستوفيها بنفسه).
- ٤ - ليس من الضروري أن ينفذ المسؤول تهديداته بحذافيرها، ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ﴾؛ (إذ لم يكن يوسف ليسمح أن يهلك إخوته من الجوع).
- ٥ - الحزم في تطبيق البرامج، من صفات القائد الناجح، ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾.

﴿قَالُوا سَتَرُوْهُ عَنْهُ اٰبَاؤُا۟ وَاِنَّا لَفٰعِلُوْنَۙ﴾

إشارات:

□ «المراودة» أن تنازع غيرك في الإرادة، فتريد غير ما يريد، أو ترود غير ما يرود، ويكون ذلك مشفوعاً بالتوسل والحيلة.

□ يستشم من كلام إخوة يوسف رائحة الحسد، عندما قالوا ﴿أَبَاهُ﴾ بدلاً من ﴿أَبَانَا﴾، كما أن الحديث الذي دار بين الإخوة في بداية السورة هو ﴿لْيُؤَسِّفْ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَآ أَيْنَا مَنَّا﴾.

التعاليم:

١ - سفر الابن الصغير يجب أن يكون بإذن الأب وموافقة، ﴿قَالُوا سَتَرُوْهُ عَنْهُ اٰبَاؤُا۟﴾ (*) .

٢ - كان إخوة يوسف على علم برفض أبيهم طلبهم اصطحاب أخيه بنيامين، ﴿سَتَرُوْهُ﴾ بمعنى منازعة إرادة الغير مع التخطيط والتدبير (*) . -

٣ - بعدما فجع يعقوب بمصيبة فقد ولده يوسف، لم يكن يفارق ابنه بنيامين لذلك فإن فصل الابن عن أبيه كان أمراً عسيراً، ﴿سَتَرُوْهُ عَنْهُ اٰبَاهُ﴾ (*) .

﴿وَقَالَ لِفَتٰىنِهِۦ اَجْعَلُوْا يَصَنَعَتْهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يٰعْرِفُوْنَهَاۙ

اِذَا اُنْقَلَبُوْا اِلَآ اٰهْلِيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُوْنَۙ﴾

إشارات:

□ لقد وصفت الآيات السابقة النبي يوسف بصفات مثل «الصادق، المحسن، المخلص»، وبقيناً أن من كانت صفاته هذه لا يستأثر ببيت المال لصالح أبيه وأخوته، ولعلّه كان يقصد أن يمنحهم الميرة من حصته الخاصة.

□ لقد أعاد إليهم أموالهم حتى لا تحول قلة المال دون سفرهم الثاني، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُوْنَ﴾، فضلاً عن أن إعادة المال دليل على مودته وإخلاصه وعدم وجود

سوء نية في إصراره على إحضار أخيه، وفي دسه المال خفية في بضاعتهم دليل آخر على أنه لم يشأ تحميلهم مئة وكذلك حفظها من عيون السارقين.

□ بالأمس كان يوسف غلاماً وخادماً، واليوم أصبح يمتلك الغلمان والخدم، ﴿لِفَتْنَيْنِ﴾ بيد أن ذلك لم يدفعه إلى الانتقام أو الثأر أو إضمار الحقد والضغينة لإخوته حينما التقى بهم، بل أراد بإرجاع أموالهم أن يشعرهم أنه لا يزال يحبهم.

التعاليم:

- ١ - القائد الكفوء هو من تتضمن خطته ومشاريعه عامل الابتكار والتجديد، ﴿أَجْمَلُوا﴾.
- ٢ - لتقابل الإساءة بالإحسان، ﴿أَجْمَلُوا يَضَعْنَهُمْ﴾.
- ٣ - صلة الرحم تعني المساعدة لا عقد الصفقات، ﴿أَجْمَلُوا يَضَعْنَهُمْ﴾.
- ٤ - أخذ المال من الوالد الطاعن في السنّ ومن الإخوة يتعارض مع مبدأ الكرامة الإنسانية، ﴿أَجْمَلُوا يَضَعْنَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾.
- ٥ - أناط يوسف مسؤولية إرجاع أموال إخوته إلى أشخاص عدّة، ربّما كان يهدف من وراء ذلك إلى إنجاز المهمة بسرعة، من دون علم إخوته، ﴿أَجْمَلُوا يَضَعْنَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ (*).
- ٦ - ينبغي أن تكون مساعدة الآخرين سرّاً قدر الإمكان، ﴿فِي رِحَالِهِمْ﴾ (*).
- ٧ - لا انتقام ولا حقد بل هدية لضمان التواصل في المستقبل، ﴿أَجْمَلُوا يَضَعْنَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ... لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.
- ٨ - من أجل كسب قلوب البشر يجب أن نضحّي بالمال، ﴿أَجْمَلُوا يَضَعْنَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ... لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.
- ٩ - الإحسان والعمل الصالح أفضل وسيلتين لكسب قلوب الناس، ﴿أَجْمَلُوا يَضَعْنَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ... لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (*).
- ١٠ - ينبغي للمسؤولين توضيح النقاط المتعلقة بالبرامج أو المشاريع لمروسيهم

حتى يكونوا مدراء أكفاء؛ (لقد أطلع يوسف الجميع بأن هدفه من هذا العمل هو ضمان عودة القافلة)، ﴿وَقَالَ لِفَتَاهِهِ أَجْمِلُوا يَصْنَعَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَفْرُقُونَهَا إِذَا أُنْفِلُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (*).

١١ - لا يوجد يقين تام بتطبيق المشاريع والخطط كما خطط لها، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانًا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٢٣)

التعاليم:

- ١ - كان يعقوب يتمتع بسلطة تامة ونافذة على زوجته وأبنائه بحيث إن جميع التحركات كانت خاضعة لإشرافه، ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ﴾.
- ٢ - ما كان لبنيامين أن يسافر من دون موافقة أبيه، ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانًا﴾.
- ٣ - توظيف العواطف أسلوب ناجع لتحقيق الأهداف أو كسب ثقة الآخرين، ﴿أَخَانًا﴾.
- ٤ - يلجأ المذنب دائماً إلى أسلوب التأكيد والتكرار بسبب الهواجس التي تسكنه، ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾؛ (الضمير إنا و«لام» التوكيد والجملة الاسمية كلها تدل على التوكيد).

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٢٤)

إشارات:

- سؤال: كيف وثق يعقوب ببنيه وبعث أخاهم بنيامين معهم على الرغم من تجربته المريرة السابقة معهم؟
- الجواب: يطرح الفخر الرازي في تفسير ذلك احتمالات عدة تشرح هذا القبول من يعقوب، وهي:

أولاً: لم يحقق إخوة يوسف من فعلتهم الأولى هدفهم وهو (حب أبيهم لهم).

ثانياً: حسد الإخوة لبنيامين كان أقل من حسد يوسف.

ثالثاً: ربّما أسفر القحط والمجاعة عن ظروف استثنائية كانت تستدعي السفر ثانية.

رابعاً: قد يكون النسيان طوى الحادثة الأولى وذلك لتعاقب السنين عليها.

خامساً: أو يكون الله تعالى قد بشره بحفظ ولده.

□ في الآية ١٢، وثق يعقوب بوعد أبنائه بالمحافظة على يوسف، فابتلى بفراقه وفقد بصره، لكنه بالنسبة لبنيامين أوكل أمره إلى الله قائلاً: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾؛ فعادت إليه قوته وبصره وولده.

التعاليم:

- ١ - لا يجوز الوثوق سريعاً بمن له سوء سابقة، ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ﴾.
- ٢ - استذكار الذكريات المؤلمة تحصّن الإنسان ضدّ أحداث المستقبل، ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ... أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ﴾؛ (لقد آمنتكم على أخيه قبل ذلك وكانت النتيجة ما تعلمون).
- ٣ - لا ينبغي أن نستسلم لليأس في أول فشل يصادفنا، ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾؛ لقد أسلم يعقوب ابنه إلى إخوته للمرة الثانية ولكن بعد التوكل على الله.
- ٤ - ظنّ إخوة يوسف أنهم حافظون لأخيهم، ﴿وَلَئِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾؛ فذكّرهم أبوهم يعقوب أنّ الحافظ هو الله ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾.
- ٥ - لا تغرّنا الأمور المادية الظاهرة مهما كثرت ويجب أن نتوكل على الله، ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾.
- ٦ - بالاطمئنان إلى رحمة الله الواسعة وبعد التوكل عليه نذهب في استقبال الحوادث، ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.
- ٧ - رعاية الله وحفظه تجليات رحمته، ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا يَضَعُهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا
مَا نَبِيٌّ هَٰذَا يَضَعُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا
وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ (٦٥)

إشارات:

- ربّما كان معنى الآية الكريمة هو: الكيل الذي أعطينا قليل وليس به كفافنا، فلولاً نذهب مرة أخرى، لنصيب حصة إضافية.
- «نمير» من «مير» أي القمح، والمقصود بـ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ نرجع إليهم بالقمح.
- يستفاد من ﴿وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ أن حصة كل فرد كانت كيل بعير واحد يستلمها شخصياً.

التعاليم:

- ١ - لا تقتصر عظمة يوسف على إنسانيته بل في تربيته للإنسان ﴿وَجَدُوا يَضَعُهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾؛ (فقد أغدق الهدايا على إخوته الحساد الجاحدين سرّاً ليترك الباب لعودتهم مفتوحاً، يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾).
- ٢ - عدم استيفاء مبلغ البضاعة ينطوي على نوع من الإهانة للمشتري، فإن كانت النية هي الإهداء فالأحسن أولاً استيفاء المبلغ، ومن ثم إهدائه بأسلوب حكيم، ﴿رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾.
- ٣ - رجل الأسرة مسؤول عن تهيئة طعام أسرته، ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾.
- ٤ - استخدام نظام التقنين والحصص في الأزمات تدبير ناجع ومطلوب، ﴿وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾.

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ
إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ (٦٦)

إشارات:

- موثق هو ما كان فيه ثقة وطمأنينة إلى الوعود والأقوال من قبيل العهد، والقسم، والنذر، ﴿...مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾.

التعاليم:

- ١ - ينبغي توثيق العقود وعدم الاكتفاء برابطة القرابة، ﴿لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ﴾.
- ٢ - الإيمان بالله والقسم والنذر والعهد كانت ولا تزال تمثل أقوى المواثيق، ﴿مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ﴾.
- ٣ - من نكث عهداً أو أساء فعلاً ينبغي أن نحكم المواثيق معه في المستقبل، ﴿مَوْثِقًا﴾.
- ٤ - يجب ألا نسمح بمرافقة أبنائنا للآخرين، إلا بعد نظر وتمحيص، ﴿تُؤْتُونَ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ﴾.
- ٥ - يجب أن تتضمن العقود فقرة خاصة بالحوادث والطوارئ غير المحسوبة ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾؛ (بمعنى إذا أصابنا طارئ يكون التكليف في هذه الحالة مرفوعاً).
- ٦ - لا ينبغي أن يُنسبنا تأكيد المواثيق التوكل على الله، ﴿اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

﴿وَقَالَ يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ
وَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا اللَّهُ
عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾

التعاليم:

- ١ - حنان الأبوة يسع الأبناء جميعاً حتى المخطئين منهم، ﴿يَبْنَى﴾.
- ٢ - من الضروري التدبّر وتحري سبل المحافظة على سلامة الأبناء، ﴿يَبْنَى﴾.
- ٣ - إذا صدر الأمر عن عالم وحكيم فليس ثمة ضرورة لأن يسأل المأمور عن دوافع الأمر، ﴿لَا تَدْخُلُوا﴾؛ تعني نفذ ولا تناقش عن السبب.
- ٤ - لحظات السفر هي الفرصة الأنسب لإسداء النصائح، فقد قال يعقوب وهو ينصح أولاده عند سفرهم: ﴿يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾.
- ٥ - لنبتعد عن إثارة الحساسية وإساءة الظن والنظرات الغريبة؛ إذ إن دخول

مجموعة من الشباب إلى منطقة غريبة يبعث بلا شك على سوء الظن والشااية، ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَحِيدٍ﴾.

٦ - لا نكتفِ بالنهي والمنع، بل علينا تقديم الحلول المناسبة، ﴿لَا تَدْخُلُوا... وَادْخُلُوا﴾.

٧ - تحقيق الهدف يتطلب طرق جميع الأبواب، ﴿وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾.

٨ - المدير الكفء يحتاج إلى أن يلاحظ جميع الاحتمالات مضافاً إلى التخطيط، ذلك أن الإنسان غير مستقل في إدارة شؤونه، لأن إرادة الله تعالى قد تتدخل في أي لحظة، على الرغم من اتخاذ الإنسان جميع الاحتياطات والتدابير، إذاً لا ضمانة لتحقيق جميع خطط الإنسان، ﴿وَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

٩ - لا يملك الإنسان إلا التسليم أمام قضاء الله المحتوم، ﴿وَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

١٠ - الله هو حاكم الكون المطلق، ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾.

١١ - الاحتياط والمحاسبة لازمان ﴿لَا تَدْخُلُوا﴾، وكذلك التوكل على الله ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، اعقل وتوكل.

١٢ - لا يصح التوكل إلا على الله ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، لأنه هو الكافي ﴿وَكُنْ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾، وهو ﴿وَيَنْصُرُ الْوَكِيلَ﴾.

١٣ - لقد توكل يعقوب على الله وحث الآخرين على التوكل، ﴿تَوَكَّلْتُ... فَلْيَتَوَكَّلْ﴾.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ آبُوهُمْ مَا كَانَتْ يُفْعَى عَنْهُمْ

مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ

لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

إشارات:

□ يطرح المفسرون أقوالاً عدّة حول ما هي الحاجة التي كانت تعتمل في نفس يعقوب؛ ومما قيل في ذلك:

- ١ - لَمْ شَمَلِ الْأَخْوِينَ يُوسُفَ وَبَنِيَامِينَ وَخُرُوجِ الْأَوَّلِ مِنْ وَحْدَتِهِ، حَتَّى لَوْ كَانَ ذَلِكَ عِبْرَ رَمِيهِ بِالسَّرَقَةِ.
- ٢ - التَّسْرِيعِ بَلَمْ شَمَلِ الْأَبَ بَوْلَدِهِ وَالَّذِي سَنَفَضَلَهُ فِي الصَّفَحَاتِ الْقَادِمَةِ.
- ٣ - تَنْفِيزِ الْأَمْرِ مِنْ دُونِ ضَمَانِ الْعَوَاقِبِ، حَاجَةً يَعْقُوبَ تَمَثَّلَتْ فِي تَنْفِيزِ هَذِهِ الْوَصَايَا بِحَذَافِيرِهَا عِبْرَ الدَّخُولِ مِنْ أَبْوَابٍ مُتَعَدِّدَةٍ، وَالْعَوَاقِبِ عِنْدَ اللَّهِ.

التعاليم:

- ١ - التَّجَارِبِ الْمَرِيرَةِ تَصْقِلُ مَعْدِنَ الْإِنْسَانِ وَتَهْذِّبُهُ فَيَنْصَاعُ لِأَقْوَالِ الْكِبَارِ، ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ آبَاؤُهُمْ﴾.
- ٢ - طَاعَةِ الْأَبِ وَاجِبَةٌ وَمُفِيدَةٌ، ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ﴾ (*) .
- ٣ - إِذَا تَحَدَّثْنَا عَنْ سُوءِ أَدَبِ الْفَرْدِ وَصِفَاتِهِ الذَّمِيمَةِ، فَلَا نَنْسُ أَنْ نَذْكُرَ إِيْجَابِيَّاتِهِ أَيْضاً، ﴿دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ آبَاؤُهُمْ﴾ ؛ (إِذَا كَانَ أَبْنَاءُ يَعْقُوبَ قَدْ وَصَفُوا أَبَاهُمْ بِالضَّلَالِ، فَهَمَّ الْيَوْمَ يَكْفُرُونَ عَنْ ذَلِكَ بِامْتِثَالِهِمْ أَوْامِرَهُ).
- ٤ - التَّخْطِيطُ وَالِدَقَّةُ وَاتِّخَاذُ الْإِحْتِيَاطَاتِ الْإِلَازِمَةِ نَافِعَةٌ فِي ظِلِّ إِرَادَةِ اللَّهِ وَمَشِيتَتِهِ، وَمَا لَمْ يَشَأْ فَلَا أَثَرَ لِكُلِّ ذَلِكَ، ﴿مَا كَانَتْ يُغْنِي عَنْهُمْ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ شَيْءٍ﴾ .
- ٥ - كَانَ يَعْقُوبُ يَعْلَمُ أَسْرَاراً وَأُمُوراً لَمْ يَرِ مَصْلَحَةً فِي الْإِعْلَانِ عَنْهَا، ﴿حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ﴾ .
- ٦ - إِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ لِدَعَاءِ الْأَوْلِيَاءِ وَيَسْتَجِيبُ لِحَاجَاتِهِمْ، ﴿حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ .
- ٧ - عِلْمُ الْأَنْبِيَاءِ هُوَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ، ﴿عَلَّمْنَاهُ﴾ .
- ٨ - لَا يَعْلَمُ مَعْظَمُ النَّاسِ مَنْ هُوَ الْعَالَمُ الْحَقِيقِيُّ، ﴿عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (*) .
- ٩ - يَهْتَمُّ أَكْثَرُ النَّاسِ بِالْأَسْبَابِ وَيَنْسُونَ حِكْمَةَ اللَّهِ وَوُجُوبَ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، ﴿أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

١٠ - رأي الأكثرية ليس معياراً للتمييز بين الحق والباطل، ﴿أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (*).

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ
فَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٦٩)

إشارات:

□ تذكر التفاسير أنه عندما دخل أبناء يعقوب مصر، حلّوا ضيوفاً على يوسف، فجعل يوسف طبق غذاء لكل اثنين منهم، وبقي بنيامين وحيداً فأجلسه إلى جانبه، ثم أمر بغرفة لكل اثنين وخصّ بنيامين بغرفته، وعندما أصبحا وحدهما طفق بنيامين يشكو ليوسف ما فعله إخوته بحقهما من إساءات طيلة السنوات الماضية ولا سيّما جريمتهم بحق يوسف، وهنا طفح الكيل بيوسف فقال مهدداً من روع أخيه: لا تحزن، إنّي ما زلت يوسف الذي عرفت لم أتغيّر ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ وذلك لزيادة التأكيد ولم يقل له: (إنّي مثل أخيك).

□ تحتل الآية ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تفسيرين: الأول، لا تحزن ممّا فعله بك إخوتك، أو لا تهتم بمسألة مكوّلك هنا والكيل الذي سيضعوه في متاعك طيلة وجودك عندي.

التعاليم:

- ١ - كان إخوة يوسف حتى الأمس يتباهون بقوّتهم ويقولون: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ والآن جاؤوا إلى يوسف وهم صاغرون يلتمسون منه الميرة، ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا﴾.
- ٢ - الكلام قسمان: سريّ وعلمي، لقد أسرّ يوسف أخاه بنيامين بقوله: (إنّي أنا أخوك) ؛ (إذا لكل مقام مقال).
- ٣ - بعض الأمور ينبغي ألاّ يُسرّ بها إلّا للخواص، ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾.
- ٤ - إذا أصاب الإنسان نعمة فليضع الذكريات المؤلمة وراء ظهره، (لقد التأم شمل يوسف وأخيه وكان شكره هذه النعم نسيان الماضي)، ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾.

٥ - يجب إعداد البريء نفسياً قبل ترتيب أي خطة معه (قيل لبنيامين: إنك ستبقى هنا بحجة السرقة فلا تحزن)، ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِمَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ
ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَتْهَا أَلْعِيْرُ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾

إشارات:

□ «السقاية» هي الإناء الذي يسقى منه، و﴿أَلْعِيْرُ﴾ القوم الذين معهم أحمال الميرة.

□ ليست المرة الأولى التي يطرح فيها يوسف أفكاراً جديدة، فقد وضع حمل بعير في متاع إخوته ليضمن رجوعهم، وهذه المرة وضع سقاية ثمينة في رحل أخيه ليستبقه عنده.

□ في الرحلة السابقة أمر يوسف غلمانَه بوضع البضاعة في رحل إخوته، ﴿أَجْمَلُوا بِضَعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾، وفي الرحلة الثانية وضع السقاية بيده في رحل بنيامين (للسرية الأمر هذه المرة)، ﴿جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾.

□ ذكرت التفاسير أن يوسف اختلى بأخيه بنيامين وسأله البقاء عنده، فوافق بيد أنه ذكر له ما كان من أمر أبيه وأخذه الموثق من إخوته بإعادته، فقال يوسف: سأندبر أمر بقائك فخططاً معاً لتحقيق ذلك، وهذا الشيء أشبه بما يحصل في الأفلام والمشاهد التمثيلية إذ يؤتى بالشخص ويتظاهر بأنه مجرم فيقوم المسؤول باستجوابه وحتى تعذيبه، وكل هذا بالاتفاق مع الشخص المعني ورضاه بغية تحقيق مصلحة أسمى.

□ سؤال: لماذا تم توجيه تهمة السرقة في هذه القصة إلى الأبرياء؟

الجواب: لقد اطلع بنيامين على هذه الخطة والتهمة التي ستلحق، وأعطى موافقته وكامل رضاه للبقاء عند يوسف، وإخوته وإن تعرضوا للمضايقة والمساءلة إلا أنه رفع الاتهام عنهم وبرئت ساحتهم في نهاية المطاف، هذا فضلاً عن أن

يوسف هو الذي وضع السقاية بنفسه في رحل إخوته ﴿جَعَلَ﴾ من دون علم المسؤولين لذلك كان من الطبيعي أن يصرخ هؤلاء: ﴿إِنِّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾.
 □ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: «الْمُضْلِحُ لَيْسَ بِكَاذِبٍ»^(١).

التعاليم:

- ١ - أحياناً، لا مناص من فبركة بعض الأحداث للكشف عن أسرار حادثة ما، لذا، فإنّ توجيه تهمة السرقة إلى البريء (موقتاً) لدواعي المصلحة العامة، أمر قد تفرضه الظروف، ﴿إِنِّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾.
- ٢ - في العادة إذا ظهر مجرم في جماعة ما، باءت الجماعة بإثمه وجريته، ﴿إِنِّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾.

﴿قَالُوا وَقَبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾ (٧١)

قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾

إشارات

- استعملت كلمتا «صواع» و«سقاية» في شيء واحد، فالسقاية هي إناء للشرب ويمكن استخدامه للكيل، وفي هذا إشارة إلى الاقتصاد واستعمال إناء واحد لأمرين. والصواع أو الصاع هو كيل يسع ما زنته حوالى ٣ كلغ.
- «حِمْلٌ» هو ما يحمل، و«حَمْلٌ» مثله ولكن في حالات فيها شيء من الخفاء، كما في الجنين في بطن الأم فهو حَمْلٌ.
- وقوله تعالى: ﴿وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾، هو ما يعرف في الفقه بالجعالة، وهذا يكشف عن وجود مثل هذا الأمر عند الأمم السابقة.

التعاليم:

- ١ - بادر الإخوة إلى إطلاق عبارة: ﴿مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾؛ إشارة منهم إلى عدم جواز

(١) الكافي، ج ٢، ص ٢١٠.

- إلقاء التهم جزافاً قبل التأكد من الموضوع^(*).
- ٢ - رصد الجوائز أسلوب قديم متبع، ﴿وَلَمَن جَاءَ بِهِ جُمْلٌ بِعِيرٍ﴾.
- ٣ - الجوائز ترصد بحسب الأشخاص والظرف الزمني، وبقينا فإن حمل بعير من الميرة أئمن جائزة في ظروف القحط والمجاعة.
- ٤ - الضامن يجب أن يكون شخصاً معيناً ومحددًا، ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾^(*).
- ٥ - وأن يحظى بالاعتبار، ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾^(*).
- ٦ - اللجوء إلى الضمان لتوكيد الثقة، أسلوب له سابقة في التاريخ، ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾.
- ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾^(٧٣)

إشارات:

□ قال إخوة يوسف: تعلمون أننا لم نأت إلى أرضكم لنفسد أو نسرق، أما من أين للمخاطبين هذا العلم (أنهم لم يأتوا للسرقة)؟ ففي ذلك أقوال عدة: لعل ذلك كان عن طريق تنزيه يوسف إياهم، وقد يكونون مُحْصُوا عند دخولهم أرض مصر. إذًا، يجب تفتيش الوفود القادمة والخارجة - لا سيما في أوقات الأزمات - للتأكد من سلامة نواياهم وأهدافهم.

التعاليم:

- ١ - نظافة السيرة، شهادة على البراءة، ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾.
- ٢ - كانت مصر آنذاك تتمتع بجهاز أمني صارم و متمرس، وقد تأكد هذا الجهاز من خلال خبرته أن هذه القافلة لم تأت بهدف الإفساد، ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾^(*).
- ٣ - السرقة إحدى مصاديق الفساد في الأرض، ﴿مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾.

﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾^(٧٤)

إشارات:

□ أغلب الظن أن السائل هنا هو النبي يوسف، لعلنا أن جواب إخوته سيكون طبقاً لقوانين أرض كنعان وشرعة النبي يعقوب عليه السلام.

التعاليم:

١ - استشارة ضمير المجرم من أجل تحديد العقوبة، ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ﴾.

﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ يُجِدْ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (٧٥)

التعاليم:

١ - عقوبة السرقة في بعض الشرائع السابقة هي استرقاق السارق، ﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾، وفي تفسير مجمع البيان جاء أن الاسترقاق كان لمدة عام واحد.

٢ - لم تتضمن تلك الشرائع أي استثناء أو تمييز، فعقوبة الرق كانت تشمل كل سارق، ﴿مَنْ يُجِدْ فِي رَحْلِهِ﴾.

٣ - لا بد من إطلاع المتهم على جريمته والقوانين والعقوبات المتعلقة بها وذلك لتبديد اعتراضه أو التقليل منه، ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ يُجِدْ...﴾ (*).

٤ - يجب أن تتوفر الأدلة على الوضوح لتكون مقنعة للمتهم، ﴿مَنْ يُجِدْ﴾ (*).

٥ - وجود متهم وسط جماعة لا يعني تعميم التهمة على الجماعة بأكملها، ﴿مَنْ يُجِدْ فِي رَحْلِهِ﴾ (*).

٦ - يمكن للمجرم المدان في البلد الأجنبي أن يُحاكم طبقاً لقوانين بلده وليس البلد المضيف، ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

٧ - السرقة، مثال بارز للظلم (حيث جاءت كلمة «ظالم» بدلاً من «سارق»)، ﴿نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعَيْنَيْهِ قَبْلَ وَعَايَ أَخِي ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَايَ أَخِي﴾

كَذَلِكَ كَذَبَ الْيُوسُفُ مَا كَانَ لِأَخِي أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ

اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ ﴿٧٦﴾

إشارات:

□ لا تستعمل كلمة «كيد» دائماً في المعنى السلبي المذموم، بل جاءت هنا بمعنى الخطة، ﴿كَذَبَ﴾.

□ كان بنيامين مطمئن البال وغير قلق لعلمه المسبق بتفاصيل الخطة، ويدل على ذلك عدم اعتراضه في أي موضع من القصة، ولأجل المحافظة على سرية الخطة وعدم إثارة الشكوك، بدأ التفتيش بمتاع الآخرين، وبعد أن وجدت السقاية في متاعه، تقرّر بقاءه في مصر بحسب الاتفاق السابق. لقد كانت القصة تدبيراً إلهياً؛ لأنه بحسب قوانين أرض مصر لم يكن بوسع يوسف أن يبقى السارق عنده كرهينة.

التعاليم:

- ١ - ينبغي لعناصر الأمن التصرف بشكل لا يثير معه الشبهات والظنون، ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ﴾؛ (لم تبدأ هذه العناصر التفتيش في متاع بنيامين أولاً، بل بمتاع إخوته).
- ٢ - جرت العادة أن تلقى تبعات أعمال العناصر على مسؤوليهم، ﴿فَبَدَأَ﴾؛ (لا يبدو أن يوسف قد أقدم على تفتيش المتاع بنفسه، إلا أنه وفقاً لتعبير القرآن الكريم: ﴿فَبَدَأَ﴾).
- ٣ - تفتيش الحاكم لأموال المتهمين أمر مشروع، ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ﴾.
- ٤ - التدبّر والتفكّر وتحريّ الحلول هي من جملة المدد الغيبي، ﴿كَذَنَّا﴾.
- ٥ - أفكار يوسف كانت إلهاماً إلهياً، ﴿كَذَنَّا لِيُوسُفَ﴾.
- ٦ - بقاء بنيامين عند يوسف كان لمصلحة الأخير، ﴿كَذَنَّا لِيُوسُفَ﴾.
- ٧ - احترام القوانين حتى في الأنظمة غير الإلهية أمر لازم أيضاً، ﴿مَا كَانَ لِأَخْذِ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾.
- ٨ - على القادة أيضاً الالتزام بالقوانين وعدم تخطئها؛ (فقد التزم يوسف بقوانين مصر، من هنا فقد ارتأى إبقاء أخيه بخطة محكمة)، ﴿لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾.
- ٩ - للمنزلة الروحية والمعنوية درجات ومراتب، ﴿تَرْفَعُ دَرَجَتٍ﴾.
- ١٠ - العلم معيار الفضل والرقى، ﴿تَرْفَعُ دَرَجَتٍ... وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ﴾.
- ١١ - العلم البشريّ محدود، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ﴾.

﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا
يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ
مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾

إشارات:

□ من الأسباب التي أوردها يوسف لقوله لأخوته: ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا﴾، الحسد لأخيهم، والكذب والافتراء.

التعاليم:

- ١ - ليس أمام المتهم إلا الإنكار بقوله: لست سارقاً ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾، أو تبرير عمله بالقول: إِنَّ السَّارِقَ كثيرون ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾.
- ٢ - الحسود ينفث سمّه ولو بعد عشرات السنين، ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾.
- ٣ - سلوك وأخلاق المرء تترك تأثيراً على أخيه، ﴿أَخٌ لَّهُ﴾؛ (كما أنّ أخلاق الأم تترك تأثيراً على أخلاق ابنها، فبنيامين ويوسف كانا شقيقين ومن أم واحدة).
- ٤ - عندما يغيب الحب والمودة، تُكال التهم جزافاً، ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ﴾؛ (العثور على السقاية في متاع بنيامين ليس دليلاً على السرقة، وتفوّه إخوته بكلمة السرقة وإصرارهم عليها هو بدافع حسدهم وبغضهم إياه).
- ٥ - عندما تغيب المودة، يُعمل من الحبة قُبّة، ﴿إِن يَسْرِقْ﴾؛ صيغة المضارع تفيد الاستمرارية وقد استخدمها الإخوة بدلاً من صيغة الفعل الماضي لتبيين نيتهم في القول إنّ دأب أخيهيم كان دوماً السرقة.
- ٦ - في سبيل الوصول إلى الهدف علينا تحمّل الافتراءات ووخز الكلام، ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾.
- ٧ - أحياناً يلجأ المرء إلى اتهام الآخرين ليدراً عن سمعته السوء، ﴿سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾.

٨ - المروءة والحلم وسعة الصدر، من خصال القيادة. لقد سمع يوسف من إخوته اتّهام السرقة لأخيه؛ لكنّه أسرها ولم يكشف عمّا في قلبه لهم، ﴿فَأَسْرَهَا يُوْسُفُ﴾.

٩ - لا ينبغي التفريط بالأسرار تحت ضغط العواطف، (يوسف سمع اتّهام السرقة من إخوته لكنّه لمصلحة أعلى، لم يبدها لهم)، ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوْسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾.

١٠ - إذاعة السرّ فعل قبيح، ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾.

١١ - وحتى لو كان بنيامين قد سرق السقاية، فإخوته شرّ منه، لأنهم اختطفوا أخاهم يوسف من قبل، ﴿أَنْتُمْ سَرُّ مَكَانًا﴾.

١٢ - الحسد ومحاولة القتل وسوء الظن كلّها من الخصال التي دعت يوسف إلى قول: ﴿أَنْتُمْ سَرُّ مَكَانًا﴾.

﴿قَالُوا يَتَأْتِيهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا
فَخُذْ أَحَدًا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾

إشارات:

□ عندما رأى إخوة يوسف أنّ مسألة بقاء أخيه بنيامين أضحت حتمية. وفي ضوء العهد الذي قطعوه لأبيهم، ولا سيّما أنّ ذكرى تجربتهم المشينة مع يوسف لا تزال عالقة في ذهن يعقوب، أحسّوا أنّ الرجوع بدون بنيامين سيكون مفاجئاً، فلجأوا إلى أساليب التوسّل واستمالة العواطف وتحريك المشاعر، وأخذوا يكيلون له محامد الأوصاف والخصال من قبيل إنّك عزيز ذو سطوة ومن المحسنين، وإنّ والده شيخ كبير، فخذ أحداً مكانه، كل ذلك ليستجلبوا عطفه وإحسانه.

التعاليم:

١ - القضاء الرباني سيهوي بكل ظالم ومستبدّ يوماً ما إلى هاوية الذل؛ (يستشفّ من عبارة ﴿يَتَأْتِيهَا الْعَزِيزُ...﴾، لحن العجز والتوسّل).

٢ - الله سيعزّ المتقين الذين استذلّهم أصحاب الأهواء، ﴿قَالُوا يَكُونُهَا الْعَزِيزُ...﴾ (*) .

٣ - بقي يوسف على اتصافه بالإحسان، على الرغم من العزّ والسلطة اللذان نالهما، ﴿إِنَّا نَرْكَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

٤ - إنّ صروف الدهر وتقلباته ومسيرة التحوّلات اليومية صعوداً وهبوطاً والضعف والقوة لا يمكن لها أن توجد تغييراً في أحوال المحسنين، فيوسف الصديق كان في كل مكان وفي جميع الظروف محسناً، حيث سمع عبارة ﴿إِنَّا نَرْكَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ﴾ من رفاق السجن عندما كان نزيلاً فيه سنوات العذاب، وكذلك سمعها في أوج عزّه واقتداره (*) .

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا

مَتَّعْنَا عَنْدَهُ إِنَّا إِذَا لَطَلِمُوكَ﴾ (٧٩)

إشارات:

□ دقّة يوسف في انتقاء الكلمات تشير إلى أنّه لم يشأ اتّهام بنيامين بالسرقة، لذا لم يقل: «وجدناه سارقاً»، بل قال: ﴿وَجَدْنَا مَتَّعْنَا عَنْدَهُ﴾ .

□ لو أراد يوسف أن يبقى أخاً غير بنيامين، لفشلت الخطة، ولتصرّف الإخوة معه على أنّه السارق، ولأذاقوه أنواع العذاب، ولشعر ذلك الأخ البديل بأنّه قد اعتدي عليه ظلماً.

التعاليم:

١ - احترام القوانين والمقررات واجب على الجميع، وانتهاكها ممنوع حتى لعزير مصر، ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ .

٢ - لا يسمح المحسن لنفسه بخرق القوانين، ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ...﴾ (*) .

٣ - لا ينبغي للقاضي أن يتأثر بالعواطف، ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ (*) .

٤ - القضاء مسؤولية خطيرة يجب الاستعاذة بالله من تبعاتها، ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ (*) .

- ٥ - لقد استعاذ النبي يوسف في لحظتين: الأولى في خلوته مع زليخا، والثانية عند القضاء وإصدار الأحكام، ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ (*).
- ٦ - مخالفة القوانين ظلم وإجحاف، (لا تجوز مخالفة القوانين تحقيقاً لمآرب شخصية)، ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ﴾.
- ٧ - يجب ألا يعاقب البريء بدلاً من المسيء، حتى لو كان ذلك برضاه، ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾.

﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِىَ آتَى أَوْ يَخُكُمُ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٨٠)

إشارات:

□ «خلصوا» أي انفردوا خالصين عن غيرهم، ﴿نَجِيًّا﴾ وانتجيت فلاناً: استخلصته لسري، فيكون معنى ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ اختلوا في نجوة من الأرض لدرس ما يمكن فعله.

التعاليم:

- ١ - لنكن أقوياء وحازمين لكيلا يطمع فينا ضعاف النفوس ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ﴾، لا يثني التوسل والرجاء عن تطبيق أحكام الله أو ممارسة الحزم.
- ٢ - الذنب يؤدي بالآخرين إلى البراءة من المذنب، وتجاهل القرابة بينهم وبينه، ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ (*).
- ٣ - ذات يوم اجتمع إخوة يوسف بدافع من الغرور بالقوة والقدرة للكيد بيوسف والبحث في طريقة للتخلص منه، ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا... لَا نَقُولُ... وَأَلْقَوْهُ﴾، واليوم رمتهم الأقدار أمام يوسف مطأطئي الرؤوس يتناجون ويتوسلون لأخذ بنيامين منه، ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾.
- ٤ - الابن الأكبر ينوب عن أبيه الغائب في تحمّل أعباء المسؤولية في الأسرة، ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ (*).

- ٥ - ضرورة مراعاة التسلسل العمري في الأسرة والمجتمع، ﴿قَالَ كَيْفَئُمْ﴾ (*).
- ٦ - ينوء ثقل المسؤولية بالعضو الأكبر في الأزمات واللحظات الحرجة أكثر من غيره، ﴿قَالَ كَيْفَئُمْ﴾ (*).
- ٧ - الالتزام بالعهود والمواثيق واجب، ﴿قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوثِقًا﴾.
- ٨ - العقود والمواثيق المحكمة تقطع الطريق على التحايل والالتفاف، ﴿أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾.
- ٩ - الخيانة والجريمة تؤرقان أصحاب الضمائر الحية طوال حياتهم، ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾.
- ١٠ - الاعتصام، من الأساليب القديمة المتبعة للوصول إلى الأهداف المنشودة، ﴿فَلَنَ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾.
- ١١ - الغربة أفضل من الخزي، ﴿فَلَنَ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾.
- ١٢ - لنحسن الظن بالله، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَكِيمِينَ﴾.

﴿ارْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَتَابَانَا إِنَّكَ ابْنُكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَفِظِينَ﴾ (٨١)

التعاليم:

- ١ - الإنسان مخلوق أناني، فعندما أراد إخوة يوسف الحصول على حصة أكبر من الميرة قالوا: ﴿فَارْزُقْنَا مَعَنَا أَخَانَا﴾، أما عندما جرى الحديث عن الاتهامات قالوا: ﴿إِنَّكَ ابْنُكَ سَرَقَ﴾ ولم يقولوا أخانا.
- ٢ - يجب أن تستند الشهادة إلى العلم واليقين، ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا﴾.
- ٣ - ينبغي تضمين المواثيق والعهود مذكرات إيضاحية تتعلق بالطوارئ والحوادث، ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ﴾.
- ٤ - يجب الاعتذار بكلمات صريحة وواضحة، ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَفِظِينَ﴾.

﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْلَنَّا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (٨٢)

إشارات:

□ «القرية» بالإضافة إلى معناها المتعارف، تعني أيضاً المناطق الآهلة بالسكان، سواء أكانت مدينة أم ريفاً، ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ﴾؛ تعني اسأل أهل القرية.

□ «والعير» القوم الذين معهم أحمال الميرة.

□ في قصة يوسف مع الذئب لم يكن لدى إخوته أدلة يطرحونها، لكنهم هنا في هذه الحادثة يعضدون حديثهم بدليلين، الأول سؤال أهل مصر، والثاني سؤال العير الذين كانوا معهم. في حين أنهم في حادثة يوسف قالوا: ﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾، و«لو» تفيد الشك والضعف والاضطراب، في حين أنهم هنا يذكرون عبارة ﴿وَأِنَّا لَصَادِقُونَ﴾، ومعلوم ما في هذه الكلمة من تأكيد على صدقهم.

التعاليم:

- ١ - سوابق الكذب والشرّ تضيي ظلالاً من الشك على قول صاحبها ما دام حياً، ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ﴾.
- ٢ - الشهادة العينية أسلوب معتبر في إثبات الادعاء، ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ... وَالْعِير...﴾.
- ٣ - تواطؤ مجموعة كبيرة على الكذب أمر بعيد، ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ... وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (*).

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٨٣)

إشارات:

□ عندما جاء إخوة يوسف بقميصه المضمخ بالدم إلى أبيهم متظاهرين بالحزن والبكاء، وقالوا: أكل الذئب يوسف، أجابهم يعقوب: ﴿سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾؛ أي زينت لكم أنفسكم هذا الفعل وسأصبر صبراً جميلاً على هذا الأمر الذي

اتفقتم عليه، وفي هذه الحادثة أيضاً (عندما يفارق ولديه بنيامين وولده الأكبر) يعود يعقوب فيكرّر عبارته السابقة نفسها، وهنا ربّما يطرح هذا السؤال وهو: أن حادثة يوسف كانت نتيجة مؤامرة خطّط لها ونفّذها إخوته، في حين أنه في حادثة بنيامين لا وجود لمؤامرة، إذاً لماذا كرّر يعقوب العبارة نفسها وباللهجة نفسها: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾.

يعلّق صاحب الميزان على الموضوع بقوله: أراد النبي يعقوب بقوله هذا أن يبيّن لأبنائه أن افتراق هذين الأخوين هو من آثار صنيعهم الأول تجاه يوسف.

□ أحياناً يكون الصبر من قلة الحيلة والعجز، على سبيل المثال كلام أهل جهنّم: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا؟﴾ أي لن يكون لصبرنا أو جزعنا تأثير في خلاصنا، وأحياناً أخرى يكون الصبر عن وعي ودراية وطواعية وتسليماً لأمر الله، وينطبق هذا الصبر في كل حالة بطابعه الخاص، من قبيل أن يكون الصبر في ساحة الجهاد ضرباً من الشجاعة، والصبر عن الدنيا زهداً، والصبر إزاء المعاصي تقوى، والصبر على الشهوة عفة، والصبر عن المال الحرام ورعاً.

□ تزيين الشرور والقبائح تارة يتم بواسطة الشيطان ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ﴾^(١)، وتارة أخرى عن طريق زخارف الدنيا وبهرجها ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾^(٢)، وأخيراً بفعل الإنسان نفسه ﴿سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾.

التعاليم:

- ١ - تقوم نفس الإنسان بتزيين القبائح لتبرّر المعاصي، ﴿سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾.
- ٢ - الصبر ديدن المؤمن والصبر الجميل هو عندما لا يتفوّه الإنسان بما يخدش تسليمه لقضاء الله ورضاه، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾^(٣).
- ٣ - ليكن أملنا بالله، ولا نياس من رحمته، ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً﴾.

(٣) انظر: نور القليلين.

(١) سورة الأنفال: الآية ٤٨.

(٢) سورة يونس، الآية ٢٤.

- ٤ - كان إيمان يعقوب قوياً بأن أبناءه الثلاثة (يوسف وبنيامين والابن الأكبر) أحياء، وأنه سيلتقيهم يوماً ما، ﴿أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾.
- ٥ - حلّ المشاكل قديمها وجديدها ليس بعسير على الله، فهو قادر على أن يجمع شمل يوسف وأخيه في مكان واحد، ﴿جَمِيعًا﴾.
- ٦ - يرى المؤمن ببصيرته أنّ الشدائد والمحن هي تجسيد لحكمة الله، ﴿الْحَكِيمُ﴾.
- ٧ - إيقان المرء بحكمة الأفعال الإلهية يعينه على التصدّر والتجلّد في المحن والمصاعب، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ... إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَفُ عَلَيَّ يُوسُفَ أَلَمْ
وَأَبْيَضْتُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (٨٤)

إشارات:

□ «الأسف» الحزن والغضب معاً، كان يعقوب دمع العين، وعلى لسانه لفظة، ﴿يَأْسَفُ﴾ ويعتصر قلبه الحزن.

□ في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه بكى علي بن الحسين عليه السلام عشرين سنة، وما وُضِعَ بين يديه طعام إلّا بكى.. حتى قال له مولى له...: أما آن لحزنك أن ينقضي؟! فقال له: «ويحك إن يعقوب النبي عليه السلام كان له اثنا عشر إبناً فغيب الله واحداً منهم، فابيضت عيناه من كثرة بكائه... وأنا إلى أبي وأخي وعمي... مقتولين حولي، فكيف ينقضي حزني»^(١).

التعاليم:

- ١ - الحسد يورث الذل دهنراً كاملاً، لقد رغب يعقوب عن أبنائه الحاسدين، ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾.
- ٢ - كان هؤلاء الأبناء يتمنون بزوال يوسف أن يأخذوا مكانه في قلب والدهم،

﴿يَحْضُلْ لَكُمْ وَجْهٌ أَيْكُمْ﴾؛ لكتهم بحسدهم جلبوا على أنفسهم غضب أبيهم،
﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾.

٣ - كان يعقوب على علم بأن الظلم لم يقع على ابن آخر بل وقع الظلم على يوسف وحده، ﴿يَتَأَسَّى عَلَى يُونُسَ﴾.

٤ - فرط الكرب والبكاء قد يؤديان أحياناً إلى العمى، ﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ﴾.

٥ - الندب والبكاء والآهات والحب كلها نابعة من شعور راقٍ بالمعرفة (عمي يعقوب لأنه كان يعرف من يبكي).

٦ - تعظم المصائب بعظمة الأفراد (الإساءة والظلم إلى يوسف تختلف عن الظلم إلى الآخرين، يذكر يعقوب اسم يوسف ولا يذكر اسم أخويه).

٧ - الحزن وذرف الدمع على فراق الأحبة جائز، ﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ﴾.

٨ - لصبر الإنسان حدود وقد يفيض به، ﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ﴾ (*).

٩ - كظم الغيظ من صفات المؤمنين وهو أمر محمود، ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (*).

١٠ - النحيب والحزن لا يتعارضان مع الصبر وكظم الغيظ، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ... يَتَأَسَّى عَلَى يُونُسَ﴾.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوْا تَذْكُرُ يُونُسَ﴾

حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾

إشارات:

□ «حرَض» يقال لمن أشرف على الهلاك من شدة الوجد أو الحزن.

التعاليم:

١ - حَقٌّ ليوسف وأمثاله أن يخلد في الذاكرة ولا يمحي منها، ﴿تَفْتَوْا تَذْكُرُ يُونُسَ﴾؛ (ما فتى أولياء الله في دعاء الندبة ينادون يوسف عصرهم ويكونه).

٢ - إن أردت أن تختبر حبك لعزیز عليك، فقس مدى ذكرك له، ﴿تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يُوسُفَ﴾ (*).

٣ - في قلب من عرف حقيقة يوسف نار لا يدرك لوعتها غيره، ﴿تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَمًا﴾.

٤ - المشاكل النفسية تترك تأثيراً على الجسم، ﴿حَرَمًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾، إنَّ من الفراق ما قتل، فما بالك بالمصيبة والموت.

٥ - عاطفة الأبوة لا ترقى إليها عاطفة، ﴿تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

إشارات:

□ «البث» فرط الحزن وشدته ممّا لا يقدر صاحبه على التعبير عنه.

□ وردت في القرآن الكريم أمثلة عن إنابة الأنبياء نذكر منها:

أناب سيدنا آدم ﷺ إلى الله من ذنبه ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾^(١)، والنبي أيوب من مرضه ﴿أَنِّي مَسْفِيٌّ﴾^(٢)، والنبي موسى من الفقر والحاجة ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾^(٣)، والنبي يعقوب من فراق الأبناء، ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي﴾.

التعاليم:

١ - كتم المصيبة وكتبها يؤثران على قلب الإنسان وحالته النفسية ويعرّضان سلامته للخطر، وكذلك الصياح والعيول وشقّ الجيوب ما يضرّ بسمعة الإنسان وشأنه، كلا الحالين مذموم. العقل كل العقل في الإنابة إلى الله وبثّ الشكوى إليه، ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ...﴾.

(٣) سورة القصص: الآية ٢٤.

(١) سورة الأعراف: الآية ٢٣.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٨٣.

- ٢ - المؤمن لا يشكو همّه إلّا لخالقه، ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا... إِلَى اللَّهِ﴾.
- ٣ - الشخص السطحي يمرّ على الأحداث غافلاً، بينما ثاقب البصيرة يرى وراء الأحداث وعمقها حتى يوم القيامة، ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ﴾.
- ٤ - كان النبي يعقوب على علم بحياة يوسف ونهاية فراقهما فضلاً عن علمه بحقائق أخرى عن الله وصفاته؛ الأمر الذي كان خافياً على الآخرين، ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.
- ٥ - ربّما كانت عبارة: ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ هي تأويل يعقوب لرؤيا يوسف.

﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيَسُوا
مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾

إشارات:

- «التحسّس» هو طلب الشيء بالحواس ويستعمل في الخير، بينما «التجسّس» في الشر.
- جعل الراغب «الرّوح» و«الروح» اسمين للنفس، بيد أنّ الأخير يقال في مواضع الفرج والرحمة، وكأنّه بحلّ العقد والمشكلات، تنفخ روح جديدة في الإنسان. جاء في تفسير التبيان: «الروح» من «الريح» وهو ما يجده الإنسان من نسيم الهواء فيسكن إليه، وكل ما يهتز الإنسان بوجوده ويلتذ به فهو روح، وتلك الراحة نفسها يشعر بها مع هبوب نسيمات الرحمة الإلهية.
- جاء في الروايات، أنّ اليأس يندرج في عداد الكبائر^(١).

التعاليم:

- ١ - لا ينبغي للوالد قطع صلته نهائياً بأبنائه (على الرغم من أنّ الوالد قد يرغب عن أبنائه بحسب الآية الكريمة، ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾؛ لكنّه عاد في هذه الآية ليغمرهم بعطفه بقوله: ﴿يَبْنِي﴾).

(١) من لا يحضره الفقيه، باب معرفة الكبائر.

- ٢ - المعرفة بحاجة إلى النشاط والحركة، ﴿أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا﴾.
- ٣ - لا يمكن بلوغ اللطف الإلهي بالكسل، ﴿أَذْهَبُوا... وَلَا تَأْتِسُوا﴾.
- ٤ - أولياء لا يأسون ويحولون دون يأس الآخرين، ﴿وَلَا تَأْتِسُوا﴾.
- ٥ - اليأس، سمة الكفر ﴿لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْكُفْرُونَ﴾؛ ذلك أن اليأس يصور لنفسه بأن قدرة الله قد انتهت.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾

إشارات:

- «بضاعة» قطعة وافرة من المال تقتنى للتجارة، و«مزجاة» من الإزجاء وهو: السوق بدفع. والمعنى: أنها بضاعة تدفع ولا يقبلها التجار.
- يقول بعض المفسرين: المراد من ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ طلبهم استرداد أخيه بنيامين.
- وتقول الروايات: حمل يعقوب أبناءه رسالة إلى يوسف يشي فيها عليه ويشرح أحوال كنعان والقحط الذي حلّ بها مع طلب إطلاق بنيامين وتبرئة إخوته من السرقة وأن يعيدهم جميعاً إليه، وعندما تلا يوسف الرسالة أمام إخوته قبلها ومسحها على عينيه ثم بكى حتى ابتلت ثيابه. تعجّب إخوته من هذا الاحترام والتبجيل لأبيهم، إذ لم يكونوا قد اطلعوا على هويته بعد، فبدأ بريق الأمل يتوهج في عيونهم رويداً رويداً، ولا سيّما عندما رأوا ضحكات يوسف فقالوا: هوذا يوسف^(١).

التعاليم:

- ١ - كان همّ يعقوب هو يوسف ﴿فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ﴾، بينما كانت الميرة الشغل لناغل لإخوة يوسف، ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾.

٢ - من يحتقر سُبْحَتَقَر يوماً، فالإخوة الذين كانوا يتبجحون بالقول ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ و﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ﴾، و﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، جاؤوا اليوم وكلهم ذلّ وحقارة ليقولوا: ﴿مَسْنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾.

٣ - طلب المساعدة والعون يحتاج إلى أدب خاص يتلخص في:

أ - الثناء على المعين: ﴿يَتَأْتِيَا الْعَزِيزُ﴾.

ب - شرح الحالة وطرح الحاجة: ﴿مَسْنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾.

ج - نقص المؤونة (الفقر المالي): ﴿يُضْغَعُوْا مُزَجَّلَةً﴾.

د - خلق الدافع لدى المعين لترغيبه في المساعدة، ﴿وَيَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾.

٤ - كفى بالفقر ذلّاً، ﴿مَسْنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يٰيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾

إشارات:

□ ربّما تضمّن السؤال الواحد مجموعة من الأهداف، سواء أكانت إيجابية ببناء أو سلبية مزعجة، فسؤال يوسف: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يٰيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ قد يكون أراد من خلاله القول إنّه كان يعلم بمجريات الحدث، أو يكون الهدف أن يبين لهم سوء فعلهم ليتوبوا، أو لعلّه أراد أن يشفي غليل أخيه بنيامين الذي كان حاضراً في المجلس، أو التوبيخ والتفريع، أو إظهار ما أنعم الله عليه من عزّ ومنعة، أو التعجّب من صلفهم في التماس التصدّق مع كل ما صدر عنهم من جرائم.....

من الأسباب المذكورة أعلاه، نعتقد أنّ الثلاثة الأولى تنسجم مع منزلة يوسف وشأنه، بينما البقية تتناقض مع ما تذكره الآيات التالية من شهامته وكرامته؛ إذ إنّه على الرغم من اتهامه بالسرقة سكّت عن ذلك ولم يردّ عليهم بل وقال لهم: ﴿قَالَ لَا تَغْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾.

□ لا يقتصر لفظ الجهل على المعنى المشهور له، بل يفيد أيضاً غلبة الشهوات على لبّ الإنسان، وهو نوع من الغفلة، والمذنب جاهل وإن كان عالماً ذلك لأنه بغفلته يشتري لنفسه جهنم.

التعاليم:

- ١ - يوماً ما ستنشر صحيفة أعمال الإنسان وسوف يُسأل عما فعل، ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ﴾.
- ٢ - الشهامة هي في تجاهل صفائر الخلافات؛ لهذا نرى يوسف يسأل بشكل مجمل، ﴿مَا فَعَلْتُمْ﴾.
- ٣ - إذا حظيت بالقدرة والسطوة فلا تنس المظلومين، ﴿مَا فَعَلْتُمْ يٰيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾.
- ٤ - الشهامة هي في التماس العذر للمذنب، (قال يوسف لإخوته: الذي بدر منكم كان في زمن الجهل وليس الآن)، ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾.

﴿قَالُوا أَوَآتَاكَ لَأَنْتَ يُّوسُفَ قَالَ أَنَا يُّوسُفَ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٩٠)

إشارات:

□ مع مضي الوقت، كانت حيرة الإخوة تزداد بسبب بكاء ملك مصر وهو يتلو رسالة يعقوب، فكيف عرف بقصة يوسف؟ أما وإنه يشبه إلى حد كبير يوسف، أفهل يكون هو يوسف نفسه؟ أليس الأفضل أن نسأله مباشرة، وماذا إن لم يكن يوسف، أفهل يتصور عند ذاك أننا مجانين؟ وإذا كان هو، فكيف سنغطي خجلنا مما فعلنا به؟ وهكذا كان إخوة يوسف بين شدّ وجذب مع الأفكار حتى كسروا صمتهم بسؤال العزيز: أنك لأنت يوسف؟

والآن، ماذا كان المشهد التالي، بالله عليك أيّ رسام يستطيع أن يعبر عما يختلج في صدور الإخوة من أحاسيس مختلطة من الخوف والخجل والغبطة

والفرح والبكاء الذي انتهى إلى العناق الحارّ، لا يمكن لأحد أن يتصوّر روعة المشهد وعظمته.

□ لا بدّ من توفير الأجواء المناسبة للناس لطرح الأسئلة والاستفسار من أجل ترغيبهم في الصلاح وتربيتهم. كانت علامات الاستفهام والسؤال تكبر في أذهان إخوة يوسف، وكانوا يقولون في أنفسهم: لماذا أصرّ العزيز على أن نصطحب بنيامين معنا؟ ما سرّ العثور على السقاية في رحلنا؟ لماذا أعاد إلينا أموالنا في المرة الأولى؟ من أين له العلم بقصة يوسف؟ هل سيستمرّ في إعطائنا الميرة؟ وهكذا، أسئلة وهواجس عدّة كانت تتصارع في داخلهم حتى قرّروا كسر صمتهم بالسؤال: أإنّك لأنت يوسف؟ فأجابهم: بلى، فما كان للناس أن يعرفوه ما لم يأذن الله له بتعريف نفسه.

□ عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «إنّ في القائم (عجل الله فرجه) سنة من يوسف عليه السلام... وهم لا يعرفونه حتى يأذن الله ﷻ له أن يعرفهم نفسه...»^(١).

التعاليم:

١ - تمرّ السنوات وتتوالى الحوادث المريرة والسارة، فتترك أثرها العميق على العلاقات والمعارف لدرجة لا يمكن معها للأخ أن يتعرّف إلى أخيه، ﴿قَالُوا أَوَإِنَّمَا أَنْتَ تُيُوسِفُ﴾.

٢ - أولياء الله يرون أنّ جميع النعم هي من عند الله، ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾.

٣ - يثاب الإنسان على صبره وتقواه في الدار الدنيا أيضاً، ﴿أَنَا يُوسُفُ...﴾^(*).

٤ - الجدير بالقيادة والحكم هو من صمد أمام رياح الحوادث والحسد وأمسك على نفسه شهوتها وصبر على الذل والسجن ودعاية السوء، ﴿مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾.

٥ - الدعوة لها فرصها الخاصة فجّد في اغتنامها (فعندما أدرك إخوة يوسف قبيح فعالهم وكانوا مهتئين لسماع نصائح يوسف، قال لهم: ﴿مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾).

- ٦ - اللطف الإلهي يخضع لمعايير الحكمة الإلهية، ﴿مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ﴾.
- ٧ - الصبر والتقوى مصدر العزة والكرامة، ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ﴾.
- ٨ - الصبر والتقوى من خصال المحسنين، ﴿مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (*) .
- ٩ - من السنن الإلهية أن يحكم الصالحون، ﴿لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.
- ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ (٩١)

إشارات:

□ «الإيثار» هو التفضل وتفضيل الآخرين على النفس في شيء من حظوظ الدنيا، إخوة يوسف غرتهم عصبتهم، ﴿وَتَحَنَّنُ غَضَبُهُ﴾، وخططوا لفعلتهم الشنيعة وقالوا: ﴿وَالْقُوَّةُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّيِّ﴾، ثم ابتلاهم الله بمضائق البلاء فاضطربهم إلى التوسل والرجاء من أجل سد رمقهم، ﴿مَسَنَا وَأَفْلَأْنَا الْفُرُجَ﴾، بعد ذلك اعترفوا بجريرتهم، ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾، ليتحول ذلك النهج الخاطيء إلى قبولهم بحقيقة أن الله تعالى قد رفع يوسف وأذلهم، ﴿لَقَدْ ءَاتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾.

□ استخدم إخوة يوسف صيغة القسم «تالله» عدة مرات:

- ١ - قَالُوا: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾.
- ٢ - قَالُوا لَابِيهِمْ: ﴿تَاللَّهِ نَقْتُلُكَ تَذَكَّرْ يَوْسُفَ﴾.
- ٣ - قَالُوا: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيرِ﴾.
- ٤ - وقالوا أخيراً: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾.

التعاليم:

- ١ - إذا منعنا الحسد من الإقرار بفضل الآخرين وكمالهم، فسنرغم على فعل ذلك تحت وقع الذلة والإكراه، ﴿لَقَدْ ءَاتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾.

- ٢ - لا يمكن الوقوف بوجه إرادة الله، ﴿لَقَدْ عَازَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾.
- ٣ - لنتصرف في أوقات اليسر بشكل لا نندم معه في أوقات العسر، ﴿وَنَحْنُ غَضَبَةٌ... وَإِنْ كُنَّا لَخَطِيئِينَ﴾ (*).
- ٤ - الاعتراف بالخطأ سبيل العفو، ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَطِيئِينَ﴾.
- ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾

إشارات:

□ «الشرب» التقرير والتقرير بالذنب.

لما كان يوم فتح مكة، تحصن المشركون بالكعبة، وقال عمر بن الخطاب: اليوم سننتقم منهم، فقال الرسول الكريم ﷺ: «اليوم يوم المرحمة»، ثم قال للمشركين: «ما تظنون أنني فاعل بكم؟» قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: «أقول لكم ما قاله يوسف لأخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، اذهبوا فأنتم الطلقاء»، فقال عمر: إني لأستحي مما قلت^(١).

□ يقول الإمام علي عليه السلام: «إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه»^(٢).

□ ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه سئل عن تأخير يعقوب عليه السلام الاستغفار لأبنائه ومبادرة يوسف عليه السلام إلى ذلك، فقال: «لأن قلب الشاب أرق من قلب الشيخ...»^(٣).

التعاليم:

- ١ - آلة الرئاسة سعة الصدر، ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾. بلى، من يغفر خطايا إخوته دفعة واحدة جدير بالرئاسة.

(٣) بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٢٨٠.

(١) تفسير القرطبي.

(٢) نهج البلاغة، الحكمة ١١.

- ٢ - لنقبل اعتذار المخطئ كي لا نخيب أمله فينا، ﴿كُنَّا لَخَطِيلِينَ... قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ﴾.
- ٣ - ليكن صفحنا على رؤوس الأشهاد حتى يتعلم الآخرون الصفع أيضاً، ﴿قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ﴾.
- ٤ - أخذ يوسف يداوي جرح إخوته النفسي، لنفعل نحن ذلك أيضاً، ﴿لَا تَثْرِبَ...﴾.
- ٥ - ينبغي أن نبادر إلى العفو ولا نؤجله، ﴿...أَلْيَوْمَ﴾.
- ٦ - العفو عند المقدرة من شيم أولياء الله، ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ﴾.
- ٧ - لتتعلم الشهامة من يوسف عندما تنازل عن حقه وسأل ربه العفو والمغفرة، ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ... يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾.
- ٨ - إذا كان العبد يصفح لأخيه العبد فهل ننتظر من الله غير العفو، ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾.
- ٩ - الصفع عن المنيين، سيرة إلهية دائمة، (جاء الفعل يغفر في صيغة المضارع).
- ١٠ - يشمل الله بعفوه حتى الذين أساءوا إلى النبيين (يعقوب ويوسف) لسنوات، ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ؟﴾
- ١١ - العفو والصفح عن المسيء، يستجلب المغفرة الإلهية، ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ... يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾.
- ١٢ - من آداب الدعاء والاستغفار نسبة المغفرة والرحمة إلى الله، ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ
بَصِيرًا وَأَتُوفِّي بِإِفْلَاحِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٢)

إشارات:

□ ذكر قميص يوسف في هذه القصة في مواضع عدة هي:

أ - ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَرٍ كَذِبٍ﴾.

ب - ﴿قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ﴾.

ج - ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي﴾.

□ إن كان قميص يوسف يلقي على الأعمى فيرتد بصيراً، فأَيُّ ضير في التبرك بمراقدة الأولياء وأبوابهم وبالطرق المؤدية إليهم، والقماش الذي يحمل عبق عطرهم.

□ إلى هنا انطوت صفحة التعرّف على يوسف والاعتذار منه وصفح يوسف عنهم ثم طلب المغفرة والعفو من الله، إلّا أنّه بقي أثر واحد للجراح التي سببها إخوة يوسف وهو عَمَى أبِيهم يعقوب؛ إذ تعرض الآية المرهم الذي قدّمه يوسف لهذا الجرح، فقال لهم: ليلقي القميص على أبي من ألقاه عليه أول مرة مضمّخاً بالدم، حتى يدخل على قلبه السرور بالقميص نفسه الذي كان سبب ألمه من قبل.

□ ورد في الروايات: كان يوسف يُجْلِسُ إخوته إلى مائدته كل يوم وليلة، حتى أحسّوا بالتصاغر والخجل من فعلتهم، فطلبوا أن يستقلّوا بمائدتهم لأنّ نظراته كانت تثير فيهم مشاعر الاحتقار لأنفسهم، فأجابهم يوسف: لكنّي أحسّ بالفخر بمجاورتكم والجلوس على مائدة واحدة معكم، ذات يوم كان الناس يقولون حين يرونني: «سبحان من بَلَغَ عبداً بيع بعشرين درهماً ما بلغ»، أما اليوم فإنّ وجودكم إلى جانبي هو مصدر فخر واعتزاز لي، ليعلم الناس أنّي لست عبداً لا أصل له ولا نسب، فانا كنت غريباً على الرغم من أنّكم إخوتي وأنّ يعقوب أبي^(١)، (يا لشهامة الفتى ورجولته).

□ يُروى أنّ آية الله الشيخ عبد الكريم الحائري كان في سفر إلى طهران للمعالجة فبات ليلة في مدينة قم، فزاره عدد من الناس وحضّوه على نقل الحوزة العلمية من مدينة أراك إلى قم، لفضلها ولأنّها تضمّ مرقد كريمة أهل البيت عليها السلام السيدة

فاطمة بنت موسى الكاظم عليه السلام، فآثر أن يستخير الله قبل أن يجيبهم فجاءت الآية الكريمة ﴿وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

التعاليم:

- ١ - يجوز التبرك بالأشياء المتعلقة بأولياء الله، ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي﴾؛ (لقد رد قميص يوسف إلى أبيه بصره).
- ٢ - من يحارب الأهواء، حتى لباسه يصبح من المقدسات، ﴿بِقَمِيصِي﴾.
- ٣ - رؤية المقدسات فقط لا تكفي بل ينبغي لمسها، ﴿فَالْقُوَّةُ عَلَى وَجْهِ أَبِي﴾.
- ٤ - لكل من الحزن والسرور أثره على العين، ﴿وَأَيُّضْتُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ... يَأْتِ بِصِيرًا﴾؛ ربما لهذا السبب يطلق على الولد الصالح «قرة العين»، (هذا إذا لم تكن نريد النظر إلى المسألة على أنها معجزة).
- ٥ - أحيا الوصال الأمل في روح الوالد العجوز وأضاء النور في عينيه، ﴿فَالْقُوَّةُ عَلَى وَجْهِ أَبِي﴾.
- ٦ - لا تعرف المعجزة والكرامة عمراً محدداً، (لقد أبصر الوالد بإلقاء الثوب عليه).
- ٧ - يبدو أن يوسف كان يعلم شيئاً من الغيب، وإلا كيف عرف أن أباه سوف يرتد بصيراً، ﴿...يَأْتِ بِصِيرًا﴾.
- ٨ - لقد داوى الله تعالى يعقوب بالتي كانت هي الداء، فقلب حزنه سروراً وفرحاً، (كان القميص يوماً فاتحة الأحزان واليوم أصبح بشرى خير ومسرة) (*).
- ٩ - يجب على الأبناء الميسورين أن يشملوا برعايتهم ومساعدتهم المعدمين من الأقارب ولا سيما الوالدين، ﴿وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.
- ١٠ - الظروف الاجتماعية تؤدي دوراً في قيام المرء بمسؤولياته ﴿وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ (الفترة التي وصل يوسف بها رحمه حتمت عليه أن يأتي بأهله إلى مصر).

- ١١ - مساعدة الأقربين واجبة مع الحفاظ على حقوق سائر الناس، ﴿وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ﴾.
- ١٢ - في الهجرة وتغيير محل السكن آثار كثيرة منها أنها تعالج الذكريات المؤلمة، ﴿وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.
- ١٣ - من الأفضل للأسرة والأقارب أن يتجاوروا في السكن، ﴿وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.
- ١٤ - لم يتحمل إخوة يوسف وجوده فآلقوا به في الجب، ولكن مروءته اقتضت دعوة إخوته وجميع أفراد أسرته إلى مصر، ﴿وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (*).
- ١٥ - مهما بدر من الأقارب فلا ينبغي قطع صلة الرحم، ﴿وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.
- ١٦ - آن الأوان لمن عانى الأمرين أن يرتاح أخيراً ﴿أَجْمَعِينَ﴾، ما عاد يعقوب يصبر على الفراق.
- ١٧ - اللطف كل اللطف هو عندما يكون شاملاً للجميع من دون استثناء، ﴿أَجْمَعِينَ﴾.
- ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تَفْعِدُونِ﴾ (٩٤)

إشارات:

- «الفصل» إيانة أحد الشيبين من الآخر حتى يكون بينهما فرجة، و﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ خرجت القافلة من مصر، ﴿تَفْعِدُونِ﴾ مشتقة من (فند) وهو ضعف الرأي والسفه.
- خشي يعقوب أن ينسبه أهله إلى السفه والفند، فقال: ﴿لَوْلَا أَن تَفْعِدُونِ﴾، وللأسف، الشيء نفسه حصل مع صحابة نبينا الكريم محمد ﷺ ومن حوله عند احتضاره حين طلب دواة وصحيفة ليكتب لهم كتاباً لن يضلوا بعده أبداً، فقال بعض من كان عنده: «إنَّ الرجلَ ليهجُر»^(١)، فحاولوا بينه وبين الصحيفة.

□ سؤال: كيف يتسنى ليعقوب وحده أن يشعر بريح يوسف؟ ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾.

الجواب: وما المانع في ذلك؟ أليس الوحي مختصاً بالأنبياء دون سواهم، كذلك الأمر في سائر القضايا الأخرى. في معركة الخندق، كان النبي يشارك المؤمنين في حفر الخندق فضرب بمعوله على الصخرة فخرج منها شرارة ضخمة وصاح الرسول ﷺ: «الله أكبر فتحت فارس، الله أكبر فتحت الروم»، لكن بعض ضعيفي الإيمان كانوا يسخرون ويقولون: إن النبي يحفر الخندق لشدة خوفه من الأعداء، ومع ذلك يشر بالفتح بلاد فارس والروم.

□ لعل المراد من ريح يوسف وصول أخبار جديدة سارة عن يوسف، وتعرف هذه الفكرة في علم النفس بـ«التخاطر» أو (Telepathie) وهو اتصال الأفكار بين شخصين ويتم من بعيد بغير طريق الحواس، كأن يقع حادث معين للشخص الأول في زاوية من العالم، ويشعر بها الشخص الثاني.

سأل أحدهم الإمام الباقر ﷺ: أحياناً يغمرني شعور عميق بالحزن لدرجة ينتبه إليه جميع من حولي، فأجاب بأنه: «خلق المسلمون من طينة واحدة وحقيقة واحدة، فما أن يقع لأحدهم سوء في بقعة ما حتى ينتقل شعور الحزن إلى البقية في سائر البقاع»^(١).

□ إذا ربطنا مسألة استشمام ريح يوسف بحاسة الشم، فينبغي أن يكون هذا الأمر معجزة خص الله بها يعقوب.

مثل هذه الحالات كثيراً ما قرأنا عنها في صفحات التاريخ الإسلامي الخالد إذ كان المجاهدون الذين شرفهم الله بالشهادة، يشمون ريح الجنة عندما يشتد أوار الحرب ويحمى وطيس المعركة، وهو ما يعجز فهمنا القاصر عن إدراك كنهه، ومن هؤلاء: الصحابي الجليل عمار بن ياسر الذي ذرف على التسعين وكان يقاتل عن إيمان ويقين ويشم عبق الجنة، فثبت في القتال حتى رزق الشهادة. قد يكون المراد من ريح الجنة في الحالة الروحية والمعنوية التي تنهياً

للإنسان، والتي تضيء على الدعاء والابتهاال عذوبة وحلاوة معنوية، أو ربّما كانت الريح حقيقة واقعية لكنّ عبقتها لا يصيب إلا من كان ذا حظ عظيم.

التعاليم:

- ١ - نقاء السريرة يتيح للإنسان بلوغ كنه الحقائق المعنوية، ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾؛ لكن في نطاق محدود وليس بصورة مطلقة ومتى أراد، لذا فإنّه سمّ ربح القميص بعد ابتعاد القافلة ﴿وَلَمَّا فَصَلَ الْغَيْرُ﴾.
- ٢ - إذا كنّا لا ندرك كنه الحقائق، فعلى الأقل لا نشكّك في منزلة الآخرين، ﴿لَوْلَا أَنْ تُفَيِّدُونِ﴾.
- ٣ - أكثر الناس للحقّ كارهون لذلك يصمون أهل الحق بالسفه، ﴿لَوْلَا أَنْ تُفَيِّدُونِ﴾ (*).
- ٤ - صعب على العالم أن يعاشر الجاهل، ﴿لَوْلَا أَنْ تُفَيِّدُونِ﴾.

﴿قَالُوا تَاللّٰهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلٰلِكَ الْكَبِيرِ﴾ (٩٥)

إشارات:

- تقدّم في الآية الثامنة من هذه السورة أنّ إخوة يوسف قالوا عن أبيهم: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلٰلٍ مُّبِينٍ﴾، وفي هذه الآية يقولون: ﴿لَفِي ضَلٰلِكَ الْكَبِيرِ﴾؛ أي لا زلت تتخبّط في ضلالك السابق.
- لا يستطيع الفرد العادي أن ينظر إلى أولياء الله من منظار فهمه هو ويحكم إن كان هذا الشيء ممكناً أم لا، يقول الإمام علي عليه السلام: «الناس أعداء ما جهلوا».

التعاليم:

- ١ - لا نجعل من أنفسنا ميزاناً نحكم من خلاله على أعمال الصالحين، ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلٰلِكَ﴾؛ (نعت إخوة يوسف أباهم بالضلال ناجم عن مقارنتهم فهمه مع فهمهم هم).
- ٢ - ظلّ يعقوب مؤمناً بحياة يوسف طيلة فراقه وكان يعلن ذلك لمن حوله؛ رغم أنهم كانوا يرمونه بالضلال والسفه، ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلٰلِكَ الْكَبِيرِ﴾.

﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَازْتَدَّ بِصِيرًا
قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٩٦)

إشارات:

□ ﴿وَأَيُّضَتَ عَيْنَاهُ﴾ تعبير عن ذهاب بصره، في مقابل ﴿بَصِيرًا﴾ أي عاد إليه بصره، ويدل ذلك على تأثير الحزن والفرح الشديدين على البصر، وربما كان المراد العمى التام كما يدل على ذلك ظاهر الآية ﴿فَازْتَدَّ بِصِيرًا﴾؛ فذلك يكون بمثابة معجزة يبرهن عليها القرآن الكريم.

□ يوم لك ويوم عليك، في يوم ينقل أبناء يعقوب خبر أكل الذنب ليوسف وفي يوم آخر ينقلون إليه خبر وجود يوسف على رأس السلطة في مصر.

التعاليم:

- ١ - العلم الإلهي هو مصدر إلهام الأنبياء، ﴿أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ﴾.
- ٢ - قلوب الأنبياء مطمئنة لتحقيق الوعد الإلهي، ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ﴾؛ (أي ألم أقول لكم ألا تياسوا من رحمة الله واذهبوا إلى مصر وتحسبوا يوسف).
- ٣ - على عكس أبنائه، كان يعقوب واثقاً من حياة يوسف ولقائه مجدداً وانتهاء أمد فراقهما، ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ﴾.
- ٤ - الابن الضالّ يذهب ببصر أبيه، والابن البار يعيده إليه، ﴿وَأَيُّضَتَ عَيْنَاهُ... فَازْتَدَّ﴾.
- ٥ - قوانين الطبيعة تحكمها إرادة الله ومشيته، ﴿فَازْتَدَّ بِصِيرًا﴾.
- ٦ - ربما كان لباس أولياء الله وأشياؤهم ذات قيمة وأهمية، ﴿أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَازْتَدَّ بِصِيرًا﴾.
- ٧ - وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، كان القحط قاسياً لكنه كان سبباً في إطلاق سراح بريء مثل يوسف ووصوله إلى رأس هرم السلطة، ووصاله بأبيه يعقوب وانتهاء القحط، ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿قَالُوا يَتَابَانَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ (٩٧)
 قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾

إشارات:

□ كان أبناء يعقوب موحدين ومؤمنين بالله وعلى علم بمنزلة أبيهم ﴿يَتَابَانَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا﴾، وبالتالي نعتهم أباهم بالضلال ليس المراد منه فساد العقيدة، بل ضلاله في حبه ليوسف.

□ للظالم ثلاثة أيام: يوم للقدرة، ويوم للمهلة، ويوم للندم.

وللمظلوم أيضاً أيام ثلاثة: يوم الحسرة يُظلم فيه، ويوم الحيرة يتدبر لنفسه، ويوم النصرة في هذه الدنيا أو في الآخرة.

□ أولئك الذين قالوا بعد خطيئهم الأول: ﴿إِنَّا أَبْنَا لَنِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، قالوا بعد أن أدركوا خطاهم: ﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾.

□ ورد في تفسير مجمع البيان وأطيب البيان أن النبي يعقوب عندما وعد أبناءه بأن يستغفر لهم: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ﴾، كان ينتظر ليلة الجمعة أو السحر للدعاء.

التعاليم:

- ١ - الظلم مرتعه وخيم، شتان بين يوم إلقاء أبناء يعقوب يوسف في الجب، ويوم ندمهم وطلبهم المغفرة، ﴿يَتَابَانَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا﴾.
- ٢ - يجوز التوسل بأولياء الله للصفح عن الذنوب، ﴿يَتَابَانَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا﴾.
- ٣ - لدعاء الوالد أثر خاص، ﴿يَتَابَانَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا﴾.
- ٤ - الوقت مناسب دائماً للتوبة، ﴿أَسْتَغْفِرُ لَنَا﴾.
- ٥ - الاعتراف بالخطأ يفتح الباب على الصفر، ﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾.
- ٦ - للدعاء أوقات خاصة، ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ﴾.
- ٧ - ليس من خصال الوالد الحقد أو أن يحفظ إساءة الأبناء في ذاكرته، ﴿أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ﴾.

- ٨ - إذا اعترف المخطئ، فلنكف عن إيلامه، فعندما قال الأبناء: ﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾، قال الأب: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ﴾.
- ٩ - لنذكر المخطئ بمغفرة الله، ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾.
- ١٠ - دعاء الأولياء وتوسلاتهم مشرة مع الصبر، ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ﴾.
- ١١ - لقد تجاوز النبي يعقوب عن حقه، وبالنسبة إلى الحق الإلهي وعد أبناءه بالاستغفار، ﴿أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾.
- ١٢ - إن الله يشمل برحمته أعظم الذنوب والمذنبين، ﴿هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾؛ على الرغم من أن الأذى قد طال لسنوات مديدة اثنين من أنبياء الله، فلا يأس من مغفرته.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَىٰ أَبِيهِ
وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ (٩٩)

إشارات:

□ لا أدري كيف أدون هذا الجزء من القصة! لقد خرج يوسف إلى خارج المدينة لاستقبال والديه فنصب الخيام هناك ووقف ينتظر قدومهم ليدخلهم إلى أرض مصر معززين ومكرمين ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ... ادْخُلُوا مِصْرَ﴾، وبديهي أنهم عندما أرادوا السفر إلى مصر خرجت كنعان عن بكرة أبيها في توديع يعقوب وأسرته.

لقد سمع الناس بعد سنوات طويلة خبر حياة يوسف وسلامته وكيف عاد ليعقوب بصره ولهفته للقاء ولده يوسف، لقد سمعوا بذلك وشاركوا الأب والابن فرحتهم بنهاية الأحزان، لا سيما وأن يوسف قد أصبح المسؤول عن خزائن مصر، وهو الذي لم ينسهم أبداً في سنوات القحط المريرة عندما كان يرسل الميرة إلى كنعان. كيف لليراع أن يصف هذه الأشواق والمشاعر الجياشة ويكتب نهايتها.

□ نستشف من كلمة ﴿أَبُيُوسُفَ﴾ في الآية بأنَّ والدَةَ النبي يوسف كانت على قيد الحياة؛ لكن السؤال الذي لم أعثر له على جواب هو: لماذا لم تأت القصة على ذكر بكاء الأم ومعاناتها وردود فعلها إزاء ما حصل لولدها طيلة هذه السنوات؟

□ ورد في الأخبار أنَّ يعقوب ألحَّ على يوسف وأقسم عليه أن يعيد عليه ذكر قصته، فما أن شرع يوسف يسرد قصته وكيف أنَّ إخوته اقتادوه إلى البئر وقاموا بتهديده ونزع ثيابه، حتى خرَّ يعقوب على الأرض مغشياً عليه، وعندما أفاق طلب من يوسف مواصلة سرد القصة وألحَّ عليه، ولم يكفَّ حتى أقسم يوسف عليه بإبراهيم وإسماعيل وإسحاق أن يعفيه من سردها فوافق يعقوب^(١).

التعاليم:

- ١ - الخروج إلى أطراف المدينة لاستقبال الضيوف عادة حميدة، يستفاد من الآية ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾ أنَّ مراسم استقبال يوسف ليعقوب تمت خارج المدينة، حيث نصب يوسف ورهطه الخيام هناك، وما أن وصلت القافلة حتى قال لهم يوسف: ﴿أَدْخُلُوا وَمَصَرَّ﴾.
- ٢ - لا ينبغي أن يحول المنصب والجاه دون إقامة فروض الطاعة للوالدين، ﴿أَدْخُلُوا وَمَصَرَّ﴾.
- ٣ - عند الحديث عن الأمن في البلاد، يجب على المسؤول الأول في البلاد أن لا ينسى الطاف الله ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾؛ إذ لن يستتب الأمن إلا بمشيئة الله وإرادته، كالذين جعلوا من الجبال مساكن لهم ليأمنوا من عذاب الله، فلما جاءتهم الصيحة قلبت عالي بلادهم سافلها، ﴿وَكَانُوا يَنْجُتُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَوْمَئِذٍ فَآَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾^(٢).
- ٤ - الأمن معيار مهم لاختيار السكن، ﴿ءَامِنِينَ﴾.
- ٥ - عندما يحكم يوسف وأمثاله، لا بد من استتباب الأمن، ﴿ءَامِنِينَ﴾.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ
مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ
وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي
إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

إشارات:

- «العرش» سرير الملك، «الخرّ» السقوط الذي يسمع منه الصوت، «البدو» البادية والصحراء، و«النزع» الدخول في أمر لإفساده.
- «لَطِيفٌ» من أسماء الله الحسنى، بمعنى أن قدرته تنفذ إلى ثنايا الأعمال المعقدة، ووجه استخدام اللفظ هو أن سيرة يوسف كانت مليئة بالعقد التي نفذت إليها قدرة الله وقامت بحلّها.
- أضحى يوسف كعبة، وخرّ أبواه وإخوته أمامه ساجدين لله تكريماً له وشكراً لله، ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾؛ ولو كانت هذه السجدة لغير الله شركاً لما قام يعقوب ويوسف (وهما نبيان) بالسماح بهذا، ربّما كانت هذه السجدة علامة على تواضع وليست عبادة، وفي هذه الحالة تكون سجدة ليوسف وبالتالي لا غبار عليها.
- كما قال النبي يعقوب لولده يوسف في أول القصة: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾، أعاد يوسف العبارة بصيغة أخرى فقال: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾.
- من الملفت أن نرى النبي يعقوب يقول ليوسف في بداية القصة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ الآية ٦، وفي ختام القصة، قال عبارة بالمعنى نفسه ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

التعاليم:

- ١ - اعلم أنك مهما بلغت من منزلة فوالداك فوقك، ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ﴾ الفضل على قدر المشقة.

- ٢ - الأنبياء أيضاً جلسوا على أريكة الحكم، ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾.
- ٣ - تقديم الاحترام إلى حكام العدل والتواضع أمامهم أمر واجب، ﴿وَحَرُّوا لَهُ سُجْدًا﴾.
- ٤ - سجود يعقوب وأبناءه ليوسف كان تأويلاً لرؤيا يوسف، ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ وَحَرُّوا لَهُ سُجْدًا﴾.
- ٥ - سبحانه الله الحليم، أحياناً قد تستغرق إجابة دعاء أو تأويل رؤيا سنوات مديدة، ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾.
- ٦ - الآمال والأحلام تتحقق بمشيئة الله وإرادته، ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾، لم يقل يوسف شيئاً عن صبره وجلده بل نسب ذلك كله إلى فضل الله.
- ٧ - رؤيا أولياء الله حق، ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾.
- ٨ - في تعاطينا مع الأسباب والوسائط ليكون هدفنا الله تعالى فهو الرقيب، لقد تضافرت أسباب وعوامل عدة وأدت إلى وصول يوسف إلى المقام الذي وصل إليه، لكنه مع ذلك يقول: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي﴾.
- ٩ - لنسّع عند اللقاء تحاشي ذكر آلام الماضي، أول ما تفوّه به يوسف عند لقاء أبيه، ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ ولم ينبس ببنت شفة عما جرى عليه من مأساة في البئر والسجن والتهم والافتراءات، بل تحدّث عن خلاصه من السجن.
- ١٠ - لتتخلّ بالشهامة والرجولة ولا نؤذي ضيفنا (في الآية الكريمة يطرح يوسف مسألة خروجه من السجن؛ لكنه لا يذكر شيئاً عن خروجه من البئر لثلاثين عاماً من مشاعر إخوته)، ﴿إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾.
- ١١ - لنكن من أهل الشهامة والفتوة لا من أهل العقد والثأر. يقول يوسف: ﴿نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾، إنه فعل الشيطان، وإلا فإن إخوتي ليسوا بأشرار.

١٢ - ينظر أولياء الله إلى دخول السجن وإلى الخروج منه في إطار التوحيد والربوبية، ﴿رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾؛ (الآيات السابقة) ﴿أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾.

١٣ - عند تنامي الشدة يكون الفرج، ﴿إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾.

١٤ - حياة البداوة اضطرار وليست قيمة، لذلك تشير الآية إلى نعمة انتقال حياتهم من البداوة إلى المدينة، ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ... وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾.

١٥ - وجود الوالدين بقرب الأبناء يعدّ من الطاف الله تعالى، ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ... وَجَاءَ بِكُمْ﴾.

١٦ - كانت مصر في عهد النبي يوسف تتمتع بحضارة مدنية بينما كانت أرض كنعان تعيش حياة بدواة، ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾.

١٧ - السفر ضروري لحياة أفضل، ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾.

١٨ - المؤمن المخلص يعزو كل شيء إلى الله ولا يتبرّم من الحوادث، (كلمات هذه الآية من قبيل «جَعَلَهَا رَبِّي، أَحْسَنَ بِي، أَخْرَجَنِي، وَجَاءَ بِكُمْ» تدل جميعها على اللطف الإلهي).

١٩ - يجب أن يعلم أعضاء الأسرة الواحدة أنّ الشيطان يترصّ بهم، ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ﴾.

٢٠ - لتجنب النظرة الاستعلائية ﴿بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾، في هذه الآية لم يقل يوسف: (وسوس لهم الشيطان)، بل قال: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾، أي جعل نفسه بمصافهم.

٢١ - أفعال الله مقترنة بالرفق واللطف والإمهال، ﴿إِنَّ رَحْمَتِي لَظَافَةٌ﴾.

٢٢ - تقع الأحداث كلّها، حلوها ومرّها، في إطار العلم والحكمة الإلهيين، ﴿الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

٢٣ - بعد العفو لا داعي للإحراج وتذكير المذنب بذنبه؛ إذ لم يشر يوسف إلى البثر وقصته.

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ ﴿١٠١﴾

إشارات:

□ دأب الأولياء الصالحين أنهم كلما نظروا إلى قدرتهم وشأنهم تذكروا قدرة الله عليهم فيقولون: ألهم، كل ما نملك هو من عندك، وكذلك قال يوسف، فقد صرف الحديث عن أبيه إلى ربه.

أعطى الله ملك مصر لاثنين، لفرعون الذي رأى أنه من عند نفسه إذ قال: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ يَصْرَ﴾، وليوسف الذي رأى أنه من عند الله ﴿آتَيْنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾.

□ يطنى فكر إبراهيم على ذريته وأبنائه، فقد قال: ﴿أَسْلَمْتُ رَبِّي الْعَلِيِّنَ﴾^(١)، ثم من بعده يعقوب يوصي أبناءه ألا يموتوا إلا على الإسلام ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(٢)، وهنا يسأل ولد يعقوب ربه أن يتوفاه مسلماً ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾، على أي حال، فإن إبراهيم كان من الصالحين ﴿وَأِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَكِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٣)، ويسأل يوسف ربه أن يلحقه به، ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

□ لقد حفظ الله تعالى يوسف من كل سوء ووهبه العلم والحكم وأبعد عنه كل مكروه، ومع ذلك كان قلقاً على عاقبته ومصيره، فكيف بالذين جمعوا ثرواتهم وعلومهم بالخداع والحيلة، ترى أي مصير ينتظر أولئك؟

□ لقد علّم الله تعالى آدم الأسماء ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ﴾^(٤)، وعلّم النبي داود صنع الدروع، ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾^(٥)، وسليمان منطق الطير ﴿عَلَّمْنَا مَطِيقَ الطَّيْرِ﴾^(٦)، ويوسف تأويل الأحلام ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾، ونبينا الكريم ﷺ علوم الأولين والآخرين، ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾^(٧).

(٥) سورة الأنبياء: الآية ٨٠.

(٦) سورة النمل: الآية ١٦.

(٧) سورة النساء: الآية ١١٣.

(١) سورة البقرة: الآية ١٣١.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٣٢.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٣٠.

(٤) سورة البقرة: الآية ٣١.

التعاليم:

- ١ - منح السلطة والقوة شأن إلهي خاص، ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾.
- ٢ - إرادة الله هي العامل الرئيس وراء قيام الدول وهي لا تأتي بالأفكار والأموال والسطوة وكثرة الأعوان، ﴿ءَاتَيْتَنِي﴾.
- ٣ - إن يهب الله نعمة للصالحين أو يسلبهم إياها، فهي لإعدادهم وتقويمهم ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي، رَبِّ السَّيِّئُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾.
- ٤ - السلطة والحكم مسؤولية العلماء وليس الجهلة، ﴿ءَاتَيْتَنِي... وَعَلَّمْتَنِي﴾، علم يوسف كان سبيله إلى الحكم.
- ٥ - فوّض أمرك إلى الله في الأحوال كلها، ﴿أَنْتَ وَلِيُّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.
- ٦ - السلطة والحكومة والسياسة كلها عوامل تخرج المرء من دينه إلّا من رحم الله، ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾؛ (في البشر دعا يوسف بدعاء، وفي السجن دعا بدعاء آخر، وبعد أن وصل إلى الحكم قال: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾).
- ٧ - المؤمنون لا يغفلون عن ذكر الموت والقيامة وهم في أوج اقتدارهم وعزّهم، ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِيقِي بِالصَّلَاحِينَ﴾. (كزوجة فرعون التي كانت تسكن قصر فرعون وتفكر بالقيامة وتقول: ﴿رَبِّ آتِنِي لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾).
- ٨ - عظمة الله لا تقتصر على النعم التي ينعم بها علينا، بل لأنّه خالق السموات والأرض، ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.
- ٩ - كان يوسف فخر لا لأنّه أصبح حاكماً؛ بل لأنّ الله حاكم عليه، ﴿أَنْتَ وَلِيُّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.
- ١٠ - حسن العاقبة والثبات على فعل الخير، أهمّ من الشروع فيه، كان الأنبياء يرجون حسن العاقبة، ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾.
- ١١ - من آداب الدعاء أن نبداً أولاً باستذكار نعم الله، ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي﴾، ثم نقدّم حاجاتنا بين يديه تعالى، ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾.
- ١٢ - لا تنسك قدرتك ذكر الله، ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي﴾.

- ١٣ - لم ينس يوسف ذكر ربه ودعاءه حتى في أسعد الظروف، ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْنِي﴾ (*).
- ١٤ - العلم والمعرفة يؤديان دوراً مهماً في إرساء أسس حكم صحيح وعادل، ﴿قَدْ ءَاتَيْنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي﴾ (*).
- ١٥ - ينبغي ألا يكون دعاؤنا مقتصرًا على جوانب الحياة المادية، ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.
- ١٦ - حاكمية الإنسان محدودة وضيقة ﴿ءَاتَيْنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾، بينما حاكمية الله تغطي الوجود بأكمله، ﴿فَاطِيرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.
- ١٧ - الله الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يفرج الكرب عن عبده وينجيه من البلايا ويرفعه إلى أعلى الدرجات ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْنِي مِنَ الْمُلْكِ... فَاطِيرَ السَّمَوَاتِ...﴾ (*).
- ١٨ - ينبغي ألا نغترّ بإيماننا، لأنّ المهم هو البقاء على الإيمان حتى النهاية، ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ (*).
- ١٩ - غاية الإيمان التسليم لله، ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ (*).
- ٢٠ - حسن العاقبة أفضل نعمة ينعم بها الله على عبده، ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾.
- ٢١ - لا دوام ولا خلود لأي ملك أو حاكم، ﴿...تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ (*).
- ٢٢ - منية الصالحين أن يموتوا على الإيمان ويلحقوا بالصالحين، ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (*).
- ٢٣ - المخلصون ينظرون إلى الحكومة كوسيلة للخدمة والصلاح، ﴿وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (*).
- ٢٤ - للصالحين أعلى المنازل في الآخرة (كانت أمنية يوسف أن يلحق بهم)، ﴿وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (*).

خصائص النبي يوسف (شروط القائد الناجح)

□ لا بدّ لنا ونحن ننهي قصة النبي يوسف ﷺ من أن نرسم بعضاً من ملامحه:

- ١ - التوجه إلى الله والتمسك بحبله في الأزمات، ﴿رَبِّ السَّجُنِ أَحَبُّ﴾، وفي المسرات ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ﴾.
- ٢ - تركه أي خط منحرف من أي فئة كانت، ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَنُفُورٌ﴾.
- ٣ - اقتفاء صراط السلف المستقيم، ﴿وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَائِي إِبْرَاهِيمَ... وَالْحَقِّنِي بِالصَّلَاحِينَ﴾.
- ٤ - الثبات في طريق رضا الله حتى آخر رمق، ﴿تَوَقَّئِي مُسْلِمًا﴾.
- ٥ - الوقار إزاء الغرماء، ﴿أَحَبُّ إِلَيَّ أَيُّنَا مَيِّتًا﴾.
- ٦ - الصبر على الحوادث وعوادي الدهر، ﴿يَجْعَلُوهُ فِي غَيَّبَتِ الْجُبِّ... أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾.
- ٧ - العفة وإيثار التقوى على الرفاه، ﴿مَعَاذَ اللَّهِ... رَبِّ السَّجُنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي﴾.
- ٨ - كتمان السر عن الغرباء، ﴿وَشَرَّوهُ بِشَمَنِ بَخْسٍ﴾.
- ٩ - العلم الغزير، ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكَ﴾.
- ١٠ - الفصاحة، ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾.
- ١١ - الأسرة العريقة، ﴿ءَابَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾.
- ١٢ - التسامح مع من يختلف معه فكراً، ﴿يُصَلِّحِي السَّجُنَ﴾.
- ١٣ - الإخلاص، ﴿كَانَ مِنَ الْمُتَّخِصِّينَ﴾.
- ١٤ - الرغبة في هداية الآخرين، ﴿ءَأَزِيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ﴾.
- ١٥ - القدرة على الإبداع، ﴿جَعَلَ السَّقَايَةَ ، أَتَوْنِي بِأَجْ لَكُمْ ، فَذَرُوهُ فِي سُلْبِهِ﴾.
- ١٦ - التواضع، ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾.
- ١٧ - العفو والصفح، ﴿لَا تَقْرِبْ عَلَيْكُمُ﴾.
- ١٨ - المروءة والشهامة، ﴿نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾.

١٩ - الأمانة، ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا﴾.

٢٠ - الضيافة، ﴿وَأَنَا خَيْرَ الْمُنْزِلِينَ﴾.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾

﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ ﴿١٠٦﴾

التعاليم:

١ - يرتبط الأنبياء مع عالم الغيب عن طريق الوحي، ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾.

٢ - ليس جميع أنباء الغيب علمها عند الأنبياء، ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾.

٣ - ما لم يشأ الله، لن ينفع قرار الناس ﴿أَمْرُهُمْ﴾، ولا إجماعهم ﴿أَجْمَعُوا﴾ ولا مؤامراتهم ﴿يَمْكُرُونَ﴾.

٤ - في غمرة تتابع الحوادث وتتاليها لا يجوز أن ننسى نقطة البداية الأولى والمحور الرئيس الذي تدور حوله القصة ألا وهي مؤامرة القضاء على يوسف، ﴿أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾.

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٠٦﴾

إشارات:

□ «الحرص» فرط الشره وفرط الرغبة.

التعاليم:

١ - تكررت عبارة أكثر الناس في القرآن الكريم مع الانتقاد، ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ... بِمُؤْمِنِينَ﴾.

٢ - يحرص الأنبياء بشدة على أن يؤمن الناس، ﴿حَرَصْتَ﴾.

٣ - ليس كل حرص مذموماً (إذ يحرص الأنبياء على إيمان الناس)، ﴿حَرَصْتَ﴾ (*).

٤ - ينبغي ألا يحول عدم إيمان أكثر الناس وعنادهم دون الدعوة إلى الدين وتبيين الحقيقة، ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾^(*).

٥ - عدم إيمان معظم الناس ليس بسبب قصور الأنبياء في واجبه، بل هو خيار الناس الذين أعرضوا عن الإيمان، ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾

إشارات:

□ لم يطلب نبينا الكريم ﷺ على غرار الأنبياء من قبله أجراً على هداية الناس؛ لأن ذلك سيجعل قبول الدعوة ثقيلًا، جاء في الآية ٤٠ من سورة الطور، ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرِمٍ مُثْقَلُونَ﴾؛ وإذا ورد في آية أخرى من القرآن الكريم: إِنْ أَجْرُ الرِّسَالَةِ هُوَ مَوَدَّةُ ذَوِي الْقُرْبَى ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةُ فِي الْقُرْبَى﴾^(١)، فذلك لأن طاعة الناس لأهل البيت ﷺ هي لفائدة الناس أنفسهم وليس للنبي الكريم ﷺ؛ لأنه في موضع آخر يقول: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾^(٢)، بلى من أحب أهل البيت ﷺ فليطعمهم لأن طاعتهم من طاعة النبي والله.

□ القرآن الكريم هو ذكر لأنه:

- ذكر للآيات والنعم والصفات الإلهية.

- ذكر لماضي الإنسان ومستقبله.

- ذكر لعوامل سقوط المجتمع ونهوضه.

- ذكر لمشاهد القيامة.

- ذكر لعظمة الوجود.

- ذكر لسيرة الشخصيات الصانعة للتاريخ.

(١) سورة الشورى: الآية ٢٣.

(٢) سورة سبأ: الآية ٤٧.

□ لا بدّ من تعلّم معارف القرآن وأحكامه لتكون حاضرة في الذهن، ذلك أنّ كلمة «الذكر» تطلق على العلم والمعرفة التي تعتمل في الذهن في هذه اللحظة وعدم الغفلة عنها.

التعاليم:

- ١ - كما الأنبياء لا يسألون الناس أجراً على الهداية، كذلك ينبغي للداعية ألا تكون له مطالب من الناس، ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾.
- ٢ - القبيح أن يطلب الداعية أجراً إزاء هداية الناس، لا أن يتلقاها ﴿تَسْأَلُهُمْ﴾.
- ٣ - معارف القرآن معارف بالفطرة، وهي متاحة للناس جميعاً، (كلمة ﴿ذِكْرٌ﴾ هي أن يعلم الإنسان شيئاً في داخله كان قد نسيه).
- ٤ - رسالة الأنبياء هي إيقاظ فطرة الناس، ﴿ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾.
- ٥ - رسالة نبي الإسلام ﷺ رسالة عالمية، ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾.
- ٦ - ينبغي للداعية ألا ييأس لعدم إيمان فريق من الناس وإن كانوا أكثرية، ولينقل مهمته إلى منطقة أخرى، ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾.

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ

يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

إشارات:

□ نزلت هذه الآية الكريمة لتخفّف عن النبي الكريم ﷺ وعن كل إمام حقّ، ولتقول لهم ألا يحزنوا لعدم إيمان الناس برسالاتهم، فهم (الناس) يمرّون في كل لحظة على آيات قدرة الله وحكمته في الخلق، من دون أن يتجشّموا عناء التفكير والتدبّر فيها. آيات من قبيل الظواهر الطبيعية، الكسوف، والخسوف، والصواعق، وحركة الكواكب والمجرات في السماء إلى غير ذلك، يراها الإنسان ويعرض عنها.

□ تنطوي عبارة ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ على ثلاثة معانٍ هي:

- ١ - المعنى الأول هو مشاهدتها.
 - ٢ - المعنى الثاني حركة الأرض ودورانها فيدور الإنسان معها ويرى كل هذه الأجرام السماوية^(١).
 - ٣ - المعنى الثالث، التنبؤ باكتشاف الإنسان لأعماق الكون بالسفن الفضائية وسبر أغواره^(٢).
- الإعراض أكثر خطورة من الغفلة، فعلى الرغم من وفرة الآيات ﴿وَكَايْنِ﴾، وتعاطي الإنسان معها باستمرار ﴿يَمُرُّونَ﴾؛ فإنه ينساها لا بل أخطر من ذلك، إنه يعرض عنها في بعض الأحيان.

التعاليم:

- ١ - الوجود برمته دليل على التوحيد وبرهان، ﴿ءَايَةٍ﴾.
- ٢ - إذا أعمى العناد بصيرة الإنسان فسيعمى عن النظر إلى أي آية، ﴿وَكَايْنِ مِنْ ءَايَةٍ... يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾.
- ٣ - النظرة السطحية البعيدة عن أي تأمل أو فكر لا تفتح درب الهداية والرشاد أمام الإنسان، ﴿يَمُرُّونَ... مُعْرِضُونَ﴾.
- ٤ - العلم وحده لا يكفي، إذ لا بد من التسليم للحق ليتحقق الإيمان، ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا...﴾.
- ٥ - ليس المهم أحسن القصص بل التهيؤ لتلقي الدروس العظيمة من هذه القصص.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾

إشارات:

□ في رواية عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: «إِنَّهُ شِرْكٌ لَا يَبْلُغُ بِهِ الْكُفْرُ»^(٣).

(٣) بحار الأنوار، ج ٥٥، ص ٣١٨.

(١) الميزان في تفسير القرآن.

(٢) آية الله صافي، سفر نامه حج.

كما ينقل عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «الشرك أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء»^(١).

وعن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير الآية أعلاه: «شرك طاعة وليس شرك عبادة...»^(٢).

كما نقرأ في روايات أخرى أنَّ المقصود بالشرك في هذه الآية هو شرك النعمة كأن تقول مثلاً: فلان ساعدني في إنجاز عملي ولولاه لكنت هلك.

التعاليم:

١ - للإيمان درجات ومراتب، والإيمان الخالص هو الذي لا يشوبه أي شرك ولو قليل، ﴿وَمَا يُؤْمِنُ... إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾.

علائم المؤمن المخلص:

١ - في الإنفاق: لا يرجو جزاء ولا ثناء من أحد غير الله، ﴿لَا تُبَدُّ يَنْكَرُ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾^(٣).

٢ - في العبادة: عبوديته خالصة لله وحده، ﴿وَلَا يَشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(٤).

٣ - في الدعوة: لا يريد أجراً إلا من عند الله، ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾^(٥).

٤ - في الزواج: يضع نصب عينيه الإيمان، ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٦).

٥ - في تعامله مع الناس: يطرح كل شيء جانباً عدا رضا الله، ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾^(٧).

(٥) سورة هود: الآية ٢٩.

(٦) سورة النور: الآية ٣٢.

(٧) سورة الأنعام: الآية ٩١.

(١) سفينة البحار، ج ١، ص ٦٩٧.

(٢) الكافي، ج ٢، ص ٢٩٢.

(٣) سورة الإنسان: الآية ٩.

(٤) سورة الكهف: الآية ١١٠.

٦ - في حربه الأعداء: لا يخشى في الحرب أحداً إلا الله، ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾^(١).

٧ - المحبة: حب الله عنده يضاهي أي حب آخر، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾^(٢).

٨ - في التجارة والعمل والكسب: لا يلهمهم شيء عن ذكر الله، ﴿يَجَالُ لَا لِلْهِمِّمْ يَحْدَرُ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾^(٣).

علائم المؤمن الذي اختلط إيمانه بالشرك:

١ - يرجو العزة من غير الله، ﴿أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ﴾^(٤).

٢ - في العمل: يخلط العمل السيئ بالصالح، ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾^(٥).

٣ - يتعامل مع الآخرين بالحمية والتعصب الجاهلي، ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾^(٦).

٤ - في العبادة: يشوب عبادته الاستخفاف والرياء، ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾^(٧).

٥ - في الحرب: يخاف من الناس، ﴿يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ﴾^(٨).

٦ - في التجارة وشؤون الدنيا: منغمس في الطمع والحرص، ﴿أَلْهَمَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾^(٩).

٧ - في اختياره الدين والدنيا: يركض وراء الدنيا ويترك النبي ﷺ، ﴿وَإِذَا رَأَوْا يَحْدَرُوا أَوْ مَوًّا أَنْفَضُوا إِلَيْهَا وَتُزَكُّوكَ قَائِمًا﴾^(١٠).

(٦) سورة المؤمنون: الآية ٥٣.

(٧) سورة الماعون: الآيتان ٥ - ٦.

(٨) سورة النساء: الآية ٧٧.

(٩) سورة التكاثر: الآية ١.

(١٠) سورة الجمعة: الآية ١١.

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٩.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٦٥.

(٣) سورة النور: الآية ٣٧.

(٤) سورة النساء: الآية ١٣٩.

(٥) سورة التوبة: الآية ١٠٢.

﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ
أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٠٧)

إشارات:

□ «الغاشية» النابتة أو العقاب يصيب الفرد أو المجتمع.

التعاليم:

- ١ - لا يأمن أحد على نفسه، ﴿أَفَأَمِنُوا﴾.
- ٢ - افتراض الغضب الإلهي يكفي لدفع الإنسان نحو جادة الحق والصواب، بيد أن المشكلة هي في أن البعض لا يحتمل حتى هذا الافتراض، ﴿أَفَأَمِنُوا﴾.
- ٣ - عذاب الله شامل ولا مهرب منه، ﴿غَشِيَةٌ﴾.
- ٤ - قليل من العذاب يكفي لقلب أمور الإنسان رأساً على عقب، ﴿غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ﴾.
- ٥ - ذكر القيامة يربّي الإنسان ويردعه، ﴿تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ﴾.

﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ
أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٠٨)

إشارات:

□ الداعية يختلف أمره عن عامة الناس، كما ذكرنا بالنسبة إلى الآيتين السابقتين فإن إيمان معظم الناس مشوب بالشرك، ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ﴾ في حين أن رسول السماء يقول: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

التعاليم:

- ١ - طريق الأنبياء واضح أمام الجميع، ﴿هَٰذِهِ سَبِيلِي﴾.
- ٢ - سالكو طريق الحق يجب أن يعلنوا عن مواقفهم بصراحة من دون مواربة أو خوف، ﴿هَٰذِهِ سَبِيلِي﴾ (*).
- ٣ - يجب أن يدعوا القائد إلى الله لا إلى نفسه، ﴿أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ﴾.

- ٤ - ينبغي بالقائد أن يتحلّى بالبصيرة، ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾،
- ٥ - دعوة الناس إلى فعل ما يجب أن يقترن بالتبصير والتوعية، ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ (*).
- ٦ - أتباع النبي يجب أن يكون كل منهم داعية يدعو الناس إلى الله بالبصيرة والوعي، ﴿أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ... أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾.
- ٧ - محور الدعوة تنزيه الله من أي شرك وشراكة، ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾.
- ٨ - الركن الركين للدين الإسلامي هو التوحيد ونفي الشرك، ﴿أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ﴾.
- ٩ - يجب أن يكون الدعاة متزهين مخلصين، ﴿وَمَا أَنَا﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ
أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٠٩)

إشارات:

□ كانت حجة المنكرين لدعوة الأنبياء دائماً هي كيف يكون النبي كسائر البشر والحجة نفسها أطلقها الناس على دعوة نبينا الكريم ﷺ إذ جاءت هذه الآية كردة وإنذار لهم في آن معاً.

التعاليم:

- ١ - جميع الأنبياء كانوا رجالاً ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾، وربما كان ذلك لأن الدعوة والهجرة والسعي أسهل على الرجل مقارنة بالمرأة.
- ٢ - علوم الأنبياء هي علوم وحيانية ويصطلح عليها بالعلوم اللدنية، ﴿نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾.
- ٣ - الأنبياء بشر ويعيشون مع البشر (ليسوا ملائكة ولا أفراد منعزلين أو مرفهين)، ﴿مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾.
- ٤ - يجب أن يكون للسياحة والسفر هدف ومعنى، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾.
- ٥ - المشاهدة العينية هي الأسلوب الأكثر تأثيراً في معرفة الحقيقة ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾.

- ٦ - السياحة والسفر في أرجاء المعمورة واستلهاهم العبر والدروس من التاريخ أمر مؤثر جداً في الهداية والرشاد، ﴿فَيَنْظُرُوا﴾.
- ٧ - المحافظة على الآثار التاريخية مسألة ضرورية من أجل أن يعتبر الآتون، ﴿فَيَنْظُرُوا﴾.
- ٨ - إرسال الرسل ونزول الوحي وإهلاك المنكرين المعاندين هو من السنن الإلهية الثابتة في التاريخ، ﴿كَيْفَ كَانَ عَقِبُهُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.
- ٩ - لن يجني الكفار جراء إنكارهم دعوة الأنبياء غير العذاب والذل، لكن المتقين يتلقون نصيبهم في الآخرة وهي خير من الدنيا، ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾.
- ١٠ - الهدف من رسالة الأنبياء والقرآن هو أن يتدبر الإنسان ويفكر، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.
- ١١ - العقل يضع الإنسان على طريق الأنبياء، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿حَقَّ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ
نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١﴾﴾

إشارات:

- لقد ثبت الأنبياء عبر التاريخ على دعوتهم ومواقفهم ولم يكفوا إلا عندما يشوا من هداية الناس وإرشادهم وفي المقابل لم يكف المنكرون عن عنادهم ولجأجتهم، ومن أمثلة ذلك نقرأ في القرآن:
- (١) أمثلة على بأس الأنبياء من هداية أقوامهم:

استمرت دعوة النبي نوح عليه السلام بين قومه قروناً عدّة ولكن مع ذلك لم يؤمن به إلا نفر قليل، ﴿لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾^(١)؛ عند ذاك دعا عليهم بكلمات تنم عن اليأس من هدايتهم ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِجْرًا﴾^(٢)، الأمر نفسه نجده في قصص كل من الأنبياء هود وصالح وشعيب وموسى وعيسى عليهم السلام.

(١) سورة هود: الآية ٣٦.

(٢) سورة نوح: الآية ٢٧.

(ب) أمثلة على سوء ظن الناس بالأنبياء:

لم يأخذ الكفار وعيد الأنبياء بالعذاب والثبور على محمل الجد وكانوا يرون أنها كذب وخيال، فقد جاء على لسانهم في الآية السابعة والعشرين من سورة هود ﴿بَلْ تَطْتَكُم كُذِّيبَتْ﴾^(١)، أو كما قال فرعون لموسى ﷺ: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يُمُوسَىٰ مَسْحُورٌ﴾^(٢).

(ج) أمثلة على النصرة الإلهية:

لقد بين القرآن الكريم أن النصر الإلهي عهد قطعه الله تعالى على نفسه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣)، وفي موضع آخر يقول تعالى: ﴿بَجَيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾^(٤).

وعن العذاب الإلهي الذي لا يرد عن المجرمين، يقول القرآن الكريم في الآية الحادية عشر من سورة الرعد: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقُورَ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾.

التعاليم:

- ١ - يبلغ الإنسان في عناده وإصراره مبلغاً يجعل النبي مع كل ما يملك من صبر وحلم يئأس من هدايته، ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾.
- ٢ - للتفاؤل وحسن النية والصبر حدود، ﴿حَتَّىٰ﴾.
- ٣ - يجب ألا نهدر طاقاتنا في الأمور التي لا طائل من ورائها، فمن الناس من لا ترجى هدايته، ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾.
- ٤ - إمهال المجرمين وتأخير العذاب عنهم سنة إلهية، ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾؛ أي إننا أمهلناهم إلى درجة ينس معها الرسل من هدايتهم.
- ٥ - تأخير العذاب عن المجرمين سبب اجترائهم وتكذيبهم، ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا﴾.

(٣) سورة الروم: الآية ٤٧.

(٤) سورة هود: الآية ٥٨.

سورة هود: الآية ٢٧.

سورة الإسراء: الآية ١٠١.

٦ - يأس الرسل من هداية الناس شرط نزول العذاب الإلهي، ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾.

٧ - المدد الإلهي للأنبياء له وقت خاص، ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾.

٨ - العذاب الإلهي لا يشمل الأنبياء والمؤمنين بهم، ﴿فَنَجَّى﴾.

٩ - العذاب والعقاب واللطف والمدد جميعها بيد الله، ﴿نَصَرْنَا... بِأَسْنَا﴾.

١٠ - الإنسان يختار مصيره بنفسه، عذاب أم نجاة، ﴿مَنْ نَّشَاءُ... الْمُجْرِمِينَ﴾.

١١ - إرادة الله تعالى مقننة وليست عبثاً، ﴿مَنْ نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بِأَسْنَا عَنِ الْقَوَرِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

١٢ - لا يأس من رحمة الله، ﴿إِذَا اسْتَيْسَسَ﴾؛ (أيضا وصل الناس إلى طريق مسدود تجلّت لهم قدرة الله في اللحظات الأخيرة).

١٣ - ما من قوة تستطيع أن تمنع عذاب الله، ﴿وَلَا يُرَدُّ بِأَسْنَا﴾.

١٤ - سنة الله هي في الدفاع عن الأنبياء وإبادة المجرمين، ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾.

﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلٌ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾

إشارات:

□ ﴿عِبْرَةٌ﴾: أصل العبر تجاوز من حال إلى حال، والاعتبار والعبرة: بالحالة التي يتوصل بها من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد، والتعبير: مختص بتعبير الرؤيا، وهو العابر من ظاهرها إلى باطنها، وهو أخص من التأويل.

□ ﴿قَصَصِهِمْ﴾: ربما كانت إشارة إلى قصص الأنبياء جميعاً أو قصة يوسف ويعقوب وإخوته وعزيز مصر والحوادث الكثيرة، حلوها ومرّها، التي توالى في هذه القصة.

التعاليم:

- ١ - عنصر الامتياز في القصة هو القدرة على استيعاب دروسها، بدأت هذه القصة بالآية الكريمة، ﴿مَنْ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾، وختمت بـ ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾.
- ٢ - على الرغم من الدسائس والمؤامرات والعقبات كلها، كانت عاقبة النبي يوسف ﷺ العزة والقدرة وكذا الحال بالنسبة لنبينا الأكرم ﷺ الذي انتصر على جميع أعدائه وبلغ ما بلغ من المجد والقدرة والمنعة، ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾.
- ٣ - وحدهم العقلاء يستلهمون الدروس والعبر من القصص، ﴿عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.
- ٤ - الاعتبار من قصص القرآن ليس خاصاً بزمانٍ دون آخر، ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.
- ٥ - في قصص القرآن بيان للحقائق وليست أحداثها من وحي الخيال، ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَفُ﴾.
- ٦ - كلمة الحق لها تأثير عميق في النفس، ﴿عِبْرَةٌ...﴾.
- ٧ - القرآن الكريم على خط واحد مع الكتب السماوية الأخرى، ﴿تَصْدِيقَ الَّذِي﴾.
- ٨ - يطرح القرآن الكريم الحاجات والمتطلبات الإنسانية جميعاً، ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾.
- ٩ - القرآن كتاب هداية خالصة لا تشوبه ضلالة، ﴿وَهْدًى﴾.
- ١٠ - وحدهم المؤمنون يمتحنون من نمير الهداية القرآنية، ﴿وَهْدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.
- ١١ - العقل شرط التقصي والاعتبار، ﴿عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، أما تلقي النور والرحمة الإلهية فيلزمهما الإيمان، ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.
- ١٢ - قصة يوسف آية لطلاب الحقيقة ﴿ءَابَتْ لِلْسَّالِفِينَ﴾، وعبرة للعقلاء ﴿عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، وهداية ورحمة للمؤمنين ﴿وَهْدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

«والحمد لله رب العالمين»



سُورَةُ الرَّعْدِ

السورة: ١٣ الجزء: ١٣

عدد الآيات: ٤٣



ملاحح سورة الرّعد

نزلت هذه السورة في مَكَّة المكرمة وتشتمل على ثلاث وأربعين آية. سُميت بسورة الرّعد لحديثها عن تسبيح الرّعد الذي ورد في الآية ١٣ منها. أهمّ الموضوعات التي وردت في هذه السورة هي عظمة القرآن الكريم، والتوحيد، خلق السموات والأرض، وتسخير الشمس والقمر، وخلق الفاكهة والنباتات بأنواعها، والمعاد والعدل الإلهي، ومسؤولية الناس، والوفاء بالعهد وصلة الرّحم، والصّبر، وتجنّب الانتقام، والوصول إلى الرّاحة الحقيقيّة في ضوء الإيمان بالله سبحانه، والمصير الأسود الذي لحق بمُكذّبي الأنبياء والرّسل ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَرْءَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾

التعاليم:

- ١ - القرآن الكريم كتاب عظيم، ﴿تِلْكَ﴾.
- ٢ - الهدف من إنزال الكتب السماوية تربية الناس، ﴿أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾.
- ٣ - لا سبيل للباطل إلى القرآن الكريم، ﴿أُنْزِلَ إِلَيْكَ... الْحَقُّ﴾.
- ٤ - المحور هو الحق وليس الأغلبية، فعدم إيمان أكثر الناس وجهلهم لا يعني بطلان الصراط، ﴿الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.
- ٥ - كثير من الناس لا يميلون إلى الحق، ﴿أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.
- ٦ - على القائد أن يعرف أن أكثر الناس قد لا يؤمنون به، لذلك، لا بد من الاستعداد بشكل كامل لمواجهة هذا الموقف. (وفق مفهوم الآية ككل).

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَائِ رَبِّكُمْ تَوْفَنُونَ ﴿٢﴾﴾

إشارات:

□ ثمة عدد من الآيات القرآنية تشير إلى حفظ الله سبحانه للسموات والأرض، منها:

- (أ) الآية المذكورة أعلاه: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾.
- (ب) ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَا إِذَا نَسَكَّهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾^(١).
- (ج) ﴿وَيُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾^(٢).

قال العلامة الطباطبائي (رحمه الله) في تفسير الميزان: «المراد بتفصيل الآيات هو تمييز السموات والأرض بعضها من بعض وقتقها بعد رتقها»^(١)، ولا شك في أن مشاهدتنا هذا التمييز تُبَيِّن لنا قدرة الله سبحانه على تمييز الناس يوم القيامة.

□ ال «عمد»، جَمْع (عمود).

□ وقال صاحب تفسير مفاتيح الغيب: «يُروى أَنَّ رجلاً قال لعلي بن أبي طالب رضوان الله عليه: كيف يُحاسب الله الخلق دُفْعَةً واحدة؟ فقال: «كما يَرُزُّهُمْ الآنَ دُفْعَةً واحدة وكما يَسْمَعُ نداءهم وَيُجيب دُعَاءهم الآنَ دُفْعَةً واحدة»^(٢).

التعاليم:

- ١ - السموات مرفوعات على عَمَد، ﴿يَغِيرُ عَمَدٌ تَرَوْنَهَا﴾، فَعَجَزْنَا عن رؤية الأعمدة لا يَعْنِي عَدَم وجودها. قال الإمام الرضا عليه السلام: «فَتَمَّ عَمَدٌ ولكن لا تَرَوْنَهَا»^(٣).
- ٢ - الشمس هي الأخرى تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لها، ﴿كُلٌّ يَجْرِي﴾.
- ٣ - ترتبط الأجرام السماوية في حركتها ومقدار تلك الحركة بِزَمَنٍ مُّقَدَّرٍ ومُعَيَّنٍ، ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.
- ٤ - الوجود كُلُّه خاضع لتدبير الله سبحانه، ﴿يُدِيرُ﴾.
- ٥ - الله سبحانه وتعالى حُرٌّ في تفصيل الآيات أنَّى يشاء؛ (سواء أكان ذلك تفصيلاً للآيات التشريعية أم الآيات التكوينية)، ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾.
- ٦ - نظام الوجود هو نظام هادف لا اعتباطي، ﴿يَجْرِي لِأَجَلٍ... لَعَلَّكُمْ يَفْقَهُوْنَ رَبِّكُمْ تَوْفِيقُون﴾؛ فَخَلَقَ الْعَالَمَ من دون إنتهائه بالمعاد ليس إِلَّا لَعَفْواً وباطلاً.
- ٧ - الدليل الدالّ على المعاد هو نفسه الدالّ على التوحيد؛ فالرب الذي يَخْلُقُ وَيُدِيرُ لا ربَّ أَنَّهُ سَيَأْتِي بالقيامة أيضاً، ﴿رَفَعَ، أَسْتَوَى، يَدْبِرُ، يَلْقَآءُ رَبِّكُمْ تَوْفِيقُون﴾.

(١) الميزان في تفسير القرآن، ذيل الآية المذكورة. (٣) بحار الأنوار، ج ٦٠، ص ٧٩.

(٢) تفسير الفخر الرازي، مفاتيح الغيب.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَتَهَرَّأَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى
الَّيْلَ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٣)

إشارات:

- تناولت الآية السابقة مُعجزة السموات وهذه الآية تشير إلى موضوع الأرض والنعم الموجودة فيها.
- الرواسي من الجبال: الثوابت الرواسخ؛ «الزَّوْج» و«الزَّوْجَان» واحد بمعنى الذَّكَرُ والأنثى.
- لم يكتشف العلم الحديث قانون زوجية النباتات إلا في القرن الثامن عشر على يد عالم النبات (لينييه Linné)، في حين أشار القرآن الكريم إلى ذلك قبل أكثر من ألف وأربعمئة سنة. وعلى الرغم من أن الإنسان كان يعرف منذ القدم أن بعض النباتات والأشجار كالنخيل مثلاً فيها أعضاء ذكورية وأنثوية، إلا أن معرفته لعمومية هذه الحالة في كل شيء مأخوذة من القرآن الكريم.
- قد توجد الأعضاء الذكورية والأنثوية في بعض النباتات في الشجرة نفسها أو النبات معاً وقد تكون منفصلة عن بعضها في نباتات أخرى^(١).
- ربّما تعني جملة ﴿مَدَّ الْأَرْضَ﴾ خروج الأرض ومَدّها من تحت الماء والذي أُشير إليه في الروايات بمعنى (دحو الأرض). وهذا الاحتمال ينطبق مع النظرية الجيولوجية الحديثة التي تعتبر أن الأرض كانت موجودة تحت الماء في الماضي، والله أعلم.
- يقوم نظام الخلقة على أساس الزوجية:

- (أ) الزوجية في النباتات، ﴿وَأُنْثَبَتَ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ بَهِيجٌ﴾^(٢).
- (ب) الزوجية في الحيوانات، ﴿وَمِنْ الْأَنْعَامِ آزُوجًا﴾^(٣).
- (ج) الزوجية في الإنسان، ﴿خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾^(٤).

(٣) سورة الشورى: الآية ١١.

(٤) سورة الروم: الآية ٢١.

(١) تفسير الفرقان.

(٢) سورة الحج: الآية ٥.

(د) الزوجية في كل شيء، ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾^(١).

التعاليم:

- ١ - الأرض ممدودة ومدحوة بحكمة الله سبحانه وتديره، ﴿مَدَّ الْأَرْضَ﴾. (يؤدي مدَّ الأرض ووجود الجبال إلى المحافظة على توازن الأرض وسهولة استفادة الإنسان منها، إذ لو كانت الأرض مسطحة بشكل كامل أو مليئة بالجبال تماماً لما أمكن العيش عليها).
 - ٢ - تُعتبر الجبال مصادر لحُزن المياه، والأنهار وسائل لتوزيع تلك المياه، فكلهما يسهمان في تسهيل عيش الإنسان على الأرض، ﴿رَوَّسَ وَأَنْهَرَهُ﴾.
 - ٣ - تعاقب الليل والنهار هو الآخر عامل الحياة الأساس، ﴿يُنْفِثُ أَلْبَلَّ النَّهَارِ﴾. (ولولا ذلك لاحترق كل شيء بسبب الحرارة الدائمة أو غابت الحياة عن كل شيء نتيجة عدم وجود الضوء والحرارة).
 - ٤ - عالم الطبيعة درس للاعتبار لا الغفلة، ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.
- ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَوِّزَاتٌ وَجَنَّتْ مِنْ أَعْنَبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَجِدٍ وَنُفْضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١﴾﴾

إشارات:

□ ﴿صِنَوَانٌ﴾ جمع «صِنُو» بمعنى الفرع الخارج من الشجرة نفسها، وهنا تعني المتشابه والمثيل.

التعاليم:

- ١ - تتألف الأرض من قِطْع متجاورة تتميز كل قطعة منها بخصائص مُعيَّنة، ﴿قِطْعٌ مُتَجَوِّزَاتٌ﴾.
- ٢ - تنوع الفاكهة من حيث اللون والطعم والشكل هو آية على قدرة الله سبحانه، ﴿لَآيَاتٍ﴾.

- ٣ - يستند تنوع الفاكهة إلى إرادة الله ومشيته، ولولا ذلك ما اختلف طعم الفاكهة التي تُسقى كلها بنوع واحد من المياه، ﴿يُسْقَى يَمَاءً وَاحِدًا﴾.
- ٤ - التجاور لا يعني التشابه، فمعيار الأفضلية هو التنوع في الإنتاج، ﴿مُتَجَوِّرَاتٌ... وَتَفْضِلُ... فِي الْأَكْلِ﴾.
- ٥ - تقوى دوافع الإيمان لدى العقلاء من خلال تناول الأطعمة، بينما يكتفي غيرهم بملء البطون من دون أي تفكير في عظمة الخالق، ﴿لَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا نَذْرًا يَوْمَ يَبْقِلُون﴾.
- ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبْ قَوْلَهُمْ إِذَا كُنَّا تَرَبُّبًا لَّآلِئًا لِّفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٥)

إشارات:

- يُخاطب الله سبحانه في هذه الآية الشريفة رسوله الكريم ﷺ قائلاً: «لا تعجب من إنكار قومك نبوتك، بل الأحرى أن تعجب من إنكارهم قدرتي على إحياء الموتى وصعوبة قبولهم هذا الأمر».
- لم يقدم المنكرون للمعاد أي دليل على استحالة بل اكتفوا باستبعاد مثل هذا الأمر، بينما قدم القرآن الكريم أدلة عدّة على المعاد بالإضافة إلى إشارته إلى أن عدل الله سبحانه وحكمته يستوجبان وجود القيامة. فمرة يخاطبهم قائلاً: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنْ آلَئِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ (١)، ومرة يقول في آية أخرى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (٢).

التعاليم:

- ١ - إنكار المعاد معناه إنكار قدرة الله تعالى وعدله وحكمته، وهذا بحدّ ذاته كفر، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.
- ٢ - لما كان هدف الذين يُنكرون المعاد هو هذه الدنيا، فهم إذاً مغلولون بأغلال

المادّية وقيود الأهواء والجّهل والخرافة، ومثل هؤلاء سيكونون مغلولين بأغلال العذاب والهوان في الآخرة أيضاً، ﴿الْأَغْلَالُ﴾.

٣ - الأغلال التي يُربط بها المُعاندون يوم القيامة لا يمكنهم نزعها أو التخلص منها لالتفافها حول أعناقهم بإحكام وقوة، ﴿فِي أَغْنَاقِهِمْ﴾.

٤ - يبقى المُنكرون للمعاد في عذاب مستمر؛ لأنهم لم يذخروا لآخرتهم ما يُمكنهم من التخلص من عذاب الله وغضبه، ﴿خَالِدُونَ﴾.

﴿وَسَتَجِدُنَا بِالسَّيِّئَةِ بَلَلٍ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ

الْمَثَلَةُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ

وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾

إشارات:

□ ﴿الْمَثَلَةُ﴾ جمع «المثلة» و«المثلة» بمعنى العذاب والعقوبة التي تنزل بالإنسان. فقد يصل العناد بأحدهم إلى حدّ يتمنى فيه نزول العذاب وهلاكه بدلاً من قبوله الحق. ويشير القرآن الكريم إلى بعض تلك النفوس المريضة، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَهُ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(١)، وقوله أيضاً: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَبِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾^(٢)، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ وَأَلْحِقُوا بِالَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾^(٣).

□ ويُعزى تعجيل بعض الناس بنزول العذاب الإلهي لأسباب عدّة، منها:

(أ) غفلتهم ونسيانهم لتاريخ الأمم الماضية واستبعادهم نزول العذاب الإلهي، بل ونكرانهم له.

(٣) سورة النساء: الآية ٥١.

(١) سورة الأنفال: الآية ٣٢.

(٢) سورة الشعراء: الآيتان ١٩٨ و١٩٩.

ب) حَسَدُهُمُ الْآخِرِينَ عَلَى مَا يَتَمَتَّعُونَ بِهِ، كما ورد في كُتُبِ التَّأْرِيخِ أَنَّهُ وَعِنْدَ تَسَلُّمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ عليه السلام مَقَالِيدِ الْخِلَافَةِ، تَمَنَّى أَحَدُ الْمُعَاَصِرِينَ لِلْإِمَامِ الْمَوْتَ لِنَفْسِهِ لَعَدَمِ قُدْرَتِهِ عَلَى تَحْمِلِ رُؤْيَةِ الْإِمَامِ عليه السلام خَلِيفَةِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَقَدْ أَشَارَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ إِلَى ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْمَعَارِجِ.

ج) شَعُورٌ مِثْلُ هَؤُلَاءِ الْأَشْخَاصِ بِالْيَأْسِ وَالْقَنُوطِ وَوُصُولِهِمْ إِلَى طَرِيقٍ مَسْدُودَةٍ تَمَامًا.

د) الْاسْتَهْزَاءُ وَالسَّخَرِيَّةُ بِالْأَمْرِ وَرَفْضُهُ وَنُكْرَانُهُ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ يُكَلِّفُهُ حَيَاتَهُ وَمَصِيرَهُ.

□ ورد في القرآن الكريم: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى...﴾^(١)، و﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ دَابَّةٍ...﴾^(٢).

التعاليم:

١ - يَصِلُ الْعِنَادُ بِالْبَعْضِ حَدًّا يُفْضَلُ فِيهِ الْمَوْتُ وَالْهَلَاكُ عَلَى قَبُولِ الْحَقِّ وَالْإِذْعَانِ لَهُ، ﴿وَسَتَمْلِكُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ﴾.

٢ - يُمَثِّلُ تَارِيخُ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ أَفْضَلَ نَمُودَجٍ لِلْعَبْرِ، ﴿وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلُتُ﴾.

٣ - لَا تَسْتَهِينُوا بِغَضَبِ اللَّهِ وَاعْتَبِرُوا بِالْمَثَلَاتِ السَّابِقَةِ، ﴿مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلُتُ﴾.

٤ - اقْتَضَتْ سُنَّةُ اللَّهِ تَعَالَى إِمْهَالَ النَّاسِ، وَهِيَ لَا تَتَبَدَّلُ بِاسْتِعْجَالِهِمُ الْعَذَابَ، ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾.

٥ - طَرِيقُ التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ مَفْتُوحَةٌ حَتَّى لِلْمُعَانِدِينَ، ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ... عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾.

٦ - إِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ يُحِبُّ خَلْقَهُ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ مَا يَصْدُرُ عَنْهُمْ مِنْ سَيِّئَاتٍ وَمَعَاصٍ، ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾.

٧ - سَبَقَ لُطْفُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ غَضَبَهُ، ﴿مَغْفِرَةٍ... أَلْعِقَابِ﴾.

- ٨ - يُعتبر اجتماع الخوف والرجاء عاملاً من عوامل النمو والتطور، ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ... لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.
- ٩ - غَضِبَ الله ورحمته من تجليات ربوبيته سبحانه، ﴿رَبِّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ... رَبِّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾

إشارات:

□ روى عبد الله بن عباس أن النبي ﷺ وضع يده المباركة على صدره وقال: «أنا المُنذِر»، ثم أوماً إلى منكب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وقال: «أنت الهادي، بك يَهْتَدِي الْمُهْتَدُونَ بَعْدِي»^(١).

التعاليم:

- ١ - عادة ما تكون توقعات الكفار من الله ورُسُله غير منطقية (فقد يطالبون الرسول بالإتيان بآيات ومُعجزات بحسب أهوائهم)، ﴿لَوْلَا أَنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾.
- ٢ - الإنسان العنيد لا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُخَاطَبَهُ الله سبحانه، ﴿إِنَّمَا أَنْتَ﴾، لاحظ كيف أهمل الله تعالى الإجابة عن سؤال الكفار في هذه الآية وخاطب نبيه مباشرة.
- ٣ - تحتاج التربية إلى التهديد والإرشاد معاً، ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾.
- ٤ - التحذير بدلاً من البشارة هو أكثر ما يحتاجه المجتمع الجاهل والغافل، ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾^(٢).
- ٥ - يتضمَّن عمل الأنبياء ﷺ الإرشاد والإنذار، ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾؛ وليس تلبية طلبات الناس غير المنطقية أو الإتيان بالمعجزات في كل لحظة ولكل شخص، ﴿لَوْلَا أَنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾.

(١) نقله الرازي في التفسير الكبير، ج ١٩، ص ١٤؛ الطبري، ابن كثير؛ إحقاق الحق، ج ٣، ص ٨٧.

(٢) وردت كلمة (إنذار) حوالى (١٢٠) مرة في القرآن الكريم، ومئة منها نزلت في مكة وحدها.

- ٦ - على الرغم من أنه لن يأتي بعد الرسول ﷺ أي نبي؛ إلا أن الله قد أتم حُجته على الناس ولن تخلو الأرض من الحجة، ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾.
- ٧ - لم يقتصر وجود الأنبياء ﷺ على الشرق وحسب، ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾.
- ٨ - لا بد من وجود إمام أو هادٍ حي في الوقت الحاضر كذلك، ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾^(١).

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ
وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾

إشارات:

- تشير هذه الآية في البداية إلى علم الله سبحانه بحمل كل أنثى (سواء منها التي تمتلك الأرحام أو مثل الإنسان والحيوان أو تلك التي لا تمتلك الأرحام كالنبات والجماد) ثم تطرقت إلى الموجودات ذات الأرحام بالخصوص.
- «الغِيض» هو ابتلاع النطفة؛ أي أن الله سبحانه وتعالى عالم بمقدار الماء (أو النطفة) الذي يتلعه الرِّجَم وما تطراً عليه من تغييرات ونمو وتطورات.

التعاليم:

- ١ - إن الله سبحانه يعلم تفاصيل حالات الحمل جميعاً لدى كل الموجودات، ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ﴾.
- ٢ - يشمل علم الله تعالى الجزئيات كذلك. (فهو ﷻ يعلم نوع الجنين وصفاته وقدراته وشكله وجنسه، إلى غير ذلك)، ﴿يَعْلَمُ... وَمَا تَغِيضُ... وَمَا تَزْدَادُ﴾.
- ٣ - يؤدي الرِّجَم دوراً كبيراً في اكتمال الجنين أو نقصانه، ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾.

(١) جاء في تفسير مجمع البيان وكنز الدقائق، الحديث ٢٦، أن المقصود بـ﴿هَادٍ﴾ هم الأئمة المعصومون ﷺ.

٤ - يستند نظام خلق الموجودات إلى مقدار مُعَيَّن وميزان دقيق، ﴿بِمِقْدَارٍ﴾؛ (أي أن الزيادة والنقصان في مدة الحمل وإجهاض الجنين أو خروج توائم عدة، أو ما إذا كان المولود مشوهاً بنقص أو بزيادة في عضو من أعضائه، ذلك كله محسوب وفق مُعادلة دقيقة ﴿تَنْقِصُ... وَمَا تَزِدُّهُ﴾).

﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ (٩)

إشارات:

□ قد تكون مسألة الغيب والشهادة أو السرّ والعلن مشكلة بالنسبة إلى الإنسان ذي الحواسّ المحدودة، وهي محدودة بالفعل حتى عند مقارنته بالكثير من الحيوانات، أمّا هذا الأمر فلا معنى له إطلاقاً بالنسبة إلى الله سبحانه عالم الغيب والشهادة.

□ وحول معنى ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾، قال الإمام الصادق عليه السلام: «الْغَيْبُ مَا لَمْ يَكُنْ وَالشَّهَادَةُ مَا قَدْ كَانَ»^(١).

التعاليم:

١ - إنّ الله كبير من حيث الكمال، ومُنزّه من حيث النقص والعيوب، ﴿الْمُتَعَالِ﴾.

﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ.
وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِإِيلَالٍ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ (١٠)

إشارات:

□ هذه الآية الشريفة التي هي مُكمّلة للآية التي سبقتها، تُعتبر من بين الآيات الكثيرة في القرآن الكريم التي تناول علم الله سبحانه بأصغر الأعمال وأكبرها،

وظاهرها وباطنها، بل وحتى الأفكار والهواجس والنيات التي تخطر ببال الإنسان، فإذا آمن هذا الأخير بامتلاك الله تعالى مثل هذا العلم، فإن ذلك يمكنه أن يكون عامل أساس لحياته وتقواه ووسيلة من وسائله التربوية؛ لأن من شأن ذلك أن يكون بمثابة تشجيع للصالحين وتهديداً ووعيداً للكافرين. الجدير بالذكر أن الله سبحانه يشير في هذه الآية إلى الإسرار في القول والأفعال التي تؤديها مخلوقاته خفية أو ليلاً قبل الإشارة إلى صريح القول والمعلن من الأفعال.

□ ﴿وَسَارِبٌ﴾ من سَرَبٍ يَسْرُبُ سُرُوباً، بمعنى خَرَجَ وَذَهَبَ، ويُطْلَقُ في الأصل على الماء الجاري؛ لكنه استُخْدِمَ أيضاً للإشارة إلى مَنْ يبحث عن عمل في النهار.

التعاليم:

١ - لا يختلف علم الله سبحانه من شيء إلى آخر، بل هو عِلْمٌ واحد. (لكن ذلك لا يشبه علمنا وإحاطتنا ببعض الأشياء أكثر من غيرها أو عدم وجوده أصلاً بالنسبة إلى أشياء أخرى)، ﴿سَوَاءٌ مِّنْكَ...﴾.

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾
 إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّىٰ يَغْيُرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ
 يَقُومُ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ ﴿١١﴾

إشارات:

□ ﴿مُعَقِّبَاتٌ﴾ جمع «مُعَقِّبَةٌ» وحرف التاء في هذه الكلمة ليس للتأنيث وإنما أُثْنَتْ لكثرة ذلك منها، نحو نَسَابَةٌ وَعَلَامَةٌ وهو ذَكَرٌ، لذلك ورد الفعل ﴿يَحْفَظُونَهُ﴾ بصيغة المذكر.

□ ليس المراد بكلمة ﴿مُعَقِّبَاتٌ﴾ هو مُلاحقة الإنسان وإلاً لتنافى ذلك مع قوله تعالى ﴿مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ﴾؛ بل لأن ملائكة الليل تُعَقِّبُ ملائكة النهار، وملائكة النهار تُعَقِّبُ ملائكة الليل.

□ ليس المقصود من ﴿أَمْرِ اللَّهِ﴾ هو عذاب الله أو غضبه لأن ذلك يتناقض مع قيام

الملائكة بحفظ الإنسان من عقاب الله، بل المقصود به هو حفظه من الحوادث الطبيعية باعتبار هذه الأخيرة مخلوقة من مخلوقات الله سبحانه كذلك وكل ما يحدث فيها هو بأمر الله وإرادته.

□ يشير الكثير من آيات القرآن الكريم إلى نوع من الملائكة التي وُكِّلَتْ بالمحافظة على الإنسان وتلك التي تكتب عنه كل صغيرة وكبيرة، ونوع آخر مُوَكَّل بأمر الله تعالى بالمحافظة عليه من الحوادث التي لا تدخل ضمن إرادة الله الحتمية. وبناءً على ما يُستفاد من الروايات فإنه بمجرد صدور أوامر الله بالآجال الحتمية، تتخلى الملائكة الحفظة عن حماية الإنسان. وعلى هذا، فثمة نوعان من الأوامر الإلهية: أوامر حتمية (قطعية) وأخرى غير حتمية (قضاء وقدر)، أما الملائكة فليسوا مُوَكَّلين بالمحافظة على الإنسان إلا من الحوادث غير الحتمية. وبالقطع فإن هذه المحافظة لا تسلب الإنسان حريته أو حقه في الاختيار، بل يبقى مصيره ومصير الأمم بيدهم لا بيد الملائكة.

□ يشمل حفظ الملائكة للإنسان حياته وأفعاله وسلوكه ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾^(١)، ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾^(٢)، بالإضافة إلى حفظ إيمانه وأفكاره من الانحرافات ووساوس الشيطان لأن كلمة ﴿يَحْفَظُونَهُ﴾ تشمل المحافظة على الروح والجسم.

□ قال الإمام السجّاد عليه السلام مشيراً إلى هذه الآية: «الذنوب التي تُغيّر النعم، البغي على الناس والزوال عن العادة في الخير، واضطناع المعروف وكفران النعم وترك الشكر»^(٣).

□ من الملاحظ أنّ هذه الآية تعني المجتمعات الإنسانية كلّها وليس الأفراد، أي أنّ المجتمع الصالح ينعم ببركات الله سبحانه، أمّا المجتمع الفاسد فلا يلقي إلّا غصبه. لكنّ هذه القاعدة لا تشمل الأفراد الصالحين والفاستدين فقد يكون الشخص صالحاً ومع ذلك نراه يقع في الكثير من المشاكل بسبب الابتلاء الإلهي، أو قد يكون الشخص فاسداً لكنّه يُترك لحاله ويُمهل.

(٣) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٤٨٧.

(١) سورة الانفطار: الآية ١٠.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٦١.

التعاليم:

- ١ - الله سبحانه لا يترك الإنسان وحده، ﴿لَهُ مُعَقِّبَتٌ﴾.
- ٢ - وُكِّلَتْ بعض ملائكة الله بالمحافظة على الإنسان، ﴿لَهُ مُعَقِّبَتٌ﴾.
- ٣ - يحفظ الله ﷻ الإنسان من الحوادث المفاجئة، ﴿لَهُ مُعَقِّبَتٌ... يَحْفَظُونَهُ﴾ لا الحوادث التي يتسبب بها هو عن عمد وعلم منه بها، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾.
- ٤ - تحيط بالإنسان الكثير من الحوادث والأخطار، ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾.
- ٥ - إِنَّ الله سبحانه لا يسلب نعمة أنعمها على أحد حتى يكفر بها، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾.
- ٦ - لا تتخذوا بما يُدعى بالحظوظ أو الطالع والفأل والنجوم وغير ذلك، فمصير كل إنسان بيده، ﴿حَقٌّ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.
- ٧ - تستمرّ محافظة الله سبحانه للإنسان حتى يكفر بِنِعْمِهِ، ولولا ذلك لما حُرِمَ أحد من الطاف الله ولتَرَكَ لحاله، ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا﴾.
- ٨ - التمتع بالنعمة الظاهرة والخفية منوط بالكمالات الذاتية والحالات الوجدانية، ﴿حَقٌّ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾. ويقول تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَمَّوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ...﴾^(١).
- ٩ - إرادة الله فوق كل إرادة، ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ﴾.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا
وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾^(١٧)

إشارات:

□ من جهة يثير البرق والصاعقة خوف الناس ورُعْبِهِمْ وذلك لهطول الأمطار أحياناً

في غير مواسمها وتسببها بإيجاد السيول والفيضانات التي تحتاج بعض المناطق والدمار والحرائق التي تحدثها. ومن جهة أخرى فإن ذلك مدعاة للسرور والفرح والأمل؛ لأن الأمطار تسقي الأشجار والمحاصيل الزراعية وتؤدي إلى تنقية الهواء وتصفيته من الغبار والأتربة وأنواع الدخان.

التعاليم:

- ١ - العوامل الطبيعية هي في الظاهر سبب الرعد والبرق والمطر، إلا أن مبدأ تلك العوامل وموجدوها هو الله سبحانه، ﴿وَيُنِثُّ السَّحَابَ الْثِقَالَ﴾.
- ٢ - لا ينبغي أن يؤدي اكتشافنا للقوانين الفيزيائية والكيميائية في الطبيعة إلى إضعاف إيماننا بالله تعالى، بل ينبغي أن نعلم أن الطبيعة وقوانينها هي مخلوقات من مخلوقات الله، ﴿يُرِيكُمْ آيَاتِهِ... وَيُنِثُّ السَّحَابَ﴾.

﴿وَيَسِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ
وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَدِّلُونَ
فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾ (١٣)

إشارات:

□ يؤكد القرآن والثقافة القرآنية أن الوجود كله يُسَبِّحُ الله تعالى، وهو تسبيح قائم على أساس العلم والإحساس والاختيار. والجدير بالذكر أن القرآن الكريم يطرح هذه المسألة ويبيّن أنها بشكل يجذب إليه العقول ويغدو رداً منطقياً على إنكارها؛ ومن تلك الأساليب ما يأتي:

(أ) استخدام كلمات مثل ﴿سَبَّحَ﴾ و﴿يُسَبِّحُ﴾ وهي كلمات تدلّ صراحة على المعنى المشار إليه.

(ب) تكرار ذلك في سور عدة.

(ج) ذكر مسألة تسبيح الموجودات كافة في أول السورة وبعد البسملة مباشرة.

(د) الإشارة إلى قنوت الوجود وخضوعه بأكمله مثل قوله تعالى: ﴿كُلُّ لَّهُ قَانُونَ﴾^(١)، وسجود النجوم والنباتات: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾^(٢)، وانقياد السموات والأرض وطاعتها لله سبحانه: ﴿قَالَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾^(٣)، وعلم كل الموجودات بتسبيحها وصلاتها لله تعالى: ﴿كُلُّ قَدِّعِلَمٍ صَلَاتُهُ وَيُسَبِّحُهُ﴾^(٤).

(هـ) إخبار الإنسان بأنه يجهل تسبيح الموجودات الأخرى، ﴿لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾^(٥).

□ ﴿الْحَالِ﴾ أي شديد المُمَاخَلَة والمُكَايَدَة، ولأنَّ المُمَاخَلَة والمُكَايَدَة يستلزمان العلم والقدرة، فقد قال بعض المفسرين إنَّ معنى ﴿شَدِيدُ الْحَالِ﴾ هو شديد القوة والعذاب.

□ ورد ذكر التسبيح والحمد معاً في بعض الآيات مثل قوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾؛ ﴿وَلَنْ مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾^(٦)، وهو ما اعتدنا ذكره في الركوع والسجود كذلك: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ» و«سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى وَبِحَمْدِهِ».

□ جاء في كثير من الروايات عن أهل السنة أنَّ النبي ﷺ كان إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال: «سُبْحَانَ الَّذِي يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ»؛ ثم يدعو الآخرين أيضاً إلى الدعاء^(٧).

□ يعتقد بعض أن الصواعق هي عقوبة أو عذاب إلهي ينزل على القوم المذنبين، كما حصل مع ثمود ﴿فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٨).

- | | |
|-----------------------------|--|
| (١) سورة البقرة: الآية ١١٦. | (٦) سورة الإسراء: الآية ٤٤. |
| (٢) سورة الرحمن: الآية ٦. | (٧) تفسير الدر المنثور، ذيل الآية: ١٣ من سورة الرعد. |
| (٣) سورة فصلت: الآية ١١. | (٨) سورة فصلت: الآية ١٧. |
| (٤) سورة النور: الآية ٤١. | |
| (٥) سورة الإسراء: الآية ٤٤. | |

التعاليم:

- ١ - يُسَبِّحُ الرَّعْدُ عَنْ عِلْمٍ وشعور منه، شأنه في ذلك شأن الملائكة، لورود كلمة الرَّعْد والملائكة معاً في الآية، ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾.
- ٢ - يكون تسبيح الملائكة على أساس خوفهم من الله سبحانه وخشيته، ﴿وَمِنْ خِيفَتِهِ﴾.
- ٣ - ليست الصاعقة والإصابة بها أمراً اعتباطياً، إنما هي بإرادة الله ووفقاً للسُنَنِ الإلهية، ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾.
- ٤ - حتى الحوادث الخطيرة كالصواعق مثلاً، لن تُثني المُعاندين عن عنادهم، ﴿يُجَادِلُونَ﴾.
- ٥ - لا يُفَكِّرَنَّ أحدكم بالتحايل أو المُخادعة أو الجدل مع الله سبحانه لأنكم لن تغلبوه في ذلك، ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾.
- ٦ - ليست كل حيلة أو تدبير مذموماً؛ إذ قد يتطلب الأمر أحياناً الوقوف بوجه البعض بشدة واتباع التدابير الصارمة، ﴿شَدِيدُ الْحَالِ﴾.

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا كِبْسِيطٌ
كُفِّيهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ (١٤)

إشارات:

- أشار القرآن الكريم في مواضع عدّة من آياته إلى دعوة الناس إلى عبادة الله وترك عبادة غيره واعتباره سبحانه هو المؤثر الوحيد، مثل قوله تعالى: ﴿أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾^(١)، وتحذيره من أنه إذا توجه الإنسان إلى الآخرين من دون الله تعالى فإنهم لن يستطيعوا سماعه ولو سمعوه فلن يجيبوه: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾^(٢).
- لا شك في أن الإنسان ذا القدرات المحدودة بحاجة إلى ملاذ مُطمئن يلجأ إليه

في حياته المليئة بالحوادث. وقد بين الأنبياء ﷺ ذلك الملاذ الحق ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْمُنِيِّ﴾، أما ما ينتظره الإنسان من مساعدات من الآخرين (الطغاة) فإنهم لن يقدموه له إلا مقابل الاستعمار أو الاستغلال أو الإعلام الفاسد والمحافظة على قوتهم وجبروتهم، أما الإنسان فليس مهماً بالنسبة لهم.

□ الإنسان مُتعطش إلى معرفة الحق والحقيقة بالفطرة ﴿يَلْبَغُ فَاهُ﴾؛ لكنه يضل طريقه للوصول إليهما. وهكذا، فإنه ما من شيء يمكنه رؤية عطشه سوى الإيمان بالله تعالى وحبه ودعائه والطلب منه وحده، ﴿وَمَا هُوَ بِبَلِيغٍ﴾؛ لأن كل ما سوى الله ليس إلا سراباً ودعاؤه ومطالبته هما عبث وباطل.

التعاليم:

- ١ - لا تلجأوا إلى غير الله سبحانه لعجز أي شيء عن الاستجابة لكم، ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾.
- ٢ - التصورات الباطلة والخيال الزائف هو أساس الشرك، ﴿كَبَسِطَ كَفْتَهُ إِلَى الْمَاءِ... وَمَا هُوَ بِبَلِيغٍ﴾.
- ٣ - من دعا الله مُخلصاً له الدين فلن يُخيب أمله، وما الخيبة التي يُصاب بها البعض إلا بسبب لجوئه إلى غير الله، ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْمُنِيِّ... وَمَا دَعَتُوا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا

وظُلُمًا لَهُمْ بِالْغُدُرِ وَالْأَصَالِ ﴿١٥﴾﴾

إشارات:

□ تُسْتَحْدَم «مَنْ» الموصولة للعاقل و«مَا» لغير العاقل، وثمة آيات أخرى مشابهة لهذه الآية وردت فيها «مَا» مثل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾^(١)، ولذلك يمكننا أن نستنتج بأن المُراد من هذه الآية كذلك هو

سجود المخلوقات جميعاً لله تعالى لا سيما مع الإشارة إلى كلمة «الظلال» وهو من غير العاقل.

□ قد يكون المقصود بسجود الظلال هو وقوعها على الأرض.

□ ﴿وَالْأَصَالِ﴾ جمع «أصيل» بمعنى العشي، وهو آخر النهار.

التعاليم:

١ - إذا كان الوجود بأكمله مطيعاً لله سبحانه وساجداً له، فلم لا نكون نحن كذلك؟ ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ...﴾.

٢ - السجود لا يكون إلا لله وحده، ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾.

٣ - يسجد المؤمنون حباً ورغبة في حين يفعل غيرهم ذلك طلباً للحاجة أو الاضطرار إلى التواضع والخضوع، ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾.

٤ - إذا أصبح موجود ما تقياً مؤمناً فإن هاتين الصفتين سيُشملان كل ما يتعلّق به، ﴿وَعَلَّاهُمْ﴾.

٥ - سجود الموجودات دائم ومستمر، ﴿يَسْجُدُ... يَأْفِكِدُوا وَالْأَصَالِ﴾.

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾﴾

إشارات:

□ غرض المسائل على شكل سؤال وجواب هو أحد أساليب التبليغ التربوي والتعليمي الذي اهتم به القرآن الكريم، ﴿قُلْ مَنْ...﴾.

□ ورد في الروايات عن الإمام الصادق عليه السلام أن الشُّرك في الإنسان لأخفى من

دبيب النمل على الحجر الصلد في جوف الليل^(١). المقصود من (شرك النعمة) بهذا المعنى أن الله يهب الإنسان شيئاً فيقول: إن فلاناً قد جاءني به.

التعاليم:

- ١ - يحجم المشركون عن الإجابة عن أبسط الأسئلة وأوضحها لتعصبهم الشديد؛ لذلك نرى أن النبي ﷺ هو الذي يُجيب عن تلك الأسئلة بدلاً منهم، ﴿مَنْ رَبُّ السَّمَكَاتِ... قُلْ اللَّهُ﴾.
- ٢ - كان الكفار لا يقبلون بشيء سوى خلق الله سبحانه، ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ... لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾^(٢)؛ بينما كانوا يعتبرون الآخرين [من الأصنام والأوثان وغير ذلك] مُدَبِّرِينَ، ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ...﴾.
- ٣ - الإنسان الذي لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً لا يجوز له أن يتخذ إلهاً بدلاً من الله سبحانه، ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِنَفْسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾.
- ٤ - مَنْ رأى الحق ولم يقبله فإن بصره وبصيرته عميا وان وكل ما حوله هو ظلام، ﴿هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ...﴾.
- ٥ - ما خلق أحد غير الله سبحانه شيئاً حتى يتشابه ذلك على الكفار، ﴿فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾.

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا
وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَرَقٍ كَذَلِكَ يُضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ
فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿٧﴾﴾

إشارات:

□ تشير الآية إلى مثالين لتعريف الباطل، أولهما الزبد الذي يطفو على سطح الماء، وثانيهما الزبد الذي يظهر على سطح المعادن المنصهرة.

□ مثل الباطل كالزبد لأته: (١) زائل؛ (٢) لا يتجلى إلا في ظل الحق؛ (٣) يُحاول إخفاء الحق وتغطيته؛ (٤) قد يكون ظاهراً لكن لا قيمة له، فهو لا يروي عطش الظمآن ولا يكون سبباً لنمو النباتات؛ (٥) يزول وينمحي بعد أن يسود السكون والهدوء؛ (٦) قد يكون كبيراً وهائلاً لكنه يبقى أجوف وفارغاً من حيث المضمون. وقد أكدت الكثير من الآيات على هذا الأمر كذلك، مثل قوله تعالى:

• ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾^(١).

• ﴿وَيَسْخُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾^(٢).

• ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾^(٣).

• ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾^(٤).

• ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾^(٥).

□ تساعد عملية التشبيه أو التمثيل على جعل الأمور العقلية محسوسة وتسهيل سبيل الوصول إلى الهدف وتعميم المسائل وإسكات المعاندين، وهو أسلوب كثيراً ما استخدمه القرآن الكريم في آياته.

التعاليم:

١ - الفيض الإلهي دائم ومستمر، وكلّ مخلوق يمكنه الاستفاضة بمقدار ما يمتلك من القابلية والاستعداد، ﴿أَوْدِيَةُ يَقْدَرُهَا﴾.

٢ - صناعة الوسائل الضرورية ﴿مَتَج﴾ أو الكمالية ﴿حِلْيَةٍ﴾ أمر مطلوب ومرغوب، ﴿يُؤَيَّدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾.

٣ - تتكشف المعادن النقية عن غيرها ويتميز الحق عن الباطل في قرن الأحداث، ﴿يُؤَيَّدُونَ عَلَيْهِ... زَيْدٌ مِثْلُهُ﴾.

(٤) سورة الإسراء: الآية ٨١.

(٥) السورة نفسها: الآية ٨١.

(١) سورة الأنبياء: الآية ١٨.

(٢) سورة الشورى: الآية ٢٤.

(٣) سورة سبأ: الآية ٤٩.

- ٤ - لا يقتصر وجود الباطل على مكان أو بيئة مُعَيَّنة (فالزبد يظهر على كل من السيول المائية وعلى سطوح الفلزات المنصهرة الذائبة)، ﴿زَيْدٌ مِثْلُهُ﴾.
- ٥ - أساس الباطل هو الشوائب التي ابتلي بها الحق والحقيقة، ﴿يَقْرَبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَابْطِلُ﴾.
- ٦ - قد يسير الحق والباطل معاً، لكن تبقى العاقبة الحسنة للحق، ﴿فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾.
- ٧ - الحق وحده هو ما ينفع الناس، ﴿مَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾.
- ٨ - الحق باقي وخالد، ﴿فَيَمُوتُ فِي الْأَرْضِ﴾.
- ٩ - كل ما ينفع الناس سواء أكان ثروة أو علماً أو أصحاباً أو حكومة وما إلى ذلك فهو باقي ودائم، ﴿مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمُوتُ فِي الْأَرْضِ﴾.
- ١٠ - كل ما ينزل من عند الله سبحانه هو خالص وحق كالمطر، لكن بمجرد اختلاطه بالماديات يصبح مشوباً ويؤدي إلى ظهور الزبد والباطل، ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾.

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْخَيْرُ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ،
لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ، لَافْتَدَوْا بِهِ
أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيُشْرَى بِالْهَادِ﴾ (١٨)

إشارات:

□ يُستفاد من آيات القرآن الكريم أن الناس يوم القيامة يُحاسبون بعدة أنواع من الحساب:

- (أ) منهم مَن يُحاسب حساباً يسيراً: ﴿حِسَابًا يَسِيرًا﴾^(١).
- (ب) منهم من يكون حسابه عسيراً ودقيقاً: ﴿حِسَابًا شَدِيدًا﴾^(٢)، والمراد من ﴿سُوءُ الْحِسَابِ﴾ هو الدقة والتدقيق في المحاسبة بكل صغيرها وكبيرها.

(٢) سورة الطلاق: الآية ٨.

(١) سورة الانشقاق: الآية ٨.

ج) منهم مَن يدخل جهنم من دون حساب أو كتاب: ﴿فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾^(١).

د) ومن الناس مَن يدخل الجنة بغير حساب: ﴿إِنَّمَا يُؤَقِّقُ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٢).

□ يُستفاد من بعض الآيات والروايات الكثيرة أنَّ الذين يتعاملون مع الناس بالعفو والرحمة تكون محاسبتهم يسيرة، وأنَّ الذين يتصرفون بغلظة وفظاظة فإنَّ حسابهم سيكون غليظاً وفظاً بما يتناسب مع تصرفاتهم. ويدخل المشركون جهنم من دون حساب فيما يدخل الصابرون إلى الجنة من دون حساب أيضاً^(٣).

□ يُشير القرآن الكريم إلى ضرورة وجود نوع من الاستجابة المتبادلة، فالذين يتوقعون أن يستجيب لهم الله سبحانه لا بدَّ لهم أولاً من الاستجابة لدعوته، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾^(٤) و﴿فَاسْتَجِبْنَا لَهُمُ﴾^(٥) و﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾^(٦).

بحث حول الدَّعوة

□ يمكن النظر في الدَّعوة من جوانب عدَّة:

١) الدَّعاة: الدَّعاة إلى الحق:

١ - الأنبياء: ﴿أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ﴾^(٧)، و﴿الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾^(٨)، و﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾^(٩).

٢ - المؤمنون: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾^(١٠).

٣ - الجن: ﴿يَقَوْمًا يُجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾^(١١).

(٦) سورة آل عمران: الآية ١٩٥.

(٧) سورة يوسف: الآية ١٠٨.

(٨) سورة آل عمران: الآية ١٥٣.

(٩) سورة الأحزاب: الآية ٤٦.

(١٠) سورة آل عمران: الآية ١٠٤.

(١١) سورة الأحقاف: الآية ٣١.

(١) سورة الكهف: الآية ١٠٥.

(٢) سورة الزمر: الآية ١٠.

(٣) انظر: موضوع الحساب وأنواعه في كتاب

المعاد للمؤلف.

(٤) سورة الأنفال: الآية ٢٤.

(٥) سورة الأنبياء: الآية ٨٨.

الدُّعَاةُ إِلَى الْبَاطِلِ:

- ١ - اِئِمَّةُ الْكُفْرِ: ﴿أَيُّمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْكَارِ﴾^(١).
- ٢ - الشَّيْطَانُ الرَّجِيمُ: ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ﴾^(٢)، و﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ﴾^(٣).
- ٣ - الْمُشْرِكُونَ: ﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾^(٤).

ب) موضوع الدَّعْوَةِ:

- ١ - الْحَيَاةُ: ﴿دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾^(٥).
- ٢ - الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ: ﴿لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٦).
- ٣ - الْمَغْفِرَةُ: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ﴾^(٧).
- ٤ - الْجَنَّةُ: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾^(٨).
- ٥ - النِّجَاةُ: ﴿أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ﴾^(٩).

ج) ردود أفعال المُشْرِكِينَ:

- ١ - التَّهْمَةُ: سَاحِرٌ ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾^(١٠)، شَاعِرٌ ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾^(١١)، كَاهِنٌ ﴿فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ﴾^(١٢)، مَجْنُونٌ ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾^(١٣)، كَذَّابٌ ﴿لَنُظَنَّنَكَ مِنَ الْكَذَّابِينَ﴾^(١٤)، وَصُولِي ﴿يُفَضِّلُ عَلَيْكُمْ﴾^(١٥).
- ٢ - التَّهْدِيدُ: ﴿لَرَجَمَنَّكَ﴾^(١٦)، ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ...﴾^(١٧).

(١٠) سورة الأعراف: الآية ١٠٩.

(١١) سورة الأنبياء: الآية ٥.

(١٢) سورة الطور: الآية ٢٩.

(١٣) سورة القلم: الآية ٥١.

(١٤) سورة الأعراف: الآية ٦٦.

(١٥) سورة المؤمنون: الآية ٢٤.

(١٦) سورة هود: الآية ٩١.

(١٧) سورة الأنفال: الآية ٣٠.

(١) سورة القصص: الآية ٤١.

(٢) سورة لقمان: الآية ٢١.

(٣) سورة إبراهيم: الآية ٢٢.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٢١.

(٥) سورة الأنفال: الآية ٢٤.

(٦) سورة المؤمنون: الآية ٧٣.

(٧) سورة البقرة: الآية ٢٢١.

(٨) سورة يونس: الآية ٢٥.

(٩) سورة غافر: الآية ٤١.

- ٣ - الازدراء والاستهزاء: ﴿أَهَذَا الَّذِي...﴾^(١).
 ٤ - التشكيك: ﴿أَتَمَلَّكُونَ أَنَا صَاحِبًا مُرْسَلًا مِّن رَّبِّهِ﴾^(٢).
 ٥ - التآمر وشن الحرب: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾^(٣).

(د) دوافع الرّفص وأسبابه:

- ١ - التقليد.
 ٢ - التعصّب.
 ٣ - التكبر.
 ٤ - الأهواء النفسية: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾^(٤).
 (هـ) أجر الإيمان:

- ١ - الأجر: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾^(٥).
 ٢ - الحياة: ﴿دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾^(٦).
 ٣ - الحسنى: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى﴾^(٧).

التعاليم:

- ١ - أفضل الثواب وأجزله ينتظر المؤمن يوم القيامة، ﴿الْمُسْتَقِيمُ﴾.
 ٢ - لا وجود للنفدية أو الاستبدال يوم القيامة، ﴿لَا تَقْدَرُوا يَوْمَ﴾.
 ٣ - لا بدّ من قبول دعوة الله سبحانه برغبة صادقة، ﴿اسْتَجَابُوا﴾.

(٥) سورة النساء: الآية ١٧٣.

(٦) سورة الأنفال: الآية ٢٤.

(٧) سورة الرعد: الآية ١٨.

(١) سورة الأنبياء: الآية ٣٦.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٧٥.

(٣) سورة الأنفال: الآية ٣٠.

(٤) سورة القصص: الآية ٥٠.

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ
كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَذَّكَّرُ أُولَٰئِ الْأَلْبَابِ﴾

إشارات:

□ أشارت الآية السابقة إلى أولئك الذين تقبلوا دعوة الأنبياء ﷺ لما يحييهم، أما هذه الآية والآيات التي ستليها فتشير إلى نتائج استجابتهم تلك الدعوة.

□ يمتلك كل من الفطرة والعقل والعلم في الإنسان لباً غالباً ما يكون مغطى بالعادات والتقاليد والخرافات والغرائز؛ ولذلك على الإنسان أن يركز دوماً على ذلك اللب والنواة المركزية^(١).

ملاحم أولي الألباب في القرآن

□ وردت كلمة ﴿أُولَٰئِ الْأَلْبَابِ﴾ (١٦) مرة في القرآن الكريم، وفي كل مرة تفتنر بالإشارة إلى صفة كمال، منها:

(أ) أن أصحاب العقول يعلمون أسرار الأحكام، ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٢).

(ب) أنهم بصيرون في عواقب الأمور، ﴿وَكُذِّبُوا فَمَا أَتَىٰ خَيْرَ الْآرَادِ الشَّقَوِيُّ وَالْأَقْوَنُ يَتَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٣).

(ج) يؤمنون بأن هذه الدنيا إنما هي معبر زائل وليست موقفاً دائماً، ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ... الَّذِينَ... وَبَنَوكُمُوهُ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلاً﴾^(٤).

(د) يتخذون من التاريخ دروساً وعبر، ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٥).

(هـ) يتقبلون القول الأفضل والمنطق الأحسن، ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ... وَأُولَٰئِكَ هُمُ أُولَٰئِ الْأَلْبَابِ﴾^(٦).

(٤) سورة آل عمران: الآيتان ١٩٠ و١٩١.

(٥) سورة يوسف: الآية ١١١.

(٦) سورة الزمر: الآية ١٨.

(١) تفسير الفرقان.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٧٩.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٩٧.

و) هم العابدون المتهجدون، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ... إِنَّمَا يَذْكُرُ أَوَّلُوا الْأَنْبِيَاءِ﴾^(١).

التعاليم:

- ١ - يعتبر القرآن الكريم أنّ الإنسان الذي يجهل الحقّ إنّما هو في الحقيقة أعمى، فقد استخدم عبارة: ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ بدلاً من «كَمَنْ هُوَ لَا يَعْلَم».
- ٢ - ينسجم الدين مع الفطرة انسجاماً كاملاً؛ لكنّ الأمر يحتاج إلى تذكير للصحة لا غير، ﴿إِنَّمَا يَذْكُرُ...﴾.
- ٣ - العقل الذي يعجز عن إدراك صدقية الكتاب السماويّ، ليس بعقل، ﴿إِنَّمَا يَذْكُرُ أَوَّلُوا الْأَنْبِيَاءِ﴾.
- ٤ - لا شكّ في أنّ العلم المفيد هو حاصل التعقل والتذكر، ﴿أَمَّنْ يَعْلَمُ... يَذْكُرُ أَوَّلُوا الْأَنْبِيَاءِ﴾.
- ٥ - للوصول إلى العقل السليم والفطرة النقية لا بدّ من تجنّب المعاصي والغفلة، ﴿إِنَّمَا يَذْكُرُ أَوَّلُوا الْأَنْبِيَاءِ﴾.

﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ عَهْدَ اللَّهِ لَا يَنْقُضُونَ أَلَيْسَتْ﴾

إشارات:

- تشمل عبارة «عهد الله» كلّ العهود الفطريّة كحُبّ الحقّ والعدالة، والعهود العقلية مثل إدراك حقائق عالم الوجود والمبدأ والمعاد، والعهود الشرعية كالعمل بالواجبات وترك المحرّمات، وكذلك العهود التي يبرمها الناس بينهم؛ إذ أوجب الله احترامها والالتزام بها^(٢).
- إمامة أولياء الله سبحانه من أهمّ العهود الإلهيّة، فبعد أن اجتاز سيّدنا إبراهيم عليه السلام الكثير من الاختبارات حاز مقام الإمامة، فطلب من الله تعالى أن

(١) سورة الزمر: الآية ٩.

(٢) تفسير الأئمة في تفسير كتاب الله المنزل.

يَمَنَّ عَلَى ذَرِيَّتِهِ كَذَلِكَ بِهِذِهِ الْمَنْزِلَةُ: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾^(١)، ولكي يوضح الله سبحانه لنبيه معنى مقام الإمامة، أجابه قائلاً: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(٢)، بدلاً من قوله تعالى: «لَا يَنَالُ الظَّالِمُونَ مقام الإمامة».

□ تُطْلَقُ كلمة «ميثاق» على كُلِّ مَا وَثِقَ بِهِ قَلْبُ الْإِنْسَانِ وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ، وَلَمَّا كَانَ وجود الإمام سبباً لاطمئنان قلوب الناس وأرواحهم، فهو إِذَا أَحَدُ أَمْثَلَةِ الْمَوَاقِيقِ.

□ لَا يُعْتَبَرُ الْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ، كاحترام الوالدين ورَدَّ الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا، مِنَ الْحَقُوقِ الْإِسْلَامِيَّةِ فَقَطْ بَلْ وَمِنَ الْحَقُوقِ الْإِنْسَانِيَّةِ كَذَلِكَ؛ وَلِهَذَا، يَتَوَجَّبُ عَلَى كُلِّ عَاقِلٍ وَذِي لُبٍّ أَنْ يَحْتَرِمَ ذَلِكَ.

التعاليم:

- ١ - لَا شَكَّ فِي أَنَّ الْعَقْلَ السَّلِيمَ يَقُودُ صَاحِبَهُ إِلَى الْوَفَاءِ وَالْإِخْلَاصِ لِدِينِ اللَّهِ، ﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ... الَّذِينَ يُؤْتُونَ﴾.
- ٢ - الْوَفَاءُ بِالْعُهُودِ مِنْ ثِمَارِ الْعَقْلِ السَّلِيمِ، ﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ... يُؤْتُونَ﴾.
- ٣ - احْتِرَامُ الْعُهُودِ وَالْمَوَاقِيقِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ مِنْ خِصَالِ الْإِنْسَانِ الْمُؤْمِنِ الْعَاقِلِ، ﴿وَلَا يَنْقُضُونَ أَلَيْثُ﴾.

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ
وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾

إشارات:

□ ورد في الروايات أَنَّ مِمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ الرَّجِمُ، أَيِ الْمَحَافَظَةِ عَلَى الْعِلَاقَاتِ الْأُسْرِيَّةِ، وَالْعُهُودِ الدِّينِيَّةِ وَنَعْنِي بِذَلِكَ الْإِتِّصَالَ الْمُسْتَمِرَّ وَالْمُعَمَّقَ بِالْأُتَمَّةِ وَالسَّيْرِ عَلَى خَطَى الْوَلَايَةِ^(٣).

□ من خلال نظرة عابرة إلى عالمنا المعاصر يمكننا ملاحظة ما يحظى به أكثر من مليار مسلم من الثروات الطبيعية ومنها النفط الموجود تحت أقدامنا مباشرة، وما وَهَبَ لهم من نقطة التقاء للوحدة والحب وهي الكعبة المشرفة، وما مُنَحُوا من منطق سليم ودين قويم، ومع ذلك نراهم يرزحون تحت الكثير من الضغوط بسبب تسلط القوى العظمى، وما ذلك إلا بسبب إهمالهم مسألة القيادة (الإمامة) الدينية. ولذلك، جاءت عبارة ﴿وَيُقْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بعد عبارة ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ في الآية السابعة والعشرين من سورة البقرة، ما يعني أن قطع صلة الرّجْم وحده ليس هو السبب في الإفساد في الأرض بل وإهمال الإمامة كذلك والذي يؤدي إلى الوقوع في براثن الطاغوت وحبائل الشيطان والفساد.

□ كثيرة هي العلاقات التي أمر الله بإبرامها، منها:

- (أ) العلاقة الثقافية مع العلماء: ﴿فَتَتَلَوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١).
- (ب) العلاقات الاجتماعية مع الناس: ﴿أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾^(٢).
- (ج) العلاقة العاطفية مع الوالدين: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾^(٣).
- (د) العلاقة المادية مع المحتاجين: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾^(٤).
- (هـ) العلاقة الفكرية الخاصة بإدارة المجتمع: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾^(٥).
- (و) العلاقة السياسية مع الولي: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^(٦).
- (ز) العلاقة الشاملة والمتشعبة مع المؤمنين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(٧).
- (ح) العلاقة المعنوية مع أولياء الله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾^(٨).

(١) سورة النحل: الآية ٤٣.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

(٣) سورة النساء: الآية ٥٩.

(٤) سورة آل عمران: الآية ٢٠٠.

(٥) سورة البقرة: الآية ٨٣.

(٦) سورة الحجرات: الآية ١٠.

(٧) سورة الأحزاب: الآية ٢١.

(٨) سورة نفسها: الآية ٢٤٥.

صلة الرّحم

□ لا تقتصر صلة الرّحم على اللقاء والتزاور، بل إنّ المساعدات المادية هي إحدى نماذج صلة الرّحم. وفي الكافي والعياشي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «ومما فرض الله في المال من غير الزكوة قوله تعالى الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل»^(١). وقد يكون مراد الإمام عليه السلام من الحقوق الأخرى هو الخمس.

□ يكفي لبيان أهمية صلة الرّحم أنّ الله سبحانه ذكرها إلى جانب ذكره هو بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾^(٢).

□ ليس المقصود بالرّحم هو أفراد الأسرة أو الأقرباء بالنسب فقط، بل والمجتمع الإسلامي الكبير بأكمله الذي يضمّ أفراد الأمة الإسلامية كإخوة في الدين ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(٣) وأباهم الرسول الكريم عليه السلام وكذلك أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام. قال النبي صلى الله عليه وآله: «أنا وعليّ أبوا هذه الأمة»^(٤).

□ عن مولاة لأبي عبد الله الصادق عليه السلام قالت: كنتُ عند أبي عبد الله حين حضرته الوفاة فأغمي عليه، فلما أفاق قال: «أعطوا الحسن بن علي بن علي بن الحسين وهو الأنطس سبعين ديناراً، وأعطوا فلاناً كذا، وفلاناً كذا». فقلتُ: أتعطي رجلاً حملاً عليك بالشفرة؟ فقال عليه السلام: «وبحك، أما تقرّين القرآن؟ قلتُ: بلى. قال: أما سمعتِ قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يوصلَ وَيَخْشَوْا رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾^(٥)، انظر كيف يُعلّمنا أئمتنا عليهم السلام أنّ صلة الرّحم ليست مشروطة بثقة الآخرين بنا أو حبّهم لنا.

□ وفي ما يتعلّق بتوضيح بعض عبارات هذه الآية الشريفة مثل ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ و﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾، فإنّه على الرّغم من التشابه الموجود بين كلمة «الخشية» و«الخوف» في الكثير من الموارد لكنّ الحقيقة هي أنّ ثمة فارقاً واضحاً بينهما، وهو أنّ «الخشية» تعني الخوف والتأثر الباطني للذين يعتريان

(١) انظر: تفسير الصافي.

(٢) سورة النساء: الآية ١.

(٣) سورة الحجرات: الآية ١٠.

(٤) بحار الأنوار، ج ٢٣، ص ٢٩٥.

(٥) انظر: تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٤٩٥.

الإنسان لاحترامه المُقابل وتعظيمه وتبجيله، في حين أنّ «الخَوْف» يتضمّن معنى أوسع من ذلك فهو يشمل أنواع الخوف والاضطراب والقلق كلّها. وبعبارة أخرى: إنّ كلمة «الخَشْيَة» لا تُستخدَم إطلاقاً في الحوادث المَرّة، فما مِن أحد منا يقول مثلاً: أنا أخشى البَرَد أو المَرَض أو غير ذلك؛ بينما يكثر استخدام كلمة «الخوف» في مثل هذه الأمور كقولك: أخاف البَرَد أو المرض وما شابه ذلك. وهكذا فإنّه لما كانت الخشية ناجمة عن علم الإنسان ومعرفته بعظمة المُقابل وهيبته، يمكننا عندها تخصيص هذه الكلمة بالأشخاص العارفين والعلماء بالتحديد بينما يمكن للجميع استخدام كلمة الخوف. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^(١).

التعاليم:

- ١ - المحافظة على العلاقات الدينية دليل على العقل السليم، ﴿أُولَؤُا الَّذِينَ... الَّذِينَ يَصِلُونَ﴾.
- ٢ - علينا أن نوطد علاقاتنا بأقاربنا؛ لأنّ الله سبحانه أمرنا بذلك، سواء رغب الآخرون أيضاً في فعل ذلك معنا أم لم يرغبوا، ﴿أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾.
- ٣ - تجنبوا ارتكاب المعاصي وعضوا أبصاركم في الزيارات واللقاءات، ﴿يَصِلُونَ... يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾.
- ٤ - اخشوا عظمة الله ﴿يَخْشَوْنَ﴾، وخافوا عذابه ﴿يَخَافُونَ﴾.
- ٥ - قطع صلة الرّحم يؤدّي إلى سوء الحساب، ﴿يَصِلُونَ... وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾.

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَقَبَى الدَّارِ﴾^(٢)

إشارات:

□ لا يعني «الصبر» تحمّل المشاكل والأعباء وحسب، بل ويشمل كذلك الاستقامة

والمواصلة في العبادات ومحاربة المعاصي والصبر على المصائب والتسليم في الطاعة وتجنب الغرور والتكبر في السراء.

□ المراد بعبارة ﴿وَجَوَّزْنَاهُمْ﴾ هو الفوز بعناية الله سبحانه ومرضاته.

□ إقامة الصلاة نموذج حي للعهد الإلهي وهو ما ورد في الآيات السابقة أيضاً، وذكر في الروايات كذلك أن (الصلاة عهد الله).

□ الصبر والصلاة يمثلان علاقة المخلوق بالخالق، أما الإنفاق والحسنة فهما علاقته بأبناء جلدته.

□ الإنفاق على مراحل:

المرحلة الأولى: الإحسان والإنفاق من فضل الله سبحانه ونعمه، ﴿أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾^(١).

المرحلة الثانية: الإنفاق من كد الفرد وكسبه الحلال، ﴿أَنْفِقُوا مِنْ مَّا مَلَكَتْ يَمَانُكُمْ﴾^(٢).

المرحلة الثالثة: الإنفاق مما يحببه الإنسان ويعز عليه، ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾^(٣).

المرحلة الرابعة: الإيثار، ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾^(٤).

□ قال العلامة الطباطبائي في تفسير «الميزان»: «قوله: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَغْفَبَ الدَّارِ﴾ أي عاقبتها المحمودة... وإنما تُسمى عاقبة بنحو من التوسع، ولذلك أطلق في الآية ﴿غَفَبَ الدَّارِ﴾ وأريدت بها العاقبة المحمودة»^(٥).

□ تعني عبارة ﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أنه إذا تصرف معنا شخص مؤمن - لا ظالم ولا مُفسد - بشكل غير لائق فعلينا أن نتغاضى عن ذلك، بينما يتوجب علينا مقابلة تصرفات الظالمين والمُفسدين بمثلها. وعلى الرغم من أن الإسلام

(٤) سورة الحشر: الآية ٩.

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٤.

(٥) الميزان في تفسير القرآن، الجزء ١١.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٦٧.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٩٢.

هو دين التسامح والأخلاق الحميدة والعفو والمغفرة، فإنه في الوقت نفسه قد أمرنا قائلًا: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾^(١).

□ الإسلام دين جامع وشامل، وأولو الألباب هم أفراد يتسمون بالكمال. فاستخدام بعض الكلمات مثل ﴿يُؤْتُونَ﴾ و﴿يَصِلُونَ﴾ و﴿يَخْشَوْنَ﴾ و﴿يَخَافُونَ﴾ و﴿صَبَرُوا﴾ و﴿أَقَامُوا﴾ و﴿وَأَنْفَقُوا﴾ و﴿وَيَذَرُونَ﴾ يدل على أن الأفراد الكاملين ملتزمون بعهودهم ومُحافظون على علاقاتهم بالآخرين ويتمتعون بدرجة عالية من التقوى، مضافاً إلى أنهم حاضرون وفعالون في مختلف الأصعدة وليسوا مُنزوين أو مُنزلين.

التعاليم:

- ١ - إن لكل من الصبر والاستقامة والثبات قيمة عالية إذا كانت في سبيل الله (وهذا لا يشمل كل تعصب أو عناد أو تصلب)، ﴿صَبَرُوا أَيْغَةً وَجِو رِيهِمْ﴾.
- ٢ - لا بد من إقامة الصلاة وليس تلاوتها فقط؛ أي، أنه تجب مُراعاة آدابها وشروطها وحدودها وأوامرها، ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾.
- ٣ - لا خير في علاقة الفرد بربه إذا لم يسع إلى مساعدة الآخرين، وليس المُراد بالمساعدة هو المساعدة المالية وحسب، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا﴾.
- ٤ - لا تغتروا بإنفاقكم فكل ذلك من فضل الله ونعمته، ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾.
- ٥ - عندما يكون الهدف من فعل البشر هو ﴿أَيْغَةً وَجِو رِيهِمْ﴾، فلا يهم إذا كان أداء ذلك الفعل سرّاً أو علانية، ﴿سِرّاً وَعَلَانِيَةً﴾.
- ٦ - تقتضي الحكمة أن يكون أداء بعض الأعمال سرّاً والبعض الآخر علانية، ﴿سِرّاً وَعَلَانِيَةً﴾.
- ٧ - تداركوا المعصية بالتوبة، والمُنكر بالمعروف، والظلم بالعفو، والسبّ بالسلام، والعذاب بالصدقة، والجفاء بالتواصل، والاستبداد بالتشاور، وولاية الطاغوت والشیطان بولاية الحقّ الرحمن، ﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾.

٨ - عُقْبَى الدَّارَيْنِ لَا تَكُونُ إِلَّا مِنْ نَصِيبِ أُولَى الْأَلْبَابِ، ﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ... أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾.

﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ (٢٣)

إشارات:

□ وردت عبارة ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ﴾ في (١١) آية من بين (١٢٧) آية ذكرت فيها كلمة «الجَنَّاتِ» أو «الجَنَّةِ»، و﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ﴾ - كما أشار صاحب الدر المنثور^(١) - هي قصبة الجنة^(٢).

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَخْبِيَ حَيَاتِي وَيَمُوتَ مَمَانِي وَيَسْكُنَ جَنَّتِي الَّتِي وَعَدَنِي اللَّهُ رَبِّي، جَنَّتٌ عَدْنٌ قَضِيبٌ غَرَسَهُ اللَّهُ بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ: كُنْ فَكَانَ، فَلَبَّيْ أُولَى بَنِي أَبِي طَالِبٍ وَذُرِّيَّتِهِ مِنْ بَعْدِهِ، فَهُمْ الْأَيْمَةُ وَهُمْ الْأَوْصِيَاءُ أَعْطَاهُمُ اللَّهُ عِلْمِي وَفَهْمِي، لَا يُدْخِلُونَكُمْ فِي بَابٍ ضَلَالٍ وَلَا يُخْرِجُونَكُمْ مِنْ بَابٍ هُدًى، لَا تَعْلَمُوهُمْ فَهُمْ أَغْلَمُ مِنْكُمْ يَزُولُ الْحَقُّ مَعَهُمْ أَيْنَمَا زَالُوا...»^(٣).

□ كثيراً ما ورد في القرآن الكريم أنَّ الصالحين في أسرة واحدة يُدْخِلُونَ الْجَنَّةَ كذلك معاً فيتلذذون بالصحبة فيها؛ لكنَّ الإشارة إلى بعض الأفراد في الأسرة مثل الأب أو الزوجة أو الولد في الآية الشريفة أعلاه لا تدلُّ على خصوصية معينة بل تشمل كذلك جميع الأفراد الصالحين في الأسرة الواحدة بما في ذلك الأشخاص المذكورون والأمهات والأخوات والإخوة. يُضاف إلى ذلك أنَّ عدم الإشارة إلى الأم قد يكون بسبب كونها زوجة الأب وهي بذلك مشمولة بكلمة الزوجات (أو الأزواج) كما هي الحال مع الإخوة والأخوات وأبناء الأب والعَمَّ والعَمَّة إذ يُعتبرون من ذرِّيَّة الآباء.

(٣) انظر: تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٤٩٧.

(١) الجزء التاسع، ص ٤١.

(٢) انظر: تفسير الفرقان.

□ يُستفاد من آيات عدة وجود علاقات بين الملائكة والبشر في الدنيا والآخرة (البرزخ والقيامة) وفي جميع الأحوال، فأحياناً تُصَلِّي الملائكة على البشر ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾^(١)، وأحياناً تستغفر لهم وتطلب لهم الرحمة ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾^(٢)، وفي أحيان أخرى يدعون لهم ﴿رَبَّنَا وَأَذِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾^(٣)، وعند موت الإنسان وأول دخوله إلى عالم البرزخ تقبض الملائكة روحه وهي تقول لجميع المؤمنين: ﴿أَلَّا تَحْشَرُونَ وَلَا تَحْزَنُونَ﴾^(٤) و﴿سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ﴾، ﴿الَّذِينَ نَزَّلْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾^(٥). وفي الآخرة كذلك تتردد عليهم الملائكة في كل حين قائلين: ﴿سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ﴾.

□ ذُكِرَ أن للجنة ثمانية أبواب وهي تتناسب مع عدد الأوصاف التي ذُكِرت لأولي الألباب في الآيات الأخيرة، وكأن كل صفة من تلك الصفات الثمانية مختصة باباب مُعيّن من أبواب الجنة وطريق إلى السعادة الأبدية مفتوح أمام الإنسان على مصراعيه.

□ لا يجتمع كل أب مع ابنه أو كل زوجة مع زوجها أو الآباء مع الأبناء والذاري في الجنة لأن الأنساب والأسباب تتقطع يوم القيامة، وقد قال تعالى: ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾^(٦) و﴿كُلُّ شَيْءٍ بِمَا كَبَتَ رَبُّنَا﴾^(٧) و﴿وَأَنْ لِّئْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾^(٨). إذاً، فزيارة الأقارب بعضهم بعضاً لا يكون إلا إذا كانوا يستحقون ذلك وجدّيرين بهذه النعمة. ويمكننا الإشارة إلى آيات أخرى تشبه في مضمونها هذه الآية، مثل الآية (٧) من سورة غافر، والآية (٢١) من سورة الطور.

التعاليم:

١ - الصلاح هو شرط الدخول إلى الجنة، ﴿وَمَنْ صَلَحَ﴾.

- | | |
|-----------------------------|-------------------------------|
| (١) سورة الأحزاب: الآية ٤٣. | (٥) سورة النحل: الآية ٣٢. |
| (٢) سورة غافر: الآية ٧. | (٦) سورة المؤمنون: الآية ١٠١. |
| (٣) السورة نفسها: الآية ٨. | (٧) سورة المذثر: الآية ٣٨. |
| (٤) سورة فصلت: الآية ٣٠. | (٨) سورة النجم: الآية ٣٩. |

٢ - الأسرة الفردوسية هي الأسرة التي يتصف أعضاؤها بالوحدة في صراط الحق، ﴿صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ﴾.

٣ - يُعَدُّ الاهتمام بالأمور العاطفية مبدأً من مبادئ الدين الإسلامي، فلا قيمة لعيش الإنسان في أبهى الأماكن وأجملها إذا كان بعيداً عن أسرته وأقاربه، ﴿يَتَطَلَّوْنَ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ﴾.

﴿سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾

إشارات:

□ من الخصائص التي يميّز بها القرآن الكريم بيانه الجذاب للموضوعات بأبسط الجُمَل وأوجز العبارات. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿سَلَّمَ عَلَيْكُمْ﴾، وهي جملة مقتضبة للغاية لكنها مُفَعَّمة بالمعاني وملينة بالتعابير، ويرجع تاريخها إلى أنبياء ماضين كإبراهيم ونوح وآدم وغيرهم ﷺ: ﴿سَلِّمْ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾^(١) و﴿سَلِّمْ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾.

□ «السَّلام» هو اسم من أسماء الله الحسنى، وهو سلام الله تعالى على أنبياءه وتهنئته لأصحاب الجنة وترنم الملائكة وابتداء الكلام لدى جميع مُسلمي العالم، وشعار أصحاب الجنة في هذا العالم والعالم الآخر، وهو ذكر الخالق والمخلوق، والكلمة الطيبة التي تُقال عند دخولنا وخروجنا، وهو بداية الحديث في الرسائل والخطابات، وبيان يُقال للحَيِّ والميت والصغير والكبير، أما رَدُّ هذه التحية والسلام فهو واجب في الأحوال كلها.

□ لا شك في أنّ هدف السلام هو الاحترام والتهنئة والدعاء والأمان من قِبَلِ الله سبحانه: ﴿سَلِّمْ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَجِيمٍ﴾^(٢)، وعندما نختم صلواتنا بقولنا: (السَّلامُ علينا وعلى عباد الله الصالحين) فإننا بذلك نحظّم كل القيود العنصرية والحدود الواهية مثل السنّ والجنس والمال والجاه واللغة والزمان والمكان على مَرِّ

(١) سورة الصافات: الآية ٧٩.

(٢) سورة يس: الآية ٥٨.

التاريخ، ونحاول من خلال ذلك السلام بناء علاقة وطيدة مع جميع عباد الله الصالحين.

□ ورد في بعض الروايات أنه: «إذا كان يوم القيامة ينادي مُناد: ليقيم أهل الصبر. فيقوم ناس من الناس فيقال لهم: انطلقوا إلى الجنة. فتتلقاهم الملائكة فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة. قالوا: قبل الحساب؟ قالوا نعم. فيقولون: من أنتم؟ فيقولون: نحن أهل الصبر. قالوا: وما كان صبركم؟ قالوا: صبرنا أنفسنا على طاعة الله وصبرناها عن معاصي الله وصبرناها على البلاء والمحن في الدنيا. وعن [الإمام] علي بن الحسين عليه السلام: «فتقول لهم الملائكة: ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين، أو تقول لهم الملائكة: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾»^(١).

□ روي عن الإمام الصادق عليه السلام: «نحن صُبر وشيعتنا أصبر منا؛ لأننا صبرنا بعلم وشيعتنا صبروا على ما لا يعلمون»^(٢).

قالوا في الصبر:

- ١ - الله سبحانه هو مصدر الصبر، ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾^(٣).
- ٢ - ليكن هدفنا من الصبر هو مرضاة الله لا التفاخر ولا أي شيء آخر، ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾^(٤).
- ٣ - الصبر من صفات الأنبياء، ﴿كُلٌّ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(٥).
- ٤ - الصبر مفتاح الجنة، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمُ...﴾^(٦).
- ٥ - الصبر على البلايا والاختبارات الإلهية هو محك ومعيار لمعرفة سيماء المجاهدين والصابرين، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ﴾^(٧).

(٥) سورة الأنبياء: الآية ٨٥.

(٦) سورة البقرة: الآية ٢١٤.

(٧) سورة محمد: الآية ٣١.

(١) تفسير القرطبي، ج ٩، ص ٣١٣.

(٢) تفسير الصافي، ج ٣، ص ٦٨.

(٣) سورة النحل: الآية ١٢٧.

(٤) سورة المدثر: الآية ٧.

- ٦ - الصبر مدعاة لنزول صلوات الله على صاحبه، ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾^(١).
- ٧ - قال رسول الله ﷺ: «الصَّبْرُ مِنَ الْإِيمَانِ كَالرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ»^(٢).
- ٨ - الصبر ميزان درجات أهل الجنة ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾، ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾^(٣)، ﴿وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾^(٤).
- ٩ - الصبر درجات، فقد ورد في أحد الروايات: «الصبر على المصيبة ٣٠٠ درجة والصبر على الطاعة ٦٠٠ درجة والصبر على المعصية ٩٠٠»^(٥).
- ١٠ - لم يذكر القرآن الكريم أجراً من دون حساب إلا في ما يتعلق بالصابرين، ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٦).
- ١١ - ذكر القرآن الكريم الصبر إلى جانب الشكر كذلك وهذا يشير إلى أن المصائب هي نوع من النعم ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾^(٧).
- ١٢ - الصبر هو ما وصى به الإمام الحسين ولده السجاد عليه السلام قائلاً: «يَا بُنَيَّ اصْبِرْ عَلَى الْحَقِّ وَإِنْ كَانَ مُرًّا»^(٨).
- ١٣ - قد يشتمل العمل الواحد أحياناً على أنواع عدة من الصبر، مثل تسليم سيدنا إبراهيم عليه السلام لأمر الله بذبح ابنه إسماعيل عليه السلام فقد صبر على الطاعة والتسليم وصبر على المصيبة.

التعاليم:

- ١ - الصبر أساس الكمالات كلها، ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾؛ (تم بيان الصبر في آخر علامات أولي الألباب وكمالاتهم، وسبب سلام الملائكة كذلك يعود إلى صبر المؤمنين).
- ٢ - من أخلاق الملائكة السلام على أصحاب الجنة كلما دخلوا عليهم، ﴿يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ... سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾.

(١) بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٩٢.

(٢) سورة الزمر: الآية ١٠.

(٣) سورة إبراهيم: الآية ٥.

(٤) بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ١٨٤.

(١) سورة البقرة: الآية ١٥٧.

(٢) بحار الأنوار، ج ٩، ص ٢٠٣.

(٣) سورة الفرقان: الآية ٧٥.

(٤) سورة الإنسان: الآية ١٢.

٣ - الجنة هي «دار السلام»؛ لأن الملائكة يسلمون على أصحابها في دخولهم وخروجهم، ﴿وَمِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾.

٤ - احتراموا الصابرين والمثابرين، ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾.

٥ - استخدام العبارات والسلام والتحية في النظام الإلهي قائم على أساس معين وحكمة واضحة (الإيمان والعمل) لا (التملق والنفاق). ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾.

﴿وَالَّذِينَ يَقْسُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ
أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾

إشارات:

□ في مقابل الصفات الحسنة والخصال الطيبة لأولي الألباب ووفائهم بعهودهم ووصلهم ما أمر الله به أن يوصل، يشير القرآن الكريم إلى مجموعة أخرى من البشر ممن يمتلكون عكس تلك الصفات تماماً، أي نقضهم العهود وقطعهم لما أمر الله به أن يوصل، ولذلك، وبدلاً من عُقبى الدار التي وُعد بها الصابرون فإن هؤلاء وُعدوا بـ ﴿سُوءُ الدَّارِ﴾.

□ أطلق معنى «الفساد في الأرض» في القرآن الكريم على بعض الأشخاص والأفعال، ومن هؤلاء الذين تصدق عليهم كلمة المُفْسِد هو فرعون ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾^(١)، ومن بين الأفعال الفاسدة هي إهلاك الحرث والنسل^(٢)، وإيجاد الفرقة وقتل الأنفس البرينة. وقد بين القرآن الكريم أن جزاء المُفْسِد في الأرض هو القتل والإعدام وقطع أعضائه أو نفيه وإبعاده^(٣)، أما الذين يحلو

(١) سورة القصص: الآية ٤.

(٢) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ سَبِّحُوا لِلَّهِ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾، سورة البقرة: الآية ٢٠٥.

(٣) ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْتَوُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾، سورة المائدة: الآية ٣٣.

لهم التشاُمخ والتعالى والإفساد، فهم محرومون من أُلطاف الله يوم القيامة.
 □ ومما أوصى به الإمام السَّجَّاد عليه السلام ولده، قوله: «إِيَّاكَ وَمُصَاحِبَةَ الْقَاطِعِ لِرَجْمِهِ
 فَإِنِّي وَجَدْتُهُ مُلْعُونًا فِي كِتَابِ اللَّهِ»^(١).

التعاليم:

- ١ - يُعَدُّ أسلوب المقارنة من الأساليب التربويَّة والتبليغيَّة، ﴿يُؤْمِنُونَ... عُنُقَى الدَّارِ...
 يَنْقُضُونَ... سُوءُ الدَّارِ﴾.
- ٢ - يُعتبر ابتعاد العبد عن الله سبحانه نقطة بداية الانحرافات جميعاً وأوجه
 الفساد، ﴿يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ... وَيُفْسِدُونَ﴾.
- ٣ - قطع صلة الرَّحم من الكبائر؛ لأنَّ الله تعالى وَعَدَ مُرْتَكِبِيهَا بالعذاب الشديد،
 ﴿يَقْطَعُونَ... وَلَكُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾.
- ٤ - يُمكن أن يسري فساد المُفْسِد إلى كلِّ مكان، ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾.

﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا
 وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ﴾

إشارات:

□ على الرغم من أنَّ هذه الآية الشريفة تُنسب السَّراء والضَّراء في الرِّزق إلى الله
 سبحانه، إلا أنه لا ينبغي أن ننسى أنَّ أفعال الله تعالى حكيمة ولا تُصدر إلَّا
 على أساس المصلحة والحكمة. وقد بيَّنت بعض الآيات والروايات كذلك بعض
 علل تلك الأفعال الحكيمة، منها وجود المعصية في شؤون الأفراد وهو ما
 يؤدِّي إلى حدوث التغيرات في أرزاقهم. ولا بدَّ من أنَّ الكثير منا قرأ ما ورد
 في دعاء كميل: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتِي تُغَيِّرُ النِّعَمَ».

□ وأحياناً يكون سبب الاختلاف في مقدار الرِّزق بين فرد وآخر هو الاختبار

والابتلاء الإلهي ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ... وَنَقُصُّ مِنَ الْأَمْوَالِ﴾^(١)، أو يكون الحرمان من شيء من الرزق بسبب حرمان صاحب الرزق الآخرين من حقوقهم، كصاحب البستان المذكور في سورة القلم والذي أحرقت النار لأن صاحبه كان بخيلاً^(٢)، وأحياناً أخرى يكون التقدير في الرزق ونقصه بسبب تجاهل اليتامى وإهمالهم ﴿كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ﴾^(٣).

□ المهّم هو أن لا نغترّ بوفرة الرزق ونعصي الله وننسى كل شيء، ولا نياس أو نفقد الأمل عند قبضه، فالنظام الإلهي نظام حكيم قائم على الاختبار والابتلاء لا الحظ والإقبال.

التعاليم:

- ١ - الرزق - كثيره وقليله - بيد الله، وهو لا يتأتى بالحيلة أو التملق أو نقض العهود أو قطع العلاقات التي تتطلب في بعض الأحيان البذل والإنفاق، ﴿اللَّهُ يَسُطُّ الرِّزْقَ﴾.
- ٢ - الرزق القليل هو الآخر مُعطى وفقاً لقدّر الفرد وحكمة الله، فقد ورد في الآية الشريفة كلمة ﴿وَيَقْدِرُ﴾ بدلاً من (يُضَيِّقُ).
- ٣ - على الرغم من أنّ الدنيا ومتاعها قليلان، إلّا أنّها - مع الأسف - قادرة على إغراء البعض وخداعهم، ﴿وَفَرِحُوا...﴾.
- ٤ - الدنيا صغيرة وزائلة ومتاعها قليل، فلا تضعوا فيها آمالكم كلّها، ﴿إِلَّا مَتَّعَ﴾.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ

إِنَّمَا اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾

إشارات:

□ لا بدّ من أن يكون لكلّ نبيّ بيّنة وآية من عند الله تعالى لإثبات نبوّته، وهي ما

(١) سورة البقرة: الآية ١٥٥.

(٢) سورة القلم: الآيات من ١٧ إلى ٣٢. [المترجم]

(٣) سورة الفجر: الآية ١٧.

تُسَمَّى بـ (المُعْجِزَة)، لكنَّ المُعْجِزَة لا تكون إلَّا في الأمور الخاصَّة. أمَّا هؤلاء المُعَانِدِينَ فيطلبون من النَّبِيِّ ﷺ الإتيان بالمُعْجِزَة لا لأجل قبول دعوته والإيمان بما جاء به، ولكن لإرضاء أهوائهم واللَّعب والعبث، ولو أنَّهم تركوا العناد ولم تَعَمَّ بصيرتهم لوجدوا أنَّ القرآن الكريم بحدِّ ذاته هو أعظم مُعْجِزَة.

□ قد يكون الماء والطعام مُضْراً لبعض المرضى؛ لكنَّ الضَّرر لا يكمن في الماء أو الطعام نفسه بل بسبب المَرَض الذي يُعَانِيهِ ذلك المريض. نعم، فإنَّ الأفراد المرضى من الناحية النفسيَّة يتوجَّعون ويتكدَّرون إذا ما اضطُروا إلى قبول آيات الله الواضحات؛ لأنَّهم وبمجرَّد مواجهتهم للحقَّ ستتحرك داخلهم عوامل العناد التي ستأمرهم بطرد فكرة الهداية، وهذا ما تُشير إليه كلمة ﴿يُضِلُّ﴾ في الآية الشريفة أعلاه.

بحث حول الهداية والضلال:

□ الهداية الإلهيَّة على نوعين: (١) هداية ابتدائية؛ و(٢) هداية تكميلية.

فأمَّا الهداية الابتدائية فهي تتعلَّق بالناس جميعاً، ﴿إِنَّا هَدَيْنَا السَّبِيلَ﴾^(١)، وأمَّا الهداية التكميلية فتخصَّ أفراداً مُعَيَّنِينَ مِمَّنْ قبلوا وأذعنوا للهداية الأولى. كالمعلِّم الذي يُلقِي دروسه ومواضيعه في الأيام الأولى للدراسة على الطلبة بشكل واحد ونمط مُعَيَّن، لكن بعد مضيِّ فترة نراه يشمل برعايته الطلبة المجتهدين والجادين في دراستهم، ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾^(٢).

لكنَّ الأفراد الذين قال عنهم القرآن الكريم: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ ءَايَةٍ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾^(٣)، و﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّؤَيَّنٌ﴾^(٤)، لم يزدادوا إلَّا عناداً وقولهم: هذا سحر. ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُذَّابًا لَا يَقُولُوا هَٰذَا إِلَّا نَزْلٌ مِنْ رَبِّنَا﴾^(٥)، فهل يستحقُّ مثل هؤلاء بعد ذلك إلَّا

(٤) سورة الأنعام: الآية ٧.

(٥) سورة الأنعام: الآية ٢٥.

(١) سورة الإنسان: الآية ٣.

(٢) سورة محمد: الآية ١٧.

(٣) سورة الأنعام: الآية ٤.

أَن يُخْتَمَ بالضلالة على قلوبهم؟ ومع ذلك فَإِنَّ الله سبحانه حكيم وعادل، وَإِنْ أفعاله وإراداته كلها قائمة على أساس قوله ﷻ: ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ و﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ و﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾، و﴿يَفْرِغُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، و﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾، و﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾، فكل ذلك لا يمكن تفسيره إلَّا وفقاً لعدله وحكمته ولطفه وعنايته.

فعندما يقول الله سبحانه: ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾، فليست الهداية التي يختارها لشخص ما على غير قاعدة أو معيار ثابت، بل وكما يتبين لنا من الآيات الأخرى، فهو يطالب في بعضها بالإيمان كشرط للهداية كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾^(١)، وفي آية أخرى يشير إلى أَنَّ الحصول على مرضاته إلى جانب سلوك سبيل السلامة والاستقامة هو أساس الهداية: ﴿يَهْدِي إِلَهُهُ مَنْ أَبِىءَ أَتَّبِعْ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾^(٢).

أو عندما يقول عز وجل: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ فإنه يعتبر في آيات أخرى أَنَّ الإسراف في الشك والارتياب هو سبب وعامل الضلال: ﴿يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾^(٣).

وعلى أي حال، إذا كانت فتحة الإناء إلى الأعلى فقد تدخل فيه بعض قطرات المطر، ولكن إذا كان الإناء منكفئاً إلى الأسفل فلن تدخل قطرة واحدة إلى جوفه. وهكذا هو الإنسان، فإذا كانت نفسه متجهة إلى الماديات فمن الطبيعي أَنه سيكون محروماً من أي قطرة من قطرات المعنوية الإلهية، ﴿أَسْتَحْبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾^(٤).

التعاليم:

١ - يُطالب الكُفَّار المُعاندون بمُعجزة جديدة في كل لحظة. لكن، ما من مشكلة في إيجاد المعجزة الخارجية، بل إِنَّ المشكلة موجودة في عنادهم المتأصل في نفوسهم، ﴿لَوْلَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ آيَةً﴾.

(١) سورة التغابن: الآية ١١.

(٣) سورة غافر: الآية ٣٤.

(٢) سورة الملتمة: الآية ١٦.

(٤) سورة التحل: الآية ١٠٧.

٢ - اقتضت السُّنة الإلهية هداية الناس جميعاً: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾^(١)؛ ولكن إذا اختار البعض طريق الاعوجاج والضلال فإنَّ الله سيجازيه بمثل الذي اختاره وهو الضلال، ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾.

٣ - الخشوع والإنابة مُقابل الحقَّ هما مفتاح الهداية، ﴿وَيَهْدِي إِلَيْنَا مَن نَّأْتِي﴾.

٤ - على الرغم من أنَّ هداية الناس هي بيد الله وبمشيئته، فإنَّ تلك الهداية لا تشمل سوى الذين أوجدوا في داخلهم الاستعداد لتقبلها، ﴿وَيَهْدِي إِلَيْنَا مَن نَّأْتِي﴾.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (٢٨)

إشارات:

□ لا يقتصر ذكر الله سبحانه على اللسان وحسب، وإن كان ذلك هو أحد الوجوه الشائعة لذكره تعالى؛ لأنَّ المهمَّ هو ذكره ﷻ في كلِّ وقت وحين، خصوصاً عند ارتكاب المعاصي.

□ لِذِكْرِ اللَّهِ سبحانه بركات ونعم كثيرة، منها أنَّ:

(أ) ذكر نعمه سبب للشكر.

(ب) وذكر قُدرته سبب للتوكل عليه.

(ج) وذكر الطافه سبب لمحَبَّته.

(د) وذكر غضبه وعقابه سبب للخوف منه.

(هـ) وذكر عظمته وهيبته سبب لخشيته.

(و) وذكر علمه بالغيب والشهادة سبب للحياء والعفة.

(ز) وذكر عفوه وكرمه سبب للأمل والتوبة.

(ح) وذكر عدله سبب للتقوى والزهد.

□ طلبات الإنسان لا تنتهي ورغباته ليس لها حدّ، فهو ينشد الكمال المطلق، ولكن لما كان كلّ شيء غير الله محدوداً ووجوداً عارضاً فإنّ قلب الإنسان لا يهدأ ولا يسكن. وفي مقابل الذين تطمئنّ قلوبهم بذكر الله نجد مجموعة أخرى تدّعي لمتاع الدنيا القليل، ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾^(١).

□ الصلاة شكل من أشكال ذكر الله سبحانه وسبب لطمأنينة القلوب، ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾^(٢)، ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.

□ قد يكون معنى ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ هو أنّ قلوبكم تطمئنّ بذكر الله لكم، أي إذا علمنا أنّ الله تعالى يذكرنا وأننا حاضرون أمامه على الدوام فإنّ قلوبنا تصبح مطمئنة ولا نخشى شيئاً أبداً. وهذا ما حصل مع سيدنا نوح عليه السلام حين اطمأنّ قلبه وهذا باله بعدما خاطبه الله تعالى قائلاً: ﴿وَأَصْنَعْ أَلْفُكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا﴾^(٣) وكذلك الإمام الحسين عليه السلام حين قال: «هَيِّنْ عَلَيَّ أَنَّهُ يَعْينَ الله» وهو يرى استشهاد ابنه علي الأصغر عليه السلام. وما ورد عنه عليه السلام قوله في دعاء عرفة: «يا ذا كِرِّ الذّاكِرِينَ».

□ سؤال: تشير هذه الآية إلى أنّ القلوب تطمئنّ بذكر الله لا سيّما قلوب المؤمنين، لكن تبيّن آيات أخرى أنّ المؤمن إذا ما دعا ربّه ارتعش قلبه ووَجَل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾^(٤)، فهل يمكن اجتماع هذا الوجَل وتلك الطمأنينة معاً؟ وكيف تُفسّر ذلك؟

الجواب: لكي نستوعب إمكانية اجتماع الطمأنينة والوجَل في آن واحد ونفهمها حقّ الفهم، نسوق بعض الأمثلة على ذلك:

(أ) قد يكون قلب الإنسان أحياناً مطمئناً وهادئاً بسبب توقّر جميع العناصر المطلوبة في أمر ما، لكننا مع ذلك نراه قلقاً ومضطرباً. كالجراح الأخصائي

(١) سورة يونس: الآية ٧.

(٢) سورة هود: الآية ٣٧.

(٣) سورة طه: الآية ١٤.

(٤) سورة الأنفال: الآية ٢.

الذي يَتَّقُ بعِلْمه وأدائه في الجراحة، إِلَّا أَنَّ القلق والخوف يعتريانه إذا ما أراد القيام بعملية جراحية لشخصية مهمة مثلاً.

(ب) أو الأولاد الذين يشعرون بالطمأنينة لوجود الوالدين، ومع هذا فهم يهابونهما ويحسبون لهما كلَّ حساب.

(ج) أو أحياناً يؤمن بعض الأفراد بأنَّ بليّة ما أو مصيبة معينة إنّما هي اختبار إلهي له يُراد بها تهيئته لخوض المعارك التالية في حياته، لذلك نراه سعيداً ومطمئناً، لكن يبقى ما يُقلقه هو: هل سينجح في أداء مهمته على أكمل وجه أم أنّه سيفشل؟

(د) عندما يتلو المؤمنون القرآن الكريم ويمرّون على الآيات التي تشير إلى العذاب والنار وغضب الله سبحانه يستولي عليهم الخوف وتأخذهم الرعدة، بينما يشعرون بطمأنينة كاملة تغمر قلوبهم عند قراءتهم الآيات التي تُذكر فيها رَحمة الله ورضوانه والجنات التي وعد بها المؤمنون. ويقول الإمام السّجاد عليه السلام في الدعاء المشهور بدعاء أبي حمزة الثمالي: «إِذَا رَأَيْتُ مُؤَلَايَ ذُنُوبِي فَرِغْتُ، وَإِذَا رَأَيْتُ كَرَمَكَ طَمِعْتُ». وأمّا صاحب تفسير «الميزان» فقد أورد مثلاً على ذلك من القرآن الكريم نفسه: ﴿نَفْسَعِرْ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِنَّ ذِكْرَ اللَّهِ﴾^(١)؛ بمعنى أنّ الإنسان يضطرب في البداية إِلَّا أنّه سرعان ما يهدأ ويطمئنّ قلبه.

□ إنّ مَنْ يغفل عن ذكر الله تعالى لن يذوق طعم الأمن والأمان ولا الراحة والاطمئنان، وما أنعس الحياة التي تخلو من الطمأنينة والهدوء، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾^(٢).

عوامل الطمأنينة والراحة:

□ ثمة عوامل عدّة تبعث على الطمأنينة والهدوء، إِلَّا أنّ العِلْم له دوره المُميّز في هذا الشأن:

(١) سورة الزمر: الآية ٢٣.

(٢) سورة طه: الآية ١٢٤.

- فالذي يعلم بأن كل مثقال ذرة من أعماله محسوب ومكتوب: ﴿فَمَنْ يَمَلَّ
- مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾^(١) سيكون قلبه مطمئناً وباله مرتاحاً بالنسبة لما يقوم به.
- ومن يعلم أنه مخلوق بلطف الله ورحمته: ﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلَئِكَ خَلَقَهُمْ﴾^(٢)؛ لا بد من أن يكون متفائلاً ومليئاً بالأمل.
- ومن علم أن ربه بالمرصاد للظالمين: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَلِ الرَّصَادِ﴾^(٣)؛ فباله مرتاح.
- ومن يعلم أن الله سبحانه حكيم عليم وأنه لم يخلق شيئاً اعتباطاً أو عبثاً: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(٤)؛ سيكون متفائلاً.
- ومن يعلم أن طريقه واضحة وأن مستقبله أفضل من ماضيه: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾^(٥)؛ يكون قلبه أكثر اطمئناناً.
- ومن يعلم أن إمامه وقائده هو إنسان كامل ومعصوم من كل خطأ وأنه مختار من قبل الله مباشرة ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾^(٦) فإنه لن يكون إلا هادياً ومطمئناً.
- ومن يعلم أن عمله الحسن سيُجزى من عشرة إلى سبعة ضعف وربما إلى ما لا نهاية بينما سيُحسب عمله السيئ على أنه زلة لا غير: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ﴾^(٧)؛ لا شك في أنه سيكون أسعد من في الوجود.
- ومن يعلم أن الله عز وجل يحب المحسنين: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٨)؛ سيضمن لإحسانه.
- وأخيراً، فإن من يعلم أن عمله الحسن سيشتهر وينتشر وعمله السيئ سيظل

(١) سورة الزلزلة: الآية ٧.

(٢) سورة هود: الآية ١١٩.

(٣) سورة الفجر: الآية ١٤.

(٤) سورة النساء: الآية ٢٦.

(٥) سورة الأعلى: الآية ١٧.

(٦) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

(٧) سورة البقرة: الآية ٢٦١.

(٨) سورة البقرة: الآية ١٩٥.

(١) سورة الزلزلة: الآية ٧.

(٢) سورة هود: الآية ١١٩.

(٣) سورة الفجر: الآية ١٤.

(٤) سورة النساء: الآية ٢٦.

مَخْفِيًّا بِفَضْلِ اللَّهِ «يَا مَنْ أَظْهَرَ الْجَمِيلَ وَسَتَرَ الْقَبِيحَ»، لَا شَكَّ فِي أَنَّهُ سَيَسْعَدُ وَيَفْرَحُ.

عوامل الاضطراب والقلق:

□ القلق والاضطراب النفسي من أكثر الأمراض شيوعاً في العصر الحديث، وهو مَرَضٌ له أعراضه الكثيرة مثل الانطوائية والكآبة وإذلال الذات واحتقارها. ولهذا النوع من المرض أسبابه وعِلله، وهي:

- يُصاب الشخص المريض بالكآبة لاعتقاده بأنَّ كلَّ ما حوله ليس كما يُحِبُّ، في حين لا يجب أن نتخلَّى حتى عن القليل الممنوح لنا بحجّة أننا لم نُصل إلى كلِّ ما نُحِبُّ.

- يتساءل الشخص الكئيب مع نفسه: «لماذا لا يحبّني الناس جميعاً؟» في حين أنّ ذلك أمر مستحيل فحتى الله ﷻ وجبريل ﷺ لهما أعداء، فلا يجب على أحدٍ منا أن يتوقَّع حُبَّ جميع الناس له.

- يظنُّ الشخص المصاب بالكآبة أنّ جميع الناس سيئون، وهذا ليس صحيحاً بالطبع، وقد أجاب الله سبحانه وتعالى على ما كان يتساءل عنه الملائكة عند خلق أدينا آدم ﷺ.

- يعتقد الكئيب أنّ كلَّ ما يُصيبه من بلاء إنّما هو من خارج ذاته، بينما تكون البلايا الرئيسة والمصائب الكبيرة مُجرَّد ردِّ فعل ناتج عن سلوكه وأفعاله الشخصية.

- يُصاب الشخص الكئيب بالقلق عند الشروع في أيِّ عمل ويشعر بالخوف والوحدة. وقد قدّم الإمام علي ﷺ علاجاً لهذه الحالة بقوله: «إذا هبت شَيْئاً فَقَعْ فِيهِ»^(١).

- وَينتاب الشخص المصاب بالكآبة القلق والخوف ممّا قد يحصل في

المستقبل، ويمكن لمثل هؤلاء الأفراد إزالة كل ذلك القلق والخوف بالتوكل على الله سبحانه.

- ويسبب فشل المُكْتَسِب في بعض الأمور نراه قلقاً ومتخوفاً من أن يكون مصيره الفشل في بقية أموره.
- لما كان الكُثِيب مُعْتَمِداً على البشر ومُسْتَنْداً إلى القوى الزائلة، فإنَّ حالته تزداد سوءاً مع زوال من يعتمد عليهم وضعف وتلك القوى.
- والخلاصة فإنَّ بعض العوامل مثل عدم تقدير الناس لما يقوم به الشخص المُكْتَسِب، وارتكابه المعاصي، والخوف من الموت، وما قد تبثه الأسرة من انطباعات وتغرسه من أفكار فيه كأن يقولوا له: أنت لا تعلم شيئاً؛ أو: أنت عاجز عن فعل كذا وكذا؛ والأحكام المسبقة والمطالب غير المنطقية والتصورات الخاطئة، هذه العوامل كلها وغيرها كثير، هي أسباب رئيسة لحالات الكآبة والقلق وكلها تتحوّل إلى طمأنينة وراحة وسعادة بمجرد ذكر الله سبحانه وقدرته وعفوه ولطفه. وها أنا أكتب تفسير الآية الشريفة ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ في (١٩٩٤م/٦/٤) في مدينة (هَمدان) وذلك بمناسبة الذكرى الخامسة لرحيل الإمام الخميني (رَحِمَهُ اللهُ)، الشخص الذي ختم وصيته قائلاً: «وأستأذنكم للرحيل بقلب مطمئنّ وضمير مرتاح ونفس متفائلة بفضل الله».

التعاليم:

- ١ - الإيمان بالله والوثوق به هما علامتان على الإنابة الحقّة، ﴿مَنْ أَنَابَ... الَّذِيكَ ءَامَنُوا﴾.
- ٢ - الإيمان من دون اطمئنان القلب ليس إيماناً كاملاً ولا فاعلاً، ﴿ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ﴾.
- ٣ - لا يكفي أن نذكر الله سبحانه بلساننا فقط، بل لا بدّ من أن نطمئنّ قلبياً، ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾.

٤ - لا يطمئن القلب إلا بذكر الله تعالى، ﴿أَلَا يَنْصَرُّ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾. إن الذين يكتزون الذهب والفضة ويملكون السلطة والاقتدار اليوم هم كثر، إلا أنهم محرومون من الأمان والطمأنينة تماماً.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾

إشارات:

□ الناس أربعة أصناف:

(أ) المؤمنون، وهم أصحاب الإيمان والأعمال الصالحة.

(ب) الكفار، وهم الذين لا إيمان لهم ولا يؤمنون، لا في الظاهر ولا في الباطن.

(ج) الفاسقون، وهم المؤمنون الذين ساءت أعمالهم.

(د) المنافقون، وهم الذين لا إيمان لهم لكنهم يتظاهرون به أمام الناس.

□ ﴿طُوبَى﴾ إما مصدر مثل (بُشِّرَى) أو مؤنث (أَطِيبَ) بمعنى أفضل. لكن هذه الآية لم تُشر إلى معيار خاص للأفضل حتى يكون ذلك شاملاً لكل أفضل. وقد يكون ما ورد في الروايات من أن ﴿طُوبَى﴾ هي شجرة أصلها في بيت النبي ﷺ وأن علياً عليه السلام وفروعها يُظللون على رؤوس المؤمنين، قد يكون ذلك مثلاً وتجسيماً لكون جميع الطهارات والخيرات مرهونة بالسير على خطى الأئمة وأولياء الله.

□ عندما أخذ أصحاب العقلية الساذجة على النبي ﷺ إكثاره من تقبيل ابنته فاطمة الزهراء عليها السلام في كل وقت وحين، أجابهم ﷺ قائلاً: «إِنِّي لَمَّا أُسْرِيَ بِي إِلَى السَّمَاءِ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَأَذْنَانِي جَبْرِئِلٌ مِنْ شَجَرَةِ طُوبَى وَنَاوَلَنِي مِنْ ثِمَارِهَا فَآكَلْتُهُ فَحَوَّلَ اللَّهُ ذَلِكَ مَاءً فِي ظَهْرِي، فَلَمَّا هَبَطْتُ إِلَى الْأَرْضِ وَاقَعْتُ خَدِيجَةً فَحَمَلْتُ بِفَاطِمَةَ فَمَا قَبَلْتُهَا قَطُّ إِلَّا وَجِدْتُ رَائِحَةَ شَجَرَةِ طُوبَى مِنْهَا»^(١).

□ لا استمرار لسعادة غير المؤمنين الذين لا يعملون صالحاً، وهو ما أشار إليه الإمام علي عليه السلام بقوله: «لَا خَيْرَ فِي لَذَّةٍ مِنْ بَعْدِهَا النَّارُ»^(١).

التعاليم:

- ١ - الحياة الدنيوية الطيبة والعاقبة الأخروية الحسنة مرهونة بالإيمان والعمل الصالح، ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا... طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَتَابٍ﴾.
- ٢ - لا قيمة للسعادة الدنيوية ما لم تكن عاقبتها الأخروية حسنة كذلك، لا أن تُصبح عقبة في طريقها، ﴿طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَتَابٍ﴾.

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَبِثُوا عَلَى الْعِلْمِ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ﴾

إشارات:

□ مع أن النبي ﷺ كان عربياً إلا أن القرآن الكريم يشير بصراحة إلى أنه بُعِثَ إلى الأمم كافة من دون استثناء، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾^(٢).

التعاليم:

- ١ - إرسال الرسل وبعث الأنبياء هي سُنَّةُ إلهية نابعة من لطف الله سبحانه ورحمته، ﴿كَذَلِكَ...﴾.
- ٢ - لا بد من دراسة تاريخ كل قوم من الأقوام قبل دعوتهم وتربيتهم، ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا...﴾.
- ٣ - تكمن مسؤولية الأنبياء في تلاوة وحى الله على الناس، ﴿لَبِثُوا...﴾.
- ٤ - دافعوا عن عقيدتكم ضد الكفار، ﴿يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ... قُلْ هُوَ رَبِّي...﴾.
- ٥ - التوكل على الله سبحانه هو أساس مقاومة الكفار، ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي... عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ...﴾.

(٢) سورة سبأ: الآية ٢٨.

(١) المصدر نفسه، ج ٤١، ص ١٠٤.

٦ - إيماننا بالله سبحانه قائم على أساس ربوبيته ﴿رَبِّي﴾، ووحدانيته ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، والتوكل عليه ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، ورجوعنا إليه ﴿وإِلَيْهِ مَتَابٌ﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتُ
بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِيسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَّو يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ
جَمِيعًا وَلَا يَزَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا
مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾

إشارات:

□ تشير هذه الآية إلى قمة العناد الذي وصل إليه الكفار وهي تشبه إلى حد كبير الآية (١١١) من سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ أَنَّا زُلْنَا إِلَيْهِمُ الْكَلْبُكَّةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾.

□ القرآن الكريم كتاب استطاع تحريك ما هو أعتى من الجبال وأصعب من إحياء الموتى؛ فقد تمكّن من بعث الحياة في عقول عرب الجاهلية الجامدة وقلوبهم المغلقة. ولو وُجدَ آنذاك كتاب يمكن بواسطته تحريك الجبال وإحياء الموتى، لكان ذلك الكتاب هو القرآن الكريم، ﴿أَوْمَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾^(١).

□ ويتبيّن من كلام الإمام الكاظم عليه السلام وجود الكثير من الرموز والعلوم والأسرار في القرآن الكريم بحيث يمكن التصرّف والتحكّم بالطبيعة من خلالها^(٢)، ﴿سُيِّرَتْ بِهِ... قُطِعَتْ بِهِ... كَلِمٌ بِهِ﴾.

التعاليم:

- ١ - لا تتوقعوا أن يؤمن الناس جميعاً، ﴿لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾.
- ٢ - يُعتبر العناد والتعنت من الأمراض المستعصية في المجتمعات البشرية؛ (فلو أراد شخص ما التوصل إلى الحقيقة ومعرفتها بصدق فإنّ معجزة واحدة تكفيه لإثبات ذلك)، ﴿قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ... قُطِعَتْ بِهِ... كَلِمٌ بِهِ﴾.

- ٣ - يُمَثِّلُ اللهُ ﷻ في الأيديولوجيا الدينية الفاعل الأول والأخير، ﴿بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾.
- ٤ - ما مِنْ مُعْجِزَةٍ تَحْدُثُ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَلَيْسَ بِأَهْوَاءِ الْمُعَانِدِينَ وَالْكَفَّارِ، ﴿بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾.
- ٥ - تَسْتَنْدُ إِرَادَةُ اللهِ تَعَالَى فِي الْهَدَايَةِ إِلَى اخْتِيَارِ النَّاسِ وَلَيْسَ إِكْرَاهِهِمْ عَلَى ذَلِكَ، ﴿لَوْ يَشَاءُ اللهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾، وَهُوَ مَا أَكَّدَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾^(١).
- ٦ - عَلَى الْكَفَّارِ فِي أَيِّ لَحْظَةٍ أَنْ يَتَوَقَّعُوا ضَرْبَةَ إِلَهِيَّةٍ عَلَى بِلَادِهِمْ، ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾.
- ٧ - لَا يَقْتَصِرُ غَضَبُ اللهِ سُبْحَانَهُ عَلَى الْآخِرَةِ وَحَسْبُ، ﴿تُصِيبُهُمْ... قَارِعَةٌ﴾.
- ٨ - قَدْ تَكُونُ الْمَوْعِظَةُ وَالِاسْتِدْلَالُ غَيْرَ كَافِيَيْنِ فِي بَعْضِ الْمَوَارِدِ، لِذَلِكَ يَتَوَجَّبُ التَّعَامُلُ بِالْغَضَبِ وَالشَّدَّةِ، ﴿تُصِيبُهُمْ... قَارِعَةٌ﴾.
- ٩ - سَبَبُ نَزُولِ الْبَلَايَا عَلَى بَعْضِ النَّاسِ هُوَ أَفْعَالُهُمْ، ﴿بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾.
- ١٠ - تَكُونُ بَعْضُ التَّحْذِيرَاتِ الْإِلَهِيَّةِ أحياناً بِشَكْلِ مُبَاشِرٍ فَتُصِيبُنَا نَحْنُ بِالذَّاتِ وَأحياناً أُخْرَى تَكُونُ بِشَكْلِ غَيْرِ مُبَاشِرٍ فَتُصِيبُ الْآخَرِينَ مِنْ حَوْلِنَا، ﴿تَحُلُّ قَرِيبًا مِّنْ دَارِهِمْ﴾.
- ١١ - عَلَيْنَا أَنْ نَأْخُذَ الدَّرُوسَ وَالْعِبَرَ مِنْ عَذَابِ الْآخَرِينَ، ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّنْ دَارِهِمْ﴾.
- ١٢ - لَا تَشْكُوكُوا فِي وَعِيدِ اللهِ وَتَحْذِيرَاتِهِ إِطْلَاقاً، ﴿لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلْنَا لِلَّذِينَ كَفَرُوا
ثُمَّ أَخَذْنَاهُمُ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۚ﴾

التعاليم:

- ١ - تُعَدُّ مَعْرِفَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَالِاطَّلَاعُ عَلَى تَارِيخِهِمْ سَبِيلاً لِلصَّبْرِ وَالْجَلْدِ أَمَامَ الْمَشَاكِلِ وَالْمَصَاعِبِ وَتَحَمُّلِ الْأَعْيَاءِ، ﴿أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾.

- ٢ - مَنْ يَسْتَهْزِئْ بِرُسُلِ اللَّهِ وَأَنْبِيَائِهِ هُوَ الْكَافِرُ بَعِينُهُ، ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾.
- ٣ - الإمهال والتأجيل سُنَّةُ إلهية ثابتة، ﴿فَأَمَلَيْتُ﴾. فالمؤمن يستفيد من هذه الحالة وينتهاز الفرصة للتوبة والإكثار من العمل الصالح، بينما يشجع ذلك الكافر على الإصرار على المعصية والإمعان في الكفر.
- ٤ - لَا تَغْتَرَوْا بِإِمْهَالِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَأْخِيرِهِ الْعَذَابَ، فَقَدْ يَصَبُّ غَضَبُهُ فَجَاءَ وَمِنْ دُونِ إِذْذَارٍ سَابِقٍ، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾.
- ٥ - إِذَا طَلَبْتُمْ مِنْ أَيْ شَخْصٍ الْقِيَامَ بِعَمَلٍ مَا فَلَا بَدَّ لَكُمْ مِنْ إِخْبَارِهِ بِأَخْطَارِ ذَلِكَ الْعَمَلِ وَرَفَعَ مَعْنَوِيَّاتِهِ، ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ
أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَخْلَعُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يُظْهِرُ مِنْ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا
مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾

إشارات:

□ الله سبحانه قائم على كل شيء، وهو مُدَبِّرُ الأمور جميعاً وهو الكافي والحافظ والمشرف والمُدَوِّنُ والمُسْجِلُ.

التعاليم:

- ١ - إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى، وَمِنْ خِلَالِ السُّؤَالِ الَّذِي يَطْرَحُهُ، يَأْمُرُ الْإِنْسَانَ بِأَنْ يُحَكِّمَ فِطْرَتَهُ وَعَقْلَهُ؛ لِأَنَّهُمَا لَا يُوَافِقَانِ عَلَى الشَّرْكِ، ﴿أَفَمَنْ... أَمْ تُنَبِّئُونَهُ﴾.
- ٢ - مَنْ يَتَّبِعْ عَنِ اللَّهِ الْعَلِيمِ الْوَاحِدِ الْقَيُّومِ سَيَقَعُ فِي هَاوِيَةِ الشَّرْكِ وَتَعَدَّدَ الْآلِهَةِ، ﴿شُرَكَاءَ﴾.
- ٣ - تَمْتَازُ عِبَادَةُ الْأَوْثَانِ وَالشَّرْكِ بِقَدْرِ مِنَ السَّخَافَةِ وَاللَّامُنْطَقِ بِحَيْثُ يَتَعَذَّرُ إِطْلَاقُ صِفَةٍ أَوْ تَسْمِيَةٍ عَلَى أَيْ مِنْهَا، ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾.
- ٤ - لَا يُسْتَبْعَدُ أَنْ يَكُونَ الْمُشْرِكُونَ أَنْفُسَهُمْ غَيْرَ رَاضِينَ عَنْ تَهَاوُنِهِمْ عَلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ أَعْمَاقٍ وَجْدَانِهِمْ، ﴿أَمْ يُظْهِرُ مِنْ الْقَوْلِ﴾.

- ٥ - الشرك نوع من أنواع الكُفر، ﴿جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ... رُئِينَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾.
- ٦ - مَنْ يفرق في بحر الانحراف سيبتعد عن سبيل الحق وطريق الهداية، ﴿رُئِينَ... وَصُدُّوا﴾.
- ٧ - لا تغتروا بخططكم وتدابيركم، ﴿رُئِينَ... مَكْرُهُمْ﴾.

﴿لَمْ يَكُنْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ (٣٤)

إشارات:

□ عذاب الآخرة أشدّ وأعظم لأنه:

- (أ) تنقطع الأسباب وتنعدم الوسائل جرّاءه، ﴿وَنَقَطَعتْ بِهٖمُ الْأَسْبَابُ﴾^(١).
- (ب) لا تنفع معه الأنساب ولا تُجدي شجرة العائلة، ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾^(٢).
- (ت) لا تُقبل من الناس إزاءه أيّ فدية، ﴿يَوْمَذُ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي بِبَنِيهِ... وَصَحْبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤَيِّدُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا كُلًّا﴾^(٣).
- (ج) لا تُسمع الأعذار مهما كانت، ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ﴾^(٤).
- (د) يتفرّق الأصدقاء ويتهرب الأصدقاء من أصدقائهم، ﴿وَلَا يَنْتَلِ جَمِيعٌ جَمِيعًا﴾^(٥).
- (هـ) عذاب دائم وسرمدي، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾^(٦).
- (و) لا يُخَفَّف عن أصحابه، ﴿لَا يُخَفَّفُ﴾^(٧).
- (ح) عذاب نفسي وجسدي، ﴿ذُوقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾^(٨).

(٥) سورة المعارج: الآية ١٠.

(٦) سورة البقرة: الآية ١٦٢.

(٧) سورة البقرة: الآية ١٦٢.

(٨) سورة الدخان: الآية ٤٩.

(١) سورة البقرة: الآية ١٦٦.

(٢) سورة المؤمنون: الآية ١٠١.

(٣) سورة المعارج: الآيات ١١ - ١٥.

(٤) سورة غافر: الآية ٥٢.

التعاليم:

- ١ - مَنْ يَجْعَلُ اللَّهُ شَرِيكًا سِيلْقَى الْعَذَابَ فِي الدُّنْيَا كَذَلِكَ، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.
- ٢ - مَنْ الْمُؤَكَّدُ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَا تَشْمَلُهُمْ أَيْ شِفَاعَةُ، ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾.

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا فِي تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾

إشارات:

□ من بين الأساليب التي يستخدمها القرآن الكريم في التربية والتعليم أسلوب المقارنة بين الأشخاص والحالات وبالتالي بين الحق والباطل. ومن هنا، ولما بيّنت الآية السابقة وضع المشركين ومصيرهم، فإنّ هذه الآية الشريفة تشير إلى العاقبة الحسنة للمتقين؛ لكي يتمكن الإنسان من اختيار ما يُمليه عليه عقله وإدراكه بعد عقد المقارنة بينهما.

التعاليم:

- ١ - لا يمكننا إدراك معالم الجنة أو أوصافها بالكامل إلّا من خلال التشبيه والتمثيل، ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾؛ لأنّ عقولنا المحدودة عاجزة عن إدراك محاسن الجنة وكلّ ما تتضمّنه من نعم.
- ٢ - النعم الفردوسية ليست موسمية أو موقّعة أو مُعرّضة للفساد، إنّما هي نعم متصلة متواصلة لا سبيل للفساد أو الآفات إليها، ﴿دَائِمٌ﴾.
- ٣ - الجنة جائزة أصحاب التقوى وهي لا تُمنح لأحد جُزافاً؛ فالسعادة الأخروية السرمديّة هي ثواب التقوى والزهد الموقّتين في الدنيا، ﴿الْجَنَّةُ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ... أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾.
- ٤ - لا تنظروا إلى شكل الأشخاص الظاهري؛ لأنّ المهمّ حسن العاقبة لا الأشكال، ﴿عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾.

٥ - على المؤمن أن يكون تقياً كذلك، فقد وردت كلمة ﴿الْمُتَّقُونَ﴾ في مقابل كلمة ﴿الْكَافِرِينَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَلْكَتَبَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ
مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُنْزِلَتْ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ
بِهِ إِلَهَ إِلَهٍ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَقَابِ﴾

إشارات:

□ تشير هذه الآية الشريفة كغيرها من الآيات الأخرى^(١)، إلى الصالحين والمُتقين من أهل الكتاب الذين يتقبلون الحق، وهؤلاء هم أهل الكتاب الحقيقيون الذين يتبعون الحق ويتجنبون التعصب الأعمى وغير المنطقي، وإذا سمعوا بنزول الآيات عليك فرحوا من أعماق قلوبهم وآمنوا بما أنزل إليك.

التعاليم:

- ١ - على الرغم من أن الإيمان بالآيات هو أمر مهم؛ لكن الأهم هو الشعور بالفرح والسعادة لذلك، ﴿يَفْرَحُونَ﴾.
- ٢ - لا بد من الإيمان بجميع أوامر الله سبحانه، ولا يكفي الإيمان ببعضها، ﴿بِمَا أُنْزِلَ﴾.
- ٣ - التحزب غير المنطقي والتعصب الأعمى هما آفة وخطر يواجهان الحق، ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ﴾.
- ٤ - تجب مقاومة إنكار الحق والتصدي له بكل الوسائل، ﴿مَنْ يُنْكِرُ... قُلْ﴾.
- ٥ - إن الذي يستحق عبوديتنا المخلصة هو مَنْ يمتلك عاقبتنا، ومصيرنا بيديه، ﴿أَعْبُدْ اللَّهَ... وَإِلَيْهِ مَقَابِ﴾.
- ٦ - التوحيد والنبوة والمعاد هي المبادئ الأساس للأديان السماوية: التوحيد ﴿أَعْبُدْ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾؛ النبوة ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا﴾؛ المعاد ﴿وَإِلَيْهِ مَقَابِ﴾.

(١) سورة القصص: الآية ٥٢؛ سورة البقرة: الآية ١٢٠؛ سورة الأعراف: الآية ١٥٩.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ (٢٧)

إشارات:

□ تعني كلمة «الحُكم» في هذه الآية الشريفة أحد المعاني الثلاثة الآتية: (١) الحاكم والفاصل بين الحق والباطل؛ (٢) الأحكام الإلهية؛ (٣) الحكمة.

التعاليم:

- ١ - بعث الأنبياء ﷺ وإنزال الكتب السماوية سنة حكيمة من سُنن الله تعالى، ﴿وَكَذَلِكَ﴾.
- ٢ - لا ريب في أن أتباع أهواء الآخرين هو أخس وأحط من الانغماس في الأهواء والملذات، ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾.
- ٣ - ليس بإمكان العلم وحده أن يمنح السعادة؛ فما أكثر المتعلمين الذين ينزلقون إلى مهاوي الخرافات ويقعون في شباك الأهواء الشائعة، ﴿أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾.
- ٤ - من الطبيعي أن تكون مسؤولية المتعلمين أكبر من غيرهم، ﴿جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾.
- ٥ - القرآن الكريم هو العلم الحقيقي، ﴿أَنْزَلْنَاهُ... جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾.
- ٦ - لا يعترف الله سبحانه بأي نسب أو حسب، فلو انحرف الأنبياء أنفسهم فإنهم لن ينجوا من حسابه، ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ﴾.
- ٧ - إرضاء المنحرفين والفاسقين معناه فقدان العون الإلهي، ﴿أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ... مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ (٢٨)

إشارات:

□ قال الإمام الصادق عليه السلام: «نَحْنُ ذُرِّيَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأُمْنَا فَاطِمَةُ عليها السلام، وَمَا آتَى الله

أَحَدًا مِنَ الْمُرْسَلِينَ شَيْعًا إِلَّا وَقَدْ آتَاهُ مُحَمَّدٌ ﷺ كَمَا آتَى مِنْ قَبْلِهِ. ثُمَّ تَلَا ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾^(١).

التعاليم:

- ١ - إرسال الرُّسُل ﷺ هي سنة من سنن الله تعالى، ﴿أَرْسَلْنَا رُسُلًا﴾.
- ٢ - كان الأنبياء ﷺ يعيشون كسائر الناس وكان لديهم زوجات وأولاد، ﴿أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾.
- ٣ - لم تكن المعجزات التي أتى بها الأنبياء ﷺ بناءً على طلبهم هم أو إرضاء لميول الناس وأهوائهم، بل بإذن الله تعالى ومشيته، ﴿يُؤْذِنُ اللَّهُ﴾.
- ٤ - يؤدي الوقت والزمن دوراً كبيراً في نزول الأوامر الإلهية، ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾.

﴿يَمَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(٢)

إشارات:

المقدرات الإلهية

□ يُستفاد من الآيات القرآنية والروايات أن المقدرات الإلهية على نوعين:

النوع الأول: يتضمن الأمور التي تتصف بمصلحة دائمة ويكون قانونها دائماً أيضاً، على غرار ما تشير إليه الآيات الشريفة: ﴿مَا يَدُلُّ الْقَوْلُ لَدَيْ﴾^(٣)، و﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾^(٤). فمثل هذه المقدرات مثبتة في اللوح المحفوظ ﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾^(٥) ولا يعلم ذلك إلا المقربون إلى الله تعالى ولا يعلمه هؤلاء كذلك إلا بإذنه ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُ الْمَرْقُومُ﴾^(٥).

(١) بحار الأنوار، ج ٢٤، ص ٢٦٥..

(٤) سورة البروج: الآية ٢٢.

(٢) سورة ق: الآية ٢٩.

(٥) سورة المطففين، الآيتان ٢٠ و ٢١.

(٣) سورة الرعد: الآية ٨.

النوع الثاني: ويشمل الأمور غير الحتمية بل تتبع مصالحه أعمال وأفعال العباد نفسها كتوبة الفرد من الذنب والتي تستوجب بالطبع مصلحة العفو عنه، أو إعطاء الصدقة الذي يؤدي إلى دفع البلايا، أو الظلم والجور اللذين يقتضيان غضب الله سبحانه لما يُسببانه من فساد. وهذا يعني أنّ الله ﷻ ليس محدوداً في العمل أو الفعل في إدارة نظام الخلقة، بل يمكنه تعالى من خلال حكمته وعلمه غير المتناهيين القيام ببعض التغييرات في نظام الخلق وقوانينه عبر تغيير الظروف أو تغييرها. ومن الواضح أنّ تلك التغييرات لا تشير إلى جهل أو إعادة نظر أو ندم (والعياذ بالله) بل هي تغييرات قائمة على أساس الحكمة أو تغيير الظروف الخاصة بأمر ما أو إنهاء فترته.

وتؤكد آيات قرآنية عدّة هذا الأمر، منها:

(أ) ﴿أَدْعُوْنِيْ اَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(١)، وهذا يعني أنّ الإنسان قادر على الوصول إلى ما من شأنه أن يكون مصلحة له وباستطاعته تغيير مصيره بواسطة الدعاء والتضرّع إلى الله سبحانه.

(ب) ﴿لَعَلَّ اللّٰهُ يُحْدِثْ بَعْدَ ذٰلِكَ اٰمْرًا﴾^(٢) وهذه إشارة إلى أنّ القوانين الإلهية ليست ثابتة في كلّ مكان وزمان، فقد يضع الله ﷻ برنامجاً جديداً في حال توفّر الظروف المطلوبة.

(ج) ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾^(٣).

(د) ﴿فَلَمَّا زَاغُواْ أَزَاغَ اللّٰهُ قُلُوْبَهُمْ﴾^(٤).

(هـ) ﴿وَلَوْ اَنَّ اَهْلَ الْاٰلَمِيْنَ ءَامَنُوْا وَاٰتَقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ﴾^(٥)، وهذا يعني أنّ غضب الله سبحانه قد يتحوّل إلى رحمة ولطف وبركات وذلك بالإيمان والتقوى.

(و) ﴿اِنَّ اللّٰهَ لَا يَغَيِّرُ مَا يَفْعَلُ حَتّٰى يُفْعِلُوْا مَا يَتَّقِيْهِمْ﴾^(٦).

(٤) سورة الصف: الآية ٥.

(٥) سورة الأعراف: الآية ٩٦.

(٦) سورة الرعد: الآية ١١.

سورة غافر: الآية ٦٠.

سورة الطلاق: الآية ١.

سورة الرحمن: الآية ٢٩.

ز ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾^(١).

ح ﴿وَلَنْ عُدَّتُمْ عِدَّتَنَا﴾^(٢).

□ سؤال: إذا كان علم الله سبحانه هو عين ذاته وغير قابل للتغيير، أليس كل ما هو ماضٍ في علمه لا بد من أن يخرج إلى الواقع، وإلا اعتُبر ذلك جهلاً؟

الجواب: إن علم الله ﷻ قائم على أساس نظام العلل والأسباب، بمعنى أنه تعالى عالم بأنه إذا اعتمدت وسيلة ما فإن النتيجة ستكون كذا وكذا، وإذا استخدمت وسيلة أخرى فإن النتيجة ستكون كذا وكذا. وهكذا، فإن علمه تعالى ليس منفصلاً عن العلم بالأسباب والمسببات والعلل.

ما هو البداء؟

□ من الإشكالات والمآخذ التي يأخذها أهل السنة على الشيعة قولهم: «إن الشيعة تنسب (البداء) إلى الله تعالى». ويظن أولئك أن المقصود بـ (البداء) هو التغيير في علم الله وظهور ما هو خلاف ذلك له. والحقيقة هي أن ما يقصده الشيعة من البداء هو ظهور شيء أو أمر خلافاً لما كان يظنه الإنسان. والبداء في الخلق كالنسخ في التشريع، كأن نتصور دوام أمر ما من ظاهر القانون أو الحكم ثم بعد مدة نرى حدوث التغيير فيه. لكن ذلك بالطبع لا يعني ندم أو جهل المشرع إطلاقاً، بل إن الظروف هي التي تؤدي إلى حدوث التغيير في القانون المذكور. وهذا يشبه تماماً الوصفة التي يكتبها الطبيب لمريضه مُستنداً في ذلك إلى ظروف المريض وحالاته الموجودة بالفعل، لكن بمجرد حصول التغيير في تلك الظروف أو الحالات يقوم الطبيب بكتابة وصفة أخرى له. فكما أن جميع الفرق الإسلامية، سنيها وشيعيها، تؤيد النسخ في الآيات القرآنية وهو في الحقيقة نوع من البداء، كان على تلك الفرق - من غير الشيعة بالطبع - قبول هذا المعنى من البداء أيضاً. والخلاصة، فإن البداء معناه جهلنا - نحن البشر - وليس الله (حاشا له).

نماذج من البداء

- ١ - ربّما ظنّ أحدنا أنّ الهدف من أمر الله تعالى إلى سيّدنا إبراهيم بذبح ولده إسماعيل عليه السلام هو قتله وسفك دمه؛ لكن، اتّضح لنا بعد ذلك أنّ ما أَراده الله سبحانه من ذلك هو ابتلاء إبراهيم عليه السلام واختباره لا قتل ولده.
- ٢ - قد يظنّ كلّ مَنْ قرأ الآية التي واعد الله تعالى بها نبيّه موسى عليه السلام أنّ مدّة تلك المناجاة التي أَرادها الله مع عبده هي ثلاثين ليلة - كما هو واضح كذلك من الآية الشريفة: ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾^(١)، إلّا أنّه تبين بأنّ الفترة التي أَرادها الله هي أربعون ليلة لا ثلاثين، ولكن، ولغرض الاختبار، فقد أعلن الله تعالى عن ذلك في مرحلتين اثنتين: المرحلة الأولى ثلاثين ليلة، ثمّ المرحلة الثانية وهي إضافة عشر ليالٍ أخرى لتُصبح أربعين ليلة^(٢).
- ٣ - كان المسلمون واثقين من أنّ قبلتهم الدائمة هي القدس الشريف (بيت المقدس)؛ لكنّ الآيات الخاصة بتغيير اتجاه القبلة كشفت لنا عن أنّ الكعبة المشرفة هي قبلة المسلمين.
- ٤ - عند ظهور بوادر نزول العذاب الإلهي وعلاماته على قوم يونس عليه السلام لم يكن يشكّ للحظة واحدة في أنّ العذاب نازل لا محالة وأنّ قومه سيلقون مصيرهم المحتوم، وهذا ما دفعه إلى الخروج من بينهم واعتزالهم. ثمّ جرت الرياح على غير ما تشتهي السفن، فقد بادر قوم يونس عليه السلام إلى التوبة والاستغفار، وما كان من الله - وهو الرحمن الرحيم - إلّا أن عفا عنهم وأزال معالم الغضب والعذاب، ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غَافَ الْخَرِي﴾^(٣).
- ومهما يكن من أمر، فإنّ المقصود بالبداة ليس جهل البارئ عليه السلام - حاش له - أو حدوث تغيير في علمه، فهو سبحانه عالم منذ البداية بأنّ دم إسماعيل عليه السلام

(١) سورة الأعراف: الآية ١٤٢.

(٢) انظر: سورة البقرة: الآية ٥١؛ سورة الأعراف: الآية ١٤٢. [المترجم]

(٣) سورة يونس: الآية ٩٨.

لن يُهْدَر وأنَّ مدَّة مناجاته مع نبيِّه موسى ﷺ هي أربعون ليلة بدلاً من ثلاثين وأنَّ قبلة المسلمين ستكون الكعبة المشرفة وأنَّ قوم يونس ﷺ سيُحالفهم الحظ وينجون من عذاب أليم، ومع ذلك فإنَّ ظاهر الأحداث والأوامر الإلهية كان يشير من وجهة نظر البشر إلى غير ذلك. إذاً، فليس هناك من تغيير إطلاقاً في علم الله سبحانه، بل التغيير حاصل في وجهات نظرنا نحن البشر وآرائنا المختلفة والمتغيرة.

□ والبداء بالمعنى الذي أشرنا إليه، له الكثير من الآثار التربوية كبقاء الإنسان متفائلاً حتى آخر لحظة من عُمره بتغيُّر الظروف، وبذلك تنتعش في داخله عوامل التوكل ولا يعود يخضع للظواهر من الأمور، وهكذا يكبر إيمان الفرد بقدرة الله تعالى وعلمه بالغيب. كلَّ ذلك يدفع الإنسان إلى السعي والمثابرة لتغيير مجرى الأحداث وتجنُّب الغضب الإلهي وذلك بالتوبة والصدقة والمناجاة والدعاء.

□ عن الإمام الصادق ﷺ: «ما بعثَ اللهُ نبيّاً قطَّ حتَّى يُقرَّ له بالبداء مع التَّوحيد والإيمان»، وفي حديث آخر نُقِلَ عن الأئمة ﷺ قولهم: «مَنْ رَعَمَ أَنَّ اللهَ ﷻ يَبْدُو له في شَيْءٍ لَمْ يَعْلَمْه أَمْسَ فَأَبْرَوْا مِنْهُ»^(١).

التعاليم:

- ١ - قدرة الله واسعة في التغيير سواء في نظام التكوين أو التشريع، ﴿يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ﴾.
- ٢ - لم يترك الله سبحانه نظام الخلق لحاله، ﴿يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾.
- ٣ - إنَّ مَحْو القوانين التي تحكم عالم الوجود بيد الله سبحانه، ﴿يَمْحُوا اللهُ...﴾.
- ٤ - لا يكون المَحْو أو الإثبات الإلهي إلَّا على أساس الحكمة والعلم، ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.

(١) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل، نقلًا عن: سفينة البحار، ج ١، ص ٦١.

٥ - يشتمل عالم الخلق على كتاب تم تدوين الأحداث وتثبيتها كلها فيه، ﴿الْكِتَابِ﴾.

﴿وَإِنْ مَا نُزِّنَاكَ بِعَضِّ أَلْذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَوَفِّيَنَّكَ
فَأَنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾

التعاليم:

- ١ - إن ما نشهده من نعم الله ولطفه على المؤمنين أو غضبه على الكافرين ليس سوى جانب بسيط من تحقق الوعود الإلهية، ﴿بِعَضِّ أَلْذِي نَعِدُهُمْ﴾.
- ٢ - لا يمكن لأي شيء - حتى وفاة النبي الأعظم ﷺ - أن يحول دون تحقق الوعود الإلهية في الوقت المحدد لها بالضبط، ﴿نُزِّنَاكَ... أَوْ نَوَفِّيَنَّكَ﴾.
- ٣ - تظهر آثار التبليغ وتأثيرات الدعوة أحياناً بعد رحيل المبلغ، لهذا، لا يجدر بنا أن نتوقع نتيجة فورية لقيامنا بمسؤولياتنا وواجباتنا لأن التأخير لا يعني التعطيل، ﴿أَوْ نَوَفِّيَنَّكَ﴾.
- ٤ - العقوبات الإلهية ليست عقوبات اعتباطية، ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا
وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾

إشارات:

□ تشير روايات عدة إلى أن المقصود بنقصان الأرض من أطرافها هو الموت ورحيل العلماء الكبار^(١).

التعاليم:

- ١ - علينا أن نعتبر ونتعلم الدروس من تاريخ الأمم الماضية وما آلت إليه عاقبتهم، وأن لا نشك في وعود الله سبحانه، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾.

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٥٢٠؛ وورد ما يشبه هذا المعنى في الآية ٤٤ من سورة الأنبياء.

- ٢ - سقوط الحكومات وزوال الأفراد والشخصيات لا يكون إلا بمشيئة الله تعالى، ﴿نَأْتِي...﴾.
- ٣ - لا قوة تحول دون تحقق حكم الله سبحانه وتنفيذ أوامره، ﴿لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾.
- ٤ - الناس قاطبة والقوى جميعاً ستزول عن وجه الأرض أما قدرة الله تعالى فهي الباقية والدائمة، ﴿تَنْقُصُهَا...﴾.

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ

كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ أَلَكُفِّرُ بَلَمْ يُعْقِبْ الدَّارِ ۚ﴾

□ عمد القرآن الكريم إلى غلق الأبواب جميعاً وسد الطُّرُق التي يُمكن أن تَجَرَّ الإنسان إلى التعلُّق أو التمسك بغير الله سبحانه؛ وذلك ليجلب انتباهه إليه وحده ويأس من سواه. فالله سبحانه مثلاً يقول: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، أي إذا كان هدفك - أيها الإنسان - من الجري وراء غير الله هو طلب العِزَّة، فاعلم بأن العِزَّة لله وحده أيًا كان نوعها. وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، وفي الآية أعلاه يقول ﷻ: ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾، وهذا يعني بوضوح أن التدبيرات والإجراءات جميعاً هي بيد الله ولذلك لا يجب على الإنسان السعي وراء الآخرين للحصول على العِزَّة أو القوة أو السلطة السياسية أو غيرها.

□ من أوضح الأمثلة على مكر الله تعالى هو إمهاله للكافرين وتأخير محاسبتهم حتى يظنوا أنهم يسلكون الطريق الصحيح، بينما أشار القرآن الكريم مراراً إلى أنه لا ينبغي بهم اعتبار إمهالهم وتأخيرهم علامة على أن الله يحبهم، بل يأتي ذلك في إطار إكمال الحجة عليهم حتى يتم غلق صحيفتهم وختمها.

التعاليم:

- ١ - ليس على أئمة الدين أن يقلقوا بسبب مكر المخالفين؛ لأن التاريخ يُخبرنا أن الأنبياء ﷺ واجهوا المكر نفسه والحيل من قبل المعارضين لهم، ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.

- ٢ - لِيَكُنَ التَّارِيخُ عِبْرَةً لَنَا يُعَلِّمُنَا لِمَنِ الْعَاقِبَةُ الْحَسَنَةُ، ﴿لِمَنْ عُقِيَ الدَّارِ﴾.
- ٣ - إِذَا عَلِمْتُمْ عِلْمَ الْيَقِينِ بِأَنَّ التَّدَابِيرَ وَالْإِجْرَاءَاتِ كُلَّهَا هِيَ بِيَدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَحْدَهُ، فَلَنْ تَجْرُوا وَرَاءَ الْآخَرِينَ، ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾.
- ٤ - لَا قِيَمَةَ أَبَدًا لِمَا يَمْكُرُهُ الْإِنْسَانُ أَمَامَ مَكْرِ اللَّهِ ﷻ، فَالْمَكْرُ لَا يُوَثِّرُ إِلَّا فِي مَنْ كَانَ غَافِلًا عَنْهُ، ﴿يَعْلَمُ مَا تُكْسِبُ﴾.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا
بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ (٤٣)

إشارات:

□ طالعنا في الآية الأولى من هذه السورة المباركة أنَّ ما أُنْزِلَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ليس سوى الحقِّ وإن كان أكثر الناس لا يؤمنون بذلك، ﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. وتُخْبِرُنَا هذه الآية الأخيرة بِإِنْكَارِ الْكُفَّارِ نُبُوَّةَ النَّبِيِّ ﷺ ورسالته، وهذا يدلُّ على قِصَّةِ الْعِنَادِ الَّذِي يَسْلُكُهُ أَهْلُ الْبَاطِلِ فِي تَعَامُلِهِمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ وَوَحْيِهِ الْحَقِّ.

□ إِذَا كَانَ صَاحِبُ النَّبِيِّ سُلَيْمَانُ ﷺ قَدْ اسْتَطَاعَ الْإِتْيَانَ بِبَلْقِيسَ - مَلِكَةِ سَبَأَ - وَعَرَشَهَا فِي أَقْلٍ مِنْ طَرَفَةِ عَيْنٍ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَمْلِكُ ذَرَّةً مِنْ عِلْمِ الْكِتَابِ، فَمَا بِالْكَ فِي مَا يَسْتَطِيعُ فَعْلُهُ مَنْ لَدَيْهِ عِلْمُ الْكِتَابِ كُلِّهِ.

□ تَوْكُّدُ الرِّوَايَاتِ أَنَّ الْمَقْصُودَ بِ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ هُوَ الْإِمَامُ عَلِيُّ ﷺ وَآلُ بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ^(١).

التعاليم:

- ١ - الْإِيمَانُ بِدَعَمِ اللَّهِ وَحِمَايَتِهِ أَفْضَلُ ضَمَانٍ وَإِثْبَاتٍ ضِدَّ التَّكْذِيبِ وَالِاسْتِهْزَاءِ، ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ﴾.

- ٢ - لا شك في أنّ العلم بكتاب الله يقود صاحبه إلى منزلة رفيعة تكون معها شهادته مُعادلة لشهادة الله تعالى، ﴿كَفَى بِاللَّهِ... وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾.
- ٣ - أحياناً تكون شهادة فرد واحد أكثر اعتباراً وقيمة من شهادة آلاف من البشر (فالمعيار هو الجدارة لا العدد)، ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا... وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾.

والحمد لله ربّ العالمين

سورة ابراهيم



سُورَةُ اِبْرٰهِيْمَ

السورة: ١٤ الجزء: ١٣

عدد الآيات: ٥٢



سورة ابراهيم



ملاحح سورة إبراهيم

تتألف هذه السورة من اثنين وخمسين آية، وهي من السور المكية في ما عدا الآيتين (٢٨) و(٢٩) حيث نزلتا في المدينة المنورة وهما بشأن قتلى معركة «بدر» من المشركين.

تناولت هذه السورة بعض الموضوعات حول بعثة الأنبياء ﷺ ومواعظ النبي إبراهيم ﷺ وبشاراته وأدعيته. وتشير الروايات إلى أنّ من قرأ هذه السورة فإنه يكون في مأمن من البلايا والفقر والجنون.

وسُميت هذه السورة بسورة إبراهيم؛ لأنها تضمّنت أموراً كثيرة تتعلق به ﷺ خاصة، وهي كسابقاتها من السور (يونس، هود، يوسف) تبدأ بالحروف المقطعة «الزُّ» وتشتمل الآيات الأولى من هذه السورة والسور المذكورة - كما أشرنا سابقاً - على وصف للقرآن الكريم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كِتَبٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ
الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾

إشارات:

□ كثيرة هي الآيات القرآنية التي تتحدث عن مسألة إخراج الناس من الظلمات إلى النور، فمنها ما نسب ذلك إلى الله سبحانه مثل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾^(١) ومنها ما نسب الإخراج إلى الأنبياء كقوله ﷺ: ﴿أَنْتَ أَخْرِجَ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾^(٢) وآيات أخرى نسبت ذلك إلى الكتاب لقوله سبحانه: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.

□ يأتي تشبيه الكفر والتفرقة والجهل والشرك والتشكيك بـ (الظلمات) وذلك لأن الإنسان في تلك الحالة يكون متحيراً لا يدري ما يفعل وكأنه يعيش في ظلمة تامة.

□ يُعتبر النور وسيلة للإبصار والإدراك والتحرك والنشاط وكل ذلك موجود في الكتاب السماوي والصراط المستقيم. ﴿كِتَابٌ... إِلَى النُّورِ... إِنْ صِرَاطَ الْعَزِيزِ﴾.

التعاليم:

- ١ - لا تكفي الاستعانة بالقرآن الكريم وحده، بل لا بدّ من وجود إمام وقائد يقود الناس إلى الهدى، ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ﴾^(٣).
- ٢ - تركز فلسفة تنزيل الكتب السماوية وبعث الأنبياء ﷺ على إنقاذ البشرية وإخراجها من الظلمات، ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ﴾ من الظلمة والجهل إلى نور العلم،

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٧.

(٢) سورة إبراهيم: الآية ٥.

(٣) قال أمير المؤمنين عليّ ؑ في مناسبات عدة: «الْقُرْآنُ كِتَابُ اللَّهِ الصَّائِتِ وَأَنَا كِتَابُ اللَّهِ النَّاطِقِ». الفصول المهمة في أصول الأئمة، ج ٢، ص ١٤٥. [المترجم]

ومن ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمة التفرقة إلى نور الوحدة، ومن ظلمة المعصية إلى نور التقوى.

٣ - لا بدّ من اعتبار القرآن الكريم أساساً للدعوة والإرشاد، ﴿كَتَبَ... لِتُخْرِجَ﴾.

٤ - الظلمة على أنواع والنور نوع واحد، والحقّ حقّ واحد أمّا الباطل فوجوه كثيرة، ﴿أَفْطَلُمَكْتُ... أَلْتَوَرُّ﴾، فكلمة ﴿أَفْطَلُمَكْتُ﴾ وردت بصيغة الجمع بينما وردت كلمة ﴿أَلْتَوَرُّ﴾ بصيغة المفرد.

٥ - يُمثّل الأنبياء ﷺ والكتب السماوية وسائل لهداية البشر، فيما يبقى مبدأ الهداية بإذن الله تعالى، ﴿يَاذِنِ رَبِّهِمْ﴾.

٦ - إنّ سبيل الله يقود إلى العزة والشمخ والكمال، ﴿إِنِّي صِرْطُ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ

شَدِيدٍ ﴿١﴾﴾

التعاليم:

١ - ما من قانون أو دين يستحقّ أن يُتبع، إلّا قانون ودين من خلق العالم وابتدع الوجود، ﴿كَتَبُ أَرْزَلْتَهُ... لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾.

٢ - إنكار وجود الإله الذي إليه يعود كلّ شيء لا يُضيره سوى كونه حجة لمعاقبة الكفار، ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ﴾.

﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا

أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢﴾﴾

إشارات:

□ لا يقتصر الصدّ عن سبيل الله تعالى على شكل أو شكلين، بل إنّ الكثير من النماذج تصبّ في خانة الصدّ عن سبيل الله؛ مثل الإعلام الباطل والمعاصي العلنية وإشاعة عوامل الفساد والغفلة وإيجاد الشبهات وزرع بذور التفرقة

والصّحف والأفلام المُضَلَّلَة وتشويه صورة الدّين الحقّ وتعريف المنحرفين بأنهم أسوة في الدّين، وعشرات النماذج الأخرى التي يمكن اعتبارها وسائل للصدّ عن سبيل الله.

□ لا مانع أبداً من الاستفادة والتمتّع بالمنافع الدنيوية؛ لكنّ الخطر يكمن في تفضيل الدنيا على الآخرة لأنّ الرّكون إلى الدنيا يُعدّ حاجزاً بين المرء من جهة وبين العبادة والإنفاق والجهد والكسب الحلال والصدق والقيام بالتكاليف الشرعيّة من جهة أخرى.

التعاليم:

١ - عبادة الدنيا والرّكون إليها هما السبب في تثبيت قواعد الكفر ومحاربة الدّين ونشر الضلالة، ﴿يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا... وَيَصُدُّونَ... فِي سَبِيلِ بَيْدٍ﴾.

٢ - يمكن أن تكون أفعال الإنسان وأعماله مصدراً للضلال، ﴿يَسْتَحِبُّونَ... يَصُدُّونَ... وَيَتَوَنَّبَا﴾.

٣ - الإنسان مُخَيَّر غير مُسَيَّر، وبإمكانه تفضيل طريق على آخر واختياره السبيل الذي يُريد، ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾.

٤ - يمرّ الكفّار (في الواقع) بمراحل ثلاث، هي:

(أ) انحرافهم بسبب تعلّقهم بالدنيا وركونهم إليها، ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾.

(ب) صدّهم الآخرين بأعمالهم وأفعالهم، ﴿وَيَصُدُّونَ﴾.

(ت) محاولتهم شدّ الآخرين وجذبهم إلى طريقهم المنحرف بكلّ ما أوتوا من قوّة، ﴿وَيَتَوَنَّبَا﴾.

٥ - لا شكّ في أنّ النفسية الكافرة هي عامل الانحراف الأساس، ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ... وَيَتَوَنَّبَا﴾.

٦ - الضلال على مراحل ودرجات، فكّلما أمعن صاحبه في ذلك أصبح رجوعه إلى طريق الحقّ شاقاً وعسيراً، ﴿سَبِيلِ بَيْدٍ﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ. لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ
مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِيَ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(١)

إشارات:

□ المقصود من عبارة ﴿بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ ليس لغة قومه ولهجتهم فقط، فقد يتحدث شخص ما إلى جماعة بلغتهم؛ لكنهم لا يفقهون ما يقوله بالضبط، فالمراد من ﴿بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ هو أن يكون كلام المُتحدِّث إلى قومه مفهوماً ومُدركاً لكي يفهم قومه ويستوعبوا الوحي الإلهي. وهو ما أشار إليه القرآن الكريم كذلك في آيات أخرى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾^(٢)، وقد طلب سيدنا موسى ﷺ من الله سبحانه أن يَحُلَّ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِهِ لكي يفهم قومه والناس الآخرون ما يقوله: ﴿وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾^(٣).

□ المُراد بـ﴿يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ هو حرمان المُعاندِين من لُطف الله سبحانه، ولو كان الله سبحانه يتدخل مباشرة في إضلال العبد لَمَا كانت هناك حاجة إلى إرسال الأنبياء وإنزال الكتب. وفي آيات أخرى يشير القرآن الكريم إلى إضلال الله الظالمين والفساقين والمُسرفين، ومعنى ذلك أَنَّ الإنسان يَعمد إلى إتمام الحجة على نفسه وحرمانها من الهداية بسبب ارتكابه الظلم والمعاصي.

□ قال بعض المُفسرين إِنَّ فاعل الفعل ﴿يَشَاءُ﴾ هو الناس وليس الله تعالى، بمعنى أَنَّ الله سبحانه يُضِلُّ مَنْ يرغب هو نفسه في أن يُضِلَّ، وكذلك هو يهدي مَنْ يرغب هو نفسه في الهداية، كقوله تعالى: ﴿كَلَّا نُمَدِّدُ هَؤُلَاءَ وَهَؤُلَاءَ...﴾^(٤).

□ على الرغم من أَنَّ النبي ﷺ كان يدعو قومه بلسانهم فَإِنَّ ذلك لا يتعارض مع كون رسالته أُممية وعالمية، لأنها تتضمن أموراً لا تتعلق بلغة دون غيرها، وقد أوصانا القرآن الكريم بأنْ نُفَقِّه مجموعة من المسلمين ونبعثهم للتبليغ عن الدين وتعليم الآخرين الإسلام.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٢٠.

(١) سورة مريم: الآية ٩٧.

(٢) سورة طه: الآيتان ٢٧ و٢٨.

التعاليم:

- ١ - كان الأنبياء ﷺ يتكلمون بلغة قومهم ويعرفون ثقافتهم، وكانوا يدعونهم وفقاً لما يفهمونه ويدركونه، ﴿يَلْسَانِ قَوْمِهِ﴾.
- ٢ - إنما يريد الله سبحانه إتمام حجته على الناس، ﴿يَلْسَانِ قَوْمِهِ لِجَبَّتْ لَهُمْ﴾.
- ٣ - من المؤكد أنّ الأنبياء ﷺ كانوا يتعاملون مع قومهم بحُب وإخلاص ومودة، ﴿يَلْسَانِ قَوْمِهِ﴾.
- ٤ - لا بدّ من أن يكون أسلوب التبليغ والدعوة بسيطاً وصريحاً وواضحاً، وأن يكون مفهوماً للجميع أيضاً، ﴿يَلْسَانِ قَوْمِهِ﴾.
- ٥ - الهداية والضلالة هما بيد الله سبحانه وهما تستندان إلى حكمة منه، ﴿يُضِلُّ... يَهْدِي... وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ ﴿٥﴾

إشارات:

□ تذكر معظم الروايات أنّ يوم يقوم مولانا الإمام المهديّ (عجل الله تعالى فرجه الشريف) ويوم الكثرة ويوم القيامة هي نماذج من ﴿آيَاتِ اللَّهِ﴾^(١).

التعاليم:

- ١ - لا بدّ من أن تكون للأنبياء ﷺ معجزات، ﴿أَرْسَلْنَا... بِآيَاتِنَا﴾.
- ٢ - الهدف الذي كان يقتضيه الأنبياء ﷺ واحد، وهو ما أمر به الله النبيّ ﷺ في أوّل آية من هذه السورة ونبيّه موسى ﷺ في هذه الآية، وهو أن أخرجوا قومكم من الظلمات إلى النور، ﴿أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾.
- ٣ - يُعتبر قوم كلّ نبيّ أوّل جبهة يتوجّب عليه النضال فيها، ﴿قَوْمَكَ﴾.

٤ - لا سبيل لنجاة الناس وخروجهم من الظلمات إلى النور إلا من خلال تذكّرهم قدرة الله سبحانه وغضبه إزاء الظالمين ولطفه ورحمته بالماضين، ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيِّنَّمَا آتَاهُ﴾.

٥ - مُطالعة صفحات التاريخ بإمعان تمنح الإنسان الصبر وتدفعه إلى الشكر، وتذكيره بالبلايا والصعاب في الأيام الخوالي يُذكره بوجوب الشكر، وتذكيره ببقاء الأمم (الصالحة) وفوزها يشجعه على الصبر والمقاومة، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

٦ - كلّ الأيام هي أيام الله سبحانه؛ لكنّ الأيام التي شهدت وتشهد تجلّي قدرته تعالى لها طعم آخر؛ (أي، تجلّي قدرته من خلال غضبه وعذابه للكفار وكذلك لطفه ورحمته بالمؤمنين)، ﴿أَيَّامٌ لِّلَّهِ﴾.

٧ - تجوز إقامة أيّ احتفال أو مجلس عزاء أو أيّ مناسبة أخرى يتمّ فيها تعظيم أيام الله، ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيِّنَّمَا آتَاهُ﴾، وهذا خلاف ما يعتقد به أتباع الفرقة الوهابية.

٨ - الصبر في الضراء، والشكر والحمد في السراء من خصال المؤمن، ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

٩ - الصبر أساس إدراك الحقيقة، ﴿لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ أَلٍ فِرْعَوْنَ يَسُومُنَّكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدْعِيكُمْ إِلَىٰ بُنْيَانِكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾

التعاليم:

١ - اذكروا نعم الله سبحانه عبر المقارنة بين الأحداث المرّة والمناسبات الحلوة وبين زمن الحرية وأيام العذاب، ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾.

٢ - لا تنسوا الانتصارات إلى أنفسكم بل إلى الله سبحانه، ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ﴾.

- ٣ - الحرية هي أكبر نعم الله جميعاً، ﴿نِعْمَةً اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَلَكُمْ﴾.
- ٤ - أهم واجب يقع على عاتق الأنبياء ﷺ هو محاربة الطاغوت وإنصاف المظلومين وتخليص المستضعفين، ﴿أَنْجَلَكُمْ﴾.
- ٥ - يؤدي رجال البلاط وبطانة السلطان وحاشيته دوراً كبيراً في المحافظة على نظام الطاغوت، ﴿إِلَافِرْعَوْنَ﴾.
- ٦ - الاختبارات والابتلاءات عناصر مهمة في تربية الإنسان وتقويمه، وهي شأن من شؤون الربوبية، ﴿بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.
- ﴿وَرِإْذَ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (٧)

إشارات:

- هذه الآية الشريفة من أهم آيات القرآن الكريم وأكثرها صراحة في ما يتعلق بشكر النعم أو كُفْرانها. وهي تأتي بعد آية نعمة الحرية وتأسيس الحكومة الإلهية بقيادة موسى ﷺ. وتشير هذه الآية إلى أن الحكومة الإلهية وقيادة الوحي هما من أكبر النعم، وإذا لم يتم شكر الله تعالى عليهما فإن الكافرين سيصلون عذاباً شديداً.
- إن لشكر النعم مراتب، هي:
- (أ) الشكر بالقلب، وهو إقرار الإنسان بقلبه بأن جميع النعم التي يتمتع بها هي من عند الله سبحانه.
- (ب) الشكر باللسان، كقولنا مثلاً: «الحمد لله».
- (ج) الشكر بالعمل، ويكون عبر أداء الأمور العبادية وتسخير العمر والمال في سبيل مرضاة الله وخدمة الناس.
- عن الإمام الصادق ﷺ: «شُكْرُ النِّعْمَةِ اجْتِنَابُ الْمَحَارِمِ»^(١)، وعنه ﷺ كذلك: «أَذْنَى الشُّكْرِ رُؤْيَةُ النِّعْمَةِ مِنَ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ يَتَعَلَّقُ الْقَلْبُ بِهَا دُونَ اللَّهِ وَالرِّضَا بِمَا أَعْطَاهُ وَأَنْ لَا تَعْصِيَهُ بِنِعْمَتِهِ وَتُخَالِفَهُ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ بِسَبَبِ نِعْمَتِهِ»^(٢).

(١) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل، نقلاً عن: نور الثقلين، ج ٢، ص ٥٢٩.

(٢) بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٥٢. [المرجم]

□ مهما بلغ شكر العبد فإنه لا يوازي نِعَمَ الله التي لا تُحصى ولا تُقَارَن. وقد أنشد الشاعر الفارسي المعروف سعدي قائلاً:

ليس للمرء إلا أن يقدم اعتذاره
إلى الله ويعترف له بالتقصير
فما من أحد يستطيع أداء الشكر
على نِعَمه وإن بالغ في المَدح والتقدير

□ وورد في حديث أن الله ﷻ أوحى إلى موسى ﷺ: «اشكرني حق شكري». فقال: يا رب، وكيف أشكرك حق شكرك وليس من شُكْر أشكرك به إلا وأنت أنعمت به عَلَيَّ؟ قال: «يا موسى! الآن شُكرتني حين علمت أن ذلك متي»^(١).

□ وورد في روايات أخرى أن مَنْ لا يَشْكُر المَخْلُوق لا يَشْكُر الخالق^(٢).

□ إذا استثمرنا نِعَمَ الله تعالى في غير سبيل الحق فذلك كُفْران لها وبداية للكُفْر. ﴿وَلَيْن كَفَرْتُمْ﴾، ﴿بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾^(٣).

التعاليم:

- ١ - اقتضت سُنَّةُ الله تعالى أن يكون الشكر وسيلة وسبباً لزيادة النعمة، وقد صرح القرآن الكريم بذلك بكل وضوح، ﴿تَأَذَّنْ رَبُّكُمْ﴾. وقد قيل في الأشعار الفارسية:

شُكْرُكَ لِلنِّعْمَةِ زِيَادَةٌ لَهَا وَكُفْرُكَ بِهَا يَعْني فَقْدَانَهَا

- ٢ - أوجب الله علينا الشكر لتربيتنا لا لحاجته له سبحانه إليه، ﴿رَبُّكُمْ﴾.
- ٣ - ليس الشكر سبباً لزيادة النعم علينا وحسب، بل ووسيلة لزيادة أعدادنا نحن وتطورنا ورُقِينَا في المجالات كلها، ﴿لَا زَيْدٌ لَكُمْ﴾.
- ٤ - لا يقتصر جزاء كُفْران النعمة على سلبها من صاحبها فقط، بل يكون الحال

(١) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل، نقلاً عن: أصول الكافي، ج ٤، ص ٨٠، باب الشكر.

(٢) انظر: بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٤٤.

(٣) سورة إبراهيم: الآية ٢٨.

أحياناً عكس ذلك؛ إذ قد تبقى النعمة في يد الجاحد لكنها تتحول إلى نقمة واستدراج له حتى توقع به في الهاوية، ﴿وَلَكِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّكَ اللَّهُ لَغَفِيٌ حَمِيدٌ﴾

التعاليم:

- ١ - لا يصح أن يصل الأمر بالمُبلغ أو صاحب الدعوة إلى التوسل بالناس لقبول دعوته، ﴿إِنْ تَكْفُرُوا... فَأِنَّكَ اللَّهُ لَغَفِيٌ﴾.
- ٢ - لا ينبغي أن نمنّ على الله ﷻ بأيّ من أعمالنا ولا حتى إيماننا فهو تعالى غني عن ذلك كله، ﴿فَأِنَّكَ اللَّهُ لَغَفِيٌ حَمِيدٌ﴾.
- ٣ - لا تأثير لإيماننا أو كفرنا أو شكرنا إطلاقاً على ذات الله المقدسة، ﴿لَغَفِيٌ حَمِيدٌ﴾. لو كفر كل الخلق به وتملص ما زاد كبرياؤه تعالى ولا نقص

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَعْقَابِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾

إشارات:

- تعتبر هذه الآية الشريفة نموذجاً لتذكر أيام الله والالتزام بها كما ورد في الآية (٥) من هذه السورة، ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيُّكُمْ اللَّهُ﴾.
- قال الشيخ الطوسي في تفسير «البيان»: «الرَّيْبُ أَخْبَثُ الشَّكِّ الْمَتَّهِمِ، وَهُوَ الَّذِي يَأْتِي بِمَا فِيهِ التَّهْمَةُ»^(١).
- الشك الذي يؤدي إلى البحث وتقبل الحقيقة هو شك بناء ومفيد، لكن الشك في مقابل البينات والمعجزات ليس سوى عناد أخرق وشك هدام وعائق كبير يحول بين الإنسان ووصوله إلى الحق، ﴿لَفِي شَكٍّ... مُرِيبٌ﴾.

□ جُمْلَةٌ ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ لها معان عدّة، منها:

- (أ) أَنَّ الْمُعَانِدِينَ كَانُوا يَسُدُّونَ أَفْوَاهَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَسْمَحُونَ لَهُمْ بِالْكَلَامِ.
 (ب) أَنَّ مُعْجَزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَدْلَتُهُمُ الْقَاطِعَةُ كَانَتْ دَامِغَةً بِحَيْثُ كَانَ الْمُعَانِدُونَ يَبْذُرُونَ وَكَأَنَّهُمْ وَاضِعُونَ أَيْدِيَهُمْ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ، وَهَذَا كُنَايَةٌ عَنْ أَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَطِيعُوا نَكْرَانَ تِلْكَ الْمُعْجَزَاتِ أَوْ الْوُقُوفَ بِوَجْهِ الْحَقِّ.
 (ج) كَانَ الْمُعَارِضُونَ لِدَعْوَةِ الْأَنْبِيَاءِ يَعْضُونَ أَصَابِعَهُمْ مِنْ شِدَّةِ غِيظِهِمْ.
 (د) كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَضَعُونَ أَيْدِيَهُمْ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ فِي حَضْرَةِ الْأَنْبِيَاءِ كُنَايَةً عَنْ سَكُوتِهِمْ وَعَدَمِ قَوْلِهِمْ شَيْئاً الْبَتَّةَ.

التعاليم:

- ١ - وَضَعَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ سُنَنًا وَقَوَانِينَ ثَابِتَةً لِلتَّارِيخِ وَالْأَمَمِ، وَيُمْكِنُ اخْتِزَارُ الْعِبَرِ وَالِدُرُوسِ مِنْ خِلَالِ التَّعَرُّفِ عَلَى ذَلِكَ التَّارِيخِ وَتَطْبِيقِهَا عَلَى الْعَصُورِ الْآخَرَى، ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ...﴾.
 ٢ - إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمَقَاطِعِ التَّارِيخِيَةِ لِحَيَاةِ الْبَشَرِ لَا تَزَالُ مَجْهُولَةً بِالنِّسْبَةِ إِلَيْنَا، ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾.
 ٣ - لِلرُّسُلِ جَمِيعًا مُعْجَزَاتٌ، ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾.
 ٤ - لَمْ يَكُنِ الْكُفَّارُ يَخَالِفُونَ الْأَنْبِيَاءَ شَخْصِيًّا بَلْ كَانُوا يَعْتَرِضُونَ عَلَى مَا جَاؤُوا بِهِ وَدَعَاؤُهُمْ إِلَيْهِ، ﴿كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ﴾.
 ٥ - لَمْ يَسْتَنْدِ شَكُّ الْكُفَّارِ فِي حَقَانِيَةِ الدِّينِ إِلَى بَحْثٍ جَدِيدٍ أَوْ تَحْقِيقٍ هَادِفٍ، بَلْ كَانَ نَاجِمًا عَنْ سُوءِ ظَنِّهِمْ وَعِنَادِهِمْ. ﴿شَكَّ... مُرِيبٌ﴾.
 ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِ اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيُقَفِّرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كُنَّا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾﴾

إشارات:

□ فِي آيَةِ السَّابِقَةِ قَالَ الْكُفَّارُ لِلْأَنْبِيَاءِ: ﴿تَدْعُونَنَا﴾، وَفِي هَذِهِ آيَةِ يَقُولُ الْأَنْبِيَاءُ

للكفار: ﴿يَدْعُوكُمْ﴾، وهذا يعني أن الأنبياء يريدون إفهام الكفار أن دعوتهم إياهم إنما هي من جانب الله إلى الله وليست من عند أنفسهم إليهم.

□ قال الزمخشري^(١) والمراغي^(٢): «أي يدعوكم لمغفرة بعض ذنوبكم وهي الذنوب التي بينكم وبين ربكم لا المظالم وحقوق العباد. والمُتَّبَعُ لأسلوب الكتاب الكريم يرى أن كل موضع ذُكِرَ فيه مغفرة الذنوب للكافرين جاء بلفظ «من» كقوله: ﴿وَأَتَقُوهُ وَأَطِيعُوا يَغْفِرَ لَكُمْ دُنُوبَكُمْ﴾^(٣)، وقوله: ﴿يَقَوْمًا أَيْبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ دُنُوبِكُمْ﴾^(٤)؛ لأنه يخاطبهم في أمر الإيمان وحده. وفي المواضع التي تُذكر فيها مغفرة الذنوب للمؤمنين تخلو من ذكر «من» كقوله: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَفْلَحُونَ يَغْفِرَ لَكُمْ دُنُوبَكُمْ﴾^(٥)؛ لأن المغفرة مُنْصَرَفَةٌ إلى المعاصي ومتوجهة إليها».

التعاليم:

- ١ - الإيمان بالله سبحانه أمر فطريّ وبديهي لا يستوجب الشك إطلاقاً، ﴿إِنِّي اللَّهُ شَاكٌّ﴾.
- ٢ - لا بدّ من وجود المحبة والدعوة إلى جانب العقل والفترة، ﴿إِنِّي اللَّهُ شَاكٌّ... يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ﴾.
- ٣ - الذين يدعو الإنسان إلى الطهارة والتخلّص من الأدران، ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ... دُنُوبَكُمْ﴾.
- ٤ - يُحِبُّ الله سبحانه أن يغفر لعبده خطاياهم ويرحمهم، ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ﴾.
- ٥ - تعمل التوبة وطاعة الله تعالى على تأخير أجل الإنسان، ﴿يَدْعُوكُمْ... وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

(١) تفسير الكشاف، ج ٢، ص ٥١٠. [المترجم].

(٢) تفسير الشيخ المراغي، ج ١٣، ص ١٣٤. [المترجم].

(٣) سورة نوح: الآيتان ٣ و٤.

(٤) سورة الأحقاف: الآية ٣١.

(٥) سورة الصف: الآيتان ١١ و١٢.

- ٦ - إِنَّ اللَّهَ يَدْعُو إِلَى الْهُدَايَةِ عَنْ حُبٍّ وَيُوَخِّرُ الْإِنْسَانَ إِلَى آخِرِ لَحْظَةٍ مِنْ عُمْرِهِ عَنْ لُطْفٍ مِنْهُ وَمِنَّةٍ، ﴿يَدْعُوكُمْ... وَيُوَخِّرُكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.
- ٧ - تَمْ تَحْدِيدُ عُمْرِ كُلِّ إِنْسَانٍ مُّسَبِّقًا، ﴿إِنَّ أَجَلَ مُّسَمًّى﴾.
- ٨ - التَّعَصُّبُ الْقَوْمِيَّ وَالْعِرْقِيَّ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَبَيْنَ قَبُولِهِ الْحَقِّ، ﴿يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾.
- ٩ - تُؤَدِّي الْأُسْرَةُ دَوْرًا مَهْمًا فِي عَقِيدَةِ الْإِنْسَانِ وَآرَائِهِ، ﴿يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾.
- ١٠ - الْعِنَادُ وَالْعَصْيَانُ فِي مَقَابِلِ الْحَقِّ دَاءٌ لَا دَوَاءَ لَهُ، فَقَدْ جَاءَ الْأَنْبِيَاءُ ﷺ جَمِيعًا بِمَا يَلْزَمُ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ لِلنَّاسِ إِلَّا أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ لَمْ يَكْتَفُوا بِتِلْكَ الْمُعْجَزَاتِ بَلْ كَانُوا يَطَالِبُونَ أَنْبِيَاءَهُمْ بِمَوَاصِلِ الْمُعْجَزَاتِ عَلَى الدَّوَامِ، ﴿فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ. وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١١)

إشارات:

- على الرغم من قول الأنبياء ﷺ لقومهم: ﴿اللَّهُ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ بجعل هذا نبيًّا وهذا وصيًّا وهذا شخصاً عادياً، فإنَّ الله الحكيم يعلم مَنْ يستحقُّ كلَّ منصبٍ من تلك المناصب وَمَنْ هو جدير بحمل هذه المسؤولية الكبيرة دون غيره لأنَّ ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (١).
- كان كلام الكفار والمشركين مع أنبيائهم يدور حول نقطتين:
- (أ) أنَّ الأنبياء ليسوا سوى بشرٍ مثلهم.
- (ب) كانوا يطالبون أنبياءهم بأن يأتوا لهم بالمُعْجَزَاتِ التي يريدونها هم منهم.

□ وفي هذه الآية أجاب الله سبحانه على لسان أنبيائه بشأن ما أثاره هؤلاء المُعاندون، قائلاً: فأمّا كوننا نحن الأنبياء بشراً مثلكم، فلا أحد منا ينكر ذلك؛ لكنّ المسألة هي أنّ الله سبحانه قد مَنَّ علينا بوحيه؛ أمّا مطالبتكم إيانا بمُعجزات بحسب ما تريده أهواؤكم، فهذا ليس مقبولاً لأنّه من غير المسموح لنا الإتيان بتلك المعجزات دون إذن من الله تعالى.

التعاليم:

١ - مع أنّ كلّ أفراد البشر متساوون في الشكل والهيئة، فإنّ ذلك لا يعني أنّهم متشابهون كذلك في الباطن والتفاصيل المعنوية، ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ...﴾.

٢ - ينبغي أن يمتلك الأفراد القدوة والمُربّون والقدرات والخصائص الموجودة لدى مَنْ يتأسّون بهم (فإنّ ما يُعتبر عنصر قوّة بالنسبة للأنبياء كان البعض يرى أنّه نقطة ضعف. ولو لم يكن الأنبياء من جنس البشر ولم يكونوا من ذوي الحاجات والغرائز والمشاكل كما هي الحال مع البشر، ما كان لهم أن ينجحوا في مهمّتهم ويصبحوا أسوة للإنسانية)، ﴿بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ...﴾.

٣ - لم يكن الأنبياء ﷺ يتفاخرون على الآخرين بما لديهم، بل كانوا يردّدون باستمرار أنّهم بشر عاديون كأفراد البشر الآخرين قاطبة، ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ...﴾.

٤ - لا ريب في أنّ مقام النبوة هو هدية ومنة من الله سبحانه وتعالى، ﴿اللَّهُ يَمُنُّ...﴾.

٥ - ما من مُعجزة تحدث إلّا بإذن الله تعالى وليس بحسب أمزجة الناس. (فحتى لو لم يُطالب الناس بأيّ مُعجزة لجاء بها الأنبياء بإذن الله)، ﴿إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ...﴾.

٦ - التوكّل من أعمدة الإيمان، ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ...﴾.

٧ - المؤمن لا يتعب من عناد الكافرين ولا إلحاح المُعاندين، بل يستمرّ في السير على نهجه متوكّلاً على الله سبحانه، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ...﴾.

﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلًا
وَلَنَضِيقَ عَلَى مَا ءَاذَيْنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (١٢)

إشارات:

□ التوكل هو اتخاذ الوكيل، ولا بد من توفر أربعة شروط في الوكيل، هي: (١) الدراية والعلم؛ (٢) الأمانة والنزاهة؛ (٣) القدرة والإمكانية؛ (٤) والمحبة. ومن الطبيعي أن لا وجود لأي وكيل يحمل تلك الشروط إلا الله سبحانه وحده؛ إذا، فلا أحد يستحق أن نتوكل عليه غيره.

□ عن الإمام الرضا (عليه السلام) أن التوكل، هو: «العلم بأن المخلوق لا يضر ولا ينفع...، فإذا كان العبد كذلك لم يعمل لأحد سوى الله ولم يرج ولم يخف سوى الله»^(١).

التعاليم:

- ١ - إن الله سبحانه إذا هدى حمى؛ إذا، فلنتوكل عليه وحده، ﴿تَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا﴾.
- ٢ - طريق الأنبياء (عليهم السلام) هو طريق الله تعالى. (لاحظ أن الآية الشريفة استخدمت كلمة ﴿سُبُلًا﴾ ولم تستخدم كلمة «سُبُلُهُ». وقال تعالى في آية أخرى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾^(٢)).
- ٣ - إذا أراد المؤمن سلوك سبيل الله فلا بد له من تحمّل وُعُورَتِهِ، ﴿سُبُلًا وَلَنَضِيقَ﴾.
- ٤ - علينا أن نتوكل على الله وحده والصبر والمقاومة والثبات في مواجهة المشركين، ﴿تَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ... وَلَنَضِيقَ﴾.
- ٥ - معاذ الله أن يحيد المؤمن عن عقيدته والتزاماته ولو عُذِبَ وأُوذِيَ، ﴿وَلَنَضِيقَ عَلَى مَا ءَاذَيْنَا﴾.

(٢) سورة يوسف: الآية ٢٠٨.

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ٣٥٩؛ ح ٥٩.

٦ - لا طاقة لأحد بالصبر إلا مَنْ كان لديه مَنْ يتوكل عليه ويستند إليه،
﴿وَلَنَصِيرَنَّ... نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا
أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾

إشارات:

□ سؤال: هل كان الأنبياء ﷺ مشركين - والعياذ بالله - قبل بعثتهم ودعوتهم قومهم حتى يطلب منهم الكفار أن يعودوا إلى ما كانوا عليه من الشرك ﴿لَتَعُوذَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾، أو يُخرجوهم من أرضهم ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا﴾؟

الجواب: أولاً: قد يكون مراد الكفار من كلامهم هو عودة الأنبياء إلى الانضواء تحت سلطتهم ونفوذهم كما كانوا في السابق؛ أي ربما كانوا يعنون بذلك: وليكن أنكم مؤمنون بدين آخر ولكنكم لا يجب أن تثوروا ضدنا وتعصوا أوامرنا أنتم وأتباعكم.

ثانياً: لاحظ أنّ كلمة ﴿لَتَعُوذَنَّ﴾ جاءت مع حرف الجر «في»، وهي بذلك تعني التغير والتحول لا الرجوع إلى الحالة الأولى أو تغيير عقيدتهم وقبول عقيدة المشركين ودينهم، ولو كانت كلمة ﴿لَتَعُوذَنَّ﴾ قد أتت مع حرف الجر (إلى) لكان معنى ذلك هو العودة إلى الحالة الأولى أي الرجوع إلى الشرك وحاشا الرسل ذلك.

التعاليم:

- ١ - كان لكلّ الأنبياء ﷺ معارضون ومُعاندون، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ﴾.
- ٢ - التهديد والإبعاد هي سياسة الطغاة والمُتعتّفين الذين لا منطق لهم، ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ...﴾.
- ٣ - لا يرغب الكفار في أن تكون للمؤمنين هويّتهم المستقلة، ﴿لَتَعُوذَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾.
- ٤ - لا بدّ من مقابلة التهديد بالتهديد، ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ... لَنُهْلِكَنَّ﴾.

- ٥ - الظلم هو سبب الهلاك لا الكفر، ﴿كَفَرُوا... لَتُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾.
 ٦ - لا حياة للظلم، وعاقبة الظالم هي الهلاك، ﴿لَتُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَلَنُصَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ
 لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾

إشارات:

□ يَعِدُ الله سبحانه في هذه الآيات الشريفة بإهلاك الظالمين وسيادة أوليائه من المؤمنين؛ ولأنّ هذا الوعد لم يتحقّق بشكله الواسع فإنّ المؤكّد هو تحقّقه عند ظهور إمام زماننا (عجل الله فرجه).

□ وعد القرآن الكريم في الكثير من آياته بأنّ أولياء الله سيحكمون الأرض وأنّ أعداءه سيهلكون. وفي ما يلي نشير إلى ثلاث آيات بشأن المسألة المذكورة:

(أ) ﴿وَلَا جُنْدَنَا لَهُمُ الْفَالِغُونَ﴾^(١).

(ب) ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَيْفَتُنَا لِعِبَادِنَا الْفَرَسَيْنِ إِنَّهُمْ لَكُمُ الْمَصْرُورُونَ﴾^(٢).

(ج) ﴿أَنْتَ الْأَرْضُ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾^(٣).

والخلاصة، فإنّ انتصار الحقّ على الباطل وقيام الحكومة الإلهيّة على يد أولياء الله هو من الوعود المكرّرة والقاطعة في القرآن الكريم.

□ الذات الإلهيّة المقدّسة هي مصدر الخيرات والطيبات والصالحات ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾^(٤)، وأمّا ما يدعو إلى الخشية والخوف فهو مقامه ﷺ. نعم؛ فإذا كان أحد أصدقائنا قاضياً ووصلت قضيتكم إلى المحكمة وحانت ساعة الحساب والمحاسبة، فلا شكّ في أنّه سينتابنا الخوف والرهبة بسبب جَوْ المحكمة وسلطة القاضي وهيئته على الرغم من أنّه صديقنا.

(١) سورة الصافات: الآية ١٧٣. (٢) سورة الأنبياء: الآية ١٠٥.

(٣) سورة الصافات: الآيتان ١٧١ و ١٧٢. (٤) سورة البقرة: الآية ١٦٥.

التعاليم:

- ١ - يعتبر الكفار الأرضَ منطقة لنفوذهم وساحة لعرض عضلاتهم، وهم غافلون عن أن السلطة في الأرض كلها ستؤول إلى الأنبياء والمؤمنين. وقد ردَّ الله سبحانه على تهديد الكفار ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ مِنْ أَرْضِنَا﴾ بالتهديد كذلك بقوله مخاطباً المؤمنين ﷺ: ﴿وَلَنُسَكِّنَنَّكَ الْأَرْضَ﴾.
- ٢ - وَعَدَ الله سبحانه أوليائه بالنصر والفوز، ﴿وَلَنُسَكِّنَنَّكَ﴾.
- ٣ - لم يُبعث الأنبياء ﷺ لبيان أحكام الله وموعظة الناس فحسب، بل لتسلم مقاليد الحكم في الأرض كذلك، ﴿وَلَنُسَكِّنَنَّكَ﴾.
- ٤ - التقوى هي شرط الانتصار على الظالمين، ﴿خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾.
- ٥ - لا تخشوا الكفار إذا هددوكم قائلين: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ﴾ بل اخشوا تهديد الله الذي يقول: ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾.

﴿وَأَسْفَتْحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾^(١٥)
 ﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَرُسُقَى مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾^(١٦)

إشارات:

- المقصود بـ ﴿وَرَائِهِ﴾ هو العاقبة والمصير، كما يُقال مثلاً: إِنَّ وراء هذا الأمر لفنة عظيمة.
- كان الأنبياء ﷺ جميعاً ينتظرون لحظة الانتصار ويرقبونها، فقد قال سيدنا نوح ﷺ: ﴿أَنِّي مَعْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾^(١)، وكذا بقيّة الأنبياء إذ دعوا الله أن ينصرهم ويفتح عليهم ضدّ الكفار والمشركين: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾^(٢). أما الكفار فكانوا يسخرون من المسلمين ويقولون لهم: ﴿مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٣). وهنا يُجيب القرآن الكريم في الكثير من آياته عن ذلك ويعد بانتصار الأنبياء وأصحابهم وهلاك الكافرين وتعذيبهم هم

(٣) سورة السجدة: الآية ٢٨.

(١) أي، فانتصر لي منهم. [المترجم]

(٢) سورة الأعراف: الآية ٨٩.

وأتباعهم، ويقول للمشركين بالحرف الواحد بأن ذلك اليوم قريب جداً.
 □ شراب أهل جهنم وأصحاب النار حارق ولاذع لا بارد ولا كريم، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم في بعض آياته بقوله:

(أ) ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْمَاءُهُمْ﴾^(١).

(ب) ﴿وَأَن يَسْتَفِيشُوا يُفَاقُوا يَمَاءً كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾^(٢).

أما أهل الجنة فيسكنون بالقرب من الأنهار ذات المياه السائغة ويرتوون من اللبن الطازج والعسل المصقى الذي أعدّه لهم ربهم الكريم إلى جانب النعم الكثيرة الأخرى، ﴿وَسَقَّوهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾^(٣).

□ وحكى الماوردي في كتاب (أدب الدنيا والدين) أنّ الوليد بن يزيد بن عبد الملك (الحاكم الأموي الجبار) تفاعل يوماً في المصحف فخرج له قوله ﴿وَأَسْتَفِيشُوا﴾ وأستفشوا وحاب كل جبار عنيد^(٤). فمزق المصحف وأنشأ يقول:

توعّد كل جبار عنيد فها أنا ذاك جبار عنيد
 إذا ما جئت ربك يوم حشر فقل: يا رب مزقني الوليد
 فلم يلبث إلا أياماً حتى قُتِلَ شَرَّ قَتْلَةٍ، ووضع رأسه على قصره ثم على سور بلده^(٥).

﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ

وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾^(١٧)

إشارات:

□ تتحدّث هذه الآية الشريفة عن بعض جوانب عذاب جهنم:

(١) سورة محمد: الآية ١٥.

(٢) سورة الكهف: الآية ٢٩.

(٣) سورة الإنسان: الآية ٢١.

(٤) سورة إبراهيم: الآية ١٥.

(٥) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٧، ص ٤٨١، نقلاً عن: تفسير القرطبي، ج ٩، ص ٣٤٩.

أ) يكون تعذيب أصحاب النار بالتدرّج لكي يتجرّعوا كلّ قطرة منه.
 ب) تُنزل على أصحاب جهنّم ألوان العذاب حتى يُوشكوا على الموت والهلاك؛ لكنهم لا يموتون.

ج) يتضاعف العذاب عليهم ويشتدّ ولا يُخفّف عنهم.

□ استخدم القرآن الكريم العديد من التعابير لوصف عذاب يوم القيامة، مثل: «أليم»؛ «شديد»؛ «غليظ»؛ «عظيم» وكلّها تشير إلى شدّة ذلك العذاب ومُعانة المُستحقّين له.

□ ﴿يُسِيقُهُ﴾ بمعنى يشربه بطيب وهناء، وقوله: ﴿وَلَا يَكَاذُ يَسِيقُهُ﴾؛ أي لا يُقاربه وإنما يُضطرّ إليه^(١).

□ قال رسول الله ﷺ: «مَنْ شَرِبَ الْخَمَرَ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، فَإِنْ مَاتَ وَفِي بَطْنِهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طَبْنَةِ خَبَالٍ وَهُوَ صَدِيدُ أَهْلِ النَّارِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْ فُرُوجِ الزُّنَاةِ فَيَجْتَمِعُ ذَلِكَ فِي قُدُورِ جَهَنَّمَ فَيَشْرَبُهُ أَهْلُ النَّارِ فَيُبْصِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودِ»^(٢).

التعاليم:

- ١ - عذاب جهنّم عذاب تدرّجيّ ودائم، ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾.
- ٢ - لا يموت أصحاب النار في جهنّم على الرغم من تجرّعهم ألوان العذاب، ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾.
- ٣ - يزداد العذاب ويتضاعف على أصحاب جهنّم في كلّ حين، ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾.

(١) تفسير البيان.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٦، ص ٦٧.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ
لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ (١٨)

إشارات:

- ذكرت الآيات السابقة خسران الظالمين وخيبتهم، إذ تبين الآية الشريفة:
﴿وَحَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ ذلك الخسران وتلك الخيبة.
□ يُبَدِّلُ الله سبحانه سيئات المؤمنين حسنات أحياناً، ﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾^(١). في حين تأكل سيئات الكافرين حسناتهم كما تأكل النار الهشيم، ﴿كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾. وورد في آيات أخر قوله تعالى: ﴿حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ﴾^(٢).
□ ذكر القرآن الكريم في الكثير من آياته عن خسة أعمال الكافرين وأنها ليست إلا هباءً وعبثاً، كقوله تعالى مثلاً: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾^(٣)، ولعل الآية الشريفة ﴿وَلَا تَقِيْمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾^(٤) تشير إلى المعنى المذكور كذلك.

التعاليم:

- ١ - كل ما يقوم به الكفار يُعَدُّ كالنار التي لا تُخْلَفُ وراءها سوى الرماد، ﴿كَرَمَادٍ﴾.
 - ٢ - لا تُعْجِبُكُمْ أعمال الكفار لأنها لا قيمة لها إطلاقاً، ﴿كَرَمَادٍ﴾.
 - ٣ - الكافر النشوان بالضلال بعيد عن التوبة والنجاة، ﴿الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾.
 - ٤ - الكفر يُبِيدُ الأعمال الصالحة، ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ﴿أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾.
- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٩) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠)

إشارات:

- ما أكثر ما تحدّث القرآن الكريم عن أنّ الله سبحانه وتعالى لم يخلق السموات

(٣) سورة الفرقان: الآية ٢٣.

(١) سورة الفرقان: الآية ٧٠.

(٤) سورة الكهف: الآية ١٠٥.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٤٧.

والأرض عبثاً ولا اعتباراً، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَإِيبَةٍ﴾^(١) و﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(٢)، فالكفار وحدهم يظنون خطأ بأنّ الخلق باطل لا معنى له.

التعاليم:

- ١ - لم تُخلق السموات والأرض إلا على أساس حكمة الله سبحانه ومصلحة مُعيّنة وهدف مُحدّد، ﴿بِالْحَقِّ﴾.
- ٢ - الله سبحانه غني عن وجودنا ولا يضره عدمنا، فلا داعي لغرورنا، ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾.
- ٣ - يرتبط الوجود واستمراره بإرادة الله تعالى ومشيتته، ﴿إِنْ يَشَأْ﴾.
- ٤ - العالم باطل وعبث من دون وجود الإنسان فيه، ولو أذهب الله سبحانه البشر جميعاً فإنّه قد يأتي بغيرهم من البشر كذلك حتى لا يكون وجود السموات والأرض باطلاً ولو للحظة واحدة^(٣)، ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

﴿وَيَبْرُؤُا لِلّٰهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا
فَهَلْ أَنْتُمْ مُّقْتَدُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهَ
لَهَدَيْنَاكُمْ سُوءًا عَلَيْنَا أَجْرِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴿٦١﴾﴾

إشارات:

- (البُروز) هو الخروج، ومن هنا فإنّ معنى (المُبَارِز) هو المُقاتل أو المُحارب الذي يبرز من بين صفوف الجيش مُعلنًا استعدادَه لقتال العدو.
- مع أنّ الناس - كما يُقال - على دين مُلوّكهم، إلّا أنّ الإسلام لا يُعترف بالولاء أو الطاعة المُطلقة لأيّ مُدير أو مسؤول أو قائد، وهو ما أشار إليه أمير

(٣) تفسير الميزان.

(١) سورة الدخان: الآية ٣٨.

(٢) سورة: الآية ٢٧.

المؤمنين ﴿كَذَلِكَ يَقُولُ: «لَا طَاعَةَ لِمُخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ»^(١). وعلى هذا فإن القول إنَّ «المأمورَ معذور» لا أساس له من الصحة.

التعاليم:

- ١ - يتم إحضار جميع الخلق معاً بين يدي الله سبحانه يوم القيامة، ﴿جَمِيعًا﴾.
- ٢ - الحسرة هي عاقبة التقليد الأعمى وتولي الباطل، ﴿كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَمَا كُنَّا مُتَّبَعِينَ﴾.
- ٣ - يُطالب أصحاب النار بتخفيف العذاب عنهم بعض الشيء وليس العذاب كله، ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾.
- ٤ - ضلالة قادة المجتمع أو هداهم له دوره الكبير في سعادة أفراد ذلك المجتمع أو شقاؤه، ﴿لَوْ هَدَّيْنَاهُم لَهَادَيْنَاهُ﴾.
- ٥ - يتمثل أحد أنواع العذاب النفسي والروحي للقادة الفاسدين يوم القيامة، في اعترافهم بعجزهم وسوء عاقبتهم أمام أتباعهم وأنصارهم، ﴿لَوْ هَدَّيْنَاهُم لَهَادَيْنَاهُ﴾.
- ٦ - كل قوم من الذين كانوا يقولون لأنبيائهم في هذه الدنيا: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾، سيقولون يوم القيامة: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْزَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا﴾.
- ٧ - لا يمكن الفرار من محكمة الله ولا عقابه، ﴿مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾.
- ٨ - يكثر اللَّغَط والكلام والشجار بين الكفار يوم القيامة، ﴿قَالَ...﴾^(٢).
- ٩ - ليس لأحد يوم القيامة أن يمنع وقوع العذاب الإلهي أو يخففه، ﴿فَمَا كُنَّا مُتَّبَعِينَ﴾.

(١) بحار الأنوار، ج ١٠، ص (٢٢٧).

(٢) وردت آيات كثيرة حول الجدل الذي سيدور بين المُستضعفين والمُستكبرين من الكفار، منها الآية (٣١) من سورة سبأ، والآية (٤٧) من سورة غافر.

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٢)

إشارات:

□ يتخبط المذنبون يوم القيامة يَمَنَةً وَيَسْرَةً مُحاولين إيجاد شركاء لهم في الجريمة واللقاء ما اقترفوه على عاتق آخرين، فترى بعضهم يقول: ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ﴾^(١) وآخرين يتهمون القادة الفاسدين بإغوائهم قائلين: ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾^(٢) وفي بعض الأحيان يرمون التهمة على الشيطان مُعتبرين إياه السبب الرئيس لضلالهم. لكن الشيطان يُجيبهم قائلاً: ﴿فَلَا تَلُمُونِي﴾، فإنا لم أفعل شيئاً سوى أنني وسوستُ لكم وأغريتكم للقيام بتلك الأعمال، أما الانحراف والضلال فمنكم أنتم لا مِنِّي.

□ ادّعاء الشيطان الرّجيم بأنه لم يكن له أيّ سلطان على أيّ من البشر صحيح ومقبول لدى الله سبحانه ولدى الشيطان نفسه لإقراره واعترافه بذلك. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾^(٣)، وكذلك قوله ﷻ في الآية أعلاه: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾.

التعاليم:

- ١ - وعود الله تعالى كلّها حَقّة ومطابقة للواقع، ﴿وَعَدَ الْحَقِّ﴾.
- ٢ - يقوم الشيطان الرّجيم بإضلال الإنسان وإغوائه بوعوده الكاذبة ﴿وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾^(٤).

(٣) سورة الحجر: الآية ٤٢.

(١) سورة الفرقان: الآية ٢٩.

(٤) سورة النساء: الآية ١٢٠.

(٢) سورة سبأ: الآية ٣١.

- ٣ - كُلَّنَا يَعْلَمُ أَنَّ الشَّيْطَانَ لَا يُجْبِرُ الْإِنْسَانَ عَلَى فِعْلِ أَيِّ شَيْءٍ، فَهُوَ يُوَسَّسُ لَهُ وَدَعْوَتُهُ إِلَى ذَلِكَ لَا غَيْرَ، ﴿وَالْأَن دَعَوْتُكُمْ﴾.
- ٤ - الْمُصِيبَةُ هِيَ أَنَّ الشَّيْطَانَ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ شَيْطَانٌ، يَلُومُ الْإِنْسَانَ الضَّالَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ﴿وَلَوْ مُوًّا أَنْفُسَكُمْ﴾.
- ٥ - لَا حِظَّ أَنَّ اللَّوْمَ وَالتَّوْبِيخَ هَهُنَا يَدُلُّ بِوُضُوحٍ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ مُخْتِيرٌ فِي أَمْرِهِ، ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلَوْ مُوًّا أَنْفُسَكُمْ﴾. أَمَّا الْإِنْسَانُ الْمُضْطَرُّ فَلَا أَحَدٌ يَلُومُهُ.
- ٦ - لَا تَعْلَقُوا خَطَايَاكُمْ عَلَى عَاتِقِ الشَّيْطَانِ، ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾.
- ٧ - تَنْقَطِعُ الْعِلَاقَاتُ وَالسُّبُلُ بَيْنَ الْخَلْقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ (وَيَنْبَرَأُ أُمَّةُ الْبَاطِلِ وَأَتْبَاعُهُمْ مِنْ بَعْضِهِمُ الْبَعْضُ)، وَيَقُولُ الشَّيْطَانُ الرَّجِيمُ لِأَتْبَاعِهِ: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ﴾، وَيَقُولُ الْأَتْبَاعُ الْمُضَلَّلُونَ لِأَسْيَادِهِمْ: ﴿لَوْ أَنَّا كُنَّا كَرَّةً فَتَنْبَرَأُ مِنْهُمْ كَمَا تَنْبَرَأُ وَمَا﴾^(١).
- ٨ - لَا شَكَّ فِي أَنَّ طَاعَةَ غَيْرِ اللَّهِ هِيَ الشَّرْكُ بَعِينَهُ، ﴿أَشْرَكْتُمُونِ﴾.
- ٩ - طَاعَةُ الشَّيْطَانِ وَالْإِنْقِيَادُ لَوْسَاوَسِهِ وَدَعْوَاتِهِ ظَلَمٌ لِلنَفْسِ وَلِلدِّينِ، ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ﴾.

﴿وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحِبُّهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ (٣٣)

إشارات:

- أينما اتَّجِهَ المرءُ فِي الْجَنَّةِ سَمِعَ السَّلَامَ، ﴿سَلَامٌ﴾.
- سَلَامٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَى أَصْحَابِ الْجَنَّةِ: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾^(٢).
 - سَلَامٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ يٰبَشِرَ فَاَدْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾^(٣).

(٣) سورة الزمر: الآية ٧٣.

(١) سورة البقرة: الآية ١٦٧.

(٢) سورة يس: الآية ٥٨.

• سلام من أصحاب الجنة على شركائهم فيها: ﴿يَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾.

□ قد يذهب الشخص أحياناً بنفسه إلى مكان مُعَيَّن، وأحياناً أخرى يأتي أشخاص آخرون لاصطحابه ومرافقته إلى المكان نفسه بمراسم خاصة. يقول الله سبحانه في هذه الآية الشريفة: ﴿وَأُدْخِلَ﴾ ولم يقل: «دَخَلَ» وهذا يعني أن أصحاب الجنة لا يدخلونها بشكل عادي بل يقوم جمع من الملائكة بمرافقتهم وإدخالهم إلى الجنة برفقتهم بكل احترام وتقدير. وقال تعالى في الآية (٧٣) من سورة الزمر: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾، وفي ما يخص أصحاب النار أشار تعالى إلى أنهم يُساقون إلى جهنم بالضرب واللعن والتعذيب: ﴿يُخَذُّوهُ فَتُلَقُّوهُمُ فِي السَّعِيرِ يَسْفِكُ كَفُّهُمُ الْمَاءَ يَسْفِكُ كَفُّهُمُ الْمَاءَ يَسْفِكُ كَفُّهُمُ الْمَاءَ﴾ (١).

□ يكره أصحاب النار بعضهم بعضاً ويتبرأ كل منهم من الآخر ويتبادلون اللعن، في حين يتبادل أهل الجنة السلام كلما تلاقوا.

□ توجد في الجنة أنهار مُتَنَوِّعة ومتعددة، منها ما ورد في الآية (١٥) من سورة محمد ﷺ:

- (أ) أنهار من الماء، ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾.
- (ب) أنهار من لبن، ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَذٍ يَنْغَيِّرُ طَعْمُهُ﴾.
- (ت) أنهار من شراب فردوسي، ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذٍ لِلشَّارِبِينَ﴾.
- (ث) أنهار من العسل، ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾.

التعاليم:

- ١ - الجنة هي مأوى المؤمنين المُحسنين، خالدين فيها أبداً، ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا... خَالِدِينَ﴾.
- ٢ - أصحاب الجنة أنقياء حميمون يسلم بعضهم على بعض، وليسوا أهل شجار أو مناكفة، ﴿يَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ
أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾

إشارات:

□ تتميز الشجرة الطيبة والنبته الطاهرة بصفات عدة، منها: أنها تنمو باستمرار وتكون مثمرة ونضرة على الدوام، إضافة إلى ظلالها وقوة جذعها وثبات جذورها. وهكذا هو حال الإنسان المؤمن الموحد، فهو لا يخبت ذكره ولا يفتر إيمانه ولا تضعف عقيدته، فإيمانه ظاهر في أفعاله وأقواله، وتراه يدعو الآخرين إلى الإيمان والمعروف.

□ أشارت الروايات والتفاسير إلى بعض نماذج الكلمة الطيبة مثل: التوحيد، والإيمان، والعقائد الصحيحة، وأولياء الله وأتباعهم. نعم، فأصل التوحيد ثابت في الفطرة ومتجذر في أعماق وجدان الناس ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾، وتتضح آثاره وتأثيراته في كل عمل يقوم به الإنسان أو كلمة ينطق بها ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾، وبإمكاننا التمتع والتلذذ بثمره في كل حين ووقت، وفي السراء والضراء.

□ تتميز شجرة التوحيد بجذور ثابتة وأصول راسخة، وليس باستطاعة التهديدات والمؤامرات ولا الكلام الجارح ولا الطواغيت التأثير عليها. وقد شَبَّهت الكثير من الروايات النبي الكريم ﷺ وآل بيته الطاهرين عليه السلام بالشجرة الطيبة؛ لأنّ دين محمد ﷺ وسبيل آل بيته الكرام استطاعا الصمود والانتشار على الرغم من أنف أعدائهما، بل وسيأتي يوم يكون فيه هذا الدين هو دين العالم أجمع.

التعاليم:

- ١ - تدبروا أمثلة القرآن الكريم بدقة، ﴿أَلَمْ تَرَ...﴾.
- ٢ - العقيدة الحقّة هي الكلمة الطيبة ذات الأصل الثابت في أعماق قلب المؤمن، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾. ومن الطاف الله سبحانه أنّ تلك الكلمة الطيبة تعمل على

إبقاء المؤمنين ثابتين راسخين على تلك العقيدة الحقّة، ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾^(١).

٣ - القول الحقّ ثابت وراسخ وأصيل، ﴿كَلِمَةً طَبِيعَةً... أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾.

﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾^(٢)

□ كل شيء فإن غير الله تعالى والإيمان به، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾^(٣)، وما كان فانياً لا يمكن أن يُثمر إلى الأبد، بينما يكون الشيء المُصطبغ بالصبغة الإلهية سرمداً وخالداً، ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَفْزَعُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾^(٤). نعم، فصبغة الله هي صبغة دائمة أما بقية الصبغات والألوان ففانية وزائلة. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً﴾^(٥).

□ لا تفتأ شجرة الإيمان تتفتح وتثمر وهكذا هو حال المؤمن الذي يذكر الله سبحانه باستمرار ويؤدي واجباته وتكاليفه، سواء في الضراء أو السراء أو الفقر أو الغنى:

- فهو يصمد أمام تهديدات الظالمين حتى آخر لحظة من حياته، ﴿إِنَّا إِلَهُكَ رَبُّنَا رَاضُونَ﴾^(٦).

- ولا يطلب أجراً من الآخرين على دعوته، ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾^(٧).

- ويضبط نفسه ويكظم غيظه، ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾^(٨).

- ويطبق سنة الرسول ﷺ في زواجه متوكلاً على الله، ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٩).

- ولا يطمع في شيء من عبادته وطاعاته إلا التقرب إلى الله سبحانه، ﴿إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١٠).

(٦) سورة يونس: الآية ٧٢.

(٧) سورة آل عمران: الآية ١٣٤.

(٨) سورة النور: الآية ٣٢.

(٩) سورة الأنعام: الآية ١٦٢.

(١) سورة إبراهيم: الآية ٢٧.

(٢) سورة القصص: الآية ٨٨.

(٣) سورة النحل: الآية ٩٦.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٣٨.

(٥) سورة القلم: الآية ٣٢.

- وإذا افتقر نأى بنفسه عن التملق للأغنياء أو التوسل بهم، ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾^(١).

- وتراه فَرِحاً في جبهات القتال لأداءه واجبه الديني، سواء انتصر أو اندحر، ﴿إِخَذَى الْحُسَيْنِيُّ﴾^(٢).

نعم، إن الإيمان بالله تعالى كالشجرة المثمرة التي تُؤتي أَكْلَهَا كُلَّ حين، في الدنيا وفي البرزخ والبعث ﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾، وأما الأموال والأولاد والنعم الدنيوية الأخرى فهي كالشجرة التي لا تُثمر إلا لأَيَّام معدودات، وإذا أثمرت لا تُنتج سوى القليل من الثمرات، وإن كان المال والجاه والولد لا يؤت أي ثمر إطلاقاً في بعض الأحيان بل يكون سبباً لعذاب الإنسان الروحي، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا﴾^(٣).

التعاليم:

- ١ - شجرة الإيمان شجرة مثمرة باستمرار، وحياة المؤمن لا تتضمن فصلاً اسمه (الخريف) أبداً، ﴿أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾.
- ٢ - التشبيه والتمثيل من أساليب القرآن الكريم لجذب انتباه الناس وتذكيرهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ

مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾^(٤)

إشارات:

- الاجْتِثَات: القُلْع والانتزاع والاستئصال.
- إنَّ عقائد الضالّين وكلماتهم لا أصل لهم ولا ثمر ولا إزهار ولا مسح من الجمال ولا شميم عطر ولا ثبات ولا ظِلّ ولا نِماء، بل دُلّ وعار.

(٣) سورة التوبة: الآية ٥٥.

(١) سورة القصص: الآية ٢٤.

(٢) سورة التوبة: الآية ٥٢.

التعاليم:

- ١ - المقارنة من الأساليب المؤثرة في التربية والتعليم، ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً... كَلِمَةً خَبِيثَةً﴾.
- ٢ - الشرك وكل ما سوى الله تعالى لا ثبات له ولا دوام، ﴿مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾.
- ٣ - العقائد الفاسدة والباطلة كالأعشاب الضارة، لا جذور لها ولا أصل؛ لأنها لا تستند إلى أرض صلبة أو تربة قوية، ﴿أَجْتَنَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ﴾.

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (٢٧)

التعاليم:

- ١ - لا شك في أن المعونة الإلهية ترتبط ارتباطاً وثيقاً باختيار الإنسان نفسه، ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.
- ٢ - لولا عون الله وفضله لما استطاع أي إنسان الصمود أمام وساوس الشيطان ومآرب الطغاة، ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.
- ٣ - أهل الإيمان ثابتون من حيث المنطق وصامدون في وجه المذاهب المادية، ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.
- ٤ - إذا آمن الإنسان فإن الله تعالى سيضمن حياته، أما إذا تعلق بالشجرة الخبيثة والعقيدة الباطلة، فإنه سوف يتخلى عنه، ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا... وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾.
- ٥ - الإيمان بالعقائد الباطلة ظلم للنفس وللدين، ﴿الظَّالِمِينَ﴾.
- ٦ - الغضب الإلهي منوط باختيار الإنسان لطريقه بنفسه، ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنَسُّوْنَ الْقَرَارَ ﴿٢٩﴾﴾

إشارات:

□ «البوار» فرط الكساد، ولما كان فرط الكساد يؤدي إلى الفساد عُبرَ بالبوار عن الهلاك^(١).

□ يُبَدِّلُ الكافرون والمشركون نِعَمَ الله تعالى الكُفْرَ، فهم مثلاً:
(أ) يستحبون الشُّركَ على التوحيد.

(ب) يتركون نعمة الفطرة الصافية النقية ويُفَضِّلُون تقليد آبائهم وأجدادهم الضالين.

(ت) يُرَجِّحُونَ الخرافة على الوحي الإلهي.

(ث) يُقَابِلُونَ النِّعَمَ التي جاءهم بها رُسُلُ الله بالجحود ويتبعون الطغاة. ﴿بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾.

□ نطالع في الكثير من الروايات أَنَّ الْأئِمَّةَ الطاهرين عليهم السلام كانوا يُكثِرُونَ من قول: «نَحْنُ وَاللَّهُ نِعْمَةُ اللَّهِ التي أَنْعَمَ بها على عِبَادِهِ»^(٢)، ﴿بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾.

□ ورد ما يُشَبِّه هذا المعنى في آيات أخرى كذلك، مثل الآية (٤١) من سورة القصص: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ﴾، والآية (٩٨) من سورة الكهف: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْفَيْكَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾.

التعاليم:

١ - لا شك في أَنَّ أيَّ تبديل أو تغيير أو تحريف في نعمة من نِعَمِ الله سبحانه يُعَدُّ كُفْرًا، ﴿بَدَّلُوا... كُفْرًا﴾.

٢ - أئمة الانحراف سبب لهلاك مُجْتَمَعٍ وفساده بأكمله، وبالتالي إدخال الكثير من الناس إلى جهنم، ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾.

(٢) تفسير مجمع البيان.

(١) الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ ﴿٢٠﴾

إشارات:

□ يجعل البعض من الناس شركاء لله تعالى في خلق العالم والبعض الآخر يجعل له أنداداً في نعيمه، إضافة إلى ادعائهم أن ما يتمتعون به من صحة وعلم وجاه وسلطان وأموال إنما أوتوه على علم عندهم؛ لكن بعضهم سرعان ما يصحو من غفلته ويعلم أنه كان ضالاً.

التعاليم:

- ١ - من أشنع أنواع الكفر بالنعم هو أن يجعل الإنسان لله شريكاً ويضل الآخرين معه، ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا﴾.
- ٢ - يكون الطغاة أحياناً مصدر الشرك كله، ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا﴾. وأحياناً أخرى تكون جاذبية الأوثان والأصنام هي السبب في ذلك، ﴿وَأَجْتَبَيْ وَيَّيْ أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ رَبِّ لَئِنْ أَضَلَّنَا كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾^(١).
- ٣ - يتخلى الله تعالى عن بعض الناس ويتركهم لحالهم، ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا﴾.
- ٤ - قد يكون الكفار سعداء في هذه الدنيا، إلا أنهم لن يكونوا كذلك في الآخرة، ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾.
- ٥ - ما كل ما نراه من الخير لدى البعض يعني حب الله لهم، فقد يكون ذلك مقدمة واستدراجاً لغضب الله ﷻ، ﴿تَمَتَّعُوا﴾.

﴿قُلْ لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٍ﴾ ﴿٢١﴾

إشارات:

□ يؤدى الإنفاق العلني إلى تربية الجيل الصاعد وتشجيع الآخرين على الإنفاق

ودفع تهمة البخل عن المنفق، بينما يكون الإنفاق في السرّ عاملاً للشموخ والإخلاص. إلا أنّ بعض المفسرين قالوا إنّ الإنفاق العلني يتعلّق بما هو واجب كالخُمس والزكاة، أمّا الإنفاق السريّ فيشمل كلّ ما هو مُستحبّ كالصدقة وما شابهها.

□ على الرغم من أنّ لكلّ من الإنفاق العلني والسريّ مميّزاته الخاصّة به، لكن يمكننا القول إنّ الإنفاق السريّ أفضل من العلنيّ وذلك لتقدّم كلمة ﴿سِرّاً﴾ على ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ في هذه الآية.

التعاليم:

- ١ - عندما تُصدرون الأوامر، لا تسلبوا المخاطب شخصيته ﴿لِعِبَادِي﴾، والعبودية لله تُمثّل بحقّ وسام شرف وفخر.
- ٢ - لا يكفي الإيمان بالقلب، بل لا بدّ من وجود الصلاة والإنفاق والعمل الصالح معه، ﴿ءَامِنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا﴾.
- ٣ - الإسلام دين جامع، لذلك ينبغي أن تكون العلاقة مع الله سبحانه ومساعدة المحتاجين والمحرومين جنباً إلى جنب وشرطاً لقبول كلا الفعلين، ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا﴾.
- ٤ - ليس المال هو الشيء الوحيد الذي يمكن إنفاقه، بل يمكننا الإنفاق كذلك من كلّ ما نمتلك (سواء أكان علماً أو ثروة أو سُمعة أو سلطة)، ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾.
- ٥ - لا بدّ من أن يكون الإنفاق من رزق الله - أي من المال الحلال - وليس أيّ شيء، فقد قال سبحانه: ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾، ولم يقل: «مِمَّا عِنْدَهُم».
- ٦ - قد يكون الإنفاق علنيّاً في بعض الأحيان وقد يكون سريّاً في أحيان أخرى، ﴿سِرّاً وَعَلَانِيَةً﴾.
- ٧ - علينا استغلال الفرص وعدم إضاعتها، ﴿مَنْ قَتَلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ...﴾.
- ٨ - إذا كنتم تريدون الاتّجار مع الله تعالى فافعلوا ذلك في هذه الدنيا، إذ لن يكون أيّ بيع أو شراء يوم القيامة، ﴿يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ﴾.

٩ - ليس باستطاعة أحد التخلص من عذاب يوم القيامة، لا بالأموال ولا بالعلاقات والمواقع، ﴿يَوْمَ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا يُخْلَى﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾

إشارات:

□ تشير هذه الآية الشريفة إلى الماء من ثلاث زوايا هي:

(أ) مياه الأمطار التي تُعتبر المصدر الرئيس لسقي النباتات وعاملاً من عوامل وجودها إضافة إلى تنقية الهواء وتلطيف الجو.

(ب) مياه البحر التي تؤمن الحياة للكثير من الحيوانات البحرية، إلى جانب كونها أرخص وأفضل وسيلة للنقل، كما أنها تُمثل مصدر تكوّن الغيوم والأمطار.

(ت) مياه الأنهار التي تُعدّ وسيلة لإيصال الماء إلى المناطق التي تحتاج إليه.

□ أوصانا الله ﷻ في الآية السابقة بالصلاة والإنفاق، وفي هذه الآية يقول تعالى: «لقد منحتكم كلّ شيء فلمّ البخل ممّا رزقتم».

□ «التسخير» يعني الاستفادة من المنافع، مثل تسخير الشمس والقمر، ويعني كذلك السلطة والتسلّط الكامل كتسخير السفن والأنهار والسّماح بتسلّط الإنسان على كلّ ذلك.

التعاليم:

١ - لا شكّ في أنّ معرفة نعم الله سبحانه وتعالى هي أفضل سبيل لمعرفة ذات الله المقدّسة وهذا يتطلّب فهماً شاملاً وحبّاً ودافعاً للعبادة، ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ... سَخَّرَ لَكُمْ﴾.

٢ - الماء من أكبر نِعَم الله، وكلّ نِعَمه كبيرة، ﴿مَاءٌ... فِي الْبَحْرِ... الْأَنْهَارِ﴾.

٣ - خُلِقَ الوجود لأجل أن يستفيد منه الإنسان. ﴿رِزْقًا لَكُمْ...﴾.

٤ - على الرغم من أن الأسباب المادّية تؤدي دوراً كبيراً، فإنّ الأسباب كلّها تخضع لأوامر الله، ﴿يَأْمُرُهُ﴾.

٥ - خُلِقَ الإنسان لِيُسَخَّرَ الطبيعة، ﴿سَخَّرَ لَكُمْ﴾.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾

إشارات:

□ «دائبين» من «دَابَّ»، بمعنى استمرّ في عادته، و«الدَّابُّ» هو العادة المتواصلة، كما في قوله تعالى: ﴿كَذَّابٌ ءَالٍ فِرْعَوْنَ﴾^(١). قال المراغي في تفسيره: «دَائِبَيْنِ» أي (دائمين في الحركة) لا يفتران^(٢). كقوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾^(٣). فالشمس تُمثل مُفاعِلاً عظيماً وهائلاً يعمل من دون توقّف، خلافاً للمُفاعِلات التي يصنعها البشر والتي يمكن أن تتعطل كلّ حين فتحتاج إلى إصلاح وصيانة. فلو غُيِّت الشمس لفترة ما، فما الذي سيحصل يا ترى؟ ما هو مصير الجنس البشري والحيوانات والنباتات؟ أيّ مُصيبة يُمكن أن تصيب العالم وأي كارثة يمكن أن تحلّ به مع انتشار الميكروبات وغياب الحرارة والبخار وغير ذلك؟

الغيم والريح والضباب والشمس والفلك يعملون
كّي يصلك الرّزق ولا تأخذك عنهم الغفلة
كلّها مسخرة لخدمتك وكلّهم لك سامعون
فليس من الإنصاف أن تكفر تلك النعمة

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٣٣.

(١) سورة آل عمران: الآية ١١.

(٢) تفسير الشيخ المراغي، ج ١٣، ص ١٥٥.

التعاليم:

- لم يخلق الله ﷻ الأرض وما فيها من النعم فقط ليستفيد منها البشر بل وكذلك خلق السماء والأجرام السماوية التي سُخِّرَت هي الأخرى لمصلحة الإنسان، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾.

﴿وَمَا آتَاكُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ
لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾

إشارات:

□ ويشبه هذا المعنى ما قاله تعالى في الآية (١٨) من سورة النحل: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَنَفُورٌ رَّجِيمٌ﴾.

□ ذكرنا في تفسير الآيات السابقة أنَّ أئمة الفساد يجزّون الناس إلى عبادة غير الله ﴿تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾، وحاصل هذه الآية أنه على الرغم من أنَّ ما سوى الله تعالى عاجز عن فعل أي شيء، وأنَّ كلَّ ما يمتلكه الإنسان وغيره من المخلوقات هو من نعم الله ﷻ، فإنَّ الإنسان يبقى ظالماً وكفَّاراً لتلك النعم.

□ «عَدَّ» بمعنى (أحصى)، و(الإحصاء) هو الحساب الدقيق الذي لا يُفَوَّت أي شيء.

التعاليم:

١ - تهيأت للإنسان عوامل الإنتاج كلّها وأسبابه كذلك، مثل الماء والأرض والضوء والشمس وإلى غير ذلك، فإذا حصل أي عيب أو نقص فإنَّ ذلك ناجم بالتأكيد عن إرادة الإنسان المغلوطة والتوزيع غير الصحيح، ﴿وَمَا آتَاكُم مِّنْ كُلِّ... إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

٢ - خلق الله سبحانه الإنسان، وخلق له الإمكانيات والاحتياجات المطلوبة كلّها، لكنَّ الإنسان يأبى إلّا أن يؤمّن حاجاته عن طريق المعصية والكفر، ﴿وَمَا آتَاكُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ... إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

- ٣ - الإنسان مخلوق عاجل ومُحتاج، ﴿سَأَلْتُهُ﴾.
- ٤ - إذا كان الإنسان عاجزاً عن أن يُحصي نِعَمَ الله جميعاً، فأتى له أن يشكره تعالى عليها؟ ﴿لَا تُحْصَوْنَ﴾.
- ٥ - عندما لا يستفيد الإنسان من نِعَمَ الله سبحانه بالشكل الصحيح فإن ذلك يعني أنه ظلم وكفار، ﴿لَطَلُّومُ كَفَّارٌ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا
وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ (٣٥)

إشارات:

- سنلاحظ في هذه الآية والآيات التي ستليها بعضاً من الأدعية التي رددها خليل الله إبراهيم عليه السلام والتي تدلّ على حرصه ورأفته، وربما سُميت هذه السورة باسمه عليه السلام بسبب هذه الأدعية.
- دعا سيدنا إبراهيم عليه السلام لمكة مرتين في القرآن الكريم؛ المرة الأولى كانت عندما أتى بزوجه هاجر وابنه إسماعيل عليه السلام إلى أرضها وأسكنهما فيها حيث قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾^(١)، وهذه هي المرة الثانية بعدما قَدِمَتْ إلى ذلك المكان بعض القبائل وسكنته فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾.
- سؤال: هل أصبحت ذرية إبراهيم عليه السلام كلها موحدة بسبب دعائه هذا؟
الجواب: ليس الدعاء إلا عاملاً مساعداً، أما إرادة الذرية واختيارهم فذاك سبب آخر، ولا تنسوا قصة ابن نوح عليه السلام.
- سؤال: لماذا سُمي إبراهيم عليه السلام مكة بالبلد وقد قال الله تعالى على لسانه في آيات أخر: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾؟
الجواب: إما أن تكون مكة قد أصبحت بلداً أو مدينة بعد وفود الناس

والقبائل إليها والسكن فيها فيكون هذا الدعاء متعلقاً بذلك الزمان، أو أنه لا تضاد بين أن تكون منطقة ما بلداً وبين أن تكون تلك المنطقة في مكان غير ذي زرع أو قاحل. بل إن مكة المكرمة في يومنا هذا كذلك هي بلد غير زراعي كما هو معلوم.

□ سؤال: ما معنى دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ وهو بطل عقيدة التوحيد بلا مُنازع؟

الجواب: كان النبي ﷺ صاحب الصراط المستقيم كما نعلم، ولكنه كان يقول في الصلاة: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وهذا يعني أن على الشخص أن يستعين بالله دائماً من خطر الانحراف والضلال وإن كان متأكداً من أنه يسير على الصراط المستقيم.

□ المقصود بالأمن في عبارة ﴿أَجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ هو القانون أو النظام الذي يضمن الأمن والاستقرار في مكة لا أن تكون مكة آمنة وبعيدة وبمناى عن الأحداث والقتال على طول التاريخ، فقد تعرضت الكعبة الشريفة مثلاً إلى العديد من الغارات والهجمات وأريق فيها الكثير من الدماء البريئة، بل لم يتعرض الرسول الأعظم ﷺ ولا أصحابه وأتباعه إلى أي ظلم وتعذيب كما تعرضوا له في مكة نفسها. ويقال إن الإمام الحسين عليه السلام لم يترك الحج في حجته الأخيرة إلا بسبب الاضطرابات التي اجتاحت مكة في تلك الفترة. ومع ذلك فإن الله سبحانه جعل هذه البقعة الطاهرة مركزاً للأمن وملاذاً يُلجأ إليه من دون مُنازع.

التعاليم:

١ - أفضل الدعاء ما كان لحفظ العقيدة والمبدأ الصحيحين، ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾.

٢ - لا بد من أن تكون مراكز العبادة آمنة، ﴿هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾.

٣ - لا شك في أن الأمن والاستقرار شرطان ضروريان للعيش الهنيء، ﴿الْبَلَدَ آمِنًا﴾.

- ٤ - ينبغي على قادة المجتمع أن يفكروا في أمن الناس واستقرارهم، ﴿رَبِّ أَجْعَلْ... آمَنًا﴾.
- ٥ - لا يجوز أن يُستَغَلَّ الأمن لأغراض المعصية والترف، بل يتوجب اعتباره أرضية للعبادة والشعائر، ﴿أَمَّا يَعْذُرُنِي﴾^(١).
- ٦ - ليس خطر الشرك ببعيد عن أي إنسان حتى إبراهيم عليه السلام، بطل التوحيد، ﴿وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾.
- ٧ - لا تنسوا الآخرين من الدعاة، ولا سيما أبناءكم، ﴿وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾.

﴿رَبِّ إِنِّي أَضَلَلْتُ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن يَّعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي
وَمَن عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

إشارات:

□ سؤال: كيف يمكن للأصنام وهي تماثيل مصنوعة من الأحجار والخشب أن تُغري الإنسان وتُغويه؟

الجواب: أولاً، ليست الأصنام كلها أشياء جامدة دائماً بل قد يصبح الإنسان وخصوصاً الطغاة أصناماً. ثانياً، كانت الحلي الجميلة والغريبة الصنع التي تُوضَع على الأصنام عاملاً آخر للإغراء. ثالثاً، عادة ما يدفع الجَهِل صاحبه إلى تقديس الأصنام وإن كانت من الحجر والخشب.

□ إذا فسرنا هذه الآية مع الآية السابقة فإننا سنصل إلى نتيجة فريدة، إذ قال إبراهيم عليه السلام في الآية السابقة: ﴿وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾، بينما يقول في هذه الآية وبصراحة: ﴿فَمَن يَّعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي من كان موثقاً فإنه من ذرّتي ويستحق الانتماء إليّ. وعلى هذا، فإن الموحدين جميعاً هم أبناء إبراهيم عليه السلام بالدين ﴿قُلْ أَيْكُمْ إِبراهيمُ﴾^(٢). وهذا ما صرح به الرسول

(١) سورة النور: الآية ٥٥.

(٢) سورة الحج: الآية ٧٨.

الأعظم ﷺ أيضاً إذ قال: «أنا وَعَلَيَّ أَبَوا هَذِهِ الْأُمَّةُ»^(١). وَأَمَّا الْمُشْرِكُ فَإِنَّهُ لَيْسَ كَذَلِكَ وَإِنْ كَانَ ابْنُ نَبِيِّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَهُوَ مَا قَالَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِنَبِيِّهِ نُوْحٍ ﷺ: ﴿يَنْتُحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾^(٢).

□ قال الإمام علي عليه السلام: «إِنَّ وَلِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَإِنْ بَعُدَتْ لُحْمَتُهُ وَإِنْ عَدُوَّ مُحَمَّدٍ مَنْ عَصَى اللَّهَ وَإِنْ قُرُبَتْ لُحْمَتُهُ»^(٣).

التعاليم:

- ١ - يُمكن لبعض الفنون مثل نَحْت التماثيل أَنْ تكون سبباً للانحراف والضلال كما فعلت الأصنام بالكثير من الناس، ﴿إِنَّهُمْ أَضَلُّوا﴾.
- ٢ - ليس التدين شعاراً رتانياً، بل هو عمل وطاعة للأوامر، ﴿تَبِعَنِي﴾.
- ٣ - توجد علاقة دينية قوية بين أولياء الله والأفراد المؤمنين، ﴿فَأَلَّهْهُم مِّنِّي﴾.
- ٤ - كان الأنبياء ﷺ حريصين حتى على غير المؤمنين بدعوتهم ولم يحاولوا بَعَث اليأس فيهم أبداً، ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.
- ٥ - لا رَبِّب في أَنْ معصية الرسول هي معصية الله سبحانه، ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ﴾.

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ
رَبَّنَا لِيقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ
وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (٣٧)

إشارات:

□ بعد أَنْ وهَبَ الله تعالى إسماعيل لإبراهيم عليه السلام في الكِبَر، أمره أَنْ يُسْكِن ولده وأُمَّه في المنطقة التي سُميت في ما بَعْدَ بِمَكَّةَ. ففعل إبراهيم عليه السلام ما أَمَرَ به ولكنَّهُ لم ينسهما من الدَّعاء.

(١) بحار الأنوار، ج ٢٣، ص (٢٩٥) ؛ وج ١٦، ص (٩٥).

(٢) سورة هود: الآية ٤٦.

(٣) بحار الأنوار، ج ٦٧، ص (٢٥).

□ جاء في الروايات أن الإمام الباقر عليه السلام قال: «نَحْنُ آلَ بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَقِيَّةُ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَيْنَا تَهْوِي أَفْئِدَةُ النَّاسِ». ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ... فَأَجْعَلَ أَفْئِدَةً مِنَّا أَنَّا تَهْوِي إِلَيْنَا﴾^(١).

□ تقع مدينة مكة المكرمة في واد غير ذي زرع ولا ماء وهو اختبار إلهي لأهلها. وقد قال أمير المؤمنين علي عليه السلام في خطبته المُسمَّاة بالقاصعة: «وَلَوْ أَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَضَعَ بَيْتَهُ الْحَرَامَ، وَمَشَاعِرَهُ الْعِظَامَ، بَيْنَ جَنَّاتٍ وَأَنْهَارٍ، وَسَهْلٍ وَقَرَارٍ، جَمِّ الْأَشْجَارِ، دَانِي الثَّمَارِ، مُلْتَفِّ الْبُنَى، مُتَّصِلِ الْقُرَى، بَيْنَ بَرَّةٍ سَمَرَاءَ، وَرَوْضَةِ خَضِرَاءَ، وَأَرْيَافٍ مُخَدِّقَةٍ، وَعِرَاصٍ مُغْدِقَةٍ، وَزُرُوعٍ نَاضِرَةٍ، وَطُرُقٍ عَامِرَةٍ، لَكَانَ قَدْ صَغُرَ قَدْرُ الْجَزَاءِ عَلَى حَسَبِ ضَعْفِ الْبَلَاءِ»^(٢).

□ لا شك في أن دعاء الأنبياء عليهم السلام مُسْتَجَاب؛ ﴿وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾، ﴿حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾^(٣). وعن الإمام الباقر عليه السلام: «إِنَّ الثَّمَرَاتِ تَحْمِلُ إِلَيْهِمْ مِنَ الْأَفَاقِ، وَقَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ حَتَّى لَا يَوْجَدُ فِي بِلَادِ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ ثَمْرَةٌ لَا تَوْجَدُ فِيهَا، حَتَّى حُكِيَ أَنَّهُ يَوْجَدُ فِيهَا فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ فَوَاكِهِ رُبْعِيَّةٍ وَصِيفِيَّةٍ وَخَرِيفِيَّةٍ وَشَتَائِيَّةٍ»^(٤).

التعاليم:

- ١ - يختار الأنبياء عليهم السلام أماكن سكنهم وفقاً لانسجامها مع الصلاة والعبادة. ﴿أَسْكَنْتُ... لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾.
- ٢ - تتطلب التقوى أحياناً التشرد والهجرة والابتعاد عن الأهل والخلان والحرمان من النعم الأخرى، ﴿أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾.
- ٣ - كانت الكعبة المشرفة في زمن إبراهيم عليه السلام أيضاً منطقة محرمة وآمنة، ﴿بَيْنَكَ الْمُحَرَّمُ﴾.

(١) انظر مثلاً: الاحتجاج، الطبرسي، ج ١، ص ١٦٠. [المترجم]

(٢) نهج البلاغة، الخطبة (١٩٢) - الكعبة المقدسة.

(٣) سورة القصص: الآية ٥٧.

(٤) تفسير الصافي، ج ٣، ص ٩٢.

- ٤ - كانت الصلاة وما زالت محور الحركة الإبراهيمية وهدفها، ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾.
- ٥ - لا بد من أن يكون أهل الصلاة محبوبين، ﴿لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ﴾.
- ٦ - من الواضح أن الصلاة كانت مفروضة في الديانات السماوية الأخرى كذلك، ﴿لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾.
- ٧ - لا شك في أن الأفئدة لا تهوي إلى أي مكان إلا بإذن الله، ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً...﴾.
- ٨ - ليس الناس كلهم يستحقون حب أولياء الله، ﴿مِنَ النَّاسِ﴾.
- ٩ - يستثمر أولياء الله الدنيا لأهداف راقية ومقاصد رفيعة، ﴿مِنَ الشَّرَائِبِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا تُخْفِي وَمَا تُعْلِنُ وَمَا يُخْفَى عَلَى اللَّهِ

مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾

إشارات:

□ لما كان كل شيء ظاهراً لله غير خافٍ، ولما كان علمه محيطاً بكل شيء وبكل ما نفعه، وجب علينا أن لا نعصيه في حضرته، ولا نتصرف في مخلوقاته إلا حسب أوامره وبالشكل الذي يرضيه.

التعاليم:

- ١ - لا فرق بين الظاهر والخفي لدى الله سبحانه، ﴿تَعْلَمُ مَا تُخْفِي وَمَا تُعْلِنُ﴾.
- ٢ - علم الله تعالى بالأرض والسماوات واحد، ﴿وَمَا يُخْفَى... فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ
وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (٣٩)

إشارات:

□ إن إسماعيل وإسحاق عليهما السلام نعمتان إلهيتان بحق، وذلك:

(أ) لأنهما وُهبَا لإبراهيم عليه السلام بسبب دعائه وطلبه.

(ب) وهب الله هذين الولدين لأبيهما في كبره.

(ت) كانا كلاهما صالحين (نبيّين).

(ث) أصبحا رأس السلالة النبوية للكثير من الأنبياء من بعدهما.

لكنّ الأهم من ذلك كلّهُ هو أن يكون الأولاد صالحين بارّين، سواء أكانوا

عبيداً أو أسياداً. (كان إسماعيل عليه السلام ابن هاجر وهي أمة إبراهيم عليه السلام وكان إسحاق ابناً لسارة الحرة).

التعاليم:

١ - اشكروا الله تعالى كلّما تذكّرتُم نِعَمه، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

٢ - اشكروا الله تعالى على استجابته الدعاء، ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

٣ - لا شك في أنّ الأبناء نعمة إلهية، ﴿وَهَبَ لِي﴾.

٤ - إذا أراد الله شيئاً فلا مانع لإرادته، ﴿عَلَى الْكِبَرِ﴾، حتى الشيخوخة ليست حائلاً أمام قدرة الله.

٥ - إذا ذكّرتُم نِعَم الله فاشكروه على كلّ واحدة منها، ﴿إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾.

٦ - استجابة الدعاء سُنّة إلهية، ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾ (٤١)

رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١)

إشارات:

□ يتّضح لنا من خلال الآيات التي فسرناها في هذه السورة والتي تخصّ سيّدنا

إبراهيم عليه السلام، أنه سأل الله سبحانه سَبْعَ مَطَالِب، هي: (١) الأمن والاستقرار لمكة؛ (٢) تَجْنِيهِه وَبَنِيهِ عِبَادَةَ الْأَصْنَام؛ (٣) أن يجعل الله أفئدة من الناس (المؤمنين) تهوي إلى أهله وديانته في ذلك المكان؛ (٤) أن يرزقهم من الثمرات والخيرات؛ (٥) هدايتهم وتوفيقهم لإقامة الصلوة؛ (٦) قبول الأدعية والاستجابة لها؛ وأخيراً (٧) الدعاء له ولوالديه ولجميع المؤمنين بالغفران والرحمة.

□ تُسْتَحْدَم كلمة (الوالدين) للإشارة إلى الأبوين المباشرين للشخص، أما كلمتي (الأب) أو (الآباء) فتُطْلَق على غير الوالدين ومنهم العم وأبو الزوجة كذلك. ولأنّ والدي إبراهيم عليه السلام كانا مؤمنين فقد دعا لهما في هذه الآية بالخير والرحمة؛ لكننا نلاحظ استخدام إبراهيم عليه السلام في آيات أخرى لكلمة «أب» - والمقصود به هو العم، والدليل على ذلك هو كُفْر هذا العم وشركه، ما دعا بإبراهيم عليه السلام إلى البراءة منه ومن أفعاله - كما تشير تلك الآيات بوضوح.

□ في الآية (١٣٣) من سورة البقرة، قال يعقوب عليه السلام لبنيه: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾. فأجابه بنوه قائلين: ﴿تَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ أَبَاكَ إِزَاهِمَهُ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾، والحال أنّ إسماعيل عليه السلام هو عم يعقوب وليس أباه، لكن كلمة «أب» كما قلنا تُطْلَق على العم أيضاً.

التعاليم:

١ - يشير تكرار كلمة ﴿رَبِّ﴾ أو ﴿رَبَّنَا﴾ في بداية أدعية إبراهيم عليه السلام إلى تأثير ذلك في الاستجابة مضافاً إلى كونه من آداب الدعاء كذلك، ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي﴾.

٢ - استعينوا بالله تعالى ليتمكنكم من إقامة صلواتكم وصلوات أبنائكم، ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي﴾.

٣ - الصلاة هي محور أدعية إبراهيم عليه السلام، ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾.

٤ - على الرغم من أنّ رسالة الأنبياء عليهم السلام تستند إلى إقامة دعائم الدين إلّا أنّ

الدَّعَاءُ لإقامة الصلاة بدلاً من إقامة الذين يدلّ على أنّ الصلوة هي السّمة الرئيسة للأديان كلّها، ﴿مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾.

٥ - إقامة الصلاة تُعادل القيادة والإمامة؛ فقد استخدم إبراهيم عليه السلام عبارة ﴿وَيُنِذِرَ دُرِّيَّتَيْ﴾ في موضعين اثنين، مرّة في ما يتعلّق بإقامة ذرّيّته للصلوة: ﴿مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَنِذِرَ دُرِّيَّتَيْ﴾، وأخرى في ما يخصّ إمامته لذرّيّته عندما خاطبه الله سبحانه قائلاً: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَيَنذِرُ دُرِّيَّتَيْ﴾^(١).

٦ - لا تَنسُوا أنفسكم في الدَّعَاءِ: ﴿وَأَجْنِبْنِي... أَجْعَلْنِي... أَغْفِرْ لِي﴾، ولا يفوتكم أن تذكروا الآخرين أيضاً: ﴿وَنِيَّ... وَنِذِرَ دُرِّيَّتَيْ... وَلَوْلَدَيْ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٧ - على الشخص أن يذكر الجيل السابق، ﴿وَلَوْلَدَيْ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، والجيل القادم ﴿وَيَنذِرُ دُرِّيَّتَيْ﴾.

٨ - اذكروا يوم قيامتكم وذرّيّتكم والمجتمع ككلّ في أدعيتكم، ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾

﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (١٢)

إشارات:

□ سؤال: لماذا لا يمنع الله سبحانه ظلم الظالمين وطمغيانهم وهو العادل القادر؟

الجواب: لا شكّ في أنّ الله تعالى عادل وقادر وكذلك عالم بما يفعله الظالمون، وأمّا تأخير مُحاسبتهم وإنزال العقوبة بهم فمرّده إلى أنّ الدنيا ليست داراً يمكنها استيعاب الجزاء بأكمله، فجرت سُنّة الله ﷻ بتأخير عبادِه وإمهالهم لكي يتوبوا وينوبوا إذا كانوا يستحقّون ذلك، وإذا لم يكونوا كذلك فإنّهم سيُحاسَبون يوم القيامة بشكل كامل.

التعاليم:

- ١ - لا تحكموا على أي شيء بسرعة، ولا تظنوا أن الله غافل عما تعملون، ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾.
- ٢ - إمهال الظالمين وتأخيرهم لا يعني أن الله غافل عنهم أو أنه راضٍ عما يقومون به، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا﴾.
- ٣ - اقتضت سنة الله تعالى الإمهال والتأخير، ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾. وعليه، لا يجوز السكوت عن الظالم ولا اليأس من المحاولة، بل لا بد من العمل بما أمرنا به، واعلموا أن الله للظالم بالمرصاد.
- ٤ - يستند كل من الثواب والعقاب إلى توقيت معين، ﴿لِيُؤَيِّرَ﴾.
- ٥ - يوم القيامة هو يوم مخيف ورهيب للغاية بحيث تبقى أعين الخلق يومئذ مفتوحة من أهواله لا يقدرون أن يطرفوا، ﴿تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾.

﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ (٤٣)

إشارات:

□ ﴿مُهْطِعِينَ﴾ - من «الإهطاع» - ولها معانٍ عدة، منها: رَفُعُ الرَّأْسِ أو العُنُقِ والإسراع والنظر بذلة، وكل تلك المعاني مجتمعة في هذه الآية الشريفة.

﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا آخِرْنَا إِلَيْكَ أَجَلٍ قَرِيبٍ يُجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ أُولَئِكَ نَكُودُوا أَفْسَاسَهُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ (٤٤)

إشارات:

□ بالنظر إلى الآية السابقة، يبدو أن هذه الآية تتحدث عن القيامة، لكن جملة ﴿آخِرْنَا إِلَيْكَ أَجَلٍ قَرِيبٍ يُجِبْ دَعْوَتَكَ...﴾ تشير، على الأرجح، إلى أن الآية تعني العذاب الإلهي في الدنيا؛ لأن تأخير العذاب وإجابة دعوة الله ونصرة الأنبياء، هي أمور تتعلق بالدنيا لا بيوم القيامة.

□ في يوم القيامة سيطلب المذنبون كذلك من الله سبحانه السّماح لهم بالعودة إلى الدنيا وهو ما أشارت إليه الكثير من الآيات في القرآن الكريم، مثل:

(أ) ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾^(١).

(ب) ﴿فَأَتَجَمَّعْنَا فَعَمَلٌ مَّهِلًا﴾^(٢).

(ت) ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ مَهْلًا﴾^(٣).

التعاليم:

- ١ - يُعتبر التهديد والتحذير أسلوباً تربوياً لهداية الضالين، ﴿وَأَنْذِرْ﴾.
- ٢ - لا شك في أنّ تحذيرات القرآن الكريم موجّهة إلى عموم البشر، ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ﴾.
- ٣ - سَيَندم المجرمون يوماً ما ولات ساعة مندم، ﴿أَخِرْنَا﴾.
- ٤ - عند نزول العذاب الإلهي سَتُسَدُّ طرق الفرار وتُغْلَق أبواب التوبة، ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا...﴾.

﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ
كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾^(٤)

التعاليم:

- ١ - لا يُعتبر كثير من الناس من مصير الماضين ولا يأخذون الدروس منهم، وعلى الرغم من أنهم يسكنون في مساكن الأولين ويسировون في الطرقات نفسها التي سار فيها الذين من قبلهم؛ لكنهم ينسون أو يتناسون الأشياء كلها، ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.
- ٢ - يريد الله سبحانه أن يُتَمَّ الحجة بقوله: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ... وَضَرَبْنَا لَكُمْ

(٣) سورة فاطر: الآية ٣٧.

(١) سورة غافر: الآية ١١.

(٢) سورة التّجدة: الآية ١٢.

الْأَمْثَالَ ﴿٤٦﴾، (فهو تعالى يُبَيِّنُ عذاب الأمم السالفة وفي الوقت نفسه يوضح أموراً عدة من خلال ضربه الأمثال).

٣ - إِنَّ سُنَنَ اللَّهِ ثَابِتَةٌ وَسَائِدَةٌ فِي التَّارِيخِ وَالْمَجْتَمَعَاتِ عَلَى السَّوَاءِ، ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾.

﴿وَقَدْ مَكَّرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ
وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِيَرْزُلَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ ﴿٤٦﴾

إشارات:

□ إِنَّ اللَّهَ تعالى عالم بمكر الظالمين ومحيط به إحاطة كاملة إضافة إلى أنه سيُحاسِبُهُمْ على كلِّ ما يقومون به من مكر، فهو القادر على دفع مكرهم وإجهاضه وإرجاعه عليهم.

التعاليم:

١ - مهما كانت قدرة الظالمين وأياً كان بطشهم؛ لكنهم في النهاية مخذولين بقدرة الله، ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ ﴿٤٧﴾

إشارات:

□ يكون انتقام الإنسان مصحوباً بالحقق والتشقي؛ لكن انتقام الله سبحانه لا يكون إلا على أساس العدل والحكمة والتأديب.

التعاليم:

١ - لا بد من التحذير من لحظات الخطر والزلة، ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ﴾.

٢ - لا يدفعنكم تأخير العون الإلهي عنكم إلى التشكيك والشبهة، ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ﴾.

٣ - على الرغم من امتلاك الإنسان العقل والفطرة معاً، وربما قدرة الاستشارة

كذلك، لكن إذا لم يكن هناك وَحْيٌ إلهيٍّ داعمٍ فإنه سينحرف ويضلّ عن فهم الأمور وتصورها بدقة، ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ﴾.

٤ - تستند المهلة التي يمنحها الله سبحانه للكفار والظالمين إلى سُنَّتِهِ وحكمته؛ لا إلى الغفلة أو التخلف عن تنفيذ الوعد، ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفٌ وَعْدُهُ﴾.

٥ - لَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وهو القادر على كلِّ شيء، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (٤٨)

إشارات:

□ أشارت الكثير من الآيات إلى تغيير الأرض وتبدّلها عند قيام الساعة، منها أن زلزلاً عظيماً يضرب الأرض^(١)، وأنّ الجبال تُقلّع عن وجهها^(٢)، وتسير على سطحها وتصبح هشة كالعهن المنفوش^(٣)، وتسوى الأرض فلا جبال ولا تلال ولا تضاريس^(٤). أما تغيير السموات فيبدأ بخمود الشمس وانطفائها ثمّ طي السموات^(٥). وهكذا فإنّ النظام الكونيّ الموجود سيتهي يوماً ما كما قدّر الله له ذلك.

التعاليم:

١ - سيتمّ بعث المخلوقات جميعاً وإحياءهم مجدداً لمحاسبتهم على أعمالهم، ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ﴾.

٢ - لا مجال للرحمة والعطف مع الظالمين يوم القيامة، ﴿الْقَهَّارِ﴾.

(١) ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالًا﴾، (سورة الزلزلة: الآية ١).

(٢) ﴿وَيَوْمَ نُثَرِّدُ لِبَالًا﴾، (سورة الكهف: الآية ٤٧).

(٣) ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾، (سورة القارعة: الآية ٥).

(٤) ﴿وَنُفِثْنَاكَ عَنِ لِبَالٍ فَقُلْ يَنْفُثُهَا رَبِّي نَفْثًا تَرْتَفِدُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾، (سورة طه: الآيتان ١٠٥ و ١٠٦).

(٥) ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِّيلِ لِلْكُفْرِ﴾، (سورة الأنبياء: الآية ١٠٤).

﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾^(١)
 ﴿سَرَائِلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾^(٢)

إشارات:

□ مَنْ يُعَانِي العذاب ويتجرّع الألم تشتدّ عليه المُعَانَاة عندما يسمع أصوات الآخرين وصراخهم، كما أَنَّ مَنْ يقضي أوقاتاً ممتعة ويجلس مع جماعة تشدو وتمرح يشعر بالسعادة والمرح هو الآخر. ولذلك ورد في القرآن الكريم أَنَّ الله سبحانه سيجمع المؤمنين يوم القيامة معاً في الجنة: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا... لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ جُنتانٍ مِن تَحْتِهَا يَجْرِي الْأَنْهَارُ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ أَمْثِلِ الْمَاءِ غَيْرِ مُعَيَّنٍ وَمِنْ ثَمَرَاتِهَا رِزْقٌ ذَرِيرٌ يُسْقَوْنَ مِنْهَا خَمْرٌ وَلَهُمْ فِيهَا مِزَابٌ مَّوْجِدٌ﴾^(٣)، ويقذف بالمجرمين والكافرين وأشباههم في جهنم: ﴿لَا يَدْخُلُهَا الْأَنْبِيَاءُ وَلَا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأُولَٰئِكَ فِيهَا جُثَمٌ﴾^(٤). وفي موضع آخر يقول تعالى: ﴿فَنَكْبِتُكُمْ فِيهَا مِمَّنْ وَالْأَوَّلِينَ﴾^(٥)، وربما حملت الآية الشريفة ﴿وَإِذَا الْفُتُوسُ رُوِّجَتْ﴾^(٦) المعنى نفسه كذلك، (والله أعلم).

□ «الأصفاد» جَمْع (الصفد)، وهو قطعة الخشب الضخمة التي تُربط إلى أرجل السجّاء.

□ «القطران» أو القَطْرَانُ: عُصَارَةُ الْأَبْهَلِ وَالْأَرْزِ ونحوهما يُطْبَخُ فَيُتَحَلَّبُ مِنْهُ ثُمَّ تُهْنَأُ بِهِ الْإِبِلُ الْجَرَبِيُّ. والقَطْرَان مادة كريهة الرائحة شديدة الاشتعال.

□ أحد أنواع العذاب يوم القيامة (والعياذ بالله) هو شدُّ أرجل المجرمين وأيديهم بالأغلال والأصفاد، وهو ما أُشير إليه في آيات أخر، مثل قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ... فِي الْأَصْفَادِ﴾، و﴿عَذُوبَةُ قُلُوبِهِمْ﴾^(٧)، و﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ﴾^(٨).

□ يُجَمَّع الشياطين والمجرمون كلّ مع أقرانهم ويُغْلَوْنَ جميعاً بالأصفاد والأغلال، فمنهم مَنْ تُغْلَى يَدَيْهِ، أو يَدَيْهِ وَرَجْلَيْهِ، أو يَدَيْهِ وَرَجْلَيْهِ إِلَى عُنْقِهِ فِي آن واحد، ﴿مُفَرَّقِينَ﴾.

(١) سورة التكرير: الآية ٧.

(١) سورة الطور: الآية ٢١.

(٥) سورة الحاقة: الآية ٣٠.

(٢) سورة الصافات: الآية ٢٢.

(٦) سورة غافر: الآية ٧١.

(٣) سورة الشعراء: الآية ٩٤.

التعاليم:

- ١ - يصف القرآن الكريم الوضع الذي سيكون عليه يوم القيامة بشكل دقيق وكأننا نراه أمامنا عياناً، ﴿وَتَرَى﴾.
- ٢ - يجري تعذيب المجرمين وتأنيبهم وإهانتهم أمام الجميع، ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾.
- ٣ - لو استطعنا رؤية أعمالنا كصورة مجسمة وواضحة لبَدَتْ لَنَا الألبسة الفاخرة التي نرتديها بإسراف وتبجح، مجرد قطع من النار واللظى، سوداء كربة، ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ﴾.

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٥١)

التعاليم:

- ١ - لن يُترك أي شخص [يوم القيامة] دون محاسبة، ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾.
- ٢ - لن يبقى أي عمل دون مُقابل، ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾.
- ٣ - لن يكون الثواب والعقاب الإلهي إلا على أساس أعمالنا، ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾.

﴿هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ، وَلِيَعْلَمُوا﴾

﴿أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (٥٢)

إشارات:

□ لاحظ أن الآية الأولى من سورة إبراهيم عليه السلام وهذه الآية الأخيرة منها تتناول دور القرآن الكريم ورسالته في هداية الناس. ففي الآية الأولى قال تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ وهنا يقول ﷺ: ﴿هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ...﴾.

ومن ناحية أخرى، فكما أن القرآن الكريم يُعتبر بلاغاً فإن وظيفة حامله هي البلاغ، كما ورد في الآية (٥٤) من سورة النور قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلَّغُ الْبَلَّغِ﴾.

التعاليم:

- ١ - يُعَدّ القرآن الكريم مصدراً للتبليغ، إذ لا بدّ للمُبلِّغين من استمداد العون ومادّتهم التبليغية من القرآن الكريم نفسه، ﴿هَذَا بَلَّغٌ﴾.
 - ٢ - القرآن الكريم هو كتاب التوحيد وعلى هذا يمكننا خلق المُوحِّدين من صميم القرآن الكريم، ﴿هَذَا بَلَّغٌ... وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَحْدٌ﴾.
 - ٣ - الإبلاغ وحده غير كاف، بل لا بدّ من الإنذار أيضاً، (نعم، فهدف التبليغ في الحقيقة هو الإنذار)، ﴿وَلِيُنذِرُوا﴾.
 - ٤ - العلم وحده غير كافٍ كذلك؛ إذ ينبغي التأمل والتذكير معاً، ﴿لِيَعْلَمُوا... وَلِيَذَّكَّرُ﴾.
 - ٥ - لا شك في أنّ الأنس بالقرآن الكريم يَمُنح الإنسان المعرفة والعلم ﴿لِيَعْلَمُوا﴾، إضافة إلى تشجيعه إياه على عمل الخير من خلال التذكّر والنصائح والدروس. ﴿وَلِيَذَّكَّرُ﴾.
 - ٦ - القرآن بلاغ لجميع الناس من دون استثناء، لكن أصحاب العقول وأولي الألباب هم الذين يتذكّرون ما فيه ويعتبرون بغيره، ﴿وَلِيَذَّكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾.
- بلى، مَنْ أصغى إلى تعاليم القرآن الكريم وإرشاداته بروحه وجسمه، كان من المُوحِّدين ومَنْ يتذكّرون إن شاء الله.

«والحمد لله ربّ العالمين»



سُورَةُ الْحَجَرِ

السورة: ١٥ الجزء: ١٤

عدد الآيات: ٩٩



ملاحح سورة الحجر

تتألف هذه السورة من تسع وتسعين آية، ويُقال: إن ترتيب نزولها على النبي الأكرم ﷺ في مكة قبل الهجرة هو الثاني والخمسون.

و«الحجر» هي مدينة ثمود قوم النبي صالح ﷺ، فاتخذت هذه السورة اسمها من الآية ٨٠ والتي تتحدث عن قوم صالح ﷺ، ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾.

تتناول معظم آيات هذه السورة موضوع اتّهام الكفار القرآن الكريم والاستهزاء بالرسول الأعظم ﷺ، ودعوة الله سبحانه وتعالى إلى الصبر والعفو عنهم، وتطبيب خاطره وطمأنة قلبه إزاء الضغوط المتزايدة عليه من قبل المشركين، لا سيّما بعد أن نُكِب النبي ﷺ بوفاة كلّ من السيدة خديجة الكبرى وعمّه أبي طالب ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّءْيَا تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ۝١﴾
 ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ۝٢﴾

إشارات:

□ ورد في تفسيري الطبري ومجمع البيان، في تفسير الآية (٢) من سورة الحجر، أَنَّ الكفار سيقولون لِمَنْ دخل من المسلمين إلى جهنم يوم القيامة: «ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى. قالو: فما أغنى عنكم إسلامكم وقد صرتم معنا في النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب، فأخذنا بها. فَيَسْمَعُ اللَّهُ ﷻ مَا قَالُوا: فيأمر من كان في النار من أهل الإسلام بالخروج منها، فحينئذ يقول الكفار: يا ليتنا كنّا مسلمين».

□ ويُخبرنا التاريخ أَنَّ قيصر الروم لما قرأ كتاب النبي ﷺ إليه، هَمَّ أَنْ يُسْلِمَ؛ لكنه قال في نفسه في اللحظة الأخيرة: سأكون في خطر وسيضيع مُلكي^(١).

التعاليم:

- ١ - على الرغم من منزلة القرآن الكريم السامية ﴿تِلْكَ﴾ فَإِنَّ اللَّهَ سبحانه جعله في متناول يَد الجميع؛ لأنه مكتوب: ﴿الْكِتَابِ﴾، وسهل القراءة ﴿وَقُرْآنٍ﴾.
- ٢ - على الرغم من مسائل القرآن الكريم وموضوعاته كلّها واضحة وبإمكان الجميع ملاحظة الفرق بين الحقّ والباطل من خلاله، ﴿مُبِينٍ﴾.
- ٣ - العزة في المستقبل للإسلام ولن يجني الكفار سوى الذلّ والحسرة ﴿يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. (إِنَّ مَنْ يسخرون من الإسلام والمسلمين في الوقت الحاضر سيندمون في المستقبل القريب، وما أكثر المشركين الذين يودّون أن يكونوا مسلمين؛ ولكنهم غارقون في وحل الطغيان والبيئة الفاسدة).

﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَلِيَهُمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢﴾

إشارات:

□ يعود السبب في ترك الكفار لحالهم باستخدام كلمة ﴿ذَرَهُمْ﴾ إلى طغيانهم وعصيانهم بعد أن أرسل الله تعالى الرسل وبعث الأنبياء ولم يترك أحداً لحاله. وقد تكرّر هذا المضمون كثيراً في القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾^(١)، وقال ﷺ: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾^(٢).

□ لا شك في أنّ الإنسان حيّ بالأمل ولو أخذ منه هذا الأمل يوماً فإنه سيتخلّى عن العمل ويترك الأشياء كلّها. لكنّ الإسلام ينتقد نوعاً مُعيّناً من الأمل وهو:

(أ) الأمل الطويل أو المتطاوّل؛

(ب) الأمل قبل العمل؛

(ث) الأمل من غير عمل يُسنده؛

(د) الأمل الذي يُلهي الإنسان ويَشغله؛

(هـ) تمَنّي الخير وانتظار الأمل من الأشرار؛

□ قال رسول الله ﷺ: «أَلَا إِنَّ أَخَوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ خِضْلَتَانِ: اتِّبَاعَ الْهَوَى وَطُولَ الْأَمَلِ، أَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَبْصَدُ عَنِ الْحَقِّ، وَطُولُ الْأَمَلِ يُنْسِي الْآخِرَةَ»^(٣). وفي دعاء كُمَيْل نقرأ العبارات التالية: «وَحَبَسَنِي عَنْ نَفْعِي بُغْدُ أَمَلِي».

التعاليم:

١ - لا تُضَيِّعُوا وقتكم عند الدعوة إلى الدين مع مَنْ هم ليسوا أهلاً للتبليغ، ﴿ذَرَهُمْ﴾.

(٣) بحار الأنوار، ج ٢، ص ١٠٦.

(١) سورة الأنعام: الآية ١١٠.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٥.

- ٢ - قد تبلغ الغفلة بالإنسان أحياناً مبلغاً لا تُفِيد معه لا براهين الأنبياء ولا تحذيرات الرسل والأولياء، ﴿ذَرَّهُمْ﴾.
- ٣ - إذا كان الأمل سيؤذي بنا إلى الغفلة واللَّهو، فلا حاجة لنا إليه، ﴿وَيْلَهُمْ أَلْأَمَلُ﴾ (ولكن إذا كان أملاً يدفعنا إلى العمل وبذل الجهود فإنه أمل في محلّه وهو أمل الخير الذي أشار إليه القرآن الكريم أيضاً بقوله: ﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾^(١)).
- ٤ - لا تعتبروا إمهال الله إياكم دليلاً على لطفه أو رحمته، ﴿ذَرَّهُمْ... فَسَوْفَ يَقَامُونَ﴾. (فقد يقول الطبيب لأهل المريض عند اليأس من حالته: اتركوه لحاله، ودعوه يأكل ويفعل ما يريد).

﴿وَمَا أَفْلَحْنَا مِنْ قَرَيْبٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾

التعاليم:

- ١ - ستنهي فرحة عُبَاد الدنيا وسعادتهم يوماً ما، ﴿وَمَا أَفْلَحْنَا مِنْ قَرَيْبٍ﴾.
- ٢ - يقول الله تعالى: إنّه لو شاء لأهلك الكفّار جميعاً في الحال، لكنّ سُنَّتَنَا اقتضت أن نُمهّلهم ونؤخّرهم إلى الوقت المعلوم، ﴿وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾.
- ٣ - لا تغتروا بالمهلة الإلهية، ﴿وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾.
- ٤ - المجتمع والتاريخ يحكماهما القانون والتوقيت كذلك، ﴿قَرَيْبٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾.

﴿مَا نَسِيقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ﴾

إشارات:

□ الآجال والأحداث المستقبلية على نوعين: حتمية وغير حتمية؛ فأما الأجل غير

الحتميّ فيمكن تغييره بالدعاء والصدقة والأعمال الحسنة، وأمّا الأجل الحتميّ فغير قابل للتغيير.

التعاليم:

١ - لا يقتصر الأجل على الشخص فقط بل وكذلك على الأمم وتاريخها، ﴿أَلْبَلَاءُ﴾.

٢ - دوام الأشخاص واستمرار الأمم بيد الله سبحانه، ولا دور للإنسان إطلاقاً في تأخير أو تعجيل الآجال الإلهية الحتمية، ﴿مَا تَسْقُ...﴾.

﴿وَقَالُوا يَتَّيْنَهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾^(٦)
 ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾^(٧)

إشارات:

□ كلمة «مجنون» لا تعني الذاهب العقل أو فاسده، بل من مسّته الجنّ، مثلما أنّ كلمة (مُتَعَفِّرَت) تعني الشخص الذي تسلّط عليه العفريت. وكان العرب في الجاهلية يعتقدون أنّ قدرة الشاعر على نظم الشعر إنّما تأتي من خلال ارتباطه بالجنّ.

□ تشير هاتان الآيتان إلى ما كان يقوم به المشركون من إهانة وسخرية واتهام للنبي ﷺ، مثل قولهم: ﴿يَتَّيْنَهَا الَّذِي﴾ مثلاً، بدل أن يقولوا: «يا أيّها النبي» واستخدامهم كلمة ﴿الذِّكْر﴾ مع أنّ الكفار لم يؤمنوا بالوحي، وهو بذلك نوع من السخرية والاستهزاء. وكلمة ﴿تَجَنُّونَ﴾ هي اتهام النبي ﷺ بما ليس فيه، وجملة ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ دلالة على أنّهم كانوا يشكّون في كونه ﷺ نبياً أصلاً، إضافة إلى أنّ الحرف ﴿إِنَّ﴾ في ﴿إِنَّكَ﴾ وحرف اللام في ﴿لَمَجْنُونٌ﴾ يشير إلى التأكيد على حديثهم ومعتقدهم الضالّ.

التعاليم:

١ - يعتبر البعض أنّ المعنويات هي مجرد جنون وعَبَث، ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾.

٢ - لم يقبل الكفار على ما كان النبي ﷺ يقول من الوحي وذلك واضح من قولهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ﴾، بدلاً من قولهم: «يا أيها الذي أنزل الله عليه...».

٣ - كان الكفار يظنون أن علامة صدق النبي ﷺ هي نزول الملائكة، لكن ذلك لم يكن سوى ذريعة واهية؛ لأن القرآن الكريم يُخبرنا في آيات أخرى: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكَةَ وَلَكُمُ الْوَقْ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾^(١).

﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾

إشارات:

□ نلاحظ من خلال الآيات القرآنية أنه كلما أتى نبي من الأنبياء بمعجزة وتجاهل قومه ذلك ولم يهتموا به نزل العذاب الإلهي بأولئك القوم، على الرغم من أنهم قد يُمهّلون مدة معينة. ولكن متى طلب الناس أنفسهم المعجزة من نبيهم مثل طلب قوم صالح ﷺ إخراج ناقة من بطن الصخرة في الجبل أو نزول مائدة من السماء وهو ما طلبه قوم عيسى ﷺ، ففي مثل هذه الحالات فإن غضب الله سبحانه يكون حتمياً ولن يُمهّل أولئك القوم بعد ذلك إذا تمرد الطالبون لتلك المعجزة على الرغم من نزولها حسب طلبهم، ﴿وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾.

□ طلب الكفار في الآية السابقة من النبي العزيز ﷺ نزول الملائكة عليهم، وفي هذه الآية يُجيب الله سبحانه وتعالى عن ما طلبوا بقوله: «إِنَّ الْمَلَكَةَ لَا تَنْزِلُ إِلَّا عَلَى مَنْ يَسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ وَأَنْهَا لَا تَنْزِلُ عَلَى مَنْ لَا يَسْتَحِقُّونَ نَزْلَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْبَاطِلِ»، ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

التعاليم:

١ - لا يكون نزول الملائكة على أساس رغبة هذا وهوى ذاك، بل بالحق، ﴿وَمَا نُنَزِّلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

٢ - إمهال الله لخلقه خاضع لقانون مُحدّد أيضاً، ولكن عندما يُؤتى الناس المعجزة وفقاً لطلبهم ومع ذلك يعصون أوامر الله ورسوله فلن يُعطوا أي مهلة، ﴿وَمَا كَانُوا إِذَا تُنْظِرِينَ﴾.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾

إشارات:

□ كان الكفار في الآية (٦) من هذه السورة يُشكّكون في مصدر الذّكر الذي كان النبي ﷺ يتلوه بقولهم: ﴿نَزَّلَ عَلَيْنَا﴾، وفي هذه الآية يرّد الله ﷻ على ما قاله المشركون ويقول: «أيها الكافرون! لا تشكّوا في كوننا نحن الذين أنزلنا الذّكر والقرآن على هذا النبي». وكما أنّ الكفار يصرون على نسبة الجنون إلى الرسول ﷺ فإنّ الله سبحانه يؤكّد كذلك من جانبه أنّه مسؤول عن حفظ القرآن الكريم.

□ احتوت هذه الآية الشريفة - على الرغم من قصرها - على أنواع ستّة من التأكيد، ثلاثة منها تتعلّق بنزول القرآن الكريم وهي: ﴿إِنَّا نَحْنُ... الذِّكْرُ﴾ وثلاثة أشارت إلى مسألة الحفاظ على الذّكر: ﴿وَإِنَّا لَهُ﴾ «واللّام» في كلمة ﴿لَحَافِظُونَ﴾، وهذا واضح في مصطلح الأدب العربي بالنسبة لأهل الفنّ.

□ بشهادة الله سبحانه ووعده في هذه الآية، لم يتعرّض القرآن الكريم إلى أيّ تغيير أو تحريف، وهو ما ورد في آيات قرآنية أخرى مثل الآية (٤٢) من سورة فصلت: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفَةٍ﴾. وأمّا ما تشير إليه بعض الروايات من أنّ القرآن الكريم قد تعرّض للتحريف وما إلى ذلك، فلمّا أن تكون تلك الروايات موضوعة وهنا لا بدّ من ضربها عرض الحائط، أو أن يكون مرادها من التحريف هو عدم تطبيق بعض الناس للقرآن الكريم عملاً أو معنى كالتفسير بالرأي والذّوق والإعراض عمّن لديهم علم الكتاب وهم آل بيت النبي ﷺ.

وبالإضافة إلى وعد الله سبحانه بالمحافظة على القرآن الكريم، فقد عمد

المسلمون - ومنذ نزول القرآن - إلى حفظه عن ظهر قلب واجتهدوا في كتابته خطياً، بل كان البعض منهم يجعل حفظ القرآن عن ظهر قلب مهراً للزوجة، وكانوا يترتلونه في صلواتهم، أما كُتَابُ الْوَحْيِ فكانوا كُثُراً، وكان الإمام علي عليه السلام واحداً منهم عند نزوله. ودأب الأئمة عليهم السلام على التأكيد للناس أن هذا القرآن الموجود بين يديهم هو المصحف الصحيح. ويشهد حديث الثقلين على سلامة القرآن الكريم من أي تغيير أو تحريف إذ صرح النبي صلى الله عليه وآله وسلم بنفسه قائلاً: «إِنِّي تَارِكُ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ مَا إِن تَمَسَّكْتُم بِهِمَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي؛ كِتَابَ اللَّهِ وَ عِزَّتِي أَهْلَ بَيْتِي. وَإِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ»^(١). وهل يُمكن لأحد أن يقول: إن رسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم باقية وثابتة بينما غيّر كتابه وتعرّض للتحريف.

وَعَدَ اللَّهُ النَّبِيَّ الْمُصْطَفَى «لَنْ يَمُوتَ الذِّكْرُ إِنْ أَنْتَ هَلَكْتَ»
 إِنِّي حَافِظُ ذِكْرِكَ وَكِتَابِكَ فَمَنْ قَالَ غَيْرَ أَوْ تَبَدَّلَ، قُلْ: كَذِبْتَ
 □ تَمَّ تَأْلِيفُ الْمَنَاتِ مِنَ الْكُتُبِ وَالْمَقَالَاتِ وَالرِّسَالِ مِنْ قَبْلِ كِبَارِ عُلَمَاءِ الشَّيْعَةِ
 حَوْلَ عَدَمِ تَحْرِيفِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَمَعَ ذَلِكَ نَسَبَ الْبَعْضُ ادِّعَاءَ التَّحْرِيفِ إِلَى
 الشَّيْعَةِ بِغَيْرِ حَقٍّ.

□ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ هُوَ الذِّكْرُ ﴿نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾، وَالْإِعْرَاضُ عَنِ الذِّكْرِ وَالْقُرْآنِ يُعَرِّضُ
 الْإِنْسَانَ إِلَى الشَّقَاءِ وَالْحَرَمَانِ، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً
 ضَنْكاً﴾^(٢). الْقُرْآنُ هُوَ الذِّكْرُ وَلَا تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ ﷻ، ﴿أَلَا يَذَكِّرُ
 اللَّهُ نَظْمِينَ الْقُلُوبِ﴾^(٣).

التعاليم:

- ١ - الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ لَيْسَ صَادِراً لَا مِنَ الْبَشَرِ وَلَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ، ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾.
- ٢ - الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مُحْفُوظٌ إِلَى الْأَبَدِ، ﴿لَا يَحْفَظُونُ﴾. (يشير اسم الفاعل هنا إلى الاستمرارية والدوام).

(٣) سورة الرعد: الآية ٢٨.

(١) وسائل الشيعة، ج ٢٧، ص ٣٤.

(٢) سورة طه: الآية ١٢٤.

٣ - من بين الأنباء الغيبية التي ذكرها القرآن الكريم والمميزات التي يمتاز بها الدين الإسلامي، هي حفظ القرآن من أيّ تحريف، ﴿وَأَنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

٤ - القرآن هو الذكر، ذكر الله سبحانه وذكر نعمه وتاريخ الأمم الماضية وذكر يوم القيامة، ﴿الذِّكْرُ﴾.

٥ - لا بدّ من الردّ على التّهم وأساليب الاستهزاء الباطلة بقوة وحزم؛ قالوا: ﴿تَزِيلُ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾، فردّ عليهم تعالى: ﴿عَنَّا نَزَّلْنَا الذِّكْرُ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾﴾

إشارات:

□ «شيع» جمع شيعة بمعنى الأمة والجماعة المرتبطة ببعضها سواء أكان ذلك الارتباط حقاً مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾^(١)، أو باطلاً كقوله ﷻ: ﴿الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا﴾^(٢).

□ كان غرض المستهزئين إمّا الإساءة لعظمة الأنبياء لتفريق الطالبين للحق من حولهم، أو رغبة من الكفار للتعويض عن الضعف الموجود في شخصيتهم في مقابل عجزهم أمام منطق الأنبياء السليم.

وأما ما كان يسخر منه الكفار فهو العيشة البسيطة التي كان الأنبياء يعيشونها أو أصحابهم المحرومون أو تجرّؤهم في التناول على تقاليدهم الخرافية.

التعاليم:

١ - لا بدّ من تقوية معنويات الأفراد مقابل حملات الاستهزاء، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾.

٢ - من شأن مطالعة التاريخ والاطلاع على مشاكل الآخرين أن يساعد الإنسان على تحمّل مشاكله، ﴿أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾.

- ٣ - لم يَنْجُ أَيُّ نَبِيٍّ من استهزاء الكافرين به، ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ﴾. (لا ينبغي للمُبلِّغ أو الداعية أن يقنط بسبب استهزاء الناس منه).
- ٤ - الاستهزاء هو أسلوب اعتاده الكفار ليواجهوا به الأنبياء ودعوتهم، ﴿كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾؛ (الاستهزاء سلاح من لا منطق له).

﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١٢) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ (١٣)

وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤)

لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ (١٥)

إشارات:

□ علمنا في الآيات السابقة أَنَّ الكفار طلبوا من النبي ﷺ إنزال الملائكة من السماء ليروهم بأعينهم، وفي الآية (١٤) من هذه السورة يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ فيروا ما يشاؤون من الملائكة وأشياء أخرى كذلك، فإنهم لن يؤمنوا لأن طلبهم رؤية الملائكة ما هو إلا ذريعة واهية يريدون بها التملّص من قبول الدعوة، ومن كان طبعه العناد فإنه سينكر حتى عروجه إلى السماء.

ورد في الآية السابعة من سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرَاطِينَ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّيْنٌ﴾.

□ قال بعض المفسرين: إن كلمة ﴿نَسْلُكُهُ﴾ الواردة في الآية (١٢) أعلاه، تعني أَنَّ الله سبحانه سهّل دخول الكذب والاستهزاء إلى قلوب الكافرين وزيّنه لهم، كقوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ...﴾ فأصبحت قلوبهم كالحجر ولم يعودوا يقبلون بالهدى.

التعاليم:

- ١ - سُنَّةُ اللَّهِ تعالى لهداية الناس واحدة، ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ﴾.
- ٢ - يُتِمُّ اللَّهُ حَجَّتَهُ وَيُوصِلُ الْحَقَّ إِلَى أَعْمَاقِ نَفُوسِ النَّاسِ وَقُلُوبِهِمْ حَتَّى لَا يَدَّعُوا بعدها أنهم لم يفقهوا الحقيقة، ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

- ٣ - لا شك في أن المعصية والذنوب يدفعان الإنسان إلى رفض الهداية، ﴿قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾.
- ٤ - لا يكفي إدراك الحق لقبوله؛ لأن الإيمان يحتاج إلى إرادة وتواضع وخشوع، ﴿سَلِّكُمُ فِي قُلُوبٍ... لَا يُؤْمِنُونَ﴾.
- ٥ - للسموات أبواب لا تُفتح لأحد إلا بإرادة الله وحده ولمن يشاء، ﴿فَنَحْنَا عَلَيْهِمْ بِأَبَآءَ﴾.
- ٦ - العناد عائق بوجه المعرفة ومن عادة المعاند أن ينكر حتى المحسوسات، ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا... لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَنْصُرُنَا﴾.
- ٧ - العناد مَرَضُ عُضَال لا دواء له؛ إذ إن أول ما يقوله المُعاندون بعد رؤيتهم الآيات البينات: ﴿إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَنْصُرُنَا﴾، ثم بعد أن يتبين لهم الحق عياناً يقولون: ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ۝١٦﴾

إشارات:

□ كلمة «بُرُوج» هي جمع (بُرْج) ومعناها في الأصل (الظهور)، ويُقال للمرأة التي تُظهر زينتها: تَبَرَّجَتْ، وتُطلق كذلك على القصر والبلاط والأبنية الشاهقة ذات المناظر الخلابة. وكلمة «بُرُوجًا» في هذه الآية كناية عن الأجرام السماوية أو منازلها.

□ يتشكّل مدار افتراضي من دوران الأرض حول الشمس يُسمى (منطقة البروج)، وقد قُسمت هذه المنطقة إلى اثني عشر برجاً يتضمّن كلّ واحد من تلك البروج عدداً من النجوم، إذ سُمّي كلّ بُرج باسم مُعيّن يتناسب وأشكال تلك النجوم فيه. فالقُرس يُسمّون تلك البروج: قَرُورْدِين، أَوْرْدِيهِشْت، خُرْدَاد... إلى غير ذلك، أما العرب فيسمّونها: بُرج الحَمَل والثَّوْر والجُوزاء والسرطان والأسد والسُّبُلَة والميزان والعقرب والقُوس والجدي والدُّلُو والحوت.

التعاليم:

- ١ - الأجرام السماوية وحركاتها في المدارات المختلفة لها، واحدة من الآيات الدالة على التوحيد ومعرفة الله سبحانه، ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا﴾.
- ٢ - المخلوقات السماوية جميعاً هي مخلوقات حادثة كذلك، ﴿جَعَلْنَا﴾.
- ٣ - الجمال والزينة مبدأ أساس في الخلق وقد وضعهما الله حتى في مخلوقاته السماوية، ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾.
- ٤ - خلق الله سبحانه السماء لتكون آية للإنسان كما هي الحال مع الأرض، ﴿لِلنَّظِيرِينَ﴾.

﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾^(١٧)
 ﴿إِلَّا مَنْ أَسْرَقَ أَلْسَعَ فَأَنْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾^(١٨)

إشارات:

- الاستراق والتسرق: اختلاس النظر والسمع، و﴿أَسْرَقَ أَلْسَعَ﴾ بمعنى سرقه خلسة.
- جاء في تفسير «في ظلال القرآن»^(١) وتفسير المراغي^(٢): «وما الشيطان؟ وكيف يحاول استراق السمع؟ وأي شيء يسترق؟ كل هذا غيب من غيب الله، لا سبيل لنا إليه إلا من خلال النصوص».
- أما الفخر الرازي^(٣) والآلوسي^(٤) فقد ذكرا في تفسيريهما: «فأما السماء فهذه السماء الظاهرة، وأما الشهاب فهو شعلة نار ساطع، ثم يسمى الكواكب شهاباً والسنان شهاباً لأجل أنهما لما فيهما من البريق يُشبهان النار، والمراد بالسماء عالم الملكوت الذي لا سبيل للشياطين للوصول إليه».
- وعلى أي حال، يمكننا القول إن معنى الآية الشريفة هو وجود شخصيات

(٣) مفاتيح الغيب، ج ١٩، ص ١٣٤.

(٤) الجزء التاسع، ص ٤٦٢ - ٤٦٣.

(١) في ظلال القرآن، ج ٤، ص ٤٢٧.

(٢) الجزء الرابع عشر، ص ١٢.

مقدّسة وطاهرة في سماء المعنويات وأن الله سبحانه قد تعهّد بحفظها جميعاً من وساوس الشياطين، ومن يتجرّأ من الشياطين على الوسوسة في ذلك العالم الطاهر هو جرمٌ بشهاب العلم وبرهان أهل الذكر بالاستدلال والمنطق المحكم، بغية إبادة بدعته واستراقه ووساوسه.

التعاليم:

١ - السموات مركز تنظيم الأمور وتدبيرها، والملائكة هم موظفو ومديرو تلك الأمور، وعلى هذا لا بدّ من أن تكون مراكز الإدارة والتدبير مناطق مَحْمِيّة، ﴿وَحَفِظْنَهَا﴾.

٢ - كلمة «الشیطان» لا تُطلَق على إبليس اللّعين فقط، ﴿كُلِّ شَيْطَانٍ﴾.

٣ - الشيطان لا ينصرف وحده بل لا بدّ من طرده، ﴿رَجِيرٍ﴾.

٤ - استراق السمع والتجسس لأغراض شريرة هو من عمل الشيطان، ﴿مَنْ أَسْرَقَ السَّمْعَ﴾.

٥ - لا بدّ من التعامل مع الجاسوس بحزم وشدة، ﴿فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ﴾.

٦ - متى ظهر أتباع الشياطين توجب على مثقفي المجتمع وعلمائه مطاردتهم بشهاب العلم، ﴿فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُّيِّنٌ﴾.

٧ - ينبغي الردّ على الوسواس والأفعال الشريرة بكلّ صراحة وحزم وعلى الفور، ﴿فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُّيِّنٌ﴾؛ (قال تعالى في الآية الثامنة من سورة الصافات: ﴿وَيَقْدُفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾، وهذا يشير إلى أنّه لا بدّ من الهجوم على الشيطان وطرده من جميع الجوانب، وإلاّ فإنه قد يظهر من مكان آخر وبشكل مختلف).

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾

إشارات:

□ الإلقاء هو الإيجاد والرواسي من الجبال: الثوابت الرّواسخ؛ واحداً راسية، و﴿مَعِيشٌ﴾ جمع المَعِيشة، وهي ما يُعاشُ بها.

التعاليم:

- ١ - يُعتبر انبساط الأرض وتسطّحها نعمة من نعم الله، ﴿مَدَدْنَاهَا﴾؛ ولولا ذلك لكان من الصعب القيام بالفلاحة والزراعة والكثير من الأمور الأخرى.
- ٢ - ليس انبساط الأرض وتمددها وإيجاد الجبال وخلق النبات أموراً اعتباطية، ﴿مَدَدْنَاهَا وَالْقَيْنَا وَأَنْبَتْنَا﴾.
- ٣ - خلقت الموجودات وفقاً لمعيار مُعَيَّن وقانون خاص، ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٌ﴾.
- ٤ - أرض كوكبنا صالحة لنمو أي نوع من النبات، ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾.
- ٥ - وُجِدَت الأرض ووضعت الجبال وخلق النبات من أجل الإنسان، ﴿لَكُمْ﴾.
- ٦ - الله سبحانه كفيل بمعايش وأرزاق الموجودات جميعاً حتى تلك التي ليس باستطاعة الإنسان توفير غذائها، ﴿وَمَنْ لَّشْتُمْ لَهُ بِرِزْقَيْنَ﴾.

﴿وَأَنْ يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ (٢١)

إشارات:

□ أشارت آيات عدّة إلى المقادير المعلومة والدقيقة في خلق الموجودات، منها الآيات التالية:

- ﴿فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾^(١).
- ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾^(٢).
- ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾^(٣).

□ قال تعالى في الآية (٢٧) من سورة الشورى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾، وهذا ما تؤكده الآية (٢١) من سورة الحجر كذلك.

(٣) سورة الفرقان: الآية ٢.

(١) سورة الطلاق: الآية ٣.

(٢) سورة الرعد: الآية ٨.

□ قد يكون المقصود بالخزائن ههنا هو الأسباب والإمكانات والعوامل الفطرية التي أوجدها الله تعالى في كل مخلوق.

□ تشمل عبارة ﴿وَأَنَّ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ المخلوقات جميعاً، فقرة إبصارنا وسمعنا محدودة بقدر معلوم عند الله سبحانه، فلو شاء هو لتمكنا من سماع أصوات دبيب النمل في الجانب الآخر من العالم. والجدير بالذكر أن الاكتشافات العلمية الحديثة أثبتت أن كل نبات له وزن معين وإذا زاد أو نقص مقدار العناصر الداخلة في تكوينه فإنه لن يكون ذلك النبات بل نبات آخر يختلف عنه.

□ ﴿نُزِّلُهُ﴾: يكون النزول أحياناً من الأعلى إلى الأسفل كنزول المطر وأحياناً أخرى يكون معنى النزول هو الأمر بإيجاد شيء ما كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾^(١). وتشير هذه الآية إلى أن النعم لها قدر معلوم وميزان محدود ﴿يَقْدَرُ مَعْلُومٌ﴾، وقد أشارت الآيات والروايات إلى بعض العوامل الداخلة في ذلك.

ويمكن لسعي الإنسان وجهوده أن تكون مؤثرة في تحديد مقدار الرزق، فالأخلاق الحميدة والاختصاص العالي وسعة الصدر وسلامة النية ودعاء الأحبة، يمكن لذلك كله أن يؤثر في المقدار المعلوم.

التعاليم:

- ١ - للوجود مصدر وذلك كله بيد الله سبحانه، وليس بإمكاننا التحكم إلا في مقدار مُحدّد من ذلك الوجود وهو ما نعلمه ونعرفه، ﴿عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾.
- ٢ - لم يخلق الله ﷻ شيئاً في الوجود إلا وله مقدار مُعيّن وميزان مُحدّد، ﴿يَقْدَرُ مَعْلُومٌ﴾.
- ٣ - خزائن الله كثيرة لا تُنفد، أما نزول رحمته فتدرجي، ﴿نُزِّلُهُ﴾، فالتنزيل يعني النزول التدريجي.

- ٤ - خزائن الله سبحانه دائمة لأن كل ما كانت خزائنه موجودة عند الله فهو باق لا يزول^(١)، ﴿عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾.
- ٥ - لا تلجأوا إلى غير الله؛ لأن كل ما تطلبونه خزائنه عند الله وحده، ﴿عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾.
- ٦ - امتلاك الشيء لا يعني استهلاكه، بل لا بد من الأخذ بعين الاعتبار الحكمة والحاجة والضرورة والكثير من الأمور الأخرى إذا ما أردنا التصرف بشيء ما، ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾.
- ٧ - لا يزال الإنسان يجهل مصادر وجود عده، ﴿عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾.

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
فَأَنْسَقَيْنَاكُمْ وَمَا أَنْشَرْنَاهُ إِلَّا بِخَيْرِ نَفْثٍ﴾

إشارات:

□ «لواقح» من اللقاح، واللواقح من الرياح التي تحمل الندى ثم تمجه في السحاب، فإذا اجتمع في السحاب صار مطراً، ويقال: إنما الريح ملقحة تلقح الشجر، وهي أن تجعل الريح هي التي تلقح بمرورها على التراب والماء فيكون فيها اللقاح.

□ قال تعالى في الآية (٤١) من سورة الذاريات: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾؛ فمن الرياح ما كان سبباً للبركة أو عاملاً للتهلكة، كما ورد في الآية (٤٣) من سورة النور قوله ﷻ: ﴿الَّذِينَ تَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَكَابًا ثُمَّ يَقُولُ يَبْعَثُهُ رَبُّكَ مَا نَرَى آتٍ فَذَرْهُمْ مِنْ خَلْقِهِ﴾.

□ لا يستطيع الإنسان إبقاء المياه في الشحوب أو على سطح الأرض مدة طويلة؛ لأنه سيدخل إلى باطن الأرض، ولا الأودية الصخرية لأنه حينئذ سيتبخّر.

(١) ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾، سورة التحل: الآية ٩٦.

التعاليم:

- ١ - الله تعالى هو مُدَبِّر الوجود والمتنقذ الأول والأخير، ﴿أَرْسَلْنَا وَأَنْزَلْنَا فَأَنْسِقِينَ كُمْ﴾.
- ٢ - الإنسان عاجز عن توفير أهم ما يحتاج إليه في حياته، ﴿وَمَا أَنْشَأْ لَهُ يَحْيَيْنَ﴾.
- ٣ - لا شك في أن نعمة وجود الماء تختلف عن نعمة الإرواء نفسها، ﴿فَأَنْسِقِينَ كُمْ﴾. (إن شرب الإنسان الماء وإرواء ظمأه هي وحدها نعمة بالإضافة إلى نعمة وجود الماء؛ إذ قد يشرب الإنسان الماء من دون أن يروي عطشه).

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ (٢٣)
 ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَخْرِينَ﴾ (٢٤)
 ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٥)

إشارات:

□ ذكر المفسرون معاني عدة لكلمتي ﴿الْمُسْتَقْدِينَ﴾ و﴿الْمُسْتَخْرِينَ﴾، منها:

(أ) الماضين والحاضرين؛

(ب) السابقون إلى ميادين الجهاد القتال وغيرهم؛

(ج) الواقفون في الصف الأول من جماعة المصلين والمتأخرون عنهم الذين يتعمدون ذلك ليكونوا بالقرب من صفوف النساء المصليات ليتسنى لهم اختلاس النظر إليهن، وقد يكون مراد الآية أن الله سبحانه يعلم هؤلاء ويعلم نياتهم. وفي مُقابل هؤلاء، هناك جماعة مؤمنة وصل بهم حبهم للمساجد حداً باعوا منازلهم البعيدة واشتروا منازل قريبة من المساجد لكي يتمكنوا من الوقوف ضمن الصفوف الأولى للمصلين، وهنا كذلك تورد الآية أن الله تعالى يعلم هؤلاء أيضاً.

التعاليم:

- ١ - الموت والحياة بيد الله وحده، فالكلّ فإنّ وعلى الذين يرحلون توريث الوريث الأصلي والحقيقي أعمالاً صالحة، ﴿وَتَعْنُ الْوَرِثُونَ﴾.
- ٢ - لا تأثير ولا أثر للزمان على علم الله تعالى، فعلمه ﷻ بالماضي والحاضر والمستقبل واحد، ﴿عِلْمُنَا السَّاقِدِينَ... عَلِمْنَا لِّلْمُسْتَفْزِينَ﴾.
- ٣ - مجيء يوم القيامة وما يجري فيه من حساب وكتاب وثواب وعقاب، كلّ ذلك من شؤون الربوبية، ﴿رَبِّكَ هُوَ بِحُشْرِهِمْ﴾.
- ٤ - إنّ السبب في وضع يوم للقيامة يتبع حكمة الله تعالى. (فلو كانت ذرات التراب والطعام والنظف تكوّن الإنسان، ثمّ بعد ذلك يموت الإنسان ويتحوّل ثانية إلى تراب ولم يكن ثمة حساب ولا كتاب في يوم من الأيام، فإنّ هذا العمل برمته لا يمتّ إلى الحكمة بشيء إطلاقاً)، ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾.
- ٥ - يُحْشَرُ يوم القيامة القديم والجديد والماضي والحاضر معاً، ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾؛ والله سبحانه عالم تماماً بأعمال كلّ مخلوق ونيات كلّ فرد، ﴿حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَّسْتُورٍ﴾ (٦٦)

﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُورِ﴾ (٦٧)

إشارات:

- «الصلصال» من الطين: هو مالم يُجْعَلْ حَرْفًا، سُمِّيَ به لِتَصْلُصُلِهِ أَي يُصَوّتُ كما يصوّت الحَرْفُ الجديد^(١). الحَمَاءُ والحَمَأُ: الطين الأسود المُنتَن، و﴿مَسْتُورٍ﴾ المُتَغَيَّر. و﴿السَّمُورِ﴾ الريح الحارّة التي تؤثر في الإنسان كالسّم.
- هذه الآية إمّا أنها تشير إلى مرحلة خلق الإنسان الأولى، أي خلق سيّدنا آدم ﷺ كما في قوله تعالى: ﴿خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتُهُ مِنْ طِينٍ﴾^(٢)، أو إلى مسيرة

الخلقة لجميع البشر وأن المواد الموجودة في الأرض التي تؤلف الطعام والنظفة تشكّل بمجموعها الإنسان، وهو ما ورد ذكره كذلك في الآية (٣٧) من سورة الكهف: ﴿أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا﴾ في إشارة إلى أنّ بداية الإنسان هي التراب ثمّ النظفة ثمّ يكون على هيئة الإنسان.

□ يُخبرنا القرآن الكريم أنّ الجنّ هم مخلوقات مكلفة تفهم القرآن وتعيه كالإنسان وقد خاطبها الله تعالى في آيات عدّة، مثل قوله تعالى: ﴿يَمَعَشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾^(١)، وفي الآية الأولى من سورة الجنّ قال تعالى: ﴿قُلْ أُوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنَّ﴾.

والجنّ كالبشر يمتلكون الشهوة، وقد أخبرنا القرآن الكريم بأنّ زوجات أصحاب الجنة هنّ حور طاهرات باكرات لم يمسهنّ لا إنسي ولا جني: ﴿لَهُنَّ يَطِيفُنَّ إِشْرُ قُبُلُهُنَّ وَلَا جَانٌ﴾^(٢). واستناداً إلى الآية أعلاه، فإنّ الجنّ مخلوق من النار وقد كانت موجودة قبل خلق الإنسان، وإبليس اللّعين هو واحد من الجنّ كذلك ﴿كَانَ مِنَ الْجِنَّ﴾^(٣)، ومن الجنّ من يدخل النار كذلك إذا كان كافراً ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾^(٤).

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّن صَلٰٓصِلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾

إشارات:

□ البَشَرَةُ: أعلى جلدة الرأس والوجه والجسد من الإنسان.

التعاليم:

١ - خُلِقَت الملائكة قبل الإنسان (ويدلّ على ذلك الحوار الذي دار بين الله سبحانه وملائكته عند إرادته خلق آدم ﷺ)، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ﴾.

(٣) سورة الكهف: الآية ٥٠.

(٤) سورة هود: الآية ١١٩.

(١) سورة الرحمن: الآية ٣٣.

(٢) السورة نفسها: الآية ٥٦.

٢ - الإنسان مخلوق من الطين والمواد الأخرى؛ ولهذا نراه يميل بالغريزة إلى الماديات، ﴿خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن صَلْصَلٍ مَّاءٍ...﴾.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾
 فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾

إشارات:

□ المقصود بنفخ روح الله في الإنسان ليس التنفس أو دخول الروح إلى الجسد؛ لأن الحيوانات هي الأخرى تتنفس ولها روح، بل المقصود هو منح هذا المخلوق الجديد (الإنسان) بعض صفات الإبداع والإرادة والعلم من لدن الله سبحانه، أما نسبة الروح إلى الله تعالى فهو تشريف لها كقولنا: (بيت الله) أو (شهر الله).

□ لم يكن سجود الملائكة لآدم ﷺ سجوداً صورتياً أو شكلياً بل كان يمثل خضوعهم أمام آدم ﷺ وذريته، أي أن الملائكة مسخرة لخدمة البشر^(١).

التعاليم:

١ - خلق الله ﷻ الإنسان بشكل كامل وهيئة متعادلة، ﴿سَوَّيْتُهُ...﴾.

٢ - كان سجود الملائكة تقديراً لنفخ الله الروح في جسد آدم ﷺ، ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا...﴾. وكما قال الشاعر الفارسي:

جَسَدُ الْمَرْءِ شَرِيفٌ بِوُجُودِ رُوحِ آدَمَ

مَا كُلُّ مَنْ لَبَسَ اللَّبَاسَ قِيلَ لَهُ ابْنُ آدَمَ

٣ - الإنسان مخلوق ذو بُعدين، وهو كامل في كلا البُعدين كذلك. ففي البعد المادي قال تعالى: ﴿سَوَّيْتُهُ...﴾، وفي البعد المعنوي قال ﷻ: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي...﴾.

- ٤ - الإنسان مظهر تجلّي بعض صفات الله تعالى، ﴿مِنْ رُوحِي﴾.
- ٥ - تحتاج المعنوية إلى الجسد والعناصر المادية، ﴿سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ...﴾.
- ٦ - إنّ الذين يرفضون الوقوف في صفوف الساجدين لا يمتلكون إلّا الصفات الشيطانية والإبليسية، ﴿إِلَّا إِلَيْسَ أَبْنَى...﴾.
- ٧ - على الرغم من أنّ السجود والركوع يُمثّلان قيمة من القيم، فإنّه عندما يتمّ ذلك مع ركوع وسجود الآخرين فإنّ قيمتها ستكون أكمل وأوسع^(١)، ﴿مَعَ السَّاجِدِينَ﴾.

﴿قَالَ يَبْنَائِيلُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ (٣٢)
 قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ، مِنْ صَلَافٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ (٣٣)
 قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيءٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٣٥)﴾

التعاليم:

- ١ - لا تستندوا في القضاء إلى علمكم ورأيكم فقط بل لا بدّ من أخذ اعتراف المجرم كذلك واستجوابه لبيان منشأ الجريمة وحالات المجرم للجميع، ﴿يَبْنَائِيلُ مَا لَكَ﴾.
- ٢ - إذا ظهرت بوادر التكبر في شخص ما فلن تنفع لهديته البيئة ولا أيّ عوامل أخرى. (كان إبليس اللعين يعيش مع الملائكة وفي بيئة ملكوتية طاهرة؛ لكنّه تحوّل إلى شيطان بسبب عناده وتكبره)، ﴿أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾.
- ٣ - التمييز العنصريّ فكرة إبليس، ﴿خَلَقْتُهُ، مِنْ صَلَافٍ...﴾.
- ٤ - الغرور والتكبر في مقابل أمر الله ﷻ أسوأ من عدم السجود، ﴿لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ﴾.
- ٥ - تبرير الذنب أسوأ من الذنب نفسه، ﴿خَلَقْتُهُ، مِنْ صَلَافٍ﴾؛ (بهذا العذر الواهي أراد إبليس تبرير جريمته).

(١) قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا مَعَ الزَّكِيّينَ﴾، سورة البقرة: الآية ٤٣.

٦ - إذا دخل الغرور والتكبر من ناحية خرج النور والصفات الإلهية من الناحية الأخرى. فالشيطان لم يرَ من الإنسان سوى جسمه الطيني ولذلك رفض السجود له، في حين أن الله تعالى لم يأمره والملائكة بالسجود إلا لأجل الصفة الإلهية التي كان يمتلكها ذلك الجسد، ﴿خَلَقْتُهُ مِنْ صَلَـصَلٍ﴾.

٧ - لا إكراه حتى في الأوامر الإلهية، ﴿لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدْ﴾.

٨ - التكبر لا يعني الكبرياء أو الشموخ بل الذل والهوان. وكلمة ﴿فَأَخْرُجْ﴾ كانت قراراً حاسماً لمحو كل عبادة إبليس اللعين وطاعاته السابقة، ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾.

٩ - لا يجوز الاجتهاد والعمل بالرأي في مقابل أمر الله تعالى، فلا مكان للقول: ﴿خَلَقْتُهُ مِنْ صَلَـصَلٍ﴾ بعد أمر الله ﷻ: ﴿فَفَعَلُوا لِمَ سَجِدِينَ﴾.

١٠ - إن لحظة عصيان وتكبر واحدة كانت كافية للطرد واللعن الأبديين، ﴿عَلَيْكَ اللَّعْنَةُ إِيَّكَ يَوْمَ الَّذِينَ﴾.

١١ - المتكبر ملعون من قبل الله تعالى إلى الأبد، ﴿عَلَيْكَ اللَّعْنَةُ إِيَّكَ يَوْمَ الَّذِينَ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾

إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾

إشارات:

□ عندما تأكد الشيطان الرجيم من أنه ملعون ومطروود إلى يوم القيامة، طلب من الله ﷻ أن يُمهله إلى اليوم المعلوم، لكنه لم يُفصح عن غرضه من ذلك الطلب. ولما كانت سنة الله تعالى قد اقتضت الإمهال والتأخير فإنه سبحانه لم يخل على هذا اللعين بالاستجابة لطلبه، ولكن ليس إلى يوم القيامة كما أراد، بل إلى اليوم المعلوم عند الله تعالى. وقد قال بعض المفسرين: إن مهلة إبليس اللعين ستنتهي بانتهاء وجود البشر وتكليفهم.

التعاليم:

- ١ - اقتضت سنة الله تعالى إمهال المُذنبين، ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾.
- ٢ - دعاء المُذنبين وتوسلهم مُستجاب إذا اقتضت المصلحة ذلك. فعندما طلب الشيطان الرجيم من الله ﷻ إمهاله ﴿فَأَنْظِرْنِي﴾، استجاب العليّ القدير له بلطفه قائلاً: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي آغْوَيْتَنِي لِأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَاغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٣٩)
 ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ (٤٠)

إشارات:

- لا يُضِلّ الله ﷻ أحداً، ولكن إذا اختار أحدهم طريق الضلال والانحراف بنفسه، فإنّ الله سيتركه لحاله وهذا التَّرك والإهمال والتجاهل هو أشدّ عقاب للمُذنب. ولما كان إبليس اللعين قد اختار بإرادته سبيل التكبر وطريق العناد، تركه الله تعالى وشأنه، وهذا هو معنى ﴿آغْوَيْتَنِي﴾، أي: الآن وقد طردتني من لطفك وأخرجتني من رحمتك وتركتني لحالي، فسأعمل كذا وكذا.
- كان إبليس يعلم أنّ بعضاً من عباد الله تعالى هم عباد مُخلصون (أي أنّه كان يعلم بوجود النبوة والإمامة كما يعترف بربوبية الله عزّ شأنه في قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي آغْوَيْتَنِي﴾، وكان يؤمن بالمعاد لقوله: ﴿أَنْظِرْنِي إِنْ يَوْمَ يُعْتَوْنَ﴾). وعلى هذا فإنّ المبادئ العقائدية عند إبليس كانت صحيحة ولا غبار عليها، إلّا أنّ عيبه الوحيد والأكبر هو تكبره وعدم تسليمه لأوامر الله وإذعانه بالعبودية. إذاً، فإنّ العلم والإيمان غير كافيين، بل لا بدّ من وجود العمل والتسليم والعبودية إلى جانب ذلك.

التعاليم:

- ١ - يحاول إبليس وقبيله ومَن يتصفون بصفاته نسبة خطيئتهم إلى الله جلّ اسمه، ﴿آغْوَيْتَنِي﴾.

٢ - تزيين القبائح والمساوي هو أهم وسائل إبليس في إغواء الآخرين، ﴿لَأَزَيِّنَنَّ﴾.

٣ - لا شك في أن الطاهرين والمُخلصين محروسون من حبائل الشيطان، ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾ - لكن الإخلاص والخلوص ليسا كافيين وحدهما كما هو واضح، فعناية الله تعالى هي أمر ضروري، لأن كلمة (المُخلص) تعني (المُتَّخَب) و(المُختار) و(المُضْطَفَى).

﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۝١١﴾

إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٢﴾

إشارات:

□ قال إبليس اللعين كما في الآية السابقة: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾، ولذلك يقول الله تعالى في هذه الآية: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ وهذه هي سُنَّتِي في الحفاظ على عبادي المُخلصين من إغوائك والتكفل بتخليصهم من حبائلك، ليس لأنك لا تُريد ذلك، بل لأنك لن تستطيع إغواء عبادي المُخلصين على الإطلاق.

□ سؤال: إذا كان إبليس اللعين عاجزاً عن إغواء العباد المُخلصين أو إيقاعهم في شراكه، فما حكاية إغواء آدم ﷺ وأكله من الشجرة الممنوعة؟

الجواب: إن إبليس اللعين لا يتوانى عن إغواء جميع العباد بما فيهم المُخلصون ولا ييأس من المحاولة؛ لكنه بالطبع لا يُفلح في إضلالهم.

التعاليم:

١ - لا سلطان للشيطان الرجيم على عباد الله المُخلصين والمُسَلِّمين لأمره، ﴿عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾.

٢ - كل إنسان ضالّ يتبع إبليس ويطيعه بإرادته واختياره من دون أن يُجبرَ على ذلك، ﴿اتَّبَعَكَ﴾.

٣ - إذا استطعنا الدّخول إلى دائرة عباد الله بالعبادة والتقوى فلا ريب أنّنا سنكون في مأمن من الشيطان وجنوده، ﴿عِبَادِي لَيْسَ لَكَ...﴾.

٤ - يقتصر عمل الشيطان الرّجيم على الوسوسة فقط فلا سلطان له على أيّ من خلق الله، ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ (والدليل على ذلك هو ما سيقوله إبليس اللعين يوم القيامة للغاوين من الناس بعد ادّعائهم أنّه هو الذي كان السّبب في دخولهم جهنّم: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ﴾^(١)).

﴿وَلَنْ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾
لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾

إشارات:

□ قد تكون عبارة ﴿سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ إشارة إلى كثرة أبواب جهنّم، ما يعني أنّ هنالك كثيراً من العوامل تجعل الإنسان من أصحاب جهنّم، كقوله تعالى في الآية (٢٧) من سورة لقمان **﴿رَبِّهِمْ﴾**: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَدٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُهِ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ في إشارة إلى أنّ تعداد خلق الله كثير جداً بحيث لا يمكن إحصاؤهم.

التعاليم:

١ - إنّ للجنان ولجهنّم أبواباً ومداخل، ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾. (وذكر في نهج البلاغة أنّ المجاهدين يدخلون إلى الجنّة من باب خاصّ **﴿فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، فَتَحَهُ اللَّهُ لِخَاصَّةِ أَوْلِيَائِهِ﴾**^(٢)).

٢ - تتألّف جهنّم (أو النار) من طبقات عدّة كما هي الحال مع الجنّة وكلّ مخلوق يُحاسب أو يُعَذَّب بحسب ذنبه في واحدة من تلك الطبقات، ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾.

(١) سورة إبراهيم: الآية ٢٢.

(٢) الخطبة رقم ٢٧، فضل الجهاد.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ أَتَدُلُّوهَا إِسْلَامٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾
وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾
لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾

إشارات:

□ «الْغِلَّ» التأثير الكامن المُستتر، وعلى هذا فإن الصفات السيئة تظهر في داخل الإنسان وتنمو بشكل خفي وغامض. و«سُرُرٍ» جمع سَرِير، وهو من السُرور، بمعنى المضطجع والكرسي يُجَلَسُ عليه، إذ يشعر الجالس عليه بالسُرور والسعادة.

□ تشير الآيات الشريفة أعلاه إلى أَنَّ الْمُتَّقِينَ يُمنَحون ثمانِي جوائز أو نِعَم ثواباً لأعمالهم، وهي: الجنان والعيون والسلامة والأمن وصفاء الصدور من كلِّ غِلٍّ والإخاء والسُرر المتقابلة وابتعادهم عن كلِّ ما يتسبب في تكديرهم أو إيلاهم.

□ علمنا من الآية السابقة أَنَّ جميع المخلوقات مُعرَّضة لوساوس الشيطان الرجيم وحبائل إبليس اللعين إلّا عباد الله المُخلصين، وفي هذه الآيات يُبين الله تعالى أَنَّ رَحْمته ونِعَمته ولُطفه سيُشمل كذلك الإنسان المُتقي وإن لم يتمكن من بلوغ مرحلة المُخلصين.

□ المهم في الأمر هو اجتماع جميع النعم في مكان واحد، وهذا ما لا يمكن إيجاده في هذه الدنيا. فنحن لا نستطيع مثلاً العثور على مكان يجمع بين الجنة والعيون معاً، فقد نجد العين ولا نجد عندها أي جنة أو حديقة أو بستان، وقد نجدهما معاً من دون أن نعر على أثر للسلامة، وقد نجد بالصدفة الجنة والعين والسلامة من دون الأمن، وقد نجد الأربعة معاً ولكن على حساب الصفاء والأخوة، بل قد نجد مرافقة لأنواع الشقاء والألم والمشاكل، وأخيراً، فقد يجد المرء الجميع معاً - على سبيل القرض لا التأكيد - وفي لحظة واحدة يموت ويترك وراءه ذلك كله لغيره! لكن ذلك يختلف يوم القيامة، فهناك توجد الكثير من أنواع النعم المادية والمعنوية والاجتماعية وحتى النفسية، وكلها نِعَم أبدية لا تزول.

التعاليم:

- ١ - تُعتبر البشارة في هذه الآيات بعد التهديد والوعيد اللذين وردا في الآيات السابقة جزءاً من الضرورة التربوية، ﴿لَمَّا سَمِعَتْ آبُوبَ... إِنَّكَ الْمُتَّقِينَ...﴾.
- ٢ - الابتعاد عن الذنوب وتجنبها في هذه الدنيا الزائلة ثوابه السعادة الأبدية في الآخرة، ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ... وَمَا هُمْ مِنْهَا بِسُخَّرِينَ﴾.
- ٣ - نِعَم الجنة متنوعة ومختلفة، ﴿جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾.
- ٤ - نِعَم الجنة لا تُقْصَان فيها؛ فهي تضم الجنان إلى جانب العيون، والسلامة إلى جانب الأمن، والأخوة إلى جانب المودة، والراحة إلى جانب الخلود، ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾.
- ٥ - النعم الفردوسية نِعَم شاملة، فمنها ما هو مادي كالجنات والعيون، ومنها ما هو معنوي كالأمن والصفاء، ومنها كذلك ما هو اجتماعي كالإخاء والود، والأهم من كل ذلك هو رضى الله سبحانه وتهنئته وسلامه، ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾.
- ٦ - لا تنسجم الأخوة مع الضغينة والحقد، إذ لا بدّ أولاً من نزع الغِلّ لتحقيق الأخوة، ﴿وَنَزَعْنَا... إِخْوَانًا﴾.
- ٧ - وجود الضغن والحقد وعدم تحمّل المقابل من الآخرين لا يعني بالضرورة أن أحداً ما على حق والآخر على باطل ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ... وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾؛ (فإنّ شخصين مثلاً كليهما من أصحاب الجنة، وكليهما يقتضي هدفاً مقدساً لكن لكل واحد منهما رؤيته الخاصة به مُعتبراً ما يقوم به صاحبه باطلاً فيغضب منه ويحقد عليه، لكن، تلك الأحقاد كلّها وذلك الغِلّ كلّهُ سيزول يوم القيامة بإذن الله تعالى).
- ٨ - إذا أردنا أن تزول من بيننا الأحقاد جميعاً فلا بدّ لنا من الاستعانة بالله عليها، ﴿وَنَزَعْنَا... وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(١).

٩ - الصفات السيئة والخصال غير الحميدة تأسر الإنسان وتغله كالقيود والأصفاد، ﴿يَنْ غِلِّ﴾.

١٠ - الجدير بالذكر أَنَّ أصحاب الجنة لا يحسدون بعضهم بعضاً بسبب اختلاف درجاتهم ومنازلهم في الجنان، ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾.

﴿يَنْبَىٰ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٤٩)

وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾

إشارات:

□ قسّم القرآن الكريم في هذه الآيات الناسَ إلى أربع مجموعات هي:

١ - الْمُخْلَصُونَ (الأنبياء والأولياء) وهؤلاء لا سلطان لإبليس اللعين عليهم.

٢ - الْمُتَّقُونَ من أصحاب الجنة.

٣ - الْمُذْنِبُونَ التائبون الذين أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ في هذه الآية بإخبارهم بعفو الله عنهم.

٤ - الْمُذْنِبُونَ العاصون الذين بُشِّرُوا بالعذاب الأليم.

التعاليم:

١ - لا شك في أَنَّ رَحْمَةَ الله سبحانه هي أعظم بشارة وأَسْرَ نَبَأٍ، ﴿يَبَيِّنًا﴾، (وَالنَّبَأُ) الخبر المهمّ أو السارّ.

٢ - الْمُذْنِبُونَ هم عباد الله كذلك، ﴿عِبَادِي﴾.

٣ - لا تشكّوا في لطف الله ورحمته، ﴿إِنِّي أَنَا﴾.

٤ - عفو الله تعالى مقرون باللطف والرحمة، فهو لا يعفو وحسب بل ويلطف كذلك، ﴿الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

٥ - عفوه ولطفه سبحانه كبير ودائم، ﴿الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾؛ (تشير كلمتا الغفران والرحمة إلى عمق معناهما ودوامه).

- ٦ - لُطْفُهُ تَعَالَى وَرَحْمَتُهُ سَبَقَا غَضَبَهُ، ﴿الْفَقُورُ الرَّجِيءُ وَأَنَّ عَذَابِي﴾.
 ٧ - لَا تَغْتَرَوْا بِرَحْمَةِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ فَعَذَابُهُ شَدِيدٌ وَأَلِيمٌ، ﴿الْفَقُورُ الرَّجِيءُ... الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾.

﴿وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۖ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ۖ﴾
 ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلَيْكَ ۖ﴾ قَالَ أَبَشْرُكُمْ نِعْمَىٰ عَلَىٰ مَنْ مَنَىٰ الْكَبِيرُ ۖ فِيمَا
 نُبَشِّرُونَ ﴿قَالُوا بَشِّرْنَا بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْفٰتِنِينَ ۖ﴾
 قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾

إشارات:

□ تُعتبر قصة ضيوف النبي إبراهيم عليه السلام نموذجاً لرحمة الله تعالى، إذ بشر الملائكة المرسلون إبراهيم عليه السلام بالولد، ومن جهة أخرى أخبروه بقرب هلاك قوم لوط عليه السلام.

□ تُطلق كلمة (الضيف) على المفرد والجمع من الضيوف^(١).

□ كان الله سبحانه قد وهب إبراهيم عليه السلام من قبل ولداً من أمته هاجر اسمه إسماعيل عليه السلام، وهذه المرة بشره على لسان ملائكته بأنه سيهبه ولداً آخر من زوجته سارة وسيسميه إسحاق. ففي المرة الأولى قال تعالى لنبيه بأنه يُبشّره: ﴿يُغْلِيهِ جُوعٌ﴾ وهنا - وفي ما يتعلق بولده التالي إسحاق - يقول سبحانه: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلَيْكَ﴾.

التعاليم:

١ - لناخذ الدروس والعبر من الحوادث التاريخية المرة والحلوة، ﴿وَنَبِّئُهُمْ﴾. (إن أعظم جزء في التاريخ هو سيرة الأنبياء وأعظم من يسرد تلك السيرة هو الأنبياء أنفسهم).

(١) قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحْنِي﴾، سورة الحجر: الآية ٦٨. (وهؤلاء) اسم إشارة للجماعة وقد استُخدم من كلمة ﴿مَنْفِي﴾. [المترجم]

- ٢ - يظهر الملائكة أحياناً على هيئة البشر بإذن الله ويتحاورون معهم، ﴿صَيِّفْ إِبْرَاهِيمَ﴾.
- ٣ - السلام جزء من الأدب الديني الذي كان موجوداً على مر التاريخ، ﴿فَقَالُوا سَلَامًا﴾.
- ٤ - علم الأنبياء ومعارفهم محدودة ومشروطة بإذن الله تعالى، ﴿إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾. (ففي البداية كان إبراهيم عليه السلام يجهل هويّة ضيوفه الأمر الذي دفعه إلى الارتباك والخوف منهم).
- ٥ - حاولوا تقديم الأخبار المُفرحة مع الأخبار المُحزنة، ﴿بَشِّرْكَ﴾. (قال الإمام الباقر عليه السلام: «قَضَى اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُعَوِّضَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ عَذَابِ قَوْمِ لُوطٍ بِغَلَامٍ عَلَيْهِمْ فَيُسَلِّي بِهِ مَصَابِهِ بِهَلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ»^(١)).
- ٦ - تَعَجَّبَ البعض من قدرة الله تعالى ومُعجزاته لا يتعارض مع إيمانهم وتوحيدهم، ﴿فَبَشِّرْهُنَّ﴾. (في هذه الآية يُبدي إبراهيم عليه السلام تعجبه من أمر البشارة وفي سورة هود عليه السلام في الآية (٧٢) تعجبت امرأته كذلك قائلة: ﴿وَأَنَا عَبْدٌ وَمَظْلُومٌ﴾).
- ٧ - الأنبياء عليهم السلام مُتَخَرِّجون من مدرسة الأدب الإلهي، ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.
- ٨ - ما من تضاد بين عصمة الأنبياء عليهم السلام وبين التحذيرات الإلهية، ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.
- ٩ - نَهَى اللهُ تعالى البعض عن القيام بعمل ما لا يعني أنهم كانوا سيقومون حتماً بذلك العمل إنما هو نهي وتحذير وقائي لا غير، ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.
- ١٠ - ادروا اليأس والقنوط بذكر رحمة الله تعالى وربوبيته، ﴿رَحِمَهُ رَبِّي﴾.
- ١١ - إِنَّ مَنْ يُوْمن بعلم الله تعالى وقدرته ورحمته لا يمكن أن يتدخله اليأس أو القنوط بأي شكل من الأشكال، ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ... إِلَّا الضَّالُّونَ﴾^(٢).

(١) تفسير الصافي.

(٢) يُعتبر القانطون واليائسون من الضالين الذين يتوجب علينا البراءة منهم كما نفعل ذلك في صلواتنا اليومية: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾
 قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾

التعاليم:

- ١ - يبدو أنّ على الملائكة المُؤكّلين بأمر من أوامر الله سبحانه إخبار أنبيائه بذلك، ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا﴾.
- ٢ - الملائكة جنود الله ﷻ وموظفوه، فكما أنهم يدعون للمؤمنين بالخير ﴿وَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾^(١)، فإنهم يغضبون لغضب الله سبحانه على المجرمين وينفذون أمر الله فيهم من دون رَحمة، ﴿أُرْسِلْنَا﴾.
- ٣ - ينبغي احترام التسلسل الهرميّ للمقامات والرتب، وعلى الرغم من أنّ مهمّة هؤلاء الملائكة تتعلق بنبيّ الله لوط عليه السلام وقومه، فإنهم مأمورون بإعلام النبي إبراهيم عليه السلام أولاً باعتباره أرفع منزلة في النبوة من لوط عليه السلام وهذا الأخير ينضوي تحت ولاية النبي إبراهيم عليه السلام، ومن ثمّ إخبار لوط بالأمر، ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا﴾.
- ٤ - لا يقتصر حساب المجرمين في يوم القيامة فقط، ﴿أُرْسِلْنَا... مُّجْرِمِينَ﴾.
- ٥ - عندما يُصبح الذنب عامّاً ويسد الإنسان على نفسه باب التوبة، يكون غضب الله حتمياً، ﴿أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾.

﴿إِلَّا ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾
 إِلَّا أَمْرَانَهُ، قَدْ رَأَيْنَا إِنَّا لَمُنَالِقِينَ ﴿٦٠﴾
 فَلَمَّا جَاءَ ءَالَ لُوطِ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّسْكِرُونَ ﴿٦٢﴾﴾

إشارات:

□ ﴿الْفٰرِيقَيْنِ﴾ جمع (غابر) وهو الباقي في من يهلك، و(الغبار) ما يَبْقَى من التراب.

□ لاحظ أن إبراهيم ولوطاً ﷺ لم يتعرفا إلى الملائكة في البداية، ولذلك قال إبراهيم ﷺ لهم: ﴿إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾، وقال لوط ﷺ: ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾. وكان الملائكة الذين قَدَموا على لوط ﷺ متكررين بهيئة شبان وسيمين فخاف لوط من أن يتعرض لهم قومه الفاسدون وهو ما دفعه إلى القلق من وجودهم في تلك القرية.

التعاليم:

- ١ - يتمتع أصحاب الأنبياء وأتباعهم بالحصانة ضدَّ العذاب الديني، ﴿إِلَّا مَالَ لُوطٍ﴾.
- ٢ - يُمثّل اختلاف زوجة لوط ﷺ معه في الرأي أفضل دليل على أن الإنسان مُخيّر وغير مُقيّد بالبيئة أو المحيط، ﴿إِلَّا أَمْرَأَتُهُ﴾.
- ٣ - العلاقات والروابط الاقتصادية ليست دليلاً على التبعية الفكرية أو الثقافية. (كانت امرأة لوط تعيش في منزله وتعتاش من رزقه، لكنها مع ذلك كانت تختلف معه في الرأي والعقيدة).
- ٤ - القانون هو المبدأ الأساس في مدرسة الأنبياء ﷺ لا القرابة؛ فهي إمراة نبيّ يشملها عذاب الله، ﴿إِلَّا أَمْرَأَتُهُ قَدْ رَزَّ إِنَّا لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾. لا ينبغي للعلاقات الأسرية والقرابة أن تكون عائقاً في طريق تنفيذ الأهداف الدينية.
- ٥ - لاحظ أن زيجات بعض الأنبياء ﷺ كذلك لم تكن موقفة، ﴿إِلَّا أَمْرَأَتُهُ﴾.
- ٦ - جزاء أولياء الله وحسابهم يختلف عن جزاء وحساب أقربائهم وذوهم من غير المؤمنين، ﴿إِلَّا أَمْرَأَتُهُ﴾.
- ٧ - غضب الله وعقابه لا يكون إلا وفقاً لبرنامج مُعيّن وقدر معلوم، ﴿قَدْ رَزَّ﴾.
- ٨ - إذا نزل غضب الله تعالى على المجرمين فإنه لا يُفرّق بين القريب والغريب، والمرأة أو الرجل، والمشهور أو المجهول، ﴿إِنَّا لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾.
- ٩ - الأنبياء لا يعلمون الغيب من عند أنفسهم (فالنبي لوط ﷺ لم يُحدّد هويّة الملائكة).

﴿قَالُوا بَلْ جِئْتَنَا بِمَآ كُنَّا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ ١٦ ﴿وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ ١٧
 ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكَ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ ١٨
 ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ ١٩

إشارات:

□ أشار القرآن الكريم في آيات عدة إلى أَنَّ الكفَّار كانوا يطلبون من الأنبياء دائماً تعجيل نزول عذاب الله عليهم فيقول بعضهم: ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنْ الصَّادِقِينَ﴾ (١)، وكانوا يتجاهلون ويسخرون من التهديدات كلها والوعود بنزول العذاب، ويشككون في حقيقة غضب الله سواء في الدنيا أو في الآخرة. وفي هذه الآيات بين الله ﷻ أَنَّ غضبه نازل بالكفَّار ومحيط بهم لا محالة.

□ ﴿يَقْطَعُ مِنَ اللَّيْلِ﴾ طائفة منه والجزء الأعظم الفائت منه.

التعاليم:

- ١ - لا تستهينوا بالتهديد والوعيد الإلهيين، ﴿جِئْتَنَا﴾.
- ٢ - تستند العقوبات الإلهية إلى العدل والحق واستحقاق كلِّ مجرم وكافر، ﴿بِالْحَقِّ﴾.
- ٣ - استثمروا غفلة الكفَّار لإنقاذ المؤمنين ونجاتهم، ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾.
- ٤ - لا يخطو الأنبياء ﷺ خطوة واحدة إلا بإشراف الله وبأمر منه، ﴿تَأْمُرُونَ﴾.
- ٥ - يمد الله أولياؤه بلطفه وعنايته في اللحظات الحرجة. (فقد تمَّ الأمر بالهجرة في ﴿يَقْطَعُ مِنَ اللَّيْلِ﴾، ومع أشخاص معينين ﴿بِأَهْلِكَ﴾، وبشروط معينة ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكَ أَحَدٌ﴾، وإلى وجهة محدَّدة ﴿حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾).
- ٦ - يقوم الله سبحانه بإخبار أنبيائه حول هلاك الكفَّار قبل التنفيذ، ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ﴾.
- ٧ - إِنَّ الله ﷻ قادر على إهلاك جيل بأكمله في طرفة عين، ﴿دَابِرَ﴾.

﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾
وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾﴾

إشارات:

- ورد في الروايات: «إن امرأة لوط أخبرت قومها بأنه نزل عند لوط ثلاثة من المرد ما رأينا قط أصبح منهم وجهاً ولا أحسن شكلاً، فذهبوا إلى دار لوط طلباً لهم، مُظهريْن اغتباطاً وسروراً بهم»^(١).
- تشير الآية إلى أنّ بإمكان الأشخاص من غير المؤمنين كذلك رؤية الملائكة.

التعاليم:

- ١ - عندما تنهون عن المنكر حاولوا استخدام العبارات العاطفية والإنسانية، ﴿ضَيْفِي﴾.
- ٢ - لا شك في أنّ السمعة وماء الوجه لا يُقدّران بثمن، ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ... وَلَا تُخْزَوْنِ﴾.
- ٣ - إهانة الضيف تعني إهانة المضيف نفسه، ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾.
- ٤ - من سخرية القدر أن يأمر وينهى المجرم والمذنب في المجتمع الفاسد، ﴿أَوْلَمْ نَنْهَكَ﴾.
- ٥ - في المجتمع الفاسد يُمنع أولياء الله من التصرف بأموالهم، ﴿أَوْلَمْ نَنْهَكَ...﴾.

﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾

إشارات:

- سؤال: هل كان فعلاً يحق للوط ﷺ أن يُزوّج بناته من الكفار حتى يقترح عليهم مثل ذلك؟

(١) انظر: تفسير المراغي.

الجواب: قد يكون مراده من ذلك الاقتراح هو تزويج بناته إليهم بعد إيمانهم، أو ربّما كان زواج المؤمنات من الكفار مسموحاً به في تلك الفترة، والله أعلم.

التعاليم:

- ١ - لردع الشخص عن ارتكاب المعصية لا بدّ أولاً من بيان الطرق القانونية البديلة لذلك، ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾.
- ٢ - إذا أردنا أن نأمر بالمعروف وننهي عن المنكر ونمنع ارتكاب الذنوب، علينا أن نستخدم جميع الوسائل المتاحة لنا، ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾.
- ٣ - مدرسة الأنبياء ﷺ لا تحرّم اللذات ولا تقمع الغرائز؛ بل تحاول السيطرة عليها وتوجيهها نحو الاتجاه الصحيح، ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾.

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٧٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾
فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهُمَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾

إشارات:

- «العُمَر اسم لمدة عمارة البدن بالحياة... والعُمَر - بالضم - والعُمَر - بالفتح - واحد، لكن خُصَّ القسم بالعُمَر - بالفتح - دون العُمَر نحو ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ﴾»^(١).
- الجدير بالذكر هنا أنّ القرآن الكريم لم يُقسم بحياة أحد سوى حياة النبي ﷺ، لكن المراغي قال في تفسيره: «قالت الملائكة للوط: وحياتك أيها الرسول إنّ قومك لفي ضلالتهم التي جعلتهم حيارى لا يعرفون ما أحاط بهم من البلاء»^(٢).
- «يعمّهون» من العمّه، بمعنى الحيرة و«مشرقين»؛ أي داخلين في الشروق وهو بزوغ الشمس.

(٢) تفسير المراغي، ص ٢٨١٨.

(١) الميزان في تفسير القرآن، ج ١٢.

□ ربما كان الهدف من إمطار حجارة من سَجِيل على قوم لوط هو إبادة مَنْ ظَلَّ فيه منهم رَمَقٌ من الحياة بعد قَلْب المدينة رأساً على عَقَب، أو لأجل إبادتهم إبادة كاملة مع المدينة المُدْمَرَة.

التعاليم:

- ١ - يجوز القسم باسم النبي ﷺ، ﴿لَمَنْزُكْ﴾.
- ٢ - المعصية والانحراف يُلغيان عقل صاحبهما وإدراكه ﴿سَكْرَيْنِ﴾ ويُفقدانه بَصْرَه وبصيرته ﴿يَعْمَهُونَ﴾.
- ٣ - لا يصحو مَنْ أسكرته الدنيا إلا بصيحة سماوية، ﴿سَكْرَيْنِ... أَلْقَيْنَهُ﴾.
- ٤ - يمكن للصيحة السماوية أن تَقْلِب بلدة بأكملها رأساً على عقب، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ أَلْقَيْنَهُ... فَجَعَلْنَا﴾.
- ٥ - يد الله مُطلقة، فهو قادر على إسقاط الحجارة والعذاب من السماء كما يُنزل منها المطر والرحمة، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً﴾.
- ٦ - العذاب الذي نزل على قوم لوط عليه السلام على ثلاثة أقسام: (١) الصيحة؛ (٢) قَلْب المدينة رأساً على عقب؛ و(٣) إمطار الحجارة السَّجِيلَة.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لِسَبِيلٌ مُّقْبِرٍ ﴿٧٦﴾﴾
 ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾

إشارات:

□ «للمتوسمين» للمتفرسين الذين يتثبتون في نظرهم حتى يعرفوا حقيقة الشيء بسمته. وورد في بعض الروايات أَنَّ المقصود بالمتوسمين هم النبي ﷺ وآل بيته الأطهار عليه السلام^(١).

□ جاء في كتاب معاني الأخبار للهلالي أمير المدينة يقول: «سألتُ جعفر بن محمد [الصادق عليه السلام] فقلت له: يا بن رسول الله في نفسي مسألة أريد أن

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٢٣.

أَسْأَلُكَ عَنْهَا. قَالَ: «إِنْ شِئْتَ أَخْبَرْتُكَ بِمَسْأَلَتِكَ قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَنِي، وَإِنْ شِئْتَ فَاسْأَلْ». قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: يَا بَنَ رَسُولِ اللَّهِ. وَبِأَيِّ شَيْءٍ تَعْرِفُ مَا فِي نَفْسِي قَبْلَ سَوْأَلِي عَنْهُ؟ قَالَ: «بِالتَّوَسُّمِ وَالتَّفَرُّسِ؛ أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ اللَّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلَّذَرِّسِينَ﴾»^(١)؟

□ قد يكون معنى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَبَسِيلٌ مُّتَبِيرٌ﴾ هو أنه ليس بالضرورة أن يشمل غضب الله سبحانه قوم لوط عليه السلام فحسب، بل هو قانون عام وسُنَّة إلهية ثابتة تشمل جميع الجناة والطغاة عبر التاريخ^(٢).

التعاليم:

- ١ - تُمثِّل الأحداث التاريخية الكثير من الأمور للمؤمنين الأذكياء المتوسمين، ولا تعني بالنسبة للمؤمنين العاديين سوى بضع علامات لا غير، ﴿لَا يَنْتَوِي... لَايَةً﴾.
- ٢ - لا شك في أنَّ الاحتفاظ بآثار الأمم الماضية هو عبرة ودرس للأجيال التي تليها، ﴿وَأَنَّا لَبَسِيلٌ مُّتَبِيرٌ﴾.

﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَطَالِبِينَ ﴿٧٨﴾﴾

﴿فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لِيَإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾

إشارات:

□ «الأيكة» الشجر الكثير الملتف، و﴿أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ هم قوم سيدنا شعيب عليه السلام كانت مدينتهم تقع في منطقة ذات هواء عليل وبساتين كثيفة بين الشام والحجاز.

□ رُوِيَ عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا مَرَّتَيْنِ إِلَّا شُعْبِيًّا؛ مَرَّةً إِلَى مَدْيَنَ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِالصَّبْحَةِ، وَمَرَّةً أُخْرَى إِلَى أَصْحَابِ الْأَيْكَةِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِعَذَابِ يَوْمِ الظَّلَّةِ»^(٣).

(١) المصدر نفسه، ص ٢٥.

(٢) تفسير أطيب البيان.

(٣) تفسير الفرقان، عن الدر المنثور، ج ٤، ص ١٠٣.

□ إِنَّا لَا نَطْلُبُ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى شَيْئاً، وَكُلَّ مَا يَنْعَمُ بِهِ عَلَيْنَا مِنْ نِعَمٍ إِنَّمَا هُوَ فَضْلٌ وَمِنَّةٌ مِنْهُ عَلَيْنَا، وَلِهَذَا يَكُونُ غَضَبُهُ سَبْحَانَهُ عَلَى الْكَافِرِينَ لَا اسْتِحْقَاقَهُمْ ذَلِكَ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ يُعَبِّرُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عَنْ ذَلِكَ الْغَضَبِ وَالْعَذَابِ بِالْإِنْتِقَامِ.

التعاليم:

- ١ - لَيْتَ الطُّغَاةَ وَالظَّالِمِينَ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ قَبَائِحَهُمْ وَظُلْمَهُمْ عَلَى مَدَى التَّارِيخِ سَيَكُونُ دَرْساً وَعِبْرَةً لِمَنْ يَأْتِي مِنْ بَعْدِهِمْ، ﴿وَلَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾.
- ٢ - يَا حَبِذَا لَوْ قَامَ الْمَسْئُولُونَ بِنَاءِ الطَّرُقِ بِالْقَرَبِ مِنَ الْأَمَاكِنِ التَّارِيخِيَةِ لِيَتَسَنَّى لِلْمَارَّةِ رُؤْيُهَا وَمَعْرِفَةُ أَحْدَاثِهَا، ﴿لِيَأْمُرَ مُبِينٌ﴾.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ﴾

وَأَيَّلْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَتَحَوَّنَ مِنَ الْجِبَالِ يُوَئِلُّونَ ءَامِينِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذْنَاهُمُ الصَّبِيحَةَ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾

إشارات:

□ ﴿أَصْحَابُ الْحِجْرِ﴾ هم ثمود و﴿الْحِجْرِ﴾ واديهم، وكان يقع بين المدينة والشام. والحجر (بفتح الحاء المهملة وكسرهما) حِضْنُ الْأُمِّ، و(حِجْرُ إِسْمَاعِيلَ) و(الْحُجْرَةُ) مشتقتان من ذلك^(١)، ومنه اشتق اسم هذه السورة.

□ يُسْتَفَادُ مِنْ كَلِمَةِ ﴿الْمُرْسِلِينَ﴾ أَنَّ النَّبِيَّ صَالِحاً ﷺ لَمْ يَكُنِ النَّبِيَّ الْوَحِيدَ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَى ثَمُودَ (أَصْحَابِ الْحِجْرِ) بَلْ بُعِثَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءُ آخَرُونَ، وَقَالَ الْبَعْضُ: بَلْ لِأَنَّ تَكْذِيبَ نَبِيٍّ وَاحِدٍ يَعْنِي تَكْذِيباً لِلْأَنْبِيَاءِ جَمِيعاً، وَلِهَذَا ذُكِرَتْ كَلِمَةُ ﴿الْمُرْسِلِينَ﴾ هُنَا.

□ الْمُرَادُ مِنَ «الصَّبِيحَةِ» فِي هَذِهِ الْآيَةِ هِيَ الصَّاعِقَةُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْآيَةِ (١٣) مِنْ سُورَةِ فَصَّلَتْ: ﴿فَقُلْ أَتَدْرِكُوهُ صَبَاحَةً مِثْلَ صَبَاحَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾.

التعاليم:

- ١ - الأنبياء ﷺ جميعاً جاؤوا بالمُعجزات لأقوامهم، ﴿وَأَيَّبْنَاهُمْ مَا يَتُوبْنَ﴾.
- ٢ - من أسلوب المُعاندين هو أن لا يمنحوا أنفسهم فرصة للتفكير والتدبر، ﴿وَأَيَّبْنَاهُمْ... فَكَانُوا﴾.
- ٣ - غالباً ما يُصبح الإعراض عن الحق لدى البعض وتجاهلهم لأصحاب الحق عادة مستحكمة، ﴿فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾.
- ٤ - لا يَغْتَرّ البعض بالبيوت الصخرية المنحوتة في الجبال؛ لأنها لن تصمد أمام إرادة الله ﷻ، ﴿يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا... فَأَخَذْنَاهُمُ الصَّيْحَةَ﴾.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآيَةً ۖ
فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَبِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾

إشارات:

- «الصفح»: هو وجه كل شيء، كوجه الصورة، ولذلك جاءت كلمة ﴿فَاصْفَحْ﴾ بمعنى أدير وجهك وغطّ النظر عنهم. وعن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: «﴿الْصَّفْحَ الْجَبِيلَ﴾ هو العفو من غير مواخذه»^(١).

التعاليم:

- ١ - الخلق عملية هادفة، والهدف هو الحق، ﴿وَمَا خَلَقْنَا... إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.
- ٢ - الخلق عملية هادفة طريقها المعاد، ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآيَةٌ﴾.
- ٣ - إذا لم تتمكّنوا من محاسبة الكفار فلا تيأسوا، فالقيامة آتية، ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآيَةٌ ۖ فَاصْفَحْ﴾.
- ٤ - لا بدّ من أن يكون الإيمان بالمبدأ والمعاد والأهداف الصحيحة البنية التحتية

(١) تفسير (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل).

للمسائل الأخلاقية والعفو والصفح، ﴿عَلَقْنَا... بِالْحَقِّ وَرَأَتْ السَّاعَةُ لَآئِيَةً ۖ فَاصْفَحْ﴾.

٥ - بما أن القيامة حق وأن لكل شيء حساباً وكتاباً، فلا تهتموا بحيل الكفار أو عناد المعاندين، واصفحوا عنهم، ﴿وَرَأَتْ السَّاعَةُ لَآئِيَةً ۖ فَاصْفَحْ﴾.

٦ - لاحظ أن الذي يأمر هنا بالعفو والصفح هو الله تعالى، الرب والخالق العليم، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾. (فهو يعلم بما للعفو والصفح من تأثير إيجابي في نفسية الفرد والمجتمع واجتذاب الناس وتطورهم، فلا يكونن تطبيق هذا الأمر والعمل بموجبه ثقيلاً علينا).

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الثَّنَائِي وَالْقُرْءَانِ الْعَظِيمِ﴾

إشارات:

□ جاء في الروايات السنية والشيعة أن المراد بـ ﴿سَبْعًا مِّنَ الثَّنَائِي﴾ هو سورة الحمد (فاتحة الكتاب)؛ لأن هذه السورة تُقرأ مرتين في كل صلاة من الصلوات اليومية. وفي رواية أخرى أن الله سبحانه وتعالى قال في حديث قدسي: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ»^(١)؛ فالآية الأولى ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ حتى الآية (٤) تشير إلى صفات الله ﷻ، والآية (٥) حتى آخر السورة هي بمثابة بيان لإظهار عبودية العبد واستمداده العون والدعاء.

وقال بعض إن ﴿الثَّنَائِي﴾ تعني القرآن الكريم نفسه و﴿سَبْعًا مِّنَ الثَّنَائِي﴾ بمعنى الآيات السبع من القرآن وهي سورة الحمد، ودليلهم على ذلك قوله تعالى: ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِّهًا مَّتَّانِي﴾^(٢).

□ عن الرسول الأعظم ﷺ: «مَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ قَرَأَى أَنْ رَجُلًا أُعْطِيَ أَفْضَلَ مِمَّا أُعْطِيَ فَقَدْ صَغُرَ عَظِيمًا وَعَظُمَ صَغِيرًا»^(٣).

(١) التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، الفخر الرازي، ج ١، ص ١٤٧.

(٢) سورة الزمر: الآية ٢٣.

(٣) تفسير كنز الدقائق، ج ١٩، ص ١٦٧.

التعاليم:

- ١ - التقنين والتشريع من حق الخالق المبدع، ولا بد من أن يكون التشريع قائماً على أساس التكوين، ﴿خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ... مَا يَنْتَكَ... وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾.
- ٢ - يُعتبر التكرار من المبادئ التربوية الأساس، ﴿الْمَنَانِي﴾؛ (مثل: تكرر نزول الآيات والكلمات والقصص والصفات الإلهية وآيات العذاب والمعاد ومصائر الأمم الماضية والألطف الإلهية والأوامر والتعاليم وتلاوة القرآن).
- ٣ - تُعادل سورة الحمد القرآن الكريم كله على الرغم من أن عدد آياتها لا يتجاوز السبع، ﴿سَبْعًا يَنْ الْمَنَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾.

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ
وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

إشارات:

- لا يُستخدَم النهي دائماً بعد ارتكاب العمل بل قد يكون أحياناً كتحذير وقائي.
- فالرسول الأكرم ﷺ لم تكن عنده رغبة في دنيا الكفار ولهذا فإنَّ نهي الله رسوله ههنا هو بمثابة التحذير من أجل أن لا يرغب المؤمنون بما لدى الكفار.
- عن الرسول الأعظم ﷺ: «مَنْ أَتْبَعَ بَصْرَهُ مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ كَثُرَ هَمُّهُ وَلَمْ يَشْفِ عَيْظُهُ»^(١).

- من بين أهم الوصايا التي أمر القرآن الكريم بها النبي ﷺ والمؤمنين هي اتباع اللين والرحمة والصبر مع أهل الإيمان، كقوله تعالى:

• ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾^(٢).

• ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣).

• ﴿رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ﴾^(٤).

(٣) سورة المائدة: الآية ٥٤.

(٤) سورة الفتح: الآية ٢٩.

(١) تفسير الصافي، ج ٣، ص ٣٢٧.

(٢) سورة الكهف: الآية ٢٨.

□ المراد من كلمة ﴿أَزْوَاجًا﴾ الأزواج من الرجال والنساء أو الأصناف من الناس كالوثنيين واليهود والنصارى والمجوس^(١).

التعاليم:

- ١ - اعتمدوا على قدراتكم وإمكاناتكم في مقابل قدرات الآخرين. فمن كان يمتلك القرآن الكريم ﴿أَلَيْسَ لَكَ سَبْعٌ﴾ لا يرغب في دُنيا الكفار، ﴿لَا تَدْنُ عَيْنُكَ...﴾.
- ٢ - لا تنهافتوا على نعم الدنيا وزينتها ﴿لَا تَدْنُ عَيْنُكَ﴾ لأنها قليلة وعارضة، مضافا إلى كونها ليست سوى بُرعم أو شطأ لم يفتح لأحد من البشر بشكل كامل، ﴿زَهْرَةٌ لَّحَيَوَةِ الدُّنْيَا﴾^(٢).
- ٣ - الرّغبة تولّد التعلّق والافتتان. (لا تُكثروا من النظر لثلاث نأسر قلوبكم)، ﴿لَا تَدْنُ عَيْنُكَ﴾، (لا بدّ من القضاء على المعصية والضلالة في المهد).
- ٤ - ليس باستطاعة أحد هداية الناس إلى المعنويات إلّا إذا كان هو نفسه ليس غارقاً في المادّيات، ﴿لَا تَدْنُ عَيْنُكَ﴾ - والمُخاطَب في هذه الآية هو النبي الأعظم ﷺ.
- ٥ - كلّ الذين انساقوا وراء الدنيا وملذاتها لم ينالوا ما رغبوا فيه، ﴿أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾.
- ٦ - لا تأسفوا ولا تحزنوا على مَنْ لم يكونوا أهلاً للهداية، ﴿لَا تَحْزَنْ﴾.
- ٧ - لا ينبغي التواضع للدنيا ولعبادها ولا اتباع اللين معهم، ﴿لَا تَدْنُ﴾؛ ولكن لا بأس بذلك مع المؤمنين، ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.
- ٨ - على القائد والمُربي أن يكون رؤوفاً وعطوفاً مع الناس، ﴿وَخَفِضْ﴾.

﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ (٨٩)

التعاليم:

- ١ - كما أنّ اتباع اللين والعطف مع المؤمنين والخلان ضروري ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، فإنّ الجِدّ والحسم ضروريان كذلك مع المخالفين والخصوم، ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ﴾.

(١) الميزان في تفسير القرآن، ج ١٢، ص ٩٩.

(٢) سورة طه: الآية ١٣١.

- ٢ - تقتضي الظروف أحياناً أن تكون التحذيرات مباشرة، ﴿إِنِّي أَنَا﴾.
 ٣ - لا مَفَرٍّ من التهديد والتحذير إزاء الكُفَر، ﴿أَنَا أَنذِرُ﴾.
 ٤ - لا بدّ من أن يكون التحذير صريحاً وحاسماً، ﴿الَّذِينَ يَكْفُرُونَ﴾.

﴿كَمَا أَرْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾

﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾

- أشارت معظم التفاسير إلى ثلاثة معانٍ للكلمة، ﴿الْمُقْتَسِمِينَ﴾، هي:
- (أ) المَلَأ من الكُفَر الذين كانوا يرسلون جماعات تقف عند أوّل كلّ طريق يُدخل إلى مكّة أيام الحجّ ليقولوا للحجّاج: إنّ شخصاً في مكّة يُدعى (محمّداً ﷺ) ينسب إلى نفسه ما ليس بحقّ فلا تُصغوا إليه، وما هو إلّا كاهن أو ساحر أو مجنون - والعياذ بالله.
- (ب) جماعة من الكُفَر اقتسموا المصحف في ما بينهم لتأتي كلّ مجموعة منهم بشيء من الكلام يُشبه القرآن الكريم.
- (ت) البعض من الناس ممّن يعمل ببعض القرآن ولا يعمل ببعضه الآخر.
- ﴿عِضِينَ﴾ إمّا أن يكون جَمع (عِضَة) بمعنى النزاع والمشاجرة، أو هو من (العضوة) بمعنى التقطيع والتفريق.

التعاليم:

- ١ - حبّذا لو نتعظ بالتاريخ، ﴿كَمَا أَرْزَلْنَا﴾.
 ٢ - إنّ سُنّة الله في مُعاقبة المُذنبين هي سُنّة ثابتة، ﴿كَمَا أَرْزَلْنَا﴾.
 ٣ - لا شكّ في أنّ الغضب الإلهيّ هو العقاب الأمثل للذين يجزّؤون الكتب السماوية، ﴿الْمُقْتَسِمِينَ﴾.
 ٤ - ليس تحريف الكتب السماوية أو تجزئتها من قبل الكُفَر أمراً جديداً، ﴿الْمُقْتَسِمِينَ﴾. (المؤمن من آمن بكلّ القرآن الكريم وقال: ﴿وَأَمَّا يَوْمَ كُلِّ قَوْمٍ عِنْدَ رَبِّنَا﴾^(١)، وليس من تجاهل أو أنكر بعضه).

﴿فَوَرَّيْكَ لَنَشْتَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

التعاليم:

- ١ - تعذيب الكفار في الدنيا لا يُزيل عنهم عذاب الآخرة، ﴿أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ... فَوَرَّيْكَ لَنَشْتَلَنَّهُمْ﴾.
- ٢ - السؤال والمؤاخذه من أساسيات الأسلوب التربوي، ﴿فَوَرَّيْكَ لَنَشْتَلَنَّهُمْ﴾.
- ٣ - لا شك في أن سؤال الجميع ومحاسبتهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ يوم القيامة، والاستفسار عما فعلوه ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يُمثل عاملاً من عوامل الصحو واليقظة.
- ٤ - تقتصر رسالة كل نبي على تحذير الناس وتنبئهم، أما محاسبتهم فهي بيد الله سبحانه، ﴿أَنَا النَّذِيرُ... لَنَشْتَلَنَّهُمْ...﴾.

﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾

إشارات:

□ «الصدع» هو الشق والإبانة.

□ دعا النبي ﷺ الناس إلى دينه سرّاً لمدة ثلاث سنوات متتالية فلما نزلت آية ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ بدأ بدعوة الناس جهاراً، وقال: «يا بني عبد المطلب، إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قَوْمَهُ بِأَفْضَلٍ مِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِهِ، إني قد جِئْتُكُمْ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ». فشكوه عند عمّه أبي طالب قائلين: إن محمداً ﷺ يُغَرَّرُ بِأَبْنَائِهِمْ، وأنه إذا كان يريد من ذلك مالا أو مقاماً أعطوه. فقال النبي ﷺ لعمّه أبي طالب: «والله يا عمّ لو وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الْأَمْرَ مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ أَوْ أَهْلَكَ دُونَهُ». فقال له عمّه: «اذْهَبْ فَقُلْ مَا أُخْبِيتَ فَوَاللَّهِ لَا أَسْلَمَكَ لِشَيْءٍ أَبَدًا»^(١).

التعاليم:

- ١ - تكون الدعوة على مراحل، فأحياناً تكون سرية ويتوجب عندها اتباع التقية، وأخرى تكون علنية، ﴿فَأَصْدَعْ﴾.
- ٢ - على المبلّغ وصاحب الرسالة أن لا يُعير أيّ أهمية لما يشيره مناوؤوه من حوله، ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾.
- ٣ - إذا أوكلتهم مسؤولية كبيرة أو مهمة صعبة إلى شخص ما، عليكم أن توقروا له الحماية والأمان، ﴿فَأَصْدَعْ... إِنَّا كَفَيْنَاكَ﴾.
- ٤ - لا ريب في أنّ الحماية التي يمنحها الله سبحانه أكيدة ومضمونة، ﴿كَفَيْنَاكَ﴾.
- ٥ - كلّ حديث حق ومنطقي له معارضون ومكذبون، ﴿الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾.
- ٦ - إذا استهزأ بك قومك يا محمد ﷺ فلا تبتس ولا تحزن لأن هؤلاء لم يرقبوا حتى حدود الله، ﴿يَجْمَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾.
- ٧ - إنّ الذين يتخذون آلهة غير الله سبحانه سيعلمون ما هم فيه من الضلال البعيد، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ (٩٧)

فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

إشارات:

□ اشتهر بين المفسرين أنّ المراد من كلمة ﴿الْيَقِينُ﴾ في هذه الآية هو الموت باعتبارها أكثر الأمور يقيناً عند البشر، وإلى هذا المعنى تشير الآيتان (٤٦) و(٤٧) من سورة المدثر على لسان الكفار بقولهم: ﴿وَكَا كَذِبُ يَوْمِ الَّذِينَ حَتَّىٰ أَتَنَّا الْيَقِينَ﴾. وعلى الرغم من ذلك فإنّ معنى ﴿الْيَقِينِ﴾ ليس الموت لكنّ هذا الأخير يبقى عامل أساس لليقين والتأكيد، فعند حضوره ودنوّه تُزاح به جميع الحُجُب عن عين الإنسان ليرى ما لم يكن يراه من قبل.

□ اتّخذ بعض الضالين آية ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ ذريعة لهم فقالوا: ما فائدة العبادة وقد أتى اليقين؟ وهؤلاء يجهلون أنّ الله سبحانه يُخاطب في هذه

الآية نبيّه الكريم ﷺ الذي كان قد توصّل إلى اليقين منذ بداية عهده بالوحي، وهو الذي كان يقول للكفار على الرغم من تهديدهم له وتوعددهم به: «لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي - وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي مَا أَرَدْتُهُ»^(١)، وظلّ يعبد ربّه مع ذلك اليقين حتى آخر لحظة من عمره الشريف.

التعاليم:

- ١ - إذا عَلِمَ كُلُّ مَنَّا بِأَنَّ الله سبحانه ناظر لما نُعَانِيهِ وعَالِمٌ بِهِ، هَانَتْ عَلَيْنَا المشاكل كُلُّهَا، ﴿تَعَلَّمُ﴾.
- ٢ - طاقة كُلِّ البشر وقدراتهم محدودة بما فيهم الأنبياء ﷺ، ﴿يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾.
- ٣ - تؤدّي اللجاجة والعناد أحياناً إلى أن يضيق صدر أكثر الأفراد تحملاً وصبراً، ﴿يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾؛ على الرغم من قوله تعالى لرسوله الكريم ﷺ: ﴿وَإِنْ أَرَادَتْكَ شَرْحَ لَكَ صَدْرُكَ﴾.
- ٤ - لَمْ يَضِقْ صدر النبي ﷺ لا في الحروب ولا في المعارك، لكنّه لم يتحمّل كلام المشركين الجارح، ﴿يَضِيقُ صَدْرُكَ يَمَا يَقُولُونَ﴾.
- ٥ - الصلاة وتسبيح الله تعالى وحمده هي الدّواء الناجع للضغوط النفسية، ﴿يَضِيقُ... فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ... وَأَعْبُدْ﴾. وفي رواية نقلاً عن ابن عباس (رضي الله تعالى عنه) أنّه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أُخْزِنَهُ أمر فَرَزَعَ إلى الصّلاة^(٢).
- ٦ - الاستمرار في العبادة أهمّ من العبادة نفسها، ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾.
- ٧ - الثبات على العبودية الحقّة عامل من عوامل الوصول إلى اليقين، ﴿وَأَعْبُدْ... يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾.

«والحمد لله ربّ العالمين»

(١) تفسير القمي، ج ٢، ص ٢٢٩.

(٢) الأئمة في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٧، ص ١١٩.

سورة النحل



سُورَةُ النَّحْلِ

السورة: ١٦ الجزء: ١٤

عدد الآيات: ١٢٨



سورة النحل



ملاحح سورة النحل

هي السورة السادسة عشرة من سور القرآن الكريم وتتألف من (١٢٨) آية. سُميت بسورة النحل؛ لأنها تتحدث عن خلق نحل العسل.

ومع أن القرآن الكريم هو في الأصل كتاب تشريعي إلا أن أسماء معظم سُوره موضوعة على أساس تكويني، مثل سورة النجم والشمس والفيل والعنكبوت والنحل. وتشير هذه الأسماء إلى أن جميع المخلوقات سواء أكانت في الأرض أم في السماء، أو كانت صغيرة الحجم أو ضخمة الجسم، لا فرق بينها بالقياس إلى قدرة الله ﷻ، وأن كتاب الشريعة مطابق لكتاب الطبيعة، وهذان الكتابان لهما منشأ واحد.

ومن بين الأسماء التي تُطلق على سورة النحل كذلك هي سورة النعمة؛ لأنها تشير إلى حوالى خمسين نعمة من نعم الله، مضافاً إلى أن آياتها تشير كذلك إلى دلائل التوحيد والمعاد وأحكام الجهاد وتهديد المشركين والنهي عن الظلم والفحشاء، ونقض العهود والبدع ووساوس الشيطان الرجيم.

واستناداً إلى ما ذكره المرحوم العلامة الطباطبائي في تفسير «الميزان»^(١) حول سبب نزول هذه السورة، يتبين لنا أن الآيات الأربعين الأولى من هذه السورة نزلت في أواخر عهد النبي ﷺ بمكة قبيل هجرته إلى المدينة، أما بقية آياتها (٨٨ آية) فقد نزلت في بداية الهجرة إلى المدينة المنورة.

(١) الميزان في تفسير القرآن، ج ١٢، ص ١٠٤.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَنَّهُ أَمْرٌ أَلَّهُ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(١)
يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾^(٢)

إشارات:

□ يشير ظاهر الآية إلى موضوع استعجال الكفار نزول العذاب الإلهي، لكن جملة ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ أَلَّهُ﴾ لا تقتصر على نزول عذاب الله بل تشمل جميع أوامر الله قاطبة كالأمر بالجهاد وأمر ظهور إمام الزمان عليه السلام والأمر ببدء يوم القيامة؛ إذ تأمرنا الآية الشريفة بعدم استعجال أي من تلك الأمور.

□ ﴿الرُّوحُ﴾ هو اسم أحد الملائكة المقربين الذي ورد اسمه في القرآن الكريم إما لوحده أو بمعية الملائكة الآخرين، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ﴾^(١)، و﴿تَمُجُّ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾^(٢)، و﴿نُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ﴾^(٣). لكن في هذه الآية ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ﴾ تم استخدام حرف (الباء) بدلاً من (واو) العطف، وقد يكون السبب في ذلك هو أن المقصود بـ﴿الرُّوحِ﴾ ليس الملاك الذي أشرنا إليه، بل المقصود هو المعنى اللغوي للروح أي الحياة المعنوية، فيُصبح معنى الآية هو: يُنَزِّلُ الله تعالى الملائكة بأسباب الحياة على مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾^(٤)؛ إذ إن المراد بالروح هنا هو القرآن الكريم الذي يُعتبر أساس الحياة المعنوية، وقوله تعالى: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾^(٥).

(١) سورة الشورى: الآية ٥٢.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٢٤.

(١) سورة النبا: الآية ٣٨.

(٢) سورة المعارج: الآية ٤.

(٣) سورة القدر: الآية ٤.

التعاليم:

- ١ - أوامر الله ﷻ قاطعة ونزول غضبه حتمي لا مردّ له ﴿أَنَّهُ أَمْرُ اللَّهِ﴾، و﴿أَنَّهُ﴾ فعل ماض ومعنى ذلك (وَكأنّ العذاب نازل بالفعل).
 - ٢ - الله تعالى خير مَنْ يَفِي بوعوده، ﴿أَنَّهُ أَمْرُ اللَّهِ﴾. وفي الآية (١٠٩) من سورة البقرة والآية (٢٤) من سورة التوبة (البراءة) كان الله سبحانه قد وعد نبيه ﷺ قائلاً: ﴿حَقَّ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾، وهنا يقول سبحانه: ﴿أَنَّهُ أَمْرُ اللَّهِ﴾.
 - ٣ - لا تستجعلوا أمر الله تعالى فكلّ أفعاله حكيمة ولا تُنْفَذْ إلّا في الوقت المُحَدّد لها، ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾.
 - ٤ - لا ريب في أنّ نزول الوحي ومضمون ذلك الوحي والشخص الذي يتلقّى الوحي، كلّ ذلك وغيره خاضع لإرادة الله ﷻ، ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾.
 - ٥ - الرسالة منصب تعييني وليس اكتسابياً، ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾. ولما كان الله سبحانه حكيماً فإنه لا يختار أحداً للنبوّة بشكل اعتباطي، ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾^(١).
 - ٦ - روح العبوديّة والخضوع لله لدى الأنبياء ﷺ هو الشرط الأوّل لنزول الوحي عليهم، ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾.
 - ٧ - يقع تحذير الناس وتنبههم على رأس قائمة الواجبات التي أنيطت بالأنبياء، ﴿أَنْ أُنْذِرُوا﴾.
 - ٨ - التوحيد أساس العقيدة والتقوى أساس العمل الصالح، ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾.
 - ٩ - يتجلّى معنى التقوى والعفة في ظلّ التوحيد، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾.
- ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾
﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾

إشارات:

□ الآية (٤) أعلاه تشبه الآية (٧٧) وبعضاً من الآية (٧٨) من سورة (يس):

﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾.

□ وفي آيات أخرى مثل الآية (٢٠) من سورة المُرسلات: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ يُسَمَّى القرآن الكريم النُطفة بـ ﴿مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾، فكيف يجرؤ هذا (الماء المَهِين) على أن يكون خصيماً مبيناً.

التعاليم:

- ١ - لم تُخلَق السموات والأرض اعتباراً أو باطلاً، بل خُلِقت بالحق، ﴿خَلَقَ... بِالْحَقِّ﴾.
- ٢ - أي صَنَم أو مَعْبُود يُمكنه أن يكون شريكاً لله في خلقه، ﴿خَلَقَ...﴾.
- ٣ - ينبغي أن تكون محاربة الشُّرك دائمة ومستمرّة؛ لا حِظ تكرار جملة ﴿تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ في الآيتين الأولى والثالثة.
- ٤ - قد يصل الغرور والتكبر بالإنسان مبلغاً بحيث يُصبح عنده خصماً مبيناً وعدواً لدوداً لخالقه، ﴿خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾.

﴿وَالْأَنَّمَا خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝
وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝﴾

إشارات:

- «تسرحون»: يُقال: سَرَحْتُ الماشية، أي أَخْرَجْتُهَا بِالْعِدَاةِ إِلَى المَرعى؛ و«ترجّون» أي تعودون من رَعِيكم مع أنعامكم إلى منازلكم.
- كثيرة هي المنافع التي تمنحها الماشية والحيوانات للإنسان، منها اللَّبَن واللحوم كطعام له، ثم جلودها وصوفها ووبرها لصناعة الألبسة والأحذية وغير ذلك، بالإضافة إلى أنها تُسْتَخْدَم كركاب للبشر وتحمل له أمتعته وأثقاله، واستعمال بعضها كالثيران والجواميس للحرث، بل وحتى فضلاتها يُسْتَفَاد منها كسماد حيواني. وعلى الرغم من كلّ ما تقدّمه تلك الحيوانات من منافع وخدمات للإنسان فهي لا تكلفه سوى الشيء القليل.

□ تذكر الروايات أن أفضل عمل بعد الزراعة هو تربية وتدجين المواشي والحيوانات، لكن بشرط أن تدفع الزكاة منها لمساعدة المحرومين والمحتاجين.

التعاليم:

- ١ - خُلِقَتْ مُعْظَمُ ذَوَاتِ الْأَرْبَعِ لخدمة الإنسان (كغيرها من الحيوانات الأخرى)، ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ﴾.
- ٢ - لا شك في أن ملاحظة تلك النعم كلها تدفع الإنسان إلى حُبِّ خالقه وإخلاص العبودية له، ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ﴾.
- ٣ - ليس الاقتيات بالأعشاب هو الأصل؛ لأن الله سبحانه يُشير إلى أكل لحوم الحيوانات على أنه واحد من النعم التي وهبها للإنسان، ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.
- ٤ - جمال المجتمع هو في أن يكون مستقلاً ومُكتفياً ذاتياً ومُنتجاً ومُصدراً لأنواع الزراعة الحيوانية، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ﴾.
- ٥ - يُعتبر كلٌّ من التجمّل والتزيّن من الاحتياجات الطبيعية للفرد والمجتمع على السواء، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾.
- ٦ - يكمن جمال المجتمع في حركته ومثابرتة لا في الركون والخمول؛ وينبغي أن تكون الحركة جماعية لا فردية، ﴿فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ﴾.
- ٧ - الجمال ما خَدَمَ الناس لا ما اكتُفِيَ به لإشباع البطون فقط؛ الجمال هو الانضواء والسير تحت لواء راعٍ عاقل وأمين، لا التسيّب والتخبّط، ﴿جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾.

﴿وَتَحْمِلُ أُنْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّئِنْ تَكُونُوا بِلَاغِهِ إِلَّا سِيقَ الْأَنْفُسُ

إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَّوْفٌ رَّحِيمٌ﴾ (٧)

التعاليم:

- ١ - على الرغم من أن المواشي والأنعام هي أقوى من الإنسان إلا أن الله ﷻ سَخَّرَهَا للإنسان وجعلها مطيعة له، ﴿وَتَحْمِلُ أُنْقَالَكُمْ﴾.

٢ - كما ذكرنا، فإنّ المواشي والأنعام تُمثّل عاملاً من عوامل الرفاهية في حياة الإنسان، ﴿إِلَّا يَشِقُّ الْآتُسُ﴾. (ولكي نبين قيمة تلك النعم ونُظهر فوائدها الجمة، فإننا نطرح هذا السؤال: «ما الذي كان سيحصل لو لم تكن تلك الحيوانات موجودة أو مخلوقة أصلاً»؟)

٣ - إِنَّ نِعَمَ اللَّهِ سبحانه وتعالى على البشر نابعة من لطفه ورحمته لا على أساس استحقاقنا، ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

إشارات:

□ «الْخَيْلُ» والخِيَل والخِيلاء والخِيلاء: الكِبَر؛ والخَيْل: الخيول. ولا شك في أنّ الفروسية تبعث على الشعور بالكِبَر والزَّهْو. «والبغال» جمع بَغْل وبَغلة، وهو هذا الحيوان السَّحَاج الهجين من الفرس والحمار، و«الحمير» جمع حِمَار، وهو الْعَيْرُ الْأَهْلِيّ والوحشي، وجمعه حَمِيرٌ.

التعاليم:

١ - يُعتبر نقل المسافرين والأحمال والأثقال من بين أهمّ الاحتياجات الأساسية للبشر، وقد خلق الله ﷻ الحيوانات الخاصة بنقل الإنسان وحمله وأثقاله وسخَّرها له لهذا الغرض، ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾.

٢ - ركوب الحيوانات والدواب يبعث الراحة والسعادة في الإنسان إضافة إلى كون تلك الحيوانات عاملاً من عوامل الزينة والجمال، ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾.

٣ - الزينة أو التزيّن حاجة فطرية لدى الإنسان، ﴿زِينَةً﴾.

٤ - المنفعة الأساس من أيّ دابة هي الركوب ثمّ التزيّن ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾؛ (خلافًا لما يُخيّل لبعض الأشخاص من أنّها للجمال والزينة فقط ويجعلون ذلك هو الهدف الرئيس من امتلاك الدواب).

٥ - يخلق الله تعالى ما يشاء، ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٦ - إِنَّ وَسَائِلَ النَّقْلِ الْحَدِيثَةَ كَالسِّيَّارَاتِ وَالْقَطَارَاتِ وَالطَّائِرَاتِ، هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ مَخْلُوقَاتُ اللَّهِ ﷻ لَا الْإِنْسَانَ، ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَّيْنَكُمُ أَجْمَعِينَ﴾ (١)

إشارات:

□ من الأمور التي أوجبها الله سبحانه وتعالى على نفسه إرشاد الناس وهدايتهم، إذ يقول ﷻ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ (١) وفي هذه الآية الشريفة يقول سبحانه: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾.

□ الـ"قصد": استقامة الطريق؛ من قَصَدَ يَقْصِدُ قصداً، فهو قاصِدٌ؛ ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾، أي على الله تبين الطريق المستقيم والدعاء إليه بالحجج والبراهين الواضحة. ومن وصايا لقمان لابنه قوله: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ (٢)؛ أي توسط واعتدل فيه بين الدبيب والإسراع ولا تعجل.

التعاليم:

١ - إلى جانب النِّعَمِ المَادِّيَةِ التي ذُكِرَتْ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ، لَا يَنْبَغِي أَنْ نَنْسِيَ النِّعَمَ الْمَعْنَوِيَّةَ كَذَلِكَ وَأَهْمَهَا الْهُدَايَةُ، ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾.

٢ - يُبَيِّنُ اللَّهُ تَعَالَى سَبِيلَ الْهُدَايَةِ وَالِاسْتِقَامَةِ، أَمَّا السُّبُلُ الْمُتَفَرِّقَةُ وَالضَّالَّةُ فَنَحْنُ صَانِعُوهَا، ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ﴾.

٣ - إِنَّ اللَّهَ ﷻ لَا يُجْبِرُ أَحَدًا عَلَى الْإِيمَانِ، وَأَمَّا ضَلَالُ بَعْضِ النَّاسِ فَلَيْسَ دَلِيلًا عَلَى تَغْلِبِ إِرَادَتِهِمْ عَلَى إِرَادَةِ اللَّهِ أَوْ عَجْزِ الْبَارِئِ تَعَالَى عَنْ هِدَايَتِهِمْ، ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَّيْنَكُمُ أَجْمَعِينَ﴾.

٤ - تَرَكَّ اللَّهُ تَعَالَى الْإِنْسَانَ حُرًّا فِي اخْتِيَارِ طَرِيقِهِ، ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَّيْنَكُمُ أَجْمَعِينَ﴾.

(١) سورة الليل: الآية ١٢.

(٢) سورة لقمان: الآية ١٩.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ
وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾﴾

إشارات:

□ ﴿تُسِيمُونَ﴾؛ أي تَرْعُونَ مواشيكم وإيلكم في المراعي. و﴿شَجَرٌ﴾ كلمة عامة في اللغة العربية تشمل جميع أنواع النباتات من الشجرة حتى العشب. قال تعالى في الآية (١٤٦) من سورة الصافات: ﴿شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ﴾ وهو القَرْع، على الرغم من أن اليقطين لا يقوم على ساق.

التعاليم:

- ١ - هطول الأمطار ليس أمراً اعتباطياً أو بالصدفة، بل هو نازل بإرادة الله سبحانه، ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ...﴾.
- ٢ - تهطل الأمطار وفقاً لما يحتاجه الإنسان، ﴿لَكُمْ﴾.
- ٣ - يَنْتَفِعُ كُلٌّ مِنَ الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانَ وَالنَّبَاتِ مِنْ مَاءٍ وَاحِدٍ، ﴿مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ...﴾.

﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَبَ
وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾

إشارات:

□ أشار الله سبحانه وتعالى إلى الزيتون والتمر والعنب في هذه الآية من بين كل أنواع الفاكهة والثمار المعروفة. ويقول المختصون بالتغذية: إنّ هذه الفاكهة بالذات تُعتبر من أندر الأنواع التي تقدّم لجسم الإنسان الكثير من الفوائد، بل وتُعدّ من ضروريات الغذاء للإنسان^(١). وفي الآية (٣٥) من سورة النور يُسمّى

(١) راجع كتاب: أولين دانسگاه وآخرين پیامبر (= أول جامعة وآخر نبي)، الجزء السابع، بيان خواص العنب والتمر.

القرآن الكريم الزيتون ﴿شَجَرَةً مُّبَارَكَةً زَيْتُونَةٍ﴾ ذاكراً كذلك الزيت المُسْتَخْلَص منه.

التعاليم:

- ١ - إنبات النباتات على اختلافها لا يكون إلا بإذن الله سبحانه لا بمزاج المزارع، ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ﴾.
- ٢ - خلقت النباتات والأشجار والفواكه بأنواعها من أجل أن ينتفع بها الإنسان، ﴿لَكُمْ﴾.
- ٣ - تمثل المحاصيل والأثمار علامة على سلوك الطريق لا المقصد، ﴿لَايَةً﴾.
- ٤ - رؤية الوجود والتعرف على مكنوناته غير كافيين، بل لا بد من التفكير والتدبر فيه، ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْجُودُ
مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّكَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١٢)

إشارات:

□ المقصود بتسخير الشمس والقمر هو انتفاع الإنسان منهما لأن الله تعالى وضعهما لخدمته وتطوره وكماله؛ لكن لا يحق للإنسان اعتبار نفسه مالكا أو مدبراً لأموالهما.

التعاليم:

- ١ - الوجود بكل ما فيه من سماء وأرض مخلوق لأجل الإنسان، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ...﴾.
- ٢ - الله سبحانه يُمسك بالوجود وما يحتوي عليه، ﴿مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾.
- ٣ - لا شك في أن المنافع التي يقدمها الوجود لا تكون إلا بأمر الله ﷻ، ﴿بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾.
- ٤ - نظام الخلق مدرسة للتوحيد، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾.
- ٥ - نظام الوجود مهد التطور والتعقل لأولي الألباب فقط، ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ (١٣)

التعاليم:

- ١ - خلق الله تعالى الألوان بكلّ أطيافها للإنسان وسخرها له، ﴿ذَرَأَ لَكُمْ... مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا﴾.
- ٢ - تنوع الألوان واختلاف أشكالها دليل على قدرة الله سبحانه وحكمته، ﴿لَآيَةً﴾. فكلّما كانت منتجات المصنع متنوعة ومختلفة دلّ ذلك على إبداع المصنّع وابتكاره.
- ٣ - يُعتبر تنوع الألوان الزاهية نعمة من نعم الله تعالى للتفريق بين الأشخاص والمنتجات القريبة الشبه من بعضها، ﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا
وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَازِرَ فِيهِ
وَلَتَسْتَغْفُوا مِنْ نَفْسِهِ وَلَمَّا لَكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٤)

إشارات:

- «مواخر» جمع (ماخرة) بمعنى السفن، من مَخَرَ مَخْرًا وَمُخَوْرًا، الشَّقْ يَمْنَة ويسرة.
- لا يخفى ما للبحر من أثر بالغ في حياة الإنسان، فمياهه مصدر التبخير الذي تتكوّن منه السُحُب ثم نزول الأمطار، وأعماقه تزخر بما لذّ وطاب من أنواع الطعام من الأسماك، أما سطحه فيُمثّل أرخص وأعظم وسيلة لانتقال المسافرين ونقل الحمولة من مكان إلى آخر؛ وما ذلك كلّهُ إلّا بتدبير الله سبحانه وقدرته ولا دور للإنسان في أيّ منها إطلاقاً.

التعاليم:

- ١ - سَخَّرَ الله ﷻ البحار والمحيطات للإنسان على الرغم من عظمتها وهيبته، ﴿سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾.

- ٢ - يُمَثِّلُ البحر أهمَّ مصدرٍ للبحوم الطازجة والصحيَّة، ﴿لَحْمًا طَرِيًّا﴾.
- ٣ - لا تقتصر نِعَمُ الله تعالى على الإنسان من البحر على جعله مصدراً لاحتياجاته الأساس كالـمياه والطعام، بل وكذلك جعل له منه زينة وحلية يرتديها الإنسان، ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾.
- ٤ - يُعْتَبَرُ البحر أكبر مصدر لأنواع الحلي الطبيعية التي يستخدمها الإنسان، ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾.
- ٥ - اللحوم الطازجة التي ينتجها البحر هي بحدِّ ذاتها ذات قيمة عظيمة، ﴿لَحْمًا طَرِيًّا﴾.
- ٦ - مع أنَّ الإنسان هو الذي يسعى إلى تحصيل رزقه من الغذاء فإنَّ الله سبحانه وتعالى هو الرزاق، ﴿وَلْيَسْتَعْمِلُوا مِنَ فَضْلِهِ﴾.
- ٧ - ينبغي للسعادة أن تكون هادفة، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ فِي الْأَرْضِ رَوًى أَنْ يَمِيدَ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ أَنْ يَمْدُدَ إِلَيْكُمْ يَدَهُ﴾

إشارات:

- تُمَثِّلُ الجبال أوتاداً تُثَبِّتُ الأرض وتمنعها من أن تميد، و«تميد» من ماد الشيء يَمِيدُ مَيْدًا: تحرَّك وما لَ يَمِينًا ويسارًا. ومعنى جملة ﴿أَنْ يَمِيدَ بِكُمْ﴾ هو أنَّ الله سبحانه وتعالى خلق الجبال لتُثَبِّتُ الأرض وتمنعها من الاهتزاز والاضطراب.
- عن أمير المؤمنين علي عليه السلام يَصِفُ الأرض وفائدة الجبال عليها: «... عَدَلَّ حَرَكَاتِهَا بِالرَّاسِيَّاتِ مِنْ جَلَامِيدِهَا، وَذَوَاتِ الشَّخَاخِيصِ الشُّمِّ مِنْ صَيَاخِيدِهَا»^(١).
- كما أنَّ الأرض بحاجة إلى الجبال لتُثَبِّتَها وتمنع اضطرابها وميلانها، فإنَّ الإنسان المُضطرب بحاجة كذلك إلى أولياء ربَّانِيَّين أقوياء قادرين على إزالة اضطرابه ومنحه الأمان والاستقرار والثبات. وورد في تفسير (نور الثقلين):

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٩٠ - وهي الخطبة المعروفة بخطبة (الاشباح).

«كذلك يجري لأئمة الهدى واحداً بعد واحد إذ جعلهم الله أركان الأرض أن تَمِيدَ بأهلها»^(١).

□ تؤدي الجبال دوراً كبيراً في حياة البشر، فالثلوج التي تتجمع على قمم الجبال وسفوحها في فصل الشتاء تُعتبر مصدراً رئيساً لمياه الأنهار والجداول في فصل الربيع عند ذوبانها، إضافة إلى كون أشكالها المختلفة تشكّل علامات للتعرف إلى السُّبُل والممرات التي ترشد المسافرين، ولن نشعر بتلك الفوائد كلّها إلا عندما نفترض الأرض مسطحة وخالية من التضاريس أو ما على سطحها من مرتفعات ومنخفضات.

التعاليم:

- ١ - ليست الجبال ولا وجودها على سطح الأرض صدفة محضة بل هي تدبير إلهي حكيم، ﴿وَأَلَقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوْسًا﴾.
- ٢ - بإمكان الجبال أن تحول دون اضطراب الأرض أو تحركها وتمنحها السكون والثبات لأنها ثابتة وقوية، ﴿رَوْسًا أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾. (فالشخص الثابت القويّ هو الذي يمكنه منع الآخرين والمجتمع من أن يتعرضوا للتزعزع أو الاضطراب).
- ٣ - تعمل سفوح الجبال المائلة على تسهيل جريان الماء إلى الأنهار، ﴿أَنْهَرَا﴾.
- ٤ - خلافاً لما يُعتقد، فإنّ الجبال ليست عائقاً أمام الطرق والممرات بل هي علامات ترشدنا إلى الطرق، ﴿سُبُلًا لَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.
- ٥ - تُعتبر الجبال عاملاً للهداية الظاهرية والمعنوية معاً، ﴿لَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾. (فالجبال هي أفضل العلامات المُميّزة للاهتمام في البراري والقفار، وكذلك أفضل السُّبُل لمعرفة الله سبحانه وتصور عظمة الخالق وقدرته).

﴿وَعَلَّمَكُم مَّا يَكُن لَّكُمْ فِيهَا مَعْلَمٌ ۖ وَتُسَبِّحُونَ﴾

إشارات:

□ يحتاج الإنسان إلى بعض العلامات للسير والاهتداء في الصحارى والقفار، كالعلامات الطبيعية التي يمكنه الاعتماد عليها في النهار والنجوم التي تُمثل وسائل الاهتداء أثناء الليل. وقد أشار الله تعالى في هذه الآية إلى هاتين العلامتين.

□ لا يحتاج الإنسان إلى العلامات الضرورية للتعرف على الطرق الصحيحة في البراري وحسب، بل وكذلك لمعرفة الحق والباطل وتمييزهما عن بعضهما البعض في خضم الأهواء والغرائز وأنواع الطاغوت. وقد بين الرسول الأعظم ﷺ العلامات التي يمكن للناس الاهتداء بها بعد رحيله لكي لا يقعوا في الحيرة والضلال، وأكد لهم أنهم إذا تمسكوا بتلك العلامات ولم يحيدوا عنها فإنهم لن يضلوا بعده أبداً. وأول تلك العلامات هي الزهراء البتول ﷺ إذ قال ﷺ بشأنها: «فَاطِمَةُ بِضْعَةٌ مِنِّي، يُرْضِينِي مَا يُرْضِيهَا وَيُغْضِبُنِي مَا يُغْضِبُهَا»^(١). والعلامة الثانية هو أبو ذر الغفاري الذي قال عنه النبي ﷺ: «مَا أَظْلَمَ الْخَضِرَاءُ وَلَا أَقْلَمَ الْغُبَرَاءُ عَلَى ذِي لَهْجَةٍ أَصْدَقُ مِنْ أَبِي ذَرٍّ»^(٢) لكي يتبع الناس مَنْ يُزَكِّيهِ أبو ذر ويروا مَنْ تسبب في إبعاده عن المدينة حتى توفي.

أما العلامة الأخرى فهي في قوله ﷺ لِعَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ: «تَقْتُلُكَ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ»^(٣)، وقد تبين للمسلمين أنَّ الفتنه الباغية التي استشهد عمار على يدها في حرب صفين هي جماعة معاوية بن أبي سفيان.

لكن أهم العلامات التي أشار إليها النبي ﷺ هي الإمام الحسين ﷺ الذي قال عنه: «حُسَيْنٌ مِنِّي وَأَنَا مِنْ حُسَيْنٍ»^(٤)، وقال الإمامان الهمامان الصادق والرضا ﷺ: «نَحْنُ الْعَلَامَاتُ وَالتَّجَمُّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ»^(٥).

(١) بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٢٣٦.

(٤) بحار الأنوار، ج ٣٧، ص ٧٤.

(٢) تفسير القمي، ج ١، ص ٥٣.

(٥) أصول الكافي، ج ١، ص ٢٠٧.

(٣) بحار الأنوار، ج ١٨، ص ١٢٤.

□ تُعتبر النجوم علامات للتعرف إلى جهة القبلة والاهتداء في عرض البحر والصحارى والفلوات في الليل حيث لا وجود لأي علامة أفضل منها.

التعاليم:

- ١ - هل يُمكن لأيّ ذي لُب أن يقول: إنّ الله سبحانه وضع علائم لهداية الناس دنيويّاً لكنّه - حاشا له - أغفل عن هدايتهم معنويّاً؟ ﴿وَعَلَّمَنَّا... يَهْتَدُونَ﴾.
- ٢ - أولى الإسلام اهتماماً كبيراً بعلم الفلك والنجوم، ﴿رَبِّالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (١٧)

إشارات:

□ بدءاً من الآية الأولى من سورة النحل وحتى الآن فإنّ الآيات الخمس عشرة الماضية أشارت إلى بعض نِعَم الله تعالى، وفي هذه الآية يمكن الخلوص إلى نتيجة واحدة عامّة وعلى شكل سؤال: «هل يمكن أن يتساوى مَنْ يستطيع خَلْق كلّ شيء مع الأصنام والأوثان التي لا تمتلك أيّ قدرة على فعل أيّ شيء. لماذا يلهث البعض وراء تلك المُسمّيات بدلاً من اللّجوء إلى الله سبحانه؟»

التعاليم:

- ١ - عند قيامكم بالتبليغ ابدأوا بالجزء ثمّ الكلّ. أي، قدّموا بعض النماذج في البداية ثمّ حاولوا استخلاص نتيجة عامّة. فبعد أن ذكر الله سبحانه بعض نِعَمه في (١٥) آية، يقول في هذه الآية الشريفة: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾.
- ٢ - اجعلوا ضمير المُقابل عند تبليغكم هو الذي يحكم بعد أن تُوقظوا عقله وفطرته، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.
- ٣ - لا تضادّ أبداً بين العقل والوحي، وكلّ ما أتى به القرآن الكريم لا يتعارض مع العقل، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

- ٤ - إِنَّ عَمَلِيَّةَ الْخَلْقِ لَمْ تَكْتَمَلْ وَلَمْ تَنْتَهَ بَعْدَ، بَلْ هِيَ عَمَلِيَّةٌ مُسْتَمِرَّةٌ، ﴿يَخْلُقُ﴾.
 ٥ - لَا شَكَّ فِي وَجُودِ عُنْصُرِ مَعْرِفَةِ اللَّهِ وَالْعِبَادِيَّةِ لَهُ فِي أَعْمَاقِ الْفِطْرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَلَا يَحْتَاجُ الْأَمْرُ سِوَى إِلَى التَّذْكِيرِ فَقَطْ، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

إشارات:

□ ورد ما يُشبه هذه الآية في سورة إبراهيم عليه السلام في الآية (٣٤)، إِلَّا أَنَّهَُا اخْتُصِمَتْ هُنَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾، أَمَّا هُنَا فَقَدْ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي آخِرِ الْآيَةِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فِي إِشَارَةٍ وَاضِحَةٍ إِلَى أَنَّ نِعَمَ اللَّهِ عليه السلام دَلِيلٌ عَلَى لُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ، لَكِنَّ الْإِنْسَانَ يَتَعَمَّدُ الْكُفْرَ بِتِلْكَ النِّعَمِ وَالْحَاقِ الظُّلْمَ بِنَفْسِهِ وَبِالْمَجْتَمَعِ كَكُلِّ.

□ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ لَيْسَ بِاسْتِطَاعَةٍ أَيِّ مَخْلُوقٍ عَدَّ نِعَمَ اللَّهِ لَكِنْ لَا بَدَّ لَهُ مِنْ تَذَكُّرِهَا وَعَدَمِ نِسْيَانِهَا أَوْ تَجَاهُلِهَا، وَهُوَ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ تَعَالَى فِي الْآيَةِ (١١) مِنْ سُورَةِ الصَّحَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَمَّا يَنْعِمَ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، وَجَاءَ فِي الزِّيَارَةِ الْمَعْرُوفَةِ بِـ «أَمِينَ اللَّهُ»: «ذَاكِرَةً لِّسَوَابِغِ آلَائِكَ».

□ لَا حِظَّ أَنَّ الْإِنْسَانَ عَاجِزٌ حَتَّى عَنْ حِسَابِ نِعَمِ اللَّهِ وَعَدَّهَا فَمَا بِالْكَ بِأَدَاءِ شُكْرِ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا!

لَيْسَ لِلْمَرْءِ إِلَّا أَنْ يَقْدَمَ اعْتِزَالُهُ
 إِلَى اللَّهِ وَيُعْتَرِفَ لَهُ بِالتَّقْصِيرِ
 فَمَا مِنْ أَحَدٍ يَسْتَطِيعُ أَدَاءَ الشُّكْرِ
 عَلَى نِعَمِهِ وَإِنْ بَالِغٍ فِي الْمَدْحِ وَالتَّقْدِيرِ

التعاليم:

- ١ - عَلَيْنَا أَنْ نَشْكُرَ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى مَا نَعْرِفُهُ عَلَى الْأَقَلِّ مِنْ نِعَمِهِ فَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوتُ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ (١٩)

التعاليم:

- ١ - لا يختلف علم الله سبحانه من شيء إلى آخر سواء أكان ظاهراً أم مُستتراً، ﴿مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.
- ٢ - إذا آمنا بأن الله سبحانه عليم بكل ما نفعله توجب علينا أن نكون مُتقين، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾.
- ٣ - إن الله ﷻ عليم بنياتنا ونوايانا كذلك، ﴿يَعْلَمُ مَا تُسْرُوتُ﴾.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (٢٠)
 ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (٢١)

إشارات:

□ وصف الله تعالى الأصنام والأوثان بأنها ميتة ﴿أَمْوَاتٌ﴾ وهي صفة تُطلق على الموجودات الحية، وذلك لأن الكُفَّار كانوا يصنعون تلك الأصنام على هيئة الإنسان لشعورهم بأنها أجسام حية مثلهم، تشعر كما يشعرون وتحس بما يُحسّون به.

□ يتوجب تكرار الموضوع باستمرار على الجاهل علّه يصحو. لاحظ أن الآية ذكرت كلمة ﴿أَمْوَاتٌ﴾ مع عبارة ﴿غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ مع أن معناهما واحد.

التعاليم:

- ١ - الأصنام لا تمتلك قدرة ولا حياة ولا شعوراً ولا علماً (في حين أن من شروط المعبود - كما هو معلوم - أن يكون ذا علم وقدرة وحياة)، ﴿لَا يَخْلُقُونَ... أَمْوَاتٌ... وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.
- ٢ - كل معبود غير الله سبحانه ميت غير حي أي كان، ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾.
- ٣ - حتى الأصنام ستبعث يوم القيامة، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾. وقال ﷻ في

الآية (٩٨) من سورة الأنبياء: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾.

﴿إِنَّهُمْ لِلَّهِ وَحَدُّ فَأَلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
فُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ (٢٢)

إشارات:

أشارت الآيات السابقة إلى عجز غير الله سبحانه عن خلق أي شيء وجهله بما يُضمره له المستقبل، أما هذه الآية فتؤكد أن المعبود الحقيقي للمخلوقات هو الله تعالى وحده.

□ «الكبر» هو التعالي والتكبر، و«الاستكبار» هو أن يفتقر الشخص العزة والعظمة فيلجأ بوسائل متعددة إلى اكتساب العزة والتعالي.

□ جاء في بعض الروايات أن الإمام الحسين بن علي عليه السلام مرّ بمساكين قد بسطوا كساء لهم فألقوا كسراً فقالوا له: هَلَمْ يَا بْنَ رَسُولِ اللَّهِ فَأَكَلْ معهم ثم تلا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ﴾ (٢١) (٢).

التعاليم:

١ - إنكار المعاد هو في الحقيقة إنكار للمبدأ، فالتوحيد والمعاد مرتبطان معاً، ﴿إِنَّهُمْ لِلَّهِ وَحَدُّ فَأَلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾.

٢ - الكبر أساس الكفر والجهل منشأ الكبر، ﴿فُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾.

٣ - الإيمان بالآخرة يمحو كل أنواع التكبر والاستكبار، ﴿لَا يُؤْمِنُونَ... فُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ﴾.

(١) سورة التحل: الآية ٢٣.

(٢) تفسير نور الثقلين، نقلاً عن تفسير العياشي.

﴿لَا جَزَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُرْسُوتَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾
 إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾

إشارات:

- الْجَزَمَ: قطف ثمار الشجرة، و﴿لَا جَزَمَ﴾ يَجْرِي مَجْرَى (لا بد)، ويُفسَّر (حقاً)، ومعناه: لا شك ولا ريب، وقطعاً وحتماً.
- تتضمن هذه الآية كذلك تهديداً للكفار من خلال بيانها أن الله سبحانه يعلم ما يفعلونه وعليم بما يجترحونه، إضافة إلى أن فيها بشارة للمؤمنين بأن الله ﷻ يعلم أعداءكم وسيعاقبهم على ما يرتكبونه ضدكم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٢٤﴾

إشارات:

- الـ«أساطير» جمع (أُسْطُورَة) وهي الأحاديثُ الخرافية المكتوبة ولا نظام لها. وردت كلمة «أَسَاطِيرُ» تسع مرّات في القرآن الكريم على لسان الكفار وفي كل تلك الموارد جاءت معها كلمة «الْأَوَّلِينَ»، وكانوا يقصدون بذلك أن ما أتى به هذا الرسول لا يعدو كونه كلاماً قديماً سمعوه عبر أساطير الأولين.
- يعتقد بعض علماء الاجتماع كذلك في الوقت الحاضر أن الدين هو وليد الجهل والخرافة، وقد يكون مرّد ذلك إلى وجود آثار واضحة من الخرافات التي استطاعت اختراق بعض أصول الأديان السماوية الأصلية في حين أن تلك الخرافات لا تمت إلى تلك الأديان بأي صلة.

التعاليم:

- ١ - إرسال الرّسل وإنزال الكُتُب السماوية من شؤون الربوبية لهداية الناس وتربيتهم، ﴿أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾.
- ٢ - اعتاد المُتَكَبِّرون على الاستهانة بالآخرين والاستهزاء بدينهم، بل وبقائدهم وأمتهم كذلك، ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾.

٣ - على الرغم من أن قِسْماً من القرآن الكريم وليس كله يضمّ بعض أهم القصص، فإنّ جميع تلك القصص تتعلق بالأنبياء وأقوامهم، وهذه أخبار لم يكن الناس في زمن الرسول ﷺ يعلمون شيئاً عن أغلبها. فكيف يتهمون القرآن الكريم بأنه ﴿أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ؟﴾

﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ
الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُورُونَ﴾

إشارات:

□ تشير هذه الآية الشريفة إلى أئمة الكفر والضلال في الدنيا الذين يُضِلُّون الناس بإعلامهم الكاذب المُنحرف؛ لذلك فإنّهم سيحملون يوم القيامة أوزارهم وأوزار الذين تسبّبوا في إضلالهم. وورد في بعض الروايات أنّ مَنْ سَنَّ سُنَّةَ حَسَنَةٍ اسْتَقْبَلَ بِهَا بَعْدَهُ فَلَهُ أَجْرٌ مَنْ اتَّبَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ فَعَلِيهِ وَزْرٌ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ^(١).

التعاليم:

- ١ - لَنْ يُخَفَّفَ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ أئمة الكفر والضلال، ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً﴾.
- ٢ - مَنْ يُحَرِّضُ الْآخِرِينَ عَلَى ارتكاب المعاصي وركوب الذنوب، شاركهم في عذابهم أيضاً، ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ﴾.
- ٣ - يحمل أئمة الكفر أوزارهم كاملة غير منقوصة، وأمّا عذاب من اتّبعهم فيكون بمقدار دورهم في ذلك، ﴿كَامِلَةً... وَمِنْ أَوْزَارِ﴾.
- ٤ - الجَهِل أساس مُعْظَم الضلالات والانحرافات، ولهذا يستغلّ العدوّ جَهِل الناس لإضلالهم وإغوائهم، ﴿يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.
- ٥ - الذَّنْبُ عِيبٌ كَبِيرٌ، وما أثقله من عِيبٍ، ﴿سَاءَ مَا يَزُورُونَ﴾.

(١) بحار الأنوار، ج ٧، ص ٩٤، الباب الخامس، في صفة المحشر، ص ٦٢ [المترجم].

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَنَّ اللَّهَ بَيَّنَّهُمْ مِنَ الْفَوَاحِشِ
فَنَحَرَ عَلَيْهِمْ السَّقْفَ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَنْتَهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٦٦)

إشارات:

□ هذه الآية تهديد للماكرين وتطيب لخاطر النبي ﷺ.

التعاليم:

- ١ - ما زال أهل المَكْر يُحاربون الحقَّ، ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.
- ٢ - عندما يتعرَّض أساس الدين للخطر يأتي دور الله سبحانه لحسم الموقف، ﴿فَأَنَّ اللَّهَ﴾.
- ٣ - لو يعلم المُخالفون للدين أنهم إنما يُحاربون الله وليس أحداً آخر؛ ربما ارعوا قليلاً، ﴿فَأَنَّ اللَّهَ بَيَّنَّهُمْ﴾.
- ٤ - إذا أصبح الذين مُهَدَّدًا بشكل جَدِي فلا بدَّ من التصرف بشكل جَدِي أيضاً (وَصَفَّ الكُفَّارُ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ وَحَيَّ الرَّسُولَ ﷺ بِأَنَّهُ مُجَرَّدُ أَصَاطِيرِ الْأَوَّلِينَ، فهددهم الله بعاقبة من سبقهم، ﴿فَأَنَّ اللَّهَ بَيَّنَّهُمْ﴾).
- ٥ - ينبغي التعامل مع العدو بشكل حازم لا ظاهري أو سطحي لكي تتمَّ إبادة جميع مؤسساته الفكرية والتنظيمية، ﴿فَأَنَّ اللَّهَ بَيَّنَّهُمْ... فَنَحَرَ عَلَيْهِمْ السَّقْفَ﴾.
- ٦ - لا تقتصر عقوبة الله على الآخرة فقط، ﴿فَأَنَّ اللَّهَ بَيَّنَّهُمْ﴾.
- ٧ - يُصبح الصَّرح الشامخ أحياناً قَبْراً لصاحبه بدلاً من أن يكون مكاناً يُحافظ على حياته، ﴿فَنَحَرَ عَلَيْهِمْ السَّقْفَ﴾.
- ٨ - لا يمكن لأحد التنبؤ بزمان نزول الغضب الإلهي أو مكانه، ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَكِّقُونَ فِيهِمْ
قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْشُّوَى عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٢٧)

إشارات:

□ يتضمن كل من الجَهل والعلم معنى أوسع ممّا في هاتين الكلمتين في القرآن الكريم، فالعالم - من وجهة نظر القرآن الكريم - هو مَنْ كانت نواياه وأعماله مستندة إلى الحق والحقيقة، وإن كان يجهل القراءة والكتابة، أمّا الجاهل فهو مَنْ بطلت نواياه وأعماله وإن كان مُلمّاً بجميع العلوم. ويعتبر القرآن الكريم فكرة الشُّرك وعبادة الأصنام من أكبر علامات الجهل، حيث وصف الله سبحانه ما كان قوم لوط عليه السلام يركبونه مثلاً بالجهل.

وفي هذه الآية كذلك يَصِفُ الله سبحانه الذين ﴿أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ مَنْ يُواجهون مُعسكر الكُفر والشُّرك، ما يَعْنِي أَنَّ العلم الحقيقي يقود الإنسان إلى التوحيد والإيمان.

التعاليم:

- ١ - العقاب الكامل والأصلي للكفار يكون في يوم القيامة، وما هلاكهم في هذه الدنيا إلا مقدّمة لخزيهم وسقوطهم في الهاوية، ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾.
- ٢ - سيُحتَقَر الذين كانوا يحتقرون المؤمنين في هذه الدنيا وسيتمّ تجاهلهم في الآخرة، ﴿يُخْزِيهِمْ﴾.
- ٣ - على مَنْ يتّبع شخصاً أو فئة ما في الدنيا أن يكون مستعداً لتبرير عمله يوم القيامة، ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾.
- ٤ - لن يكون باستطاعة المشركين أن يلفظوا كلمة واحدة في محكمة يوم القيامة، ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾.
- ٥ - العلم الحقيقي الذي يهدي إلى الإيمان والعمل الصالح هو هدية وهبة من الله تعالى، ﴿أُوتُوا الْعِلْمَ﴾.

﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَٰءَ
مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ شَوْءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾
فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

إشارات:

□ عندما تقبض الملائكة أرواح الكفار والمشركين، يُسارع هؤلاء إلى إظهار اعتناقهم الإسلام والخضوع والتسليم وكذلك ينكرون أعمالهم القبيحة وسيئاتهم التي اقترفوها من قبل. لكن لا ت ساعة مندم، فلن ينفعهم إيمانهم في تلك اللحظة؛ لأنه إيمان عن اضطرار لا عن اختيار، ولن يفيدهم إنكارهم أفعالهم به لأن الله ﷻ عالم بما كانوا يعملون.

التعاليم:

- ١ - من المعروف أن الموت ليس فناء تاماً بل هو مجرد عملية قبض للروح وفصلها عن الجسد، ﴿تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾.
- ٢ - اقتضت سنة الله تعالى أن يتم تنفيذ أوامره بوسائط خاصة لذلك، ﴿تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾.
- ٣ - لا ريب في أن الكفر والشرك إنما هما ظلم يقتربه الكافر والمُشرك بحق إنسانيته، ﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾.
- ٤ - سيُضطرّ المشركون والكافرون يوماً إلى الاستسلام والاعتراف، لكن الله سيُجيبهم: ﴿فَأَلْقَوْا السَّلَٰءَ... فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾.
- ٥ - تمثل لحظة الاحتضار لدى كل من المؤمن والكافر لحظة حساسة جداً، ففي ما يتعلق بالكافر، يقول الله تعالى: ﴿تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾، وأما ما يخص المؤمن فقد قال سبحانه في الآية (٣٢) من سورة النحل: ﴿تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾.
- ٦ - لجهنم الكثير من الأبواب، حيث سيتم إدخال كل مُذنب من باب خاص، ﴿أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾.
- ٧ - التكبر هو السبب الرئيس للكفر، ﴿الْكُفْرِينَ... الْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعَمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾

إشارات:

□ في بداية الدعوة الإسلامية، كان الذين يدخلون مكة من شتى أنحاء جزيرة العرب يسمعون بنزول كتاب اسمه القرآن ونبي يدعي نزول ذلك الكتاب عليه. فعندما كانوا يسألون الكفار: ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ؟﴾ يجيبونهم قائلين: ﴿أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، وعندما يسألون المسلمين عن الموضوع نفسه يقولون: ﴿خَيْرٌ﴾. □ إنَّ مَنْ يسأل الله في دعائه الحسنة: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾^(١)، يستحق أن يكون من أهل الإحسان لأن الله تعالى يقول: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾.

□ في ما يلي نُجري مقارنة بسيطة وواضحة بين ما ورد في الآيات من (٢٤ - ٢٨) وبين الآيات (٣٠ - ٣٢) من هذه السورة:

• ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ • ﴿الْمُنْفُوتِ﴾ •

• الحكم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ﴾، النتيجة في الدنيا: ﴿قَالَ اللَّهُ بَلِيتَنَّهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾، ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾.

• الحساب في الآخرة: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِبُهُمْ... فَأَدْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾، ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ... جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾.

• ساعة الاحتضار: ﴿تَوَفَّنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾، ﴿الَّذِينَ تَوَفَّنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ مَبِينٌ﴾.

التعاليم:

١ - الحكم بالحق يلزمه روح طاهرة وتقوى خالصة، ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا... قَالُوا خَيْرٌ﴾.

- ٢ - يُمكن تعريف القرآن بكلمة واحدة، (فكلمة الخير والحسنى والسعادة هي كلمات يُستعاض بها عن مئة كلمة، ﴿قَالُوا خَيْرٌ﴾. تتضمن رسالة القرآن الكريم الدعوة إلى الخير والحسنى).
- ٣ - الحسنه هي نصيب المُحسنين في الدنيا والآخرة، ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾.
- ٤ - يتناسب الجزاء الإلهي مع عمل الإنسان، ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا... حَسَنَةٌ... لِلَّذِينَ اتَّقَوْا... دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾.

﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ (٣١)

التعاليم:

- ١ - توجد في الجنة أنواع كثيرة من الجنان والأنهار المختلفة، ﴿جَنَّاتٌ... أَنْهَارٌ﴾.
- ٢ - بساكنات الجنان خضراء وعامرة على الدوام، لا خريف فيها ولا جفاف، ﴿جَنَّاتٌ عَدْنٍ﴾.
- ٣ - السعادة الأخروية الخالدة هي ثواب الامتناع عن الملذات الدنيوية المحرمة، ﴿مَا يَشَاءُونَ﴾.
- ٤ - لاحظ أن عبارة ﴿مَا يَشَاءُونَ﴾ هي أوسع نطاقاً من جملة ﴿مَا تَشْتَهُوهُ الْأَنْفُسُ وَرَلَّدُ الْأَعْيُنِ﴾؛ فقد يرغب الإنسان أحياناً في شيء ما؛ لكنه لا يجد فيه ما يُشبع رغبته أو يملأ عينيه لكون ذلك الشيء يشير إلى مقام عرفاني أو معنوي، ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾.
- ٥ - اقتضت سنة الله تعالى إثابة المُحسنين والمُتقين، ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾.

﴿الَّذِينَ تَوْفَّقَهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ
ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٣٢)

إشارات:

□ «الطيبون» هم الذين لم يكونوا مُشركين ولا عاصين، وهؤلاء أنفسهم هم

الْمُتَّقُونَ، وذلك استناداً إلى الآيات السابقة إذ وُصِفَ فيها الكفار والمشركون بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَوَفَّنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾^(١). و«الطَّيِّب» هو الطاهر والمُبرَّأ من كل سئى والموصوف بالكمالات والمحاسن.

التعاليم:

١ - يبدأ حساب أو ثواب بعض الأشخاص منذ اللحظة الأولى لوفاتهم، ﴿تَوَفَّنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ... أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾. وورد في بعض الروايات عن الإمام السَّجَّاد عليه السلام أنه قال: «إِنَّ الْقَبْرَ لَرَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفْرِ النَّارِ»^(٢).

٢ - الموت ليس عَذْماً وفناءً، بل هو قَبْضُ الرُّوح، ﴿تَوَفَّنَهُمُ﴾.

٣ - الملائكة مؤتمرون بأمر الله سبحانه، وقد وكل الله ملائكة خاصين بكل أمر لتنفيذه، ﴿تَوَفَّنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾.

٤ - يستقبل الملائكة الأموات الطاهرين الطيبين بالتحية والسلام، ﴿تَوَفَّنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ... يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾.

٥ - السلام والتحية هو شعار الملائكة وجزء من الآداب الدينية، ﴿يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾.

٦ - إنما تُمنَح الجنة كمقابل لا كمجاملة، ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ

كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

إشارات:

□ ورد ما يشبه مضمون هذه الآية في الآية (٢١٠) من سورة البقرة وكذلك الآية (١٥٨) من سورة الأنعام.

□ إذا لم تستطع إنذارات الأنبياء ﷺ ولا تحذيراتهم إيقاظ بعض الناس فلا شك في أن سياط العذاب في الآخرة ستوقظهم أيما يقظة؛ ولكن، لآت ساعة مندم.

التعاليم:

- ١ - ما لَمْ يَرَ الْكُفَّارَ عَذَابَ اللَّهِ رَأَى الْعَيْنَ فَإِنَّهُمْ لَن يَتَخَلَّوْا عَنْ كُفْرِهِمْ، ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾.
- ٢ - غضب الله في الدنيا للتربية لا للانتقام، فقد ذكرت الآية عبارة: ﴿أَثَرُ رَيْكَ﴾ بدلاً من «أمر الله».
- ٣ - لطالما كان تيار الكفر والشرك والاستكبار نشطاً وفعلاً على مر التاريخ، ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.
- ٤ - حاشا لله تعالى أن يكون عذابه ظلماً لنا؛ بل هو نتيجة ما اقترفته أيدينا، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.
- ٥ - كُفِرَ النَّاسَ وَتَكَبَّرَهُمْ هُمَا ظَلَمَ لِنَسَائِتِهِمْ، ﴿أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.
- ٦ - ما هو أخطر من الظلم والطغيان استمرارهما، ﴿كَانُوا... يَظْلِمُونَ﴾.
- ٧ - نزول العذاب بعد إتمام الحجة وإرسال الرسل والكُتُب السماوية ليس ظلماً بل هو عين العدل، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

إشارات:

□ تُطْلَقُ كَلِمَةُ (سَيِّئَةٌ) عَلَى الذُّنُوبِ الصَّغِيرَةِ فِي مُقَابِلِ الذُّنُوبِ الْكَبِيرَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كِبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾^(١)، ولهذا فإن ما يُعَاقَبُ بِهِ الْإِنْسَانُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا إِنَّمَا هُوَ جُزْءٌ مِنَ الْعَذَابِ بِسَبَبِ مَا يَقْتَرِفُهُ، أَمَّا الْعَذَابُ الرَّئِيسُ وَالْكَامِلُ فَيَسْأَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

□ ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ حَلَّ بِهِمْ بِمَا كَانُوا يَسْخَرُونَ مِنْهُ وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهِ وَوَقَعَ عَلَيْهِمْ.

التعاليم:

- ١ - لا شك في أن من يرتكب أعمالاً سيئة إنما هو كمن يذرو الرماد في عينيه، ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾.
- ٢ - يُعَاقَبُ الْمُسْتَهْزِئُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا قَبْلَ وَصُولِهِ الْآخِرَةِ، ﴿وَحَافٍ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.
- ٣ - لا يسخرن بعضنا من بعض لئلا يُسَخَّرَ من السّاخر، ﴿وَحَافٍ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ
نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلُغُ الْبَيِّنَاتِ﴾ (٣٥)

إشارات:

- تُعتبر مسألة الجبر من الذرائع الواهية التي يتذرّع بها المشركون لتبرير انحرافهم وكفرهم، ليقولوا بعد ذلك: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا﴾. وقد ذكر القرآن الكريم هذا الموضوع كذلك على لسان الكفار في الآية (١٤٨) من سورة الأنعام^(١)، والآية (٢٠) من سورة الزخرف^(٢).
- سؤال: ألا يعني عدم مُعاقبة الله تعالى الناس بسبب ضلالتهم أنه راضٍ بذلك؟

الجواب: أبداً؛ لأن الله سبحانه وقر أسباب ووسائل هداية الناس، فأرسل الرسل وأنزل الكتب، وهذا ليس من فعل من يقبل بانحراف الناس أو كفرهم. لكنه ﷺ في الوقت نفسه لا يرغب أحداً على الإيمان لأن الإيمان بالإكراه لا قيمة له على الإطلاق.

(١) ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾. [المترجم]

(٢) ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾. [المترجم].

التعاليم:

- ١ - إِنَّ مَا هُوَ أخطر من الكُفر والشرك وأعظم منهما هو تبريرهما ونسبتهما إلى الله - تعالى عما يشركون - ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا﴾.
- ٢ - كان المشركون يؤمنون كذلك بمسألة الجبر، ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ﴾.
- ٣ - يُحاول الضالّون والمُنحرفون تبرير ما فعله آباؤهم وأجدادهم ومن هم على مذهبهم بالإضافة إلى تبريرهم أعمالهم هم، ﴿نَحْنُ وَلَا ءَابَاؤُنَا﴾.
- ٤ - يحترم بعض الناس ما خلفه لهم آباؤهم من آداب وتقاليد وشعائر مهما كانت، ﴿نَحْنُ وَلَا ءَابَاؤُنَا﴾.
- ٥ - لا شك في أنه لا يجوز تحليل ما حرّم الله تعالى كما لا يجوز تحريم ما أحله، ﴿حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾.
- ٦ - التبرير هو السبيل الذي اتّبعه الضالّون عبر التاريخ، ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.
- ٧ - لا بدّ للتبليغ والدعوة من أن يكونا واضحين وبيّنين، ﴿الْبَلَّغُ السُّبِينُ﴾.
- ٨ - يقتصر عمل الأنبياء والمرسلين ﷺ على الدّعوة والتبليغ لا على إرغام الناس على الإيمان، ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَّغُ السُّبِينُ﴾.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ
فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَاذْكُرُوا
فِي الْأَرْضِ فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾

إشارات:

- الـ «الأمة» من أمّ الشيء بمعنى ضمه إليه، و«الأمة» هي كلّ جماعة تربط أفرادها عناصر مشتركة. وردت هذه الكلمة (٢٥) مرّة في القرآن الكريم.

□ «الطاغوت»: المبالغة في الطغيان، وقد وُصِفَ الشيطان والظالم والمستكبر والأصنام بالطاغوت في القرآن الكريم وكلّها سبب الطغيان والعصيان في مقابل أوامر الله سبحانه. ﴿وَالطَّغُوتُ﴾ يقعُ على الواحد مثل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّغُوتِ﴾^(١)، والجمع^(٢)، كما في قوله سبحانه: ﴿أُولَئِكَ أَمْهَمُ الطَّغُوتُ﴾^(٣).

□ هَيَّا الله ﷻ كلَّ أسباب هداية الناس وعواملها ﴿بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً﴾، فمنهم مَنْ تقبل ذلك واهتدى ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ﴾ ومنهم من أنكره ورفضه، فضلّ ضلالاً بعيداً ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾؛ إذاً، فالهداية من الله سبحانه أمّا الضلالة فمن عند أنفسنا نحن البشر.

مثال ملفت: خلال دوران الأرض حول الشمس يكون نصفها مُضيئاً ومُنيراً لتعرّضه لضوء الشمس، بينما يكون نصفها الآخر مُظلماً ومدلّهماً. فهنا يمكننا القول إنَّ النصف المُضيء من الأرض قد أخذ نوره وضياءه من الشمس، أمّا النصف المُظلم منها فهو لكونه واقعاً في الجهة الأخرى، ولذلك فهو ليس مُظلماً بسبب الشمس.

ومهما يكن من أمر، فالله ﷻ لا يُنسب الضلالة لذاته المقدّسة إلّا إذا كان الإنسان نفسه قد هَيَّا أسباب الضلال كلّها واستعدّ لذلك كلّ الاستعداد، وهذا مصداق الآية الشريفة: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾^(٥).

التعاليم:

١ - لم يكن بعث الأنبياء وإرسال الرّسل ﷺ خاصّاً بمنطقة مُعيّنة أو إثنية دون أخرى أو قبيلة مُحدّدة، ﴿بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً﴾.

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

(٢) «المذكر والمؤنث» (لسان العرب). [المترجم]

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٥٧.

(٤) سورة إبراهيم: الآية ٢٧.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٦.

- ٢ - كانت الدّعوة إلى التوحيد وتجنّب الطاغوت من أولى الواجبات التي أنيطت بالأنبياء ﷺ، ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلُوتَ﴾.
- ٣ - لا يمكن لخطّ التوحيد وعبادة الله الواحد أن يلتقي مع خطّ الاعتراف بالطاغوت والظلم، ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلُوتَ﴾.
- ٤ - من خلال عبادته الله سبحانه وتوثيق ارتباطه معه، يُصبح الإنسان قادراً على محاربة الطاغوت والقضاء عليه، ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلُوتَ﴾.
- ٥ - جعل الله سبحانه الإنسان حُرّاً في اختيار السبيل التي يرغب، ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾.
- ٦ - حبذا لو كانت أسفارنا ورحلاتنا هادفة ومثمرة، ﴿سِيرُوا... فَأَنْظُرُوا﴾.
- ٧ - التاريخ مُنظّم ومحكوم بالقوانين، والتقاليد السائدة في المجتمع والتاريخ هي تقاليد ثابتة، ﴿سِيرُوا... فَأَنْظُرُوا... عَقِبَةُ الْمَكْذِبِينَ﴾.
- ٨ - القرآن الكريم يدعو الناس إلى القيام بالأسفار المُفيدة وممارسة السياحة الهادفة، ﴿سِيرُوا... فَأَنْظُرُوا﴾.

﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (٣٧)

إشارات:

- بعد أن بيّن الله سبحانه في الآية السابقة أنّ ضلال بعض الناس هو نتيجة كُفرهم وإنكارهم العقيدة الحقّة، تُخاطب هذه الآية النبي الأكرم ﷺ وتطلب منه أن لا يحرص على هدى مثل هؤلاء الأفراد ولا يحزن على ضلالهم؛ لأنّ ذلك لن ينفعهم في شيء إذ ختم الله على قلوبهم ولن يهتدوا إذاً أبداً.
- قد يكون الخلل أحياناً في استحقاق بعض الناس لا في المُبلّغ، فالنبي معصوم ولا يمكن إيجاد نقطة ضعف واحدة فيه، وهو صاحب الخُلُق العظيم والحريص على إيمان الناس، لكنّ البعض يرفض قبول الحقّ مهما فعلنا.

التعاليم:

- ١ - يصل بعض الأفراد مرحلة لا يمكنه معها الاهتداء في هذه الدّنيا ولا الاستنصار في الآخرة، ﴿لَا يَهْدِي... مِنْ تَضْيِيتٍ﴾.
- ٢ - على المبلّغ أن يعلم أنّ بعض الناس لن يقبل بالمنطق الصحيح بأي شكل من الأشكال، ولذلك لا ينبغي أن يتوقع إيمانهم جميعاً مهما حرص على ذلك، ﴿إِنْ تَحَرَّضْ...﴾.
- ٣ - الشفاعة تستلزم الاستحقاق والجدارة، وليس كلّ واحد من الناس يستحقّ ذلك، ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ تَضْيِيتٍ﴾.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللّٰهُ مِنْ بَعْدِي
بَلَاءٍ وَعَذَابٍ عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٨)

إشارات:

□ وفي رواية وردت في كتاب (روضة الكافي) أنّ الإمام الصادق عليه السلام بيّن أنّ أحد وجوه هذه الآية هي الرّجعة، وهي أنّ الله سبحانه سيبعث في هذه الدّنيا جماعة في زمن القائم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) لكنّ أعداء الشيعة سينكرون عليهم ذلك ويكذبونهم^(١).

التعاليم:

- ١ - القسّم ليس معياراً للصّحة والصدّق في كلّ مكان، ﴿أَقْسَمُوا بِاللّٰهِ... لَا يَعْلَمُونَ﴾.

(١) في حديث طويل أنّ الإمام الصادق عليه السلام قال لأبي بصير: يا أبا بصير، لو قد قام قائمنا بعث الله إليه قوماً من شيعتنا قباع سيوفهم على عواتقهم فيبلغ ذلك قوماً من شيعتنا لم يموتوا فيقولون: بُعث فلان وفلان من قبورهم وهم مع القائم، فيبلغ ذلك قوماً من عدوّنا فيقولون: يا معشر الشيعة ما أكذبكم هذه دولتكم وأنتم تقولون فيها الكذب، لا والله ما عاش هؤلاء ولا يعيشون إلى يوم القيامة. أصول الكافي، ٨ - كتاب الروضة، ص ٥١. [المترجم]

- ٢ - الإصرار على الكفر والجَهل أعظم منهما، ﴿جَهَدَ آيَاتِهِمْ﴾.
- ٣ - أساس الفكر الجاهلي مَبْنِي على الفصل بين التوحيد والمعاد، ﴿أَفَسُوا بِاللَّهِ... لَا يَبْعَثُ اللَّهُ﴾.
- ٤ - يوم القيامة هو الموعد الإلهي للثواب والعقاب، ﴿وَعَدًا عَلَيْهِ﴾.
- ٥ - بَعَثَ الأموات يوم القيامة حَقَّ وصدق، ﴿حَقًّا﴾.
- ٦ - الجَهل هو العامل الرئيس لإنكار المعاد، ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿لِبَيْنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ
كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ (٣٩)

إشارات:

□ كان الكفار يشككون في وحدانية الله تعالى وصدق الأنبياء ﷺ وقيام القيامة ومحاسبة الخلق. وفي هذه الآية الشريفة يُصرِّح الله ﷻ بأنه سيبيِّن للناس جميعاً - لا سيما الكفار - صدق ذلك، وسيُتضح للمشرِّكين بطلان عقيدتهم وفساد آرائهم، ولكن لن ينفعهم الندم حينذاك.

التعاليم:

- ١ - يوم القيامة هو اليوم الذي ستتجلَّى فيه الحقائق كلها، ﴿لِبَيْنَ لَهُمْ... وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ﴾.
- ٢ - الكذب والتكذيب هما أساس الكفر، ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا... كَانُوا كَاذِبِينَ﴾.

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٤٠)

إشارات:

□ يقول الله سبحانه وتعالى في هذه الآية: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا﴾، وفي الآية (٨٢) من سورة (يس) يقول: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ﴾، وحول خلق سيدنا عيسى عليه السلام قال تعالى في

الآية (٥٩) من سورة آل عمران: ﴿قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، وهذا كله يدل على أن قول الله ﷻ وإرادته هما شيء واحد.

□ ليس استخدام كلمة ﴿كُنْ﴾ إلا مجرد تقريب المعنى أو الموضوع إلى أذهاننا - نحن البشر - فالله ﷻ ليس بحاجة إلى النطق بهذه الكلمة.

□ عندما يريد أحد منا تصوّر شيء ما في ذهنه فإنما يفعل ذلك بإرادة منه وهو ليس بحاجة إلى شيء آخر للقيام بتلك الحالة. وكذلك الله - نعوذ به من التشبيه - فعندما يريد إيجاد شيء ما فهو إنما يفعل ذلك بإرادة منه.

التعاليم:

١ - كيف يمكننا نكران المعاد في حين أن الله سبحانه يخلق ما يشاء بإرادة واحدة منه؟ ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾.

٢ - يخلق الله تعالى الأشياء من العدم وليس بتركيب أو تغيير الموجود (المخلوق)، ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَنُؤِثَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٢﴾﴾

إشارات:

□ أشار القرآن الكريم مرّات عدّة إلى الهجرة وآثارها في الدنيا والآخرة، كقوله تعالى في الآية (١٠٠) من سورة النساء: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾.

□ عبارة ﴿هَاجَرُوا فِي اللَّهِ﴾ المُستخدمة في هذه الآية هي أدق وأدل على الإخلاص من: ﴿يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

التعاليم:

١ - إنّ الذين يهاجرون من أوطانهم تاركين أموالهم وأهلهم في سبيل نشر الدين

أو الحفاظ عليه أو المحافظة على أرواحهم لن يخيب الله سعيهم، ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا... لَتُبَوَّثُنَّهُمْ﴾.

٢ - إذا لم تستطيعوا مواجهة الظالم وظلمه، فلا يحق لكم الاستسلام والإذعان لسلطته، بل لا بد من الهجرة، ﴿هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾.

٣ - الهجرة والصبر والتوكل هي رموز للانتصار على العدو، ﴿هَاجَرُوا... صَبَرُوا... يَتَوَكَّلُونَ﴾.

٤ - عند مواجهتكم الظالمين اعتصموا بإيمانكم وتوكلوا على الله لا على القوى الأجنبية، ﴿صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

٥ - لا يكون الفتح والاستقرار إلا بتحمل مصاعب الهجرة، ﴿هَاجَرُوا... لَتُبَوَّثُنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ
فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٤٣)

إشارات:

□ تشير هذه الآية إلى مبدأ عام يقبل به كلّ لبيب عاقل، وهو الرجوع إلى أهل العلم والتجربة. والآية تحثّ الجميع على سؤال العالمين والعارفين وأهل الخبرة عما يجهلونه. وفي المسائل الدينية فإنّ أفضل مَنْ يُسأل عنها هم آل بيت الرسول ﷺ؛ لأنهم المصدق الحق لقوله تعالى: ﴿أَهْلَ الذِّكْرِ﴾، وتشهد على ذلك الكثير من الروايات السنية والشيعة والتي جمعها الشهيد نور الله التستري في كتابه الموسوم (إحقاق الحق) من الصفحة (٤٨٢) فما بعد.

□ ذكر كلّ من الطبري^(١) وابن كثير^(٢) والألوسي^(٣) في تفاسيرهم أنّ المقصود بأهل الذّكر هو آل بيت الرسول ﷺ.

□ نقل العلامة المجلسي في بحار الأنوار، المجلد الثالث والعشرين، من الصفحة (١٧٢) فما بعد، ما يقرب من ستين رواية تتعلّق بهذا الشأن، إذ قال

(١) الجزء السابع عشر، ص (٢٠٩). [المرجع] (٣) الجزء الثاني عشر، ص (٣٣٠). [المرجع].

(٢) الجزء الثامن، ص (٣١٤). [المرجع]

الأنمة ﷺ في بعض تلك الروايات: «نَحْنُ أَهْلُ الذِّكْرِ وَنَحْنُ الْمَسْئُولُونَ» أو «فَنَحْنُ أَهْلُ الذِّكْرِ فَاسْأَلُونَا إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ».

التعاليم:

- ١ - كان جميع أنبياء الله ﷺ من البشر ولم يكونوا من الملائكة، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا... إِلَّا رِجَالًا﴾.
- ٢ - أنبياء الله سبحانه كانوا من الرجال البالغين الراشدين؛ (باستثناء النبيين عيسى ويحيى ﷺ اللذين بعثا في طفولتهما)، ﴿رِجَالًا﴾.
- ٣ - لا عجب في نزول الوحي على أحد من البشر فهذه سنة الله تعالى لهداية الناس، ﴿رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾.
- ٤ - الجهل ليس بعذر مقبول، والسؤال والتعلم واجب على كل فرد، ﴿فَسْأَلُوا﴾.
- ٥ - ينبغي أن نسأل فقهاء الدين وعلماءه عن المسائل الدينية لا كل من كان يعلم مقداراً معيناً عن الدين، ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾.
- ٦ - إذا كان الشخص يعلم كل ما يتعلق بشيء ما عندئذ لا معنى لسؤاله الآخرين عن ذلك الشيء، ﴿فَسْأَلُوا... إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.
- ٧ - عندما تدفعنا الحاجة إلى الاستفسار من أهل الذكر وسؤالهم، فلا بد من قبول جوابهم مهما كان وإلا فلا معنى لسؤالنا، ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾.
- ٨ - يجب علينا أن نسأل عندما تقتضي الحالة ذلك لا أن نسأل أي سؤال من دون تأمل سابق، فالآية الشريفة لم تقل: «فاسألوا إِنْ لَمْ تَعْلَمُوا» بل قالت: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ

مَا نَزَلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾

إشارات:

□ «البينات»: المعجزات والكتب الدالة على النبوة، و﴿الزُّبُرِ﴾ جمع (زبور) وهو الكتاب السماوي.

□ ربما كانت الآية تشير إلى نوعين من الوحي، الأول هو وحي القرآن الكريم الذي أنزل إلى الناس كافة، والثاني الوحي لتفسير القرآن الكريم وبيانه، وهذا متعلق بالنبى ﷺ دون غيره. وهكذا يصبح معنى الآية: لقد أنزلنا إليك الذكر لكي تُفسر لهم القرآن الكريم بالشكل الذي يُوحى إليك.

التعاليم:

- ١ - بُعِثَ الأنبياء ﷺ بالمُعجزات إلى جانب الكُتُب السماوية لئلا يختلط على الناس الحق بالباطل، ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾.
- ٢ - كان الأنبياء والمرسلون ﷺ مُسلِّحين بالبَيِّنات (وهي الأدلة العقلية) والزُّبر (وهي الأدلة النقلية)، ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾.
- ٣ - على الرغم من أن القرآن الكريم مُوحى إلى النبى ﷺ بشخصه إلا أنه يُخاطب الناس جميعاً، ﴿أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ... مَا نَزَّلَ إِلَيْهِمْ﴾.
- ٤ - نزل القرآن الكريم على الرسول الأعظم ﷺ جملة واحدة ثم أنزل بالتدرج لإخبار الناس، ﴿أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ... مَا نَزَّلَ إِلَيْهِمْ﴾. (و«الإنزال» في اللغة هو النزول جملة واحدة أما «التنزيل» فهو النزول تدرجياً أو بالترتيب).
- ٥ - يحتاج القرآن الكريم إلى بيان النبى ﷺ وتفسيره. وعلى هذا، فإنه لا يجوز الفصل بين القرآن والسنة، ﴿لِئَلَّيْنِ لِلنَّاسِ﴾.
- ٦ - تقع مسؤولية توضيح القرآن وتفسيره وبيانه للناس على الرسول ﷺ، وعلى الناس قبول ذلك مستنديين إلى العقل والمنطق، ﴿لِئَلَّيْنِ لِلنَّاسِ... لَعَلَّهُمْ يَفْكُرُونَ﴾.
- ٧ - القرآن الكريم ذكر وسبب لتذكير الإنسان وجذب انتباهه وتجنبه الغفلة والنسيان، ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾.

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْفَىٰ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ

مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلُيبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾

أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾

إشارات:

□ يَبَيِّنُ اللهُ ﷻ أربعة أنواع من العذاب للمتأمرين على الدين، هي:

- (١) العذاب الأرضي، ﴿يَخِيفُ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾.
- (٢) العذاب السماوي، ﴿يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.
- (٣) العذاب المفاجئ، ﴿يَأْخُذُهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾.
- (٤) العذاب النفسي، ﴿يَأْخُذُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾.

التعاليم:

- ١ - لا يكون عذاب الله وعقابه إلا بعد إتمام الحجة على الناس. (في ما يتعلق بموضوع النبوة المذكور في الآيات السابقة فإن هذه الآية تتضمن تهديداً للكافرين).
- ٢ - غالباً ما يكون خوف الإنسان الكافر من احتمال وقوع العذاب عليه رادعاً له للرجوع إلى جادة الصواب، ﴿أَفَأَمِنَ﴾.
- ٣ - ليعلم المتآمرون على الدين أن مكرهم وحيلهم باطلة أمام علم الله سبحانه وقدرته، ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ﴾.
- ٤ - لا يمكن التنبؤ بزمان وقوع العذاب الإلهي ولا مكانه ولا نوعه، ولذلك فلا مهرب لأحد منه، ﴿يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.
- ٥ - ليس لأحد أن يحول دون وقوع عذاب الله، ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾.
- ٦ - قد يكون نزول العذاب بشكل مفاجئ وفي أي ظرف من الظروف ﴿فِي تَقْلِيلِهِمْ﴾؛ (سواء أكان ذلك خلال سفر الإنسان أو في وطنه أو أثناء نومه أو حتى في يقظته أو خلال مشيه أو وقوفه. وإلى غير ذلك).
- ٧ - أحياناً يكون الرعب والخوف والقلق كالعذاب الذي يؤدي إلى الهلاك، ﴿يَأْخُذُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾.
- ٨ - في الكثير من الحالات يؤخر الله سبحانه العذاب عن المذنبين ويمهلهم بسبب لطفه لمنحهم فرصة أخرى للتوبة، ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمُ لَرَّوُفٌ رَحِيمٌ﴾.
- ٩ - حتى الغضب والعقوبة الإلهية قائمة على أساس التربية والرحمة، ﴿يَأْخُذُهُمْ... فَإِنَّ رَبَّكُمُ لَرَّوُفٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَعُهُمْ يُظْلَلُونَ﴾
 عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾

إشارات:

- «الفيء» ما بعد الزوال من الظل، أما الظل فهو في كل وقت.
- «داخِر» خاضِع وخانِع، وقد يكون المُراد بـ﴿الْيَمِينِ﴾ و﴿الشَّمَائِلِ﴾ هو طَرَفِي النَّهَار أي الشُّرُوق والغروب.
- ولعلَّ سقوط الظلِّ على الأرض هو الذي يتضمَّن معنى سجوده لله سبحانه وإن كانت المخلوقات جميعاً من الناحية التكوينية تسجد لله وهي له مُسَلِّمة وخاضِعة.

التعاليم:

- ١ - ليست المخلوقات والأشياء وحدها داخرة لله سبحانه بل وكذلك كل ما يترتب عليها من خواص كالظل وغير ذلك، ﴿يُظْلَلُونَ... سُجَّدًا﴾.
- ٢ - من وصايا القرآن الكريم لكل الناس دراسة مخلوقات الله وتأمل التغيرات التي تطرأ عليها، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ...﴾.
- ٣ - إذا كانت كل الأشياء في الوجود وظلالها تسجد لله سبحانه وهي داخرة فهل يليق بالإنسان وهو أعقل المخلوقات أن لا يكون من الساجدين؟ ﴿سُجَّدًا... دَاخِرُونَ﴾.
- ٤ - ليس سجود الوجود لله بأكمله وتسيحه له إلّا عن شعور منه وإدراك وإن كنّا نحن لا ندرك هذا، ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾. (وفي ذلك قال الرازي في تفسير «مفاتيح الغيب» إنّ الأشياء منقادة لقدرة الله تعالى وتدبيره وقوله: ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾، حال أيضاً من الظلال لأنّه تعالى لمّا وصفهم بالطاعة والدخور أشبهوا العقلاء).

﴿وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾
يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

إشارات:

□ الدابة اسم لما دب من الحيوان وكل ما شى على الأرض، وتطلق هذه الكلمة على كل من الإنسان والحيوان والجنّ دون الملائكة.

□ قد يكون المقصود بسجود المخلوقات جميعاً في السماوات والأرض هو الخضوع التكويني والتسليم لقوانين الوجود، أو أنّ المراد هو السجدة التي تكون على أساس الإدراك والإحساس وإلى هذا يشير ظاهر الآيات وإن كنا لا نشعر بذلك ولا ندركه.

□ إذا كانت المخلوقات والموجودات جميعاً بما فيها الملائكة، يسجدون لله تعالى ويسلمون لأمره فلماذا نمتنع نحن البشر عن ذلك ونستكبر؟ وعلى حد قول الشاعر سعدي الشيرازي:

كُلُّ شَيْءٍ خُلِقَ وَسُخِّرَ لَكَ يَا لَبِيبَ

أَمِنْ الْإِنصَافِ أَنْ تَغْصِي مَنْ لَمْ يَبْخُلْ؟

التعاليم:

١ - الوجود كلّ مطيع لله وحده وله وحده يسجد لا لغيره، ﴿وَاللَّهُ يَسْجُدُ﴾.

٢ - تزخر السموات كذلك بالموجودات الحيّة والمتحركة والساكنة، ﴿وَمَا فِي السَّمَوَاتِ... مِنْ دَابَّةٍ﴾. قال تعالى في الآية (٢٩) من سورة الشورى: ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾.

٣ - الملائكة مخلوقات مطيعة تماماً لله تعالى، ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

٤ - لا شك في أنّ سبب خوفنا من الله ﷻ هو ذنوبنا ومعاصينا لكنّ خوف الملائكة منه تعالى ناجم عمّا يعرفونه من علوّ مقامه وشموخ عظمته، ﴿يَخَافُونَ

رَبَّهُمْ مِنْ فِرْيَتِهِمْ ﴿٥١﴾. (وفي ما يخص المؤمنين وخوفهم من الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾) (١).

٥ - الملائكة غير متكبرة ولا مستكبرة لا في ذاتها ولا في فعلها، ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ... وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

٦ - التكبر والاستكبار هما أساس معصية أوامر الله تعالى، فإذا أزلنا ذلك الأساس لم يبق سوى الخضوع والتسليم، ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ... وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

٧ - الملائكة جند الله المكلفون بتنفيذ أوامره، ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَحِيدٌ فَإِنِّي فَأَرْهُمْ﴾ (٥١)

إشارات:

□ هذه الآية - كما هو واضح - لا تقصد أنه لا يجوز للناس أن يتخذوا إلهين وأن اتخاذا ثلاثة آلهة جائز، بل إن نفي الأقل يعني نفي الأكثر كذلك. وقد يكون معنى الآية هو التعليق على ما كان المشركون يقولونه من أن ثمة إلهاً خالقاً وآخر هو رب مدبر، وأنه لا بد من عبادة هذا الأخير فقط.

□ تخاطب هذه الآية المشركين الذين أشار القرآن الكريم في الآيات السابقة إلى ما كانوا يرددونه قائلين: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَنَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا﴾، وتقول لهم: كيف يطلب الله منكم أن تشركوا به وقد نهاكم عن ذلك.

التعاليم:

١ - يقتضي الأسلوب التربوي أولاً تطهير الأفكار من الخرافات والعقائد الضالة، ثم بيان الحق ليكون ذلك مؤثراً بشكل إيجابي، ﴿لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ... إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَحِيدٌ﴾.

٢ - عبادة إلهين هي عبادة باطلة، فما بالك في عبادة آلهة عدّة، ﴿لَا تَتَّخِذُوا لِلَّهِ إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾.

٣ - العقيدة الثنوية والإيمان بمبدأين مدبرين لهذا العالم؛ أحدهما الخير، والثاني هو الشرّ هي الأخرى عقيدة باطلة، ﴿لَا تَتَّخِذُوا لِلَّهِ إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾.

٤ - يتطلّب نفي الباطل وإثبات الحقّ التأكيد والإصرار، فعلى الرغم من أنّ كلمة ﴿إِلَهَيْنِ﴾ تشير إلى المثنى من دون أيّ لبس إلاّ أنها ألحقت بكلمة ﴿اثْنَيْنِ﴾. وذلك للتأكيد - كما هي الحال مع كلمة ﴿إِلَهُ﴾ المفردة والتي جاءت بعدها كلمة ﴿وَحِيدٌ﴾ للتأكيد أيضاً.

٥ - الخوف من غير الله سبحانه شرك كذلك، ﴿إِلَهُ وَحِيدٌ فَإِنِّي فَأَرْهَبُونِ﴾.

﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللَّهِ نَتَّقُونَ﴾

إشارات:

□ المقصود بكلمة ﴿الَّذِينَ﴾ في هذه الآية هو العبادة والعبودية وهما من مستلزمات الاعتراف بالدين ومذهب الحقّ. و﴿وَاصِباً﴾ بمعنى الدائم والقائم والشديد، كما ورد في الآية (٩) من سورة الصافات قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾.

التعاليم:

١ - إنّ إله جميع ما هو موجود في السموات والأرض هو إله واحد خلافاً لكلّ المعتقدات الخرافية التي تفرض إلهاً لكلّ نوع من الموجودات، ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

٢ - لا تجوز العبادة ولا العبودية إلّا للخالق الواحد الأحد، ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً﴾.

٣ - لا يحقّ التشريع والتقنين إلّا لمن برأ الكون والخلق، ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ...﴾. من حقّ خالق الوجود وصانعه وحده أن يضع له قانونه ونظامه.

٤ - لا دليل ولا تبرير للشرك على الإطلاق، ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾.

﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ تَعْلَمُونَ إِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فَأَلَيْهِ تَجْشَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾
 تَعْلَمُونَ إِذَا كُشِفَ الضَّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾

إشارات:

□ «الضرُّ» هو القلق الناجم عن فقدان نعمة من النعم، و﴿تَجْشَرُونَ﴾ من جُوار^(١)، بمعنى الشكوى والاستغاثة.

□ تكرر مضمون هذه الآية في آيات أخرى من القرآن الكريم أيضاً، كقوله تعالى في الآية (٦٧) من سورة الإسراء: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا جَنَّكُم بِإِلَهِ الْبَرِّ آغْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَنُ كَنُورًا﴾.

□ عن الرسول الأعظم ﷺ: «مَنْ لَمْ يَرْ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ نِعْمَةٌ إِلَّا فِي مَطْعَمٍ أَوْ مَشْرَبٍ أَوْ مَلْبَسٍ فَقَدْ قَصَرَ عَمَلُهُ وَدَنَا عَذَابُهُ»^(٢).

التعاليم:

١ - لا يظن أحدكم أن نعم الله سبحانه هي نتيجة جهوده وعلمه وإدارته أو حظه أو أن كل ذلك جاء بالصدفة، ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ تَعْلَمُونَ﴾.

٢ - كل النعم - صغيرها وكبيرها - تُمنح للإنسان بإرادة الله سبحانه، ﴿وَمِن نِّعْمَتِهِ﴾.

٣ - النعم كلها من الله سبحانه، وهو الملجأ والملاذ في المهمات، ﴿فَمِنَ اللَّهِ... فَأَلَيْهِ تَجْشَرُونَ﴾.

٤ - البلايا والصعوبات تُضيء مشعل التوحيد الفطري، ﴿إِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فَأَلَيْهِ تَجْشَرُونَ﴾.

٥ - الإنسان مخلوق ضعيف، يستسلم لأبسط المشاكل ويضعف أمام أهون المصائب، ﴿إِذَا مَسَّكُمُ﴾.

(١) «جَارٌ يَجَارُ جَاراً وَجُوراً»، المصدر نفسه. [المترجم]

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٣٠.

- ٦ - ما بنا من نعمة فمن الله تعالى، أما مصائبنا ومشاكلنا فهي من عند أنفسنا، ﴿يَقْتُلْ مِنَ اللَّهِ... مَسْكُومٌ الضَّرُّ﴾.
- ٧ - لا ينبغي أن يكون الإيمان بالله والاستغاثة به أمراً مؤقتاً أو مرحلياً، ﴿إِذَا كَشَفَ الضَّرُّ... فَرِيْقٌ يَنْكُرُ... يُشْرِكُونَ﴾.
- ٨ - قد تؤدي الرفاهية والراحة أحياناً إلى الغفلة عن ذكر الله أو الشرك به، ﴿كَشَفَ الضَّرُّ... يُشْرِكُونَ﴾.
- ٩ - بما أن ذكر الله تعالى هو أمر فطري فإنه يكون عاماً وشاملاً، ﴿فَالْيَوْمِ تَجْتَرُونَ﴾؛ أما الشرك فهو حالة استثنائية لا تصيب إلا البعض فقط، ﴿فَرِيْقٌ... يُشْرِكُونَ﴾.
- ١٠ - إذا نسبنا كشف الضرّ وزوال المشاكل والصعوبات إلى غير الله فهو شرك، ﴿كَشَفَ الضَّرُّ... رَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾.

﴿يَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ فَتَمْتَعُوا فَسَوْفَ يَكْفُرُونَ﴾

إشارات:

□ إذا ألقينا نظرة سريعة على الآيات السابقة حتى هذه الآية فسنلاحظ أنها تشير إلى أسلوب الدعوة والتربية الإلهية، وبالشكل التالي:

فهو الله الواحد الأحد ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾، وهو مالك كل شيء ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وهو الربّ والمعلم ﴿لَهُ الدِّينُ﴾، وهو المنعم والجواد ﴿وَمَا يَكُم مِّنْ يَّقْتُلُ مِنَ اللَّهِ﴾، وهو سميع الدعاء وملبّي الاستعانة ﴿إِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فَالْيَوْمِ تَجْتَرُونَ﴾، ألا يكفي كل ذلك لنوحده ولا نشرك به أحداً.

التعاليم:

- ١ - الكفر بالله ﷻ وإنكار نعمه هما النتيجة المنطقية للشرك، ﴿يُشْرِكُونَ يَكْفُرُوا﴾.

- ٢ - التوسل والتضرع لغير الله كُفران لِنِعْمِهِ سبحانه، ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانِسْتَهُمْ﴾.
- ٣ - على الرغم من استمرار الناس بالكُفر؛ لكنَّ الله ﷻ لا يقطع عنهم نِعْمه ورزقه، ﴿لِيَكْفُرُوا... فَتَمْتَعُوا﴾.
- ٤ - الغضب الإلهي هو النتيجة الحتمية للكُفر بالنعم، ﴿فَتَسْتَعِزُّوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، وقد ورد هذا المعنى كذلك في الآية (٣٠) من سورة إبراهيم ﷻ: ﴿قُلْ تَسْتَعِزُّوا فَلَنْ مَّصِيرَ كُمْ إِلَى النَّارِ﴾.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ثَالِثَ ثَلَاثٍ لِّتَشْعُنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾

إشارات:

□ قد تشير هذه الآية الشريفة إلى مضمون الآية (١٣٦) نفسها من سورة الأنعام: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾. أما الاحتمال الآخر الذي رجَّحه العلامة المرحوم الطباطبائي فهو قوله: «أضاف الشركاء إليهم لأنهم هم الذين أثبتوها واعتقدوا بها نظير أئمة الكفر وأئمتهم وأوليائهم، وقيل: أضيفت الشركاء إليهم لأنهم كانوا يجعلون بعض أموالهم لهم فيتخذونها شركاء لأنفسهم»^(١).

كان المشركون يعتقدون أنَّ الملائكة هم بنات الله - سبحانه - وتعالى - وقد أنكر الله عليهم ذلك في الآية (١٩) من سورة الزخرف بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا﴾. وتجدر الإشارة إلى أنَّ مُعْتَقَدَهُم الضالَّ هذا أودى بهم إلى القول بثلاثة ظنون ضالَّة أخرى، هي:

(أ) أنهم جعلوا لله أولاداً والحال أنَّ الله سبحانه يقول: ﴿لَمْ يَكُنْ لَكَ بَوْلٌ وَلَمْ يُولَدْ﴾^(٢).

(ب) كانوا يقولون: إنَّ الملائكة هي مخلوقات مؤنثة (إناث) بينما الحقيقة هي أنَّه لا يوجد إناث ولا ذكور في الملائكة.

(ت) نسبوا الإناث إلى الله - سبحانه وتعالى عما يشركون - وهم الذين كانوا يُعيرون من لديه بنات وليس لديه أولاد ذكور، ﴿أَفَأَصْفَكُمْ رِبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتًا﴾^(١).

التعاليم:

- ١ - كل ما نمتلكه من الله وحده، فليس من العدل أن نُخصّص نصيباً من ذلك لغيره؛ لأننا مسؤولون عن ذلك يوم القيامة، ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا... تَاللَّهِ لَشَتَّىٰ﴾.
- ٢ - من رحمة الله تعالى أن لطفه ونعمه المادية تصل إلى الضالين كذلك، ﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ﴾.
- ٣ - الأشكال الظاهرية والإنسانية التي نُعلّق عليها الآمال هي نفسها تجهل أسباب الرزق والنعم والبلايا، ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا﴾.
- ٤ - نسبة ولو جزء بسيط جداً من النعم إلى غير الله سبحانه هو شرك أيضاً، ﴿نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾

يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهَا أَيْمِسْكُهُ عَلَىٰ هَوًى

أَوْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾

إشارات:

□ إن لاشمئزاز عرب الجاهلية من الإناث واعتبارهم ذلك عاراً عليهم أموراً وأسباباً، منها:

(أ) لم تكن الأنثى تؤدي أي دور اقتصادي أو إنتاجي في ذلك الوقت، بل كانت تُعتبر عبئاً وكاهلاً ثقيلاً في الحياة.

(ب) أما في الحروب والمعارك التي كانت تُمثل أحداثاً اعتيادية في حياة كل قبيلة، فإن المرأة لم تكن تستطيع المبارزة أو القتال أو الدفاع عن نفسها.

ج) كانت معظم النساء اللّاتي يتمّ أسرهنّ خلال المعارك والغزوات مُعرضة للاغتصاب والانتهاك من قِبَل العدو.

□ وخلافاً للعقائد الجاهلية فقد أولى الدين الإسلامي المرأة اهتماماً كبيراً، وفي ما يلي نشير إلى جزء يسير من ذلك الاهتمام:

• عن الرسول الأعظم ﷺ: «نِعَمَ الْوَلَدُ الْبَنَاتُ»^(١)، وقد كانت الذرية الطاهرة للنبي ﷺ كلّها من ابنته فاطمة الزهراء ﷺ.

• عن الحسين بن سعيد اللّخمي قال: وُلِدَ لرجل من أصحابنا جارية فدخل على أبي عبد الله ﷺ فرآه مُتَسَخِّطاً. فقال له: أَرَأَيْتَ لو أَنَّ الله أَوْحَى إِلَيْكَ أَنْ اخْتَارَ لَكَ أَوْ تَخْتَارَ لِنَفْسِكَ، مَا كُنْتَ تَقُولُ؟ قال: كُنْتُ أَقُولُ: يَا رَبِّ تَخْتَارَ لِي. قال: فَإِنَّ الله ﷻ قَدْ اخْتَارَ لَكَ^(٢). [ثم قال ﷺ: إِنَّ الْغَلَامَ الَّذِي قَتَلَهُ الْعَالِمُ الَّذِي كَانَ مَعَ مُوسَى ﷺ أَبْدَلَ اللهُ ﷻ (وَالِدِيهِ) بِهِ جَارِيَةً وَلَدْتُ سَبْعِينَ نَبِيًّا]^(٣).

التعاليم:

١ - لا شَكَّ في أَنَّ احتقار الإناث والاستهانة بالبَنَات هي ثقافة جاهلية خرافية، ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾.

٢ - على الرغم من أَنَّ ولادة أيّ طفل تُمثّل بحدّ ذاتها بشاراً، لكنّ الخرافات حولت هذه البشارة إلى عار، ﴿يُشِيرَ... ظَلَّ وَجْهُهُ﴾.

٣ - الخرافات والعقائد الباطلة والفاصلة هي عامل تفكّك الأسرة الرئيس، ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ... يَنْوَرِي مِنَ الْقَوْرِ﴾.

٤ - يتمّ أحياناً ارتكاب أبشع الجرائم تحت شعارات مُقدّسة، ﴿أَيْمِيكُمْ عَلَىٰ هُوْبٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾؛ (كان بعض الناس في الجاهلية يَتَدَوّن فلذات أكبادهم من البنات بحجّة الحفاظ على سُمعتهم وهيبتهنّ أو التخلص من العار، بزعمهم).

(٣) الزيادة بين الأقواس من المترجم.

(١) بحار الأنوار، ج ١٠٤، ص (٩٤).

(٢) وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ١٠٣.

٥ - الأديان السماوية كلها تستنكر وبشدة المعتقدات الخرافية بشأن المرأة، ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوَةِ
وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

إشارات:

□ سؤال: ورد في الآية (٧٤) من هذه السورة - سورة النحل: ﴿فَلَا تَقْرِئُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾، فما معنى قوله تعالى إذا في هذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾؟
الجواب: المقصود بـ ﴿فَلَا تَقْرِئُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ هو: لا تُشَبِّهوا الله سبحانه بأي شيء، أما معنى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ فهو: إن الله أفضل الصفات والأسماء على الإطلاق.

التعاليم:

- ١ - إنكار يوم القيامة هو أصل جميع القبائح والسيئات، ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوَةِ﴾.
- ٢ - الله سبحانه الكمال المطلق، ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾.
- ٣ - جمال الإنسان بإيمانه، فمتى ذهب إيمانه أصبح جرثومة كل القبائح، ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوَةِ﴾.
- ٤ - عزة الله وقدرته متوجتان بالحكمة، ﴿هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ
إِلَّا أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْزِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾

إشارات:

□ على الرغم من أن القانون العام الذي وضعه الله سبحانه يستند إلى الإمهال وتأخير العذاب، فإنه سبحانه يُعزِّر الظالمين ليكونوا عبرة للآخرين، كمُعاقبته قوم لوط ونوح وصالح عليهم السلام.

□ سؤال: لماذا يُعَمَّم الله سبحانه في هذه الآية العقاب على كل دابة بسبب ما يقترفه الإنسان من ذنب؟

الجواب: إما أن يكون المقصود بـ ﴿دَابَّةً﴾ هو الإنسان فقط كقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ﴾^(١)، أو أن يكون معنى الآية هو أن كل الدواب [من الحيوانات] ستهلك وتنفى بفناء الجنس البشري لأنها مخلوقة لأجله. □ وفي بعض الأخبار أن أحد الأئمة المعصومين عليه السلام سئل عن السبب الذي يجعل بعض الموتى مفتوحى العيون، وبعضهم مغمضي العيون، فأجاب إن الموت أتاها فماتوا على حالهم ولم يترك لهم الموت فرصة لإغماض العيون أو فتحها. □ يُعتبر خطر بعض أنواع الظلم عاماً وشاملاً لجميع الدواب بما في ذلك الإنسان والحيوان، كما في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾^(٢).

التعاليم:

- ١ - العقاب الإلهي لا يكون إلا بسبب ظلمنا نحن، ﴿يُؤَاخِذُ اللَّهُ... بِظُلْمِهِمْ﴾.
- ٢ - الظلم [أو البغي] مرّعه وخيم، وقد يهلك الحرث والنسل معاً، ﴿يُظْلِمُهُمَا تَرَكَ عَلَيْهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾.
- ٣ - اقتضت سنة الله العزيز القدير الإمهال والتأخير في العقاب، ﴿يُؤَخِّرُهُمْ﴾. (وكما قيل فإن الله سبحانه يُمهّل ولا يُهمّل، والعقاب الإلهي قد يؤخّر أو يُقدّم، لكنّه لن يُفوت على أيّ حال).
- ٤ - إن إمهال الله سبحانه له أجل مُعيّن ونهاية معلومة، ﴿يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.
- ٥ - إنّما إمهال الله الظالمين نابع من لطفه سبحانه وإعطائهم الفرصة لعلمهم يتوبون ويُصلحون، فلا ينبغي لهم أن يغتروا بتلك المهلة، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ... مَا تَرَكَ عَلَيْهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ...﴾.
- ٦ - ترك الظالمين أحراراً يفعلون ما يشاؤون لا يعني أنهم على حق أبداً، ﴿يُؤَخِّرُهُمْ﴾.

(١) سورة الأنفال: الآية ٢٢.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٢٥.

٧ - أَجَلُ الْإِنْسَانِ غَيْرَ قَابِلٍ لِلتَّغْيِيرِ وَلَا التَّأْخِيرِ، ﴿لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَنَصِفُ أَلْسِنَتَهُمُ الْكَذِبَ
أَنَّهُ لَهُمُ اللَّسَنُ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ﴾ (٦٢)

إشارات:

□ تشير هذه الآية كذلك إلى المعتقدات الخرافية التي ذكرناها في الآيات السابقة وهي اعتبار المشركين الملائكة إناثاً وأنهم بنات الله - سبحانه وتعالى - بينما كانوا هم أنفسهم يعتبرون الأنثى عاراً وفضيحة، ويفخرون بالذكر من الأولاد معتبرين أنهم نعمة مفضلة على البنات، ﴿وَنَصِفُ أَلْسِنَتَهُمُ الْكَذِبَ أَنَّهُ لَهُمُ اللَّسَنُ﴾.

التعاليم:

- ١ - إذا كان أحدنا يكره نسبة شيء ما إليه فالأحرى أن لا ينسب ذلك الشيء إلى الله، سبحانه وتعالى، ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾.
- ٢ - تعتري الإنسان أحياناً بعض الأوهام تدفعه إلى الاعتقاد بأنه أفضل من الآخرين وأن عاقبته أيضاً هي أفضل من عواقب الآخرين، ﴿وَنَصِفُ أَلْسِنَتَهُمُ الْكَذِبَ أَنَّهُ لَهُمُ اللَّسَنُ﴾، وقد وُصِفَ مثل هؤلاء الأشخاص في آيات أخرى بأنهم: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْيَوْنَ سُوءًا﴾^(١)، وقوله تعالى بشأنهم: ﴿وَلَكِنْ رُجِعَتْ إِلَىٰ رَبِّهِ إِنْ إِلَىٰ عِندَهُ لِّلْحَسَنِ﴾^(٢).

﴿ثَالِثًا لَّقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ
فَهُوَ وَلِيُّهُمْ يَوْمَ الْيَوْمِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٦٣)

إشارات:

□ يريد الله تعالى بهذه الآية تطيب خاطر النبي ﷺ وتسكينه، قائلاً له: أيها النبي

(١) سورة الكهف: الآية ١٠٤.

(٢) سورة فصلت: الآية ٥٠.

لا تحزن لتجاهل قومك إياك أو إعراضهم عن دعوتك؛ لأنّ إخوانك جميعاً من الأنبياء السابقين واجهوا الحالة نفسها من أشخاص كهؤلاء.

التعاليم:

- ١ - لا شك في أنّ معرفة التاريخ ودراسة حضارات الشعوب والأقوام السالفة من شأنها أن تمنح الصبر وتكسب الفرد التحمل وأخذ العبر والدروس، ﴿أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ أُمُيراً مِنْ قَبْلِكَ﴾.
- ٢ - لاحظ أنّ الله سبحانه يُقسم في هذه الآية باسمه الشريف، ﴿تَاللَّهِ﴾.
- ٣ - إرسال الرسل والأنبياء ﷺ سُنَّةٌ إلهية ثابتة، ﴿أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ أُمُيراً مِنْ قَبْلِكَ﴾.
- ٤ - أهمّ الوسائل التي يستخدمها الشيطان الرجيم للدخول إلى أعماق النفس الإنسانية هي تزيينه القبايح وتبريره الضلالات، ﴿فَرَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ﴾.
- ٥ - القبول بما يزينه الشيطان الرجيم ويقدمه من تبريرات يُمثل قبولاً لتسلّطه على النفس، ﴿فَرَيْنَ... فَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾.
- ٦ - ولاية الشيطان الرجيم ليست ولاية مؤقتة؛ لأنّه لا يتوانى لحظة واحدة عن محاولاته في التسلّط على نفوس أتباعه، ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ﴾.
- ٧ - من المعروف أنّ ولاية الشيطان الرجيم على أتباعه لا تكون إلّا في هذه الدنيا، أمّا في الآخرة فليس له أيّ سلطان على أحد، ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا

فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

التعاليم:

- ١ - الهدف الرئيس من نزول القرآن الكريم هو التمييز بين الحقّ والباطل، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا...﴾.
- ٢ - الابتعاد عن خطّ الأنبياء وتجاهل توصياتهم هو أساس جميع الاختلافات، ﴿لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾.

- ٣ - يُتِمُّ اللهُ حُجَّتَهُ عَلَى النَّاسِ مِنْ خِلَالِ [إرساله] الْأَنْبِيَاءِ وَالرَّسُلِ، ﴿إِشْبَيْنَ لَهُ﴾.
- ٤ - الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ كِتَابٌ لِلْحُكْمِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ بِالإِضَافَةِ إِلَى كَوْنِهِ وَسِيلَةً لِلْإِرشَادِ وَالرَّحْمَةِ الإِلَهِيَّةِ، ﴿إِشْبَيْنَ... وَهْدَى وَرَحْمَةً﴾.
- ٥ - شَرْطُ الْهُدَايَةِ وَالرَّحْمَةِ الإِلَهِيَّةِ هُوَ أَنْ لَا يَكُونَ الْإِنْسَانُ قَدْ أَغْلَقَ بَابَ السَّعَادَةِ دَاخِلَ نَفْسِهِ، ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾

إشارات:

□ تطرقت الآية السابقة إلى موضوع إنزال الكتاب [القرآن الكريم] الذي اعتُبر سبباً لإحياء القلوب، وتشير هذه الآية إلى نزول المطر الذي يُعتبر سبباً لبعث الحياة في الأرض.

التعاليم:

- ١ - الظواهر الطبيعية (كهطول الأمطار وغير ذلك) ليست ظواهر تحدث بالصدفة، بل هي أمور تخضع لمشئته الله وإرادته، ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ...﴾.
- ٢ - الأرض كالإنسان، مُعَرَّضَةٌ لِلْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ، ﴿فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.
- ٣ - تنفيذ البرامج الإلهية بواسطة الأسباب هو أمر طبيعي وعادي، ﴿فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ﴾.
- ٤ - ما مِنْ شَيْءٍ فِي أَنْ الْمَاءَ يُمَثِّلُ عُنْصَراً حَيَاتِيّاً بِالنِّسْبَةِ لِلْأَرْضِ وَلِلْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي تَعِيشُ عَلَيْهَا قَاطِبَةً، ﴿فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ﴾^(١).
- ٥ - يُمْكِنُ اعْتِبَارُ تَدَايِيرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَصَرُّفَاتِهِ فِي الطَّبِيعَةِ دَرْساً فِي التَّوْحِيدِ، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾.

(١) قال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَا مِنْ آتَاءِ كُلِّ شَيْءٍ حَيًّا﴾. سورة الأنبياء: الآية ٣٠. [المترجم]

٦ - النَّظَرُ إِلَى الْآيَاتِ الْإِلَهِيَّةِ وَالتَّدَبُّرُ فِيهَا هُوَ أَفْضَلُ دَرَسٍ لِمَعْرِفَةِ اللَّهِ، ﴿لَا يَأْتِي الْقَوْمَ يَسْمَعُونَ﴾.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنْقِضُوا بِطُونِهِمْ
مِنْ بَيْنِ قَرْنٍ وَدَمٍ بَيْنَا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ (٦٦)

إشارات:

□ كما أَنَّ الله سبحانه وتعالى يُنْزِلُ الْمَاءَ الَّذِي هُوَ مِنْ أَهَمِّ مَنَاشِئِ الْحَيَاةِ مِنَ الْمُزْنِ وَالسَّحَابِ، فَإِنَّهُ كَذَلِكَ قَادِرٌ عَلَى إِخْرَاجِ اللَّبَنِ (وهو سائل حَيَاتِيٍّ مَهْمٌ كَذَلِكَ) مِنْ بَطُونِ الْحَيَوَانَاتِ.

□ «الْفَرْثُ» هُوَ الْغِذَاءُ الْمَهْضُومُ دَاخِلَ الْمَعْدَةِ، وَالْ«عِبْرَةُ»: كُلُّ مَا يُعْتَبَرُ بِهِ وَيُغْتَبَرُ بِوَاسِطَتِهِ مِنَ الْجَهْلِ إِلَى الْعِلْمِ.

□ مَعَ أَنَّ كَلِمَةَ «الْأَنْعَامِ» جَمْعٌ إِلَّا أَنَّهُ اسْتُخْلِمَ ضَمِيرُ الْمُفْرَدِ فِي كَلِمَةِ ﴿بَطُونِهِمْ﴾، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ هُوَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْأَنْعَامِ أَوْ ذَوَاتِ الْأَرْبَعِ وَلَيْسَ جَمِيعُهَا^(١).

□ يُعْتَبَرُ اللَّبَنُ [الحليب] غِذَاءً مُتَكَامِلاً يُمكن أَنْ يَسَدَّ مَسَدَ الْمَاءِ وَالطَّعَامِ فِي آنٍ وَاحِدٍ؛ إِذْ يَحْتَوِي عَلَى الْكَثِيرِ مِنَ الْعُنَاصِرِ الَّتِي تُقَوِّي الْجِسْمَ وَتَنْمِيهِ. وَقَدْ وَرَدَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ أَنَّ شُرْبَ اللَّبَنِ يَزِيدُ الْعَقْلَ وَيَصْفِي الذَّهْنَ وَيُقَوِّي النَّظَرَ وَالْقَلْبَ وَالظَّهْرَ وَيُذْهِبُ النِّسْيَانَ.

□ لَا تَقْتَصِرُ فَائِدَةُ الْأَنْعَامِ عَلَى تَقْدِيمِ الْإِحْتِيَاجَاتِ الْمَادِّيَةِ لِلْإِنْسَانِ، بَلْ يُمْكِنُهَا أَنْ تَكُونَ وَسِيلَةً لِتَكَامُلِنَا الْمَعْنَوِيِّ وَاكْتِمَالِ إِيْمَانِنَا. وَالْآنَ، أَلَا يَسْتَطِيعُ الْإِلَهُ الَّذِي يُخْرِجُ اللَّبْنَ الصَّافِي مِنَ الْعَلْفِ، إِخْرَاجَ الْإِنْسَانِ مِنْ قَبْرِهِ وَبَعْثَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَيًّا. أَلَيْسَ الْإِلَهُ الَّذِي يُخْرِجُ اللَّبْنَ الْخَالِصَ مِنْ بَيْنِ قَرْنٍ وَدَمٍ وَغِذَاءٍ مَهْضُومٍ، قَادِرًا عَلَى تَمْيِيزِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ عَنْ مِثْلِهِ الطَّالِحِ.

(١) «النَّعَم»: وَاحِدُ الْأَنْعَامِ وَهِيَ الْمَالُ الرَّاعِيَّةُ؛ وَالنَّعَمُ الْإِبِلُ وَالشَّاءُ، يُذَكَّرُ وَيُؤَنَّثُ. لِسَانُ الْعَرَبِ. [المترجم]

□ من المعلوم أن تحويل العلف إلى لبن يتطلب وجود جهاز للتصفية والتعقيم وفصل المواد الضارة ووجود مواد للتحلية وأجهزة التسخين وعناصر منتجة للدهون والألوان المطلوبة، إضافة إلى وجود الأنابيب اللازمة في أبدان الأنعام. ألا يحتاج مركز التصفية إلى وجود مراقب لعمليات التصفية؟ أما مصفى اللبن الإلهي فلا حاجة به إلى ذلك كله، ﴿وَلَا لَكُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ لَبَئْرٌ﴾.

□ الإنسان النقي هو الإنسان الذي يتمكن من اجتياز كلِّ العوائق الحياتية والمسائل السياسية والاجتماعية والأصدقاء والرفاق على اختلافهم، من دون أن يثُلون بألوانهم أو يكتسب روائحهم، ﴿مِنْ بَيْنِ قَرْنٍ وَدِرِّ بَنَّا خَالِصًا﴾.

□ لا شك في أن الخلوص هو شرط اتصاف أيِّ شراب بالسَّوَغ؛ فالمياه لا تكون سائغة إلا عندما تصبح خالصة من كلِّ الشوائب، ﴿خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾.

□ من الضروري أن يشمل السَّوَغ المستهلكين جميعاً وليس الإنسان فحسب؛ ولذلك فإن الآية الشريفة لم تقل: «سَائِغاً لَكُمْ»؛ بل قالت: ﴿سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ جميعهم من الإنسان والحيوان والنبات. ومع ذلك تشير بعض التقارير في الوقت الحاضر إلى أن الدول المتقدمة تبعث بمواد انتهت مدة صلاحيتها كمساعدات - بزعمهما - إلى المشردين واللاجئين.

□ استهلاك الإنسان للبن والحليب دليل واعتراف منه بأن الذي خلق هذا الحيوان وأخرج اللبن من أعماق جسمه هو نفسه الذي خلق الإنسان ووفر له ما يحتاج إليه، ﴿شَفِّقْكُمْ نَمًا فِي بُطُونِهِ﴾.

□ كتب أمير المؤمنين علي عليه السلام في كتابه الخامس والعشرين (في نهج البلاغة) إلى المسؤول عن جمع الزكاة، يأمره فيه بمراعاة بعض الأمور عند ذهابه لجمع الزكاة من الرعية. ومن جملة ما قال عليه السلام: «إِذَا أَخَذَهَا أَمِينُكَ فَأَوْعِزْ إِلَيْهِ أَلَّا يَحُولَ بَيْنَ نَاقَةٍ وَبَيْنَ فَصِيلِهَا، وَلَا يَمْضِرَ لَبَنَهَا فَيُضِرَّ ذَلِكَ بَوْلِدَهَا، وَلَا يَجْهَدَنَّهَا رُكُوبًا، ... وَلَا يَغْدِلَ بِهَا عَنْ نَبْتِ الْأَرْضِ إِلَى جَوَادِّ الطَّرِيقِ، ... وَلْيُمَهِّلَهَا عِنْدَ النَّطَافِ وَالْأَغْشَابِ».

□ لا يجوز ضرب الحيوان أو حله بأظافر طويلة أو إنهاكه أكثر من طاقته أو إيقاع

أَيَّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الظُّلْمِ وَالتَّعَسُّفِ بِهِ. وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لَنَا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَنَّ سَيِّدَنَا سَلِيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ كَوْنِهِ نَبِيًّا وَمَلَكًا سُخِّرَتْ لَهُ جُمُوعُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، كَانَ يُدَاعِبُ الْحَيَوَانَاتِ وَيَمْسَحُ بِيَدِهِ الْمُبَارَكَةِ عَلَى أَعْنَاقِهَا وَأَقْدَامِهَا، ﴿نُطْقِفُ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾^(١).

التعاليم:

١ - لا شك في أن نظام إنتاج اللبن لدى الحيوانات وخروجه من بين دم وفرت، هو نظام يتضمن كل عبرة ودرس للإنسان العاقل، ﴿لَعِبْرَةٌ لَكُمْ فِي بُطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ قَرْنٍ وَدَرٍ لَبَنًا...﴾.

﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(٦٧)

إشارات:

□ «السُّكْرُ» نقيض الصُّخْرُ، و«السُّكْرُ» هي الخمر نفسها.

□ تحدثت الآيات السابقة عن الماء واللبن (الحليب) كشرابين طبيعيين يمكن الحصول عليهما بشكل مباشر، أما هذه الآية الشريفة فتشير إلى بعض الأشربة الأخرى التي نحصل عليها بشكل غير مباشر وذلك من خلال عصر بعض الفواكه. عندما تتدخل يد الله وإرادته فلن يكون هناك سوى اللطف والصفاء (مياه الأمطار واللبن الخالص السائغ)؛ ولكن عندما يتدخل البشر، فتارة يكون الرزق جيداً ومطلوباً وتارة أخرى يُنتج شراباً يكون سبباً للفساد والانحراف.

التعاليم:

١ - كل ما تسبب في السكر فليس برزق طيب، ﴿سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾.

- ٢ - كُلِّ مَا خَلَقَهُ اللَّهُ هُوَ طَيِّبٌ وَحَلَالٌ، وَيَبْقَى عَلَيْنَا - نَحْنُ الْبَشَرُ - أَنْ نَخْتَارَ إِمَّا أَنْ نَصْرِفَهُ فِي الْحَلَالِ أَوْ الْحَرَامِ، ﴿نَنْخِذُونَ مِنْهُ سَكْرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾.
- ٣ - مِنَ الْعَلَامَاتِ وَالْآيَاتِ الَّتِي تُعَرِّفُنَا بِالْخَالِقِ تَعَالَى هِيَ خَلْقُ الْفَوَاكِه (من خلال تعدد ألوانها واختلاف طعمها وتباين خواصها وفوائدها سواء على المدى القريب أو البعيد، ثم عناصرها المركبة لها وتوفيرها لكل ما يحتاجه الإنسان، ومقدار إنتاجها والمناطق المناسبة لزراعتها وانسجامها مع سكان تلك المناطق وسهولة حصول الإنسان عليها وكل العوامل الأخرى الداخلة في إيجادها وإنباتها)، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ اللَّبَالِ يَوْمًا مِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾

إشارات:

□ «الْوَحْيُ» هنا بمعنى الإشارة والانتقال السريع والمستمر، وبالإضافة إلى أَنْ كَلِمَةُ الْوَحْيِ تعني التكليف الإلهي للأنبياء فإنها تشمل أيضاً الإيحاء للفرائض كما ورد في هذه الآية الشريفة، وكذلك الإلهام الإلهي كقوله تعالى في الآية (٧) من سورة القصص: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ...﴾. وتشمل الكلمة معنى وساوس الشيطان الرجيم أيضاً كقوله ﴿فَإِنَّ فِي الْآيَةِ (١٢١)﴾ من سورة الأنعام: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِكُفَّهِينَ إِلَىٰ الْوُحْيِ﴾.

التعاليم:

- ١ - تخضع حركة الحيوانات ودأبها في اختيار مساكنها لغرائزها التي أقرها الله سبحانه فيها، ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾.
- ٢ - من المعروف أنَّ أفضل أنواع العسل هو عسل النحل الجبلي الذي يتغذى على رحيق الزهور والنباتات الجبلية^(١)، وليس العسل الصناعي المكوّن من

(١) كما أنَّ أفضل أنواع اللحوم هي اللحوم الطازجة وليس المجمدة ﴿لَحْمًا طَرِيًّا﴾، سورة النحل:

المواد السكرية التي يوقرها لها مربو النحل بالقرب من الفقير، ﴿أَتَخْذِي مِنَ
لِبَالٍ... وَمِنَ الشَّجَرِ...﴾.

﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا
شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٦٩)

إشارات:

□ أشار الله سبحانه في هذه الآية والآية (٦٦) من هذه السورة إلى نوعين من
الطعام والشراب المهمين في الحياة الإنسانية هما اللبن والعسل، وكلاهما
يخرج من بطون الحيوانات والحشرات.

□ قرأنا في الآية (٦٧) أَنَّ الإنسان تعلّم كيف يصنع من عصير بعض الفواكه
مسكراً ﴿تَلْبِذُونَ مِنْهُ سَكْرًا﴾، ثم يُخبرنا الله ﷻ بأن بعض الحشرات علّمها
الله تعالى كيفية صنع شراب من بعض الثمار والزهور فيه شفاء للناس.

□ تُعتبر الغفلة والبطالة أمراً مكروهاً ومذموماً في النظام الإلهي الحكيم والمليء
بالأهداف؛ ولهذا نجد أنه متى أشار القرآن الكريم في آياته إلى موضوع الأكل
والشرب، ذكر إلى جانب ذلك المسؤوليات والواجبات التي تقع على عاتق
الإنسان إزاء هذه المسألة، ومنها:

• ﴿كُلُوا... وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾^(١).

• ﴿كُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا﴾^(٢).

• ﴿كُلُوا... وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾^(٣).

• ﴿كُلُوا... وَلَا تُسْرِفُوا﴾^(٤).

وفي هذه الآية (٦٩) من سورة النحل) يأمر الله سبحانه النحل أن يأكل من
الثمار مع وجوب مراعاتها الهدف المتشود والمسؤولية اللازمة.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٧٢.

(٤) سورة الأنعام: الآية ١٤١.

(١) سورة المؤمنون: الآية ٥١.

(٢) سورة الحج: الآية ٢٨.

□ يمكن تشبيه أولياء الله تعالى بجماعة التحل إذ نأوا بأنفسهم عن الرذائل واختاروا لأنفسهم الشموخ والعزة، وانتفعوا بالمعارف الإلهية وسلكوا سُبُلَهُ دُلَّالاً، فلم يَعدْ يخرج من داخلهم وأفواههم سوى الحكمة والحلاوة المعنوية الصافية.

التعاليم:

- ١ - تتصرّف الحيوانات وفقاً لأوامر الله التي تُوحى إليها عبر غرائزها، ﴿ثُمَّ كُلِّي﴾.
- ٢ - العسل هو عصارة أنواع مُعَيَّنة من الثمار والزهور، ﴿كُلِّي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾.
- ٣ - لا يقتصر الإلهام الإلهي للحيوانات على اختيار مساكنها وطعامها، بل إنّ أفعالها جميعاً تُمثل سُبُلًا وضعها الله ﷻ أمامها لتسلّكها كلّ حسب غريزته، ﴿سُبُلَ رَبِّكِ﴾.
- ٤ - تُعتبر الحركة التي قرّرها الله سبحانه لكلّ الحيوانات واختارها لها حركة بسيطة ومتواضعة، ﴿سُبُلَ رَبِّكِ دُلَّالاً﴾.
- ٥ - سبحانه الله على إعجازه: مصنعٌ عجيب في بطون مخلوقات صغيرة لإنتاج العسل، ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا﴾.
- ٦ - العسل الطبيعي مُتَعَدّد الألوان، ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ﴾؛ (فمنه ما يكون لونه أبيض أو أصفر أو أحمر، وقد يكون السبب في ذلك هو اختلاف ألوان الزهور والثمرات التي تتغذى عليها التحلة).
- ٧ - توجد في بعض الأعشاب والزهور - كما هو معلوم - خواصّ علاجية تنتقل عن طريق العسل فتكون سبباً لشفاء الكثير وعلاجهم من الأمراض ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾. (من الواضح أنّ العسل لا يشفي جميع الأمراض بل بعضاً منها، لذلك وردت كلمة ﴿شِفَاءٌ﴾ بصيغة النكرة).
- ٨ - لا شك في أنّ قيام مخلوق صغير كالتحل ببناء القفير وإنتاج الشمع والعسل إلى جانب صناعة السّم [في ذنبه]، ذلك كلّه يشير إلى عظمة الله سبحانه وقدرته، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٩ - الْمُفَكَّرُونَ والعُقلاء هم وحدهم الذين يستحقون أن تُضَرَّبَ لهم الأمثال والعبر ﴿لَقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، بينما نرى آخرين لا يكلّفون أنفسهم عناء التفكير في مثل العسل ولو لدقائق على الرغم من أنهم يقضون معظم أعمارهم في أكله.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّكُمْ ثُمَّ يُوَفِّيكُمْ وَيُنَكِّرُ مَن يَرُدُّ إِلَيْكَ أَرْزُلَ الْعُمَرِ
لَيْكِنِّي لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عَلِيمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (٧٠)

إشارات:

□ «أرذل» اسم تفضيل من (الرُّذُل) بمعنى الرديء والخسيس؛ ومن المعروف أن أرذل سني العمر هي تلك التي يصل ضعف الإنسان ونسيانه خلالها أقصى حدّ لهما^(١).

□ من الطبيعي أن يتعرّض الأفراد العاديون فقط إلى النسيان أو فقدان الذاكرة في كهولتهم، أمّا أولياء الله تعالى - مثل سيدنا نوح عليه السلام والإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) - فمن غير الممكن أن يُصابوا بذلك على الرغم من طول أعمارهم لأن الله اختارهم ذخراً للقيام بمسؤولياتهم خلال عُمرهم الطويل.

التعاليم:

- ١ - الحياة والموت بيد الله تعالى وحده، ﴿خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّكُمْ﴾.
- ٢ - المرحلة العمرية التي يكون فيها الإنسان عالماً ومُدركاً هي المرحلة المفيدة والقيّمة، أمّا المرحلة التي يُصاب فيها الفرد بالنسيان والغفلة فلا قيمة لها أبداً، ﴿أَرْزُلَ الْعُمَرِ لَيْكِنِّي لَا يَعْلَمُ﴾.
- ٣ - ليست أعمار كلّ الناس طويلة، ﴿وَيُنَكِّرُ مَن يَرُدُّ﴾.
- ٤ - لا ريب في أن كلّ ما يحدث للإنسان من تغييرات وتحولات كالقدرة

(١) وقد ورد في الآية (٥) من سورة الحجّ ما يشبه هذا المعنى كذلك وهو وصول الإنسان إلى مرحلة من العمر لا يعود يعلم كثيراً من الأمور بعد علمه بها قبل ذلك.

والضعف والعلم والجهل والتذكر والنسيان، كل ذلك قائم على أساس تقدير الله سبحانه وعلمه، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾.

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادَى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (٧١)

إشارات:

□ تكون لبعض الأفعال والسلوك تأثيرات مختلفة، فالعطف والرأفة بالآخرين مثلاً يُمثلان عملاً صالحاً وحسناً، وقد تكون الرأفة أحياناً في غير محلها، وهو كما قال بعض الشعراء: [شعر]

الرأفة بالنمر الشرس ذي الأسنان ظلمٌ لخرافك فاعقل أيها الإنسان
والتعليم كذلك من أصلح الأعمال، لكن تعليم البعض من البشر يُشبه إعطاء السيف للسكران أو المجنون؛ إلا أن معيار العدل والتصرف العادل يجب أن يكون واحداً مع الجميع وفي كل الحالات، ولا يمكن أن تكون مُراعاة العدل وتطبيقه أمراً مذموماً في أي زمان أو مكان. لكن العدالة لا تعني أن يمنح الله سبحانه الناس جميعاً نسبة واحدة من القدرات والإمكانات، لأنه إذا تساوى الناس جميعهم في النعم ستزول عوامل التعاون وتنمحي أسباب المشاركة والمساهمة الضرورية للحياة الاجتماعية. يقول الله سبحانه وتعالى في الآية (٣٢) من سورة الزخرف: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾.

□ يُعتبر الاختلاف الموجود في الأرزاق الممنوحة للناس أحد الأمور الحكيمة التي فرضها الله ﷻ؛ إذ لو كان الناس جميعاً يتمتعون بمستوى واحد من النعم والأرزاق، ما كانت لتظهر كمالاتهم المعنوية إطلاقاً. فالسخاء والصبر والإيثار وحماية المساكين والإشفاق على المحرومين والتواضع وما شابه ذلك، لن يكون لها أي معنى إلا عندما تكون هناك اختلافات وفروقات في المستويات الاجتماعية للناس.

□ قد يكون معنى هذه الآية هو انتقاد الله سبحانه بخل بعض الناس ومؤاخذه جماعة من الأفراد من أصحاب القدرة والتفوذ على عدم إشراك مَنْ هم تحت نفوذهم والأخذ بيدهم. وربما كان معنى الآية استحالة انتقال بعض النعم أو المزايا التي يمتلكها بعض الأفراد إلى أفراد آخرين، كانتقال جمال الوجه أو الصوت أو الذكاء أو النبوغ أو الشعبية أو تأثير الكلام. وهكذا، فإن هذه الاختلافات والمميزات تُعتبر رمزاً للتكامل ووجهاً من أوجه النعم الإلهية؛ ولذلك يُعاتبهم القرآن الكريم على إنكارهم كلّ ذلك.

□ يحصل البعض أحياناً على الثروة أو النفوذ بطرق غير مشروعة أو من خلال انتزاع وسلب حقوق الآخرين أو الاستغلال البشع، حيث حرّم الإسلام هذا النوع من المكاسب. وقد تكون طُرُقُ تحصيل الرزق في بعض الأحيان سليمة ومحللة مئة في المئة. ومثال ذلك أن يعمل صيادان في مركب واحد، فتدخل شباك الصياد الأول الكثير من الأسماك في حين لا تأسر شباك الصياد الثاني إلا عدداً قليلاً منها؛ ففي هذه الحالة يكون كلّ من الغني والفقر بإذن الله سبحانه من أجل اختبار الغني والفقر وحثّ كلّ منهما على إظهار قابليّاته وقدراته، ولا وجود لأيّ أغراض سلبية، وهذا بالضبط ما تريد هذه الآية الشريفة بيانه وتوضيحه، ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾.

□ روى أبو ذر الغفاري (رضي الله تعالى عنه) عن رسول الله ﷺ في ما يخصّ اتباع المساواة بين العبيد أنّه قال: «الْيَسُوهُمْ مِمَّا تَلْبَسُونَ وَأَطِعْمُوهُمْ مِمَّا تَطْعَمُونَ»^(١).

□ تُخبرنا روايات عدّة بأنّ بعض الناس لا يمكن إصلاحهم إلا بالغنى وآخرين لا يُمكن إصلاحهم إلا بالفقر، فعلياً أن نرضى بما قسمه لنا الله الحكيم، ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾.

التعاليم:

- ١ - لا يحصل الإنسان على رزقه بالشطارة والحذافة دوماً ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَنَحْنُ قَسَمًا يَبْتَلِيهِمْ مَعِيشَتَهُمْ﴾^(١).
- ٢ - ينأى الإنسان ويستتكف عن تقسيم ما لديه مع مَنْ هم أدنى منه، فكيف يجزؤ على إشراك تماثيل من الحجر والخشب مع الله سبحانه، ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا... فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾.
- ٣ - لا شك في أنّ تجاهل الآخرين وعدم تقديم المساعدة لهم هو كفران بالنعمة، ﴿أَفَنِعْمَ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ (٧٢)

إشارات:

□ جاء في تفسير الطبري أنّ كلمة ﴿وَحَفَدَةً﴾ تُطْلَقُ عَلَى «أولادنا وأزواجنا الذين يصلحون للخدمة منا ومن غيرنا وأختاننا الذين هم أزواج بناتنا من أزواجنا وخدمنا من ممالكنا إذا كانوا يحفدوننا»^(٢). أما العلامة الطباطبائي فقد قال: ﴿وَحَفَدَةً﴾ جمع حافِد وهو المتحرك المُسْرِع بالخدمة، أقارب كانوا أو أجانِب»^(٣).

□ سؤال: لماذا أشارت الآية إلى الذكور ﴿بَنِينَ﴾ دون الإناث؟

الجواب: قد يكون المقصود من كلمة ﴿بَنِينَ﴾ هو الأولاد عموماً، ذكوراً وإناثاً، وقد يكون المعنى بكلمة ﴿الطَّيِّبَاتِ﴾ هم الإناث، ومثال ذلك ما ورد في الآية (٢٦) من سورة النور من قوله تعالى: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾، وربما استغني عن ذكر البنات صراحة لوجود كلمة ﴿وَحَفَدَةً﴾ التي تعني أولاد البنات.

(١) سورة الزخرف: الآية ٣٢.

(٢) الميزان في تفسير القرآن، ج ١٢.

(٣) الجزء ١٧، ص ٢٥٨.

التعاليم:

- ١ - الأزواج والأولاد مِنْ نِعَمِ اللَّهِ سبحانه. (فالأزوجة وسيلة للسكن والمودة، والأولاد أمل الرجل وزينته)، ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ... أَزْوَاجًا... بَيْنَ﴾.
- ٢ - من ألطاف الله تعالى وحكمته أن خلق الزوج وزوجته من جنس واحد وأصل واحد، ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾.
- ٣ - الزواج برنامج حكيم وضعه الله سبحانه، ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ... أَزْوَاجًا﴾.
- ٤ - وقر الله ﷻ للإنسان احتياجاته النفسية والمعنوية ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا... بَيْنَ وَحَفْدَةً﴾، وكذلك احتياجاته المادية ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾.
- ٥ - من ألطاف الله تعالى وحكمته أن جعل الرزق طيباً ومرغوباً، ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾.
- ٦ - ترك سُنَّةِ الزواج والامتناع عن الإنجاب وتحريم ما أحله الله، باطل وكُفران بنِعَمِ اللَّهِ، ﴿أَفِإِلْبَاطِلٍ يُؤْمِنُونَ وَيَنْعَمُ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾.
- ٧ - لا جَرَمَ أَنَّ الزَّنا مع وجود الزوجة وأكل المال الحرام مع وجود الرزق الطيب الحلال هو كُفران بنِعَمِ اللَّهِ، ﴿وَيَنْعَمُ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾.
- ٨ - يميل الإنسان بطبيعته إلى تخليد ذكره [بالزواج وإنجاب الأطفال]، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَفْدَةً﴾.
- ٩ - في البداية، يَبْنُوا لِمُخَاطَبَتِكُمُ النِّعَمِ والألطف الإلهية، ثم انتقدوهم إن تطلب الأمر، ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ... أَزْوَاجَكُمْ... وَرَزَقَكُمْ... أَفِإِلْبَاطِلٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾
 ﴿فَلَا تَقْرَبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٧٤)

إشارات:

□ كان المشركون يتصوّرون أَنَّ الله سبحانه هو السلطان والمَلِكُ وأنَّ أصنامهم

وأوثانهم هم وزراؤه، وهذه الآية الشريفة تنهاهم عن مثل هذه التصورات الباطلة.

□ قال الشاعر الفارسي المعروف قآني^(١):

يا مَنْ تجلّى كلّ الخلق منه وأصبح الطين العاجز به قوياً
كلّ ما سواك هم من خلقك نحن به قائمون وهو قائم علينا
وجودك واجب وليس وجودنا لا يشبه أحداً ولا أحد يشبهه كلياً

التعاليم:

- ١ - ينبغي أن يكون المعبود رازقاً وقادراً، وهؤلاء الشركاء الذين تعبدون من دون الله لا يملكون أيّاً من تلك المميزات، ﴿يَعْبُدُونَ... مَا لَا يَمْلِكُ﴾.
- ٢ - لا يمكن للأصنام أو الأوثان أن تكون رازقة لا في الحاضر ولا في المستقبل [ولم تكن كذلك في أيّ وقت من الأوقات]، ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.
- ٣ - أيّها المشركون! لا قدرة لمعبوداتكم الخيالية على إنزال المطر من السماء ولا على إنبات الزرع على الأرض، ﴿رَزَقًا يَنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.
- ٤ - لا يقتصر عجز المعبودات الزائفة على الأفعال الكبيرة، بل هي عاجزة كذلك عن القيام بأنفه الأعمال وأبسطها، ﴿رَزَقًا... شَيْئًا﴾.
- ٥ - كلّ التشبيهات التي ينسبها الإنسان لله تعالى نابعة من جهله، ﴿فَلَا تَقْرِئُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ... وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

(١) ميرزا حبيب بن محمّد علي گلشن (١٢٢٣هـ/١٨٠٨م - ١٢٧٠هـ/١٨٥٤م): وُلِدَ في شيراز. وهو من كبار شعراء البلاط في زمن فتح علي شاه ومحمّد شاه وأوائل عهد ناصر الدّين شاه. كان مُلمّاً بالأدب الفارسيّ والعربيّ على السّواء، حكيماً يوازي المَلّا هادي السبزواري وفتيها كالشيخ مرتضى الأنصاري. لُقِّبَ بـ «مُجتهد الشعراء» و«حَسَنَ المعْجَم». كان أوّل شاعر فارسيّ يُجيد التحدّث باللغة الفرنسية. له ديوان (پريشان - الحائر) و(گلستان - البستان). [المترجم].

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِي الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا زَاجِلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْنَكُمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾

التعاليم:

- ١ - إذا كُنَّا نحن البشر لا نقبل بتساوي شخصين (العبد ومولاه) فكيف نجرؤ على المساواة بين المخلوق والمخالق، ﴿هَلْ يَسْتَوِي﴾.
- ٢ - يُمكنكم إيقاظ وجدان الناس وإجبارهم على التفكير من خلال الأسئلة والأمثلة، ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا...﴾.
- ٣ - أساس شرك الناس هو جهلهم، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.
- ٤ - القدرة والسلطان نعمة من نعم الله سبحانه، ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ...﴾.
- ٥ - لا يُوصَف الرِّزْق بالحَسَن إِلَّا إذا رافقه الإنفاق، ﴿رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ﴾؛ ولا قيمة لطلاقة اللسان إِلَّا إذا نطق بالعدل ﴿وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾.
- ٦ - الإنفاق سرًّا أفضل من الإنفاق في العلن. (وردت كلمة ﴿سِرًّا﴾ قبل كلمة ﴿وَجَهْرًا﴾).
- ٧ - اللسان والنطق مفتاح الرِّزْق، ﴿أَبْنَكُمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ... كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ... لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾.
- ٨ - لا تأثير للأمر بالمعروف إِلَّا إذا كان الأمر مؤمنًا بما يأمر ومُطَبَّقًا إياه، ﴿يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.
- ٩ - حتى الذين يملكون شيئاً ما، لم يكونوا ليمتلكوه إِلَّا في ظل الرِّزْق الإلهي. (لاحظ أن كلمة ﴿رَزَقْنَاهُ﴾ جاءت بدلاً من كلمة «مالِك» في مُقابل كلمة ﴿مَمْلُوكًا﴾).

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ
أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

إشارات:

- الـ«غيب» يُقابل «الشهود» وهو أمر نسبي، فقد يبدو شيء ما للشخص غيباً ولغيره حاضراً وظاهراً.
- «أمر الساعة» هو يوم القيامة وهو من أبرز الأدلة على الغيب، ومن ألطاف الله سبحانه أنه لم يُطلعنا على موعد الساعة.
- قد تكون هذه الآية جواباً على التشبيهات التي أوردها المشركون والتي أشار إليها القرآن الكريم في الآيات السابقة، وأنه لو كان يوجد شريك آخر مع الله في الأرض أو في السماء لعلم الله به لأنه عالم الغيب والشهادة.
- بعد موت الإنسان يتحلل جسده إلى ذرات تختلط مع التراب بحيث لا يمكن تمييزها؛ لكن الله سبحانه وتعالى يعلم الغيب وهو الذي سيعيده إلى الحياة مجدداً.

التعاليم:

- ١ - ليس الله تعالى عالماً بالغيب وحسب بل هو مالك الغيب كله، ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ﴾.
- ٢ - لا يصعب على الله شيء ولا يُعجزه، بما في ذلك قيام الساعة، ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾.
- ٣ - في يوم القيامة سيطفو على السطح كل باطن وغائب، ﴿وَلِلَّهِ غَيْبٌ... وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ﴾.
- ٤ - القيامة آتية لأن الله سبحانه عالم بكل شيء وقادر على إعادة خلق كل شيء، ﴿وَلِلَّهِ غَيْبٌ... عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.
- ٥ - استعدوا ليوم القيامة ولا يغتر أحدكم بالدنيا فالقيامة ليست ببعيدة، ﴿كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾.

٦ - بإمكان الله سبحانه حذف أيّ مُقدمات أو اختزالها أو الإسراع بها، ﴿كَلِمَةٍ أَلْبَصَرٍ﴾.

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

إشارات:

□ «الأمّهات» جمع (الأم) والهاء فيها زائد.

التعاليم:

- ١ - الولادة من الأم إرادة إلهية، ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾.
- ٢ - عندما يتذكّر الإنسان المؤمن ما كان ينقصه قبل هذا وكلّ احتياجاته السابقة فإنّ ذلك لا يزيده إلّا شكراً لله سبحانه، ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا... لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.
- ٣ - اقتضت حكمة الله تعالى وسنته أن يتم تنفيذ أيّ فعل بواسطة أو سبب، فوسائط العلم مثلاً هي العين والأذن والقلب، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ﴾.
- ٤ - من الواضح أنّ أداء الأذان يسبق أداء العيون؛ (فالأذن تعمل حتى لدى الجنين في بطن أمه في حين تبقى العينان مُغلقتين لفترة بعد الولادة، وقد يكون هذا هو السبب في ذكر الآية للسَّمع قبل البَصَر)، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾.
- ٥ - استثمار النعمة بالشكل الصحيح يعني شكر الله عليها فالقرآن الكريم ينتقد أولئك الذين يملكون الأبصار ولكنهم عاجزون عن رؤية الحقائق، ويملكون الأذان إلّا أنّهم غير مستعدين لسماع صوت الحق، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ... لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.
- ٦ - التعلّم هو السبيل الأمثل لشكر نعمة امتلاك العين والأذن، وتشير هذه الآية في البداية إلى جهل الإنسان، ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾، ثمّ وهبه الله السَّمع

وَالْبَصَرُ لَعَلَّهُ يَشْكُرُهُ، وتلك إشارة إلى ضرورة التعلم أولاً، ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ... لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ
مَا يَمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٧٩)

إشارات:

□ قلنا في بداية هذه السورة (في ملامح سورة النحل): إنها تتحدث عن النعم المتعددة لله سبحانه، والتدبر في تلك النعم ومعرفة خالقها الحقيقي. ولغاية هذه الآية، تعرّفنا على بعض النعم والآلاء مثل نعمة نزول المطر من السماء، وخروج اللبّين من بطون بعض الحيوانات، ثم أنواع الفواكه والثمار والعسل، ونعمة امتلاك الأزواج والأولاد. وتُشير هذه الآية والآيات التالية إلى نعمة أخرى وهي الطيور وجلود الحيوانات وصوفها وبرها، والانتفاع بالجبال واستثمارها.

□ تطير بعض الطيور فرادى وبعضها الآخر بشكل أسراب، ومنها ما يطير بانتظام وأخرى تطير على غير نظم ولا هدى، ومن الطيور ما يطير هرباً من صياد أو مُفترس، ومنها ما يطير بحثاً عن طعامه. وكلّ طائر مخلوق بجسم مُعيّن وأجنحة مناسبة ووزن ينسجم مع خلقته، ومن شأن هذا أن يدفع الإنسان العاقل إلى التفكير والتدبر لمعرفة الخالق وعظمته.

التعاليم:

- ١ - يريد الله سبحانه ممّا أن نتدبر مخلوقاته وينتقد أولئك الذين لا يتدبرون ولا يرهقون أنفسهم بالتفكير في آياته ونعمه، ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾.
- ٢ - الطيور جميعها مُسَخَّرَات بإذن الله تعالى أينما كانت وفي أيّ حال تكون، ﴿مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾.

٣ - لا ينبغي أن نغترّ بما نمتلكه من إمكانات للطيران في السماء ونغفل عن ذكر الله، ﴿مَا يُنْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾^(١).

٤ - لا تنحصر عجائب تحليق الطيور في واحدة أو اثنتين، ﴿لَا يَنْتِي﴾؛ لكن أهل الإيمان هم وحدهم الذين يميّزون تلك العجائب، ﴿لَقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارُهَا أَثْنَا وَمِئَةً إِلَىٰ حِينٍ﴾

إشارات:

□ «الْبَيْت» من بَيْتُوتَة، بمعنى مكان الراحة والاستراحة حيث يقضي الإنسان ليله. و«الظَّغْن» هو الذَّهاب، و«الأثَاث» متاع البيت الكثير. والمقصود بـ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ هو الخيام التي يسهل حملها ونقلها أثناء السفر.

التعاليم:

١ - البيوت هي أماكن للسكن والراحة، ﴿بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾.

٢ - تأملوا دور ذوات الأربع والأنعام وجلودها وأوبارها وأشعارها في إعداد وسائل العيش وصنع الخيم للسكن، ﴿مِئَةً﴾.

٣ - لا شك في أن زمن الانتفاع والاستفادة من النعم محدود، ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾.

(١) كنتُ جالساً في أحد الأيام داخل طائرة فأعلن المسؤول غير الميكروفون بأننا سنهبط في المطار الفلاني بعد دقائق. فقلت له: «لِمَ لَمْ تَقُل: إن شاء الله؟» فأجاب: «إنَّ الحاسوب يُعلمنا بالفترة الزمنية والمسافة والتفاصيل الأخرى كلها بدقة متناهية، ولا داعي لأن نقول: إن شاء الله» قلت: «ألا تمتلك الطائرات الأخرى التي تحلق في شرق الأرض وغربها الحواسيب؟ ومع ذلك فنرى الكثير منها يسقط. اعلم أن إرادة الله سبحانه ليست بحاجة إلى حواسيبكم!» ففكر المسؤول للحظات ثم رأته يعود إلى مقصورته مُعلنًا من جديد موضع الهبوط، ولكن هذه المرة كانت عباراته بالشكل التالي: «سنهبط بعد لحظات إن شاء الله في المطار!» فشكرته على ذلك وقدمت له هدية متواضعة إعراباً عن تقديري له.

٤ - التوفيق والانسجام بين النعم واحتياجات الإنسان ومقدار استفادته من الجلود والأصواف والأوبار والأشعار، كل ذلك من تدبير الله سبحانه وحكمته، ﴿جَعَلَ لَكُم... وَجَعَلَ لَكُم﴾.

٥ - لاحظ أن خفة وزن الصوف والجلود والأوبار والأشعار هي نعمة من نعم الله ﷻ، ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا
وَجَعَلَ لَكُم سُرُبِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسُرُبِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ
كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ (٨١)

إشارات:

□ الـ«أكنان» جمع «كن» وهو وقاء كل شيء وسِتْرُهُ، والمُرَاد بذلك في هذه الآية هو الغيران والكهوف في الجبال.

□ ذكر الله تعالى في الآية السابقة نعمة المساكن والبيوت لأصحاب المُدُن ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾، ونعمة الخيام للبدو والرُّحْل من الناس، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾، وفي هذه الآية يشير الله سبحانه إلى نعمة الغيران والكهوف لسكنتها، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾.

□ أشارت الآية إلى كلمة ﴿سُرُبِيلَ﴾ من بين أنواع الملابس، والـ﴿سُرُبِيلَ﴾ جمع «سُرْبَال» وهو القَمِيصُ أو الدَّرْعُ أو كلُّ لباس دائم غطى مُعْظَمَ الجسد للرجل والمرأة والصغير والكبير وفي الأوقات جميعاً.

□ قال العلامة الطباطبائي: «على أن العرب تكتفي بذكر أحد الشئتين عن الآخر للعِلْمُ به»^(١). فالمراد من ﴿تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ في هذه الآية هو اللباس الذي يقي الإنسان الحرَّ والبرد معاً على الرغم من أن الآية لم تُشير سوى إلى الحرَّ من دون البرد.

التعاليم:

- ١ - ملاحظة النعم وتأملها يعملان على تقوية علاقة الإنسان بولي نعمته وبحيانه فيه روح التسليم له ويشجعانه على عبادته، ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سُرِيرًا وَيَقِيكُمْ مِنَ الْحَرِّ وَسُرِيرًا يَقِيكُمْ بِأَسْكُنُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.
- ٢ - لا يقل دور الظل عن الدور الذي يؤديه النور، ﴿جَعَلَ لَكُم... ظِلَالًا﴾.
- ٣ - لا تجعلوا انتفاعكم بالنعم سبباً لغفلتكم عن خالقها؛ (ذكرت كلمة «جعل» ثلاث مرّات في هذه الآية ولم تذكر كلمة ﴿خَلَقَ﴾ سوى مرّة واحدة فقط).
- ٤ - من الطاف الله سبحانه صناعة الدروع والألبسة الواقية التي تُصنع بتليين الحديد بمهارة، ﴿وَجَعَلَ لَكُم سُرِيرًا وَيَقِيكُمْ... بِأَسْكُنُمْ﴾.
- ٥ - إنّ أفضل الأساليب لدعوة الناس إلى الله وتبهيهم من العصيان والتكبر عليه هي تذكيرهم بنعمه وأنه هو خالقها، ﴿يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.
- ٦ - إذا تحدّثتم أخذوا بالاعتبار المُخاطب ومجال الحديث؛ (فمع أنّ اللباس هو وقاء للحماية من البرد إضافة إلى كونه يُستخدَم للتجمل والزينة، لكن بما أنّ منطقة الحجاز كانت تتميز عادة بالحرّ وكثرة المعارك والحروب، نجد أنّ الله سبحانه يشير في هذه الآية إلى فائدتين مهمّتين للباس بالنسبة إلى سكّان تلك المنطقة، وهاتان الفائدتان هما الحماية من الحرّ والوقاية من بأس الأعداء في الحرب)، ﴿سُرِيرًا وَيَقِيكُمْ مِنَ الْحَرِّ... يَقِيكُمْ بِأَسْكُنُمْ﴾.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ (٨٢)

التعاليم:

- ١ - الإنسان مُخَيَّر في انتقاء السبيل والمُعْتَقَد الذي يُريد، والدليل على ذلك هو عصيان البعض دعوة الأنبياء ورفضهم قبولها، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾.

٢ - يقتصر واجب الأنبياء ﷺ على دعوة الناس لا إرغامهم، ﴿فَلَمَّا عَلِمْتَ﴾.

٣ - يجب أن تكون الدعوة واضحة لا لبس فيها ولا غموض، ﴿الْبَلَّغُ الْبَيِّنُ﴾.

٤ - إذا لم يمتلك الإنسان نفساً طاهرة ووجداناً يقظاً فلن ينفع معه ﴿الْبَلَّغُ الْبَيِّنُ﴾، ولا نصائح أطهر أفراد البشر وهم الأنبياء ﷺ، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾.

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٣)

إشارات:

□ أشار القرآن الكريم مراراً إلى إنكار الكفار الحقّ وصدّهم عنه مع علمهم به وعلى الرغم من وضوحه ونصوعه، فمرة يقول: ﴿وَعَمَدُوا بِهَا وَاسْتَقْبَلَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾^(١)؛ أي إنهم يُنكرون آيات الله سبحانه مع أنهم يعرفون أنها حقّ في قرارة أنفسهم، ومرة يقول: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾^(٢)؛ بمعنى أنهم يعرفون النبي ﷺ وهم متأكدون من صدق كلامه وأحقّية دعوته كما يعرفون أبناءهم تماماً، وفي أخرى يقول: ﴿وَلَا فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكُونُوا لُحِقًا وَلَهُمْ يَكُونُونَ﴾^(٣)، وقال كذلك: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾^(٤).

□ عن الإمام الصادق عليه السلام: «عندما نزلت الآية ﴿إِنَّا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾^(٥) عرف جماعة وليهم لكنهم أنكروه فنزلت الآية ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾^(٦).

□ رُوِيَ عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «نَحْنُ وَاللَّهُ نِعْمَةُ اللَّهِ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَى عِبَادِهِ وَبِنَا يَفُوزُ مَنْ قَارَأَ»^(٧).

(٥) سورة المائدة: الآية ٥٥.

(٦) تفسير كنز الدقائق.

(٧) بحار الأنوار، ج ٨، ص ٢٤٥.

(١) سورة النمل: الآية ١٤.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٤٦.

(٣) السورة نفسها: الآية ١٤٦.

(٤) السورة نفسها: الآية ٨٩.

التعاليم:

- ١ - العلم والمعرفة ليسا كافيين، بل لا بدّ من القبول والتطبيق، ﴿يَعْرِفُونَ... يُنْكِرُونَهَا﴾.
- ٢ - التعصب الاثني والعناد والجشع إزاء المنافع المادّية هي أسباب الكفر بالإضافة إلى الجهل، ﴿يَعْرِفُونَ... يُنْكِرُونَهَا... أَلْكَفِرُونَ﴾.
- ٣ - بعد معرفتهم الحق وتمييزه، تتصارع القوى النفسية للكفار مدة حتى تغلب عليهم الشقوة ويصروا على الكفر. قال تعالى: ﴿يُنْكِرُونَهَا﴾، ولم يقل: ﴿فَيُنْكِرُونَهَا﴾.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ
لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾

إشارات:

□ ذكرنا أنّ القرآن الكريم أشار في كثير من آياته إلى الشهود في يوم القيامة وقلنا إنهم الأنبياء ﷺ والملائكة وأولياء الله والأرض وبعض جوارح الإنسان وأعضائه. عن الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ وَزَمَانٍ إِمَامًا يُخْشَرُونَ مَعَهُ»^(١). وعن الإمام الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ أنّه قال: «نَحْنُ الشُّهُودُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ»^(٢).

□ وعلى الرغم من أنّ الله سبحانه موجود وحاضر في كلّ زمان ومكان، وهو الشاهد على كلّ شيء، فإنّ وجود الشهود يوم القيامة من شأنه أن يزيد من تقوى المؤمنين وحياتهم، وأن يكون سبباً لفضح الكفار على مرأى الخلائق ومسمعهم.

□ من شروط الشهادة العلم والعدالة؛ لذلك فإنّ أولياء الله الذين سيشهدون

(١) تفسير مجمع البيان.

(٢) بحار الأنوار، ج ٢٣، ص ٣٥١.

محاكمة الخلق يوم القيامة لا بدّ من أنّهم شهدوا على أعمالنا في هذه الدنيا حيث كانت أعمالنا تُعرض عليهم، وهذه هي عقيدتنا التي نُؤمن بها وهي أنّ أعمالنا تُعرض على إمام زماننا (عجل الله تعالى فرجه الشريف) كلّ أسبوع، وهو ما تؤيّده روايات عدّة مضافاً إلى الآية الشريفة: ﴿فَسِيرَىٰ اللَّهُ عَلَيْكَ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾^(١). فمن دون الإيمان بهذه الفكرة لن يُصبح للآيات الخاصّة بالشهادة والشهود في يوم القيامة أيّ معنى وأي تبرير، إذ كيف يُمكن لمن ليس له أيّ علم بأعمالنا ولا يتّصف بالعدالة أن يكون شاهداً علينا يوم القيامة.

□ «الاستغتاب» هو طلبك إلى المسيء الرجوع عن إساءته لتجاوز وترضى عنه.

□ يُمكن للإنسان أن يتوب في هذه الدّنيا ويعتذر ويبرّر أخطائه، أمّا في يوم القيامة فلا اعتذار ولا توبة. وأمّا التبريرات فلا يُقبل منها شيء، إذ عندما يُخاطب أصحاب النار جماعة منهم قائلين لهم: ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾^(٢) يُجيبهم مُنادٍ بالقول: ﴿بَلْ لَأُرْكَبُوا مُؤْمِنِينَ﴾^(٣). وكذلك استدراك المعصية، فهو مرفوض أيضاً، وعندما يسأل أصحاب النار الله سبحانه: ﴿فَأَنزِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾^(٤)، يأتيهم الجواب قائلاً: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾^(٥)، و﴿فَذُوقُوا يَمَّا تَسْبَحُونَ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾^(٦). أمّا الاعتذار وطلب السّماح فهو الآخر مرفوض، بل ولا يُسمح لهم بالاعتذار أصلاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾^(٧).

التعاليم:

- ١ - يُؤتى بالشهود من الأمة نفسها لتتمّ عليها الحُجّة، ﴿مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدٌ﴾.
- ٢ - إنّ الله سبحانه شهوداً وحُججاً على الناس من كلّ أمة وفي كلّ زمان، ﴿مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدٌ﴾.

(٥) سورة المؤمنون: الآية ١٠٠.

(٦) سورة السّجدة: الآية ١٤.

(٧) سورة المُرسلات: الآية ٣٦.

(١) سورة التوبة: الآية ١٠٥.

(٢) سورة سبأ: الآية ٣١.

(٣) سورة الصّافات: الآية ٢٩.

(٤) سورة السّجدة: الآية ١٢.

- ٣ - لا تخلو المحكمة الإلهية من العناصر الرئيسة المكونة لها مثل الحساب والكتاب والشهود والشهادة، ﴿شَهِيدًا﴾.
- ٤ - لا معنى للأعذار والتبريرات والمسامحة مع وجود الشهود والحجج، ﴿لَا يُؤْذَنُ... وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ (٨٥)

إشارات:

□ أخبرتنا الآية الشريفة السابقة بأنه لا يُسَمَح لأحد يوم القيامة بتقديم التبريرات ولا طلب السّماح، وفي هذه الآية يُبَيِّن الله سبحانه أن غضبه في ذلك اليوم لن يُخَفَّف عن مُسْتَحَقِّهِ ولن يُؤَخَّر عنهم.

التعاليم:

- ١ - قد يكون الإعلان عن عقاب يوم القيامة وكيفية المحاسبة فيه رادعاً للإنسان عن ارتكاب المعاصي، ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ...﴾.
- ٢ - أساس عذاب الله تعالى وغضبه هو ظلم البشر أنفسهم، ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ﴾.
- ٣ - لا يُخَفَّف العذاب ولا يُؤَخَّر عن الظالمين يوم القيامة، ﴿ظَلَمُوا... فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ...﴾.

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٨٦)

إشارات:

□ تشير الروايات إلى مشاهد عدّة ستحدث في يوم القيامة، منها:

- خَتَمَ أفواه البعض وغلَقها وشهادة أيديهم وأرجلهم على ما كانوا يفعلون^(١).
- سماع صراخ الظالمين ونداء الاستغاثة منهم^(٢).
- محاولة بعض النادمين من العاصين إلقاء اللوم على غيرهم كالشيطان الرجيم واتهامه بأنه هو الذي دفعهم إلى الكُفر وأجبرهم على الشُرك، فيُجيبهم الشيطان الرجيم بعد أن يتبرأ منهم قائلاً: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُ﴾^(٣). أو يعتبر البعض أن أصنامهم هي السبب في ما وصلوا إليه من الذل والهوان؛ لكن الله سبحانه يُنطق الأصنام فتتبرأ منهم وتكفر بشركهم، وهو ما نبأ به الله الخبير العليم: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ﴾^(٤). والأكبر من ذلك كله أن الله ﷻ - ولغرض إتمام الحجة على الكافرين وتكذيب مُدّعاتهم برمي الطاهرين بالتهمة لتبرئة ذمهم - يُخاطب سيدنا عيسى بن مريم ﷺ قائلاً: ﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟﴾ فيجيب المسيح ﷺ: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ... مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾^(٥). وهذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها تُشير إلى أن كل ما عُبد من دون الله سيتبرأ من المشركين ويكذبهم علناً.

التعاليم:

- ١ - لا شريك لله سبحانه - تعالى عما يقوله المُشركون - لاحظ أن الله سبحانه قال: ﴿شُرَكَائِهِمْ﴾، ولم يقل ﷻ: «شُرَكَاء الله».

(١) ﴿الَّذِينَ خَفَضُوا عَنْ أَمْوَالِهِمْ وَأُكْلَمُوا أَيْدِيَهُمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾، سورة يس: الآية ٦٥.
[المترجم]

(٢) ﴿وَنَادَىٰ صَاحِبُ النَّارِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنِ اتَّبِعُوا بَلَاءَ اللَّهِ أَوْ اتَّبِعُوا عَلَيْنَا مِنَ الْآلَاءِ أَوْ مِنَّا رَزَقْكُمُ اللَّهُ﴾، سورة الأعراف: الآية ٥٠.
[المترجم]

(٣) سورة إبراهيم: الآية ٢٢.

(٤) سورة فاطر: الآية ١٤.

(٥) سورة المائدة: الآيتان ١١٦ - ١١٧.

- ٢ - يدفع الخوف والرَّهبة الكافر من هَول ما يراه يوم القيامة إلى إلقاء اللوم على غيره، ﴿هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا﴾.
- ٣ - يُحشَر في يوم القيامة كل ما عُبدَ من دون الله من الأصنام وغيره مع مَنْ عبدها، ﴿هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا﴾.
- ٤ - حتى الأصنام تُدافع عن نفسها يوم القيامة ضدَّ مَنْ يَتَّهمونهم، ﴿قَالَ قَوْمٌ لِّبِهِمُ الْقَوْلُ...﴾.
- ٥ - تنطق الأصنام بإذن الله لتُكذِّبَ استحقاقها أن تُعبدَ من دون الله فتقول للمشرِّكين: إِنَّمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ خِيَالَكُمُ الْمَرِيضَ وَلَيْسَ نَحْنُ، ﴿قَالَ قَوْمٌ لِّبِهِمُ الْقَوْلُ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

﴿وَالْقَوْمُ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامُ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٨٧)

التعاليم:

- ١ - إذا لم نَعترف ونُقرَّ في هذه الدنيا فسُنْجَبَ على ذلك في يوم القيامة، ولكن، لَات ساعة مَنَدَم، ﴿وَالْقَوْمُ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامُ﴾.
- ٢ - سَتُمحى التَصَوُّرات الباطلة والتَخَيُّلات الفاسدة جميعاً يوم القيامة (فليس طلب الشفاعة أو التقرُّب أو الأمل في العزَّة والانتصار من غير الله سوى خيال وباطل)، ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا

فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ (٨٨)

إشارات:

- تختلف ردود أفعال الناس إزاء ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾، فتكون أحياناً إيجابية وأحياناً أخرى سلبية، ولكلِّ درجات ومستويات ومراحل، منها:

(أ) ردود الفعل الإيجابية:

- فمن الناس مَنْ يأمل فهم هذا السبيل وإدراكه ليتسنى له السير فيه، ﴿عَسَىٰ رَبِّتَ أَنْ يَهْدِيَنَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾^(١).
 - ومن الناس مَنْ يُهاجر في سبيل الله، ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾^(٢).
 - وهناك مَنْ يتمّ التضيق عليهم ومحاصرتهم لاتباعهم سبيل الله، ﴿أُخْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٣).
 - ومن الناس مَنْ يتحمّل الأذى والصعوبات في سبيل الله، ﴿وَأُوذُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٤).
 - ومنهم مَنْ يُختار لدعوة الآخرين إلى سبيل الله، ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾^(٥).
 - ومن الناس مَنْ لا يابّه بما يُصيبه في سبيل الله، ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٦).
 - وفيهم مَنْ يُجاهد ويُقاتل في سبيل الله، ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٧).
 - ومنهم مَنْ يُقتل ويستشهد في سبيل الله، ﴿فُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٨).
- (ب) ردود الفعل السلبية:
- منهم مَنْ يحسب خطأ أنه يسير في سبيل الله، ﴿وَتَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُتَّبَدُونَ﴾^(٩).
 - ومنهم مَنْ يبغي طريق الله أعوجّ بحسب هواه، ﴿وَتَبَوَّغُنَا عُوجًا﴾^(١٠).
 - وهناك مَنْ يصدّ الآخرين ويمنعهم من السير في سبيل الله، ﴿يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(١١).

(٧) سورة النساء: الآية ٧٦.

(٨) سورة آل عمران: الآية ١٦٩.

(٩) سورة الأعراف: الآية ٣٠.

(١٠) السورة نفسها: الآية ٤٥.

(١١) السورة نفسها: الآية ٤٥.

(١) سورة القصص: الآية ٢٢.

(٢) سورة النساء: الآية ١٠٠.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٧٣.

(٤) سورة آل عمران: الآية ١٩٥.

(٥) سورة النحل: الآية ١٢٥.

(٦) سورة آل عمران: الآية ١٤٦.

- وآخرون يبذلون الغالي والرخيص ليصدوا الناس عن سبيل الله، ﴿يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(١).

التعاليم:

- ١ - الكفر مقدمة الفساد ﴿كَفَرُوا وَصَدُّوا... يُفْسِدُونَ﴾، والإيمان مقدمة العمل الصالح ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، وقد ورد هذا الأمر في آيات عدة.
- ٢ - من الطبيعي أن يختلف حساب قادة الكفر وأئمتهم - الذين ساهموا في نشر الكفر بأقلامهم وتصريحاتهم وإمكانياتهم كلها - عن حساب الأفراد العاديين من الكفار، ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾.
- ٣ - ليس المفسدون في الأرض هم فقط الذين يعشون بأمن المجتمع ويعرضونه للخطر وحسب، بل يشمل ذلك كل شخص أو جماعة تحول بأي شكل من الأشكال بين المجتمع وبين تطوره معنويًا، ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا... بِمَا كَانُوا يَفْسِدُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾^(٨٩)

إشارات:

□ أشارت الآيات الخمس السابقة إلى موضوع الشهادة والشهود أيضاً حيث ذلك جزء من عقائدنا، وهو أن لكل أمة شهيداً عليها في يوم القيامة، وأن الرسول الأعظم ﷺ هو الشاهد والشهيد على الأمة الإسلامية وعلى شهداء الأمم الأخرى جميعاً. والنقطة المهمة هنا هي ضرورة أن تكون شهادة أولياء الله مبنية على الحسن والرؤية والعلم، وأن يكون أولئك الشهود معصومين من كل خطأ

ومنزهين عن الكذب والزور؛ لكي تكون شهادتهم حجة قاطعة على جميع الناس في ذلك اليوم المهيّب، أي يوم القيامة. ومن الواضح أنّ الذين يشهدون حاضراً أعمال الخلق وغائبهم ويعلمون باطنهم وظاهرهم هم المقبولة شهادتهم يوم القيامة أمام الله والأمم جميعاً، ليسوا سوى الأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام، فهم العالمون بتصرفات الناس وأفعالهم وأقوالهم بإذن الله، ولا أحد غيرهم.

□ ورد في تفسير الصافي^(١) عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «نَحْنُ وَاللَّهُ نَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا فِي الْجَنَّةِ وَمَا فِي النَّارِ وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ؛ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ». ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ. وَعَنِ الْإِمَامِ الْبَاقِرِ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ فِي الْقُرْآنِ تَبْيَانَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى وَاللَّهِ مَا تَرَكَ شَيْئاً نَحْتَاجُ إِلَيْهِ هَذِهِ الْأُمَّةُ». وَأَضَافَ أَنَّهُ لَوْ طُلِبَ مِنْهُ تَقْدِيمُ دَلِيلٍ وَسَنَدٍ لَمَا يَقُولُهُ لِأَخْرَجَ لَهُمْ ذَلِكَ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ. وَرَوَى عَنِ الْإِمَامِ عَلِيِّ عليه السلام أَنَّ أَخْبَارَ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأَخْبَارَ الْمَاضِينَ وَالْآتِينَ وَالسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَوْجُودَةٌ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ^(٢).

□ وفي جوابه عن أسئلة رأس الجالوت في المناظرة التي حدثت بينه وبين جماعة من رؤساء بعض الأديان، قال الإمام الرضا عليه السلام: «مِنْ آيَاتِهِ [أَيِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم] أَنَّهُ كَانَ يَتِمِّمًا فَقِيرًا رَاعِيًا أَجْبَرًا لَمْ يَتَعَلَّمْ كِتَابًا وَلَمْ يَخْتَلِفْ إِلَى مُعَلِّمٍ ثُمَّ جَاءَ بِالْقُرْآنِ الَّذِي فِيهِ قَصَصُ الْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام وَأَخْبَارُهُمْ حَرْفًا حَرْفًا وَأَخْبَارَ مَنْ مَضَى وَمَنْ بَقِيَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٣).

□ وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «مَا مِنْ أَمْرٍ يَخْتَلِفُ فِيهِ اثْنَانِ إِلَّا وَلَهُ أَضَلُّ فِي كِتَابِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم، وَلَكِنْ لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُ الرِّجَالِ»^(٤).

□ القرآن الكريم بيان وتبيان لكل شيء ولكن ليس بإمكان كل أحد فهم ما فيه

(١) الجزء الثالث، ص ١٥١.

(٢) تفسير كنز الدقائق.

(٣) الصدوق، عيون أخبار الرضا، ج ٢، ص ١٦٦. [المترجم]

(٤) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٧٥.

وإدراكه، وهو ما أشار إليه الإمام علي عليه السلام بقوله، إن القرآن: «على أربعة أشياء: على العبارة والإشارة واللطائف والحقائق، فالعبارة للعموم، والإشارة للخواص، واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء»^(١).

يكون تبيان كل شيء إما بشكل مباشر أو من خلال الآيات التي تتضمن المبادئ والأصول، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَلَنَّا لَكُمُ الرَّسُولَ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَأَنْتَهُوا﴾^(٢)، أو قوله ﷺ: ﴿لَتَيِّبَنَّ لِلنَّاسِ مَا نَزَلَ إِلَيْهِمْ﴾^(٣).

التعاليم:

- ١ - يُعَدُّ إشراف أولياء الله وشهادتهم على أعمالنا مبدأ قرآنياً مُسَلِّماً به، ﴿شَهِيداً عَلَيْهِمْ﴾.
- ٢ - للشهداء يوم القيامة مراتب ومنازل، وعلى كل أمة شهيد وإمام ونبي يشهد على كل فرد فيها، ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ﴾.
- ٣ - نبينا ﷺ شاهد على بقية الأنبياء عليه السلام وكتابه (القرآن الكريم) تبيان لكل شيء، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾.
- ٤ - القرآن الكريم كتاب جامع وبيان لكل ما يحتاج إليه المسلمون، ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾.
- ٥ - يستلزم التسليم والإذعان الهداية والرحمة والبشارة الإلهية، ﴿وَهْدَىٰ وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ
وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٤)

إشارات:

□ تُمَثِّل هذه الآية الشريفة إعلاناً إسلامياً وعالمياً كان الإمام الباقر عليه السلام يتلوها في

(٣) سورة النحل: الآية ٤٤.

(١) تفسير الفرقان.

(٢) سورة الحشر: الآية ٧.

خطبة صلاة الجمعة. وفي ذلك يقول الفيض الكاشاني في تفسيره: «لو لم يكن في القرآن غير هذه الآية لصدق عليه أنه تَبَيَّنَ لكل شيء»^(١). والجدير بالذكر أن الأوامر والنواهي الموجودة في هذه الآية موجودة كذلك في الأديان جميعاً ولم يتم نسخها أو إبطالها إطلاقاً.

ويُقال، إن الوليد بن المغيرة جاء إلى رسول الله ﷺ فقرأ عليه هذه الآية، فكأنه رَقَّ له وقال: «والله إن لقوله الذي يَقوله حلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه لمُثْمِر أعلاه مُغْدِق أسفله وإنه لَيُغْلُو ولا يُغْلَى عليه وإنه لِيُحْطَم ما تَحْتَهُ»^(٢)! وعن عثمان بن مظعون أنه قال: «كنتُ أسلمتُ استحياءً من رسول الله ﷺ ولم يقرَّ الإسلام في قلبي بعد. فكنْتُ ذات يوم عنده حال تأمله فشخص بصره نحو السماء كأنه يَسْتَفْهَم شيئاً. فلَمَّا سري عنه سأله عن حاله فقال: «نعم؛ بينما أنا أحدِّثك إذ رأيتُ جبرائيل عليه السلام في الهواء فأتاني بهذه الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ...﴾». فقرأها عَلَيَّ إلى آخرها فقرأ الإسلام في قلبي»^(٣).

□ «بالعدل» - بفتح ثم سُكون - ما أدركت مُساواته بالبصيرة و(العَدْل) - بكسر ثم سُكون - ما تُدرِك مُساواته بالحواس. و﴿بِالْعَدْلِ﴾ هو أن يعطي الشخص ما عليه ويأخذ أقلَّ ممَّا له، و﴿الْإِحْسَانِ﴾ أن يُعطي أكثر ممَّا عليه ويأخذ أقلَّ ممَّا له^{(٤)(٥)}.

والعدل كذلك هو تجنُّب الإفراط والتفريط سواء في العقائد أو في السلوك الشخصي أو الاجتماعي، وهذه الآية تُخاطب كلاً من الفرد والمجتمع على السواء. ولا شك في أن العَدْل هو رمز الخلود في نظام الخلق، فقد قال رسول

(١) تفسير الصافي، ج ٣، ص ١٥٢.

(٢) فخر الدين الرازي، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب).

(٣) الميزان في تفسير القرآن، ج ١٢، (بحث روائي) ذيل الآية.

(٤) مفردات القرآن، الراغب الأصفهاني.

(٥) قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «الْعَدْلُ الْإِنْصَافُ وَالْإِحْسَانُ التَّمُضُّلُ». نهج البلاغة، الحكمة ٢٢٢.

[المترجم]

الله ﷻ: «بِالْعَدْلِ قَامَتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ»^(١)، وأولى المبادئ التي دعا إليها الأنبياء ﷺ في نظام التشريع.

□ «الإحسان» كلمة مباركة تشمل في ثناياها الخدمات المالية والفكرية والثقافية والعاطفية. وتُطلق كلمة «الْفَحْشَاءُ» على ذنب كبير وفاضح^(٢)، و«المنكر» ما أنكره العقل والفطرة والشَّرْع ونهوا عنه.

□ يقول سيد قطب في تفسيره المسمى (في ظلال القرآن): «إنه لا جدوى من المحاولات الجزئية حين يفسد المجتمع كله وحين تطفئ الجاهلية، وحين يقوم المجتمع على غير منهج الله، وحين يتخذ له شريعة غير شريعة الله. فينبغي عندئذ أن تبدأ المحاولة من الأساس وأن تنبت من الجذور وأن يكون الجهد والجهد لتقرير سلطان الله في الأرض. وحين يستقر هذا السلطان يصبح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شيئاً يرتكن إلى أساس...»^(٣).

التعاليم:

- ١ - هل يمكن لذي لب أن يتصور بأن الله الذي يدعو الناس إلى العدل والإحسان هو نفسه غير عادل - والعياذ بالله - ؟ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾.
- ٢ - تقتضي الضرورة وجود كل من العدل والإحسان جنباً إلى جنب ولولا ذلك لأصبحت القوانين جافة لا تألفها القلوب، ﴿يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾. (فالعدل هو المقدار الواجب، أما الإحسان فهو المقدار المستحب).
- ٣ - لا شك في أن الله ﷻ هو أول الأمرين بالمعروف والنَّاهين عن المنكر، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ... وَيَنْهَى﴾.
- ٤ - إن لمساعدة الأقربين وصلة الرَّحْمِ أولوية كبرى في الإحسان، ﴿وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى﴾.

(١) تفسير الصافي، ج ٦، ص ١٠٦. [المترجم]

(٢) «الْفَحْشَاءُ» هو كل ما تنفر عنه الطباع السليمة ولا تُقره العقول المستقيمة. محمد قلمجي، معجم لغة الفقهاء، ص ٣٤٠. [المترجم]

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٢، ص ٤٠٨.

- ٥ - الأمر بالمعروف يسبق النهي عن المُنكر والعَدْل مُقَدَّم على الإحسان، ﴿يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ... وَيَنْهَى...﴾.
- ٦ - ينبغي أن تتم عملية الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر في جو يسوده الصفاء والمحبة، ولا بدّ من أن يكون ذلك في إطار الموعظة الحسنة والنصيحة الطيبة، ﴿يَأْمُرُ... يَنْهَى... يَعْظُمُ...﴾.
- ٧ - لا يجوز للآمرين بالمعروف أن يتوقعوا قبول الناس جميعاً لما يقولونه، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.
- ٨ - يميل الناس بالفطرة إلى العدل والإحسان وينفرون بها كذلك من الفحشاء والمُنكر، إلّا أنّ وساوس الشيطان الرّجيم والغرائز المزروعة في الناس هي التي تتسبّب في غفلتهم، وهنا لا بدّ من إيقاظهم وتذكيرهم، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.
- ٩ - عند النهي عن المُنكر لا بدّ أولاً من التصدّي للذنوب الفاضحة، كما أنّ الأمر بالمعروف يبدأ بالدعوة إلى القيام بالواجبات، ﴿يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ... وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾.
- ١٠ - التوصية والأمر بالعدل والنهي عن الفحشاء سُنّة إلهية أزليّة، ﴿يَأْمُرُ... يَنْهَى... يَعْظُمُ...﴾. (الفعل المضارع المُستخدَم في هذه الآية يدلّ على الاستمرارية).

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا
وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (٩١)

إشارات:

□ تشير الروايات إلى أنّ المقصود بالعهد المذكور في هذه الآية هو العهد الذي يقطعه الناس مع أولياء الله وأنبيائه^(١).

(١) راجع: تفسير الصافي وتفسير الدرّ الثور.

□ إذا كان الناس أوفياء في عهودهم فإنَّ الله سبحانه سيقي كذلك بما وَعَد به من الألفاف، ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ﴾^(١).

التعاليم:

- ١ - يجب الالتزام بالعهود والأيمان الإلهية والوفاء بها، ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾.
- ٢ - يجب الوفاء بالعهد والأيمان مع النية والقصد الجاد، ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾، وهذا ما صرّحت به الآية (٨٩) من سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْخَذُكُمُ اللَّهُ بِالْعَمَلِ فِي آمَنِكُمْ﴾.
- ٣ - إنّ الله تعالى يعلم إذا نقضنا الأيمان وسوف يُجازينا بحسب ذلك، سواء عَلِمنا ذلك أم لم نعلمه، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَبْنَا تَخَذُوتَ آمَنَكُمْ
دَخَلَا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ مِنْ أَرَبٍ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ
وَلَيَبْيَنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخِلِفُونَ﴾^(٢)

إشارات:

□ يَذكر المؤرّخون أنّ امرأة حمقاء كانت تغزل القطن والصوف في قسم من النهار ثم تنقض ما غزلته في النصف الآخر منه. فسار ذلك مثلاً على الحق وهو ما استخدمه القرآن الكريم في هذه الآية للإشارة إلى بعض الناس ممّن يُبطلون أعمالهم وينقضون أيمانهم وعهودهم.

□ ويُقال إنّ فاطمة الزهراء عليها السلام ذكرت هذه الآية في خطبتها التي ألقتها في مسجد المدينة أمام الخليفة الأول وبطانته؛ منوّهة إلى نقضهم عهد الله ورسوله ﷺ الذي أخذاه عليهم بشأن الإمام علي عليه السلام في غدير خم^(٢).

□ تتميز أمثال القرآن الكريم بحلاوة غريبة وبلاغة عالية واحتفاظ بالمعنى

(١) سورة البقرة: الآية ٤٠.

(٢) انظر: تفسير الفرقان.

والمضمون لا نجده في أيّ كتاب آخر؛ بحيث يمكن إيرادها في كلّ زمان ومكان وفي كلّ مناسبة؛ أمثال يفهمها تلميذ في الابتدائية ولا يستخفها الفيلسوف.

□ تُفسّر جملة ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ على نحوين اثنين:

- (أ) لا تنقضوا عهودكم مع جماعة صغيرة وبسيطة تمثيلاً مع أهواء جماعة أكثر عدداً وأقوى عُدة.
- (ب) لا تنقضوا عهودكم مع جماعة صغيرة وبسيطة لأنكم أصبحتم جماعة أكثر عدداً وأقوى عُدة.

التعاليم:

- ١ - نقض العهود والأيمان معناه إبطال كلّ الجهود، ﴿نَفَضْتَ غَزْلَهَا﴾.
- ٢ - كلّما كان العهد محكماً وقوياً كان نقضه أقيح وفسخه أشبع، ﴿مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾.
- ٣ - نقض العهد والأيمان باستمرار عار لا يُمحي، (و) ﴿أَنْتَكُنَّ﴾ جمع «نكت».
- ٤ - لا تَعْبُوا بِالْمُقَدَّسَاتِ (ولا تجعلوها وسائل للخداع)، ﴿لَتَنَخَذُوا أَيْمَنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾^(١).
- ٥ - عادة ما تكون السلطة والعدة والعدد والضجة السياسيّة والاقتصادية مقدّمة لنقض العهود، ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾.
- ٦ - يُمثّل الوفاء بالعهود والأيمان أسلوباً من أساليب الاختبار والامتحان، ﴿يَلُوكُمُ اللَّهُ يَوْمَ﴾.
- ٧ - تذكّر المعاد يؤدّي إلى تعزيز التقوى ومُراعاة العهود، ﴿وَلَيَبْيَنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾.

(١) «الدّخل أن يكون الباطن خلاف الظاهر وأصله أن يدخل الشيء ما لم يكن منه»، تفسير الصافي،

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ
وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩٣﴾

إشارات:

□ يهدي الله سبحانه الناس جميعاً من خلال فطرتهم؛ لكنهم، ووفقاً لميزة الاختيار والحرية الممنوحة لهم، ينقسمون إلى مجموعتين:

(أ) المجموعة الأولى، وتضم من اختاروا السير عكس تيار العقل والفطرة وهؤلاء بعيدون عن التوبة، وبعيدون عن الإنابة، وقد ترك الله سبحانه أفراد هذه المجموعة على حالهم وأضلهم بما اختاروه طوعاً.

(ب) المجموعة الثانية، وهؤلاء ساروا على ما فُطروا عليه وأطاعوا أوامر الله ﷻ، فأعانهم تعالى وهداهم إلى سواء السبيل.

وهكذا، فإن المقصود من أن الله سبحانه ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ و﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ هو المرحلة التي تلي اختيار الإنسان طريقه. فعلى سبيل المثال، يقوم المعلم في اليوم الدراسي الأول بتقديم محاضراته ودروسه إلى جميع الطلاب دون استثناء، فنجد المعلم بعد فترة يُخصّص وقتاً إضافياً لجماعة معينة ممن يبذلون جهداً أكثر من غيرهم لفهم الدرس واستيعاب المادة فيما يترك الآخرين الذين يكتشف أنهم لم يأتوا إلى المدرسة إلا عنوة أو لقضاء الوقت فقط. فلو لم تكن هداية الإنسان أو ضلاله باختياره هو، لما قال الله ﷻ في آخر الآية: ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. إذاً، لا شك في أن مساءلتنا يوم القيامة تدلّ على أننا كنا أحراراً، وذلك لقبح مساءلة المجر.

التعاليم:

١ - كان بمقدور الله سبحانه إجبار الناس وإرغامهم على ما يريد، لكن رحمته وسنته اقتضت أن تركهم أحراراً في ما يختارون، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ﴾.

٢ - الإنسان حرّ تماماً في اختيار العقيدة والسييل اللذين يريد هما، ﴿لَتُسْأَلُنَّ﴾.

٣ - إِنَّ مَسَاءَلَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَتْ بِالْهَزَلِ، ﴿وَلَتَشْكُنَنَّ﴾.

٤ - ستشمل المسألة يوم القيامة كل ما قام به الإنسان، ﴿عَمَّا كُتِبَ﴾.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا
وَتَذُوقُوا أَلْسُوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكِنَّ عَذَابَ عَظِيمٍ﴾ (٩٤)

إشارات:

□ قال الرَّاعِبُ الأصفهاني: «الصدود والصد قد يكون انصرافاً عن الشيء وامتناعاً، وقد يكون صرفاً ومنعاً»^(١)، ومعنى ﴿دَخَلًا﴾ هو الدَّغْلُ والخديعة والمكر.

التعاليم:

١ - إذا رأيتم شيوع الخطر واستفحاله حاولوا تذكّر وصايا الله وأوامره. (وقد أشارت الآية (٩١) من هذه السورة إلى النهي عن نقض الأيمان بعد توكيدها)، ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا﴾.

٢ - نقض العهود وسوء استغلال المقدسات يؤديان إلى عاقبة السوء، ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾.

٣ - أحياناً يكون ذنب واحد سبباً لوقوع آخرين في الذنوب. (فنقض العهد هو مقدمة لعاقبة السوء وهذه الأخيرة هي ديباجة لصد الآخرين عن سبيل الله)، ﴿صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ
هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٩٥)

إشارات:

□ استخدمت الآيات من (٩١) إلى (٩٥) من هذه السورة بعض التعبيرات المهمة

للإشارة إلى نقض الأيمان وعقوبة ذلك، ما يدل على خطورة هذا الذنب وجسامته؛ مثل قوله تعالى: ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ و﴿إِنَّمَا يَلُوكُمُ اللَّهُ﴾ و﴿وَلَتُسْأَلُنَّ﴾ و﴿فَنَزَلَ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾، وفي هذه الآية يقول تعالى: ﴿وَلَا تَشْرَوْا بِمَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

التعاليم:

- ١ - لا ريب في أن الجري وراء منافع دنيوية هو السبب في نقض العهود، ﴿وَلَا تَشْرَوْا بِمَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.
- ٢ - مهما كان الثمن المدفوع لكم لنقض العهد فهو ثمن بخس لا محالة، ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.
- ٣ - فقدان الطاف الله سبحانه ونقض العهد والأيمان للوصول إلى اللذة الزائلة والسعادة الموقته، هي سذاجة بكل ما للكلمة من معنى، ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ
الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٤٦)

التعاليم:

- ١ - ما من أحد أو شيء باقٍ سوى الله ﷻ، ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ...﴾.
- ٢ - يتطلب نَبذ الماديات والسَّير إلى الله والالتزام بالعهود والوفاء بالوعود، صبراً وجلداً ومُحاربة شرسة مع أهواء النفس، ﴿وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾.
- ٣ - الانقطاع عن الملذات الدنيوية ليس حرماناً بل سعادة حقيقية، ﴿وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾.
- ٤ - ما من مُشتَرٍ أفضل من الله سبحانه؛ لأنه الوحيد الذي يشتري البضاعة المُزجاة بأعلى الأثمان، ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً
وَلَنُجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٧)

إشارات:

□ ﴿حَيَوةً طَيِّبَةً﴾: هي الحياة التي يمتلك فيها الإنسان قلباً مطمئناً وروحاً مؤمنة، فالمؤمن يرى بنور الله سبحانه، ومثل هذا الإنسان لا تنساه الملائكة من الدعاء ولا يغيب عنه العون والممدد الإلهيين، ولا ريب في أن هذا الإنسان لا يعرف الخوف ولا يعتره الحزن.

التعاليم:

- ١ - العمر والاثنية والجنس والوضع الاجتماعي أو السياسي أو غيره، كل ذلك ليس معياراً للأجر إطلاقاً، ﴿مَنْ عَمِلَ...﴾.
- ٢ - لا فرق بين الرجل والمرأة في الحصول على الكمالات، ﴿مِن ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ﴾.
- ٣ - الإيمان هو الشرط الوحيد لقبول العمل الصالح، ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾.
- ٤ - يكافأ المرء ويثاب حتى على العمل الواحد، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾.
- ٥ - لاحظ أن القرآن الكريم يذكر المرأة ويشيد بدورها أينما وُجدت عقيدة جاهلية تحاول إهانتها، ﴿مِن ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ﴾.
- ٦ - لا يكفي العمل الصالح بمفرده بل لا بد لصاحبه من أن يكون صالحاً أيضاً، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا... وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾.
- ٧ - إن مثل الإنسان الفاقد للإيمان والعمل الصالح كمثل الجسد الميت لا روح فيه، ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (٩٨)
إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٩٩)

إشارات:

□ يمكن أن يكون لكل عمل صالح آفة، كما أن آفة العزة هي التكبر، وآفة تقديم

الخدمة للناس هو أن يشعروا بأننا نمنّ عليهم، بل وحتى قراءة القرآن قد تُصاب بأفة كالرياء والتفاق وكسب المال والمنافسة غير الشريفة ومُخادعة الناس وسوء الفهم والتفسير بالرأي وما إلى ذلك ممّا يستوجب لجوء الإنسان إلى الله سبحانه والاستعاذة به من شرّ كلّ الآفات والشياطين عند تلاوته القرآن الكريم.

□ قال الإمام الصادق عليه السلام: «قَارِئُ الْقُرْآنِ يَحْتَاجُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ؛ قَلْبٍ خَاشِعٍ وَبَدَنِ قَارِعٍ وَمَوْضِعٍ خَالٍ»^(١).

□ إذا تعاملنا مع القرآن الكريم من خلال التفاسير وآراء الأئمة المعصومين عليهم السلام «كِتَابَ اللَّهِ وَعِزَّتِي أَهْلَ بَيْتِي لَنْ يَفْتَرِقَا» وتدبرنا فيه بقلوب طاهرة ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾، فإنه سيكون سبباً لهدايتنا وقوة لإيماننا وزيادة في علمنا. وقد قال عليه السلام: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَمَلًا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾^(٢).

□ تشير الروايات إلى أن النبي الأكرم عليه السلام كلما أراد قراءة القرآن وتلاوته ابتدأ بالقول: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»^(٣).

التعاليم:

١ - لا تَنسُوا أَنَّ خَاطِرَ تَأْثِيرِ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ قَدْ يُصِيبُ أَكْرَمَ النَّاسِ وَأَقْدَسَ الْأَعْمَالِ. (فحتى النبي الأعظم عليه السلام بحاجة إلى أن يتعوذ من الشيطان الرجيم إذا أراد تلاوة القرآن الكريم).

٢ - الشيطان الرجيم لا يستثنى أحداً من إيقاعه في شراكه؛ لكنه عاجز عن السيطرة أو التأثير على الجميع، ﴿لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

٣ - الإيمان بالله والتوكل عليه قلعة تحمي الإنسان من الزلزل، ﴿لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

٤ - التعوذ بالله سبحانه دليل على الإيمان به والتوكل عليه، ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ... آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

(٣) تفسير كتر الدقائق.

(١) تفسير الفرقان.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٤٥.

٥ - تعوذوا بالله تعالى وهو يُعِيذُكُمْ، ﴿فَاسْتَعِذْ لِيُعِيذَكَ﴾ وَإِلَّا فَلَا مَلَاذَ وَلَا مَلْجَأَ عِنْدَ غَيْرِهِ.

٦ - ليس لنا إِلَّا الاستعاذة به وحده سبحانه، ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾.

﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾

إشارات:

□ أقسم الشيطان الرجيم بعهدة الله سبحانه وتعالى أن يبذل هو وقبيله وحزبه كلَّ جُهد لإيقاع الإنسان في حباله عبر تزيين القبائح له وقطعه الوعود الكاذبة، ومن خلال دعواته الباطلة ووساوسه الكثيرة وبالاستعانة بمن يتولَّونه من البشر. وبناءً على ذلك ينقسم الناس إلى مجاميع وفئات عدّة، منهم:

(أ) الأنبياء ﷺ حيث يحاول الشيطان الرجيم إحباط معنوياتهم ووضع العراقيل أمام أهدافهم وأمنياتهم، لكن ليس له سلطان عليهم، ﴿إِذَا تَمَنَّيَ الْوَسْوَاسُ الْخَفِيُّ الْوَسْوَاسُ الْخَفِيُّ فِي أَمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾^(١).

(ب) المؤمنون الذين يُحاول الشيطان الاتصال بهم وإغراءهم، لكن هؤلاء كذلك ينجون بأنفسهم منه بعد تذكُّرهم أوامر الله ونواهيه، ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَلِيفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾^(٢).

(ج) الأفراد العاديون الذين يستطيع الشيطان الرجيم التّفوذ إلى أعماق نفوسهم وصدورهم وإغوائهم، ﴿يُوسُوسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾^(٣).

(د) الفاسقون الذين تمكّن الشيطان من التسلّط على نفوسهم وأرواحهم فلم يجد مَقَرّاً أفضل منها ولا مُقاماً أَمْن، فسيطر على أفكارهم واستأثر بقلوبهم وكلَّ عضو من أعضاء جسدهم وسيطر عليها سيطرة كاملة، ﴿فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾^{(٤)(٥)}.

(١) سورة الحج: الآية ٥٢.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٢٠١.

(٣) سورة الناس: الآية ٥.

(٤) سورة الزخرف: الآية ٣٦.

(٥) «القرين»: المصاحب. لسان العرب. [المترجم]

التعاليم:

- ١ - مِمَّا يُؤْسَفُ لَهُ أَنَّ الْإِنْسَانَ هُوَ الَّذِي يُشْجَعُ الشَّيْطَانُ الرَّجِيمُ عَلَى أَنْ يَتَسَلَّطَ عَلَيْهِ وَيُؤَثِّرَ فِيهِ، ﴿إِنَّمَا سُلْطَنُكُمْ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾^(١).
- ٢ - لَا شَكَّ فِي أَنَّ الْمُؤَحِّدِينَ الْمُخْلِصِينَ فِي أَمَانٍ وَصَوْنٍ مِنْ حَبَائِلِ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ إِلَّا الَّذِينَ رَاحُوا يَلْهَثُونَ وَرَاءَ غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى فَهَمَّ أَوْلِيَاءُ الشَّيْطَانِ، ﴿إِنَّمَا سُلْطَنُكُمْ عَلَى الَّذِينَ... هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزَيِّرُ﴾
 ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١٠١)

إشارات:

□ يغيّر الطبيب أحياناً وصفته الدوائية الأولى التي أقرّها للمريض وذلك لحدوث تغيير في حال المريض نفسه، ومثل هذا التغيير موجود كذلك في الآيات القرآنية ويطلق عليه اسم (النسخ). وعندما كان أعداء النبي ﷺ والإسلام يرون حدوث تغيير في أمر إلهي ما، كانوا يسخرون ويقولون: «إِنَّكَ تَتَّخِذُ أَتْبَاعَكَ سَخِرِيًّا، فَهَا أَنْتَ تُغَيِّرُ وَتَبْدِلُ فِي الْقَوَانِينِ وَالتَّعَالِيمِ كُلِّ يَوْمٍ وَكَيْفَمَا شِئْتَ، فَتُلْفَقُ مَا تَشَاءُ وَتُلْغِي وَتُبْطِلُ مَا تَحِبُّ وَتَرْغِبُ».

التعاليم:

- ١ - ثَمَّةُ نَوْعَانِ مِنَ الْقَوَانِينِ (أَوْ التَّعَالِيمِ) فِي الدِّينِ: (أ) قَوَانِينُ ثَابِتَةٌ وَ(ب) قَوَانِينُ مُتَغَيِّرَةٌ، أَمَّا تَغْيِيرُهَا وَتَبْدِيلُهَا فَبِعِزَّةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَحْدَهُ، ﴿بَدَّلْنَا﴾.
- ٢ - كُلُّ قَوَانِينِ اللَّهِ ﷻ لَهَا قِيَمَتُهَا وَشَأْنُهَا فِي كُلِّ زَمَانٍ وَفِي كُلِّ الظُّرُوفِ، ﴿آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾.
- ٣ - النَّاسُ يَجْهَلُونَ سِرَّ الْقَوَانِينِ وَالتَّعَالِيمِ الْإِلَهِيَّةِ، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ...﴾.

(١) «يُجَيِّبُونَهُ وَيُطِيعُونَهُ» تفسير الصافي. [المترجم]

٤ - التغيير في القوانين الإلهية لا يدل إطلاقاً على الشك والريبة، أو الندم والتراجع، أو التطور العلمي والتطبيقي، أو الضعف والخلل في التقنين، بل هو دليل على تدبير الله سبحانه وحكمته وأخذه الظروف بالاعتبار، ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا... وَاللَّهُ أَعْلَمُ﴾.

٥ - يُحاول العدو استغلال كل الفرص المتاحة والتشبث بأي معاذير واهية، ﴿بَدَّلْنَا ءَايَةً نَّكَاتَ ءَايَةٍ... قَالُوا...﴾.

٦ - قد يكون الجهل أساس بعض الانتقادات والتهم والشبهات، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾

إشارات:

□ المقصود بـ ﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾ هو (الروح الأمين وجبريل عليه السلام)، سُمي بذلك لطهارته من الذنس وعصمته من الخطأ والزلل^(١).

التعاليم:

- ١ - لا بد من الرد على الاتهامات والشبهات، وقوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ هو رد على الشبهة الواردة في الآية السابقة.
- ٢ - نزلت آيات القرآن الكريم تدريجياً، ﴿نَزَّلَهُ﴾. (استخدم القرآن الكريم كلمتين للتعبير عن نزول آياته، الكلمة الأولى هي ﴿أَنْزَلْنَا﴾، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾^(٢)، والثانية هي ﴿نَزَّلَهُ﴾ وذلك لأن نزول القرآن الكريم حدث على مرحلتين، ففي المرحلة الأولى أنزل جملة واحدة على

(١) قال الفخر الرازي في تفسير (مفاتيح الغيب): ﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾ هو جبريل عليه السلام؛ الروح جبريل والقدس هو الله تعالى، كانه أضافه إلى نفسه تعظيماً له، [المترجم]

(٢) سورة القدر: الآية ١.

قلب الرسول الأعظم ﷺ إذ كان ذلك في ليلة القدر المُشار إليها، ثم كان نزوله عليه ﷺ على دُفَعَاتٍ وبالتدرّج على مدى ثلاث وعشرين سنة تقريباً.

٣ - كلّ ما احتواه القرآن الكريم وكلّ تغيير حدث في أيّ من آياته ودياناته في ظروف مُعيّنة، كلّ ذلك هو حقّ لا يداخله الباطل، ﴿يَالْحَقُّ﴾.

٤ - لا ريب في أنّ نزول الوحي هو شأن ربّانيّ وضرورة من ضرورات التربية الدينية، ﴿نَزَّلَهُ... مِنْ رَبِّكَ﴾.

٥ - لنزول الوحي تأثير إيجابيّ كبير على المسلمين، ﴿نَزَّلَهُ... يُثَبِّتُ﴾.

٦ - أطلبوا من الله سبحانه التوفيق في الثبات وأسبابه، ﴿نَزَّلَهُ... يُثَبِّتُ﴾.

٧ - الثبات على الإيمان هو الذي يمنحه القيمة والأصالة، ﴿يُثَبِّتُ﴾.

٨ - سلامة الروح والانقياد الكامل لله هما شرط الهداية والبشارة، ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي

يُلْحِذُونَ إِلَيْهِ أَفَعَجِبْتُمْ وَهَذَا لِسَانُ عَرَبٍ ثَبِيثٌ ﴿١٠٣﴾﴾

إشارات:

□ يبدو أنّه كان هناك شخص من غير العرب يسكن مكّة، فوجد الكُفّار في ذلك فرصة لاتهام النبي ﷺ بأنّه إنّما يأخذ معارفه وعلومه القرآنية من ذلك الشخص وينسبها إلى الله سبحانه جُزْأفاً؛ لكنّ ذلك كان اتّهاماً باطلاً وسخيفاً للاعتبارات الآتية:

- كيف يمكن لشخصين أن يتعلّما من بعضهما البعض في حين لا يعرف أيّ منهما لسان الآخر؟

- لماذا لم يدّع أيّ شخص في ذلك الوقت أنّه مُعلّم النبي ﷺ وأستاذه الذي يُملّي عليه [وهو فخر ما بعده فخر خصوصاً إذا علمنا ما وصل إليه

الرسول ﷺ من العزة والكرامة، فكيف لم ينبِر أحد إلى مشاركته في ذلك العز وتلك الكرامة^(١)؟

- ما هو السرّ في بقاء القرآن الكريم ثابتاً وخالداً على مدى (٢٣) سنة على الرغم ممّا حدث خلال ذلك من اختلاف في الظروف وتغيّر في الأحوال؟
- لماذا لم يدّع المعلم نفسه النبوة وترك النبي ﷺ يسلبه مجده وسلطانه^(٢)؟
- لِمَ لم يُجب أحد حتى يومنا هذا على تحدّي القرآن الكريم للناس بأن يأتوا ولو بسورة واحدة تشبه سُورَه؟
- كيف يُمكن لرجل أمّي أن يأتي بكلام في الجاهلية لا تزال عقول العلماء والمفكرين إلى يومنا هذا حائرة في معرفة جزء من أسرارِه؟
- وأخيراً، كيف تستنّى لرجل أعجمي أن يأتي بكتاب عجز فطاحل البلاغة وفحول الفصاحة من العرب في ذلك الوقت عن الإتيان بسورة واحدة مثل سُورَه؟

التعاليم:

- ١ - من الأساليب البلاغية التي استخدمها القرآن الكريم نقل كلام [شبهات] المعارضين إلى جانب الإجابة عنها، ﴿يَقُولُونَ... لِسَاثُ اللَّذِي يُلْهِدُونَ...﴾.
- ٢ - لا شك في أنّ الاستدلال القائم على القول: «لا دُخان من غير نار»، هو استدلال سقيم وباطل، ﴿يَقُولُونَ إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِنَزَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١٠٤)

إشارات:

□ قد تكون هذه الآية الشريفة استمراراً للجواب المذكور في الآية السابقة وأن

(٢) الزيادة بين المعقوفين من المُترجم.

(١) الزيادة بين المعقوفين من المُترجم.

المُرَاد من تعليم النبي ﷺ هو اللُّغَة؛ فكيف يُمكن لذلك الشخص الأعجمي أن يُعَلِّم الرِّسُول ﷺ وهو عربيّ كلّ تلك الفصاحة والبلاغة؟ أما إذا كان المقصود بذلك هو مضمون القرآن الكريم ككلّ فاعلموا [أيها الكافرون] أن الله لا يهدي الذين لا يؤمنون بآياته؛ أي، أن ذلك المُعَلِّم الذي لا يؤمن هو نفسه بآيات الله سبحانه ليس له أن يعرف كلّ تلك العلوم القرآنية السامية والمعارف الإلهية الحَقَّة، فما بالك في تعليمه تلك العلوم غيره^(١).

وقد تكون هذه الآية بمثابة إعلان وتحذير للذين يتهمون النبي ﷺ بأنه يأخذ دروسه لدى مُعَلِّم ما، وأن الله تعالى لن يهدي مثل هؤلاء أبداً.

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِقَائِلِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾

إشارات:

□ اتَّهِمَ الْكُفَّار فِي الْآيَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ الرَّسُولَ الْكَرِيمَ ﷺ قَائِلِينَ: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ وَأَنَّهُ [حَاشَا لِلَّهِ] يُنْسَبُ كُلُّ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ كَذِبًا وَهُتَانًا. فَردَّ اللَّهُ تَعَالَى تُهْمَتَهُمْ تِلْكَ بِقَوْلِهِ: ﴿لَسَاتُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَبِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾، وَأَضَافَ ﷻ أَنَّهُ لَيْسَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ أَنْ يُعَلِّمَ كَافِرًا كُلَّ تِلْكَ الْمَعَارِفِ وَالْعُلُومِ. وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ يُصْرَحُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَائِلًا: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَيْسَ مِمَّنْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ أَوْ يُنْسِبُونَ إِلَيْهِ مَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُ، بَلْ: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِقَائِلِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾.

□ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾^(٢).

التعاليم:

١ - الْكَذَّابُ يَظَنَّ أَنَّ الْآخَرِينَ كَذَّابُونَ مِثْلَهُ، ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ... هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾.

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ
وَقُلُوبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ
غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

إشارات:

□ في بداية الدعوة الإسلامية، عمد كفار مكة إلى تعذيب والذي الصحابي الجليل
عَمَار بن ياسر ما تسبب في وفاتهما وذلك لإسلامهما وإيمانهما برسالة
النبي ﷺ. فلما جاء دور عَمَار نفسه في التعذيب، طلب المشركون منه أن
يمدح آلهتهم ليفرجوا عن أبويه. فلم يستطع عَمَار رؤية والديه المُسْتَنِينَ وهما
يتعرَّضان إلى كل ذلك العذاب، فَأَجْرَى كَلِمَةَ الْكُفْرِ عَلَى لِسَانِهِ مَعَ أَنَّهُ كَانَ بِقُلُوبِهِ
مُصِيراً عَلَى الْإِيمَانِ، فأخلوا سبيله لكن أبويه تُوْقِيًا بسبب التعذيب! وهكذا انتقد
بعض المسلمين عَمَاراً لذكره آلهة قريش بخير واتهموه بالمُرُوق عن الإسلام.
فَأَتَى عَمَارُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَهُوَ يَبْكِي، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
يَمْسُحُ عَيْنَيْهِ وَيَقُولُ: «إِنْ عَادُوا لَكَ فَعُدْ لَهُمْ»! ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «إِنَّ عَمَاراً
مَلِيءٌ إِيمَاناً مِنْ قُرْبِهِ إِلَى قَدَمِهِ وَاخْتَلَطَ الْإِيمَانُ بِلَحْمِهِ وَدَمِهِ»^(١).

ويُطْلَق على مثل هذه الحالة (التقية) وقد أقر لها الإسلام بعض الأحكام.
لكن ينبغي علينا أن نعلم أن موارد التقية تختلف عن بعضها البعض، فأحياناً
تكون التقية واجبة وأحياناً يتطلب منا الأمر قول كلمة الحق ولو أدى ذلك إلى
التضحية بأرواحنا تاركين التقية وراء ظهورنا، وهو ما فعله سحرة فرعون عندما
شاهدوا معجزات النبي موسى ﷺ فآمنوا على الفور ولم يأبهوا بتهديدات فرعون
لهم، بل: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ وَمَا نُنْقِمُ مِنْكَ إِلَّا أَنْتَ ءَاْمَنَّا بِرَبِّنَا لَكَ
جَاءَتْنَا﴾^(٢)، فنفذ فرعون تهديده فيهم واستشهدوا عن آخرهم. وقد مدح القرآن
الكريم هذا النوع من المقاومة والصلابة والثبات على العقيدة. ومهما يكن من أمر

(٢) سورة الأعراف: الآيتان ١٢٥ و١٢٦.

(١) تفسير العياشي، ج ٢، ص ٢٧١.

فَإِنَّ التَّقِيَّةَ لَا تَدُلُّ أَبَدًا عَلَى الْإِرْتِدَادِ أَوْ الضَّعْفِ وَالْخَوْفِ أَوْ الرَّجُوعِ عَنِ الْحَقِّ أَوْ تَقَهُّقِرُ الذَّاتَ أَوْ الْإِسْتِسْلَامَ، بَلْ هِيَ نَوْعٌ مِنَ الْإِسْتِتَارِ وَالْإِسْتِرَاطِيَّةِ الْمَطْلُوبَةِ لِلْمَحَافَظَةِ عَلَى الْقُوَّةِ وَتَنْفِيزِ الْبَرَامِجِ الدِّينِيَّةِ الْإِلَازِمَةِ مِنْ دُونِ تَعَرُّضِهَا إِلَى أَيِّ خَلَلٍ أَوْ أَضْرَارٍ لَا مُبَرَّرَ لَهَا. وَقَدْ شُبِّهَتْ التَّقِيَّةُ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ بِالذَّرْعِ وَالْحِرْزِ^(١) كَذَلِكَ.

التعاليم:

- ١ - جزاء المُرْتَدِّ غَضَبُ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ... غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.
 - ٢ - كُلُّ إِنْسَانٍ مُعَرَّضٌ لِلْخَطَرِ وَالْعَاقِبَةِ السَّيِّئَةِ، ﴿كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ﴾.
 - ٣ - يَتَعَاطَلُ الْإِسْلَامُ مَعَ بَعْضِ الْحَالَاتِ الضَّرُورِيَّةِ بِشَكْلِ اسْتِثْنَائِيٍّ، ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرِهَ﴾.
 - ٤ - يَخْتَلِفُ تَكْلِيفُ الْإِنْسَانِ فِي حَالَاتِ الْإِكْرَاهِ وَالْقَسْرِ، ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرِهَ﴾.
 - ٥ - لَا قِيَمَةَ لِأَيِّ اعْتِرَافٍ يُنْتَزَعُ بِالْإِكْرَاهِ (تَحْتَ نِيرِ التَّعْذِيبِ وَالضُّغُوطِ)، ﴿مَنْ أَكْرِهَ وَقَلْبُهُ...﴾.
 - ٦ - الْإِيْمَانُ بِالْقَلْبِ هُوَ جَوْهَرُ الْإِسْلَامِ وَرُوحُهُ، ﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ﴾.
 - ٧ - قَدْ يُوَثِّرُ الْإِكْرَاهُ فِي الْجِسْمِ لَكِنْ لَا سُلْطَانُ لَهُ عَلَى الْقَلْبِ، ﴿أَكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ﴾.
 - ٨ - أَسْوَأُ الْكُفْرِ هُوَ الْإِنْفِصَالُ عَنِ الْمُسْلِمِينَ وَالْعَوْدَةُ إِلَى أَحْضَانِ الْكُفْرِ، ﴿شَرَّ بِالْكَفْرِ صَدْرًا﴾.
 - ٩ - الْإِيْمَانُ نَوْعَانِ: نَوْعٌ ارْتَبَطَ مَعَ رُوحِ الْإِنْسَانِ فَهُوَ خَالِدٌ بِخُلُودِهَا ﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ﴾؛ وَآخَرُ عَارِضٌ زَائِلٌ ﴿كَفَرَ... مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ﴾.
- ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾

وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾

التعاليم:

- ١ - التعلق بالدنيا وملذاتها وتفضيلها على الآخرة إنذار بترك الإيمان والارتداد والبؤ بغضب الله، ﴿أَسْتَحْبُوا...﴾. (ومن عوامل اللجوء إلى الماديات طلب الرفاهية والتهرب من القيود الضرورية ﴿أَسْتَحْبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾).
- ٢ - التعلق بالدنيا يدفع بالإنسان إلى شرح صدره وروحه لتقبل الكفر، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَافِلُونَ﴾ ﴿١٠٨﴾

التعاليم:

- ١ - التعلق بالدنيا واستحبابها هما سبب الغفلة عن الآخرة والعامل الرئيس لعدم إدراك الحقائق وسماعها ورؤيتها، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَافِلُونَ﴾.

﴿لَا جُرمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ﴿١٠٩﴾

التعاليم:

- ١ - لا ريب في أن من يُفضل الدنيا على الآخرة هو الخاسر الأكبر؛ لأنه أهدر طاقاته وقدراته عبثاً، ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿١١٠﴾

إشارات:

□ إذا نظرنا إلى الآيات السابقة سنلاحظ أن المسلمين ينقسمون إلى مجموعات عدة:

(أ) مجموعة استشهدت بسبب تعذيب الكفار لها من دون أن يضطّروهم ذلك إلى قول كلمة كُفر واحدة، كوالديّ عَمّار بن ياسر (عليهم الرّحمة).

(ب) مجموعة كان الإيمان يغمر قلوبهم؛ لكنهم اتّبَعوا التّقية للنّجاة بأرواحهم، مثل عَمّار بن ياسر.

(ج) مجموعة كفّرت بعد إيمانها، فأصبحوا مُرتدّين.

(د) مجموعة هاجرت وجاهدت وصبرت على الأذى في جنب الله وتابّت وحافظت على دينها بعد وقوعها في الفتنة والضلالة.

□ المرتدّ نوعان:

(أ) المرتدّ عن فطرة، وهو المولود في الإسلام عن والدين مُسلمين، ثمّ كفّر وارتدّ. أمّا حُكمه فهو القتل ومصادرة أمواله ولا يُستتاب (لما تسبّب بارتداده من توجيه ضربة إلى المجتمع الإسلامي وخلل في عقيدة الناس).

(ب) المرتدّ عن مِلّة، وهو المولود عن أب وأمّ غير مسلمين (كالتّصرائيّ مثلاً) فأسلم هو ثمّ ارتدّ، وحُكم هذا الشخص أن يُستتاب [فإن رجع وإلّا قُتل]^(١).

التعاليم:

١ - لا قيمة للهجرة إلّا مع الجهاد والصّبر والثبات والمقاومة، وإلّا فهي ليست

سوى فرار من الواجب، ﴿هَاجِرُوا... جَاهِدُوا... وَصَبَرُوا﴾.

٢ - المقاومة والصمود والجهاد هي من شروط المغفرة والرّحمة الإلهيّتين،

﴿هَاجِرُوا... جَاهِدُوا... وَصَبَرُوا... مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

٣ - لا وجود لأيّ طريق مسدودة في الإسلام، وبالإمكان مُعالجة أيّ انحراف أو

فتنة وتصحيحهما. (وكذلك الحال بالنسبة للمرتدّ، إذ بإمكانه العودة إلى

حظيرة الإيمان والتوبة والإنابة)، ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

(١) وسائل الشيعة، باب المرتدّ عن مِلّة. [المترجم]

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى
كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

إشارات:

□ لا يمكن تصوّر المشهد الرهيب يوم القيامة، حيث ترى الكافرين يتخبطون ويهلوسون في كلامهم لإنقاذ أنفسهم من عذاب يومئذ، فمرة يقولون: ﴿وَاللّٰهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾^(١)، ومرة يدعون: ﴿هَؤُلَاءِ أَصْلُونَا﴾^(٢)، وأخرى يُعاتبون أقرانهم قائلين: ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾^(٣).

التعاليم:

- ١ - في يوم القيامة يُجمَع الناس جميعاً ولا يُستثنى منهم أحد أبداً، ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾.
- ٢ - يكون الإنسان في يوم القيامة في وضع لا يسمح له بالتعرّف على أيّ شخص أو شيء، فليس في ذهنه سوى التفكير في وسيلة لتخليص نفسه وإنقاذها، ﴿تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾.
- ٣ - لا يُمحى أيّ من أعمالنا التي ارتكبتها في هذه الدنيا، بل كلّ شيء مُدَوّن ومكتوب في إمام مُبين، ﴿تُوَفَّى... مَا عَمِلْتَ﴾.
- ٤ - لا شك في أنّ حساب يوم القيامة يكون وفقاً لأعمال الإنسان نفسه، فلا ظلم ولا انتقام، ﴿مَا عَمِلْتَ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً
يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ
فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾

إشارات:

□ يعود السبب في استخدام القرآن الكريم كلمة «لباس» في هذه الآية مثلاً إلى أنّ

(١) سورة الأنعام: الآية ٢٣.

(٢) سورة سبأ: الآية ٣١.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٣٨.

كلّاً من الجوع والخوف يُحيطان بكلّ جزء من حياة الإنسان كاللباس الذي يحيط بالبدن، كما هي الحال مع كلمة «الدُّوق» المُستخدمة كثيراً في القرآن الكريم كناية عن ذلك أيضاً^(١).

التعاليم:

- ١ - التاريخ الإنساني مبني على أساس الضوابط والقوانين والسنة الإلهية، ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾.
- ٢ - ليعتبر أولو الألباب من أمثلة القرآن الكريم حول تاريخ الأقوام الماضية، ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾.
- ٣ - تحتلّ مسألة الأمن والاستقرار موضوع الصدارة في لائحة النعم وهي مُنطلق المجتمع للتطور والاتساع في الرزق والاقتصاد، ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا﴾.
- ٤ - ليس بالضرورة أن يقوم بلد أو شعب ما بتوفير كلّ ما يحتاج إليه والاكتفاء ذاتياً بشكل كامل، بل يُمكن تأمين بعض الحاجات والسّلع عن طريق الاستيراد، ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَعَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾.
- ٥ - العذاب الدنيويّ ليس سوى قطرة في بحر مقارنة بعذاب يوم القيامة، ﴿فَأَذَقَهَا اللَّهُ﴾.
- ٦ - يُعاقب مَنْ يكفر بالنعمة في هذه الدنيا أيضاً، ﴿فَكَفَرَتْ... فَأَذَقَهَا اللَّهُ﴾.
- ٧ - الكفر بالنعم سبب كافٍ لزوالها، ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِسَاسَ الْجُوعِ﴾.
- ٨ - ربما كان الفقر (التدهور الاقتصادي) والخوف (عدم استتباب الأمن) دليلاً على تجاهل المجتمع المبادئ الدينية وإهماله لها، ﴿فَكَفَرَتْ... فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِسَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾.

(١) مثل قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾، سورة آل عمران: الآية ١٠٦؛ أو ﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، سورة الزمر: الآية ٢٤. [المترجم]

٩ - يُعَاقَبُ الْكَافِرُ بِالنَّعْمَةِ جَسَدِيًّا (بِالْفَقْرِ وَالْمَجَاعَةِ) وَنَفْسِيًّا (بِالْخَوْفِ وَالْقَلَقِ)، ﴿كَفَرْتُمْ... فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١١٣)

إشارات:

□ تُعتبر هذه الآية تكملة للآية السابقة، وهي تشير إلى أن هؤلاء الكفار لم يكتفوا بنكران نعم الله وحسب بل أضاعوا أكبر نعمة معنوية قُدِّمَتْ لهم وكذبوا بها، ألا وهي نعمة إرسال الرسل والأنبياء ﷺ، فأخذهم غضب الله وعذابه نتيجة ذلك.

التعاليم:

- ١ - كان الأنبياء ﷺ بشرًا وأشخاصاً مُرسَلين من بين قومهم، وكان الكفار يعرفونهم جيِّداً؛ لكنهم فضلوا العناد والكفر، ﴿رَسُولٌ مِنْهُمْ﴾.
- ٢ - لا ينزل عذاب الله سبحانه إلَّا بعد إتمام الحجَّة على الناس، ﴿جَاءَهُمْ رَسُولٌ... فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾.
- ٣ - تكذيب الإنسان الأنبياء ظلَّم لنفسه ولدينه وإمامه، ﴿فَكَذَّبُوهُ... وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾.

﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا
وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ (١١٤)

إشارات:

□ يُجيز الدِّين الإسلامي أكل كلِّ ما هو طَيِّب وحلال؛ لكنَّه لا يسمح بتناول بعض الأشربة^(١) ولا أنواع مُعيَّنة من اللَّحوم كلَّهم الخنزير لأنَّ هذه الأخيرة نجسة

(١) مثل المُسكرات وما شابهها. [المترجم]

في جوهرها. إضافة إلى ذلك، فإن الإسلام يمنع اقتناء أي شيء مُشْتَرَى بمال مَغْصُوبٍ ويَحْرَمُه، وإن كان الشيء نفسه حلالاً في ذاته.

ولما كان كُفْران النِّعَم وتكذيب الأنبياء سبباً لنزول الغضب الإلهي، فإن الله ﷻ يأمرنا أن ننتفع بالنِّعَم المُحَلَّلَة مأكولها ومشروبها بدلاً من الكُفْر بآنِعْمه.

التعاليم:

- ١ - عن رسول الله ﷺ: «لَيْسَ فِي أُمَّتِي رَهْبَانِيَّةٌ وَلَا سِيَّاحَةٌ»^(١)، ﴿فَكُلُوا مِنَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾.
- ٢ - يُسَمَح بالاستهلاك والانتفاع ضمن إطار الحلال وليس بشكل عشوائي، ﴿فَكُلُوا... حَلَالًا طَيِّبًا﴾.
- ٣ - تتطابق تعاليم الدِّين مع الفطرة تماماً، فالمأكولات التي تنسجم مع طبع الإنسان مسموح بها، ﴿كُلُوا... طَيِّبًا﴾.
- ٤ - الدِّين الجامع تكون تعاليمه جامعة كذلك، فمثل هذا الدِّين يعتبر الطهارة الظاهرية للشيء شرطاً لاستهلاكه، ﴿طَيِّبًا﴾ وكذلك الطهارة الباطنية والحقوقية، ﴿حَلَالًا﴾.
- ٥ - الرِّزْق نعمة إلهية وهديّة ربّانية وليس نتاجاً لمهارة المرزوق أو شطارته، ﴿رَزَقَكُمُ اللَّهُ... نِعْمَةً اللَّهُ﴾.
- ٦ - ليس الأكل إشباعاً للرغبات بل هو تنفيذ للواجبات، ﴿فَكُلُوا... وَأَشْكُرُوا... تَعْبُدُونَ﴾.
- ٧ - لا عبادة ولا عبودية مع كُفْران النِّعَم، ﴿وَأَشْكُرُوا... إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

(١) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٣٤٤، باب عدم جواز السفر في غير الطاعات. [المترجم]

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أِهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ
بِئْسَ فَمَنِ اضْطَرَّ غَيْرَ بَإِغٍ وَلَا عَاوِ فَاتِ اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١١٥)

إشارات:

□ ورد مضمون هذه الآية الشريفة - مع اختلاف طفيف - في آيات أخر من سورتي الأنعام والنحل المكيّتين وفي سور أخرى كذلك مثل سورة البقرة والمائدة وهما سورتان مدنيّتان كما نعلم.

□ ﴿أِهْلَ﴾: من الإهلال وهو رفع الصوت بالتسمية عند رؤية الهلال^(١)، حيث كان المشركون يذكرون أسماء أصنامهم بصوت عال عند ذبح الأنعام فُعِبِرَ عن فعلهم هذا بالإهلال^(٢).

□ على الرغم من تحريم بعض المشروبات في هذه الآية لكنّ هذا التحريم غير مقتصر على هذه الأنواع فقط، بل ثمة أنواع أخرى محرّمة بيّنها الرسول الأعظم ﷺ بالاستناد إلى القرآن الكريم وعلينا الالتزام بها، ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(٣).

التعاليم:

١ - تحريم الشيء أو تجويزه لا يكون إلّا من قبل الله وحده، فلا يحقّ لأيّ أحد تحريم شيء أو تحليله من تلقاء نفسه أو بالاستناد إلى الخرافات والأوهام، ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ﴾^(٤).

٢ - لا يقتصر السبب في تحريم بعض المأكولات أو المشروبات وفلسفة ذلك على الأمور الصحيّة والمادّيّة وحسب، بل وكذلك لتجنّب القبائح المعنوية

(١) «الهلال: غُرّة القمر لرفع الناس أصواتهم عند رؤيته بالتكبير». تفسير مجمع البيان، الطبرسي، ج ١، ص ٤٧٥. [المترجم]

(٢) الأئمل في تفسير كتاب الله المُنَزَّل، ج ٤، ص ٤٩٤.

(٣) سورة الحشر: الآية ٧.

(٤) واضح أنّ الضمير المُستتر يعود لله سبحانه وتعالى. [المترجم]

كما هي الحالة مع الشرك، إذ يمكن اعتبار ذلك هنا معياراً أيضاً، ﴿حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ... وَمَا أَهْلَ لِنَعْرِ اللَّهَ﴾.

٣ - ينبغي أن يكون الأكل وآدابه كذلك ضمن إطار التوحيد، ﴿حَرَّمَ... وَمَا أَهْلَ لِنَعْرِ اللَّهَ﴾.

٤ - لا تُسَيِّئُوا استخدام القوانين الإلهية أو ملحقاتها، ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾.

٥ - لا وجود لأيّ طريق مسدودة في الإسلام، ففي الحالات والظروف الطارئة تُغْفَر الذنوب، ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ... فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَقُولَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلَحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾

إشارات:

□ هاتان الآيتان تشجبان وتستنكران أيّ شكل من أشكال التحليل أو التحريم الذوقي الذي لا يستند إلى قانون إلهي، وتعتبر ذلك افتراءً على الله سبحانه بهدف الحصول على متاع دنيوي قليل لا قيمة له.

التعاليم:

١ - لا تُبدوا آراءً مغلوطة أو غير مستندة إلى دليل بشأن الحلال والحرام (إلا إذا كنتم مجتهدين أو مقلّدين لعالم دين)، ﴿وَلَا تَقُولُوا... هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾.

٢ - لا تجوز البدعة^(١) في الدين أو أحكامه، ﴿وَلَا تَقُولُوا... هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾.

(١) «البدعة اصطلاحاً: كلّ ما هو باطل في حكم الشرع». أحمد فتح الله، معجم ألفاظ الفقه الجعفري، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، ص ٨٤. [المترجم].

٣ - «الْصَّدُقُ عِزٌّ وَالْكَذِبُ خُضُوعٌ»، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ... لَا يُقْلِحُونَ﴾^(١).

٤ - الحصول على عرض الدنيا هو العامل الرئيس لظهور الكثير من البدع في الدين، ﴿مَتَّعَ قَلِيلٌ﴾.

٥ - تجاوز حدود الحلال والحرام يجلب الشقاء في الدنيا والعذاب في الآخرة، ﴿لَا يُقْلِحُونَ... وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ
وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

إشارات:

□ علمنا من الآيات السابقة أن المقصود بعبارة ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ﴾ هو أن الله سبحانه حرّم علينا تناول أربعة أشياء هي: ﴿الْبَيْتَةِ﴾، ﴿وَالدَّمِ﴾، ﴿وَلَحْمَ الْخِزْيِرِ﴾، ﴿وَمَا أَهْلَ لَيْمٍ إِلَهٍ﴾. وهنا قد يتبادر إلى أذهان البعض سؤال مفاده: «إذا كان تناول الأشياء المحرّمة مقتصرًا على هذه الأربعة فلماذا تشير الآية (١٤٦) من سورة الأنعام إلى تحريم ﴿كُلِّ ذِي ظُلْفٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْفَنَرِ﴾ على اليهود، علماً أن سورة الأنعام نزلت قبل سورة النحل؟ يبدو أن هذه الآية (١١٨) من سورة النحل تُجيب عن هذا السؤال وهو أن التحريم الذي فُرض على اليهود من قبل كان المقصود به هو فرض حظر اقتصادي لمُعاقبتهم وتأديبهم، وليس لأن تلك الأشياء مُحَرّمة بالفعل.

□ ثمة نوعان من التحريم في الدين الإسلامي؛ النوع الأول تحريم دائم ويشمل عموم الناس، ونوع آخر موقت يُفرض على جماعة مُعيّنة، ﴿حَرَمْنَا... كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

(١) وقيل في الأمثال أيضاً: مَنْ عَرِفَ بِالْكَذِبِ لَمْ يَجُزْ صِدْقُهُ. أبو الفضل الميداني، مجمع الأمثال، ج ٢، ص ٣٠٩. [المترجم].

التعاليم:

١ - يُمثّل الحظر الاقتصادي من خلال تحريم بعض أنواع الأطعمة أحد أنواع العقوبات الإلهية التي استخدمها الله سبحانه ضدّ بعض الأمم السابقة، ﴿حَرَمْنَا... كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ يَجْعَلُ لَهُمْ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾

إشارات:

□ «الجهل»: نقيض العلم وعدم تدبّر العاقبة، وكلمة «الجهالة» أن يفعل الشخص فعلاً بغير علم، وتُطلق كذلك على الفعل الذي يقوم به الإنسان عن هوى يغلبه. ووردت كلمة (الجهالة) بالمعنى الأخير في كلّ من الآية (٥٤) من سورة الأنعام: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا يَجْهَلُ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ...﴾، والآية (١٧) من سورة النساء: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ الشُّوْءَ يَجْعَلُ لَهُمُ اللَّهُ تَوْبَةً مِنْ قَرِيبٍ...﴾.

□ وفي الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام: «أَنَّ كُلَّ مَعْصِيَةٍ تَصْدُرُ عَنِ الْعَبْدِ هِيَ جَهَالَةٌ؛ إِذَا الْجَهَالَةُ هِيَ الَّتِي تَدْعُو الْعَبْدَ إِلَى الْمَعْصِيَةِ وَتَزِينُهَا فِي عَيْنِهِ».

التعاليم:

١ - لا وجود لأيّ طريق مسدودة في الإسلام، فقد أبقى باب الإصلاح والترميم مفتوحاً للإنسان، ﴿ثُمَّ تَابُوا﴾.

٢ - قبول التوبة من شؤون الربوبية وأسلوب إلهي للتربية، ﴿رَبَّكَ﴾.

٣ - لا تكون التوبة حقيقة إلا إذا رافقها إصلاح لما قد سبق، ﴿تَابُوا... وَأَصْلَحُوا﴾.

٤ - طريق التوبة مفتوحة أمام الجميع، ﴿لِلَّذِينَ﴾.

٥ - الذنوب التي تُرتكب بسبب تغلب هوى النفس لا بسبب العناد والإنكار، هي

أقرب إلى العفو والمغفرة، ﴿عَلِّمُوا الشُّوَّاءَ بِجَهْلِهِ ثُمَّ تَابُوا﴾.

٦ - لا شك في قبول الله سبحانه التوبة، وجملة ﴿فَأَتَتْ... لَفَقُورٌ﴾ هي جملة اسمية.

٧ - إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْمُنْذِبِ وحسب بل هو غفور ورحيم معه كذلك، ﴿لَفَقُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ خَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

إشارات:

□ اعتبر الله سبحانه في هذه الآية إبراهيم عليه السلام بمثابة أمة بأكملها، وقد أبدى المفسرون آراءً مختلفة ومتعددة حول معنى هذه الآية الشريفة، منها:

- «أنه كان على دين لم يكن عليه أحد غيره فكأنه أمة واحدة»^(١).
- «وعلى الجملة فقد كان غارقاً في بحار التوحيد مستغرقاً في حُبِّ الإله المعبود»^(٢).
- «عن أبي العبيدين أنه جاء إلى عبد الله بن مسعود فقال: من نسأل إذا لم نسألك؟ أخبرني عن الأمة. قال: الذي يُعَلِّمُ النَّاسَ الْخَيْرَ»^(٣).
- المراد بالأمة هو القائد والمقصود وإمام العابدين جميعاً^(٤).
- «يتسع شعاع شخصية الإنسان في بعض الأحيان حتى ليتعدى الفرد والفردين والمجموعة فتصبح شخصيته شخصية أمة بكاملها»^(٥).
- لأنَّ قوام الأمة كان به.

(١) تفسير الصافي، ج ٣، ص ١٦٠.

(٢) تفسير الشيخ المراغي، ج ١٤، ص ١٥٨.

(٣) تفسير الطبري، ج ١٧، ص ٣١٦.

(٤) تفسير الفرقان.

(٥) تفسير الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٨، ص ٣٦١.

- لأنه يُقال للرجل العالم أمة، إذ باستطاعة العالم أن يقود أمة بأكملها.
- «لأنه قام بعمل أمته، وقيل لأنه انفرد في دهره بالتوحيد فكان مؤمناً وحده والناس كفاراً»^(١).

التعاليم:

- ١ - يُعتبر تكريم أولياء الله والتعريف بالقدوة والأسوة والأبطال في مجال التوحيد أسلوباً تربوياً، ﴿إِنَّ إِبرَاهِيمَ﴾.
- ٢ - العدد أو الكم ليس مهماً، المهم هو الجودة والحركة الإبداعية، ﴿أُمَّةٌ﴾.
- ٣ - لا تخشوا العزلة وأنتم تسلكون طريق الحق، ﴿إِنَّ إِبراهيمَ كَانَتْ أُمَّةٌ﴾.
- ٤ - ينبغي للإنسان أن لا يكون محدوداً بالبيئة أو المجتمع أو التاريخ، ﴿وَلَوْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.
- ٥ - كان إبراهيم عليه السلام مخلصاً في العمل ﴿حَنِيفًا﴾، والعقيدة ﴿وَلَوْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.
- ٦ - ليس لشيء من المماشاة أي تأثير على عقيدة الموحّد (إبراهيم عليه السلام) كان يعيش مع عبدة الشمس والنجوم والكواكب، وكان يُماشيه في بعض الأحيان فيشير إلى نجم أو كوكب مثلاً فيقول: ﴿هَذَا رَبِّي﴾^(٢)، ولكن بمجرد أن يأفل ذلك النجم أو يغيب يعود فيقول: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾^(٣)؛ ولذلك وصفه الله سبحانه يصف خليله عليه السلام في هذه الآية بقوله: ﴿وَلَوْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.
- ٧ - إن ما يُكسب الإنسان أهمية وقيمة هو عبادته الله تعالى عن علم ﴿فَانْتَبَ﴾، مع الاعتدال وتجنب الضلال ﴿حَنِيفًا﴾، وخلوص في القلب، ﴿وَلَوْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

(٣) السورة نفسها: الآية ٧٦.

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٦، ص ٢٠٨.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٧٦.

﴿شَاكِرًا لِأَنْعَمِ أَجْبَنَهُ وَهَدَنَهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾
وَأَتَيْنَهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

إشارات:

- ﴿أَجْبَنَهُ﴾ من «الحِجَابَةِ»، بمعنى الجَمْع والاستيفاء، واجتباء الله البعض معناه انتشالهم من التشّت والعقائد المختلفة والمحافظة عليهم واستخلاصهم لنفسه.
- من النُّعْم التي وهبها الله سبحانه إبراهيم ﷺ الاسم الطيّب والمشهور والذّرة الصالحة وبناء الكعبة الشريفة والعمر المديد والدّعاء المُستجاب والمال الكثير، ﴿وَأَتَيْنَهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾.
- يُعَدّد الله ﷻ في هذه الآيات خمس خصال لإبراهيم ﷺ ثمّ يشير إلى منحه خمس مقامات (أو منازل) إزاءها. فأما الخصال فهي: ﴿أَمَّةٌ﴾؛ ﴿قَائِمًا﴾؛ ﴿حَنِيفًا﴾؛ ﴿وَلَوْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾؛ ﴿شَاكِرًا﴾. وأما المقامات التي وهبت له فهي: ﴿أَجْبَنَهُ﴾؛ ﴿وَهَدَنَهُ﴾؛ ﴿فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾؛ ﴿فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾؛ ﴿أَتَيْنَ مَلَّةً إِبْرَاهِيمَ﴾ - وهذه الأخيرة سيأتي ذكرها في الآية التالية.

التعاليم:

- ١ - اجتباء الله الفرد لا يكون إلّا على أساس استحقاق ذلك الفرد وجدارته، ﴿قَائِمًا... حَنِيفًا... شَاكِرًا... أَجْبَنَهُ﴾.
- ٢ - لا ريب في أنّ من يجتبيه الله سيصل إلى مُرادِهِ، ﴿أَجْبَنَهُ... وَهَدَنَهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.
- ٣ - دعاء الأنبياء ﷺ مُستجاب. (فإبراهيم ﷺ كان قد طلب من الله سبحانه أن يُلحقه بالصّابرين، ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّقْ بِالصَّالِحِينَ﴾^(١)، وهذه الآية تشير إلى أنّ الله تعالى استجاب دعوة نبيّه فقال: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾).

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ
خَنيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

التعاليم:

- ١ - على الرغم من اختلاف الأساليب التي استخدمها الأنبياء ﷺ في دعوتهم وتباين ظروف كلّ منهم فإنّ طريقهم واحد، وكلّهم كانوا مأمورين بالإيمان والاعتراف بمن سبقهم من الأنبياء، ﴿اتَّبِعِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾.
- ٢ - من الواضح أنّ استخدام تعابير عدّة لمدح إبراهيم ﷺ بشكل متواصل ومكرّر في آيات متتالية، إنّما يدلّ على خلوص إبراهيم ﷺ الكامل. (لاحظ تكرار كلمة ﴿خَنيفًا﴾ مرتّين والإشارة مرتّين كذلك إلى أنّه «﴿خَنيفًا﴾» لم يكن مُشركاً: ﴿وَلَزَّ بِكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾).

﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ
لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

إشارات:

- تعرّض اليهود لتأنيب الله سبحانه ومُعاقبته وتأديبه مرّات عدّة بسبب عنادهم وبغيتهم. ومن بين تلك الحالات ما أشارت إليه الآية (١١٨) من هذه السورة في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا﴾، ومُعاقبة أخرى تمثّلت في إجبارهم على اعتبار يوم السبت عطلة عن العمل، وهو ما بيّنته هذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها، فشكر البعض ذلك لله تعالى بينما امتنع البعض الآخر وكفر وراح يتحايل على الأمر وبدأ بالإتفاف عليه، فباءوا بغضب من الله وعذاب شديد.
- إذا أخذنا الآية السابقة بالاعتبار، فقد يكون معنى هذه الآية كالتالي: «يا أيّها النبي! اتّبِعِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ الذي أمرناه بأن يجعل يوم الجمعة عطلة رسمية لأُمَّته، ولم تحدّد يوم السبت عطلة لليهود إلّا مُعاقبة لهم وتأنيباً على ما ارتكبهوا، لكنّ الحقّ هو أنّ يوم الجمعة هو العطلة الرّسمية الصحيحة التي كانت مفروضة منذ عهد إبراهيم ﷺ».

التعاليم:

١ - مِن أَوَامِرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ مَا هُوَ نَاجِمٌ عَنْ غَضَبِهِ وَمِنْهُ مَا هُوَ نَابِعٌ مِنْ رَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ، ﴿جُعِلَ اللَّتَبُ عَلَى الَّذِينَ...﴾.

﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (١٢٥)

إشارات:

□ تتضمن هذه الآية والآيات التالية حتى آخر هذه السورة، تتضمن عشر وصايا أخلاقية سامية.

□ تقدم هذه الآية لائحة شاملة لكل المسؤولين والمُعَلِّمين والأساتذة والعلماء، وينبغي عليهم جميعاً الالتزام بها لكي ينجحوا في تعاملهم مع الآخرين من مختلف المستويات والطبقات بأساليب متنوعة ومتعددة؛ إذ لا يمكن التعامل مع الناس جميعاً بأسلوب واحد لأن كل فرد يتميز بنفسية معينة وقابلية محددة ما يتطلب التعامل معه بما يعيه ويفهمه. وهكذا يمكننا التحدث مثلاً إلى الخواص من الناس بالحكمة والاستدلال، وإلى عامة الناس بالموعظة الحسنة، وإرشاد المعارضين ومجادلة المناوئين بالتي هي أحسن.

□ المقصود بـ﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ هي أن يكون الواعظ ملتزماً بما يعظ به الآخرين وعاملاً به، أما المجادلة ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ فهي التعامل مع الآخرين من دون إهانتهم أو إثارة مشاعرهم بنحو سلبى أو خاطئ.

التعاليم:

١ - الدعوة هي أولى واجبات الأنبياء ﷺ، ﴿أَدْعُ﴾.

٢ - لا بدّ للدعوة من أن تتخذ صبغة إلهية، ﴿إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾.

- ٣ - للدعوة مستويات عدّة، (الحكمة؛ الموعظة؛ المجادلة بالتّي هي أحسن؛ فالحكمة تُمثّل السبيل العقليّ بينما تُمثّل الموعظة السبيل العاطفيّ).
- ٤ - ينبغي أن تكون الموعظة حسنة في حين لا بدّ للجدال من أن يكون أحسن، ﴿وَالْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ... يَأْتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؛ (أي، أن يكون الحُسن في المضمون والأسلوب والبيان معاً).
- ٥ - من أساليب الدّعوة بيان آثار وبركات المحاسن والحسنات وتبيين آفات ومخاطر المساوئ والسيّئات، ﴿يَا الْحِكْمَةَ﴾ (والحكمة هي معرفة مصالح الأمور ومفاسدها بواسطة العلم والعقل).
- ٦ - إنك - أيّها النبيّ - مسؤول عن الأداء لا عن النتيجة، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.
- ٧ - الحكمة والبرهان حَسَنان دائماً، أمّا ما يتعلّق بالموعظة والمجادلة فقد يكون الأسلوب المُتَّبَع فيها حسناً أو سيّئاً. (لاحظ أنّ القرآن الكريم لم يستخدم صيغتي التفضيل «حَسَن» أو «أَحْسَن» فيما يخصّ موضوع الحكمة).
- ٨ - يُحاول الإسلام تغذية أتباعه فكرياً ﴿يَا الْحِكْمَةَ﴾ وروحياً ﴿وَالْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ﴾، إضافة إلى أنّه يتعامل مع مُعارضيه بالمنطق، ﴿وَجَدِلْهُمْ﴾.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُمْ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾

إشارات:

□ تذكر الروايات أنّه لما استشهد حمزة بن عبد المطلب عليه السلام - عمّ النبيّ ﷺ - في غزوة أحد وقطعت بعض أعضاء بدنه الشريف، ورأى الرسول ﷺ ما صُنِعَ به، قال: «لَئِنْ ظَفَرْتُ لَأُمَثِّلَنَّ وَأُمَثِّلَنَّ!» فأنزل الله هذه الآية التي تُطالب المسلمين باتباع العدل والصّبر عند الانتقام من الأعداء، وعندها قال رسول الله ﷺ: «أَصْبِرُوا أَصْبِرُوا!»^(١).

(١) انظر مثلاً: التفسير الأصفى، الجزء الثاني، ص ٢٣٩. [المترجم]

نعم، إذا أردنا تعريف الإسلام على حقيقته، لا بدّ لنا من إجراء مقارنة بين تصرف المشركين في معركة أحد وبين تصرف الرسول ﷺ عند فتح مكة وعفوه عن المشركين جميعاً ومن آذوه والمسلمين.

التعاليم:

- ١ - علينا اتباع العدل والإنصاف حتى مع أعدائنا والذين اضطهدونا، ﴿يُمِثِّلُ مَا عَوقِبْتُمْ﴾.
- ٢ - المعاملة بالمِثْلِ حقّ طبيعيّ ودينيّ، ﴿فَعَاقِبُوا﴾.
- ٣ - إنّ في الصبر لحلاوة يفترها إليها الانتقام، ﴿وَلَيْنَ صَبْرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ﴾.
- ٤ - في حالات الاضطراب والتشكيك، أكدوا على وعودكم بشكل قاطع. (لاحظ أنّ جملة ﴿لَهُوَ خَيْرٌ﴾ تتضمن تأكيداً لا يوجد مثلاً في جملة «فهو خير»).
- ٥ - يجب اتباع القانون الأخلاقي حتى في الحروب، ﴿يُمِثِّلُ مَا عَوقِبْتُمْ بِهِ وَلَيْنَ صَبْرْتُمْ﴾.
- ٦ - القانون بمفرده لا يكون فعالاً؛ إذ لا بدّ من وجود العنصر الأخلاقي أيضاً. (فعبارة ﴿يُمِثِّلُ مَا عَوقِبْتُمْ﴾ هي بمثابة قانون عام في حين أنّ جملة، ﴿وَلَيْنَ صَبْرْتُمْ﴾ تُشير إلى العامل الأخلاقي).
- ٧ - لا تظنّوا أنّ صبركم مُضِرّ لكم وفي مصلحة أعدائكم، بل على العكس، سيكون في مصلحتكم أكثر منهم. (فسيأتي يوم تُمسكون فيه بزمام النصر وسيصحو وجدان أعدائكم وسيرى العالم كلّهُ كيف تصرفتم، وعندها فقط سيعلم الجميع ما أنتم عليه من عظمة وكبرياء وشموخ)، ﴿لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّكِرِينَ﴾.

﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ

وَلَا تَلُفْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾

إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾

إشارات:

□ لا ريب في أنّ الدّعوة بالحكمة والموعظة والمُجادلة الحسنة ليست بالأمر

السهل وذلك لوجود طائفة من الناس أقسمت على مواصلة العناد واللجاجة ورفض كل دعوة، ومنهم من تعهد بالتأمر والصد عن سبيل الله، ومنهم من يحاول إقصاء الطرف الآخر للوصول إلى أهدافهم المشؤومة من خلال قذف التهم والشبهات والاستهزاء والحصار الاقتصادي وشن الحروب واستخدام كل أنواع التعذيب والقمع. لذلك جاءت هاتان الآيتان لثطيب خاطر النبي ﷺ وتمنحه الثقة بنفسه وتدلّه على ما يجب فعله في دعوته حتى لا يدخل في طريق مسدودة.

□ وفي تفسير (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل) ذكر المؤلف أن سورة النحل ضمت الكثير من النعم والآلاء الكفيلة بتشجيع الإنسان على شكر الله سبحانه. وفي ما يلي سنشير إلى النعم الأربعين المذكورة في هذه السورة:

- السماء: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ﴾.
- الأرض: ﴿وَالْأَرْضِ﴾.
- ذوات الأربع: ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾.
- اللباس: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾.
- منافع الحيوانات: ﴿وَمِنْ نَفْعِ﴾.
- اللحوم: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.
- الزينة والجمال: ﴿فِيهَا جَمَالٌ﴾.
- الحمل والانتقال: ﴿وَتَحْمِلُ أَوْقَالَكُمْ﴾.
- الهداية: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾.
- الماء: ﴿وَمِنْهُ شَرَابٌ﴾.
- المراعي: ﴿فِيهِ يُسِيمُونَ﴾.
- الفواكه والأثمار: ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾.
- الليل والنهار: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾.
- الشمس والقمر: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾.

- الكواكب والنجوم: ﴿وَالنَّجُومَ﴾.
- النعم والمخلوقات الأرضية ذات الألوان المختلفة: ﴿ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا﴾.
- البحار وما تحويه من كنوز: ﴿سَحَّرَ الْبَحْرَ...﴾.
- حركة السفن: ﴿وَتَرَى الْفُلَ مَواخِرَ فِيهِ﴾.
- الجبال: ﴿وَاللَّيْنِ فِي الْأَرْضِ رَوْسًا﴾.
- الروافد والأنهار: ﴿وَأَنْهَارًا﴾.
- المعابر والطرق: ﴿وَسُبُلًا﴾.
- العلامات الطبيعية: ﴿وَعَلَمَاتٍ﴾.
- الاهتمام بالكواكب والنجوم: ﴿وَيَا نَجْمِمْ هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.
- إخضرار الأرض: ﴿فَأَخْيَا بِهِنَّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.
- اللبن (الحليب) الخالص: ﴿لَبَنًا خَالِصًا﴾.
- منتجات الأثمار: ﴿نَتَجِدُونَ فِيهِ سَكَرًا وَمَرْزُقًا حَسَنًا﴾.
- الشهد والعسل: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ﴾.
- الأزواج: ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾.
- البنون والأحفاد: ﴿مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَفَدَةٍ﴾.
- الرزق الطيب: ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾.
- نعمة السمع: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ﴾.
- نعمة البصر: ﴿وَالْأَبْصَارَ﴾.
- نعمة العقل والروح: ﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾.
- المساكن الثابتة: ﴿مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾.
- المساكن المتحركة: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾.
- الملابس بأنواعها: ﴿وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمَتَاعًا﴾.

- نعمة الظلّ: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلًّا﴾.
 - الملاجئ الآمنة في الجبال: ﴿مِنَ الْجِبَالِ أَكَنَاتٌ﴾.
 - نعمة اللباس الذي يقي الإنسان من الحرّ والبرد: ﴿سَرَابِيلٌ تَقِيكُمُ...﴾.
 - نعمة الدروع والملابس الحربية: ﴿تَقِيكُمْ بِأَسْكُمْ﴾.
- من الواضح أنّ الله ﷻ لم يذكر كلّ هذه النعم ليمنّ متته أو يطالب بمدحه أو لمجرد إشباع الغرائز، فهو تعالى مُنْزّه عن كلّ ذلك، بل ليشجّع الإنسان على شكر تلك النعم والتدبّر فيها والتسليم لأمره ومواصلة ذكره ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ سورة النحل: الآية ١٤؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ سورة النحل: الآية ٩٠؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْفَكُرُونَ﴾ سورة النحل: الآية ٤٤؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تَسْلُمُونَ﴾ سورة النحل: الآية ٨١؛ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ سورة النحل: الآية ٩٠.

التعاليم:

- ١ - الصبر (وكلّ توفيق من التوفيقات الأخرى) من عند الله سبحانه: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾.
- ٢ - ينبغي للمبلّغ أن يكون صبوراً: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ... وَأَصْبِرْ﴾.
- ٣ - الصبر والنصر رفيقان منذ الأزل، فبعد الصبر يأتي النصر: ﴿وَأَصْبِرْ... إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾.
- ٤ - الإيمان بالعون الإلهي والممدد السماوي يؤدي إلى سعة الصدر والتحمل والصبر: ﴿أَصْبِرْ... إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾.
- ٥ - التقوى والإحسان وسيلتان للفوز بدعم الله وحمايته: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا... تَخْسِرُونَ﴾.

«والحمد لله ربّ العالمين»

الفهرس

١٣١ - ٥	سورة هود
٢٩٦ - ١٣٣	سورة يوسف
٣٦٥ - ٢٩٧	سورة الرعد
٤٢٠ - ٣٦٧	سورة ابراهيم
٤٦٨ - ٤٢١	سورة الحجر
٥٨٨ - ٤٦٩	سورة النحل